

الحضارة والمأساة فى تاريخ الاسلام

من الاندلس الى افريقيا جنوب الصحراء
والبعد الاسلامى فى سياسة مصر
الخارجية



يا غافلاً وله في الدهر موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقظان

الشاعر الاندلسى أبي البقاء الرندي

واذا فاتك التفات الى الماضى فقد غاب عنك وجه التأس

احمد شوقي -- أمير الشعراء

السفير محيي يوسف

موضوعات الكتاب

- الحضارة الإسلامية ومارتها في الاندلس .
- مد الإسلام وحضارته في افريقيا جنوب الصحراء.
- البعد الدينى فى صراعات القارة الافريقية.
- البعد الاسلامى والافريقى فى سياسة مصر الخارجية .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكاتب

يتعامل هذا الكتاب مع فترة نضال شرس من تاريخ الاسلام ؛ نضال عم عالمه الممتد من الاندلس الى جنوب الصحراء الافريقية الكبرى ؛ وانتقاء المنطقتين موضوعا لهذا الكتاب يأتي من منطلق ما تعرضنا له من هجمة شرسة استهدفت بالمحن البشر والعقيدة واحالت حياة شعوبها جحيما ، وكان القاسم المشترك الذي تأسست عليه عدوانية هذه الهجمة وشراستها هو إنتماؤهما للاسلام ؛ فمأساة المورسكيين التي توجت الملحمة الاندلسية شكلت مأساة ابدية في تاريخ الاسلام لن تندمل جراحها ابدا ، تلك المأساة التي فقد فيها الاسلام زهرة منارته في غرب العالم ؛ ذلك الغرب الذي حملته تلك المنارة من غيابة قرونها الوسطى لتلمس طريق الحضارة الحديثة .

وعبرية هذه المنارة الصرح تنبع من انها قامت وعلت وهي تغالب محنة الاحتضار، محنة لم تمنعها من العطاء لمن استهدفوا وجودها ، فأعطتهم رحيق الحضارة من منبع حضارة قادت الانسانية فترة ما من تاريخها ؛ ودائما ما شكلت عبقرية الاندلس عقدة عند اوروبيي عهد النهضة بفضلها المباشرة على الحضارة الاوروبية ، فعندما بلغت بهم نشوة انطلاقتهم الحضارية مبلغا من الزهو اصبح لايمكنهم معه تقبل ان يذكرهم احدا بماضي مظلم تبدد بفضل حضارة دين يناصبونه شديد العداء والكراهية ؛ فاستفزت تلك العقدة مخزون العداء للاسلام منفجرا شره مستطيرا في الاندلس وانتشرت روافده على سلوك الهيمنة الاوروبية القبيح في افريقيا المسلمة .

اما تاريخ حضارة الإسلام في افريقيا فإنه يمثل فصلاً فريداً ليس فقط في صرح الحضارة الافريقية وانما أيضا في تاريخ حضارة الإسلام ، فبالإسلام انفتحت جنوب الصحراء علي الحضارة الإنسانية ؛ وبه انفلتت من برائن الجمود وكوابح التقدم فتجاوزت العزلة التي احكمت قبضتها على المنطقة لقرون استكانت لها خالدة فيها أبدا ؛ فجمود الغرب الافريقي أصبح عقدة شكلت أزمة حضارة انفكت على يد الاسلام ؛ فمن لغته عرفت المنطقة أبجديتها الاولى وباندماجها في عالم الاسلام الكبير تعاضلت مكانتها لمرتبة ما كانت لتنتهي لها الا من خلال الاندماج في صلب حضارة الاسلام فارتقت لتصبح خلال قرون قليلة رائدة في عالم الحضارة ولها خصوصيتها من ذخائر الثقافة ؛ فاقت بها سائر ثقافات جنوب الصحراء حتى ذاع صيت كعبتا علمها " تمبكتو " و " جني " (1) ، وبما إقتبسه من حضارة الاسلام قفز الاقليم بنظامه السياسي لأول مرة ليرتقى لمصاف النظم الامبراطورية بجيد تنظيمه وتوسعها ومبادرتها بالكشوف الجغرافية عبر الاطلنطى الى العالم الجديد سابقة الكشوف الاوروربية ، وإزدهر اقتصادها بتضخم مواردها لاتساع رقعتها من ناحية وإنتفاحها على دائرة التجارة العالمية لأول مرة بفضل إنضمامها الى عالم الاسلام.

واذا ما تقصينا اثر حضارة الاسلام في الشرق الافريقي ؛ نجد ان ما تحقق فيها قد اذهل " فاسكو دي جاما " وبحارته عندما خطوا على الساحل الشرقي لافريقيا في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر ، فقد اصابتهم الدهشة وهم يرون مدنا مزدهرة عامرة بالسكان على قدر كبير من التمدن والمعرفة بالعالم الخارجى ؛ مؤسسة على طرز تماثل في روحها القليل من مدن اوروبا التي لم تعرف هذا القدر من الحضارة آنذاك ؛ و لم يقتصر هذا الاعجاب على العمران وانما إمتد الى التفوق التقنى لشعوبها في الملاحة البحرية وادواتها فيشير مؤرخ الاسطول البرتغالى في معرض حديثه عن بحارة هذه المدن الى معرفتهم الواسعة بطرق الملاحة وحيازتهم لاجهزة الملاحة المتقدمة ؛ فيقول انهم كسائر البحارة العرب على دراية ومعرفة اكبر بالعالم ، وانهم يعرفون جيدا طرق الملاحة الدولية (الهند وما ورائها) ؛ ولديهم من الاجهزة والخرائط الملاحية ما يماثل ما كان في حوزة البرتغاليين أن لم تكن اكثر دقة (كانت الكشوف البحرية الاوروربية آنذاك ما زالت في بدايتها) ، وادهش ابن بطوطة ما أدهش البرتغاليين عند زيارته المنطقة في وقت مقارب.

وبالنسبة لاسلوب معالجتى للموضوع فاستمичكم عذرا للتطرق المستفيض لبعض جوانب الحضارة الاسلامية ، فإنما قصدت منه التذكير بتراث نادر للامة غاب عن مناهجها التعليمية وبجهله الكثيرون منا ؛ وليس الغرض من ذلك التغنى بأمجاد الماضى بقدر ما هو إعتصارا للعبر من الالم على مجد أضاعه أهله ولم يستوعب لا هم ولا اللاحقون دروسه عبر القرون ؛ فقد يكون فى التذكرة دواء لإستنهاض الهمم ؛ فإستثارة الشجن على مأساة ضياع أمة مازال مجدها قائما ينعى تاريخها مصيرها اصبح غصة ومرارة فى

⁽¹⁾ رشح تراث تمبكتو المعمارى الفريد ؛ المدينة في عام 2007 لتكون ضمن عجائب الدنيا السبع الجديدة للقرن الواحد والعشرون.

خلق كل مسلم ؛ قد ينزع بهذه الامة للوحدة والعمل الجاد يجنبها ما يُحَاك لها من مؤامرات لا تموت ولا تخمد ، فالقصد فى المنتهى تعريف الجاهل وتذكير الغافل بعبء التاريخ وسُنن الغابرين لعنا لا نعاود البكى اطلاقا وفرصا ضائعة ؛ نقعد بعدها ملومين محسورين ننشد الحكمة العربية الخالدة التى جلت تاريخنا الحديث:

" وُرُب يوم بكيت منه فلما .. صرت فى غيره بكيت عليه "

وأود أن أنبه بأننى حاولت ان ينحصر دورى بالنسبة للسرد التاريخى وهو اساس الكتاب ؛ بعرض الحوادث وتنسيقها وإعادة صياغتها بما يخدم الموضوع ؛ وإضافة إيضاحات وتعليقات فى اطار من خلاصات عامة جامعة هنا وهناك بعيدا عن المساس بمضمون الحدث ؛ ومن هذا المنطلق فان رؤيتى قد تختلف او تتفق مع هذا او ذاك ، فالتاريخ مادة مرنة تتفاوت بشأنه التقديرات من زمن لآخر ومن شخص لآخر طبقا لاختلاف محددات الفكر ومنظور الرؤى ؛ وهو ما يفرض آثاره بالتبعية على الخلاصات والاحكام . واسجل ان من يتصدى لرواية التاريخ يصعب عليه الامر اذا ما حاول لملمة الصورة من مختلف جوانبها لجمع الاحداث فى نقطة مركزة فى نطاق مختصر بمنطق سلس يتكامل فيه العرض بدون تضارب ليصل الى القارئ مفهوما جامعا شاملا ؛ ويزداد الامر صعوبة مع ما لاحظناه من إلتباس الامر على العديد من المراجع الموسوعية فى معالجتها الحدث الواحد حال تعدد مصادره سواء من ناحية مضمونه او تاريخه استنادا لتقاويم مختلفة ما بين هجرى وميلادى وامهرى؛ كما تتضارب فى روايتها للحدث الواحد استنادا لمصدرين متضاربين اذا ما جاء فى موقعين متباعدين دون ان تدركه ذاكرة الموسوعة لمحاولة تحقيقه، وهو ما استغرق منا الكثير من الوقت للتدقيق، كما ان هناك تضارب بين الاسماء فى السجلات العربية والاسبانية فالاخيرة تسمى ملوك الاندلس فى بعض الاحيان بأسماء مختلفة عن مثيلتها العربية فالسيد ابو عبد الله محمد المعروف بالزغل تسميه المراجع الاسبانية محمد الخامس ومن غير المؤكد التوثق من تطابق الشخصيتين .

وحرصا منا على عدم اسقاط ايا من الاحداث ، لما فى ذلك من فائدة عند التدقيق عند ظهور معلومات او حقائق جديدة ؛ فقد اوردنا الروايات المتعددة للحدث الواحد على اختلافها تسجيلا للمزاج العام للحدث فى سياقه الزمنى والتاريخى ولاستبيان مزاج الرأى العام وتناقضاته ؛ مع ابداء اقتناعنا بشأنها وترك الامر لحكم القارئ والى ما يُستجد من معلومات لم ندرکها ؛ واضيف ان استفاضتى فى ذكر اسماء مواقع ومدن فى الاندلس والسودان والحبشة جاءت ليعايش كل من زار تلك البلاد او على دراية بمدنها حركة التاريخ معاشة اهله ؛ وليستشعر القارئ الملم بالخرائط حجم حركة التاريخ وضخامة المسافات وحركة الثقافات والجيوش والشعوب.

وفي ضوء تماس ظلال الدين عند تناولنا تاريخ المنطقتين ؛ فقد يتبادر للذهن ما قد يحتسبه غير الواعون بوحدة العقيدة السماوية أنه صدام بين شريعتنا السماء الشقيقتين المسيحية والإسلام ؛ وهو ما ليس له مجال فى ضمير الكاتب من منظوره الإيماني بوحدة عقائد السماء وعدم إكمال ايمان المسلم ما لم يؤمن بجميع الأنبياء ويُجلهم بحق سمو مقامهم وقدرهم ، وادراكا منه لما تقدم فىرى أن ما يحدث من اصطراع بين اتباع العقيدتين لا علاقة له باصولهما ولا ينسحب عليهما ، فهو فى حقيقته صدام " سلوكيات " تابعيهما المترعة بالمصالح الذاتية الضيقة ، فالماذهب ليست هى مصدر عدم التسامح والاصطراع بل الاشخاص هم مصدر كل هذا الابتلاء ، وصدام اهل العقائد أمر طبيعى لاختلاف وجهات النظر والتفسير واحيانا يكون مقصودا كمسعى لاستقطاب النفوذ وكسب دعم التابعين ، ومن هذا المنظور فمن الطبيعى ايضا ان تكون هناك صدامات بين اهل العقائد الرئيسية فيما بينهم ولم تسلم منه العقيدة الواحدة ؛ والتاريخ حافل بصراعات من كلا النوعين .

وعندما ينقلب الامر فى مرحلة ما الى الصدام بدافع من المصالح الذاتية للمستفيدين فإن الايمان يتراجع بضغط هذه المصالح وتنشط السياسة واساليبها الماكرة ويتجمع فى ظلها الاضداد وتطغى اخوة المصالح على اخوة الايمان ، ويسوق فيها طرفا الصراع المبررات الكهنوتية التى لا تنطلى الا على الجهلاء لشحن الصدام ؛ وتقع فى هذا الاطار محاولات " فاسيليدس " ملك الحبشة الذى جمعته المصلحة مع اعداء الامس ضد اعداء اليوم إخوانه فى العقيدة ؛ عندما سعى للتحالف مع اليمى عام 1840م لدفع خطر التبشير الكاثوليكي الذى استشرى فى بلاده ، ناهيك عما يتضمنه تاريخ الاندلس والحروب الصليبية من أمثلة عديدة من هذا النوع . ودفعنا لشبهة التحامل عند معالجة أبعاد التبشير الأوروبى ، أستند الكاتب وبعيدا عن التعصب الى ما ذكره المؤرخين الأوربيين فى هذا الشأن فهم بطبيعة الحال المرجع الوحيد وشهود العيان ، والحقيقة العلمية جافة لا تجامل ولا تتحامل ؛ وأود أن أسجل تقديرى لاهل التسامح والموضوعية من اهل الكتابة لعدم انحيازهم الا لحقائق الحق وان اختلف مع معتقداتهم ومنهم كتاب مسيحيين ؛ ولا يفوتني أن احبى كتابا عربيا غلبت عليهم تلك الروح وان لم يكونوا طرفا فى موضوعنا ، منهم د/ نظمى لوقا الذى

تحلت كتاباته عن الإسلام بالسماحة والموضوعية أمتعتني قراءتها ، والكاتب القومى العربى الكبير جرجى زيدان صاحب الموسوعة الرائعة روايات تاريخ الإسلام وغيرهم كثيرين قد لا تسعفى الذاكرة فى التعرض اليهم .
وانوه بما لحق اسم الكتاب من تغيير كما هو مدون على الغلاف فى الاصدار الحالى الثالث الموسوعى ؛ عما كان فى الطبعة الاولى المختصرة التى ينقصها كثير من الاجزاء والاضافات والصادرة بمسمى " أفريقيا جنوب الصحراء — قراءة فى تاريخ الإسلام وموقع مصر فيه " والاصدار الثانى الالكترونى بعنوان قراءة فى تاريخ الاسلام وحضارته — من منارة الاندلس الى جنوب الصحراء " ، لياخذ المسمى الحالى فى الاعتبار الاضافات والازادة على نحو ما هو ظاهر على الغلاف ، كما زودناه بعدد كبير من الخرائط لمزيد من الايضاح للمختصين ومن يفهمون حركة التاريخ والمسافات وقد يكون فيها ايضا اختصارا للنص المكتوب وتعفيانا من الشرح المطول تسهيلا على القارئ ، واضفنا عددا من الصور التى تمثل تراثا هاما لكل منطقة ووضعنا فى اخر الكتاب فهرس برؤوس الموضوعات .

ولا يسعنا ونحن نستعرض جهاد إخواننا البربر فى الاندلس واجزاء من اوربا وتفانيهم فى دفع لواء الدعوة جنوب الصحراء بقوة وإخلاص ومثابرة فى جهاد استغرق قرونا طويلة ناطحوا فيها الجغرافيا والطبيعة ؛ الا ان نسجل لهم بالإجلال والإكبار هذا الدور الذى يطوق بفضلته عنق كل مسلم فى تلك الأنحاء ؛ ونأمل أن يكون فى تذكيرنا بهذا الدور ما يداوى المحاولات الطائفية بالغة التطرف للبعض منهم بتحريض من اعداء الامة لدفعهم الى اعتزال موروث أمتهم الثقافى حتى وان اقتضى الامر طبقا لهذه المخططات اقتلاعهم من جذور هويتهم الإسلامية (2) .

ولعلنا نستحضر فى هذا المقام ما أبثلى به المغرب العربى من بلبلة فى الهوية رغم مرور حقب طويلة على استقلاله ؛ فقد بقيت دوله حائرة متأرجحة بين الجذور الاصيلية والقشور الدخيلة ؛ وهذا الوضع هو نتاج لتراجع حال الامة وتراث من الآثار السلبية لسياسات الاستعمار التى مارسها الفرنسيون بضراوة لاجتثاث الهوية الوطنية للامم التى اخضعوها فإنقلب الحال واختلطت التحالفات ما بين الاصيل والدخيل .

والي نبي الرحمة صاحب رسالة النور والحضارة التى اضاءت بنورها هذا العالم ؛

محمد

رسول الله

أهدى كتابي هذا

كما اهديه الى إخواننا البربر إقرارا بفضلهم فى مد الاسلام فى كلا النطاقين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محى يوسف

أكتوبر 2008 - مُحدث فى يوليو 2014

⁽²⁾ نظم مركز ديان فى اسرائيل سلسلة دراسات وبحوث عن الاقليات العرقية فى العالم العربى لتنمية وعيها الانفصالى ، واستهدف بالنسبة لمنطقة المغرب العربى عنصر الامازيج (البربر) فعمل المعهد على تقوية الروابط معهم واسس لهذا الغرض لجان صداقة أمازيغية-إسرائيلية ، ونظم ندوات حول المشكلة الامازيغية ساهم فيها امازيغ المهجر من المغرب والجزائر فى فرنسا وبلجيكا ، ويرعى المركز بالتنسيق مع منظمات اليهود فى فرنسا وإسبانيا وبلجيكا والولايات المتحدة وكندا مناسبات ثقافية و سياسية ؛ علاوة على تسويق مواد دعائية (كتيبات ومنشورات) لتعزيز الوعى الانفصالى لدى هذه الاقليات إزكاء للانفصالية ؛ المصدر - دراسة للدكتور حلمي عبد الكريم الزعبي مدير عام "الدار العربية للدراسات والنشر" بالقاهرة عن دور "مركز ديان لأبحاث الشرق الأوسط وإفريقيا" فى صياغة المشروع الصهيوني لتفتيت الأقطار العربية (ملحق - مذكرة مختصرة عن المركز).

الكتــــــــــــــــاب الاول الحضارة الاسلامية

الفصل الاول موقع حضارة الاسلام من الحضارة الانسانية

الحضارة وأنماطها

الحضارة هي مظاهر الحياة بجوانبها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بيئة معينة وزمن محدد بما يفرز اطارا خاصا من الصفات الذاتية تبلور شخصيتها المستقلة ؛ وبالتالي تختلف هوية كل حضارة من أمة لاخرى ومن زمن لآخر وحتى بالنسبة للامة الواحدة قد تختلف شخصية حضارتها طبقا لاطارها الزمنى ، وبالتالي فالحضارة كائن حى متطور ولها قوتها وإرادتها فهي إما " فاعلة " أو " خاملة " تبعا لقوة تأثيرها فى محيطها .

وتستمد الحضارة فاعليتها من تفوقها وهيمنتها على محيطها إنطلاقا من قدرتها على الابداع وقيادة التطور والاسهام فى دفع حركة التقدم الأنساني ، وينتسب إلى هذا الصنف من الحضارات حضارات قلب العالم القديم بما فيها الحضارة الاسلامية ، أما الحضارة " الخاملة " فهي العاجزة عن الفعل والتفاعل ولا قدرة لها على التجدد والتجديد ولا مجال امامها للتواصل مع غيرها ولا يتجاوز تأثيرها حدود محيطها الضيق فتُصبح كيانا مغلقا غير قابل للتطور يعيش حالة من الجمود وهذا النوع مصيره الافول وثقافات جنوب الصحراء قبل الاسلام نموذج لهذا الصنف .

الجذور العربية للحضارة الاسلامية

وعند سبر غور حضارة الإسلام لا يمكن تجاهل الحديث عن الحضارة العربية بجذورها المتعددة ؛ والحضارة العربية التى نقصدها ليست هى تلك التى ترعرعت نواتها فى البيئة الصحراوية بجزيرة العرب عند ظهور الإسلام وإنما هى ذلك الفيض من الحضارات الممتدة بجذورها فى عمق الحضارة الإنسانية والمنتشرة على رقعة كبيرة فى محيط الصحراء العربية فى كل من اليمن والعراق والشام ؛ تلك الحضارات التى ارسى قوائمها بطون العرب المهاجرة منذ القدم والتى كان لها تأثير ممتد وراسخ بالمنطقة وعلى حضارات العالم القديم (3) ؛ فهجرات العرب عبر الجزيرة الى محيطها موغلة فى القدم ؛ فهاجر الاكاديون عام 2350 قبل الميلاد الى العراق ولحق بهم العموريون فى نهاية الالف الثالثة ق.م ، وهاجر الاراميون (السريان) الى الشام فى نهاية العصر البرونزى ؛ ومن بعدهم اليبوسيون والكنعانيون (اصل الفينيقيين والقرطاجيين) عام 2300 ق م والموابيون فى القرن 15 ق م ، وكل هذه العناصر تركت بصمتها اللغوية والابداعية على المنطقة ؛ فقد اثبتت الدراسات ان اللهجات التى سادت المنطقة كالبابلية والاشورية والاكادية والكنعانية والارامية بفروعها المندانية كلها عربية الاصل نشأت فى جزيرة العرب وهيمنت على الشام مثلها فى ذلك مثل لهجات الجنوب فى اليمن المعينية والسبئية ؛ كما غلب الانتشار العربى طابعه ونفوذه الثقافى العربى ولغاته على الشام منذ عهد الاتباط الذين فى ظلهم تزايد النفوذ العربى المؤثر اقتصاديا وثقافيا فى اراض الامبراطورية الرومانية فى الشام للمدى الذى مكن ماركوس يوليوس فيليبوس المعروف بفيليب العربى من تتبؤا عرش روما عام 244 م (4).

وان تجاهلنا القرابة الأصلية للحضارة العربية القديمة بحضارات الرافدين السحيقة فى القدم أو تلك التى شادها الفينيقيون (الكنعانيون) على ساحل الشام ، فلا يمكن أن نغفل صلة النسب المباشر والشديدة الواضوح بينها وبين حضارات بر الشام الزاهرة وعلى رأسها النبطية والآرامية وتدمر التى بلغت العالمية بنفوذها الإقتصادي والثقافي وكانت مصدر الهام للحضارات الأوروبية

³ (المصدر بالنسبة للهجرات The Phonicians Penguin Books by Donald Harden - وبالنسبة للغات دراسة ناجية مرانى عام 1981 ، ومقالة "عشيرة اللغات الأفريقية الآسيوية - الطاهر داود من مجلة الفيصل السعودية العدد 109 مايو-يونيو 2002.

⁴ (المصدر جوستاف لوبون - كتاب حضارة العرب ص 93.

القديمة في كل من اليونان وروما التي يقول روس عن حضارتهما انهما كانتا انعكاسا للحضارة العربية أم الثقافة الهيلينية " (5) ، ويؤكد عباس العقاد في كتابه " الثقافة العربية " سبق الثقافة العربية للثقافتين اليونانية والعبرانية ، الامر الذي يتضح في تجذر ابجديتها في اليونانية فيقول " الابجدية اليونانية عربية بحروفها علمها لليونان قدموس الفينيقي الذي يصفه هيرودت بأنه اول من علم الاغريق الصناعات واسماء الحروف ؛ وأن أشكالها ومعانيها (الحروف) شاهدة على اصلها الفينيقي الارامى العربى الجنوبى "

والكنعانيون من اهم البطون المبدعة في حضارات العرب القديمة فهم بُناة الحضارة الفينيقية وأبجديتهم ام الأبجديات الاوروبية ؛ فمن الافضل الخالدة لهذا الشعب اهداؤه العالم الابجدية التي تستخدمها الابجديات الاوروبية واللاتينية حتى وقتنا هذا ؛ كما اقاموا الصروح والمدن في ساحل الشام (صور، صيدا ، جبيل وغيرها) ، وتحولوا بحكم الموقع والبيئة الى شعب بحري تفوق في مجال بناء السفن والإبحار عبر البحار، قاد رحلات الاستكشاف البحري الاولى في العالم عندما داروا حول افريقيا بالتعاون مع البحرية الفرعونية ، ومرة آخر عندما حطوا(القرطاجيون) على الساحل الغربى لافريقيا لأول مرة ، وشعب فينيقي كان شعبا دائم الهجرة اقام المستوطنات والحضارات في الكثير من ارجاء محيط البحر المتوسط على مر العصور بدءا من اليونان(6) ف مرسيليا وقرطاجة (تونس) وسردينيا ومالطة وجزر البليار Balearic وقرطاجة الجديدة Cartago (تعنى المدينة الجديدة باللغة الرومانية) بجنوب شبه جزيرة ايبيريا ، وهذا الشعب التجارى كان مؤهلا بحكم موروته المستمد من أصوله العربية التي ملكت نواصى تجارة الصحراء طوال تاريخها ؛ ان يملك هو الآخر نواصى التجارة البحرية العالمية بحكم بينته الجديدة ، كما اهلتته حركته الدائمة وتوطنه الممتد المتناثر في الاراضى الجديدة للتواصل والتلاقح مع الحضارات العالمية عبر البحار ، ومع تعاظم نفوذ هذه الامة الاقتصادية وسيطرتها على الملاحة البحرية أن أصبحت لغتها الكنعانية لغة دولية سادت البحر المتوسط.

وبخلاف الكنعانيين ازدهمت الشام بالكيانات العربية وأصبحت مهدا لامارات عربية راقية الحضارة ؛ ففي المنطقة التي كانت تُعرف بـ **Romana Arabia** قامت مملكة الانباط العربية في الفترة 400 ق م - 106 م في المنطقة الممتدة من دمشق عبر بادية الشام الى الحجر بمدائن صالح جنوبا داخل الصحراء العربية (بالسعودية على مبعدة 700 كم من العاصمة البتراء بالاردن حاليا) وسيناء ؛ و عاصمة الانباط المعروفة بالبتراء Petra (كلمة يونانية تعنى الصخر) مدينة فريدة مسماها يصف حقيقتها الصخرية فمبانيها منحوتة حفرا في الجبل ، ويشير القرآن الى ذلك في سورة الحجر اية 82 : وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) ، ودولة الانباط كانت ذات حضارة ونعيم مُقيم ومن اغنى دول زمانها بفضل هيمنتها على تجارة الصحراء ؛ ويصف القرآن في الآية 147 وما بعدها من سورة الشعراء ثراء هذه الامارة " .. أَتَنْزَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَغُوبٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) ، وقد استحوذت البتراء رائعة الانباط ان تصبح من عجائب الدنيا السبع من منظور اهل القرن الواحد والعشرين بمزاجهم الجديد ، طبقا للاستطلاع الذي عقده لاختياراتهم الجديدة .

ومن ممالك العرب الزاهر في الشام مملكة تدمر (Palmyrenien - مسماها اللاتيني مُستمد من النخيل شجرة الصحراء) ذات النفوذ الامبراطورى والصيت والثراء ناطحت روما في عهد ملكتها زنوبيا ومدت سلطاتها على مساحة متسعة من الارض امتدت ما بين اسيا الوسطى الى مصر ؛ وكانت تدمر سيدة تجارة الشرق تقف على مفترق طرقها بين آسيا وأوروبا ، وكان نظامها كسائر مستوطنات الكنعانيين شبيها بجمهوريات الاغريق ، ازدهرت المملكة في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، وعكست فخامة أبنيتها الملكية وأبنيتها العامة والخاصة مدى ثرائها وعظمتها الامبراطورية ، بلغت قمة مجدها فيما بين عامى 130ق م حتى 273م ، ومن اشهر ملوكها أدينة وزوجته الملكة زنوبيا وهى التي تحدثت روما وبلغت بها منتهى عظمتها وإتساع سلطاتها ، ولكن روما لم تمهلها فهزمتها وإنتهى امرها عام 273م على يد امبراطورها اوريليانوس .

⁵المصدر: روس.. مجلة الفكر السوري.. نقلا عن جريدة أخبار العرب في 2001/4/25 ، المصدر بالنسبة للممالك العربية د. عصام الدين عبد الرؤوف - الحواضر الإسلامية الكبرى .

⁶ اشارت الاوديسة الى ان الفينيقيون (الكنعانيون) هم من اسسوا اثينا ، فقدموس (كادموس) الفينيقي اسس مدينة طيبة الاغريقية واصبح ملكا عليها ، كما سُميت القارة الاوروبية على اسم اخته "غروب" وتعنى الكلمة بالفينيقية الغرب لهروبها غربا الى اوروبا والفينيقيون هم من ادخل الابجدية الى اليونان - المصدر: Black Athena By Martin Bernal , P.xiii .

وأخر إمارات العرب في محيط الصحراء المعاصرة لظهور الاسلام إمارتا الغساسنة والحيرة الواقعتان على هامش الصحراء في الشام العراق ، كانتا على نفس النمط الحضري ولا تقلا عن الامارات السابقة لقرنانهم العرب في الشام الا انهما كانتا تتوران في فُك الروم والفرس ؛ فإمارة الغساسنة بحكم موقعها شمال الصحراء وجنوب الشام تحالفت مع الروم القوى المهيمنة بالمنطقة ، وهذه الامارة عمرت على ما يربوا على 500 عام ولا تزال اثارها العظيمة ماثلة في عاصمتها بُصرى ؛ أما اماره الحيرة في العراق التي اسسها المناذرة عرب اليمن عام 195م واستمرت الى 400 م ، كانت من الامم العظيمة التي نافست اكاسرة الفرس وقياصرة الروم ترفا وعظمة الى ان اخضعها فارس في عهد الدولة الساسانية عام 605م ، ورغم العصبية العربية للغساسنة والمناذرة الا ان ولأولهما كان على طرفي نقيض ، وقع بين الروم والفرس خارج اطار العصبية واحيانا ضدها ، فقد حسمت الجغرافيا انحياز كل منهما بعيدا عن عروبتهم خاصة الغساسنة الذين كانت تربطهم بالروم اخوة العقيدة المسيحية.

حضارة الصحراء

ولا يقلل من شأن عرب الصحراء ما لحق بتاريخهم قبيل الإسلام من تشويه على أيدي الجهلاء منهم ومن المغرضين من غيرهم ؛ فحضارة عرب الصحراء حضارة فطرة قوية لا يقلل من شأنها إفتقارها لصروح كتلك التي شيدتها بطونهم المهاجرة في مواطنها الجديدة ، وفارق التطور بين تلك الحضارات وحضارتها الام المتجذرة في البيئة الصحراوية ؛ امر طبيعى بحكم إختلاف البيئة من منطقة لأخرى ؛ فالاولى تمتعت ببيئة اكثر لطفا وثراء واستطاعت بمهاراتها التجارية وعبور الصحراء ان تبني اقتصاد قوى وإن تنفتح على حضارات مجاورة اكثر تطورا تفاعلت معها بقوة ؛ بينما بقى عرب الصحراء على بدويتهم في بيئة جافة قاسية ولكن لم تنقصهم عناصر الإلهام والإبداع الكامنة لديهم بالفطرة مثلهم في ذلك مثل بطونهم التي استقرت في الشام والعراق ، فمخزون الملكات الكامنة في النطاق الصحراوي هي التي هيأت بعقريه بيئة خصبة لقيام حضارة من نوع آخر مشحونة بالعديد من الجوانب طغت عليها روحانية خلقة فخلفت تراثا أخلاقيا راقيا ما كان ليُصاغ إلا بحكمة وأحكام الصحراء ؛ وتركت تراثا أكثر سموا انتظم في منظومة الفروسية بأكمل واجمل معانيها مشمولة بتقديس مطلق للحرية وإعتزاز بالذات والفخر بالانتماء وطلاقة التعبير والعدل والفراسة وحدة المنطق وقوام البصيرة والنجدة الي أخره من قيم سامية تحدث عصبية الجاهلية كان من روائع نتاجها حلف الفضول لنصرة الحق وهو ما امتدحه رسول الله لسمو مضمونها ومكونها .

وبيئة بمثل هذه المعطيات الاخلاقية هيأت ظروفًا مثالية لترعرع نمط إنساني لجبل يتهيأ لحمل رسالة روحانية إكتمل اساسها الأخلاقي بمجىء الإسلام ؛ وبنوه " مايكل هارت " بتلك البيئة في كتابه " المانة : تقويم لاعظم الناس أثرا في التاريخ " والذين جاء على رأسهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدور الايمان في اقامة امبراطورية الاسلام فأشاد بمعدن الرجال الذي مكن هؤلاء البدو من أن يُقيموا امبراطورية واسعة ممتدة ؛ هي اعظم امبراطورية في التاريخ حتى اليوم على حد قوله ؛ واصفا نبى الاسلام بأنه اعظم زعيم سياسى عرفه التاريخ ؛ لم يعرف العالم كله رجلا مثله قبل ذلك ؛ بهذا القدر من العظمة والقوة الجبارة الذى ما كان ممكنا بغير زعامته ان تتحقق كل هذه الانتصارات الباهرة ، ويقول عن البيئة التي انجبت هؤلاء العظماء بأنها بيئة صقلت الرجال وافرزت أعظم القادة بما يتحلون به من خصال وقوة وصلابة وايمان لا يتزعزع بالهدف والرسالة " (7) ، ويشاركه د. جوستاف لوبون تقويمه لقدر رسول الاسلام فيقول " واذا ما قيسست قيمة الرجال بجليل اعمالهم كان محمدا من اعظم من عرفهم التاريخ ؛ ولكن التعصب الدينى أعمى بصائر مؤرخى الغرب عن الاعتراف بفضله(8) " .

كما أدرك نابليون بونايرته إبداعية البيئة العربية على نحو جامع فأوجزه بقوله " اذا ما طرحنا جانبا الظروف العرضية التي تأتى بالمعجزات ؛ فلا بد وأن يكون في نشأة الإسلام سرا لا نعلمه فهناك سبب مجهول جعل الإسلام ينتصر وبشكل عجيب على المسيحية ، وربما يرجع ذلك الى أولئك الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحراء وقد صهرتهم حروب طويلة عنيفة صقلت أخلاقهم وخلقت فيهم مواهب عبقرية وحماس لا يقهر أو ربما شئ من هذا القبيل " (9) .

⁽⁷⁾ ترجمة انيس منصور الطبعة الثامنة عام 1991 ص 14 - 18 .

⁽⁸⁾ جوستاف لوبون - حضارة العرب الصادر عام 1884 م ص 7 .

⁽⁹⁾ مذكرات نابليون فى سانت هيلانة - جزء 3 ص 183 نقلا عن كتاب محمد رسول الله - تأليف ايتين دينيه وسليمان ابراهيم.

عالمية الحضارة الاسلامية

وبإطلاق الإسلام عبر الصحراء خرج بهذه النواة الاخلاقية من بيئتها البسيطة فى نطاقها الصحراوى إلى مجال حضارى رحب يموج بالتنوع الثقافى والعرقى إمتزجت فيه هذه النواة اولا بتراتها الاصيل من الحضارات العربية المهاجرة الممتدة فى محيطها فى الشام والعراق ، ثم تفاعلت بعد ذلك مع تراث الأمم التى إنضوت تحت لواء الإسلام وغيرها ؛ فاندمجت هى وتوحدت مع غيرها من الثقافات وافرزت جميعا اطارا ثقافيا موحدًا لعالم الاسلام اصبحت فيه اللغة العربية وعاء واطارا عاما مشتركا لتراث امم عديدة ؛ فكانت " حضارة الاسلام " حضارة جامعة عابرة للاعراق اطلق ملكتها "الابداعية" تنوع وتعددية الثقافات ، تركزت فى قلبها العربية لغة الاسلام الذى بفضلها اصبحت لغة عابرة للقوميات واللغات (10) .

وعزز توسع الاسلام الجغرافى قدرة الحضارة الجديدة على التواصل والعطاء فأصبحت حلقة وصل بين الثقافات العالمية الكبرى ؛ فانفتاحها كان مكسبا للبشرية كلها فقد تعهدت تلك الحضارة معارف أمم سابقة ومعاصرة بالحفظ ثم اضافت اليها بالإبداع زخما اهدته بدون تعصب او حساسية الي الحضارة الانسانية لتكون بذلك اساسا لحلقة جديدة فى مسلسل الحضارة فحازت بذلك " العالمية " ، ولم تشذ حضارة الإسلام فى دورتها تلك عن سنن الحضارات الفاعلة فلم تكن ابدا كياناً منعزلا وانما تواصلت بالافتقاس وتفاعلت بالإبداع فأخذت من السابقين ونقلت الى اللاحقين جملة ابداعاتها فلا توجد قط حضارة عالمية تفردت بالإبداع دون سند من تراث السابقين أو إسهام فى تراث اللاحقين ؛ ومن اهم ما تميزت به الحضارة الاسلامية هو انفتاحها وموضوعيتها والمرونة بين مكوناتها ؛ فلم تكن هناك خصومة بين الدين والعلم مثل تلك العقدة التى عانت منها أوروبا فى القرون الوسطى وأخرت نهضتها بسبب تفسير الكنيسة للعلم واضطهادها العلماء ومعارضتها الافتقاس من حضارة تعاديها (الاسلامية) .

التراث العلمي وإنجازات الحضارة العربية

أفرزت الحضارة العربية طابعا شخصيا مميزا في مجال العلم والادب والفن والصناعة وتركت اثارها على كل زمان في العالم ، ونتعرض لبعض ذلك في الاتي :

أولا العا وم

1 المنهج التجريبي

يذكر د. لوبون " ان العرب هم اول من ادرك اهمية المنهج التجريبي فى العالم وانفردوا به زمنا طويلا ، وينقل عن العالم الشهير ازوالد شبنجل " ان العرب ارتقوا بعلومهم الى المرحلة التجريبية وهى ارفع درجات العلم التى كانت مجهولة تقريبا للقدماء " ، ويستطرد لوبون نقلا عن دولنبر فى كتابه تاريخ علم الفلك " إنه بينما كانت قلة من الاغريق هم من مارس الرصد فى علم الفلك فإن كثرة من العرب مارسوا التجريبية (الرصد والمتابعة) ، فبينما قد لا تجد مجربا يونانيا واحدا فى علم الكيمياء تجد بين العرب المنات من التجريبيين، واضفى اعتماد العرب على التجربة دقة وابداع على مؤلفاتهم لا يتوفر لمن تعود على العمل النظرى ودراسة الكتب نظريا فقط ، وان هذا المنهج أوصل العرب لاكتشافات مهمة تجاوزت فى ثلاثة قرون او اربعة ما يزيد على ما حققه الاغارقة من اكتشافات فى زمن أطول من ذلك بكثير ، ويستطرد بأن فى الوقت الذى نشر فيه العرب علوم اليونان بين الامم بعد ان حولوها خلقا جديدا ، كان البيزنطيون قد توقفوا عن الاستفادة بذلك التراث أو نشره لزم من طويل "(11).

2 - الكيمياء (علم الصناعة) :

وهذا العلم احد دعائم النهضة لاستناده الى البحث العلمى ابو النهضة والتطور ؛ سبقت به مصر القديمة العالم فهى مبتدعته ؛ ومنها انتقل الى اليونان ثم الرومان فانقلب فى أيديهما الى خرافات بالبحث عما سُمى بـ" حجر الفلاسفة بتحويل المعادن الرخيصة الى ذهب وفضة ؛ وتبعهم فى ذلك الوهم لفترة بعض علماء المسلمين استفاقوا بعدها عندما أستعادوا لهذا العلم من جديد

(¹⁰) روى عن رسول الله .. ايها الناس .. فإن الرب رب واحد والاب اب واحد والدين دين واحد وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم إنما هي لسان ؛ فمن تكلم العربية فهو عربي ، ويعبر هذا عن المنظور الاسلامي العابر للقوميات .

¹¹ (حضارة العرب - د.لوبون ص 435.

أصالة العلمية ، ويسجل ديورانت للمسلمين فضلهم في هذا بقوله " ان الكيمياء بشكلها العلمي انجاز حققه المسلمون .. فأدخلوا عليها الملاحظة والتجربة العلمية المتقنة وفرقوا بين الحوامض والقلويات واخترعوا الانبيق " Alembic .
واستحق كيميائيو الاسلام بأفضالهم على هذا العلم ان يجيئوا على رأس علمائه ؛ فاستحق جابر بن حيان " (القرن 8 م) أشهر الكيميائيين المسلمين لقب أبى الكيمياء ؛ بفضل استحضاره " الاحماض " أساس الكيمياء الذى لا يتصور ان تقوم له قائمة بدونها وهو أول من استحضرها ، واليه يعود الفضل فى ابتداء المنهج التجريبي وطرق تحضير كثير من المواد الكيماوية وتطبيق طرقا محسنة لعمليات التبخر والترشح والانصهار والتقطير والكلور والتبلر.. وقد تُرجمت كتبه " السبعين " و " تركيب الكيمياء " الى اللاتينية فى أوائل القرن 12 م ، وتُرجم كتابة " الاستتمام " الى الفرنسية عام 1674 م ، وبقيت كتبه مرجعا لأوروبا حتى القرن 17م .

ومن أبرز الكيميائيين ابوبكر الرازى الذى يصفه سانتون " بأنه لانظير له فى كل العصور السابقة على فجر العلم الحديث ، فهو صاحب تقسيم المواد الى حيوانية ونباتية ومعنوية وهو أول من اشار الى امكانية وجود الملح والكبريت والزنابق فى جميع الاشياء وهى الفكرة التى طورها فيما بعد " باراسلوس " ، ويُعد كتابه " سر الاسرار " من أعظم انجازاته الذى يتناول فيه العقاقير والآلات والعديد من تجارب الكيمياء ؛ ويضم الكتاب أيضا وصفاً للأجهزة اللازمة للمعامل الكيميائية ؛ اما "ابو على الحسين ابن سينا" الفيلسوف الكيميائى والطبيب المعروف بالشيخ الرئيس ابن سينا (980هـ - 1037م) فقد كانت بحوثه ذات أثر كبير فى تطوير هذا العلم فمقالته عن الكيمياء فى كتابه " الشفاء " المترجم الى اللاتينية فى القرن 12 م كان لها تأثير عظيم على أوروبا ، وما يميز ابن سينا عن جابر والرازى جهابذة الكيمياء هو انكاره التام لامكانية تحويل المعادن الرخيصة الى معدن نفيس مع امكانية طلاؤها.

ومن عباقرة الكيمياء العربية فى القرن 11م " أبو منصور موفق " ؛ وهو أول من فرق بين كربونات الصوديوم (النترات) وكربونات البوتاسيوم التى سماها القلى Alkali (القلويات) وهو ما زال اسمها العلمى ، وتوصل أيضا الى معرفة ماهية اكسيد الزرنيخ وحامض السليكات ؛ وفى منتصف القرن 11م توصل " مسلمة المديدى " الاندلسى الى اكتشاف قيم عن تحضير اكسيد الزنابق ؛ تلك المادة التى قدر لها أن تلعب دورا تاريخيا فى يدى " بريستلى " و " لافوازيه " على حد قول " هولميهار " ، حيث لم يفتن احدا قط الى قاعدة كيميائية أساسية وهامة مثل هذه قبل مضى قرون أخرى.

وفى القرن 13 م ظهر كيميائى آخر ذو شأن ، هو " منصور الكامل " رئيس قسم الكيمياء فى معمل القاهرة وهو صاحب سبق العلمى عن تنقية الذهب والمعادن من الشوائب فى سابقة علمية لم تصل الى علم أوروبا قبل القرن 16 م ، ومصر سبقته أوروبا الى معرفة النشادر وصناعتها ؛ وتشير الموسوعة البريطانية فى طبعها الحادية عشر الى ان أوروبا عرفت اسرار هذه الصناعة سنة 1719 م بعدما افشاها القنصل الفرنسى فى القاهرة ؛ وظلت أوروبا تعتمد على مؤلفات العرب فى هذا العلم الى العصر الحديث وقيل أن بريستلى عبقرية الكيمياء كان يراجع الكتب العربية فى مجال الكيمياء وبلغتها الاصلية .

3 - الطب

تربع الاطباء العرب بلا منازع على عرش الطب وظلت أوروبا تتعلمه على ايديهم لاكثر من ستة قرون ، ومن أعظم الاطباء " ابوبكر الرازى " (844- 313هـ / 250- 926م) ابا الاطباء الكيماويين فهو أول من طبق الكيمياء على الطب ؛ وأول من ابدع وابتكر فى جراحة العيون والولادة وأمراض النساء وأول من صنف مقالات فى طب الاطفال ؛ واهم مؤلفاته واضخمها " الحاوى Contents " و " المنصورى " سماهما تيمنا بأسماء حكام خراسان ؛ ومن بين اهم مؤلفاته " الجدرى والحصبة " أول عمل دقيق ومحكم عن الامراض المعدية ؛ ويُعد الحاوى عمل تراثى ضخم فى الطب يضم ستة الاف وستمئة وعشرون صفحة ، قام بترجمته فرج بن سالم اليهودى بناء على رغبة الملك شارل الاول انجو امير نابلى وصقلية وانتهى من ترجمته عام 1279م ونُشر عام 1486م فى ايطاليا وانتشر فى أوروبا ما بين 1486م وعام 1781 م تاريخ صدور اخر طبعة منه وكانت فى المانيا .

وبلغ الطب الاسلامى أوج مجده آنذاك على يدى " ابى على الحسين ابن سينا " (980- 1037م) امير الاطباء فى القرون الوسطى وعالم الكيمياء السابق التعريف به ، واهم مؤلفاته الطبية " القانون " وهو مبحث ضخم فى علم الطب (الصحة ووظائف الاعضاء والعلاج والصيدلة) ويضم استطرادات فى الفلسفة ؛ وتُرجم فى القرن 12م الى اللاتينية ، وكان كتابه القانون واسع الانتشار وأعيد طبعه عدة مرات فى النصف الثانى من القرن 15 م ، وكانت كتبه وكتب الرازى اساس تعليم الطب فى جامعات

فرنسا وإيطاليا حتى أوائل القرن 18م ؛ ومن أهم كتب الطب الأخرى كتاب ابن الخاتمي (المتوفى عام 1369م) عن الطاعون الذي انتشر في الأندلس (1348- 1349م) ، ويُعد أهم كتاب في هذا المجال في القرون الوسطى .
وساهم العرب في تطوير طب العيون ومن أهم أطبانهم عمار الموصلي (996- 1020م) ، وعلى بن عيسى (القرن العاشر) وهو أول من استعمل التخدير في عمليات العيون على حد قول الأستاذ " كازي وود " ؛ وقد تُرجمت كتب عمار الموصلي وعلى بن عيسى إلى اللاتينية واستخدمت كمراجع تعليمية حتى بدأت نهضة طب العيون في فرنسا في القرن 18 م .
أصبحت الجراحة علما حقيقيا له اصول وقواعد على ايدي العرب ، وللجراحين الأندلسيين في القرن 13م سمعة عظيمة فاقت سمعة أقرانهم في باريس وأدنبرة، فبينما كان الطبيب في الأندلس يسمى جراحا كان في الدول الأوروبية يسمى حلاقا على حد ما يذكره الأستاذ " كميل " ، ومن أشهر الجراحين " ابي القاسم الزهراوي " الأندلسي (المتوفى 1513م) عميد جراحى ذلك الزمان الذى بلغت الجراحة على يديه قمة ازدهارها ، و أشهر كُتبه " التصريف " يتضمن فصلا عن الجراحة مشتملا على صور لادواتها وألاتها ؛ فأهدى إلى أوروبا بذلك اساس علم الجراحة وسهل عليها تطوير الالات الجراحية في القرن 16م ؛ ومن مشاهير الاطباء " علاء الدين على بن أبى الحزم القرشى الدمشقى " الملقب " ابن النفيس " اعظم علماء وظائف الاعضاء في القرون الوسطى وهو الذى مهد الطريق أمام " وليم هارفى " لاكتشاف الدورة الدموية عام 1628م ؛ استنادا لشرحه الدقيق للدورة الدموية الصغرى في كتابه " شرح تشريح القانون " بتصنيف دقيق خرج فيه على الاقوال التقليدية لكل من " جالينوس " و " ابن سينا " .

وموسوعات الطب الإسلامية لم يكن لها نظير في زمانها فكانت منهلا ومرجعا وأساسا لصناعة الطب الأوروبية ، فكتاب " القانون " موسوعة ابن سينا الطبية (القرن الثانى عشر الميلادى) جمعت خلاصة طب العرب والاعريق والهنود والسريران والمصريين ؛ وكتاب " الحاوى " للرازي عام 1279 م الذى لم يتمه في حياته لضخامته فأكمله تلاميذه من بعده، كانا موسوعتان مرجعيتان معتمدتان في جامعة " لوفان " حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، كما أصبح كتاب " التعريف لمن عجز عن التعريف " لأبى القاسم خلف بن العباس " في القرن الخامس عشر الميلادى المرجع الاكبر في جراحة وتجبير العظام وجراحة المثانة.

ولعلماء المسلمين قصب السبق على الأوروبيين في وصف أمراض الجداز والجدري والحصبة وعلاج أمراض العيون ؛ وهم من سبقوا بقرون " فرويد " بالتطرق الى علاقة الطب النفسى بالحالة الجنسية كما تعاملوا مع الجنون على انه حالة مرضية طبيعية تحتاج العلاج على عكس الأوروبيين الذين اعتبروه من اصابات الارواح.

4- الصيدلة

والعرب هم الذين وضعوا الهيكل العام لهذا العلم (الموسوعة البريطانية الطبعة الحادية عشر) ، والاصل العربى للكثير من اسماء الادوية دليل واضح على اسهاماتهم فلهم يرجع الفضل في استخدام السكر في تحلية الادوية لتحسين مذاقها ليصبح مستساغا ، والاصل العربى لكلمة " Syrup " اى شراب دليل على تفوقهم في صناعة الاشربة الدوائية التى شغلت حيزا كبيرا من تجارة العرب مع البندقية، وفي أوروبا أنتشرت مؤلفات العرب في مجال الادوية فقد ظلت كتب أبى سينا وأبن زهر وأبن وافد (997 – 1074م) وماسوية الماردينى (توفى 1015م) وأبن سرافية وابن البيطار (1190 - 1248م) .. وكتاب " الادوية المفردة " لضياء الدين المالى المعروف بأبن البيطار متداولة كمراجع حتى 1830م تقريبا.

5- الطبيلة

مهد علماء الطبيلة المسلمون الطريق أمام "نيوتن" لكشف قانون الجاذبية عندما إبتدعوا الثقل النوعى لكثير من العناصر في مجال الطبيلة ، ويُسجل " للبيروني " سبقه دراسة السوائل في مصادرها الأرضية والتحكم في حركتها في حالة التوازن والارتفاع ، ويُعد كتاب " الحيل " لأبناء موسى بن شاكر أصلاً من أصول الميكانيكا.

6- الجغرافيا والفلك

و الرحالة المسلمون

يرجع للعرب فضل تقديم علوم " بطليموس " أبى الجغرافيا فى العصور القديمة إلى عالم العصور الوسطى بعد تنقيحها والاضافة إليها، واليه يرجع الكثير من الفضل فى تطوير هذا العلم بفروعه فساهم البيروني برحلاته فى آسيا فى الاضافة لهذا العلم ، وساهم " ابن يونس " المصرى باختراعه الرقاص فى تطوير الفلك (القرن التاسع الميلادى) ، وتمكن " الشريف الأديسى (1099-1166 م) " فى عام 1160 م من رصد منابع النيل فى منطقة البحيرات الكبرى بدقة قبل ان يكتشفها الاوروبيون فى القرن 19م ؛ وهو الذى اعتمد عليه " روجر الثانى " ملك نورماندى فى عملية نقل العلوم العربية إلى أوروبا فى القرن الثانى عشر ، ومن ابرز ما صنعه نموذج للكرة الأرضية وبعد كتابه " نزهة المشتاق فى اختراق الافاق " من أشهر المؤلفات الجغرافية.

وأكد علماء الاسلام فلكيا ومن خلال الاستدلال الفلسفى كروية الارض ودورانها حول محورها فى وقت كانت تسيطر فيه على أوروبا العصور الوسطى فكرة تسطحها بضغط من الكنيسة التى أنكرت الفكرة ؛ رغم ان كروية الارض تبناها علماء الاغريق وعلى رأسهم ارسطو والعالم السكندرى فيثاغورث ، ف " ابن خرداذبه " (المتوفى عام 885 م) قال " إن الأرض مدوره كتدوير الكرة وموضوعة فى جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة " ، وقال بذلك ايضا " ابن رشد " المتوفى عام 903م " اذ قال إن الله عز وجل وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دواراً والأرض مصمتة فى جوف الفلك " وأتى بالبراهين للتدليل على ذلك على نحو ما هو معروف الآن ، وقد توصل إلى نفس الحقيقة من غير الجغرافيين " ابن سينا " من خلال الاستدلال الفلسفى، وقدم " أبوالفدا " اثباتاً فلكياً على كروية الارض ودورانها ؛ وهو من لاحظ أن دوران الارض يؤدى الى زيادة او نقصان يوم بالسنة للمسافر نحو الشرق فى الحالة الاولى والمسافر نحو الغرب فى الحالة الثانية .

ونجح علماء المسلمين فى عام 827 م فى عهد المأمون فى قياس محيط الارض بدقة متناهية، وصححوا كثير من أخطاء الأغريق فحددوا بدقة خطوط الطول والعرض و حققوا على نحو صحيح الاعتدال الشمسى وضبطوا التقويم السنوى ، ويذكر " جوستاف لوبون " .. أن التقويم السنوي الذى أصلحه العرب فى عهد السلطان السلجوقي " ملك شاه " أصح من التقويم الجريجوري الذى أتمه الأوروبيون بعد العرب بستمانه عام ، فالتقويم العربى جاء بخطأ يومين بينما جاء التقويم الأوروبى بخطأ ثلاثة أيام فى كل عشرة آلاف سنة.

وعرف المسلمون مقياس خط النهار قبل الأوروبيين بألف عام، وكشفوا الاختلاف الثالث فى سير القمر الذى أغفله " بطليموس "، وتمكنوا ايضا من تحديد مساحة قُطر بعض الكواكب وتحديد الابعاد بينها وهو ما أنجزه الفرغانى اعظم الفلكيين المسلمين فى القرن 9م والذى كان تأثيره ملموساً على علم الفلك فى أوروبا حتى القرن 15م ، وقياس العرب لمحيط الارض نصر علمى باعتباره اصح من قياسى ايراتوستينس - وبطليموس السكندرى، فالخطأ فيه يقل كيلو مترا عن مقياس " بيسيل " الذى كان سائداً فى القرن 19م الذى قدر الدرجة بمقدار 110938 متراً ، كما أن قياس البتانى (850-929م) لطول السنة الشمسية 365 يوماً و 5 ساعات و 46 دقيقة و 32 ثانية اكثر دقة من قياس اليونان حيث كان الفارق دقيقتين بينما كان خطأ اليونان 7 دقائق، والاسماء العربية لبعض الكواكب والنجوم والمدارات لدليل على الاسهام العربى فى هذا المجال ، ومن علماء المسلمين فى مجال الفلك ثابت بن قره وابن يونس المصرى وابن يونس الموصلى ونصير الدين الطوسى وأبا الريحان البيرونى وغيرهم.

وللرحالة المسلمين افضال كبيرة على الجغرافيا السياحية بما تضمنته رحلاتهم من وصف جغرافى وتاريخى لهذه البلاد ؛ ومن الرواد العظماء الشريف الأديسى ومحمد عبد الرحيم المازنى الغرناطى مؤلف " نخبة الأذهان فى عجائب البلدان " وابن جببر البلنسى وكلاهما فى القرن الثانى عشر ، ويأتى ابن بطوطه (القرن الرابع عشر) صاحب " تحفة النظر فى غرائب الأمصار " كأكبر الرحالة جميعاً ، والمسعودى (912-957م) هو عبد الحسن بن حسين بن على المسعودى من بين الاشهر فى هذا المجال وهو ايضا جغرافى وُلد فى بغداد فى اسيرة حجازية سنة 912 م وطاف مع البحارة العمانيين الساحل الشرقى لافريقيا حتى مدغشقر ، وقام بالعديد من الرحلات قبل ان يستقر به المقام فى القاهرة حيث كتب اخر كتبه ومات بها عام 957 م بعد ان انتهى من كتابه بعام تقريبا ويصفه ابن خلدون بعد اربع قرون بانه كان نموذجاً رائعاً للمؤرخين الثقاة ، ومن كتبه التى اعتمد عليها ابن خلدون كتابه الخالد " مروج الذهب " ؛ وهو من اروع كتب الرحلات فى القرون الوسطى الذى تضمن تفصيلات رحلته لشرق افريقيا ، وترجم

"ماراكو" اى مراکش... إلخ ، ويشير الاستاذ **Salvador Michael Tent** الى معرفة العرب لامريكا قبل كولمبس فيقول " ان كولمبس قرأ قبل رحلته كل ما نقله روجر بيكون الاستاذ بجامعة اكسفورد عن العرب من وصف لمدن بأمریکا (انظرالدراستين فى الملاحق) ؛ ومسلمو إفريقيا الغربية كانوا أول من عبر الاطلنطى من ابناء جنوب الصحراء ؛ وقد يكون ذلك فى وقت لاحق لمشوار الاندلس فى هذا المجال ، فذكر شهاب الدين العمري فى كتابه "مسالك الأبصار وممالك الأمصار" بأن سلطان مالي كان (منسا موسى) لما ذهب للحج عام 1327م أخبر بأن سلفه كان قد أنشأ اسطولا من مائتي سفينة قطع بها المحيط الأطلسي نحو الضفة الأخرى بعدما أنابه فى حكم مالي لكنه لم يعد قط .

ومن دلالات الوجود الاسلامى الإفريقي فى الأمريكتين ما عثروا عليه بلغة الماندينك (شعب "الفلانى" المسلم من مالي) مكتوبا بحروف عربية كوفية فى كل من البيرو والبرازيل وجنوب الولايات المتحدة ، واثار لغة الماندينك ظاهرة بين الهنود الحمر إلى يومنا هذا ومازالت تكتب بحروف الماندينك ، الذين انتشروا من البحر الكاريبي إلى شمال وجنوب الأمريكتين.

وإذا ما رجعنا إلى كتابات المكتشفين الأوروبيين الأوائل بمن فيهم كريستوفر كولومبس؛ نجدهم قد تعرضوا بالذكر للوجود الإسلامى فى أمريكا ، ف ليون فيرنيل الأستاذ بجامعة هارفرد فى كتابه "إفريقيا واكتشاف أمريكا"، **"Africa and the discovery of America"** الصادر عام 1920م ، يقول "إن كريستوف كولومب كان على معرفة كاملة بالوجود الإسلامى فى أمريكا" 13؛ وبنى ليون براهينه على وجود الماندينك بأدلة زراعية ولغوية وثقافية، فقال بأن الماندينك انتشروا فى وسط وشمال أمريكا وفى البحر الكاريبي جنوب أمريكا، وشمالا حتى وصلوا إلى جهات كندا ، وتزاوجوا مع قبيلتي "إيروكوا" و"الكونكير" من الهنود الحمر فى شمال أمريكا ؛ وذكر "جيم كوفين" الكاتب الفرنسى فى كتابه "بربر أمريكا" **"Les Berberes d'Amerique"** تنويها بجذورهم الامازيغية ، فيقول أن قبيلة "المامي" **"Almami"** التى سكنت أمريكا من الامازيغ ، وكلمة المامي تعنى "الإمام"، وتُطلق على زعماء المسلمين فى إفريقيا الغربية ، وأضاف أن أكثرتهم سكنت الهندوراس بأمريكا الوسطى ، ويدل ماتويل إيروسكو إيبيرا فى كتابه "التاريخ القديم لاحتلال المكسيك"، **"Historia Antigua de la conquista de Mexico"** ، على الوجود الإفريقى فيقول "كانت أمريكا الوسطى والبرازيل بصفة خاصة ، مستعمرات لشعوب سوداء جاءت من إفريقيا وانتشرت فى أمريكا الوسطى والجنوبية والشمالية" ، وإن الراهب فرانسيسكو كارسييس اكتشف عام 1775م قبيلة من السود مختلطة مع الهنود الحمر فى نيوميكسيكو فى الولايات المتحدة الأمريكية "المكسيك الجديدة"، واكتشف تماثيل تظهر فى الخريطة المرفقة تدل دلالة كاملة بأنها للسود.

ويدلل البروفيسور الأستاذ الدكتور علي بن المنتصر الكتاني المغربى مؤسس علم الأقليات الإسلامية ورائد الدعوة الإسلامية فى أوروبا وأمريكا فى محاضرة القاها فى جمعية الشرفاء الكتانيين للتعاون والثقافة فى أكتوبر من عام 2000 ان هناك آثار لوجود اندلسى وإفريقي فى أمريكا، يستدل عليه من شينين وجدا بها قبل كولومبوس هما الذهب الإفريقي والقطن ؛ فمن السهل الاستدلال على الذهب الإفريقي فمكوناته التحليلية تختلف عن الذهب من مصادر أخرى ، فتركيبته ثابتة منذ القرن الثالث عشر وتدل على أصله فكل 32قسمة من الذهب تنقسم الى 18ذهبا و6 فضة و8 نحاس ؛ وهى نفس تركيبة الذهب الموجود عند الهنود الحمر ودليل على أصله الإفريقي ، كما ان القطن لم يكن معروفا فى أمريكا بل جاء من إفريقيا الغربية، واستغرب كولومبس فى كتاباته من "إرتداء الهنود الحمر لباسا قطنيا شبيها باللباس الذي تلبسه النساء الغرناطيات المسلمات" ، وهو ما اكده ابنه ايضا .

واستدل المحاضر على الوجود الاسلامى الإفريقى بوجود قبيلة "كاليفونا" **"Galifona"** السوداء فى غواتيمالا ويسمونهم "الهنود الحمر السود"، وهم من نسل المسلمين الماندينكا الذين كانوا هناك وكثير من عاداتهم إسلامية ؛ ويؤكد المحاضران كثير من الشباب المسلم أنشأ علاقات مع الكاليفونا وقاموا بالدعوة الى الاسلام بينهم وقد أسلم العديد منهم وانتشرت المساجد هناك ، وبخلاف ذلك هناك قرائن لغوية فى مسميات النقود لدى الهنود الحمر شبيهة بمسمياتها باللغة العربية واللغات الإفريقية ؛ فقد اشار "مبيرا موس" فى مقال بجريدة "ديلي كلاريون"، **"Daily Clarion"** عام 1946م ، الصادرة فى "بيليز" إحدى جمهوريات أمريكا الوسطى ، لوجود مسلمين يتحدثون اللغة العربية عندما اكتشف كريستوفر كولومبس الهند الغربية عام

¹³ (ذكر كريستوفر كولومبس أنه وجد أفارقة فى أمريكا كان يظنهم من السكان الأصليين، وأنه شاهد مساجد على شواطئ كوبا واماكى أخرى (عندما شاهد المسلمون الغرناطيون من مساعدى كريستوفر كولومبس فى رحلته عام 1492 قباب مساجد فى الجزيرة تعالت صيحاتهم بالعربية " قبة - قبة " ومن يومها سُميت الجزيرة كوبا).

1493 فيقول "عندما اكتشف كريستوفر كولومبس الهند الغربية، وجد في البحر الكاريبي عام 1493م شعباً أبيض اللون هم "الكاريب"، خشنى الشعر، يعملون بالزراعة وصيد البحر، يكرهون التعدي والعنف موحدون (بالله) ومسالمة دينهم الإسلام ولغتهم العربية!".

وبخلاف اسهامات المسلمون المالئون (المالدينيين) والاندلسيون فهناك اسهامات المورسكيون والمغاربة العرب والامازيج في مجال الكشف الداخلي بأمريكا الشمالية ضمن الحملات البرتغالية ولاسبانية فهناك مثل ساطع هو مصطفى الأزموري (ستيبانيكو) احد أعظم مستكشفي أميركا الشمالية في الفترة من 1528 الى 1540 ؛ وكانت السنوات الإثنتي عشرة التي قضاه كافيّة لتجعل منه أحد أهم الرواد الأوائل مستكشفوا فلوريدا وتكساس والمكسيك وأريزونا والمكسيك الجديدة رغم انه كان فرداً في إحدى الحملات البرتغالية كعبد (14).

ب - ريادة الملاحة البحرية

(أحمد بن ماجد بن محمد السعدي النجدي 821هـ - 906هـ)

عمل كثير من المورسكيين بعد سقوط غرناطة ؛ أدلاء لاسبانيا والبرتغال في رحلاتهما البحرية في الاطلنطي ، ويذكر المؤرخان "النهرواني" و"فراند" أن الرحالة البرتغالي فاسكو دي جاما استعان بابن ماجد كريان في ترحاله خاصة في رحلته من مالندي على ساحل أفريقيا الشرقية إلى كاليكوت في الهند سنة 1498م وكان ابن ماجد خبيراً ملاحياً في البحر الأحمر وخليج بربرة والمحيط الهندي وبحر الصين ، ولمهارته كأحد أشهر الملاحين لقبه البرتغاليون almirante بأمرير البحر و"معلم بحر الهند" ، ومن القابه التي أطلقوها عليه "المعلم أسد البحار" و"ريان الجهازين" .

ولد ابن ماجد في راس الخيمة عام 821 هـ (توفي عام 906 هـ) بمنطقة نجد بالجزيرة العربية ؛ وينحدر من عائلة من الملاحين ابا عن جد ؛ تكلم اللغة التاميلية وألم بالزنجية والفارسية بالإضافة للعربية ،أبحر صغيراً وبرع في الفلك والملاحة والجغرافيا وكتب العديد من المراجع الملاحة ، ألف أكثر من ثلاثين كتاباً أرسى فيها أسس علم البحار الذي لم يكن معروفاً من قبل ، ومن أعماله "مختصر كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" (1489م) و"الفصول" و"الملل" ، وكتابين مفقودين هما "مطول كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" (1475م) وكتاب "شرح الذهبية" و"حاوية الاختصار في أصول علم البحار" ، وترجمت بعض كتبه مثل "المحيط" إلى التركية ومنها نقل إلى اللغات الأوروبية ؛ وله مخطوطة عربية شعرية من ثلاث فصول كتبها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر ؛ وصف فيها طرق الملاحة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي ، و محفوظ له ثلاث أخريات في معهد الدراسات الشرقية في ليننغراد ، وعثر المستشرق الروسي ثيودور شوموفسكي على أرجوزة لابن ماجد على شكل مخطوطة في مكتبة أستنبول ، وألف عنها كتاباً اسماء ثلاث أزهار في معرفة البحار لأحمد ابن ماجد - ملاح فاسكو دي جاما ؛ ولابن ماجد أكثر من أربعين عملاً مكتوباً منها ، الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، رسالة قلادة الشموس وأستخراج قواعد الأسوس ، تحفة الفحول في تمهيد الأصول ، العمدة المهدية في ضبط العلوم البحرية ، المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر ، القصيدة الهمزية ، الأرجوزة السبعية ، الفصول ، كتاب الملل ، شرح الذهبية ، حاوية الاختصار في أصول علم البحار .

ويعد كتابه "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد" أهم ما يذكر في علم الملاحة البحرية ، ففيه يوضح تاريخ علم البحر والملاحة البحرية حتى القرن الخامس عشر الميلادي، ويلقي الضوء على تأثير علم المسلمين وتقاليدهم في الملاحة البحرية على البرتغال وكذلك على تطبيقاتهم في المحيط الهندي بشكل خاص ؛ وفيه يتحدث عن العلوم والثقافات التي يجب أن يلم بها ربان السفينة فيقول أن لركوب البحر أسباباً كثيرة أهمها معرفة المنازل والمسافات والقياس والإشارات، ورسم الكثير من الخرائط البحرية وقام برحلات عديدة إلى شرق أفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا والصين.

¹⁴ (يبدو ان اسمه الحقيقي طبقاً لبعض الباحثين هوسعيد بن حدوا وان سيده اطلق عليه تصغير مصطفى بالبرتغالية إستيبانيكو، إستيبانو، ومن تسمياته الأخرى المورو، متكلم العربية أو ستيفن الأسود حسبما يسميه السود في الولايات المتحدة - المرجع : عبد الهادي عمار باحث بجامعة غرناطة الإسبانية حول مغربي من القرن 16- وبقية دراسات باحثوا ندوة بجامعة غرناطة كلية الآداب / لا كارتوخا بتاريخ 10- 15 أبريل 2012 حول مصطفى الأزموري / ستيبانيكو احد أعظم مستكشفي أميركا الشمالية - ولايتي أريزونا ونيو مكسيكو(تفاصيل القصة في الملاحق).

ومن انجازاته القياس بالأصابع والبوصلة .. أوجد ابن ماجد صلة بين تقسيم دائرة الأفق إلى 32 جزءاً تماثل أذن البوصلة وبين استخدام قبضة اليد والذراع مبسطة في اتجاه البصر أمام الراصد ، فقبضة اليد من الخنصر إلى الإبهام والذراع ممدودة إلى الأمام تمثل 32/1 جزءاً من محيط دائرة مركزها نقطة اتصال الذراع بالكتف، فلو استقبلنا الشمال لأمكن باستخدام قبضة اليد فقط التعرف على أي اتجاه آخر على دائرة الأفق ، ويقول ابن ماجد في كتابه الفوائد في وصف طريقة تحديد القبلة " كذلك دورة السماء 32 جزءاً يقصد دائرة الأفق ، وكل جزء قبضة من الخنصر إلى الإبهام وأنت مستقبلها ماداً بها ذراعك ، فحط بيت الإبرة أمامك وصل على أيخذن جاء في النظم على أي بلد أنت بها واقبض ببعض الأدلة المشار إليها عند عدم وجود الحقبة، اي البوصلة،...ولما كانت المسافة بين الخنصر والإبهام واليد مقبوضة، تساوي نحو سبعة أصابع فإن تقسيم دائرة الأفق يصبح 334 إصبعاً وهو الأساس الذي بني عليه تقسيم الحقبة " البوصلة " العربية ، وهى من اختراعه فيقول «.. ومن اختراعه في علم البحر تركيب مغناطيس على الحقبة بنفسه ، ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب».

وهو الذى استحدث من الأدوات الملاحية «البوصلة البحرية» المقسمة إلى 22 درجة والتي ما زالت مستعملة حتى الآن ، و«وردة الرياح» وهي آلة من الخشب تقسم عليها دائرة الأفق إلى الجهات الأربع الأصلية ويقسم كل ما بين جهتين إلى أقسام صغيرة وتستخدم لمعرفة اتجاه الرياح وجهة هبوبها ، وإنذهل "فاسكو دا جاما" من آلات العرب الملاحية والفلكية حين رآها مع أحمد بن ماجد مثل آلة «اللوح» آلات «الكمل» و«البليستي» لتحديد خطوط العرض التى صممها العرب معتمدين في ذلك على معرفتهم الدقيقة بمواقع النجوم

8- الرياضيات

وفى هذا المجال نقل العرب عن الهند الكثير من الرياضيات وابتدعوا بوضع الكثير من اسس الرياضة الحديثة فأدخل غياث الدين جمشيد الكاشي "الكسر العشرى" وهو اول من استعمل العلامة العشرية قبل "ستيفن" باكتر من 175 عاما ؛ وابتدع العرب استعمال الصفر zero واسمه اللاتينى يحمل ظلال التسمية العربية بعد ان اقتبسوا فكرته من الهنود ، وبدون الصفر لما أمكن حل الكثير من المعادلات الرياضية بسهولة ، ومحمد بن موسى الخوارزمى أبو الحساب والجبر ابتدع بتشجيع من الخليفة المأمون جيل جديد من الرياضيات فابتدع علم الجبر Algebra واستخدمه فى حل مسائل هندسية ، و كتابه " الجبر والمقابلة " اول ماكتب فى هذا الشأن وكان أول من الف فى الحساب ، وما زالت هوية علم الحساب فى اسمها اللاتينى Algoritmi (اللوغاريتمات) مدموغة باسم الخوارزمى (الغوريتمى) الذى يعكس حقيقة انتسابه اليه ؛ وكُتبه كانت مراجع دراسية فى أوروبا حتى القرن 16 . وللمسلمين فضل انشاء النظريات الاساسية لعلم حساب المثلثات والاضلاع وهو مايعده سانتون ثورة علمية ، فقد ادخل المسلمون خط المماس إلى حساب المثلثات وتوصلوا إلى حل المعادلات المكعبة وتوسعوا في مباحث المخروطات وأحلوا الجيوب محل الأوتار (15) ؛ ويشيد علماء اوربا بعلماء الاسلام فى مجال الرياضيات فيصف " كارل ساخاو " بجامعة فيينا " البيروني " بأنه أعظم العقول التي ظهرت في العالم ، كما يصف الفلكي الفرنسي " لالاند " (القرن الثامن عشر) " البتاني " بأنه واحد من عشرين رياضياً ظهوروا في العالمين القديم والحديث .. وفى مجال الهندسة سخر ابن الهيثم هذا العلم فى بحوث الضوء.

9- الفلسفة والآداب

الهمت القصص العربية خيال الادب الاوروبى فى العصور الوسطى مثل ألف ليلة وليلة وقصص الفروسية ممثلة فى بطولات فرسان الأندلس ؛ ويسجل الكاتب الأسباني " أبانيز " أن أوروبا عرفت الفروسية وآدابها نقلا عن العرب؛ ومن الفلاسفة المسلمين نُعد " الفارابي " و " ابن سينا " و " الكندي " و " ابن ماجة " و " ابن طفيل " و " ابن رشد " و " ابن زهد " و " الإمام الغزالي " و الفيلسوف الصوفي " محيى الدين بن عربي " و هم لا يقتلون شهرة عن أقرانهم من اليونانيين.

⁽¹⁵⁾ المرجع: دراسات في الحضارة الإسلامية ص 299 و 314 للدكتور أحمد إبراهيم الشريف.

ثانيا الصناعة

1- صناعة الورق

طور المسلمون صناعتين من اهم الصناعات واكثرها تأثيرا على الحضارة الانسانية هما الورق والأسلحة النارية ، فصناعة الورق رغم سبق الصين معرفة هذه الصناعة منذ عام 105م ؛ إلا ان العرب الذين نقلوها عنهم عام 750 م بعد حقب من فتح سمرقند (712م) عندما وقع بعض الصينيين العارفين بأسرارها في أسرهم ، وفي عام 794 م ، فهم اى العرب هم من ادخلها عالم الحضارة بإشاعة استعمال الورق بعد ان كان محدود الانتشار فى عهد الصين ؛ فقد أسس " الفضل البرمكى " أول مصنع للورق فى بغداد ، وإهتمام العباسيين بالنهضة العلمية أنتشرت الصناعة بسرعة فائقة فى جميع انحاء الوطن الاسلامى وهو ما ساعد على نمو مجتمع علمى على اعلى مستوى ؛ وطور العرب نوعا من الورق الرخيص الجيد مصنوعا من القطن ومواد البيئة المحلية الاخرى وكان فتحا كبيرا للحضارة الانسانية حتى يومنا هذا ، وعرفت اوروبا صناعة الورق عن طريق الاندلس واستبدلته فى الكتابة بديلا للجلد مما دفع نهضتها بسرعة فقد كان ارتفاع تكلفة الجلد قد حالت دون التوسع فى استخدامه فى الكتابة الامر الذى قيد من اتساع انتشار العلم والتوسع المطبعى.

وأول مخطوط عربى كُتب على هذا الورق يرجع الى القرن 9م وقد يكون كتاب " غريب الحديث " عام 866م أحد أقدم الكتب الورقية المنسوخة بينما تأخر استخدامه فى اوروبا الى عام 1109م تاريخ أول وثيقة اوروبية مكتوبة على هذا الورق ، و فى القرن الرابع عشر بدء فى استعمال الورق على نطاق واسع فى الاغراض الادبية .

2- صناعة الأسلحة النارية

كان إكتشاف البارود وصناعة المدفع عُدة الحرب وعتاده إكتشافا ثوريا ، فرغم ان الصينيون هم ايضا مكتشفوا نترات البوتاسيوم وأول من استعملها فى صناعة الحرب باسم النار الاصطناعية ؛ إلا أن الفضل الاول فى ابتكار الاسلحة النارية يرجع للعرب فهم أول من عرف كيفية استخراج قوة البارود الدافعة المستخدمة فى الاسلحة النارية بعدما عرفوا كيفية تنقية نترات البوتاسيوم والتي بدونها ماكان ممكنا تفجير تلك المادة ، واستعمال قوة التفجير فى اطلاق القذائف ، وقد جاءت اول اشارة لاستعمال البارود فى القرن 13م عندما ضرب به الامير يعقوب اسوار مدينة المهديدة بأفريقيا عام 1205م ؛ كما استخدمه المماليك المصرية فى معركة المنصورة ضد لويس التاسع " ملك فرنسا أثناء حملته الصليبية على مصر 1249- 1250م ؛ ويصف الامر "جوانفيل " وهو من جنود الحملة ومؤرخها وشاهد عيان عليها بقوله " ان المصريون أطلقوا ثلاث قذائف كانت افطع ما رآته عيناه على الاطلاق دعت زميله للقول (رُعبا) : ايها السادة لقد ضعنا جميعا ولامهرب لنا ؛ ويستطرد المؤرخ فى وصفه هذه النار فيقول " أنها كانت كالبراميل المشتعلة تخلف ورائها ذبلا طويلا من النار محدثة عند انطلاقها صوتا كالرعد وتشق الهواء كأنها تنين من نار يضى بقوة حتى اصبح الليل نهارا ، ويضيف " جوانفيل " ان الملك لويس ارتعب من هذه النار فكان يركع والدمع ينهمر من عينه مدرارا داعيا الرب عيسى المسيح لحمايته هو وجميع من معه " ، وإستخدم البارود كما يُشير ابن خلدون ؛ السلطان ابو يوسف عند فتحه سلجماسة عام 1273م ، واستخدمها الاندلسيون فى الدفاع عن منطقة الجزيرة ضد ملك قشتالة الالدفنش الحادى عشر عام 1342م فيقول ان مغاربة المدينة كانوا يقذفون كثير من الصواعق على الجيش بقتابل كثيرة من الحديد فى حجم التفاح الكبير .

وقد نقل الاختراع كونتا سالسبرى ودربى وكانا قد شاركا فى حصار الجزيرة؛الى بقية اوروبا بعد ان سربه احد الاندلسيين ؛ وتصور مخطوطة " والترمليमित " المحفوظة فى جامعة اكسفورد التى يرجع تاريخها الى عام 1326م مسلما من الاندلس اسمر عربى الملامح هو الذى سرب هذا الاختراع الى الاسبان ، وهذه الوثيقة هى أول اشارة عن معرفة الاوروبيون بالمدفع الذى بدأ الفرنسيون فى استخدامه عام 1338م للدفاع عن " كامبرجى " فى نفس العام واستخدمه الانجليز من بعدهم فى معركة " كريسى " عام 1346م (16) .

ومن أدوات الحرب الاخرى التى ابتدعها العرب ما يفترض انه توريبدا بحريا ؛ ففي سنة 1280م عُثر على كتاب لسورى

¹⁶(حضارة العرب - جوستاف لوبون ص 47.

يدعى " حسن الرماح " أورد فيه وصفا ورسمًا توضيحيًا لتوريبيد بحري يُعرفه بأنه من أدوات الحرب ويصفه " ب " البيضاء التي تندفع ذاتيا على الماء وتحترق " ومن الواضح حسب قول الاستاذ " سارتون " أن " حسن الرماح " كان يعرف جيدا نترات البوتاسيوم (البارود) ويعتبرها المادة الأساسية في تكوين الناريات .

الفصل الثاني منارة الاندلس وفضلها على أوروبا

وضع أوروبا الحضارى
فى القرون الوسطى

قبل اقتباس علوم الاندلس

عندما فتح المسلمون الاندلس لم يكن للقوط سكان البلاد حضارة يُعتد بها ويصف د. جوستاف لوبون الوضع فى اسبانيا زمن القوط عند الفتح العربى بأنها بلد فقير لا تتعدى ثقافته ثقافة الاجلاف، "؛ ولم تختلف أوروبا عن ذلك كثيرا آنذاك إذ يصف " جيمس بيرك " حالة التخلف التى عاشتها أوروبا فيقول " كم كان الاوروبيون فى العصور الوسطى قبل عصر كوبرنيكس اغبياء " اذ ظنوا ان الشمس تدور حول الارض وليس العكس ؛ ولو كان لديهم قدرا ولو ضئيل من الفهم لادركوا ان العكس هو الصحيح " (17)، وفى نفس السياق تقول المؤرخة الألمانية " هونكه " " .. أن المدنية الأوروبية لم يكن لها وجود قبل إحتلال العرب لالاندلس، ويقول د. جوستاف لوبون " قبل التعرف على الحضارة العربية لا يمكن أن نتذكر قبل القرن 15م أن عالما أوروبيا ابتكر شيئا بخلاف ما أستنسخه من كتب العرب "، وعن اسبانيا يقول انها عرفت نور الحضارة على يد حضارة الاسلام منذ قدومه ؛ فلم يكد العرب يتمون فتحها حتى بدأوا رسالة الحضارة .

الاندلس عهد من الحضارة

مرت الحضارة الاسلامية فى الاندلس منذ قيامها بالعهود التالية:

1- العهد الاموى

منذ قيام الامارة الاموية فى قرطبة عام 756م على يد عبد الرحمن الداخل بعد انفصاله بالاندلس عن خلافة المشرق ؛ بدأ اعمال النهضة " وإستطاع عرب الاندلس فى اقل من قرن ان يحيا ميت الارضين ويعمروا خرب المدن ويوظفوا الصلات التجارية بالامم الاخرى ثم شرعوا فى التفرغ لدراسة العلوم والادب وترجمة كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات التى ظلت وحدها ملجأ للثقافة فى أوروبا زمنا طويلا وحققوا نقلة حضارية معمارية بالاندلس "؛ ومن ابرز ما انجزه عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة الذى يصفه د. لوبون بانه من عجائب الدنيا، وقصر الزهراء الساحر بأعمدته الرخامية الاربعة الاف وثلاثمائة عمودا (وصف المسجد وصوره وصور قصر الزهراء فى الملحق)، وقام الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (912 - 961)، ببناء مدينة جديدة اختطها على بعد أميال من قرطبة أسماها الزهراء ولم ينتقص هذا من قدر قرطبة التى وصلت أوج مجدها فى عهده، وتواصل نموها فى عهد ابنه الحكم الثانى (961 - 976)، ومع استيلاء الحاجب المنصور بن أبي عامر (981 - 1002)، على مقاليد السلطة فى قرطبة وتأسيسه الدولة العامرية ابنتى لنفسه قصراً للحكم فى طرف قرطبة أسماه بالمدينة الزاهرة (18) .

كانت قرطبة منذ عهد الداخل من أهم المدن فى القرن العاشر، فهى منارة العلم والثقافة فى أوروبا، وأنجبت المدينة فى هذه الفترة الشاعر ابن زيدون، والشاعرة الأموية ولادة بنت المستكفي، والفقيه ابن حزم، والعالم عباس بن فرناس، كما أنتقل إليها الموسيقى زرياب وأسس دار المدنيات.

كانت عهود الاندلس الاموية بشقيها الدمشقى والاموى حتى نهاية الدولة العامرية، هى العهد الذهبى للاندلس الموحدة الكبيرة؛ كانت عصر الفتوح والجهاد فى أوروبا منذ الفتح الى ما بعد شارل مارتل؛ فأمويو قرطبة لم يهملوا مواصلة نفخ الروح

⁽¹⁷⁾ مستقبل الحضارة ص 93-94 - يوسف كمال.. نقلا عن موجز تاريخ الشرق الاوسط لـ جورج كيرك ترجمة سمير الاسكندراني.
⁽¹⁸⁾ تنازع حكام إشبيلية وطلبيلة فى عهد ملوك الطوائف قرطبة الى ان استقرت بيد ملك إشبيلية المعتمد بن عباد سنة 1078 م، فقدت مكانتها كعاصمة للدولة لصالح إشبيلية، واستعادت مكانتها لما أعادها الموحدون عاصمة لالاندلس من جديد، ومن شخصيات قرطبة الفيلسوف المسلم ابن رشد، بالإضافة إلى العالم الدينى اليهودي ابن ميمون، أشهر فلاسفة اليهودية فى العصور الوسطى، وبعد هزيمة الموحدين فى معركة العقاب ("لوس ناباس دي تولوزا" بالاسبانية) عام 1212 م، سقطت قرطبة عام 1236 م فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة بعد ما يزيد على خمسة قرون من الحكم الإسلامى للمدينة.

فى شرايين المستوطنات الاسلامية والدفاع عنها للبقاء فى جنوب فرنسا وسويسرا وايطاليا ؛ كما هو عصر بدء كشف الاندلسيين البحرية الجغرافية فى الاطلنطى سبقوا به الاوروبيين فى معرفة امريكا.

2- عهد ملوك الطوائف

لم تتوقف النهضة فى عهد دول الطوائف رغم الاضطرابات التى انتابت البلاد فقد عرفت الاندلس فى تلك العهود طائفة من اعظم المفكرين والادباء فى ظل رعاية ملوك من الادباء العلماء الذين يقدرون العلم والنهضة ؛ فابن رشد وابن طفيل وعبدالله بن ميمون والمعتمد بن عباد كانوا ابناء عصر الطوائف ، ومن العلماء والادباء ابن حزم المتوفى سنة 456هـ / 1064م وابن حيان اعظم مؤرخى الاندلس المتوفى عام 469هـ / 1076م وتلميذه الحميدى المتوفى 488هـ / 1095م ، ومن الادباء الشعراء ابن زيدون المتوفى عام 462هـ / 1069م وابن عبدون المتوفى عام 520هـ / 1026م .

وليس بالغريب ان يكون ملوك الطوائف انفسهم فى طليعة الادباء وكان الكثير منهم على قدر كبير من الادب والعلم مثل الامير العالم عمر بن الافطس صاحب بطليوس مؤلف كتاب كامل المظفرى فى التاريخ من خمسين جزءاً ، ومات قتيل بيد المرابطين عام 484هـ والمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية الشاعر الطموح واعظم ملوك الطوائف الذى اغدق على العلماء والثقافة من ثراء مملكته التى اثارت بحسنها ورغدها واسراف صاحبها حسد اصحاب ابن تاشفين مرابطوا المغرب على الاندلس ، فاقترحوها البلاد لفساد ملوكها واسروهم بمن فيهم المعتمد بن عباد الذى مات فى اسره بالمغرب عام 488هـ ، وهناك المعتصم بن صمادح صاحب المرية المتوفى عام 484هـ / 1091م .

3- عهد المرابطين

ورغم تزمّت المرابطين وتضييقهم على العلماء وحرية الفكر (حرموا كتب الغزالي وغيره من مفكرى الشرق)؛ الا ان النهضة لم تتوقف عن انجاب مزيدا من العلم والعلماء فهناك ابي القاسم بن عباس القرطبي الطبيب الاشهر المتوفى 516هـ / 1122م وابن باجة الطبيب الفيلسوف المتوفى 523هـ / 1129م ؛ وابو بكر الطرطوشي الفيلسوف السياسى صاحب كتاب سراج الملوك المتوفى 521هـ / 1126م والفتح بن خاقان المتوفى 535هـ / 1140م وابن بسام الشنترينى صاحب الذخيرة المتوفى عام 535هـ / 1147م وابن قرمان امير الزجل المتوفى 555هـ / 1160م ، بخلاف نواحي النهضة الاخرى .

4- عهد الموحدين

ولما جاء الموحدون اطلقوا حرية الفكر والبحث و أفرجوا عن كتب الغزالي ومفكرى الشرق التى قيدها المرابطون ، وبلغ التفكير الاندلسى قمة نضجه انذاك فى اواخر القرن السادس الهجرى؛ فظهرت طائفة من اعظم اقطاب العلم والادب فى منتصف القرن الثانى عشر ظهر فى قرطبة (الموحدون هم من اعداوا لقرطبة مكائنها كعاصمة للاندلس من جديد) الفيلسوف المسلم ابن رشد والعالم الدينى اليهودي ابن ميمون وهما من أشهر الفلاسفة فى العصور الوسطى ؛ فالفيلسوف الرئيس الطبيب يوسف بن ميمون من اعظم الاطباء هاجر الى مصر هربا من اضطهاد عبد المؤمن سلطان الموحدين لليهود ، وعمل فى خدمة صلاح الدين وقام بالتدريس بالقاهرة .

وهناك اهل علم مثل بنو زهر الاشبيليين وعميدهم الطبيب الوزير ابو العلاء بن زهر وولده ابو مروان المتوفى 564هـ / 1168م ، ويعتبر ابن رشد الوزير ابو العلاء بن زهر اعظم طبيب بعد جالينوس وكتابه التيسير من اعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى ، ومن اقطاب الفلاسفة ابي بكر الطفيل المتوفى عام 571هـ / 1176م صاحب رسالة حى بن يقظان ، والامام الفيلسوف ابي الوليد محمد بن احمد بن رشد القرطبي المتوفى 594هـ / 1198م وكان بارعا فى الطب والفقه والفلسفة و تولى القضاء فى الاندلس فترة ثم انتقل الى المغرب ليعمل طبيا للسلطان ابي يعقوب يوسف ومن بعده ولده السلطان يعقوب المنصور الذى نفاه الى الاندلس لاتهامه بالزندقة باعتبار ان الفلسفة علم خطر فى نظر الموحدين ثم عفا عنه السلطان وعاد الى المغرب .

وهناك الكثير من الشعراء مثل ابن الصابونى الذى يقولون ان الاداب ذهبت بذهابه وختمت الاندلس شعراءها ؛ وفى منتصف القرن 11م توصل " مسلمة المديدى " الاندلسى الى اكتشاف قيم عن تحضير اكسيد الزئبق ، ومما يسجل للاندلس انها قامت بأول محاولة للطيران على يد عباس ابن فرناس .

برع الاندلسيون فى الزراعة بفضل ما استحدثوه من اساليب زراعية وادخال الجديد من المحاصيل، وحولوا البلاد من صحراء الى جنان وحدائق واكثروا من انشاء الجسور والطرق ، كما ازدهرت معاهد العلم فى كل من اشبيلية وقرطبة وبلنسية ومرسية وغرناطة الانى كن مقصدا للطلاب من كل بلد . وتقدمت الصناعة والزراعة والتجارة الخارجية ، ولما اجتاحت الثورة معظم الاندلس مع بداية القرن السابع الهجرى وتعرضت الاندلس لضربات الاسبان انتكست النهضة لاضطراب الاحوال.

5- غرناطة والحضارة

(دولة بنى نصر)

وبنو نصر هم من تفوهت عمارتهم بالابداع ؛ فغرناطة دولة ثرية ذاخرة بالخيرات احتشدت فيها كل عوامل النجاح والتطور بعد ان تجمعت فيها ثروة ضخمة من الخبرات المتراكمة من كل ارجاء الاندلس المتساقطة ، فبرعت غرناطة فى استثمارها من مهرة الصناع والمزارعين وما ابتدعه من تقنيات فى الزراعة والرئ ، فتحولت الاندلس الى جنان على حد وصف شعرائها ، وما زالت نظم الرئ التى شيدها الغرناطيون تشهد بعبقريتهم ومضربا للامثال وهى تعمل حتى الان مثل نظام رى حدائق الحمراء البديع ؛ فمياة نهر دارو تُنقل الى قصور الحمراء عبر انفاق منحوتة فى الجبال لتغذية المدينة وقصور الحمراء وتصفى من الرواسب من خلال ابيار ويتم رد فائض المياة عن الحاجة الى النهر بأسلوب متطور بديع ويتم تخزينها لاقوات الشح . وتتفوه قصور الحمراء بالروعة والجمال عن نفسها وعن عظمة معمارى الاندلس ؛ فقاعة العرش وبالدات قاعة السفراء بتصميماتها وأبهتها تعكس عظمة غرناطة المعمارية، وقد انشد فيها فكتور هوجو شعرا يقول : ايتها الحمراء ايها القصر الذى زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك اية للتوافق ... الى ان وصل الى وصف قناطرها فيقول " يسمع لك فى الليل صوت يسحر الالباب (19) " ؛ ومن قاعات الحمراء الرانعات قاعة الاسود وغرفة الاختين وحجرة بنى سراج وردة العدل . وغدت غرناطة على مدى 3 قرون ارقى مدن العالم القديم واغناها واجملها واكثرها سكانا (20) ؛ يصفها ابن الخطيب بأنها جنة من جنات الدنيا ، ويقول عنها احد الشعراء (21) :

غرناطة ما لها نظير ما مصر ما الشام ما العراق
ما هى الا العروس تجلى والارض من جملة الصداق

ومهارة اهل غرناطة وثراؤها دعم قدرتها على الابداع الحضارى والصناعى فأصبحت محط أنظار الاوربيين ، فأصبحت مركزا تجاريا هاما فى جنوب اوربا فبلغت تجارتها المشرق وشمال افريقيا وجنوب اوربا وكان يهودها وصلت همز تجارية هامة ؛ وفى مضمار العلوم افرزت غرناطة الكثير من اشهر الادباء والشعراء مثل ابن البار فى الادب والتاريخ وابو الفضل الجليانى الشاعر الاديب فى الطب ؛ واسرة ابن زهر التى برع ابناءها فى الطب والكيمياء والصيدلة ، والطبيب ابو العباس الاموى المعروف بابن الرومية الاشبيلية وكان حجة فى علم النبات ولد فى اشبيلية عام 561هـ وتوفى بها عام 637هـ وله مؤلفات نفيسة فى الطب والنبات منها شرح حشائش دباسقوريدس وادوية جالينوس والرحلة النباتية والمستدركة وكتاب فى الادوية المفردة .

وفى مجال " الفلاحة " سجل الاندلسيون تطبيقاتهم مثل ما كتبه ابن بصال الطليلي فى القرن الحادى عشر ، وابى زكريا ابن العوام الاشبيلي اواخر القرن الثانى عشر وللطغرى الغرناطى ، وفى مجال النبات كان من اشهرهم فى اواخر القرن السادس ابن البيطار المالى الطبيب والنباتى المشهور الذى عمل بمصر والى كتابين عن الادوية هما الجامع و المغنى فى الادوية المفردة وتوفى فى دمشق عام 646هـ/1248م.

ومن البارعين فى مجال الرياضيات والفلك مطرف الاشبيلي ؛ وكان يخفى نتائج ابحاثه خوفا من العقاب لان هذا العلم فى تلك الفترة كان ينتسب للزندقة ، ولم تفرز هذه الفترة الكثير من العلماء بقدر ما افرزت من شعراء من بينهم ابن الخطيب الطبيب الفيلسوف ذوى العديد من المؤلفات.

¹⁹ (تاريخ العرب - جوستاف لوبون ص293 .

²⁰ (حضارة العرب ص273.

²¹ (فى الاحاطة فى اخبار غرناطة ج1 ص122 نقلا عن نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتتصرين - محمد عبد الله عنان طبعة 1958 .

وللجراحين الاندلسيين فى القرن 13م سمعة عظيمة فاقت سمعة أقرانهم فى باريس و أدنبرة ، فبينما كان الطبيب فى الأندلس يسمى جراحا كان فى الدول الأوروبية يسمى حلاقا على حد ما ذكره الاستاذ " كمبل " ، ومن أشهر الجراحين فى القرن السادس عشر " أبى القاسم الزهراوى " الاندلسى (المتوفى 1513م) عميد جراحى ذلك الزمان الذى بلغت الجراحة على يديه قمة ازدهارها ، ويتضمن أشهر كتبه " التصريف " فصلا عن الجراحة مشتملا على صور لادواتها والاتها ؛ فأهدى بذلك الجراحة الأوروبية أساسها وسهل عليها تطوير الآلات الجراحية فى القرن 16م .

وفى مجال الكشف البحرية سبق الاندلسيون الأوروبيين فى استكشاف الاطلنطى ، فقد كانت امريكا معروفة للمسلمين الاندلسيين والماليين بأفريقيا قبل كولمبس بخمسمائة عام كما سبق ان اسلفنا فى فصل العلوم ؛ فالجغرافى ابو الحسن المسعودى (871 - 957م) ، ذكر فى خريطته للعالم ارضا فى بحر الظلمات (الاطلنطى) سماها الارض المجهولة ، وذكرها فى كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" المكتوب عام 956 ميلادية عرضا فى حديثه عن رحلة المغامر الخشخاش بن سعيد بن الأسود من قرطبة فى عهد الخليفة الاندلسى عبد الله بن محمد (888- 912م) ، بأنه ابخر عام 889م من دلبا وعبر بحر الظلمات مع جماعة من أصحابه إلى أن وصل إلى أرضا مجهولة وراء بحر الظلمات التقى أهلها ووصفهم ورجع محملا بكنوز.

وفى عهد عبد الرحمن الداخل (929 - 961م) ، ابخر اندلسيون فى بحر الظلمات من ميناء دلبام وعادوا بعد غياب طويل بغنائم كثيرة ، وثمة وثيقة تاريخية أخرى فى التاريخ العربى ؛ ذكرها المؤرخ ابو بكر بن عمر بن القوطية عن رحلة قام بها ابن فروخ الأندلسى الغرناطى من قادش فى فبراير عام 999م (فى عهد هشام الثانى 976 - 1009) فى الاطلنطى وهبط فى جاندو (جزر كناريا "Canaries") ، وزار ملكها Guanariga ووصف أهلها ، كما زار Caprari وبلوتانا وعاد إلى الأندلس فى مايو 999.

والعالم الجغرافى الشريف الإدريسي الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى بين 1099-1180م ، وهو من سبته ؛ ذكر فى كتابه "الممالك والمسالك" ان اندلسيون ابحروا من إشبونة "Lisbon" ، فى بحر الظلمات وتحذثوا عن وجود أناسا يتكلمون العربية فى الارض التى وصلوها ووصفوا ملوكها ، قد تكون جزر الكارابية كوبا أو إسبانيولا أو غيرها من جزر البحر ، وهناك خريطة رسمها الأوروبيون تشتمل على دلائل عملية على تواجد عربى اسلامى فى أمريكا عام 1564م ، احداها خاصة بفلوريدا اوردت أسماء مدن مسماة على اسماء مثيلاتها فى الأندلس والمغرب ؛ وبعد سقوط غرناطة عمل كثير من المورسكيين أدلاء لاسبانيا والبرتغال فى رحلاتهما فى الاطلنطى ، وفى مجال السياحة برز محمد عبد الرحيم المازنى الغرناطى مؤلف " نخبة الأذهان فى عجائب البلدان".

تعقيب

ورغم ما كانت تعانيه الاندلس من قلاقل ؛ فقد بنت مؤسساتها ونبغ علماءها وانطلقت تشع نورا بحضارة الاسلام العريقة فى منطقتها ؛ وحتى نُقدّر عطاء هذه الامة للحضارة فى محيطها نرى ان ما عطته للغرب الأوروبي أكثر مما اعطته للمغرب شقيقتها الكبرى ومغيثتها وقت الشدائد التى تقع فى جوارها المباشر وتربطهما معا الكثير من الاواصر ، والسبب فى هذا فى رأينا يرجع للاطراف صاحبة الشأن ؛ فأوروبا كانت حريصة على التعلم والنقل من الاندلس منفذ العلم الوحيد حتى تلحق بها ؛ وهى تعلم ان الانتصار على الاندلس والمسلمين يكمن فى اللحاق بحضارتهم ثم تجاوزها كأول ابواب هزيمة المسلمين ، بينما المغرب غاب عنه ما يحدث من تقدم فى الاندلس وبقي معزولا عنها جاهلا بحسنها وثرانها ورغدها رغم تلاصق البلدين الى ان جاء المرابطون ليكتشفوا ما غاب عنهم وهو ما يكشفه حسد ابن تاشفين واصحابه لابن المعتمد وهم فى ضيافته عندما أخذتهم إشبيلية بجمالها، وضايقهم ترف المعتمد وتبذيره وتفريطه وملوك الطوائف بالبلاد وهم الصحراويون الذين شغلهم الجهاد جنوب الصحراء طويلا ، كما ان مركز حضارتهم فى فاس لم يجعلهم يلتفتون للتطور الحادث فى الاندلس الا بعد استولوا عليها فإهتموا بالحصول على ذخائر كتبها من المدن الساقطة ؛ من ملوك قشتالة كلما وافتهم الفرص .

حواضر الاندلس ومراكز حضارتها

من قيامها الى سقوطها

وحواضر البلاد هي انعكاس لحضارتها ، ولاندلس اربع حواضر قرطبة - إشبيلية - غرناطة - طليطلة وسنلقى الضوء بنبذة عليها فيما يلي :

أولا قرطبة

فتحتها الأمويون سنة 92 هـ / 710 م واتخذوها مقراً لولائهم على الأندلس ، وقرطبة كلمة رومانية حسب قول ياقوت الحموي تعني في العربية العدو الشديد وجاءت بهذا المعنى في الشعر العربي :

إذ رأيته قد أتيت قرطبةً وجال في جحاشه وطرباً

وفي رواية أخرى تعني صرعه وتعني أيضاً السيف او قطع ، ويرى البعض ان أصلها أيبيري مأخوذ من كلمة كوردوبا Corduba أو Corduva تشير إلى مدينة قديمة ورد ذكرها أثناء الصراع بين روما وقرطاجة عندما اشترك أهلها في حملة هانيبال على روما عندما حكمتها قرطاج ولكنها أصبحت تابعة للإمبراطورية الرومانية سنة 206 ق.م ، حتى الفتح الاسلامي سنة 92 هـ / 710 م ، ولم يعل شأن قرطبة إلا مع قدوم الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وجعلها عاصمة له عام 756 م فكانت بداية عصرها الذهبي في النشاط العمراني عندما بدأ الداخل العمل في جامع قرطبة الكبير ، وأصبحت في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) مقر الخلافة الأموية الجديدة في عهد عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (912 - 961) ؛ الذي لقب نفسه بخليفة المسلمين إستناداً إلى ما اعتبره حق أسرته القديم في الخلافة الأموية ، وبنى بها ضاحية جديدة كمقر لحكومته أسماها الزهراء التي استغرق بناؤها 17 عاماً لجعلها مدينته المفضلة وهي تبعد عن قرطبة عدة أميال ، وبلغت أوج مجدها في عهده بعد القضاء على ثورة الربض ، وتواصل نموها في عهد ابنه الحكم الثاني (961 - 976) ، ولم ينتقص بناء الزهراء من قدر قرطبة التي ظلت المدينة الرئيسية في البلاد.

وكانت قرطبة من أهم مدن القرن العاشر، فهي منارة للعلم والثقافة ، وأنجبت المدينة في هذه الفترة الشاعر ابن زيدون، والشاعرة الأموية ولادة بنت المستكفي، والفقيه ابن حزم، والعالم عباس بن فرناس، كما أنتقل إليها الموسيقي زرياب وأسس دار المدنيات ، وفي العقدین 1020، 1030 سقطت الخلافة بسبب ثورات البربر الذين دمروا مدينة الزهراء في عهد الدولة العامرية التي أقامها الحاجب المنصور على انقاض الامارة الأموية .

وبزوال الدولة العامرية قامت على انقاضها ممالك الطوائف التي ورثت ثراء الخلافة فانقسمت الدولة إلى أكثر من 12 دولة ، منها غرناطة وإشبيلية والمرية وبلنسية وطليلطة وسرقسطة والبرازين وبطليوس ؛ وتنازع حكام إشبيلية وطليلطة المسلمين قرطبة الى ان استقرت بيد ملك إشبيلية الطموح المعتمد بن عباد سنة 1078 م، ففقدت قرطبة مكانتها كعاصمة وبزغ نجم إشبيلية. وفي منتصف القرن الثاني عشر ، استعادت قرطبة مكانتها كعاصمة بعد استيلاء الموحدون على السلطة من المرابطين، وفي هذه الفترة ظهر في قرطبة الفيلسوف المسلم ابن رشد، بالإضافة إلى العالم الديني اليهودي ابن ميمون، أشهر فلاسفة اليهودية في العصور الوسطى ، وبعد هزيمة الموحدين القاصمة في معركة العقاب ("لوس ناباس دي تولوزا" بالإسبانية) عام 1212 م، تهاوت معظم مدن الأندلس في أيدي قشتالة وسقطت قرطبة عام 1236 م على يد فرناندو الثالث بعد ما يزيد على خمسة قرون من الحكم الإسلامي للمدينة.

ثانيا إشبيلية

كانت معروفة باسم هيسباليس فتحها المسلمون في شعبان سنة (94هـ - 713م) بقيادة موسى بن نصير بعد حصار دام شهراً واحداً وأقام عليها عيسى بن عبد الله الطويل، وهو أول ولايتها المسلمين ، وكانت تُعرف أيضاً آنذاك باسم حصص تمرکز جند الشام فيها ؛ واتخذها "عبد العزيز بن موسى بن نصير" عاصمة بعدما خلف أباه والياً على "الأندلس"، وبعد مقتله فيها، نقل خلفه أيوب بن حبيب اللخمي العاصمة إلى قرطبة.

بنى عبد الرحمن الأوسط فيها المسجد الجامع الأول في سنة 214 هـ ، وأحرقه "النورمان" في سنة 226 هـ عند إغارتهم على "إشبيلية" قبل هزيمتهم عند قرية "طليطلة" شمال "إشبيلية" ، وفي سنة 231 هـ بنى سور المدينة الأول، ودار الصناعة

التي لا تزال باقية في موضعها إلى الآن ، وفي سنة 301 هـ هدم ابن السليم أول عمال عبد الرحمن الناصر سور إشبيلية ، وجدد بناء قصر الإمارة.

كانت إشبيلية محلاً للثورات كثرة بني الحجاج وثورة بني خلدون ، اللتين قضى عليهما عبد الرحمن الناصر سنة 300 ، ومع بداية عصر الطوائف سنة 414 هـ استبد أبو القاسم محمد بن عباد قاضي إشبيلية بحكومتها وأنشأ دولة بني عباد الذين بلغت إشبيلية أوج مجدها في عهدهم وبخاصة في عهد المعتمد الذي حقق نهضة ثقافية كبيرة لها وحقق توسعت جغرافيا في جواره ، وفي سنة 484 هـ سقطت إشبيلية وقرطبة في يد المرابطين ؛ وانتهى حكمهم لإشبيلية سنة 549 على يد القائد الموحي برّاز بن محمد المسوفي الذي اتخذ إشبيلية عاصمة له.

في غرة شعبان سنة 646 هـ حاصر ملك كاستيا وليون فرديناند الثالث إشبيلية ودخلها بعد حصار دام سنة وخمسة أشهر ، وفشل سلاطين بني مرين بمراكش حلفاء الأندلس في الأعوام التالية في استرجاع المدينة ، ومن أهم معالمها قصر المبارك لبن عباد ومنارة خيرالدا التي كانت منارة للمسجد الذي بناه السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور سلطان بني مرين الموحي تخليداً لنصر المسلمين في الأرك.

ثالثاً غرناطة

تقع جنوب مدينة مدريد، وتعلو 669 متراً فوق سطح البحر، عُرفت في العهد الروماني باسم أليبيري ، ازدهرت تحت حكم أسرة بني الأحمر التي أسسها محمد بن يوسف بن نصر عام 635هـ / 1238م ومنذ ذلك الحين أصبحت عاصمة لمملكة بني الأحمر الذين استقر بهم المطاف عند موقع الحمراء في الشمال الشرقي من أراضيها وأسموه "قصة الحمراء"، وأقاموا عنده سداً لجمع الماء، وأنشأوا عدداً من الأبراج المنيعه، وسوراً ضخماً لحمايتهم من الأعداء.

مكانتها العلمية

كانت واحدة من حلقات الحضارة الإسلامية في الأندلس ، ومركزاً علمياً كبيراً، بلغت حضارة الأندلس منتهاها تجمع فيها صفوة العلماء والحرفيين والصناع ممن أسسوا لحضارة عظيمة تجمعوا فيها بعد هروبهم من مدنها التي وقعت في يد الإسبان ؛ انتشرت فيها المدارس التي حاضر فيها الكثير من العلماء والأدباء المشهورين فالمدرسة اليوسفية التي أنشئت عام 750هـ / 1349م وكانت تهتم بشتى العلوم المعروفة آنذاك، ويقصدها العلماء والطلاب من كل مكان، منهم الفقيه "ابن مرزوق" والكاتب "عبد القادر بن سوار المغربي" وغيرهم كثير. وقد تهدمت هذه المدرسة ولم يبق منها إلا قاعة الصلاة.

ومن أهم معالمها المعمارية روائع البناء التي تتحدث بنفسها اليوم عن عظمة وجمال هذا المعمار فقصر الحمراء ويعد من أروع القصور في تاريخ العمارة الإسلامية ومن أروع أجنحته بهو الرياح والأسود وهو عبارة عن فناء يحيط به ممر من حوله القاعات والغرف وفي وسطه نافورة لاثني عشر أسداً، أنشأه السلطان "محمد الغني بالله" حين تولى السلطنة عام 755هـ / 1354م ، والقصر مزخرف بزخارف هائلة متناسقة تسر الناظرين ، أما الحجرات فقد كسيت بحشوات جصية تبدو كالسجاجيد، وتعد غاية في الروعة والجمال ، وقصر جنة العريف وقصر شليل أو قصر السيد ويرجع تاريخه إلى زمن الأمير أبي إسحاق بن الخليفة ابن أبي يعقوب بن يوسف ، كما اشتهرت غرناطة بتجميل صحن المساجد بحدائق الفاكهة، ومازنها عبارة عن أربعة أبراج مربعة من طابقين يحيط بها سور ويزين أعلاه بكرات معدنية مختلفة.

ومن علماء غرناطة الإمام الشاطبي العالم الأصولي، ولسان الدين الخطيب الفيلسوف، والسرقسطي اللغوي، وابن زمرك الشاعر، ومحمد بن الرقاح المرسي الذي اشتغل بالهندسة والرياضيات، ومارس الطب على أرضي ، ومن الفلكيين أبو يحيى بن رضوان الوادي أشي، وأبو عبد الله الفحام المعروف بأبي خريطة ، ومن الأطباء المشهورين محمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف "بابن السراج" الذي اشتهر بعمل الخير، وكان يداوي الفقراء مجاناً ويفرق أمواله على المحتاجين ، والكاتب والطبيب يحيى بن هزيل التجيبي، ومحمد الشقوري وكان طبيب دار الإمارة أيام يوسف الأول ؛ ونبغ من فتيانها حفصة بنت الحاج، وحمدونة بنت زياد، وأختها زينب وغيرهن كثيرات.

رابعا طليطلة

وأسمها اللاتيني "توليدوث" (Tholedoth) وكانت المقر الملكي لمملوك القوط وتقع في وسط إسبانيا على بعد 75 كيلو متر من مدريد ، في موقع حصين على مرتفع منبع تحيط به أودية عميقة تتدفق فيها مياه نهر تاجة الذي يحيط بها من جهات ثلاث ؛ ضمها الرومان عام 190 ق م وازدهرت في عصرهم وحصنوها بالأسوار ثم دخلها القوط الغربيون وأطلقوا عليها اسم المدينة الملكية ، وأهتم بها المسلمون اهتمامًا خاصًا وشهدت طليطلة كسائر المدن الإسلامية ازدهارا علميا وعمرانيا كبيرا .

مرت طليطلة بعدة فتن حتى اغتصبها الفونسو من صاحبها القادر بالله بعد حصارها في شهر صفر 487هـ / مايو عام 1085م وكان الفونسو لاجئا لدى والده المأمون ، وقد أحدث سقوطها في أيدي القشتاليين دويا هائلا في أنحاء العالم الإسلامي وقد حاول المرابطون والموحدون استردادها ولكن جهودهم المتواصلة أخفقت وأصبحت هذه المدينة قاعدة هامة للقشتاليين.

أسهمت طليطلة في الحركة الفكرية في الأندلس إسهامًا بارزًا، فقد كانت الحياة الفكرية فيها خصبة وثرية لمكانتها كمركز علمي مهم أفرز جماعة من العلماء كانت لهم إسهامات في شتى العلوم ، نزحوا بعد سقوطها في أيدي الأسبان إلى مدن الأندلس واستمروا في عطائهم الفكري .

ومن أهم معالمها ساحة ثوكودوبير (أصله العربي سوق الدواب) وهو الساحة الرئيسية للمدينة وسوقها في غابر الأزمان وما زال يمثل قلب المدينة ، ومن أهم المساجد الباقية إلى اليوم مسجد المردوم وهو الأثر الوحيد الباقي من مساجد طليطلة إذ تحولت جميعا إلى كنائس في نهاية القرن العاشر بعد أن استباحها الفونسو السادس في عام 1085م ، ومن المعالم الأخرى متحف سانت كروثو أو الكاثار (القصر)، وتحتوي متاحفها الدرر النفيسة من تماثيل الحجر والمرمر والقاعة البلورية التي تزين جدرانها عبارة (لا غالب إلا الله) وعلقت في خزائنها الشفافة ملابس الملوك المسلمين الذين حكموا الأندلس.

النشاط التجاري والصناعي بالأندلس على مر التاريخ

كانت الأندلس منذ الفتح حتى سقوط غرناطة، دائمة الرواج التجاري والصناعي على الرغم من فترات الاضطرابات التي تعترضها من حين لآخر ، نظرا لموقعها الجغرافي بين البحر والمحيط وثرانها من الموارد ، وقوتها في كثير من العهود ، كما شكلا لها ثقلًا إقتصاديًا انضمامها إلى المرابطين والموحدين بإمتداداتها الكبيرة في إفريقيا وكانت لهم سيطرة كبيرة على معابر التجارة الإفريقية وكذا المتوسطية في إطار سيطرة العالم الإسلامي على مسار التجارة الدولية.

وأهم صناعات الأندلس الجلد والخشب والأسلحة وضرب العملة وصناعة الخمر والسكر والزيت والصابون، وصناعة المعادن مثل الذهب والفضة والحديد والرصاص وصناعة الزجاج والزئبق والرخام والكحل والكبريت الأحمر ، والحياسة والخرازة والنسيج وسبك الحديد وصناعة آلات الحرب والنحاس وآلات الخيل وسرجه والصباغة والحجامة والتطبيب والطحن وخراطة العود ونجارة الخشب وتسمير البهائم ، وتصدر منها الجلود والفخار والزجاجيات ومبريات الخشب وأدوات الموسيقى والمصنوعات المعدنية والبسط والورق والكتان والحريز، ومواد الصباغة مثل الزعفران.

ومن أسباب نجاح النشاط التجاري إتسام العلاقات التجارية بثقة كبيرة، إذ كانت المعاملات تنبني على رسم يكتب ؛ وكذا إعتناء الأندلسيون بمراقبة الأسواق وجودة السلع والأطعمة ودقة الموازين وتنظيم المهن ، وقد أعلنت في هذا الإطار من قدر وظائف المراقبين (الحسبة وصاحب السوق وصاحب الشرطة) واعتبروها من وظائف الدولة الكبرى، واختاروا لها الأكفاء من ذوي الورع ، ومن الأدلة على الأهتمام بالنشاط التجاري كثرة كتب الحسبة واعتبار القائمين عليها من ذوي المناصب العليا في الدولة ؛ وأدت دقة العمل في الأسواق وعدالة النظام إلى وفود كثير من التجار الأجانب ، فيخبرنا أبو حيان عن قدوم التجار "الملفين" إلى قرطبة سنة 941/330، وأن قدومهم أصبح عادة متبعة⁽²²⁾ كما وفد العمال الأجانب فيخبرنا صاحب البيان أن المستنصر استقدم صناع

⁽²²⁾ أبن حيان، المقتبس ج، 5، المعهد الإسباني للثقافة- مدريد، كلية آداب الرباط، ص 474- 478 .

الفيسفساء من الروم لترصيع الجامع الكبير سنة 965/354⁽²³⁾ .

وطبق الاندلسيون نظام التخصص في العمل والتجارة وقسمهم المؤلف المجهول كالآتي :

مهن موالى الحواضر :

اشتغلوا ببعض المهن والتجارة وتقديم الخدمات، فمن صنائعهم الحياكة والخرازة والنسيج وسبك الحديد وصناعة آلات الحرب والنحاس وآلات الخيل وسرجه ، والصباغة والحجامة والتطبيب والطحن وخراطة العود ونجارة الخشب وتسمير البهائم ، وكانوا يتجرون في النعال وحياكة الجلابيب واللحم ، أما مجال الخدمات فتمثل في ضرب الطبول والبنود والقيام بالمساجد والأذان ورصد الوقت ودفن الموتى وحفر القبور وحراسة الأسواق ليلا وحراسة الفنادق وحمل السلع من بلد إلى بلد .

مهن من أسلم من المعاهدة (النصارى) :

فمن كان من البادية اكتسب البقر والغنم واشتغل بالحرث وتربية النحل بينما أهل الجبال منهم بالغرس في الجنات ويرعون أشجار الفاكهة ويقطعون الخشب ويصنعون الفحم ، ومن ولي البحر منهم امتهن الصيد وجلب الحوت والسردين وصناعة السفن وآلاتها .

مهن من أسلم من اليهود :

فقد امتهن خياطة الملف والثياب وضفر القيطان ونسج الغُمل والقنصوات وصبغها والحجامة والدلالة في الأسواق و إصلاح النعال المخروزة ، أما الموالى منهم، فقد اشتغلوا بصناعة الصابون والفانيد وتشبيك الفداوش والشعرياء والترد والمقروض، وتفسير الكتب وتزويق الخشب وتركيب المناسج وضرب الدينار والدرهم وحلي النساء وفرط الجمان وخدمة الزجاج وتصفية المعادن وصناعة القدور ، وتاجروا في الحوت والشحوم والأدوية والأعشاب والصوف والكتان وآلات الطرب والحلي ومواد التغذية ، ومن الخدمات التي كانوا يقومون بها، طبخ الأخباز والإسفنج والشواء وعصر الزيت وحملها وتخليص الرباع وتزليجها وخدمة الحمامات وسقاية الماء وكراء الأواني .

مهن النساء :

كن يعملن في الصناعة وكما يقول ابن حزم فمنهن " الطيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنانحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصانعة في المغزل والنسيج" .

أخلاقيات الامة الاندلسية

وانجذاب الاوروبيين للتعلم والاقامة الامنة

كانت اخلاقيات الامة الاندلسية النابعة من مكونات حضارتها وقيم دينها وبيئتها وثقافات عناصرها العرقية راقية لا تمييز فيها ولا عنصرية تتعايش مع الآخر وتتقبله جمعت بلا تناقض بين الدين والدنيا وأعلنت من قيمة العلم ومكانته ؛ فكان الدين من العلم والعلم من الدين ، وهذا عبقرية حضارة الاسلام العابرة للعراق والثقافات فلم تختلف عنه منارته في الاندلس ؛ التي نوه ببرك بتركيبتها الاخلاقيات فيقول " ساد التسامح وألفة والتعايش بين اهل الاندلس من مختلف الاصول والديانات عربا واسبانيا ؛ مسلمين ومسيحيين ويهودا ويرجع هذا الجو الايجابي الى خلق الاسلام وعدله ، ويضيف أن الاناشيد الاسبانية القديمة وثقت اخلاقيات هذه الامة ووصفت العرب بأنهم خصوم شرفاء يحترمون تعهداتهم " ويضيف د. جوستاف لوبون الى ذلك فيقول " كان

²³ إن إتساع مملكتا المرابطين والموحدين، التي امتدت من الأندلس عبر معظم شمال أفريقيا واجزاء من جنوب الصحراء ضمت معابر تجارية هامة منها معابر الذهب القادمة من غرب أفريقيا ؛ فقد سيطروا على موانئ منتشرة من فالينسيا إلى طرابلس في عهد الخليفة عبدالمؤمن 1130-1163، كما تحكمنا بالمعابر البحرية الحساسة في جبل طارق ، وساهم تعاون الموحدين مع الأيوبيين في مصر في السيطرة على الطرق الرئيسية المتوسطية ، وكان لهذه الدول المغاربية ثقلاً إقتصادياً لا سابقة له في عالم البحر الأبيض المتوسط حتى إنتشر تقليد دينار المرابطين الذهبي (مرابطون Murabituns) في أسبانيا المسيحية وجنوب أوروبا.

العرب يتفوقون على النصارى خلقا وعلمًا وفي مجال الصناعة والمهن ، وتحلوا بالكرم والاخلاص والرحمة والالتزام بالكلمة واحترام العهود وهو ما لا تجده لدى غيرهم ، وان تمسكهم بالوفاء بالعهود يؤدي الى تحملهم كثير من الشحناء والمبارزة ، ومن سماتهم ايضا التسامح العظيم والرحمة بالضعفاء والرفق بالمغلوبين ؛ وكثير من هذه خلال وعلى رأسها الفروسية اقتبستها اوربا من الاندلس عبر اسبانيا ، وان روح التسامح التي تحلت بها الاندلس وفرت لاساقفة الروم ومطارنة اللاتين من رجال الدين المسيحي الحماية وعصرا من الدعة والطمأنينة لم يعرفونه من قبل" ، ويستطرد " وقاموا ببناء الكثير من الكنائس وعقدوا مؤتمراتهم الكنسية في اشبيلية عام 822 م وكذلك في قرطبة عام 852م ، في اطار الحرية الدينية التي كفلها لهم المسلمون " (24).

كانت الاندلس البلد الوحيد في اوربا الذي تمتع فيه اليهود بحماية الدولة ورعايتها في اطار الامن والحرية التي كفلها الاسلام لاهل الذمة فكثرت اعداد الوافدين منهم بعدما افتقدوا الامن والحرية في سائر اوربا (25) ، كما كانت الاندلس ملاذا للاسبان المعارضين الفارين من بلادهم لاسباب سياسية طلبا للامن والامان سواء كانوا أفرادا او ملوكا ومن بينهم سانشو ملك ليون الذي آواه عبد الرحمن الناصر بعد فراره من اخيه الذي ازاحه من عرشه ؛ كما لجأ الفونسو السادس ملك قشتالة الى المأمون بن ذي النون امير طليطلة هربا من اخيه سانشو الثاني الذي استولى على عرشه ، ومن غدر هذا الملك انه بعد ان إسترد عرشه بعد وفاة اخيه انتزع طليطلة من القادر بن ذي النون الذي احسن والده اليه وأواه في بلاطه (26) وشن حملات صليبية متتابعة على دويلات الاندلس في تبنيه لاستراتيجية قوية للاسترداد.

اجتذب هذ المناخ طالبي العلم من الاسبان والاوروبيين لتحصيل العلوم التي تحظرها الكنيسة في بلادهم ؛ فأقبلوا على الاندلس لتحصيل العلوم الحديثة بعيدا عن تضيق الكنيسة ؛ ويؤكد " بيرك " توافق الاسلام مع العلم والعلماء فيقول " حيثما وجد الاسلام يوجد حب المعرفة لغياب عقدة العداء بين العقيدة والعلم " ، ومنذ عام 1255م زاد تدفق طالبي العلم بعد تخلي الكنيسة عن عدائها للعلوم ونقلها عن المسلمين فزادت اعداد الوافدين لنقل العلوم التي كانت محتشدة في الاندلس (27) ؛ ونعت الرحالة الاوربيون الذين زاروا مناطق "المورسكيين" maures في تطوان بالمغرب بعد الخروج من الاندلس بأنهم ظرفاء متحضرين متسامحين مع المسيحيين لطفاء معهم .

اقتباس اوربا التراث العلمي للحضارة الإسلامية

حركة الترجمة الاوروبية للعلوم العربية

ان نفائس الكتب تصبح عديمة القيمة ان لم تتداول كما انها تفقد فعاليتها ان بقيت في لغتها الاصلية وتقل قيمتها لانعزالها ومحدودية الاطلاع عليها ، والترجمة هي المفتاح لتداول المعرفة على نطاق واسع واداة لإحياء الثقافات ووسيلة لازدهارها ؛ ف بالترجمة استنفذ العرب الثقافات القديمة من الاندثار عندما قاموا في العهد الاول لامبراطورية الاسلام عهد بنى امية باول حركة ترجمة كبرى في التاريخ لنقل معارف الامم القديمة في اليونان والهند وفارس وغيرها التي مهدت الطريق للحضارة العربية الاسلامية .

وعلى غرار حركة الترجمة العربية الأم قامت حركة الترجمة الاوروبية الابنة ، فقامت المراكز الاوروبية في كل من اسبانيا وجامعة طولونيا "بإيطاليا" وصقلية على نحو مماثل باكبر حركة ترجمة في العصور الوسطى لنقل العلوم من العربية ، وقد مرت تلك العملية بالمراحل التالية :

²⁴ حضارة العرب ص 282.

²⁵ حضارة العرب ص 277 - 278 - 282 .

²⁶ Dr Lea , History of Inquisition In Spain -- v.i.p62,64,51 نقلا عن نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص 55 و 69 و 72

— محمد عبدالله عنان.

²⁷ (تحررت الكنيسة من العداء للعلوم على يد احد الاسبان الشماليين من تلامذة ابن رشد في 19 مارس من هذا العام بسماعها بادراج مؤلفات ارسطو الى البرامج الدراسية " المصدر عندما تغير العالم - ص 50 - ص 68 .

المرحلة الاولى

القرن الثامن وحتى منتصف القرن 11م

وتقع بين سنة 711م وحتى منتصف القرن 11م ، وهي فترة احتكاك الاوروبيين بالمسلمين خلال التغلغل العابر لجيوش المسلمين في اوربا او اقامة عناصر اسلامية فيها ؛ وخلال هذه المرحلة اقتبس الاوروبيون العديد من مؤثرات الحضارة الاسلامية ؛ وقامت مدرسة " سالرنو" بترجمة اعمال بيت الحكمة ومدرسته الطبية في القيروان بتونس التي كانت بفضل رعاية حكامها الاغالبية في الفترة من 800 – 909 م مركزا ثقافيا للجزء الغربي من العالم الاسلامي في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، و بذلك كانت مدرسة " سالرنو" ، اللبنة الاولى لحركة نقل العلوم العربية الى اللاتينية .

بالرغم من ان اعمال الترجمة كانت محدودة في البداية وغير منظمة الا انها ازدادت كثافة في القرن 10 الميلادي مع ذيوع صيت العلوم العربية بفضل جامعة قرطبة الاسلامية التي أصبحت بالنسبة لاوربا اعظم منهل للعلوم والمعارف في ذلك الوقت ؛ وممن ساهموا في دفع عملية الترجمة في تلك المرحلة وبالتقريب عام 953م الراهب الفرنسي " جربير" Gerbert of Aurillac الذى قاد حملة ضد عداء الكنيسة للعلوم الطبيعية بعدما ادرك اهميتها بفضل احتكاكه بالاندلس ، وكانت لجهوده سواء في الترجمة او للتصدى للكنيسة الفضل الاكبر في انطلاق عملية امتصاص العلوم العربية وإن كانت لم تنجح في دفع الكنيسة للتراجع كلية عن موقفها من العلوم والنقل عن العرب حتى ذلك الحين .

وساعد تساقط مراكز الثقافة الاندلسية في ايدي الاسبان على حصولهم على كنوز الكتب العربية مما وفر معينا لا ينضب للترجمة ؛ ويقول بيرك عن سقوط توليدو (طليطلة) وكنوزها من الكتب " ان لحظة تاريخية مذهلة كانت ضربا من الحظ دفعت عملية النقل والترجمة بقوة ؛ اذنت باعادة اكتشاف المعرفة عندما سقطت قلعة توليدو العربية عام 1085 م بكنوزها الادبية في ايدي الاسبان الذين وجدوا في تلال المخطوطات كنزا ادبيا كان ابعد ما يكون عن كل الاحلام " ، علاوة على ما سبق وما لحق ان جمعه من المناطق العربية الاخرى التي تلاحق سقوطها في ايديهم " .

المرحلة الثانية

عصر الترجمة الذهبي

وتركزت بشكل واسع في صقلية التي تعهد ملوكها المتعاقبين ميراثها من الحضارة الاسلامية ، وتعهدت طليطلة في الاندلس عملية ترجمة واسعة على نحو مماثل ؛ وقد أستغرق هذا العصر الذهبي ألفرة من منتصف القرن 11م وحتى منتصف القرن 13م ؛ ففي صقلية أطلق وليم الفاتح عام 1076م عملية الترجمة عقب استيلائه علي البلاد من أيدي العرب مدفوعا بشغفه واحتكاكه القوى بالحضارة الاسلامية القائمة في صقلية ؛ وسار على نفس الدرب ملك صقلية روجر الثاني (1096- 1154م) الذى سار على درب ملوك المسلمين في رعايتهم للعلم فحشد العلماء المسلمين في بلاطه ومن ابرزهم " الشريف الادريسي " اعظم الجغرافيين في العصور الوسطى ، وأضاف الامبراطور فريديريك الثاني 1194- 1250م وريث العرش الصقلي والامبراطورية الرومانية المقدسة زخما الى حركة الترجمة مدفوعا بميراثه من الحضارة العربية بحكم ما نشأ بينه وبينها من روابط أثناء حملته الصليبية على الشام (28) وما لها من نفوذ قديم في صقلية ، علاوة على تمكنه من اللغة العربية .

ومن الذين ساهموا في عملية الترجمة " شارل انجو " شقيق الملك لويس التاسع ملك فرنسا الذى أمر بعد تربيعة على

(28) توج ملكا على صقلية عام 1198 م ، وعلى المانيا عام 1215 م ثم امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة عام 1220 م والت اليه القدس بعد زواجه بايزابيل وريثة جون اوف بريين (Gohn Of Brienne) ملك القدس وكان هذا سببا في مشاركته في الحروب الصليبية ؛ وكان فريديريك يجيد اللغة العربية وعلى معرفة كبيرة بالاسلام وكانت له عادات اسلامية تخالف المسيحية كتعدد زوجاته وعزلهن في حرمك منفصل على الطريقة الشرقية ؛ مما عرضه للاتهام في دينه وانزال عقاب الكنيسة به مرتين ، وقد استطاع ان يتحلل من العقاب في المرتين الا ان هذه المخالفات استعدت عليه البابا جريجورى التاسع فشن عليه حربا مقدسة في صقلية لم تنجح ، ولعل ميله للاسلام كان السبب في قبول الملك الكامل ملك مصر اجراء صفقة مهادنة معه قبل نزوله الشام وافق بمقتضاها على تسليمه القدس وديا حتى يفرغ للصراع مع اخيه المعظم عيسى سلطان سوريا ، ولكنه لم يتراجع عن الصفقة حتى بعد موت اخيه وفاجأ الجميع مسلمين وصليبيين وقبل وصول فريديريك بعقد هدنة عشر سنوات يتخلل فيها طواعية عن القدس في اطار معاهدة يافا الموقعة في فبراير 1229م ودخل فريديريك القدس في 18 مارس 1229 ، المرجع :

عرش صقلية عام 1266 م بترجمة المؤلفات العربية على أيدي مترجمين عرب ، كما قامت جامعة " بادوا " فى شمال ايطاليا بدور هام فى عملية الترجمة ، وفى طليطلة اسس " ريموند " اسقف " توليدو " عام 1135 م رابطة المترجمين الحرة التى بفضلها تنامت عملية الترجمة ، وكانت مجموعة " دومنجو جونزاليز " رئيس شمامسة أشبيلية اكثر المجموعات انتاجا ؛ وكان الايطالى جبرار الكريمنى (1114- 1178 م) أبو حركة الاستعراب أعظم مترجمى العربية فى تلك المرحلة بعد ان استقر فى طليطلة بعد زوال الحكم العربى عنها .

المرحلة الثالثة

طليطلة كمركز للترجمة

استغرقت تلك المرحلة قرنين من الزمن من منتصف القرن 13 م وحتى منتصف القرن 15م ، قامت فيها طليطلة بدور رئيسى بعد ان تحولت الى مركز للترجمة اضافت زخما لعملية الترجمة ، كما كان تأسيس الفونس الحكيم جامعة أشبيلية لتعليم العربية واللاتينية علامة بارزة فى هذه العملية ، واشترك بعض العرب واليهود فى اقامة مدرسة للترجمة فى " مونبليه " .

امتصاص اوروبا للعلوم العربية

حصيلة الترجمة

أسفرت حركة الترجمة عن ذخيرة هائلة من المعرفة فى مختلف مجالات العلم الطب، الفلك، التنجيم، الصيدلة، الفسيولوجى، علم النفس، الاحياء ، علمى الحيوان والنبات ،التعدين والبصريات ، الكيمياء والفيزياء ، الرياضيات ، الجبر، الهندسة ، الحساب والمثلثات ،الموسيقى ، الارصاد ، الميكانيكا ، الهيدروستاتيكا ،الملاحة البحرية ، التاريخ ، وقد بلغ عدد الكتب المترجمة من العربية حوالى 300 كتاب فى مجال الطب وحده ؛ منها مائة كتاب منقولة عن اليونانيين ، وقد تركت الترجمات اثارا ايجابية هائلة على نهضة اوروبا ويقول " جيمس بيرك " " ان هذا الكم الهائل من المعرفة لو كان استوعبه الأوروبيون لكان كافيا ليحدث تحولا حاسما فى تاريخ نهضتهم " (29).

وقد استغرق امتصاص اوروبا للعلوم العربية واستيعابها القرنين 15- 16م ، وهى الفترة التى وضعت اوروبا على طريق النهضة ثم الانطلاق على طريق النهضة الحديثة على نحو ما فعله العرب من قبل .

مكانة اللغة العربية كلغة للعلوم

بدأ نفوذ اللغة العربية منذ ان إعتمدتها الامبراطورية الاموية فى دمشق عام 700م لغة رسمية وحيدة فى دوواوين الحكومة ، واكتسبت هذه اللغة نفوذا كبيرا خارج موطنها الاصلى مع الفتوح العربية وانتشار الاسلام فى كافة الارحاء فتعربت شعوب بأكملها فى اسيا وافريقيا وكتب بها كل علماء المسلمين فى فارس واسيا الوسطى وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس قرطبة وطليطلة وغرناطة بالاندلس ومراكز العلم الاسلامية فى افريقيا تمبكتو وجنى.

وزاد اللغة العربية نفوذا ؛ محوريتها فى عالم المعرفة كوعاء لتأليف الكتب حتى اقبل على تعلمها كل من رغب من الاجانب فى إقتباس العلوم العربية فإكتسبت العالمية ، ويقول " جورج سارتون " أنها كانت فيما بين القرن 8 م وحتى نهاية القرن 11م لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى كله ، وكل من أراد أن يلم بثقافة العصر كان ينبغي عليه أن يتعلمها " (30) ؛ فتعلمها الاوروبيون حتى اتقنها الكثيرون ؛ ويحدثنا " دوزيه " فى كتابه " مسلمو الأندلس " عن الانتشار الواسع لتعلم العربية بين الاوروبيين حتى وان جاء على حساب تعلمهم اللغة اللاتينية مما اثار اسى وغضب الكاتب الأسباني " الفارو " فإنتقد تبرح الاوروبيين فى دراسة وتذوق الادب العربية وبراعتهم فى كتابة العربية نثراً وشعراً كأبنائها اعجابا بتراث العرب فى الوقت الذى نسوا فيه لغتهم " ؛ وممن عرف العربية وقرأ بها من العلماء الاوروبيين بريستلى عبقرى الكيمياء الذى كان يراجع الكتب العربية

29 (عندما تغير العالم - ص50 جيمس بيرك .
30 (الحضارة الاسلامية ص 30 جلال مظهر .

بلغتها الاصلية ، و " روجر بيكون " الذى تعلم العربية ونقل من كنوز العرب الكثير.

تأثير الحضارة الاسلامية على عالم اليوم كيف غير المسلمون العالم

كان لابد وان يكون لتراث بعمق الثقافة الاسلامية افرازاته على الحياة اليومية لاجيال فقد امتدت اثاره الى عالم اليوم ؛ وقد سجلت صحيفة الاندبندنت تقريراً فى هذا الصدد نُشر فى 11 مارس 2006 م بعنوان " كيف غير المسلمون العالم " اوردت فيه إسهامات المسلمين وتأثيرهم الذى لا حدود له على الحياة اليومية لعالم اليوم على النحو التالى :

" فالقهوة التى يبدأ كل فرد فى العالم يومه بإحتسانها ؛ عربية المنشأ إكتشفها خالد عندما لاحظ تأثيرها على اغنامه ، ونقلتها تركيا الى انجلترا عام 1650م عندما أفتتح اول مقهى فى لندن للقهوة ، وأشار التقرير الى اختراع ابن الهيثم للكاميرا (اصل اسمها العربى القمرة اى الحجرة) وهو من نقل الفيزياء من الانشطة الفلسفية الى العلم التجريبي .

وفى مجال الطيران اشار التقرير الى سبق الاندلسى عباس ابن فرناس الاخوين رايت فى محاولة أطيروا ، والى فضل العالم العراقى الاصل على بن تافى الملقب بالطائر الاسود لاختراعه النظارة المكبرة ؛ وهو الذى وصف وجبة متكاملة للصحة الجسدية تبدأ بالشورية ثم اللحوم او الاسماك وتنتهى بالفاكهة ، كما اشار الى اختراع المهندس الجدارى اول آلة لنقل المياه بغرض الري وتضمن كتابه رسوم ميكانيكية للصمامات والمكابس التى تُستخدم فى الساعات الميكانيكية التى تعمل بالماء و هى التى جعلته ابو الروبوت (الانسان الالى) "

" و اخترع مسلمو ايران عام 634م طاحونة الهواء التى استخدمها العرب فى الصحراء قبل ان تعرفها اوروبا بخمسائة عام ، وإخترع العالم الزهراوى العديد من ادوات الجراحة التى ما زالت تُستخدم حتى اليوم .

ويشير التقرير الى ريادة تركيا لتطعيم الاطفال الذى نقلته زوجة السفير الانجليزى الى بلادها ، وإقتباس الصليبيون الاغتسال بالصابون وصناعته عن المسلمين الذين كانت النظافة والاغتسال مبدأ هام لديهم ، وان خبرة المسلمون فى هذا المجال جعلت البلاط الانجليزى يُعين عام 1759م مسلماً هندياً يمتلك محلاً لبيع مستلزمات النظافة فى مدينة بريتون للقيام بمتطلبات النظافة للملكين جورج ووليام الرابع ، كما اقتنست اوروبا صناعة الغزل عن الشرق "

" ويشير التقرير الى ان المسلمون هم اول من استخدم نترات البوتاسيوم فى الاغراض العسكرية فى حربهم ضد الصليبيين مثل الصواريخ ذاتية الحركة (المنجنيق) والطوربيد البحرى .

وفى مجال الكيمياء اشار التقرير الى فضل جابر بن حيان ابو الكيمياء الحديثة فى اختراع العديد من العمليات الكيميائية وما تركته اعماله من اثر فى تاريخ العالم ، وان المسلمون هم اول من استخدم الشيك (مشتقاً من كلمة الصك) فى المعاملات التجارية ولهم اسهاماتهم فى مجال البناء فهم اول من وضع نظاماً للارتفاع وتضخيم المباني (31)" ، ونسى التقرير الاشارة الى صناعة السجائر التى ابتدعها جنود الحملة المصرية على الشام فى عهد محمد على عندما قام جنود ابراهيم باشا بلف التبغ فى لفائف لعدم وفرة القليون .

سبق ابن حزم اكتشاف استمرار اشراق الشمس على جزء من الارض قبل ان يكتشفها جاليليو بخمسائة عام .

ومن اختراعات المسلمين التى ابهرت اوروبا الساعة المهداة من هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا فى اوائل القرن 11م ؛ والتى ادهشته وحوارييه البرابرة على حد وصف لوبون (32) ، ونذكر بجهاز العد الحسابى Abacus وجهاز الاصطراب لقياس المسافات بين الكواكب وتبيان مواقعها ، ودولاب نقل المياه التى استخدمها الاندلسيون فى الري وهى من اسباب تفوقهم الزراعى ؛ التى نقلها عن الاندلس " جيربرت أوف اوريلاك " Gerbert of Aurilac (تولى فيما بعد كرسى البابوية باسم سلفستر الثانى 999 -1003م) .

³¹ (روزاليوسف العدد 180 فى 12 مارس 2006 .

³² (حضارة العرب ص 172.

فضل حضارة الاسلام على أوروبا ما بين النُكران والعرفان

كان وضع أوروبا الحضارى فى العصور الوسطى مذبذباً على حسب ما اوردناه آنفا ولما كنا فى معرض نُكران اوروبى لفضل الحضارة الاسلامية عليهم فى مجال العلم يستوجب الامر وقفة لاعادة التذكير بحالة اوروبا الثقافية قبل احتكاكها بالمسلمين فى المشرق والمغرب والاندلس لجمع صورة شاملة (33) فـ " هونكه " المؤرخة الألمانية تقول: " أن المدنية الأوروبية لم يكن لها وجود قبل إحتلال العرب للاندلس ؛ ويقول جورج كيرك " بلغت الاندلس تحت يد العرب شأنًا عظيمًا فاقت به أوروبا ، وإن قرطبة كعبة الثقافة كانت أعظم منهل للعلوم لأوروبا التي كانت مدنها آنذاك بما فيها لندن وباريس مازالت على الهمجية " وكانت الاندلس صاحبة الفضل الأكبر في تقدم أوروبا التي عاشت حالة من التذني حتى القرن التاسع قبل إحتكاكها مع مسلمي الاندلس ، وبينما كانت الحضارة العربية قبله ومنهلاً للأوروبيين للحصول على المعرفة ، كان مسلموا الاندلس وهم يستشعرون قدر حضارتهم وسموها ينظرون بتدنى الى الاسبان ليس فقط لجهلهم الثقافى وإنما ايضا لقدراتهم وتدنى ثقافة النظافة لديهم على نحو ما كانت عليه سائر انحاء أوروبا ؛ وكانت غير الاسبان جلية من التفوق الاندلسى فى المجالات المختلفة خاصة مملكتا ليون وتافارى اللتين إعتدنا على قرطبة فى تلبية احتياجاتها من الاطباء والجراحين والمهندسين والمعماريين وصولاً الى مصفى الشعر على حد قول جيمس كيرك ، بينما لم يُخف آخرون اعجابهم بالحضارة الاسلامية فالفونسو العاشر ملك قشتالة الملقب بالعالم او الحكيم اقام صلات وثيقة بعملاء الاندلس وكان يُقدر علمهم ورفيع ثقافتهم وتأثر بمنهجهم " .

ولما حقق الاوربيون ثورتهم الصناعية وإنبهروا بإنجازاتها ، تملكتم روح التعالى العنصرى وتبنوا فى القرن 18 سياسة الزهو العرقى والإعتزاز بالانتماء للهندوجيرمانية وإعلاء كل ما ينتسب لهذا العنصر الهندوجيرمانى Indogermanisch وثقافته ؛ وبالمقابل الحط بثقافات وأعراق الارض ، فتكررت أوروبا المزهوة بتفوقها لأفضال الحضارة الإسلامية أساس نهضتها ؛ وحاولت وهى فى خضم طمس كل الآثار الدالة على ذلك؛ التناول على ابداعات هذه الحضارة ذاتها فأخذوا يكيلون للعرب الاتهام بأنهم هامشيون يعيشون فى ظلال اطلال الحضارات القديمة ؛ و هم ليسوا الا مجرد نقلة حضارات وليسوا لها مبدعون ؛ و يصف لنا دريبر " تحاليل الأدب الأوروبى على طمس مآثر المسلمين العلمية الا أنه ككاتب منصف يرى " أن هذا الجور المبنى على الحقد الدينى والغرور الوطنى لايمكن أن يستمر الى الأبد " .

وتصدت المستشرقة الألمانية " د. سيجفريد هونكه " لتلك المحاولات فتقول: " إن العرب لم يستنفذوا فقط علوم الإغريق من الزوال ، وإنما قاموا بتنظيمها وترتيبها ثم أهدها إلى الغرب ومعها ما أسهموا به كمؤسسين للطرق التجريبية وأساليب البحث العلمى فى مجالات العلوم والرياضيات والاجتماع ؛ بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات التي نُسب أغلبها لآخرين ؛ وأسست هونكه لضبايح حضارة الأندلس العظيمة بزوال حكم المسلمين ، فتقول " أن العرب جعلوا من الأندلس خلال مائتى عام بلداً عظيماً يقدس العلم والثقافة بعدما كان بلداً فقيراً مُستعبداً ؛ قادت فيهما الاندلس أوروبا إلى النور بعد تأخير طويل نتيجة عزلتها عن الإسلام " .

ومن المنصفين د لوبون الذى يشير الى التأثير السلبي لمعركة بواتييه (بلاط الشهداء) على مد الحضارة الاسلامية الى اوروبا فيقول " ان تلك الهزيمة التي ادت لاحتسار المد العربى عن اوروبا حرمتها من اللحاق بنصيب من الحضارة الزاهرة التي نهلت منها اسبانيا (34) " ، ويتأسى المفكر " كلود فارير " بقوله .. " فى عام 732 م حدثت فاجعة من أشأم نكبات الإنسانية فى القرون الوسطى ، هى الإنتصار البغيض " لشارل مارتل " على العرب المسلمين بقيادة " الغافقى " ، ففي ذلك اليوم المشنوم تراجعت المدنية ثمانية قرون ففرق الغرب فى الهمجية والتوحش ؛ وكفى المرء أن ينظر الى الأندلس وحضارتها الخالدة ليستخلص ما قد عسى أن تكون عليه فرنسا لو دخلها الإسلام العمرانى الفلسفى المتسامح " ، ويُقر يوسف هل بفضل الحضارة

³³ (يصف " جيمس بيرك " بقوله " حال أوروبا فى العصور الوسطى بقوله " كم كان الاوروبيين فى العصور الوسطى قبل عصر " كوبرنيكس " اغبياء إذ ظنوا ان الشمس تدور حول الارض وليس العكس ؛ ولو كان لديهم قدرا ولو ضئيل من الفهم لادركوا ان العكس هو الصحيح " - مستقبل الحضارة ص 93- 94 - يوسف كمال.. نقلا عن موجز تاريخ الشرق الاوسط لـ جورج كيرك ترجمة سمير الاسكندراني- ونكرر وصف جوستاف لوبون وضع اوروبا الثقافى قبل مجئ العرب فيقول " لايمكن أن نتذكر قبل القرن 15م ؛ قبل التعرف على الحضارة العربية أن عالما أوروبيا قد ابتكر شيئا بخلاف ما أستنسخه من كتب العرب " ، وتقول المؤرخة الألمانية " هونكه " .. " أن المدنية الأوروبية لم يكن لها وجود قبل إحتلال العرب للاندلس

³⁴ (حضارة العرب - ص 270 و ص 317 .

العربية على الحضارة الإنسانية عامة وبما قدمته للنهضة الأوروبية ركيزة الحضارة الغربية ام الحضارة الحديثة خاصة ، ذلك الفضل الذى لا يقل فى رأيه عن فضل الحضارات الأولى على العالم.

ولم ينكر العديد من العلماء دور الاسلام كعقيدة فى تشكيل تلك الحضارة فيقول هل.. "لم يتهياً لدين أن يحدث تغييرا سريعا ومباشرا حرك الدنيا سوى الاسلام ؛ ويكفى الحضارة الإسلامية فضلاً أنها أول حضارة عالمية انضوت تحت لوانها الإنسانية بمختلف الألوان والأعراق والديانات" ، وشاركة القول الفيلسوف ازوالد شبنجل فى كتابه " سقوط الغرب " الصادر عام 1917 بامتداحه قدرة الاسلام على استيعاب كل الثقافات تلك القدرة التى كانت سبب نجاحه فيقول " لم يكن لغز النجاح الخارق للاسلام بسبب اندفاعه الحربى بقدر ما كان بسبب استيعابه كل الديانات " .

ويعقب "Philip hitti" على ما قدمته الحضارة الاسلامية للإنسانية بقوله "لايوجد شعب ساهم فى تقدم البشرية فى العصور الوسطى مثلما ساهم به العرب والشعوب المتحدثة بالعربية" ، ويذكر " جيمس بيرك " أن أديلارد الأنجليزى الذى تحصل العلم والمعرفة من سوريا وفلسطين وصقلية وجد كثير مما كان يبتغيه من العلم فى الأندلس ، وانه إكتشف ألمزيد من العلم والمعرفة كلما توغل جنوبا عند العرب ؛ الذين بفضلهم تحرر من عقدة الخصومة بين الدين والعلم ، وأخذ عنهم المذهب العقلى والمدخل البحثي التجريبي للعلوم الطبيعية" ، ويستطرد بيرك "بأن علوم الأندلس فجرت ثورة معرفية وفكرية فى أوروبا حتى صار تعلم اللغة العربية مطلب كثير من طالبى العلم لينقلوا من علوم العرب ؛ ومنهم " روجر بيكون الذى الذى تعلم العربية ونقل عن العرب الكثير كالمناهج التجريبي والإستقرائى أدوات التطور وقام بتدريس علوم الأندلس فى جامعة إكسفورد ، كما ان سجلاته عن كشف الأندلسيين فى الاطلنطى ساعدت كولمبس قبل رحلته الاطلنطية(35)" .

³⁵ (مستقبل الحضارة ص 93- 94 - يوسف كمال.. نقلا عن موجز تاريخ الشرق الاوسط لـ جورج كيرك ترجمة سمير الاسكندراني.

الفصل الثالث الامة والجهاد فى منظومة الحضارة الاسلامية

هناك عنصرين من المفردات المميزة لشخصية حضارة الاسلام وتختص بهما دون سائر الحضارات ؛ هما عنصران الامة والجهاد ، فهما من مقوماتها الشخصية ومتممات منظومتها التى لا يستقيم فهمها بدونهما ؛ فمضمون أمة الاسلام يعنى الوحدة والتضامن بين أعراقها المختلفة من مشرق الارض الى مغربها فى اطار من وحدة الامة الاسلامية ؛ وحدة لا محل فيها للتمييز العرقى محكومة فى علاقة مكوناتها البينية ؛ بالتقوى بسموها الالهى وعدالتها وقسطها اى انسانياتها ومساواتها بين البشر بلا فضل لعربى على اعجمى بسبب العرق وانما بالعمل وهو التقوى .

ومن علامات رقى هذه الامة انها ساوت بين أعضائها جميعا مسلم وغير المسلم تأسيسا على ما يجمعهم معا من اخوة فى الانسانية قبل ان تجمعهم اخوة العقيدة فالدين لله والوطن للجميع ، وهو اقرار بمدينة الدولة حسب المفهوم العصرى ؛ التى أخذ بها رسول الله(ص) فى ميثاق دولة المدينة عند قيامها ؛ وساوى فى الحقوق بين المسلمين وغيرهم من اهل الذمة الذين يعيشون بين ظهرانى المجتمع الاسلامى رغم الاختلاف العرقى والثقافى فما بالك باخوة الدم والثقافة وان اختلفا فى العقيدة وهى حقوق لم تعرفها فى ذلك الزمان غير مجتمعات الاسلام .

وبتجاوز الاسلام للاعراق أصبح عابرا للقوميات وأصبحت حضارته اسلامية موصومة بدلالة انتماها الاكبر "الاسلام" قبل ان تكون عربية ؛ فأصبحت اسلامية قبل ان تكون عربية النسب والانتساب وهو ما جعلها تقيم توازنا بين مكوناتها دون تمييز دفعا للتعصب وما يتطلبه من انسجام وتعايش وتسامح بين ابنائها يقبل فيه الواحد الآخر على اساس من التفاهم والتعاون ، فتشكلت بمفهوم الاسلام وسطية هذه الامة فى كل الامور بما فيها حضارتها بتعدداتها الثقافية التى توحدت من تاج محل المغولى الى حمراء الاندلس وما بينها من قطوف رائعه فى مختلف ارجاء عالم الاسلام فى مجال العلم والبناء والابداع الفنى.

ويقتضى تماسك هذا التراث العظيم فى اطار من وحدة الامة الدفاع المشترك عن مصالحها دون ان يتقاعس مسلم عن نصرة مسلم آخر بروحه وماله وان بعدت الشقة ، كما حُرِّم الاقتتال بين ابنائها الا لنصرة المظلوم او رد الظالم عن ظلمه ، وحضارة اليوم إقتبست مثل هذه المكونات بإقامة التحالفات العسكرية وتجمعات التعاون الاقتصادى لنصرة بعضها البعض فى رد العدوان او لمكافحة الفقر والكوارث.

ومن هنا اصبح الجهاد ضرورة للدفاع عن تماسك الامة ووحدتها وعقيدتها واصبح عنصرا من عناصر هذه الحضارة ، وكان له فى بداية عهد الاسلام فضل انتشاره هو وحضارته ؛ تبادلا فيما بينهما بعد ذلك دورة تبادلية من النشأة والانشاء ، فالجهاد نشر الاسلام وحضارته على امتداد مساره واقام دولا افرزت نصيبها من العلم والعطاء فى اطار من حضارة الاسلام ؛ شاركت هى الاخرى (الدول) فى دورة الجهاد لنشر الاسلام ، والجهاد هو الذى دافع عن منارات الحضارة الاسلامية وحسم مصيره مصيرها ايجابا او سلبا ، ولذلك فالاسلام مشروع حضارى بدأ بإقرأ والسعى للعلم ولم ينتهى ، وسنعالج موضوعى امة الاسلام والجهاد بالفكر والمنظور التالى:

اولا : امة الاسلام

ومفهوم الامة فى الاسلام لا يبنى على رابطة العرق او وحدة الدم وانما يبنى على مفهوم نفسى قائم على التوحد فى اخوة تجب كل الحواجز والفروق العرقية واللغوية ، تتمثل قوته فى تحرره من العصبية قائم على تضامن ابناء الامة فى اخوة والفة صادقة فى اطار روحى مترابط يتجاوز حدود الوطن والجنس ؛ ويقول الكتاب الكريم فى سورة الانفال 63 اية " وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63) ؛ وهذا الرباط الروحى اسمى من تلك الروابط الفردية القاصرة ، وبمعنى آخر رابطة تجتث الوعى العرقى وعصبية بين المسلمين ليتوحدوا تحت مظلة الجماعة بما يولد مجالا للوعى المشترك بدافع من فيض الايمان ؛ وهو أهم انجازات الاسلام على حد قول تونبى .

والتضامن اى الوحدة هى روح امة الاسلام ومضمون قوتها ؛ وهو تضامن يدعمه النص المقدس والاحاديث النبوية ، فالنص القرآنى يقول (الانبياء 92) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (92) ، وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ

فَاتَّقُونَ (52) (المؤمنون 52) " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) (ال عمران 103) ، والحديث النبوي يقول " انما المسلمون أخوة في توادهم وتراحمهم ؛ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى " .. فالمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعض ، وعلى هذا النحو يقول الحديث النبوي " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم "... .

ومفهوم الامة بهذا الشكل يشكل مضمون قوة وتماسك يفضى الى التضامن والتكافل بين عناصر عرقية وثقافات مختلفة تجمع مفرداتها في وحدة واحدة تندمج في كيان واحد لاينفصل يجتمع في تماسك ووحدة عابرة للاعراق ؛ هو جوهر روح أمة الإسلام ، وإقتضت وحدة الامة توازنا في علاقات اطرافها البينية مثل في وسطية منهجها وإعتدال أطرها (السياسية والاجتماعية والاقتصادية) وتسامى جوهرها الاخلاقي (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) فأصبحت خير أمة أخرجت للناس كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110).

والامة هي القبلية التي يلوذ بها المسلمون وقت الشدة إستنهاضا لتضامنها ووحدتها؛ فاجتماعها على امر ما لهو من الحكمة ؛ يقوى به الفرد ويطنن لما في الاجماع من خير ؛ لقول الرسول الشريف " لاتجتمع امتي على ضلالة " فما اجتمعت عليه لابد وان يكون حقا .

وسمات هذه الامة كما اشرنا اليها اضفت صلابة وقوة على جهاد المجاهدين الأوائل رغم قتلهم فجعلت منهم قوة لاتقهر أجهزت في سنوات قليلة على أعتى إمبراطوريتين في العالم القديم الفرس والروم وخلصت شعوبا مقهورة من ظلمهما وجورهما .

وحدة الامة الاسلام بمشمولها من عناصر من غير المسلمين

ووحدة أمة الاسلام لاتعنى ان تكون وحدة بين المسلمين دون غيرهم ؛ وانما وحدة كافة طوائفها ، فالامة تضم بين جنباتها طوائف من غير المسلمين يتحدوا معا في العرق والثقافة ويختلفون في العقيدة فلا يمكن اسقاطهم من عضويتها ، فهم جزء من نسيجها وتراثها لا فرق في ذلك بينهم وبين المسلمين ، فاختلفا العقيدة لا يلغى الوشائج المشتركة ووحدة الوطن وحقوق طوائفها كافة فيه والمساواة بينهم ؛ فالاسلام قرر لهم المساواة في الحقوق والواجبات المدنية مع المسلمين ، تأسيسا على حق المواطنة للجميع وبالجميع ممن يعيش بين ظهرائي الامة ، فارتباط عناصر الامة مسلميها مع غيرهم يمتد من الماضي الى المستقبل في وحدة للولاء والامال والطموحات في رباط ابدى لا ينفصم .

والرسول عليه الصلاة والسلام اقر بذلك في وصاياه المتكررة والمشددة للقيط قيل الفتح الاسلامي لمصر مستنهاضا لدى المسلمون العرب روابط العصبية معهم منوها بالفوائد التي يجنونها من التعاون معهم تشجيعا للمسلمين على حسن معاملتهم فقال " استوصوا بالقيط خيرا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدو " ، كما يقول " إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم ؛ فاستوصوا بهم خيرا فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله " ، وفي حديث اخر سألوه فقال " قبط مصر فإنهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم " ؛ وكلمتا اخوال واصهار اقرار بوحدة العرق وبالوشائج المباشرة التي تربط نبي الله (ص) شخصا بالقيط وهي مؤكدة وظاهرة من خلال انتماء جدته الكبرى السيدة هاجر ام العرب وزوجته مارية القبطية عليهما السلام ، أما بقية العبارات الواردة في الحديث فتشير للتعاون والتضامن والعمل المشترك مع الاقباط لصالح أمة الاسلام .

وقد أدهش الأوروبيون معدن أمة الإسلام ومضمون روحها ، فعبر " Roy " عن ذلك بالسرعة التي بنى بها المسلمون إمبراطوريتهم الضخمة في وقت قصير ، وهي التي تجاوزت في إتساعها الامبراطورية الرومانية رغم الفارق الزمني الذي استغرقه كليهما في بناء الامبراطوريتين فما حققه الروم في قرون حققه العرب في حقبة معدودة رغم امكانياتهم المادية والبشرية المحدودة بالمقارنة بالروم ، وأرجع Roy الفضل في ذلك الى معدن أمة الإسلام وقوة مضمونها (36) ؛ وتساءل لو أدرك المسلمون قوة وحدتهم لأصبحوا قوة لا يستهان بها في خدمة التقدم والبشرية " ، وفي ذلك يؤيده " هارولد سميث " بقوله " لو أمكن إطلاق

⁽³⁶⁾ الحضارة الاسلامية ص 30 جلال مظهر.

التماسك الاسلامي عبر الحدود لأمكن أن تصير وحدة الأمة قوة إيجابية في العالم " ، وقد منح توينبي الى ايجابية مضمون الاخوة والجماعة ومشموله القائم على عدم التمييز بين الاعراق والالوان وهى عناصر يعتبرها توينبي من اهم انجازات الإسلام فيقول " إن الفاتحين العرب زوجوا بناتهم من السود الذين أسلموا ؛ والمسلمون اليوم جميعا زنوجا وعربا وهنودا يتعبدون معا فى إطار أى جماعة إسلامية فى أى مكان فى العالم على قدم المساواة وهو ما ليس موجودا بين المسيحيين(37) .

اوضاع غير المسلمين فى المجتمع الاسلامي

(اهل الذمة - التوصية المشددة بالقبط)

من الطبيعى فى ظل ضمانات الاسلام لحرية العقيدة والعبادة لغير المسلمين ان يبقى عديد من الناس فى البلاد المفتوحة فى آسيا وأفريقيا وأوروبا على ما يعتقدون دون أن يمسه ضرر تحت حكم الاسلام ونتيجة لذلك نرى حاليا ديانات غير سماوية ما زالت قائمة فى المجتمعات العريقة فى الاسلام بالعراق وايران واندونيسيا وماليزيا وغيرها، كما بقيت كتلة ضخمة من الملايين على وثنياتها فى الهند التى حكمها المسلمون فترات طويلة ، فلا إكراه فى "لا إكراه فى الدين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (البقرة 256) . وحث القرآن المسلمين على التعامل بالحسنى مع غيرهم وعدم مجادلهم ؛ وان تقوم الدعوة إلى الاسلام على أساس الحكمة والموعظة الحسنة " وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْهَذَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (الغنكوت اية 46) " ، و" ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (النحل125) ، كما أمر الحق ببرهم والقسط إليهم " لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (المتحنة اية 8) ، وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ" (التوبة 6) .

وفى إعلان قيام الدولة الإسلامية الجديدة فى المدينة بين ميثاق دولة الاسلام أسلوب معاملة أهل الذمة بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، فنص على موادة اليهود والمساواة معهم رغم الانفصال الثقافى والعرقى والمكانى فيقول الاعلان "... بأن من اتبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ... ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... " فالأسوة هى المساواة وال نصرة هى الدفاع عنهم ، وغير مظلومين (العدالة) ، ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم (ضمان حرية التعبد).

وحذر النبى الكريم من المساس بأهل الذمة فى سيل من الاحاديث " اتقوا الله فى ذمتى فمن آذى ذمياً فقد آذانى وكنت خصيमे يوم القيامة " و " من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما " ، و " من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة " ؛ كما أمر المسلمين بصيانة ما للمعاهدين من حق الجيرة وخص القبط فى إطار عصبية بهم من ذمة ورحما فشدد فى التوصية ، ونذكر من تغافل عن هذه التوصية بالاحاديث فى الحاشية (38) " ونسوق فى المتن الحديثين التاليين لدالتهما ؛ فالاول جاء والرسول صلى الله عليه وسلم يعانى سكرات الموت وهو وقت ينشغل المرء فيه بنفسه عن الدنيا ومن فيها ؛ وتذكره لهم هذا الوقت يستوجب من كل مؤمن النظر فى الحكمة من ذلك ؛ فيروى ابن وهب عن موسى بن أيوب الغافقي عن رجل من الرند: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض فأغمي عليه ثم أفاق فقال: " استوصوا بالأدم الجعد " ثم أغمي عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك ثم أغمي عليه الثالثة فقال مثل ذلك ، فقال القوم: لو سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدم الجعد فأفاق فسالوه فقال: " قبط مصر فإنهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم " ، قالوا: كيف يكونون أعواننا على ديننا يا رسول الله قال: " يكفونكم أعمال الدنيا وتفرغون للعبادة فالراضي بما يؤتى إليهم كالفاعل بهم ،

37 (" الاسلام والجماعة الموحدة ص 130 - عباس العقاد - نقلا عن دراسة التاريخ - ارنولد توينبي ص 367.

38 (إن الله سيفتح عليكم بعمري مصر فاستوصوا بقبطها خيرا لان لكم منهم صهرا وذمة " إنكم ستفتحون أرضا هي ارض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما " ، " إنكم ستكونون أجنادا وإن خير أجنادكم أهل الغرب منكم ، فاتقوا الله فى القبط لا تاكلوهم أكل الخضر " ، عن مسلم بن يسار: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " استوصوا بالقبط خيرا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدو " وعن يزيد بن أبي حبيب: أن أبا سلمة ابن عبد الرحمن حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته أن تخرج اليهود من جزيرة العرب وقال: الله الله فى قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله " وعن عمرو بن حريب وأبي عبد الرحمن الحلبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرا فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله " يعنى قبط مصر .

والكاره لما يؤتى إليهم من الظلم كالمتنزه عنهم " .

وفى قول آخر " استوصوا بالقبض خيرا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدو " ، كما يقول " إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرا فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله " (39) ، وكان لهذه الوصية اثرها فقد اكرم الفاتحون العرب اهل المسيحية فى مصر حسبما قاله احد المطارنة المصريين بعد 15 عاما من الفتح العربى بقوله " ان العرب الذين اعطاهم الله السلطان فى ايماننا لا يحاربون دين المسيح بل هم يدافعون عن ديننا ويحلون قسسا وقديسينا ويقدمون الهبات لكنائسنا واديرتنا (40) ؛ وبعد هذه النواهي (الوامر) ، من من المسلمين يملك أن يخالف أمر الله ورسوله الا ظالم لنفسه " وَمَا آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " (الحشر 7) .

وعلى هذا النهج السوى تجاه اهل الذمة سار الخلفاء الراشدون ، فابن الخطاب عمر رضى الله عنه قرر حصة من بيت المال لفقير من اليهود ؛ وفى موقف اخر استدعى واليه على مصر الصحابى الجليل عمرا بن العاص الى المدينة مكبده مشقة السفر ليضربه على رأسه مقتصا منه ومن ابنه ردا لمظلمته لقبطى ، وعمر هو الذى ازاح وجيشه التراب عن كنيس قرب القدس ليتمكن اليهود من الصلاة احتراما منه لعقيدة الآخر ؛ وبفراسته رفض دعوة قسس كنيسة القيامة له للصلاة بداخلها ؛ خشية أن يتخذها غلاة المسلمون حجة من بعده لاتخاذها مصلى من بعده ، وعند وفاته لم تشغله آلامه وهو مطعون من أن يوصى الخليفة من بعده خير وصية بأهل الذمة بأن يوفى لهم ويقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم " .

وفى ضوء منحنى الرسول ووصيته ومسلك خلفائه ، نصب قادة الجيوش الاسلامية الاوائل من أنفسهم حماة لأهل الذمة ؛ عندما حرصوا على تأمين اهل الذمة فى معاهدات الصلح مع البلاد التى تصالحوا معها دون ان يحكموها ، فابن الحباب عاهد البجا سكان الصحراء الشرقية ما بين النيل والبحر الاحمر الى ارض النوبة عام 725 م ، على ان يعطوا أمانا للذميين أسوة بالمسلمين وضمن اتفاق المصالحة " الا يقتلوا مسلما او ذميا " ، وهو ما اعاد التأكيد عليه من جديد عبد الله بن الجهم (عهد المأمون العباسى) فى مصالحته معهم عام 841 م فى اتفاقية جديدة ليس فقط لاهل الذمة وإنما اضاف اليهم العبيد ووسع النطاق الجغرافى فنصت المعاهدة على " ألا يقتلوا مسلما او ذميا حرا او عبدا فى ارض البجا او مصر او النوبة " (41) ، ويسجل التاريخ أمثلة كثيرة عن الالفة والاحترام المتبادل بين الفاتحين المسلمين واهل الذمة فى البلاد المفتوحة ، والمثل الاكبر ما كان بين عمرو بن العاص والمقوقس كبير القبط فى مصر وبين العرب واليهود فى الاندلس .

نموذج لمعاملة اهل الذمة فى الدولة الفاطمية

(مصر)

كان العهد الفاطمى فى مصر عصرا ذهبيا لاهل الذمة ، فلم يحرموا من تبوأ المناصب العلا ؛ ونالوا مكانة مرموقة لم ينالها كثير من المسلمين استثارت حسد الآخرين سجله شعرا اهل ذلك الزمان ، ولم يتعرض اهل الذمة فى المجتمع الاسلامى للتمييز الا فى حالات شاذة تستفزها سلوكياتهم كخروجهم عن العهد كما حدث فى عهد رسول الله عندما خانوا تحالفهم معه فى غزوة الخندق ؛ او

³⁹ (المرجع كتاب فتح العرب لمصر تأليف د. الفرد بتلر الطبعة الثانية 1946- ص 319 ، والاحاديث "إنكم ستفتحون مصر. وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحما" أو قال: "ذمة وصهرا". "فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبننة، فأخرج منها" ، قال: فرأيت عبدالرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة، يختصمان في موضع لبننة، فخرجت منها (الراوي: أبو ذر الغفاري المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: 2543 خلاصة حكم المحدث: صحيح) ، "إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبض خيرا فإن لهم دما ورحما وفى رواية إن لهم ذمة يعني أن أم إسماعيل كانت منهم " ، الراوي: كعب بن مالك المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: 66/10 ، خلاصة حكم المحدث: [روى] بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته فقال "الله الله فى قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله." ، الراوي: أم سلمة المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: 66/10 ، خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح ، "إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرا فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله يعني قبط مصر." ، الراوي: عبدالله بن يزيد و عمرو بن حريث المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: 67/10 ، خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح "إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبض خيرا، فإن لهم ذمة ورحما" الراوي: كعب بن مالك المحدث: السيوطي - المصدر: الجامع الصغير - الصفحة أو الرقم: 772 ، خلاصة حكم المحدث: صحيح "الله الله فى قبط مصر؛ فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله" الراوي: أم سلمة هند بنت أبي أمية المحدث: الألباني - المصدر: السلسلة الصحيحة - الصفحة أو الرقم: 3113 خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح رجاله ثقات.

⁴⁰ (الفرد بتلر ص 118 - فتح العرب مصر (مقتبسا من كتاب دى جويه Conquet de Syria .

⁴¹ (د مكى شبكة السودان عبر القرون ص 31 .

خروجهم على واجباتهم الوظيفية متى كانوا في مناصب الحكم العليا كالتعسف والإنحياز الى العصبية دون وجه حق وغيرها من سلوكيات تخالف القانون او تضر بالعامه او النظام العام ؛ فالمعز لدين الله الفاطمي اسند الى يعقوب بن كلس وهو يهودى عراقي بعض دواوين الحكومة (منصب الوزير) ، وولاه العزيز بالله الفاطمي الوزارة ثم قبض عليه وسرعان ما أطلقه وأعاد لمركزه ، ويصف الإمام ابن عساكر في "تاريخ دمشق" ابن كلس بقوله "كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكر وله حيل ودهاء، وفيه فطنة وذكاء" وذكر كيف أسلم طمعاً في الوزارة ، وولى العزيز بن المعز لدين الله يهودى اخر الوزارة بالشام هو منشا بن ابراهيم الفرار كما اسند الى القبطى عيسى بن نسطورس كتابة الدولة فى مصر (رئيس وزراء) بعد وفاة ابن كلس (42) ، ومن جهة اخرى إستخدم حكام الفاطميين سلسلة من الأطباء اليهود ؛ بدأت بـ موسى بن العازار طبيب المعز ، بدأت بطبيب المعز موسى بن العازار ، وإستخدم العزيز بالله ثم ولده الحاكم نصراني يدعى أبو الفتح منصور بن مقشر المصري وكانت له منزلة سامية في الدولة.

واكرم الفاطميون منذ قدومهم الى مصر المسيحيين ؛ فبعد وصول المعز قادماً من إفريقية طلب إليه البطريرك أفرهام السرياني أن يمكنه من بناء كنيسة أبي مرقورة بالفسطاط والكنيسة المعلقة بقصر الشمع، فكتب له سجلاً يمكنه من ذلك وأطلق له من بيت المال ما يصرفه على هذا البناء، فتصدى الناس لبناء الكنائس فجاء المعز وأشرف بنفسه على بناء أساس الكنيستين، ثم أمر ببناء كل الكنائس التي تحتاج إلى عمارة ، وتعظم نفوذ المسيحيون في عهد العزيز فغص بلاطه بهم وشاركهم اعيادهم وأعاد بناء كنائسهم وبألف في إكرامهم لما كان بينه وبينهم من صلة النسب، إذ تزوج من مسيحية انجب منها ابنته "سيدة الملك" ، ولحظوتها رفع أخوها الى أرقى المناصب الكنسية ، فعين أحدهما بطريركاً للملكانيين ببيت المقدس سنة 375هـ، وعين الآخر مطراناً للقاهرة ؛ رقيه الحاكم بأمر الله بطريركاً للملكانيين بالإسكندرية سنة 390هـ.

أدى تمييز الفاطميون لليهود والنصارى وتحيز من تولي الوزارة منهم الى إبناء ملتهم على حساب حقوق المساواة بالمسلمين الذين ضجوا من نفشى الغلاء واضطرب الأمن وإثقالهم عيسى بن نسطورس بالضرائب حتى أن المؤرخون يذكرون أنه لم يحج أحد في هذه الحقبة من مصر، وبلغ بالناس الجوع مبلغه حتى بلغ عدد الموتى مائة وسبعين ألفاً ؛ ويشير المؤرخ المقرئى الى ان الوزيرين النصراني عيسى بن نسطورس واليهودي منشا أدوا المسلمين ، ولما تجاهل حكام الفاطميين شكواهم عمد أهل مصر الى الفكاهة وكتبوا قصة جعلوها في يد صورة (تمثال)، عملوها من قراطيس (ورق) كتبوا فيها " بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك (العزيز بالله) ؛ ألا كشفت ظلامتي؟! " وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز ؛ فإبسط العزيز أمام تدمر ألهالى إلى القبض اليهودى منشا وابن نسطورس الذى غرمه ثلاثمائة ألف دينار ولكنه أفرج عنه بتأثير ابنته سيدة الملك.

وادلّى الشعراء بدلوهم فى هذا الصدد فصوروا الدولة وكأنها تحكم بـ "الثاوث": ابن كلس، والعزيز بالله، والوزير الفضل: فيصوغ الشاعر الدمشقي الحسن بن بشر ذلك شعراً، فيقول ساخراً:

تنصّر، فالتنصر دين حق عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزّوا وجلّوا وعطل ما سواهم فهو عطل

ويقول الشاعر المصري الحسن بن خاقان:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهوّدوا، فقد تهوّد الفلك

ويقول ابن الخلال:

إذا حكم النصارى في الفروج وغالوا في البغال وفي السروج
وذلت دولة الإسلام طرا وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج

وكان الأفضل بن بدر الجمالي وزير الأمر ، يستخدم النصارى بكثرة، فأحاط نفسه بجنود من الأرمن وشجع على هجرتهم

⁴² د محمد جمال الدين سرور الدولة الفاطمية فى مصر - سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها ص 86- نقلا عن تاريخ يحيى الانطاكى ص 144-145 .

التي بدأت منذ مقدم والده في أيام المستنصر (43) ؛ وعين أبا البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني في ديوان التحقيق الذي بقي فيه حتى عام 528هـ (1134م)، وعين أبو الفضل المعروف بابن الأسقف كاتب يوقع عنه في امور المال والرجال ويتولى ديوان المجلس، والنظر في جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة ، وتولى أبو اليمن وزير عبد المسيح الديوان بأسفل الأرض . وعندما تولى الحافظ لدين الله الحكم بعد الأمر ولّى بهرام الأرمني الوزارة في سنة 529هـ (1135م) ، ونعته بـ "السيد الأجل"، أمير الجيوش سيف الإسلام تاج الخلافة، ناصر الإمام، غياث الأنام" ؛ وبعد أن استقر بهرام في السلطة لم يتردد في تبني سياسة شخصية فقد سأل الخليفة الحافظ في السماح له بإحضار أخوته وأهله من بلاد الأرمن، فأذن له في ذلك حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان ، وولّى بهرام أخاه "فاساك" ولاية قوص في الصعيد ، فاستقوى بأخيه وافسد الامور واستطال الارمن على المسلمين ، وبُنيت في عهده العديد من الكنائس والأديرة (44).

تقلبات الحاكم بأمر الله

ولم يشذ عن هذا الوضع المميز لاهل الذمة الا الحاكم بأمر الله المعروف بتقلباته ، فقد عزل بن نسطورس من كتابة الدولة (الوزارة) بضغط من الكتاميين عصب الخلافة ليستبدله بزعيمهم ابي محمد الحسن بن عمار ؛ ولاسترضاء ابن نسطورس منحه الخليفة رعاية ديوانه الخاص ، وفي اواخر عهده انقلب الحاكم بأمر الله عليهم لمحباتهم ذويهم في العقيدة على حساب المسلمين ولتكسبهم من السلطة ، وزاد من تشدده بمنعهم من الاحتفال بعيد شم النسيم على النيل بدعوى المغالاة في البذخ وصادر الاوقاف المحبوسة للكنائس وحكم عليهم في عام 395 هجرية بإرتداء لباس خاص تمييزا لهم عن المسلمين ، وكعادته في التناقض قلد النصراني منصور بن عبدون الوزارة ، وكان ممالئا له وهو من أشار عليه بهدم كنيسة القيامة والقبور المقدس (45) ، وفي عام 411 هجرية ؛ تراجع الحاكم بأمر الله عن اضطهاده اهل الذمة فأطلق حرية الشعائر ورد اوقاف الكنائس وسمح بتجديدها ومنحهم أمانا على " نفوسهم واولادهم واموالهم واملاكهم ... وألا يُقدم احدا عليهم بسوء."

استعاد اهل الذمة مكائتهم المميزة في عهد المستنصر ؛ فولاهم كبرى المناصب فولى اليهودى أبى سعد ابراهيم بن سهل التستري ديوانا بالحكومة مجاملة لوالدته التي كانت أمة في بيت التستري ؛ وقد أعتل التستري عام 439 هجرية لتحيزه الى اليهود ، واماعنا في المحابة أسند الخليفة ديوان خاصته الى أبى نصر هارون شقيق التستري (46) .

مصر واليهود

في العصر الحديث

اما يهود مصر في العصر الحديث فقد تمتعوا بوضع ممتاز في المجتمع ، فقد كان لهم دور بارز في الحياة الاقتصادية والسياسية في ظل النظام الملكي حتى قيام الصهيونية وإغتصابها ارض فلسطين ، فقد كان نفوذهم مسيطرا على معظم قطاعات الاقتصاد والبنوك والمجالات الكبرى للحياة التجارية مثل صيدناوى وعدس وتسيدوا مجال العقارات ؛ واستمر وضعهم المتميز على نفس المنوال حتى بعد قيام ثورة يوليو الا ان تغير الامر بعد القضية الشهيرة بفضيحة لافون التي حاولت اسرائيل فيها تخريب العلاقات المصرية الامريكية وما تلاها من عدوان اسرائيلي على سيناء في اطار العدوان الثلاثي عام 1956 الامر الذي ادى لرحيل اغلبهم من مصر .

ومن اليهود من شارك بنصيب وافر في الحياة السياسية بمصر فقد ولدت على ايديهم الحركة الشيوعية المصرية وتزعموها ؛ وشاركوا في الحركة الوطنية المصرية بإصدار عددا من الصحف مثل جريدة ابو نضارة التي اسسها اليهودى يعقوب بن صنوع الاسرائيلي ؛ وكان لها دور في تأجيج المشاعر الوطنية ضد الاحتلال (47) ، وكان لهم نصيب في المناصب الوزارية فتولى

⁴³ تاريخ الفاطميين ص 395.

⁴⁴ ص 258-261.

⁴⁵ تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي - ص 194 .

⁴⁶ الدولة الفاطمية في مصر - سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها - ص 86 - 90 - محمد جمال الدين سرور.

⁴⁷ المصدر مركز زايد للتنسيق والمتابعة منشور بجريدة اخبار العرب 30 / 4 / 2001 .

يوسف قطاوى وزارة المالية فى حكومة سعد زغلول سنة 1924 م ؛ واصبح وزيرا للمواصلات فى حكومة احمد زيوار عام 1925 ؛ وشارك فى لجنة الثلاثين بوزارة عبد الخالق ثروت عام 1922 م لوضع الدستور وقوانين الانتخاب ؛ وأصبح عضوا فى الوفد الرسمى لمفاوضات الجلاء مع الانجليز فى نفس العام (1922 م) ؛ وفى عهد ثورة يوليو عينت الثورة المحامى اليهودى زكى عريبي عضوا بلجنة وضع الدستور المؤقت للبلاد عام 1952 (48) .

واستقبلت مصر مهاجري اليهود الذين فروا من فلسطين فى الحرب العالمية الاولى هربا من ضغوط تركيا ، وأغدق عليهم السلطان حسين كامل بصرف إعانة يومية لهم قدرها 80 جنيه زيدت الى مائة ؛ وسهر على راحتهم.

الحركة الصهيونية

واوضــــــــــــــــع اليهود فى مصر

كان اول ظهور للحركة الصهيونية فى العالم العربى عام 1897 بعد عام من صدور كتاب هرتزل " الدولة اليهودية " ، وكان ذلك فى مصر عندما اسس اليهود الغربيين " الاشكنازيم " بزعامة "جوزيف ماركو باروخ " جمعية بركوبا الصهيونية " فى القاهرة برئاسة جاك هارملين وجوزيف ليبوفتش سكرتيرا لها ؛ وقد تمكنت الحركة بعد فترة من تحويل مصر الى مركز للصهيونية فى المنطقة باجمالى اكثر من 12 جمعية صهيونية تمركزت فى المدن الكبرى بالاسكندرية وطنطا والمنصورة وبورسعيد ؛ انضوت جميعها تحت لواء الاتحاد الصهيونى الذى تأسس عام 1913 ، وكان اليهود المصريون " السفارديم " اى الشرقيون قد عزفوا عن الاشتراك فى الحركة ؛ لعدم اقتناعهم بالحل الصهيونى للمشكلة اليهودية ؛ وكانت عائلة قطاوى باشا الاقصادى المصرى الكبير لا تؤمن بالصهيونية وتسخر منها وقاطعتها .

وكانت الصهيونية بمضونها العدوانى الداعى لاغتصاب فلسطين لاقامة الدولة اليهودية وما واكب ذلك من مذابح ضد الفلسطينيين ؛ قد افسدت علاقات الود التاريخية بين العرب واليهود على ارض العرب والاسلام ، بما خلفته من مأساة اسلامية جديدة تُذكر بالكارثة الاندلسية بفارق بسيط ؛ هو ان اخوة مأساة الامس اليهود والعرب كانا ضحايا المأساة المورسكية بالأمها واحزانها ، اما فى المأساة الفلسطينية فقد إنقلب الحال فأصبح اليهود هم الجلادين والعرب هم ضحايا يهود اليوم ، فطرد عرب فلسطين من ديارهم صنوا للخروج الكبير لمسلمى الاندلس ؛ والمأساة الفلسطينية بحجمها وفظائعها كانت السبب الرئيس لتخريب دائرة التعايش التقليدي بين العرب واليهود على مدى تاريخ تعايشهم الطويل واستبدالها بدائرة من العداء المتفجر، عداء استهلك طاقات الجانبين بدون طائل فى مجاهدة عنيدة استفزت فيها دولة اسرائيل بمطامعها التى لا نهاية لها ؛ مخزون من العداء اللانهائى من العرب والمسلمين فى بقية انحاء العالم عمقه طول امد المأساة الفلسطينية .

جـــــــــــــــــدلــــــــــــــــة الجـــــــــــــــــزــــــــــــــــية

قــــــــــــــــضــــــــــــــــية بــــــــــــــــلا قــــــــــــــــضــــــــــــــــية - قضية الجهاد

يثير جهلاء المسلمون والمغرضون منهم ومن غيرهم الجدل الكريه حول هذه القضية بين الحين والحين سعيا الى الفتنة ، "ف الجزية " فى اصلها ضريبة دفاع يُعفى منها من يؤدى الخدمة العسكرية ، فُرضت فى بداية الامر على سكان المناطق المفتوحة اذا ما رفضوا الاسلام مقابل قيام جيش الاسلام بالدفاع عنهم وعن ممتلكاتهم ، ومن اداها يُعفى من الخدمة العسكرية ؛ اما من اسلم فتسقط عنه الجزية لان الجهاد اصبح فرضا عليه.

وإعفاء اهل الذمة من الاشتراك فى الحرب تأسس على اعتبار انهم ليسوا طرفا فى الجهاد ولا يعينهم امره ، فحروب الفتح كانت تهدف انذاك الى اشهار العقيدة والتعريف بها وتحرير ارادة الاختيار لدى الناس من ضغوط واستبداد امبراطوريات ذلك الزمان التى ما كانت لتسمح بالخروج على عقيدتها وهو ما كان جليا فى الامبراطورية الرومانية على نحو ما سنتعرض له.

فالجهاد بمشقيقته وما يتضمنه من التطلع للشهادة فى سبيل الله كانت امرا يخص المسلم دون غيره ، فغير المسلم ليس ندا لمشقة جهاد يتأسس على ايمان هو ليس طرفا فيه ، ومن الناحية العملية فمهمة بتلك القداسة لا يمكن فيها اشراك عناصر غريبة لا

⁴⁸ (المصدر مركز زايد للتنسيق والمتابعة منشور بجريدة اخبار العرب 30 /4/ 2001 .

تؤمن بأغراضها ؛ فجيش مركب من قوات مختلفة العقيدة لا تماسك بينها ولا انسجام يصبح هش الولاء لان هذه العناصر التي لا تؤمن بالاسلام تصبح دخيلة كالمرتقة تفتقد الحماس والولاء وبالتالي فمن الحكمة ألا يشاركوا في هذا الامر على ان يُستبدل بضريبة في اطار المساواة العامة بين طوائف المجتمع يتحمل فيه المسلم مسئولية الدفاع وعبي ضريبة الدم بجانب ما يدفعه من ضرائب ممثلة في الزكاة ، بينما يقوم غير المسلم بدفع ضريبة دفاع في هيئة جزية تتقرر في ضوء المقدرة وتستثنى الغير قادر على تحملها

وفي ضوء الجزية كبدل دفاع ؛ فتسقط عن اهل الذمة وتُرد اليهم عندما يعجز المسلمون عن أداء مهمة الدفاع ؛ وهو مافعله المسلمون عندما ردوا الجزية الي اهل حمص عندما اضطروا للانسحاب منها تاركين المدينة بلا دفاع للتصدى للروم في مكان اخر؛ قائلين " شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم وامركم " ، وهو ما اثار اعجاب الحمصيين فقالوا " لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والتضحية ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم " (49) ؛ هنا هم لم يسلموا إنما شاركوا في الدفاع عن المدينة لانها مصلحة مشتركة فسقطت الجزية .

والجزية كضريبة او عقوبة او غرم امرا متعارف عليه بين دول ذلك الزمان يفرضها القوى على الضعيف والمنتصر على المهزوم ؛ كإتاوة يتجنب بها الضعيف عدوان القوى ، او كنوع من المساهمة في اعباء الادارة ، فالروم وفارس قررتا على الشعوب الخاضعة لهما مثل هذه الاتاوات والضرائب ، وملوك الطوائف في الاندلس ومن بعدهم بنى نصر (بنو الاحمر) ملوك غرناطة كانوا عند انحطاطهم يدفعون الجزية الى الاسبان ، وكذلك دفعها مسلموا شرق افريقيا الى الحبشة والبرتغال ، و" الجزية " والزكاة صنوان فهما شكلان من اشكال الضرائب ؛ الاولى على غير المسلمين كبدل للخدمة في الجيش ؛ يُستثنى منها فقرانهم مثلما فعل عمر بن الخطاب مع يهودى فقير ، وهى مبلغ ثابت قليل فى عمومها يأخذ الوضع الاقتصادى والاجتماعى لدافعى الجزية فى الاعتبار بينما الزكاة المفروضة على المسلمين حقا للفقراء بما فيهم فقراء اهل الذمة توجه لخدمة المجتمع ؛ كما انها اكبر فى القيمة وتساعدية النسبة لتحديد بالعائد اى يزيد مبلغها مع زيادة العائد وهى فى هذا تختلف عن الجزية التى لا يزيد مبلغها لثابت قيمته .

ويشيد جوستاف لوبون بمراعاة المسلمون الفاتحون للحالة الاقتصادية العامة للبلاد ولطبقات المجتمع عند فرض الجزية ، فقد أشاد " برفق عمرو ابن العاص بالمصريين الذين منحهم الحرية الدينية وعدلا مطلقا وامانا للاموال وجزية سنوية ثابتة لا تزيد عن 15 فرنكا عن كل رأس ؛ وهى كانت اقل كثيرا من الضرائب التى كان يفرضها الرومان والفرس على الشعوب التى قهروها ،فتقبلها المصريون برضاء طائعين شاكرين (50) " ؛ والامر ذاته فعله مسلموا الاندلس عندما فرضوا دينارا على الاعيان الاحرار ونصف دينار على غير الاحرار .

واذا ما احلنا الجزية الى طاولة المهاترات والجدل النظري ، فالزكاة والجزية صنوان لطائفة من طوائف الضرائب ، واذا ما تناولناها من ناحية العدالة الضريبية والمساواة بين الطوائف نجد فى الجزية بقلتها وثبات قيمتها محابة لاهل الذمة على حساب المسلمين فالزكاة اكبر قيمة من الجزية وتتصاعد مع تصاعد الدخل ؛ ويتحمل معها المسلم عبي ضريبة دم اضافية (الدفاع) يدفع فيها بحياته على المحك بينما يُعفى منها اهل الذمة .

وامر الجزية قابل للاسقاط ومتروك للحاكم ومزاج الامة على نحو ما فعله مسلمو الفتح فى مصر ؛ فقد راعوا وصية الرسول الكريم (ص) الملزمة التى اوصى فيها مشددا بقبض مصر على نحو ما اسلفنا لما لهم من ذمة ورحما وقربى ،فأسقطوا الجزية عن اهل مسقط رأس السيدة هاجر والسيدة مارية القبطية بمصر كرامة لرسول الله .

واذا ما كانت الجزية تثير الحساسية فى النفوس لرمزيتها كعلامة خضوع فلا ضرر من استبدال المسمى ؛ ف عمر بن الخطاب نزل على رغبة نصارى العرب من بنى تغلب الذين طالبوه بتسميتها صدقة عندما قالوا له " اننا قوم عرب تأنف من كلمة جزية ونريد ان تأخذ ما تأخذ باسم الصدقة (تشبها بالزكاة المفروضة على اغنياء المسلمين لفقرانهم) (51) ؛ ولم تكن هناك مشكلة لدى عمر للنزول عند رغبتهم ، عموما ضربنا هذا المثل تدليلا على المرونة وحسن التصرف ، وعلى اية حال لم تعد هناك حاجة لمناقشة هذا الموضوع بعدما تساوى المواطنون فى الحقوق والواجبات فى ظل نظام ضريبي يشمل الجميع ، كما ان الخدمة

⁴⁹ د يوسف كمال - مستقبل الحضارة 153- 157 .

⁵⁰ حضارة العرب ص 135 .

⁵¹ (الوطن والمواطنة فى ضوء الاصول العقدية والمقاصد الشرعية - الشيخ يوسف القرضاوى - ص 41- 42 .

العسكرية سبب الجزية يؤديها الجميع ايضا ، وكفانا مهاترات يرفض المزاج العام للعقلاء من المسلمين والاقباط الخوض فيها .

ثانيا الجهاد

الجهاد أساسه الدفاع عن الامة والعقيدة ومضمونه قتالي (52)، بينما هناك جهاد اعتبارى مضمونه العمل النفسى السلمى ، واعتبر الرسول عليه الصلاة والسلام الجهاد الاكبر جهاد النفس ، وأعلى من شأن مجاهدة جور السلطان على سائر انواع الجهاد فيقول " افضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " ، وفى نفس النطاق تجئ الدعوة للعقيدة فهى جهاد كلمة ونفس تتعلق فى بعض الاحيان بتلابيب الجهاد القتالى او بهامشه فهى ليست له هدفا اصيلا ولا اساسا .

والجهاد للدفاع عن الامة والعقيدة قرره الخالق فرض على كل مسلم فتقول " انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41)"التوبة ؛ ويُعد الجهاد فى حُكم اركان الاسلام ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم " ماترك قوم الجهاد الا وسلط الله عليهم الذل لاينزعه عنهم الا بعودتهم الى دينهم " ، " كل من لم تحدثه نفسه بالجهاد مات على سمة من النفاق" .

والجهاد ركن حى لا يموت ذو طبيعة مستمرة لاتنقطع ؛ ولا ينقطع غرضه فأمره متجددة طبقا للاحاديث المتقدمة وقول الرسول (ص) " ... الجهاد ماض الى يوم القيامة " ، ومن دواعى الاذن بالجهاد رد فتنه الناس او افتتانهم فى دينهم وهى متجددة الطابع والطبيعة ، وبالتالى فالمسلم جندى على أهبة الاستعداد مكلف بالجهاد فى كل وقت حسبما ينبهنا رسولنا الكريم " كل مسلم جندى فى ثغر" .

والجهاد فى الاصل تكليف له اصوله ، فالحديث الشريف يقول " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم ؛ إلا بحقها وحسابهم على الله " ؛ وسأل على رضى الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما امره بالزحف على خيبر قائلا " يارسول الله على ماذا اقاتل الناس ، قال " قاتلهم حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمد رسول الله ؛ فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله " ؛ والجهاد حسب المنطوق الكريم جهاد مطلق الغاية والمكان والموضوع ، فهو تكليف من الخالق لرسول الله تجاه كل الناس فى كل الارض بغرض الايمان حتى يقولوا لا اله الا الله ، فكلمة " الناس " تعنى الناس كافة فالدعوة ساحتها كل الارض وكل الناس ؛ وهو ما يعنى عالمية الدعوة وعالمية الأبلاغ ، و كلمة "حتى" تعكس الاصرار على الغاية والاستمرارية فى سبيل تحقيقها ، ورغم ما يعنيه المنطوق من قتال باصرار وصولا الى الغرض وهو الايمان ؛ الا ان رحمة الرسول الكريم الرؤوف الرحيم التقت مع رحمة الرحمن وجمدنا التكليف المشدد بالقتال حتى منتهاه الطبيعى إما الايمان او النصر او الصلح او غيره .

فالحكمة النبوية مدعومة بالرحمة النبوية والسموية غلبت الرسالة لا القتال فى إبلاغ الدعوة ؛ فلم يُطبق النص الخاص بالقتال المشدد حتى تحقيق غايته بإسلام من قصده الجهاد ؛ ولا نجد حادثا واحدا انطبق عليه الحديث المشدد بالقتال والاصرار على مواصلته حتى تحقيق الغاية اى حتى يسلموا ويقولوا لا إله الا الله " كشرط لوقف القتال ، ف على بن ابي طالب فى حملته على خيبر لم يستمر فى قتالهم حتى يفنيهم رغم عدم اسلامهم ، فتطبيق المفهوم المشدد كان سيؤدى الى ارغام الناس على اظهارالاسلام دون ايمان حقيقى وهذا خطر ليس فقط على العقيدة وإنما ايضا على المجتمع ؛ ولم نعلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرغم احدا على الاسلام غنة ، او ان المسلمون فعلوا ذلك ايضا ، ويعن لنا أن نتذكر رد رسول الله صلى الله عليه وسلم المطالبين بتطبيق الحد على المرتدين فرد بقول القران الكريم " لا اكراه فى الدين " ، فالقول البليغ يرفض الاجبار فى امور الايمان ، فروح الايمان تقوم على " التسليم الى الله لا الاستسلام " التسليم بخالص الطوعية والاختيار الحر لا بالاجبار ، فالاجبار فى امور الايمان لا تجدى إنما هى خطر داهم على العقيدة ذاتها ، فالدخول الى الاسلام جبرا وبدون اقتناع يسمح بإنساس الاعداء متخفين بلباس الباطنية ، فهم خطر خفى لا تدركه الابصار يستغل حقوق المؤمن التى كفلها له الاسلام ليعمل خفيه على تخريب العقيدة وإحداث الانقسام بين اهله ؛ ومن هنا اصبح أمر الدعوة مجرد رسالة بلاغ مُبين ، تستنفر بلاغتها ارادة الاختيار الحر الرشيد لدى الناس ، والنص القرأنى اوضح ذلك باختزل الدعوة فى البلاغ والبلاغ المبين فقط .

⁵² (اعتبر الرسول عليه الصلاة والسلام جهاد النفس هو الجهاد الاكبر ؛ واعلى من شأن مجاهدة جور السلطان على سائر انواع الجهاد فيقول " افضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " .

فالدعوة رسالة لا قتال فيها ولا اجبار ؛ و نصوص القرآن تدور فى هذا الاطار " فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ " (آل عمران آية 20) " فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ " (النحل آية 82)؛ " وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (المائدة آية 92) ؛ " قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ " (النور 54).

أما الجهاد فيما يتعلق بالدفاع عن الامة حال تعرضها لعدوان او تهديد بعدوان درءا للخطر او لحماية العقيدة اذا كان هناك ما يتهدها، فهو واجب يقتضى القتال من اجله ، فهو ليس هوسا بالحرب كما تتقول الدراسات الغربية ؛ وانما هو سياسة الحق فالسلاح لا يواجهه الا بالسلاح والظلم لا يواجهه بالتمنيات الطيبة والا ضاع الحق ؛ فالردع فى هذه الامور واجب ولا عدوان فيه ، ورغم كراهة البشر للحرب الا ان للضرورة احكامها ؛ ولا عدوان فى الجهاد فالعدوان يخالف الطبيعة البشرية السوية ، والحق تبارك وتعالى يشير الى هذه الحقيقة ويؤكد النص القرأنى مرارا كراهة العدوان فيقول " " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " (البقرة 190) ، كما نهى الحق تعالى المسلمين عن العدوان فيقول " ... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " (المائدة 2) ؛ ويسير الحديث الشريف على هذا النهج فيقول " لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فأصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف " .

قال " اما تخويفك إيانا ، فإن لنا أجالا إذا أحضرت فآكرمها القتل (الاستشهاد) فلنسا نكرهه ولا نخافه " (55) .

انتفاء العدوانية في فتوح الاسلام

إسلام الشام ومصر إختياريا

إذا ما فتشنا عما يدعيه اعداء الاسلام في الغرب من تجذر الحرب و العدوان في الاسلام؛ مستندين الى طبيعة الجهاد المقاتل وفتوح المسلمين الاوائل مدعين ان الاسلام إنتشر بحد السيف في وصف هذه الفتوح ، فلا نجد لهذه الادعاءات سندا في تاريخ الاسلام المبكر بل على العكس نجد ترحيبا من اصحاب البلاد الاصليين الذين رأوا في الاسلام مُخلصا من عسف وجور معتصبي بلادهم فُرسا كانوا او رُوما ؛ وهو ما سجله المنصفون وتشهد به وقائع مسيرة الفتوح العربية من تخوم الجزيرة حتى الاندلس ؛ ويحدثنا في هذا السياق د. لوبون عن تنكيل الروم بالسوريين والمصريين وهم تحت أيديهم سواء كانوا وثنيين او على ملتهم ففي مصر فرضوا تنصير قهري على المصريين بعناد وقسوة بلغت جدد الانف وتلم الازن وهدم المنازل الامر الذي جعل هؤلاء المعذبين يرحبون بالفتح العربي المخلص ، (فكان تهافت المصريون على اعتناق الاسلام وتخليهم عن المسيحية طواعية) الامر الذي يُثبت حقيقة ارغامهم على الايمان القسري بالمسيحية التي كانت اوضاعهم في ظلها شديدة البؤس نتيجة تقاتل مذاهبها ؛ ويستطرد فيقول " نتيجة تمسك المصريون بالهتتم القديمة أكرهت مصر على إعتناق النصرانية قسرا عندما امر القيصر ثيودور بعدما اتخذ النصرانية دينا رسميا للبلاد عام 389م ؛ باعدام كل من يرتد لعبادة الالهة القديمة وهدم جميع تماثيل الالهة المصرية ومعابدها حتى طال التخريب مكتبة الاسكندرية ، ذلك التخريب الذي املاه التعصب والبربرية وما زالت انقاضه تملأ مصر .

⁵⁵ومن أخبار تلك الواقعة أعلن قتيبة سنة 96 هـ النفير العام للعبور من فرغانة إلى الصين ضمن الخطة التي رسمها له الحجاج بن يوسف الثقفي الذي خاطب قتيبة وابن القاسم بقوله " أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها وعلى صاحبها " ؛ وقال قتيبة ؛ لا يجوز أن أحد نهر جيحون عاندا إلى مرو إلا بجواز ومضى قتيبة وجنده إلى فرغانة وأرسل إلى شعب عصام سلاح الفعلة ليسهلوا له الطريق إلى كاشغر وهي أدنى مدن الصين التي فتحها وعبر بذلك نهر سيحون النهر الذي يشكل الحد الطبيعي الفاصل بين الفرس والترك وبين المغول وعبور قتيبة له كان أول تحد مباشر من المسلمين للشعوب المغولية ؛ويقول ابن كثير في البداية والنهاية؛ في سنة ست وتسعين فتح قتيبة بن مسلم رحمه الله تعالى كاشغر من أرض الصين وبعث إلى ملك الصين يتوعده ويقسم بالله أن لا يرجع حتى يطأ بلاده ويختم ملوكهم وأشرفهم ويأخذ منهم الجزية أو يدخلوا في الإسلام وقد طلب إمبراطور الصين (يوانغ جونج) بعد فتح كاشغر وفداً يمثل قتيبة وكتب إلى قتيبة كتاباً جاء فيه (ابعت إلينا رجلاً من أشرف من معكم يخبرنا عنكم ونسانله عن دينكم) فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلاً من أبناء القبائل لهم جمال وأجسام وألسن وشعور وبأس بعدما سأل عنهم فوجدهم من صالح الناس فكلهم قتيبة وفاطنهم (اي اختبرهم) فرأى عقولاً وجمالاً فأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الخز والوشي واللين من البياض والرقيق والنعال والعطر وحملهم على خيول مطهمة تقاد معهم ودواب يركبونها ؛ وكان هيبرة بن المشمرج الكلابي مفوهاً بسيط اللسان فقال قتيبة (يا هيبرة كيف أنت صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير قد فكيت الأدب وقل ما شئت أقله وأخذ به قال : سبروا على بركة الله وبالله التوفيق لا تضعوا العمانم عنكم حتى تقدموا البلاد فإذا دخلتم عليه فاعلموه أنني قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم) فسار الوفد وعليهم هيبرة بن المشمرج فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم فدخلوا الحمام ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلال الثياب الذي يلبس تحت الدروع ثم مسوا الغالية نوع من الطيب وتدخنوا ولبسوا النعال والأردية ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسانه فنهضوا فقال الملك لمن حضره : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوماً ما هم إلا نساء ، ما بقي منا أحد حين رأهم ووجد رانحتهم إلا اشتهى النساء فلما كان الغد أرسل إليهم فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه فلما دخلوا عليه قيل لهم : ارجعوا ، فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبه بهينة الرجال من تلك الأولى وهم أولئك فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح وتكبوا القسي وركبوا خيولهم وغدوا فنظر إليهم صاحب الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة فلما دنوا ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوهم مشمرين فقيل لهم قبل أن يدخلوا : ارجعوا لما دخل قلوبهم من خوفهم فانصرفوا فركبوا خيولهم واختلجوا رماحهم ثم دفعوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط فلما أمسى أرسل إليهم الملك أن ابعثوا إلي زعيمكم وأفضلكم رجلاً فبعثوا إليه هيبرة فقال له حين دخل عليه: قد رأيتم عظيم ملكي وإنه ليس أحد يمنعكم مني وأنتم في بلادي وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي وأنا سائلكم عن أمر فإن لم تصدقني قتلتمكم ، قال : سل قال : لم صنعت ما صنعت من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ قال هيبرة : أما زينا في يومنا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا فإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا قال الملك : ما أحسن ما دبرتم دهركم ! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه قال له هيبرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون بلاد الشام ! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاًك ! وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا أجالا إذا حضرت فآكرمها القتل فلنسا نكرهه ولا نخافه فقال ملك الصين : فما الذي يرضي صاحبك ؟ فقال هيبرة : إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية فقال ملك الصين : فإننا نخرجه من يمينه نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطوه ونبعث ببعض أبنائنا فيختهم ونبعث إليه بجزية يرضها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحريز وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوانزهم فساروا فقدموا بما بعث به فقبل قتيبة الجزية وختم الغلما وردهم ووطئ التراب بقدميه حتى يبر يمينه وتوقف عن غزوهم إلى أن توفي آخر سنة ست وتسعين بتصرف من البداية والنهاية الجزء التاسع من ص 140 إلى ص 42.

وينفى لوبون دعاوى انتشار الاسلام بالسيف (56)، وهو ما يشهد عليه د الفرد بتلر فيقول " ان اضطهاد الروم الشديد للمسيحيين الشرقيين فى الشام وممارستهم شدة اكبر فى مصر لعدم اعتناق شعوبها المذهب المونوفيسى مذهب الدولة الرومية ، وما صاحبه من فظائع بلغت جدد الاتف وتلم الاذن وهدم المنازل ، كان سببا فى كراهية اهل المشرق للروم وترحيبهم بالفتح العربى ؛ ويورد د. بتلر عن ابو الفرج بن العبرى ما قاله فى نفس المعنى الذى ينقل عنه " ولما شكنا الناس الى هرقل ولم يرد جوابا ، انجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب " ، ويقتبس بتلر ما جاء فى كتاب دى جويه **Conquest de Syria** ما قاله احد المطارنة بعد 15 عاما من الفتح العربى " ان العرب الذين اعطاهم الله السلطان فى ايماننا لا يحاربون دين المسيح بل هم يدافعون عن ديننا ويحلون قسنا وقديسينا ويقدمون الهبات لكنائسنا واديرتنا (57).

إخبار السماء بفتوح الاسلام

يجب الاتهامات الغربية السلبية عن الجهاد ؛ أن فتوح المسلمين الاوائل لم تحركها الرغبات والاطماع الانسانية وانما كانت أمرا أنبأت به السماء رسولها ؛ فالقران أخبر بانتصار الروم على الفرس قبل الحدث بعشر سنوات ، ونقل الرسول عليه الصلاة والسلام عنها خبر بقية الفتوح قبل وقوعها بإيقاع مسلسل منتظم بعيد المدى على نحو ما اوردنا من احاديث وما سيرد من مزيد ، تجاوزت اخبارها عصره الى المستقبل البعيد أدرك التاريخ منها الكثير وبقي البعض فى علم الغيب ، فقد بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بالفتوح الاسلامية وحيا من الله فى احاديث عديدة تناولت اليمن " ... وبارك الله يمننا وشامنا الى اخر الحديث ... كما بشرت بغزو جزيرة العرب وفتح فارس والشام ومصر ثم القسطنطينية الى اخر ما بشرت به الاحاديث من فتوح لم يأت اوانها بعد ، نورد منها حديثا واحدا نقلا عن نافع بن عتبة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام إذ يقول ؛ " تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ثم فارس فيفتحها الله ثم تغزون الروم فيفتحها الله ثم تغزون الدجال فيفتحها الله " (58).

56 (د. لوبون - كتاب حضارة العرب ص 563 و ص 208 و ص 13.

57 (د الفرد بتلر ص 118 - فتح العرب مصر.

58 (احاديث فتح مصر " قال رسول الله ؛ ستفتحون مصر وهي ارض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما " ، وفى قول " ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا لان لكم منهم سهرا وذمة " ؛ وحديث " إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا فذلك خير أجناد الأرض لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة " وحديث " إنكم ستجدون أجنادا، جندا بالشام ومصر والعراق واليمن، قالوا: فخر لنا يا رسول الله! قال: عليكم بالشام، قالوا: إنا أصحاب ماشية ولا نطيق الشام، قال: فمن لم يطق الشام فليلق بيمينه فإن الله قد تكفل لي بالشام " ، وحديث " اللهم بارك لنا فى شامنا، اللهم بارك لنا فى يمننا ، قالوا: يا رسول الله وفى نجدنا ، قال فى الثالثة: هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان " ، وحديث " إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة " وحديث " لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وما حوله وعلى أبواب المقدس وما حوله ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة " وفى قول اخر " لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا وأين هم ؟ قال : ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس " ، وحديث " عليكم بالشام، فإنها صفوة بلاد الله يسكنها خيرته من خلقه، فمن أبى فليلق بيمينه، وليسق من غدره، فإن الله تكفل لي بالشام وأهله " وحديث " لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش " ، وعن فتح فارس وعد سراقاة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني بسوار كسرى لما تتبع الرسول وابوبكر فى طريق هجرتهم الى المدينة فقال له الرسول " كيف بك يا سراقاة إذا لبست سوارى كسرى " ، وهو وعد تحقق عندما وصل السوار الى المدينة من بين الغنائم بعد فتح فارس فأرسل عمر بن الخطاب اليه ليتسلم السوار تنفيذا لوعده الرسول ، وحديث فارس نطحة أو نطحان ثم لا فارس بعد هذا أبدا، والروم ذات القرون، كلما هلك قرن خلفه قرن، أهل صخر وأهل بحر، هيهات لآخر الدهر هم أصحابكم ما دام فى العيش خير وحديث إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفق كنوزهما فى سبيل الله ، وفى فتح الحيرة حديث عن عدي بن حاتم رضى الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تمثلت لي الحيرة كآتياب الكلاب، وإنكم ستفتحونها". فقام رجل فقال: يا رسول الله، هب لي بنت بقبلة. فقال: "هي لك" فأعطوه إياها ، وبعد الفتح جاء أخوها فقال: أتبيعها ؟ قال: نعم قال: فاحتكم ما شئت قال بألف درهم. قال: قد أخذتها بألف قالوا: لو قلت ثلاثين ألفا ؟ قال: وهل عدد أكثر من ألف ؟ ، وحديث أبشروا، فوالله لأنا لكثرة الشيء أخوف عليكم من قلته، والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح لكم جند بالشام وجند بالعراق وجند باليمن، حتى يعطى الرجل المائة فيسخطها. قال عبد الله بن حوالة : ومتى نستطيع الشام مع الروم ذات القرون ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليفتحها لكم ويستخلفكم فيها حتى تظل العصابة منهم البيض قمصهم المحلقة أقفاؤهم قياما على الرويجل الأسود منكم، ما أمرهم بشيء فعلموه، وإن بها اليوم رجالا لأنتم أحقر في أعينهم من القردان فى أعجاز الإبل ، وحديث وعن أبي سكينه (رجل من المحررين) عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق؛ عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر... (فذكر الحديث، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ضربها ثلاث مرات حتى ذهبت، وفيه:) قال سلمان رضى الله عنه: يا رسول الله ! رأيتك حين ضربت ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة ! قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا سلمان ! رأيت ذلك ؟ !". فقال: إي والذي بعثك بالحق يا رسول الله قال: "فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لي مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعيني". قال له من حضره من أصحابه: يا رسول الله ! ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريتهم، ويخرّب بأيدينا بلادهم. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، "ثم ضربت الضربة الثانية، فرفعت لي مدائن قيصر وما حولها، حتى

الاسباب الاستراتيجية للفتوح

ودور عرب الشام والعراق

فى دعم الروم والفرس

ورغم البشارة الربانية بتكليفاتها الجهادية ، كان لحركة الفتوح اسبابها الكونية ومبرراتها العملية فى اطر إستراتيجيات الحرب (59) ؛ فتحرّك المسلمون بداية فى النطاق المباشر لدولة الاسلام بالجزيرة ، إستهدف تأمين الجبهة الداخلية وحشد قوى العرب على اساس من العقيدة الصّلبة لتعزيز قوة الدولة الفتية ؛ فبعد الانتهاء من رد عدوان قريش وتوجيه ضربات اجهاضية لكيانات اليهود المتأمرة ؛ التفتت الدولة الى وأد الانقسام الذى اثارته حروب الردة تعزيزا للسلطة المركزية ثم جاء فتح تخوم الجزيرة فى الخليج ، وكلها حروب دارت فى ارض العرب ، أما الجهاد خارج هذا النطاق فقد استهدف مدافعة عدوانية الفرس والروم ومن والاهم من العرب ؛ فالفرس الاكثر تطرفا فى عدااء الاسلام والتطاول على نبيه اعدوا العدة فى اليمن بأمر من كسرى لغزو المدينة لقتل النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ما لم يتحقق لموت كسرى ؛ ثم جاء تحرك المسلمين بعد ذلك لتخليص عرب التخوم ؛ المناذرة من موالاتهم للفرس والغساسنة من موالاتهم للروم ، لحرمان القوتين الاعظم آنذاك من استقطابهما ضد دولة الاسلام الصغيرة (60) ، فتاريخ عرب العراق والشام ملئ بالموالاتة للامبراطوريتين ؛ فقد ساعدت القبائل العربية كسرى فى انتزاع الشام ومصر من الروم فى سنوات الاسلام الاولى ، وحارب عرب الشام مع جيوش الامبراطورية الرومية فى اسيا الوسطى وشاركوا فى الدفاع عن القسطنطينية ضد القوط ، وتولوا حراسة طرق الصحراء فى المشرق لحساب الروم (61) ؛ و استخدم الروم العرب فى حروبهم مع الاسلام ؛ فقد شكل العرب معظم جيش الروم فى معركة مؤتة ، ودفع الروم مسيحيي العرب لمحاصرة جيش المسلمين بقيادة ابو عبيدة بن الجراح فى دمشق وفيه خالد بن الوليد ، واثناء تقدم القوات الاسلامية فى مصر حارب فى صفوف الروم عشرون الف فارس من نصارى العرب المقيمين فى مصر بقيادة ابو طور العربى حاكم تنيس المصرية(62).

وكان الصدام مع الروم أمرا محتوما بعدما لفظوا محاولات المسلمين للتقارب معهم على اساس من اخوة الايمان ، فى وقت ما كان الروم فيه لا يرضون وهم مزهوون بانتصارهم على الفرس بأن تناجزهم موقف التحدى قوة صغيرة صاعدة فى جوارهم ؛ فحشدوا قوة كبيرة لغزو المدينة ، ولم يكن امام دولة الاسلام الا ان تقبل التحدى الاستراتيجى الكبير ؛ بمهاجمة القوتين الاعظم استباقا فى عقر دارهما المكين فى وقت واحد ؛ لاجهاض استعداداتهما العدوانية ضدها ؛ فلم يكن هدف قوات الاسلام الصغيرة ؛ العدوان فليس هناك عاقل يفكر بمنازلة عملاقين بقوات محدودة العدد والعتاد وفى ان واحد ، فمنازلة قوات امبراطورية على هذا النحو بمثابة انتحار ؛ وكان الخيار الملائم لقوة الاسلام الصغيرة الخروج لقتال العدو على ارضه فى اطراف الصحراء بعيدا عن المدينة قلب الدولة وأخذ زمام المبادرة بمزاياها وكان خيارا عمليا موقفا ؛ فالمبادأة تعوض قلة العدد ، وتجنب سلبات التخندق والانتظار فى المدينة لنوازل الروم والفرس ؛ من إحباط وضيق الخناق على القوات الاسلامية ، وهى دروس مستفادة من خلاصات غزوة الخندق.

أسلحة قوات الاسلام

الايمان بما فيه من نيات تُغنى عن كثرة العدد

وقلوب تُغنى عن حصانة الدروع

استمدت جيوش المؤمنين القوة من قلوب تذخر بايمان الهمها صمود لا يلين وثقة فى النصر، فأصبحت قوات الاسلام

رأيتها بعيني". قالوا: يا رسول الله ! ادع الله أن يفتحها علينا، ويغنمنا ذراريهم، ويخرب بأيدينا بلادهم. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك. "ثم ضربت الثالثة، فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعيني" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: "دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم - [ج - 1 ص-355] سنن النسائي الجهاد (3176) ، سنن أبي داود الملاحم (4302).

⁵⁹ المرجع صحيح مسلم جزء 4 ص 22- 25 .

⁶⁰ المرجع كتاب فتح العرب لمصر تأليف د. الفرد بتلر الطبعة الثانية 1946- ص 112 و 120 و 147 و 259 .

⁶¹ Italy and Her Invaders by Hodgkin - V 1, P284

⁶² ورغم هذه الموالاتة انشقت بعض القوات العربية عن مساندة الروم ففى الشام ثارت القوات العربية العاملة فى جيش الروم عندما انقطعت رواتبها وانقلبت الى مساعدة عمرا فى فتح مصر ومعهم من اسلم من الروم و فرس اليمن .

الصغيرة قوة لاتقهر زادتتها الطبيعية البدوية الصلبة قوة على قوة ؛ وأدركت فراسة شارل مارتل ملك الفرنجة مصدر قوة المسلمين الاوائل عندما استنهضه قومه للتصدى لجيوشهم الغازية التي تقدمت فى ارض الغال فرنسا بقوله " ان لهم نيات تُغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تُغنى عن حصانة الدروع "؛ والتاريخ اثبت ان البدو بصفة عامة سواء الصحراويين منهم كالعرب أو بدو السهول والبرارى مثل المغول والتتار والترك كانوا مقاتلين عنيدين (63).

الفتح والدعوة

كان لابد لدولة قامت من اجل رسالة السماء ، ان تحمل حركتها وفتوحها إطلاقا للرسالة الى الشعوب المفتوحة ؛ بعد تحرير ارادة انسانها من قهر الروم والفرس ليتبين بضميره الحر الحق من الباطل فيما يتعلق بالاسلام ؛ وهو ما عبر عنه المجاهدون الاوائل زهرة بن الحوية وربيعه بن عامر وحذيفة بن محصن والمغير بن شعبة عندما سألهم رستم قائد الفرس فى معركة " القادسية " ، ما الذى جاء بكم ؟ قالوا " الله الذى ابتعثنا ؛ وهو الذى جاء بنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ؛ ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن ظلم الاديان الى عدل الاسلام ؛ فأرسلنا الى خلقه لندعوهم الى دينه فمن قبل منا قبلنا ذلك منه وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه حتى نصل الى موعود الله وهو الجنة لمن قُتل والظفر لمن بقى " (64).

الجهاد

بين الحقيقة وافتراءات الدراسات الغربية

تتهم الدراسات الغربية الجهاد على غير الحقيقة بأنه عنصر إستعداد للمجتمعات غير الاسلامية باستباحته قتلها ، وتجاهل المنددون بالجهاد الآثار الفظيعة للحروب الصليبية (الجهاد المسيحى الاوروبى) التى لم يسلم من فظائعها مسيحيي الكنائس الشرقية اخوتهم في العقيدة سواء فى القسطنطينة او القدس او صقلية ، كما تجاهلت تلك الدراسات فظائع ديوان التفتيش التى روعت متصرفي الاندلس من اليهود والمسلمين وهى تدقق فى ايمانهم بمعتقدهم الجديد ، وتناست هذه الدراسات ان الجهاد إنما هو حرب ضد عدوان او لاجهاض عدوان ، وان أصول السياسة والدبلوماسية التى يتشدد بها الغرب تعتبر الحرب احد ادوات تحقيق الغايات السياسية وإحدى وسائل الدبلوماسية ؛ ولا حرج على المسلمين فى تطبيق هذا الفهم شأنهم فى ذلك شأن سياسات العالم فى كل العصور .

والقتال لم يكن أبدا الخيار الوحيد الذى يطرحه المسلمون فى فتوحاتهم ؛ فدائما ما كانت دعوتهم تخييرا للطرف الاخر بقبول الاسلام او دفع الجزية وهى خيارات السلام ولا تدخل بعدها فى شئونهم ، وتركهم وشأنهم فى ديارهم فإن رفض هذا الطرف كليهما فلا مناص من القتال لفرض الارادات فإن كان نصرا يُقيم الاسلام حكمه وتكون الجزية لمن لم يرتض الاسلام ديننا باختياره الحر بعدما حرر المسلمون بصيرته وارادته ، وهو ما يتفق مع معنى الرسالة فى التبليغ واعلام الاخر إما تقبلها او رفضها .

والجهاد حسبما صنفناه ليس سبيلا للدعوة ؛ فالدعوة لها سبلها وليس منها ابدا الجهاد وان كان قد يؤسس لها ؛ طبقا لمنهج سلوكيات البشر وليس العقيدة ؛ فجهاد رسول الله كان للدفاع عن العقيدة ورد العدوان وليس لفرض الايمان على الناس ، فالجهاد موقوت بزمان محدد وقصير لكن الدعوة عملية طويلة ممتدة ، الجهاد يتعامل بالسيف والقوة أما الدعوة فلا مجال للقوة فيها فهى عملية نفسية وعقلية صرفة يتفاعل فيها العقل مع الروح على مدى زمنى قد يطول أو يقصر .

ومن هذا المنطلق ارسل رسول الله الرسل الى ملوك الفرس والروم والمقوقس وغيرهم يدعوهم الى الاسلام بعدما تأكد له ان مبادنه قد نمت الى علمهم ولم يُهدد بالقتال اذا لم يستجيبوا ، لانه على وعى بحقيقة الايمان العقلية والروحية ، ولذا أمرنا ان نُبلغ عنه ولو اية تفتح باب التفكير والمراجعة تُقدم لتقبل الايمان عند المرء ، نص الحديث " بلغوا عنى ولو اية " .

ولو كان الجهاد اساس الدعوة وسبيلها لما استثنى صلى الله عليه وسلم ، ومن بعده الخلفاء الراشدون الحبشة من الجهاد (التوسع) لكرامة النجاشى عند رسول الله رغم عدم انتشار الاسلام بها ؛ ولكان المسلمون أيضا قد فرضوا الاسلام عنوة على البلاد التى فتحوها وهو ما لم يحدث ؛ ولكنهم على عكس ذلك كانوا إذا أنتصروا اقاموا منهج الاسلام (الحكم) ، وتركوا امر العقيدة حرا

⁶³ المصدر : تاريخ الاسلام السياسى صفحة 347 ، د. حسن ابراهيم حسن.

⁶⁴ الطبرى ص497.

للدعوة والبيان دون أن يرغموا أحدا على الاسلام ؛ ولم يثبت التاريخ حالة واحدة أرغم فيها المسلمون الاوائل أحدا على الاسلام ؛ فلم يكن من سياسة الاسلام ابدا فى اى وقت فرض الايمان قسرا وجبرا ؛ فلا اكراه فى الدين لان الايمان رهن بالمشيئة الالهية ، ولو كان الامر جبرا ؛ لما وُجد فى الارض التى يحكمها المسلمون منذ أيام سطوتهم طوائف لا تؤمن بالاسلام بما فيهم الوثنيين مثل تلك الطوائف المنتشرة الان ، وما كان اسلام بعض الامصار التى فتحوها قد تاخر الى ما بعد مائة عام او اكثر من فتحها كحالة مصر التى استغرق اسلام اغلبية اهلها ما يقرب من قرنين من الزمان ، ولكانت اوربا العثمانية قد تحولت الى الاسلام وهى فى قبضة العثمانيين طوال مدة تزيد عن الخمسمائة عام (الفترة من 1350 تقريبا الى 1878) ؛ بل ان محمد الفاتح سمح لسكان ميلودرازفو الكاثوليك بالقدوم من خارج الارض العثمانية لتعمير الاراضى المهجورة فى البوسنة ، ولولا ذلك المرسوم "عهد نامه" ما كان فى ارض البوسنة غير اهلها المسلمين .

والامثلة على عدم قسرية الرسالة عديدة فى تاريخ الاسلام ؛ فيذكر جوستاف لوبون فى اكثر من موضع فى كتابه حضارة العرب " ان الاسلام لم ينتشر بالسيف ، بل اشار الى مقدار الرفق العظيم الذى كان يُعامل به العرب امم البلاد المفتوحة مما شجعها على الاسلام ؛ وضرب امثلة بموقف الخليفة عمر بن الخطاب من اهل القدس ، وسلوك عمرو بن العاص الذى لم يقل رفقاً عندما منح المصريين الحرية الدينية وعدلا مطلقا وجزية سنوية ثابتة (51 فرنكا) عن الفرد كانت فى متناول اليد فتقبلها المصريون شاكرين طائعين وهى اقل كثيرا من الضرائب الباهظة التى كان يفرضها عليهم القياصرة النصارى ؛ الذين لم يمنعهما الإخاء المسيحي من التنكيل بالمصريين ولما وجد المصريون معاملة كريمة من العرب وتشددا منهم فى احترام التزاماتهم أقبل المصريون على اعتناق الدين الاسلامى ولغته ، رغم انه كان معروفا عن المصريين انهم من اشد شعوب العالم مقاومة للمؤثرات الاجنبية ، وان اهلها من اكثر الناس تشددا فى التدين ، فقد قاوموا من قبل فرض المسيحية عليهم قسرا رغم شدة الرومان فى ذلك الامر.. ويستطرد لوبون ورغم عناد مصر فى مقاومة كل ما هو اجنبى نسيت مصر بعد اقل من قرن واحد من الفتح العربى ماضيها الحضارى القوى الذى دام سبعة الاف سنة ولغتها لتعتنق ديناً جديداً ولغة جديدة ؛ اعتناقاً متيناً دام بعد توارى حكم الامة التى جاءت به "

الداعية وفنون الدعوة

ومعطيات الحضارة الحديثة

اخذت الدعوة الاسلامية منحاً إيجابياً جديداً فى ظل معطيات المدنية الحديثة ؛ باختصرها المسابقات فسهلت الاتصال والتواصل ؛ وفتحت العقول لفهم مشترك بين الناس ، ومن الحكمة الاستفادة بكل ما هو جديد لتحقيق أقصى منفعة للدعوة ؛ والرسالة فى ظل التقنيات الحديثة ليست بحاجة للفتح كوسيلة إبلاغ ، فالامر اصبح جهادا إعلاميا للوصول الى المستمع والاستيلاء على حواسه وتفكيره ، ومن وسائل العصر ما يفعل فعل السحر فى مجال الدعوة ، فالتقنيات الفائقة اهدرت حدود المكان والزمان امام رسالة " التبليغ " التى تستمد قوتها من جوهر الاسلام وقوته الذاتية .

ومن اسباب نجاح الدعوة إتباع أساليب المحبة والرفق واللين وحسن الاسلوب والمنطق وليس بالعنف وتغييب العقل ، وهذا هو المنطق القويم الذى يجمله الرسول عليه الصلاة والسلام فى الاشادة بمحاسن الرفق واللين ، ويدعونا الى اتباعهما فى كل امر من امور الدنيا والدين ، فالرفق واللين اقوى من القوة والعنف ويحققا فى التعامل بين البشر ما لاتستطيع القوة تحقيقه .

والدعوة فى تعاملها مع النفس بتعقيداتها لا يستميلها الا اللين والحب والرفق لا التعنت والتكبر وقهر النفس والعقل ؛ والرسول يقول " ان الله لم يبعثنى متعنتا ، وانما بعثنى معلما ومبشرا " ؛ ويذكرنا عليه الصلاة والسلام وهو الرؤوف الرحيم بالرفق فى كل الامور فيقول الاثر النبوى " ما دخل الرفق فى شىء الا زانه وما مُنِع من شىء الا شاته ، وقال ايضا " ان الله رفيق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف وما لا يعطى على سواه " وقال " ان الله رفيق يحب الرفق فى الأمر " ، وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه يقول عن الرسول " من يحرم الرفق يحرم الخير " .

وتقتضى الدعوة الناجحة انتهاج الموضوعية والنظرة الجامعة الشاملة التى تأخذ فى الاعتبار الظروف السائدة فى بيئة الدعوة ومحيطها وتكوين شخصية المدعو ؛ وهذه النظرة ليست وليدة اليوم وانما سبق وان بين الله ورسوله خلق الدعوة والداعى طرفى معادلة الدعوة ، فعلاوة على ما تقدم نبه الاثر النبوى الى الاخذ فى الاعتبار تكوين عقلية المدعو وشخصيته فيقول " حدثوا الناس بما يطيقون ، وما انت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة " ونوه " بالبعد عن العنت كله " ، فالعلم

بخبايا النفس البشرية عنصر رئيسى فى نجاح الداعية الذى يجعل من التبليغ علاقة مودة ومحبة مع المدعو . وهذا يستلزم أن يبتعد الداعى عن التطرف والايغال ، وان يُيسر ولا يُعسر ، ويُيسر ولا يُنفر ، وان يبدأ باليسر فيقدم السهل قبل الصعب وان يسهل الامر ويهونه ، واولجز الاثر النبوى هذا كله فى اقواله " يسروا ولا تُعسروا ، وبشروا ولا تنفروا " وقوله " انما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين " ، وعن عائشة رضى الله عنها تقول " ما خُير رسول الله بين امرين قط الا اخذ اليسرهما ما لم يكن إثما " ، وقال صلى الله عليه وسلم " يا ايها الناس ان فيكم منفرين فأياكم أم الناس فليؤجز فإن من ورانه الكبير والصغير وذا الحاجة " ، وقال " الا اخبركم بم يحرم على النار أو بمن تُحرم عليه النار ؛ تُحرم على كل قريب هين لين سهل " رواه الترمذى . كما دعى صلى الله عليه وسلم الى الاحسان فى كل شىء حتى فى قتل الحيوان فعن ابى يعلى شداد بن اوس عن رسول الله انه قال " ان الله كتب الاحسان على كل شىء فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد احدكم شفرته وليُرح ذبيحته " رواه مسلم ، فإن كان هذا حق الحيوان علينا من الرحمة فما بالك بحق الانسان علينا منها . وهذه التوجيهات تُعلمنا فلسفة رائعة تصلح لكل زمان ومكان ، فالجيد المفيد يستمر ويدوم ويمكن تطبيقه فى كل العصور ، وعلى كل من يتصدى للدعوة ان يأخذ بها ويتلاءم والمتغيرات التى لحقت المزاج البشرى فقد اختلف الزمن والناس ، وهما عنصرا الدعوة وعليهما تتقرر مداخلها واساليبها وفنونها المتجددة فى اطار ما اتاحه الاعلام الحديث . والمسلك الطيب له اثارا ايجابية على المدعو ؛ فعلى الخليفة الورع " عمر بن عبد العزيز " مع اهل " صفد " بسمرقند كان دافعا لاسلامهم عندما أمر بخروج قوات الإسلام منها بعد أن دخلها المسلمون بغتة ودون سابق انذار خروجاً على مبادئ الحرب الإسلامية ؛ ويُروى فى هذا الشأن أن اهل سمرقند شكوا الى عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة ، دخول " قتيبة " قائد الجيش الإسلامى مدينتهم بغتة وأسكنها المسلمين بغير حق ، فنصب عمر " جميع بن حاضِر الباجى " قاضياً ، فحكم بخروج المسلمين وجيشهم من المدينة على ان يقوم قائد الجيش بانذار أهلها ولا يأخذهم بغتة ، مما كان له أكبر الأثر ليس فقط فى إسلام اهل سمرقند وانما اندفاعهم بالمشاركة فى الجهاد الاسلامى (65) ، وللخليفة ماثرة انسانية أخرى تعبر عن سماحة الاسلام عندما امر بعد توليه الخلافة برفع الحصار الذى فرضه سلفه على القسطنطينية رافضاً اجاعة وإعطاش أهلها من الأطفال والشيوخ والنساء . فالاسلام ليس جامداً ، ومن نعم الله على المسلمين ان منحهم حق أعمال المنطق والحكمة والمرونة إستجابة للمتغيرات والظروف ووجوب مراعاة الظروف عند النظر فى الامور واعلاء مصلحة الامة فوق كل اعتبار ، ولولى الامر التصرف بما يتفق مع العقل والمنطق اذا ما استثار امرا من امور الدين بليلة العامة ، او شق على الامة فى زمن ما الوفاء به او عاد عليها بوبال او عداة الآخرين وبتبعات لا قبل للمسلمين بها ، فقد يرى ولى الامر امرا اخر حتى وان اختلف مع فتاوى البعض ؛ فليس كل من أفتى عالماً فقيهاً ، فالمسلم يستطيع دائماً وبأريحته الربانية ان يستشعر بمطلق إيمانه الصحيح ما يقترب به من الحكم الصحيح للامور؛ وهو ما أكدته الحديث الشريف فعن وابصة بن معبد رضى الله عنه قال اتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال " أجنبت تسال عن البر والاثم " قلت نعم ؛ قال استفت قلبك ؛ البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وان افتاك الناس وافتوك " .

وتجاوز الاحكام مكفول لولى الامر فله عند الضرورة اذا ما ارتأى فى وقته وظروفه ضرراً سيلم بالامة وبالاسلام فعندئذ عليه بمقتضى الحكمة والحكمة والمسايسة ان يعمل بما يراه صالحاً ، قياساً على ما فعله عمر بن الخطاب بعدم اقامة الحدعلى السارق الفقير الذى دفعته الحاجة ايام القحط الى السرقة.

المضمون الروحى للاسلام

و تأثيره على الاوروبيين

تبنت اوربوا لفترة وجيزة توجهها إيجابيا نحو الحضارة الاسلامية بتأثير سحر الشرق الذى استهوى الكثير من الاوروبيين فى العصر الحديث ، فأصبحوا أكثر قرباً وتفهماً لثقافة الاسلام ، ومن أبرز هؤلاء نابليون بونابرت الذى أدرك بفراسسته قوة المضمون الروحى للاسلام فحاول أن يستغله لتحقيق أهدافه السياسية ؛ فعلى حد قوله فى مذكراته " أنه درس الاسلام قبل حضوره الى مصر

⁶⁵ (د/ مصطفى السباعى - من روائع حضارتنا ص 146 .

، وشعر بالطمأنينة تستقر في نفسه الى صدق تعاليمه ، ورأى فيه اساسا ملائما لبناء الدولة التي يطمح في اقامتها " ، وان احاديثه مع علماء الازهر بعد ذلك أكدت له أن الاسلام عقيدة وجوهر وليس رسوما وظواهر (66) ، فبات مقتنعا بأنها توفر قاعدة صالحة لبناء أعظم دولة في التاريخ ، وإن هذا الاقتناع اختمر لديه عند إعداد الحملة الفرنسية الى الشرق التي كانت على حد قوله تمهيدا لاقامة دولة إسلامية يكون على رأسها ، وأعرب نابليون عن أمله في ان يأتي الوقت الذي يتمكن فيه من توحيد العلماء والحكماء من جميع البلدان في نظام يقوم على مبادئ القرآن التي هي في رأيه وحدها حق وبها وحدها تتحقق السعادة للإنسان " (67) .

ومن هذا المنطلق كان نابليون يعتقد انه رجل الاقدار المعنى بإحداث تغيير في العالم العربي فيقول " تتمنى ولايات الدولة العثمانية التي يتحدث اهلها العربية وقوع تغيير عظيم وتنتظر الرجل الذي يحدث هذا التغيير " ، واتساقا مع هذا التفكير لم يكن مشروع نابليون عسكريا صرفا وانما حضاريا فقد استقدم معه مؤسسة استشرافية تضم جيشا من الخبراء والفنيين والمؤرخين والعلماء والمهندسين والرسامين كأساس لبناء دولة حديثة ؛ وكانت لمصر مكانة خاصة في مشروعه فقد كان يرى " القاهرة والاسكندرية أجدر من عواصم أوروبا لتكونا على رأس العالم كله " ، ويستطرد نابليون في القول بأنه كان يُعد لاعتناق الاسلام رسميا عندما يصل الى بغداد ويعلن انفصاله عن عقيدته الاولى ، غير أنه لما فاتح معاونيه بدخيلة نفسه اعترض عليه البعض مبينين له وعورة الطريق ، فرد عليهم بأن هنرى الرابع ملك فرنسا السابق تحول من العقيدة البروتستانتية الى العقيدة الكاثوليكية في سبيل المصالح العليا ، ولا يوجد ما يمنعه هو بدوره من التحول الى العقيدة الكاثوليكية او الى الاسلام وأنه يستطيع التدرج في بناء الدولة التي يؤمن بها واطهار صورتها الاسلامية شيئا فشيئا ؛ واستغلالات لسطوة الايمان على اهل المشرق ، استخدم نابليون ظلال الدين لخدمة اغراضه السياسية فذكر في بيانه الاول " ان الفرنسيون هم ايضا مسلمون مخلصون ؛ وانهم اصدقاء حقيقيون للمسلمين ؛ مدلا على ذلك بتخريبهم كرسى البابا في روما الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام " .

ويُقدّر الاستشراقيون **Orientalist** الذين تميزوا بالرصانة العلمية والموضوعية الاسلام وحضارته ؛ ويجئ على رأس هؤلاء الالمان والروس ، ومن الالمان يوسف هل الذي تعرضنا انفا لبعض ما اورده في هذا الشأن والشاعر جوته الذي اعد قصيدة عام 1774 تقديرا للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ونييتشة والفيلسوف الشهير هيجل و الفيلسوف ازوالد شبنجل الذي انصف الاسلام في كتابه " سقوط الغرب " الصادر عام 1917 .

ومن الروس الاديب الكبير تولستوى الذي يرى في رسول الاسلام احد كبار المصلحين بهدايته أمة بأكملها الى نور الحق والجنوح بها الى السلام ، فكفت عن النهب وسفك الدماء ، والمستشرق الروسى اغناطيوس كراتشكوفسكى الذي يُعد كتابه " تاريخ الادب الجغرافى العربى " من بين الكتب الاستشرافية العظيمة من ناحية الموضوعية والامانة العلمية ؛ ويقف في نفس الصف اخرون منهم الراهبة كارين ارمسترونج والمستشرق الفرنسى موريس بوكاي الذي اسلم ودافع عن الاسلام ، وعالم الطبيعة الفرنسى رينيه جينو ، والفرنسى د جوستاف لوبون وقد اوردنا سابقا بعضا مما كتباه ونُضيف الى هؤلاء الكاتب الأمريكى مايكل هارت .

اما مروجوا الافتراءات فللاسف اثرت كتاباتهم على نظرة الغربى العادى للاسلام ؛ فإحرف فكره الى عداء اعمى لا بصيرة فيه ، تضخم بتأثير مناخ الكراهية والعداء المتبادل الذى يولد التطرف بما فيه من تحيز مذل وعنف وتعصب ينعكس على عقول الافراد فى الجانبين ؛ يُوَجِّج سلبياته اعلام الجانبين لاسباب سياسية ؛ فيتخير عمدا أحداث التطرف ذات الطبيعة الفردية لتعميمها والترويج لها لتأجيج العداء فى العقل الغربى ضد الاسلام ومُعتقديه ، بدواعى لا صلة لها بأصل العقيدة يأخذ ظواهرها الفرد الغربى على انها مسلمة يدمغ بها الاسلام والمسلمين دون ان يعنيه التدقيق فيها طالما توافقت مع اتجاهاته السلبية والمعادية للاسلام ، ويزيد الطين بلة تصرفات غير مسئولة لبعض المنتسبين للاسلام.

ولما كان من السهل الهدم وبناء العداء والكراهية ؛ فإنه من الصعب تصحيح الصور المغلوطة لدى المواطن الغربى الذى تضغط عليه أموره الحياتية الخاصة جدا ؛ ولا يهمه أن ينشغل بأمر بلدان بعيدة عنه طالما لم تضغط عليه ظروف القاهرة لاعطائها

⁶⁶ الغزو الثقافى يمتد فى فراغا ص 10 ، للشيخ محمد الغزالى .
⁶⁷ مذكرات نابليون فى سانت هيلانة - جزء 3 ص 183 نقلا عن كتاب محمد رسول الله - تأليف ايتين دينيه وسليمان ابراهيم.

قليلا من اهتمامه خاصة وان هذه البلدان مغلوبة على امرها وغير فاعلة او فعالة فى عالم اليوم ، ويتطلب تصحيح الامر لصالح الجانبين وللحضارة الانسانية ؛ الدعوة لفكر متسامح ذو نظرة رشيدة بدون تعصب او تطرف ، يجتهد فيه المسلمون وهم الطرف الضعيف المتخلف لإعادة بناء دولهم وتوحيد كلمتهم وقوتهم لبناء جبهة دولية قوية تُفِيدهم وتُفِيد العالم على نحو ما ذكره " هارولد سميث "" لو أمكن إطلاق التماسك الإسلامى عبر الحدود لأمكن أن تصير وحدة الأمة قوة إيجابية فى العالم " وذلك لن يتحقق الا بفهم متصالح من الغرب وعمل عربى ايجابى يرعى مصالح الجانبين لا غالب فيه ولا مغلوب.

الكتــــــــاب الثــــــــاني
البُعد الاسلامي في تاريخ الاندلس
جهاد ممالكها

الفصل الاول
الاندلس وفتوحها الاوروبية

فتح الاندلس

اولا العصر الأموي (الدمشقي - الاندلسي)

معركة شذونة (رمضان 92هـ / يوليو 711م)

بعد ان اتم العرب فتح المغرب ، كتب موسى بن نصير الى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق يستأذنه في فتح شبه جزيرة إيبيريا ، فأذن له ان يقوم بحملة استطلاعية ، فبعث موسى بسرية بقيادة ابي زرة طريف بن مالك ؛ فنزل في جزيرة "بالوماس" التي تسمى باسمه جزيرة طريف Tarifa وعاد محملاً بالغنائم ، وبدأ موسى الغزو بعدما استوثق من مساعدة يليان حاكم سبته في شمال افريقيا التابع لملك القوط الغربيين في ايبيريا ، واختار لقيادة حملة الفتح البربري طارق بن زياد ومعه سبعة آلاف رجل معظمهم من البربر من رهائن المصامدة .

أبحرت الحملة من ميناء طنجة في 5 رجب سنة 92 هـ أبريل سنة 711 م ؛ في سفن وضعها "يليان" تحت تصرف المسلمين وبعض السفن التي أنتجتها دار الصناعة بتونس، ونزلت الحملة على الشاطئ الجنوبي لاسبانيا ، ما بين شاطئ طنجة وجبل كالي الذي تسمى منذ ذلك الحين بجبل طارق؛ وخلال عدة ايام أقامت الحملة سوراً أحاط بموقعها سُمي بسور العرب وأعدت قاعدة عسكرية بجوار الجبل في مدينة بالجزيرة الخضراء Algeciras (اسمها عربي) على الساحل لحماية ظهرها في حال الانسحاب ؛ وسُمي الموقع بجزيرة أم حكيم على اسم جارية لطارق كان قد حملها معه عند الغزو ثم تركها في هذه البلدة فنسبت اليها.

وهذا الميناء ذو موقع استراتيجي مُحصن بالطبيعة يؤمن حشد القوات ، ينفتح بدون عوائق على مدينة سبته في الساحل الافريقي المقابل ويسهل الاتصال بها ؛ بينما ينعزل بالمرتفعات عن باقي الجزيرة الايبيرية ، مما يوفر للحملة الأمن وإستمرار تدفق المؤن والمدد من سبته .

وأقام طارق قاعدة اخرى في مدينة طريف بقيادة طريف بن مالك النخعي ؛ ويقول ابن خلدون "فصيرهما عسكريين احدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمي جبل طارق ، والآخر على طريف بن مالك ونزل بمكان مدينة طريف فسمي به، وأداروا الأسوار على انفسهم للتحصن" .

ولما علم رذريق Rodrigo ملك القوط وكان منشغلاً بإخماد ثورة البشنكس في نافارا بأقصى الشمال؛ بنزول المسلمين في إسبانيا وبلوغهم بحيرة لاخندا "Laguna de la Janda" في شذونة ، (68)، أسرع لملاقاتهم بحشود ضخمة ، فانزعج لهذا الخبر طارقاً وبعث الى موسى بن نصير طالبا الغوث ؛ وفي هذا كتب ابن قتيبة قانلاً "وكتب طارق الى مولاه موسى ان الأمم تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث" ، وقال في هذا المعنى صاحب كتاب اخبار مجموعة "وكتب طارق الى موسى يستفذه ويخبره بانه قد استولى على الجزيرة والبحيرة وان ملك الاندلس قد زحف اليه بما لا طاقة له به" ؛ فأمدّه موسى بخمسة آلاف جندي فصار مجموع المسلمين حوالي اثني عشر ألفاً خطب فيهم طارق يستحثهم على القتال "أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر.. وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة.. واعلموا إنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرض طويلاً .. وإن حملت فاحملوا وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهينة رجل واحد في القتال ، ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه أو أقتل دونه ، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر

⁶⁸ يرى المؤرخ "سافدرا" ان هذه الثورة قامت بإيعاز من اعداء الملك وفيهم عامله على سبته لشغل انظاره عن نزول المسلمين .

لعدوكم فتبددوا بين قتيل وأسير"(69).

وقعت المعركة في شذونة بجنوب غرب إسبانيا ، وتُعرف الموقعة في المصادر العربية والاسبانية بأسماء متعددة منها موقعة وادي لكة تعريب لكلمة "Lago" أو Locus ومعناها البحيرة وعند بعض العرب سموها معركة البحيرة لقربها من إحدى البحيرات ، او معركة وادي البرباط RIO Barbate ، او معركة شريش Jerez ، او معركة السواقي وحُرفت للفظ Segoyueda ، ودامت المعركة ثمانية ايام من الاحد 28 رمضان الى الاحد 5 شوال سنة 92 هـ / 19-36 تموز سنة 711 م ، وكانت طبقا للمصادر قاسية اقتتل فيها الطرفان قتالاً شديداً ؛ تخلف عنه عظاما كثيرة بقيت في ارض المعركة دهرأ طويلاً ، وإنتهت بانتصار المسلمين ومقتل رذريق ملك القوط .

ولما بلغ موسى بن نصير فتوح طارق بن زياد إغتم من الحسد على حد قول المقرئ نقلا عن ابن حيان ؛ وتهياً موسى للمسير إلى الأندلس في جيش من 18 ألف مقاتلاً أغلبهم من العرب، ونزل بالجزيرة الخضراء في رمضان سنة 93 هـ/ يونيو 712 م ، وتوجه إلى إشبيلية وفتحها سنة 94 هـ بعد حصارها أشهراً، ثم فتح ماردة حيث علم إشبيلية بتمرد إشبيلية وبمقتل نحو ثمانين رجلاً من المسلمين فيها على يد القوط ، فوجه جيشاً بقيادة ابنه عبد العزيز بن موسى أعاد فتحها هي وليلة ، بينما واصل موسى تقدمه عبر جبال جليقية والتقى طارق بن زياد بمدينة استرقة وسارا إلى طليطلة وفي قول آخر التقاه في طليطلة وحدث الصدام بينهما ؛ وتنازع هو وموسى الذي كانت في نفسه غصة من إنتصارات طارق وبدلاً من أن يهنئه بفتوحه للإسلام أهانه ووبخه وعزله وسجنه ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل الخليفة الوليد الذي استدعاهما إلى دمشق(70)، ويروي المؤرخون ان خلافا حدث بينهما عندما طالب موسى بن نصير طارقاً بأداء ما عنده من مال الفيء ومغامته من ذخائر الملوك والبلاد ، ومنها المائدة المنسوبة إلى النبي سليمان عليه السلام ، ولما إستعجله آتاه بها بدون إحدى أرجلها وقد احتفظ به عنده ، توجه موسى وطارق إلى دمشق بناء على استدعاء الخليفة، وبصحبتهما جموع من الأسرى والعبيد والعديد من النفانس وأفراد الأسرة الملكية القوطية ، ولما وصل الركب طبريا في فلسطين ؛ أرسل اليهما سليمان ولي العهد ؛ وكان الخليفة يصارع الموت؛ طالبا منهما التأخر إنتظارا لموت الخليفة الوليد لرغبته في أن ينسب اليه الفتح ويستحوذ على الغنائم لنفسه ، ولكنهما تابعا المسير خلافا لرغبته ، فغضب عليهما وعندما تولى الخلافة بعد اربعين يوما عزل موسى وأهمل طارق بن زياد الذي مات معدماً في دمشق سنة 720 م.

التطور التاريخي لعهود الاندلس

سنستعرض تاريخ الاندلس طبقا لتسلسل العهود الموضحة بالجدول التالي (71) ؛ والذي يوضح في نفس الوقت تآكل مساحة دول الاندلس المتعاقبة بعد الفتح :

العصر	التاريخ بالتقريب	المساحة بالكيلومتر2
اولا - الدولة الاموية في دمشق	740م	700.000

⁶⁹ (أورد المؤرخ القرطبي ابن الكردبوس ان طارقا احرق اسطوله حتى يحرص جنوده على النصر ولم يرد هذا على لسان غيره من المؤرخين مما يُضعف القصة ويشكك في الحدث فقد كانت المغرب قريبة جدا من الساحل الاسباني ومن السهل العودة الى المغرب ارضا كما ان ليس معقولا ان يحرق اسطولا مستعارة معظم مراكبه من يوليان حاكم سبته القوطي المتعاون مع المسلمين ، كما ان المدد جاء تباعا بناء على طلب طارق وما كان هذا ليحدث دون وجود الاسطول.

⁷⁰ (نح الطيب ج 1 ، ص 269-272 .

⁷¹ (ويلاحظ تناقص مساحة الاندلس من 700 الف كيلومتر عند الفتح الى 30 الفا عند سقوط دولة غرناطة.

ثانيا - الامارة الأموية (عبد الرحمن الداخل واسرته)	940 م	440.000
ثالثا - الدولة العامرية (المنصور بن أبي عامر واسرته)	1000 م	580.000
رابعا - ملوك الطوائف	_____	_____
خامسا - المرابطون	1100 م	250.000
سادسا - الموحدون	_____	_____
سابعا - الدولة النصرية	1450 م	30.000

ولاية الأندلس

منذ الفتح (العهد الأموي الدمشقي) الى دخول عبد الرحمن الداخل

ألفاتح أمير الجيش طارق بن زياد	711	712
1 موسى بن نصير اللخمي	712	713
2 أبو عبد الرحمن بن موسى بن نصير	713	714
3 عبد العزيز بن موسى بن نصير	714	716
4 أيوب بن حبيب اللخمي	716	716
5 الحر بن عبد الرحمن الثقفي	716	719
6 السمح بن مالك الخولاني	719	721
(فتح سبتمانية بجنوب فرنسا واستشهد بالقرب من طولوشة)		
7 عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	721	721
8 عنبسة بن سحيم الكلبي	721	726
9 عذرة بن عبد الله الفهري	726	726
10 يحيى بن سلمة الكلبي	726	728
11 حذيفة بن الأحوص القيسي	728	728
12 عثمان بن أبي نسعة الخثعمي	728	729
13 الهيثم بن عبيد الكناني	729	730
14 محمد بن عبد الملك الأشجعي	730	730

15	عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	730	732	أُستشهد عام 732 في معركة بلاط الشهداء قُرب بواتييه
16	عبد الملك بن قطن الفهري	732	734	إستولى بلج بن بشر بن عياض على الأندلس وقتل بن قطن عام
734				
17	عقبة بن الحجاج السلولي	734	740	تُوفى عام 741
18	عبد الملك بن قطن الفهري	740	741	
19	بلج بن بشر القشيري	741	742	قُتل قُرب قرطبة عام 742
20	ثعلبة بن سلامة العاملي	742	743	
21	الحسام بن ضرار الكلبي	743	745	ثار عليه الصميل بن حاتم الكلبي وخلعه ثم قُتل بعدها عام 747
22	ثوابة بن سلمة الجدامي	745	746	تُوفى في 746
23	الصميل بن حاتم الكلبي	746	747	تُوفى في 759
24	يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب	747	756	
الفهري				
25	عبد الرحمن بن معاوية	759		

إستغرق عهد الولاة حوالي اثنين وأربعين سنة من عام 95 إلى 138 للهجرة ، وتوالي بعد موسى بن نصير اثنان وعشرون والياً ، احدثهم ابنه والاخر ابن اخته ، وإتسم عصر الولاة عموماً بعدم الاستقرار كحال الأندلس في معظم عصورها لكنه كان كافياً لانتشار الإسلام وتوطن العرب والبربر سواء في الأندلس أو في ارض الغال ، فقد كان جهادهم خالصاً وعهد فتوح ما وراء الأندلس للتغلغل في قلب أوروبا ، وبدأ عهدهم بتحول القوط الى الاسلام بالزواج المختلط بين العرب والبربر بالقوطيات ، وجاء من نسلهم جيلاً من المولدين كان منهم علماء مشهورين في تاريخ الأندلس ؛ وضربت العملة باسم موسى بن نصير كأول والي عربي يحكم الأندلس ، وصدرت العملة باللغة اللاتينية فلم يكن قد تم إدخال اللغة العربية بعد في دار سك العملة ، وفي بداية عهدها كانت الأندلس جزءاً تابعاً لولاية المغرب الى ان فصلها عمر بن عبد العزيز والحقها مباشرة بالعاصمة الأموية دمشق وكانت طليطلة مقراً للحاكم بإختيار موسى بن نصير ، ومن الجدير بالذكر ان بعض المناطق داخل الدولة الاسلامية في الأندلس بقيت مستقلة ودفعت الجزية حتى ذابت في المجتمع الاسلامي الخريطة بالمراجع).

وتوالي من بعد موسى ولاة من بينهم اقارب له هم :

— عبد العزيز بن موسى بن نصير تولى عام 95هـ - 714م ؛ ولاه اباه قبل استدعاء الخليفة له ولطارق بن زياد إلى دمشق ، وقد أتم عبد العزيز خلال سنتين 714م-716م فتح ما تبقي من الجيوب القوطية في الشمال الغربي (البرتغال) فدخل يابرة وشنترين وقلمرية واستورقة وفتح قواده مدن الشمال الشرقي كطرطوشة وجيرونة وأرغونة، وكانت ولاية عبد العزيز مشحونة بالاضطرابات والفتن تارة بين العرب والبربر وتارة بين العرب انفسهم بين القحطانيين والعدنانيين .

تزوج عبد العزيز بأرملة لذريق ملك القوط ؛ التي أسلمت وتكنيت "بأم عاصم"، ومات مقتولاً وهو يصلي في مسجد باشبيلية في رجب سنة 97 هـ بعد أن دامت ولايته سنة وسبعة أشهر⁽⁷²⁾ ، وتولى من بعده أيوب بن حبيب اللخمي عام 97 هـ - 716 م وهو ابن أخت موسى بن نصير ؛ وهو من نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة ، وتعاقب الولاة من بعده ومعظمهم من المجاهدين الفاتحين .

⁷² يحكى جرجي زيدان أن أرملة لذريق لما تزوجت عبد العزيز بن موسى لم تدخل الإسلام ، بل إنها أثرت عليه فتنصر من أجلها وما زالت به حتى ألبسته تاجاً كتاج النصرى فقتله بن عذرة البلوي في المسجد بعد صلاة الفجر في 6 رجب 97هـ/716م ، ولا توجد مصادر عربية تؤكد ذلك إنما تذكر ان من قتله هو حبيب .

فتوح الاندلس ومستوطناتها

فى غرب ووسط أوروبا

اصبحت الاندلس فى الفترة 96 هـ - 114 هـ قاعدة رئيسة لدفع المد الاسلامى الى جنوب أوروبا ، وفى ظرف 20 سنة استطاع الإسلام أن ينصب راياته على منطقة سبتمانيا: أربونة، أجده، ماغيولون ونييمس، قبل أن يغامروا فى اتجاه الجورا عبر سهول الرون ، فقد إستهل موسى بن نصير الغزوات الإسلامية لأراض الغال(فرنسا) سنة 96 هـ عقب فتح الاندلس ، فأرسل حملة إلى طرطوشة وبرشلونة وأربونة (Narbonne) أقام فى الأخيرة مسجداً ، وواصلت الحملة تقدمها إلى بلدة ابنيون (Avignon) على نهر الرادنة (الرون Rhône) ؛ وتتالت الحملات على يد عبدالعزيز بن موسى بن نصير ، والحر بن عبدالرحمن الثقفي ، والسمح بن مالك الخولاني الذى قاد حملة من برشلونة إلى مدينة طولوشة (تولوز) (Toulouse) وأستشهد على يد جنود أودو عام 722 م فى تولوز ، وكانت هزيمته التى ضخمتها المرجعيات التاريخية ؛ الاولى بهذا الحجم وقد خلفت أصداء قوية فى منطقة أقطانيا (الأكيتان)، واستطاع خلفه القائد عبد الرحمن الغافقي جمع شمل ما تبقى من المسلمين ليرجع بهم إلى نربونة ، وقد بالغ الدوق أودو فى رسالته إلى البابا غريغوار الثانى من حجم هزيمة العرب، ومن الغريب ان هذا الدوق تحالف مع المسلمين بعد ذلك ووافق على خطبة ابنته لـ مانوز حاكم نربونة وهو بربري مسلم (73) .

وبعد سنة من هزيمة المسلمين فى طولوشة (تولوز)، تعرضوا لهزيمة أخرى فى كوفالونغا بأستوري ، ولكن هذا لم يوقف الفتح وإنما إستأنفه عنيسة بن سحيم الكلبي بعد ذلك بسنتين وإستولى على ساردينيا، كورسيكا، جزر الباليار، كركاسون، نيم (Nîmes)، ليون (Lyon)، قبل أن يصل إلى أبواب أوتون التى أحرقتها عن آخرها، فيما استسلمت له مدينة سانس (Sens) من دون معركة وهى على بعد 150 كيلومتر من باريس ، ولكنه أستشهد فى طريق العودة عند نهر الرون عندما أصابته نبله أردته قتيل ؛ واستمرت الحملات بعد ذلك من عذرة بن عبدالله الفهري ، والهيثم بن عبيد الكلابي ، والغافقي فى ولايته الثانية (فتح طولوشة) ؛ وفى حملته الاخيرة عبر جبال البرانس اتجه إلى مدينة برديل (Bordeaux) وهزم جيش الفرنجة ، ثم اتجه إلى بواتييه (Poitiers) على نهر اللوار بوسط فرنسا حيث هُزم وأستشهد فى معركة بلاط الشهداء الشهيرة فى رمضان سنة 114 هـ (معروفة عند الاوروبيين بمعركة بواتييه) .

توقف الفتح بعد الغافقي وكان المد الاندلسى قد غطى نصف مساحة فرنسا الحالية من ليون وغرونوبل ووادى الرون ودوفينييه الى بورجونيه ، وتواصل هذا المد بجهود فردية فى القرن الثالث الهجري بدعم خلافة غرناطة الاموية عندما استطاع البحارة الأندلسيون الاستيلاء على مدينة نيس وأقاموا مستوطنة أندلسية فى جنوب فرنسا إمتدت حتى سويسرا إستمرت 82 عاماً ، ثم جاء الحاجب المنصور محمد بن ابي عامر العامري مؤسس الدولة العامرية ليختتم عهود التغلغل فى اوربوا عبر الاندلس بغزوة ليون فى فرنسا حيث هزم القوات الأوروبية ، ومن بعده تداعت الاندلس ومستوطناتها الأوروبية ومعها تداعت طموحات الفتح فى اوربوا (74).

معركة بلاط الشهداء (بواتييه) وما بعدها

وهى المعركة الحاسمة التى مكنت الغاليون وحلفاؤهم الاوربيون من عرقلة المد الاندلسى ؛ فعندما استولى المسلمون على نربونة عام 719 ثم كركاسون ونيم عام 725 فى بداية الاختراق الاندلسى لجنوب فرنسا هال الغاليون سرعة تقدم المسلمين فى

⁷³ اقلق هذا الحدث شارل مارتل لتخوفه من التآلف مع السلميين وتذرّع بالفرصة لكي يبعث جيشا لإخضاع منطقة الأكيتان ؛ كما هاجم وأحرق العديد من أراضي الدوق أودو، ثم تحالفا لاحقا ضد الجيوش الإسلامية.

⁷⁴ وبخلاف الفتوح الاندلسية فى اوربوا فى عهد الامارة الاموية والعامرية وهى اخر فتوح الاندلس فى اوربوا ، كانت الاندلس مصدرا لهجرة سلمية اخرى من المورسكيين ذوى الاصول المسلمة إستقرت فى جنوب فرنسا بعد فرارهم من اسبانيا الكاثوليكية بعد سقوط غرناطة فى القرن السادس عشر الميلادى يُقدر عددهم بحوالى مائة وخمسون الفا ؛ اشترطت عليهم فرنسا ان أرادوا البقاء فى اراضيها الاستمرار على الكاثوليكية فإندمج الكثيرون منهم مع تعاقب الأجيال فى المجتمع الفرنسى _ المصدر

اسبانيا وجنوب الغال فتحوا شارل مارتل على التصدى لهذا المد وهو في بدايته قائلون : ما هذا الخزي ؛ سمعنا بالعرب وخفنا من مجيئهم من الشرق فأذ بهم يأتون من المغرب ويستولون بجموع قليلة العدد والعدة التي لا دروع فيها ؛ على بلاد الأندلس رغم عظم عددها وعتاها فأجابهم : إن لهم نيات تغني عن حصانة الدروع ، والرأي عندي ألا تعترضوهم في خرجتهم هذه وهم في بداية أمرهم فإنهم كالسيل يحمل ما يصادفه ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم بالغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا علي الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر (75) ، وقد كان محقا وحصيفا في نظرتة للعرب بما فيهم من إنقسام وحرص على المغنم وكنا سببا إنتكاساتهم طوال تاريخهم وليس فقط في بواتيية (76) .

وفي نفس الوقت عمل شارل مارتل على حشد قوة يضمن بها النصر فلم يتعجل لقاء المسلمين قبل ترتيب اوضاعه فبدأ بلملمة الامبراطورية التي لم تكن قد توحدت بعد تحت قبضته ؛ وفي عام 730 كانت الاوضاع بالنسبة لشارل مارتل قد اصبحت مواتية بعد حسمه معركة بافاريا وانتصاره على ألمانيا والصوابيا ، وهو نفس العام الذي دخل فيه المسلمون أفينيون ، وكان الغافقي (في ولايته الثانية للأندلس) كان قد استأنف الحملات على فرنسا لتقوية قاعدة "أربونة" الإسلامية ، فعبّر جبال البرانس واتجه لفتح مدينة "آرل Arles" التي توقفت عن دفع الجزية للمسلمين واسترجعها بعد معركة عنيفة ثم توجه نحو بورديو عاصمة دوقية أقطانية وهزم حاكمها الدوق "أودو" هزيمة قاصمة بالقرب من التقاء نهري الدوردوني Dordogne والجارون Garonne ؛ فانسحب "أودو" شمالا مستغيثا بشارل مارتل حاجب ملك الدولة الميروفنجية حكام الفرنجة ، بينما إستمر الغافقي في التقدم على طول نهر اللوار فاتحا المناطق إلى مدينة تور Tours .

ولما أدرك شارل مارتل أن هدف جيوش المسلمين أراضي دولة الفرنجة ذاتها، بعث يستقدم الرجال من حدود الرين حتى تجمع له جيش ضخم من الألمان والسكسون والسوييف وتجهز بقوة جرارة لمواجهة الغافقي والتقى الجمعان عند بواتييه ؛ وحين أراد عبد الرحمن الغافقي اقتحام نهر اللوار لملاقاة خصمه على ضفته اليمنى عند بواتييه فاجأه شارل مارتل بجيشه الهائل ، فاضطر الغافقي إلى الارتداد إلى السهل الواقع بين بواتييه وتور ؛ ولما لاحظ شارل ارتداد المسلمين عبر بقواته النهر وعسكر بجيشه على بعد أميال قليلة منهم .

ودارت المعركة في رمضان 114 هـ/أكتوبر 732م ، وفي اليوم الأخير للمعركة التي احتدم فيها القتال العنيف على مدى أيامها العشر ؛ أرسل شارل فرسانه لمهاجمة معسكر المسلمين حيث غنائمهم وهو يعلم مسبقا لخبرته بهم مدى حرصهم على الغنائم وانهم سيهجرون ميدان لاستنفاذها ، وهو ما حدث فعلا فترك معظمهم ساحة القتال لرد الهجوم عن المعسكر بينما صمد عبد الرحمن الغافقي وقلة من جيشه في ميدان القتال فاستشهد وعدد كبير ممن معه فتخلّى الباقون عن استكمال المعركة وإنسلوا هاربين تحت جنح الظلام تاركين غنائمهم المهولة سبب هزيمتهم ؛ وعادوا الى أربونة قاعدتهم في سبتمانية ، وفوجيء الإفرنج في الصباح بخلو معسكر المسلمين ورحيل جنوده بعد ان تخلوا عن غنائمهم .

لم يطارد شارل مارتل فلول جيش المسلمين الفارة من المعركة فقد اكتفى بدحر القوى العربية الرئيسية الغازية وانطوانها في ناربون ، ورأى ان هناك من الاقاليم الفرنسية ما هو اكثر خطرا من المسلمين ويستوجب الالتفات اليه مثل Hunald دوق اقطانيا الذي يهدد خطوط اتصاله بالشمال ، وانشغل لفترة بضم الدوقية بعد وفاة الدوق أودو سنة 117هـ/735م ؛ في تلك الاثناء تحالف الدوق الثائر مورونت Maurontius دوق مارسيليا وحاكم اقليم بروفنس مع يوسف عبد الرحمن الفهري حاكم اربونة (ناربون) للتصدي لحملة شارل مارتل بالجنوب الفرنسي لقمع البرجنديين والفريزيين التي دمر فيها في طريق عودته من اقليم Septimania سلسلة من المدن والحصون منها أفينون Avignon التي رفضت مساندته ضد العرب .

⁷⁵ (تاريخ الاسلام السياسي - صفحة 347 ، د. حسن ابراهيم حسن ؛ وهو ما اتضح صحته بعد ذلك فان تناحر المسلمون في الاندلس من اجل السلطة كان سبب ضياعها .

⁷⁶ (يقول الدكتور عبد الحليم عويس في دراسته حول سقوط ثلاثين دولة إسلامية: "قصة الغنيمة في تاريخنا غريبة، والدرس الذي تلقينه علينا - كذلك - أغرب ؛ فقد بدأت أولى هزائنا بسبب الغنيمة ، ولقد وقفنا مرغمين عند آخر مدى وصلت إليه فتوحاتنا بسبب الغنيمة ، فقصة الغنيمة هي قصة الهزيمة في تاريخنا ؛ ففي معركة أحد خالف الرماة أمر الرسول عليه الصلاة والسلام قائد المعركة الأولى ، لخوفهم من أن تضيع فرصتهم في الغنيمة، فاستشهد بسبب الغنيمة سبعين رجلاً من خيرة المسلمين ، وأستشهد بسبب الغنيمة أيضا عبد الرحمن الغافقي وهزم المسلمين في بلاط الشهداء آخر معركة لجيش إسلامياً منظم اجتياز جبال البرانس لفتح فرنسا والتوغل في قلب أوروبا ، وتداعت معها أحلام المسلمين في فتح أوروبا .

وبعد إنتصار شارل مارتل فى معركة افينون عام 737 م ، حاصر ناربون فى نفس العام وكان تحت يد يوسف بن عبد الرحمن حاكمها التابع للخليفة الاموى فى قرطبة ، ولكنه عجز عن اسقاطها رغم نجاحه فى هزيمة أسطول النجدة الأندلسي فى المعركة التى دارت فى مدخل نهر بير Berre على مسافة سبعة أميال من ناربون ، والتى أُسْتُشْهِد فيها قائد الاسطول عمر بن خالد الذى حاول فك الحصار عن المدينة التى صمدت فى وجه شارل مارتل .

قام شارل مارتل بحملة ثانية عام 739 بعد تحالفه مع Lombards ، للسيطرة على اقليم بروفنس وطرده الكونت Maurontius من مرسيليا والتصدى لحلفائه العرب وقد نجح شارل مارتل هذه المرة فى قمع الدوق موروينت بعدما تخلى عنه العرب عندما ادركوا ضعف موقفهم للدخول فى معركة مفتوحة مع هذا التحالف .

لم تسقط ناربون فى حياة شارل مارتل الا فى عهد ابنه بيبين الثانى "بيبين القصير" الملقب Pepin le Bref الذى تمكن من الاستيلاء عليها سنة 142هـ/759م ، وتابع شارلمان ابن بيبين القصير سياسة التخلص من المسلمين فشن العديد من الحملات على اراضيهم فى بروفانس وشيد الأبراج والحصون عند مصبات الأنهار واعد أساطيله لمواجهة هجماتهم البحرية ، وتصدى لتقدمهم على شواطئ نيس Nice ومقاطعة بروفانس عام 197هـ/813م اى قبل وفاته بعام ، إنتهز مسلمو جنوب فرنسا الحرب الاهلية التى اعقبت وفاة لويس النقى (198-226هـ /814-840م) عام 840م ، ليفتحوا معظم بلدان الجنوب الفرنسى ، وعام 256هـ/869م اتخذوا من منطقة كامرج Camargue قاعدة لعملياتهم العسكرية ، وانتهى بهم المطاف فى مقاطعة بروفانس وخليج جريمو .

وبينما قيدت معركة بواتييه عام 732 تقدم الاندلسيين فى فرنسا فإن هزيمتهم اللاحقة فى ناربون عام 759 وضعت حدا لتقدمهم من ايبيريا عبر البرانس الى داخل اوربا وانحصر نشاطهم فى بروفنس فى الفترة التالية حتى القرن العاشر ، الذى واكبوا فيه موجة التوسع البحرى الاسلامى فى المتوسط ، بإيجاد منفذ اخر عبر البحر تسللوا من خلاله الى اوربا عندما تقدموا من جديد الى منطقة فراكسينيت ومحيطها فى الغرب الشرقى لفرنسا الذى اهل الاندلسيين للعب دورا فعالا فى جنوب فرنسا وممرات الالب الحاكمة للاتصالات بين فرنسا وايطاليا وسويسرا، استمر فى الفعل والتأثير حتى نهاية وجوده بعد 240 عاما من انتصار شارل مارتل فى بواتييه.

الاندلسيون واختراق اوربا

مستوطنة فراخ شانيت Fraxinet (الخريطة فى الملحق)

فى اواخر القرن التاسع الميلادى فيما بين عامى 887 او 889 ، حطت مجموعة من 20 بحارا اندلسيا على ساحل بروفنس بجنوب فرنسا فى منطقة خليج "سان تروبيز St. Tropez بإقليم الـ" فار "Var" وهى منطقة جبلية حصينة لا يمكن إختراقها الا من معبر وحيد شديد التحصين عبر الجبل ، تُعرف فى القرون الوسطى باسم "فراكسينيتوم Fraxinetum" وتُعرف اليوم باسم "فرنيه Frainet" ، ويسمى جغرافيو العرب⁽⁷⁷⁾ بجبل القلال اى جبل الغابات او الاشجار وحاليا يُسمى جبل الـ"مور" Massif des Maures " (78)، والمنطقة من ناحية اخرى قريبة من سواحل الاندلس وجزر البليار ، بما يُسهل الاتصال بين المستعمرة والاندلس .

تمكن الوافدون من رد الهجمات المحلية على الموقع بفضل جبل الـ"مور" Maures " (79) الذى شكل حجر الزاوية فى منظومة دفاعهم ، وفى البداية استنفروا مدداً بشرياً فأنضم اليهم منة شخص من مسلمى صقلية وشمال افريقيا ، ولحقت بهم اعداد اخرى من الاندلس رغبة فى الجهاد والغنائم ، وسيطروا على محيط المنطقة فاستولوا على مستوطنة Freinet وقلعة على الجبل تُعرف باسم Fraxinetum ، وكانت هذه التحصينات اساس مستوطنتهم التى حملت اسم فاراخشنيط Farakhshanit او فاراخسه Farakhsh اوفراخ شانيت وهى الاقرب الى الاسم الفرنسى Fraxinet .

⁽⁷⁷⁾ العالم ابن حوقل فى كتابه صورة الارض و الاضطخري فى كتابه المسالك والممالك.

⁽⁷⁸⁾ سُمى الجبل المورانتسابا لاهل الاندلس وكان الأوروبيون يطلقون عليهم المور.

⁽⁷⁹⁾ سُمى الجبل المورانتسابا لاهل الاندلس وكان الأوروبيون يطلقون عليهم المور.

ورغم قلة الاعداد الا انهم تمكنوا من التقدم في المنطقة بسبب الفوضى التي عمت الامبراطورية الكارولنجية ففتحوا البلدان المجاورة في شمال بروفانس ودوفينييه وجرونيل وإكس ومرسيليا ، وتلاحق المدد الاندلسي كل صيف فيما عُرف بالحملة الصيفية ، وتمكنوا خلال عشرون عاما من إخضاع بروفانس وأجزاء من بيدمونت ثم توسعوا في إغاراتهم لتمتد لابتعد من ذلك وصولا الى جنوب سويسرا وغرب ايطاليا وشمالها والمانيا و Rhaetia شمالا و Grenoble غربا ولمباردي شرقا ، واحتلوا Acqui وهددوا Novalesa عام 906.

وساهمت مهارة الاندلسيين الجبلية التي اكتسبوها من طبيعة الاندلس الجبلية في تمكنهم قبل عام 939 من عبور جبال الالب والسيطرة على ممراتها الأساسية الثلاث بين فرنسا وإيطاليا وهي "سان برنارد St. Bernar" ، وجبل "سانيس Mt. Cenis" وجبل "جنيف Mt. Geneve" ، وأشرفوا بصورة مباشرة ولمدة قرن تقريبا على الممرات الألبية الاستراتيجية في الغرب والشرق على حد سواء ؛ وتحكموا في طرق المرور والتجارة بين مناطق الشمال والغرب المؤدية الى روما ؛ ولما بلغت المستوطنة أوج قوتها بنت العديد من الحصون (الفراسونات طبقا للحصن الام) ، لاحكام السيطرة على الممرات ومع الوقت هيمنت المستوطنة على ممالك "بورغوندي ، و Piedmont الإيطاليين المجاورتين ؛ واقتحم مسلحوها مدينة "أستي Asti" و "أكوي Acqui" في الشرق ، و"نوفاليز Novalise" و"أولكس Oulex" ، و"أمبرون Embrun" و"فيينا Vienne" و"فالنسيا Valence" في الغرب ، وشنوا هجمات على عدد من المدن "أكس أون بروفانس Aix-en-Provence" ، و"مرسيليا" في الجنوب ، وتمكن الاندلسيون من محاصرة جنيف ولوزان وسيطروا على شمال ومناطق بغرب إيطاليا بحرا.

وفي عام 935 خرب مسلمو صقلية جنوا بمشاركة اندلسي الفراكسينيت ، كما خرب الفراكسينيتون عام 940 ميناء Fréjusin بإقليم بروفانس وتجاوزت غاراتهم جبال الالب ، وقد ضايق المسيحيون تحكم المسلمين في الممرات الألبية التي يستخدمونها لاداء الحج الى بيت المقدس ، فعزم "هيج" Hugh of Ivrea كونت بروفانس وملك لمبارديا (إيطاليا) على إجلاء المسلمين عن جنوب فرنسا وغربي إيطاليا ، فاستدعى اسطولا بيزنطيا من لدن ملك بيزنطة Romanus Lecapenus لمهاجمة فراكسينيت بحرا على ان يهاجمها هو بقواته برا ، وعندما اوشكت القلعة على السقوط بعد ان اغرق البيزنطيون اسطولها بالنار الاغريقية (هناك روايات بأن القلعة قد سقطت فعلا سنة 330هـ / 942م في ايدي قواته) ؛ اوقف الملك الهجوم لما بلغه نية غريمه Berengar of Ivrea ومنافسه على عرش ايطاليا في عبور الالب ومهاجمة ايطاليا بالتعاون مع حلفائه الصوابيين Swabia ، وبدلا من التخلص من المستوطنة اضطر ملك ايطاليا مرغما الى إبرام اتفاق سلام وتحالف معها لتكون دويلة فاصلة (Etat Tampon - buffer state) بينه وبين غريمه ، وفوضها في التحكم بالمضايق من جديد لما اثبتته فراكسينيت منذ عام 921 من قدرة على التحكم في الممرات بين فرنسا وإيطاليا ومنعها عبور الجيوش من خلالها ، وذلك لمنع غريمه من اجتياز مضايق جبال الألب ونيس وجبل القديس برنار ، وهذا الاتفاق هو الذي نفت الحياة من جديد في المستوطنة بعد ان سقطت ودعما اقتصاديا من حصيلة عائدات العبور بالممرات الألبية (80).

وهكذا أتيج للمسلمين البقاء في فراكسينيت لما يزيد عن أكثر من ثلاثة عقود واصلوا خلالها فتوحاتهم وهجماتهم على المناطق الواقعة شمال الألب في شور Chur أكثر من مرة ، وسان غالين St. Gallen بالقرب من بحيرة كونستانس عام 954 م وهو العام نفسه الذي وقعت فيه أيضاً مدينة غرينوبل Grenoble في الغرب بأيديهم ؛ ويبدو أن فراكسينيت قد بلغت في تلك الفترة أوج قوتهم فقد إتسعت رقعة الاراضى التي تسيطر عليها بشكل كبير تجاوزت شمال الألب وإلى الدير الشهير في سان موريس St. Maurice في وادي الرون وشمال وادي الرون ، وغنموا مواقع المطرانية في شير ريتيا Chur in Rhaetia ؛ وسيطروا على سان برنارد وفرضوا ضريبة على سان مايولوس St. Maiolus في كلوني Cluny عام 972 م .

⁸⁰ FRAXINETUM: AN ISLAMIC FRONTIER STATE IN TENTH-CENTURY PROVENCE Mohammad Bailan

اتصالات فرنسا بالاندلس

لاحتواء نشاط المستوطنة

طوال العقود الثلاثة الأولى من القرن العاشر حتى عام 930 ميلادية ، حافظت فراكسينيت على علاقات هادئة بمحيطها في معظم الاحوال بما فيها البلدان التي اخضعتها لعدم مساسها بالتركيبة الدينية والادارية لهذه البلدان واكتفت بتحصيل الجزية ، وهو ما جعل جيرانها يتقبلونها بل انهم سعوا للتحالف معها في كثير من الاحيان عندما إستقوي بها عدد من الأمراء والنبلاء في المنطقة ، وهو دليل على قوتها .

انقلب الحال وتوتر الوضع مع اتساع نشاط المستعمرة الحربى وتجاوزها في حق الاديرة ورجال الدين المسيحي فقد هاجمت دير القديس St. Gall ودير Aguane في Valais وعدد من الأديرة في "نوفاليز Novalise" ، كما ضايق المسيحيون تحكم المسلمين في الممرات الالبية التي يستخدمونها لاداء الحج الى بيت المقدس ، وهاجمت قافلة رئيس الأساقفة روبرت مطران تور Tours دون اعتبار لمكانته وسط محيطها المسيحي ، حيث قُتل وهو في طريق عودته من روما عبر أحد الممرات الغربية التي تتحكم فيها المستعمرة .

واثار نشاط فراكسينيت في محيطها وخاصة تمددها على الارض الفرنسية (مهاجمتها الراين الاعلى) حفيظة اوتو الاول Otto I امبراطور فرنسا ، وكانت دولته وقرطبة انذاك القوتين الاكبر في غرب اوروبا ، فأرسل الامبراطور في عام 953 سفيره Jean de Gorze الى الخليفة عبد الرحمن الثالث في قرطبة يناشده وقف نشاط المستوطنة في مجال القرصنة ووضع حد لمحاولاتها غزو الاراضى الفرنسية وغربي إيطاليا وطالب الاندلس بالإمتناع عن دعمها .

ومن الواضح ان الامبراطور وهو يناشد الخليفة في قرطبة كان يعتبر فراكسينيت (فراخ شانيت Farakh shanit) تابعة للخلافة الاموية في الاندلس ، وهو مُحق في هذا الى درجة ما فالاندلس كانت مصدر مدد الرجال الوحيد للمستوطنة كما انها كانت الداعم الاقتصادي لها من خلال عمليات التبادل التجارى معها ، فالاندلس كانت مصدر المدد البشرى الرئيسى للمستوطنة بضخها بمدد من الرجال كل صيف فيما كان يُسمى بالهجمة "الصيفية" ، وكان باعثهم في ذلك الرغبة في الجهاد من ناحية والتكسب من ناحية اخرى بالالتحاق بنشاط المستوطنة التجارى ومغانم عمليات الاغارة والقرصنة ، كما ان فراكسينيت والاندلس كانتا طرفان رئيسيان لتجارة المستعبدین الصقالبة ، وهى التجارة التى تنظمها دوائر اوروبية بالتنسيق مع يهود براغ وقرنانهم يهود الاندلس ، للعمل في حرس السلطان او بيعهم في اسواق النخاسة بشمال افريقيا ، وكان يتم تجميعهم عبر فراكسينيت ؛ ويشير المؤرخ الاندلسي الكبير ابن حيان القرطبي (القرن الحادى عشر) في كتابه "المقتبس" الى مدلول العلاقة بين الخلافة في قرطبة والمستوطنة فيذكر ان عبد الرحمن الثالث ارسل نسخا من اتفاقيات سلام عقدها عامى 939 و 940 مع عدد من حكام الفرنكش (فرنسا) الى ناصر بن احمد حاكم المستوطنة ملقبا اياه بحاكم the commander فراخ شانيت ، وأرسل نسخا منها ايضا الى محافظى جزر البليار وموان الاندلس ، وهو ما يعنى ان المستوطنة كانت على علاقة بقرطبة بشكل ما ، علاوة على ان الاخيرة كانت راضية ضمينا عن نشاط المستوطنة من منظور الجهاد الفاتح ، ولم يعبأ الخليفة الاموى عبد الرحمن الثالث (300-350هـ/912-961م) بطلب اوتو الاول وفشلت المحاولات في تحقيق غاياتها ، لكن موته عام 961م حسم مصير المستوطنة عندما إمتنع خليفته وابنه الحُكم الثاني لطبيعته المسالمة عن دعم الحملات "الصيفية" ومنع إنطلاقها من الارض الاندلسية الى فراكسينيت (81) .

الحملة الصليبية على فراكنيسيت

وسقوطها ومصير اهلها

بعد ان تخلص الاوربيون من تهديد Magyars عقب هزيمة الاخرين في ليشفيلد عام 955 ، تفرغوا للاجهاز على المسلمين في المنطقة وإستعدوا للانقضاض على فراكسينيت ، وكانت المستوطنة قد توقف تمدها منذ عام 954 ودخلت مرحلة جمود حاد في أواخر عام 960 م لتخلّى الاندلس عنها لتغير مزاجها السياسى بموت الخليفة عبد الرحمن ، ويبدو أن سكان فراكسينيت لجأوا لاعمال القرصنة وقطع الطرق بعد ان ضاقت بهم السبل، فتحوّلت المستوطنة في نهاية الامر الى مجموعة من

⁸¹ (يمكن الاطلاع على تفاصيل البعثة التي ترأسها الراهب جان دي غورز Jean de Gorze إلى الخليفة عبد الرحمن الثالث حوالي العام 956م، في Ponpardin صفحة 94-96. ويبدو من تلك الوقائع أن البعثة لم تؤثر على سلوك الخليفة، ولا يوجد ذكر لها في المراجع العربية.

المرتزة ، وحدث تطور مؤسف حسم نهاية الوجود الاسلامي في المنطقة فقد أسر المسلمون الاندلسيون القديس مايول Saint- Mayeul ومرافقيه عام 972م أثناء عبورهم ممر سان برنارد مجتازا الألب عائداً إلى دير Cluny قادما من روما ، وقد استهـ كان بمثابة قديس حى لمسيحيى غرب اوروبا ، وطلب الاندلسيون لإطلاق سراحه ومرافقيه فدية قدرها ألف جنيه من الفضة (جنيه فضي لكل خاطف)؛ الامر الذى اضطر الدير إلى بيع معظم موجوداته لدفعها .

وما ان تم اطلاق سراح مايول حتى قاد حملة شبه صليبية للقضاء على المسلمين بالمنطقة (82) ، وخطط كونراد المسالم Conrad le Pacifique (325-383هـ/937-993م) مستغلا وضع المستعمرة المتدهور وتخلى الاندلس عنها فأعد خطة للتخلص من المسلمين انتهت بإستخلاص سافوا Savoie من السيادة الإسلامية ، وإجلاء المسلمين عن مضائق سان برنار وغرينوبل ودوفينييه ، وفى اواخر عام 972 قاد الدوق وليهام الاول Guillaume أو Duke Wilhelm حاكم بروفنس حملة بمشاركته تحالف من نبلاء شمال ايطاليا وسبتمانيا هزمت المسلمين فى تور تور Tourtour فى بروفنس الاعلى وسقطت فراكينيت بعد حصار قصير وتم تخريبها وقتل مسلمو بروفنس او استرقوا او طردوا وحول من تبقى بالقوة إلى المسيحية وذابت هذه الاقلية فى المجتمع المحلى بمضى الزمن (83).

ونجمل فيما يلى تطور المد الاندلسى لمستوطنة فراكينيت فى اوروبا منذ قيامها:

عام 889 ابحر عشرون اندلسيا من المولدين الذين يتحدثون العربية واللاتينية من المرية فى الاندلس فى خليج St. Tropez واسسوا مستعمرة Farakhshanīt ، فى الموقع المعروف حاليا Massif des Maures .

- عام 906 عبر الاندلسيون مضيق Dauphiné وجبل.. Mont Cénis .
- عام 908 احتل الاندلسيون وادى Susa .

عام 911 استولى الاندلسيون على ممرات الالب the Alpine passes .
عام 929 تقدمت قوات مستوطنة فراخشنيط الى حدود Liguria .

- عام 935 معركة Acqui .
- عام 940 احتل الاندلسيون واستوطنوا طولون Toulon .
- عام 942 استقروا فى نيس Nice و جرينوبل Grenoble .
- عام 970 اخلى الاندلسيون جرينوبل وسافوى Savoy وجاب Gap .
- عام 972 اعتقل الاندلسيون Majolus of Cluny فى ممر St Bernard .
- عام 973 سقطت فرخشنيط بعد هزيمة الاندلسيون فى معركة Tourtour .
- عام 1047 اغار الاندلسيون على جزر Lérins Islands .

تأثير المسلمون على جنوب اوروبا

(فرنسا - سويسرا)

ترك مسلموا الاندلس أثرا كبيرا فى المناطق التى استوطنوها عرقيا ولغويا ؛ تأثيرا لم تُنكره القرون حتى اليوم ، تلحظه

⁸²) فى حملة شبيهة بما فعله Pope John VIII الذى ناضل لطرده العرب من جنوب ايطاليا ونادى بأهمية التصدى للمسلمين الذين هددوا روما عام 878 ولم يتمكن فى حياته من تحقيق رغبته الا ان البابا جون العاشر Pope John X جمع الفرسان تحت قيادته وتخلص من المسلمين فى جبل جارجليانو Monte Garigliano عام 915.

⁸³) G. de Rey, Les Invasions des Sarrasins en Provence Marseille: Typographie Marius Olive, 1878, p.p. 192-193

أثاره في المجتمعات التي اندمجوا فيها فهناك مناطق وأسر ما زالت تشير اسمائها لاصلها العربي(84) ، والعادات الاسلامية ملحوظة في إمتناع سكان وادي الساس Saas عن تربية الخنازير، وفي مجال الزراعة والانديليسيون هم سادتها بتجاربيهم في الاندلس (85) أدخلوا زراعة القمح الأسود Ble noir أو قمح السراسين أي القمح العربي في منطقة الفار Var بفرنسا ، وأدخلوا زراعة البلوط في المنطقة المحيطة بمنطقة فرينيه Freinet، وأدخلوا الطريقة العربية في تحويل لب خشب الصنوبر إلى قطران لتصنيع المراكب البحرية وكلمة Goudron الفرنسية مشتقة من كلمة قطران بالعربية ، وفي مجال التعدين حفروا المناجم في تاند Tende ولافييرييه La Ferrier قرب برشلونة بحثا عن مواد لصنع الأسلحة ، وفي سويسرا أدخلوا زراعة نوع معين من العنب في وديان الرون Rhone ما زال يزرع هناك حتى اليوم .

زوال الخلافة الاموية بدمشق (وسقوط آخر ولايتها في الاندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري)

و قيام الامارة الاموية المستقلة في الاندلس إمارة عبد الرحمن الاموي (الداخل) واسرته

اجتاحت الخلافة الأموية الاضطرابات على إثر مقتل الخليفة الوليد بن يزيد سنة 126هـ / 744م ، ولم تسلم الأندلس من ذلك وبعد قيام الخلافة العباسية (132هـ / 750م) ازداد الوضع تدهوراً إذ إنشغلت بالمشرق واهملت أمر الأندلس بفوضائها في مواجهة الإسبان الذين استغلوا الوضع وأستولوا على بعض مقاطعات الأندلس ، بعد وفاة ثوابة بن سلامة الجذامي ، إشتدت الاضطرابات واختلف أهل الأندلس فيمن يلي الأمر الذي استقر ليوسف بن عبد الرحمن الفهري (86) في ربيع الأول 129 هـ بدعم من حليفه الصميل بن حاتم لمدة عام على أن يتناوبوا المنصب سنة بعد الأخرى، وكان يوسف قد تولى سابقا ولاية أربونة في عهد عبد الملك بن قطن ، وكانت له معارك مع الإفرنج استولى فيها على آرل وأفينيون ، وتحالف مع مورونتوس دوق بروفنس ؛ ولم يتخلى يوسف عن المنصب بعد انقضاء السنة لاضطراب الأمر بسبب ثورة يحيى بن خريث الجذامي لاستبداد الفهري بالأمر ؛ فهاجم السجن المعتقل فيه أبي الخطار الكلبي الوالي الأسبق الذي سجنه ثوابة الجذامي وحرره وتحالفا معا وجمعا معهما العرب اليمانية ، بينما ساند العرب العدنانية يوسف وحليفه الصميل .

واقترلت الفريقان عام 130 هـ في شقندة ، فانهرمت اليمانية وقُتل أبي الخطار وابن حريث ، وبعد النصر ولي يوسف الصميل على الثغر الأعلى ومعظم أهله من اليمانية ليحكم سيطرته عليهم ، وبدأ يوسف في ضبط الشئون الداخلية فأعاد تقسيم الأندلس إلى خمس ولايات كبرى كما كانت في عهد القوط قواعدا قرطبة وطليلة وسرقسطة وأربونة وماردة ، كما نظم الجيش وأرسل الحملات لقتال البشكنس والقوط الذين غلبوا على بعض المناطق أثناء الاضطرابات واستولوا فيها على كورة أستورياس ثم جليقية كلها، إلا أن جيشه انهزم أمام قوات الإفرنج في سبتمانيا التي سقط معظمها عدا أربونة.

التصدى لموالي العباسيين

واجه يوسف عدداً من الثورات الداخلية نجح في قمعها ، أخطرها ثورة عامر بن عمرو العبدي الذي سيطر على الجزيرة الخضراء، وكاتب الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ليليه الأندلس للعباسيين، واستطاع أن يجمع حوله عدداً كبيراً من المضربة واليمانية وعندما هم يوسف بمطاردته، فر العبدي إلى الشمال وتحالف مع الحباب بن رواحة الزهري وتميم بن معبد الفهري ؛ وإستطاعوا في عام 136 هـ السيطرة على سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى وهزموا الصميل الذي فر إلى طليطلة وظل عامر العبدي مسيطراً على الثغر زهاء عامين ، الى ان حاصره يوسف في سرقسطة حصاراً شديداً أرهق أهلها مما دفعهم إلى تسليم العبدي

⁸⁴ (من فتوح المسلمين في اوربا ما قام به الاغالبية حكام تونس الذين فتحوا كل من كورسيكا - صقلية - جنوب إيطاليا ، احتلوا كورسيكا سنة 191هـ - 806م وظلوا فيها 142 عاماً ، وفتحوا صقلية عام 212هـ ، وتابعوا فتوحاتهم في جنوب إيطاليا وسردينيا (انظرالخرائط)، وأخضعوا كل مدن الساحل الغربي ، ووصلوا حتى اسوار روما ولم يرجعوا الا بعد أن عدهم البابا يوحنا الثاني يدفع الجزية .

⁸⁵ (جوستاف لويون - حضارة العرب ص317.

⁸⁶ (وهو يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ؛ حفيد عقبة بن نافع فاتح المغرب العربي والي إفريقية أيام معاوية بن أبي سفيان و مؤسس مدينة القيروان ، وحفيد حبيب قاتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وأباه عبد الرحمن دخل الأندلس في جيش بلج بن بشر القشيري، وحاول أن يصل إلى سدة الإمارة ، ولما فشل فر إلى إفريقية واستولى على حكمها من واليها.

والزهري وتميم الفهري إلى يوسف لإنهاء الحصار فقتلهم ، وظل الفهري واليّا على الأندلس إلى أن دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وهزمه مؤسسًا بذلك الدولة الأموية في الأندلس .

العهد الثاني إمارة وخلافة بنى أمية القرطبية

إمارة عبد الرحمن (الداخل) صقر قریش

لما سقطت الدولة الاموية في دمشق على أيدي العباسيين عام 750 م ، أفلت الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية من قبضة العباسيين وفر إلى الأندلس عبر رحلة طويلة في إفريقيا بمساعدة قبيلة والدته بها ؛ وفي عام 136 هـ ارسل مولاه بدر إلى الأندلس ، لاستنفا زعماء موالي بني أمية لدعم ولايته بالأندلس والتمهيد لدخوله إليها ؛ فأجابوه ومعهم اليمانية الذين ايدوه رغبة في الثأر لهزيمتهم أمام الفهرية والقيسية في موقعة شقندة ، بينما رفض الصميل بن حاتم حليف الفهري تأييد عبد الرحمن خشية من ضياع نفوذه.

وصل عبد الرحمن بنى أمية الى ثغر المنكب في ربيع الثاني سنة 138هـ / 755م ، على مركب ارسله زعماء الموالي ، والتقى انصاره في حصن طرش منزل أبي عثمان مركز تجمعهم ، ولما بلغ يوسف الفهري الخبر وتجمع الناس حوله، وعدم قدره عامله على البيرة على تفريقهم ، نصحه الصميل بسرعة التصدي له .

وكان عبد الرحمن قد أخضع كافة المدن في طريقه الى إشبيلية وبايعه أهلها فتجمع له ثلاثة آلاف مقاتل سار بهم الى قرطبة، وقبلها بـ 45 ميلاً وكان يفصل بين القوتين نهر الوادي الكبير حاول يوسف أن يغري عبد الرحمن لينصرف بجنده مقابل الاموال وأن يزوجه إحدى بناته إلا أن عبد الرحمن رفض وأسر خالد بن يزيد أحد رسل يوسف لإغلاظه القول.

وفي الليل حاول الجيشان الاستباق إلى قرطبة وسارا بمحاذاة النهر إلى أن انحسر الماء عند المصاراة يوم الأضحى لعام 138 هـ فعبه جيش عبد الرحمن ودارت المعركة التي انتهت بانتصاره ودخل قرطبة وأدى الصلاة في مسجدها الجامع حيث بايعه أهلها على الطاعة ، وبذلك انتهى عهد الولاة وتأسست إمارة أموية استمرت حتى عام 316هـ.

فر يوسف والصميل بعد هزيمتهما في المصاراة أمام الداخل ، وعملا على إعادة حشد القوات بمساعدة هشام بن عروة الفهري عامله علي طليطلة وحشد الصميل من جيان ، وخططا لجر عبد الرحمن لقتالهما في جيان على ان يتسلل عبد الرحمن ولد يوسف الفهري الى قرطبة ليحتل قصر الإمارة ونجحت الخطة واسر ولد يوسف الفهري قائد القوة الصغيرة التي تركها عبد الرحمن معاوية في قرطبة أبا عثمان وبعض نساء عبد الرحمن بن معاوية وفر بهم الي البيرة قبل وصول عبد الرحمن الذي عاد مسرعاً لانتقامهم ، فتابعه عبد الرحمن وحاصر يوسف والصميل بالبيرة ، وتصالحا في عام 140 هـ على أن يعترفا بإمارته ولا ينازعاها مقابل أن يؤمنهما وحلفائهما ويسمح لهما بسكنى قرطبة .

عمل عبد الرحمن علي إكرام يوسف تقديرًا لمكانته ، غير أنه لم يمض عام حتى هرب يوسف الى ماردة ولقنت عام 141 هـ بعد ان راسل اهلها واطمان الي تأييدهم له ، ثم اعلن الثورة على عبد الرحمن الداخل ، وحاصر إشبيلية فاستنجد اليها عبد الملك بن عمر المرواني بابنه والي مورور ، وطاردا يوسف إلى حليفه والي طليطلة وهزمه ، وأدركه في الطريق قبل وصوله طليطلة بأربعة أميال عبد الله بن عمر الأنصاري وقتله وبعث برأسه إلى عبد الرحمن الداخل.

حركتا اليحصبي والصقلبي العباسيتين المناونتين

اولا حركة اليحصبي

سادت الأندلس في بدء حكم عبد الرحمن الداخل فترة هيجان شديد بدعوة العلاء بن مغيث اليحصبي (حضرمي) للعباسيين سنة 146هـ / 763م في لقنت أحد أعمال باجة غرب الأندلس (جنوب البرتغال حالياً) ودعى إلى طاعة أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي وإدعى انه أرسل اليه بولاية الأندلس ، وانضمت اليه القبائل اليمانية التي انقلبت على عبد الرحمن الداخل ؛ لعدم رضائها عما كانت تُشده مقابل مساعدتها له ، وتمكن عبد الرحمن الداخل في النهاية من القضاء عليها بعد مواجهات عديدة وقتل العلاء بن المغيث.

ثانيا حركة الصقلي

فشلت محاولة المنصور العباسي في القضاء على الإمارة الأموية الخارجة في الأندلس بمقتل العلاء وانتهاء حركته ، وأعاد العباسيون الكرة من جديد بمجيء الخليفة المهدي (158 - 169هـ / 755 - 785م) ، بعبور عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي من أفريقيا إلى تدمير في جنوب الأندلس ؛ وتختلف الروايات في تحديد سنة عبوره وحركته ، فالبعض يشير إلى سنة 161هـ / 778م ، والآخر إلى سنة 162هـ / 779م أو سنة 163هـ / 780م ، ولبس السواد واتخذ شعاراً لحركته ودعا للعباسيين ، وحاول إجتذاب سليمان بن يقظان الأعرابي عامل سرقسطة لسوء علاقته بالداخل ، لمحاربة عبد الرحمن الأموي والدعاء إلى طاعة المهدي العباسي ، ولما فشل توترت العلاقة بينهما ووصل الأمر إلى الصدام العسكري قرب برشلونة انهزم فيه الصقلي وعاد منسحباً إلى تدمير ، فهاجمها عبد الرحمن الداخل وأحرق مراكب الصقلي لمنع من العودة إلى أفريقيا ، وأعلن عن مكافأة ألف دينار جائزة لمن يأتيه برأسه فاغتناله رجل من البربر سنة 162هـ / 779م وحمل رأسه إلى عبد الرحمن وحصل على مكافأته ، وتصدى الداخل لثورة سليمان بن يقظان الأعرابي والحسين بن يحيى الأنصاري في سرقسطة.

وبعدها شهدت الإمارة الاستقرار وبدأت اعمال ، وكان عهد الداخل بداية العصر الذهبي للأندلس عامة وقرطبة خاصة التي شيد صروحها واهمها الجامع الكبير ؛ وأخذ عبد الرحمن الداخل يبني ويقوي دعائم دولته أكثر من ثلاثين سنة، ولما مات عبد الرحمن سنة 172هـ ترك وراءه دولة قوية توارثها أبناؤه من بعده، فتولاها ابنه هشام ومن بعده عبد الرحمن الثاني ولكن البلاد فقدت استقرارها وتعرضت للمحن الى أن وصل الأمر إلى عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (912 - 961 م) (القرن العاشر الميلادي - الرابع الهجري) الذي إستعاد السيطرة على الامور وأعاد للأندلس وحدتها وقوتها ومكانتها بعدما نجح في القضاء على الفتن والاضطرابات وقضى على المتمردين ووضع حداً لتحركات الدول الإسبانية بالأندلس .

وتأكيداً لقوة الأندلس على الصعيدين الداخلي والخارجي أعلن عبد الرحمن الناصر احياء الخلافة الأموية في الأندلس سنة (316هـ - 929م) إستناداً إلى ما اعتبره حق أسرته القديم في الخلافة بدمشق ، وتلقب بأمر المؤمنين وخليفة المسلمين الناصر لدين الله وتخلي عن لقب الأمير بعدما حمله للفترة من 300 إلى 316هـ ؛ وقام بنقل حكومته إلى مدينة جديدة اختطها على بعد أميال من قرطبة أسماها الزهراء ولكن هذا لم ينتقص من قدر قرطبة التي ظلت المدينة الرئيسية في البلاد ، وقد وصلت الزهراء أوج مجدها في عهده بعد القضاء على ثورة الربض ، وتواصل نموها في عهد ابنه الحكم الثاني (961 - 976 م) .

وأعتبر عهد الناصر الذي دام نصف قرن قمة ما وصلت إليه الأندلس الأموية من ازدهار وتقدم وقوة لا تضاهيها دولة في أوروبا آنذاك في القرن العاشر ؛ فقد أصبحت قرطبة من أهم المدن ومنارة للعلم والثقافة ومقصد العلماء وطلاب العلم ، وأنجبت في هذه الفترة الشاعر ابن زيدون والشاعرة الأموية ولادة بنت المستكفي والفقيه ابن حزم، والعالم عباس بن فرناس، كما أنتقل إليها الموسيقي زرياب وأسس دار المديريات ؛ ويموت الناصر سنة 350هـ أعقبه على عرش الأندلس ولده الحكم الثاني (961 - 976 م) ، وكان ضعيفاً فخضع لحاجبه المنصور بن أبي عامر (981 - 1002 م) الذي استولى على مقاليد السلطة في قرطبة بمعونة أم الخليفة ، وصير الخليفة الأموي سجيناً في قصوره بالزهراء وابتنى لنفسه بقرطبة قصراً للحكم أسماه المدينة الزاهرة وأسس دولة العامرية (إنتساباً لاسمه) لفترة وجيزة .

الدولة العامرية

أسسها أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني، ولد سنة 326 هجري بجنوب الأندلس ، جاء من الجزيرة الخضراء "حصن طرش" إلى قرطبة طالباً للعلم ، وتطوع في الجيش وأصبح قائدا لشرطة قرطبة لشجاعته ثم أصبح مستشار للخليفة الأموي تولى رئاسة الشرطة وخزانة الدولة في عهد المستنصر بالله لحسن بلانه في غزوات الحكم في المغرب الأقصى ، انتدب ليكون قائما على أملاك الأمير هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، واستطاع بذكائه وحنكته أن يصل إلى سدة الحكم في الأندلس فأخذ الوصاية على الأمير هشام ، وأصبح في عهده حاجب الدولة ثم المتصرف في كل شئونها ؛ ومن بعد استولى على الحكم ولقب نفسه بالملك المنصور وكان من أبرع رجال الدولة فأعاد للبلاد قوتها ووحدتها ، وكان فقيهاً حكيماً ومجاهداً ، بدأت البلاد في ظله عهداً مشرقاً في مجال العلوم والحضارة والاقتصاد ؛ خاض عدة حروب فتح فيها ليون وبطريوس ولشبونة وغيرها من بلاد الفرنجة في شمال شرق الأندلس ؛ غزا إثنين وخمسين غزوة إنتصر فيها كلها ، فسقطت في يد المسلمين شنت ياقب في ولاية جليقة ، وتعتبر مكاناً مقدساً لمسيحيي أسبانيا فهم يعتقدون ان القديس يعقوب دفن فيها ، كما انتصر

على ملوك قشتالة و نافارا وقطالونيا ، وأنزل ببلادهم خسائر فادحة واستحصل منهم على غنائم عظيمة .

واعظم انتصاراته غزوة ليون في فرنسا حيث هزم القوات الأوربية، وأمر برفع الأذان للصلاة في المدينة ، ؛ ومن سير حروبه أنه سير جيشا لإنقاذ ثلاث من النسوة المسلمات محتجزات في احدى كنائس مملكة نافارا التي كانت على عهد معه تدفع له الجزية وألا تأسر أحدا من المسلمين أو يستبقوهم في بلادهم ؛ فحررهن واعتذر ملك نافارا بأنه لم يكن يعلم بشأنهن ، و من معاركه التي لا تخلوا من الفكاهة معركته مع البشكنج Basques الباسك على الحدود المشتركة مع فرنسا فعند عودته من وراء جبال بلاد البشكنس ؛ سد القوط عليه مضيق العودة ، فلم يقتحم المنصور طريقه عنوة وقرر الإقامة بالمنطقة يحرق ويزرع وبعث بجنده يقتلون ويأسرون ويغنمون حتى ضج القوط من غاراتهم ؛ فأرسلوا إليه أن أعير المضيق فماتل بدعوى طيب المعيشة والبقاء إلى الصيف القادم للغزوة، واخيرا قبل بشرطين - أن يحمل النصارى ما معه من الغنائم على دوابهم و يمشون أمامه وأن يقوم النصارى بإزالة الجثث التي ألقتها جنوده في فم الوادي، فرضوا تخلصاً منه .

ومن سيرته في معاركه انه كان يجمع غبار ملابسه بعد كل معركة وبعد كل ارض يفتحها ويرفع الأذان فيها ويجمع الغبار في قارورة وأوصى أن تدفن معه لتكون شاهده له عند الله يوم يعرض للحساب وقد وافته المنية وهو في مسيرة لغزو فرنسا .. وكان عمره حين مات 60 سنة قضى منها 30 سنة في الجهاد والفتوحات.

ومما يؤخذ عليه تجنيده اعداد كبيرة من فرنسا وإيطاليا وشمال أوروبا وممالك الصقالبة في جيشه بعد ان اعتنقوا الإسلام عند وصولهم إلى الأندلس فأضاف وقودا للطائفية والانقسام العنصري الذي تعاني منه البلاد اصلا بين عناصرها المسلمة العرب والبربر والإيبيريون المسلمون وممالك الصقالبة ، ومن وفرة جنده ان أصدر مرسوما عام 388هـ بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو اكتفاء بعدد الجيش الم رابط وقرأ الخطباء على الناس ذلك المرسوم وفيه (بأن من تطوع خيراً فهو خير ، ومن خف اليه فمبرور ومأجور ومن تناقل فمعدور) فسّر لذلك الناس سرورا بالغاً.

تزوج ابنة سانشو ملك نافارا التي اعتنقت الإسلام وتسمت باسم عبدة وأنجبت للمنصور ابنه عبد الرحمن وتوفي ابن ابي عامر في قرطبة ودفن فيها سنة 392 هـ .

عبد الملك بن محمد العامري

وتولى الحكم بعده ابنه عبد الملك بن محمد العامري الذي سار على نهج والده في الجهاد ضد الافرنج فحقق انتصارات مشهودة ونعم الأندلسيون في عهده بالرخاء والاستقرار ، وتوفي عبد الملك سنة 399 هـ ، وبوفاته انتهى عهد الاستقرار الذي حظيت به البلاد خلال حكمه وحكم والده الذي قال فيهما الفتح بن خاقان بأنهما " كانا آخر سعد الأندلس وحد السرور بها والتأنس "

عبد الرحمن المعروف بشنقول

ومع تولى أخيه عبد الرحمن المعروف بشنقول الحكم بدأت فصول إنهيال الأندلس ، فقد اخطأ عبد الرحمن عندما اراد ان يقتل أخيه وابيه من قبله حيث جهز جيشا ليغزوا به الممالك النصرانية دون ان يقوم بتثبيت حكمه فاستغل ذلك محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي الملقب بالمهدي فأعلن الثورة ، وخلع دولة العامريين لتبدأ البلاد عهدا من الاضطرابات.

ثالثا دويلات الطوائف

إنهارت دولة الخلافة في الأندلس بعد ان اعتراها الضعف بسبب الخلافات المستمرة بين طوائفها المختلفة وبالذات العرب و البربر ، وكانت ثورات البربر في العقدين الثاني والثالث من القرن الحادي عشر الميلادي من اسباب سقوط الدولة التي قام على انقاضها أكثر من 23 كيانا تفرقوا شيعاً يصفها الشاعر بقوله :

وتفرقوا شيعاً فكل محلة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

دويلات الطوائف الرئيسية

- الأدارسة الأفارقة أو بنو حمود أصحاب مالقة وكانوا يحكمون جنوب الأندلس، فضلاً عن حكم مليلة وطنجة وسبتة في شمال المغرب ، وقد تحالفوا مع أمير غرناطة وقرمونة، وألبيرة وجيان وأستجة.
- بنو عباد أمراء إشبيلية أقوى ملوك الطوائف ، وتحالف معهم بنو جهور في قرطبة وبنو الألفطس أصحاب بطليوس في جنوب وغرب الأندلس.
- بنو ذي النون أمراء طليطلة وحكموا أواسط إسبانيا ، وكانوا يتنافسون مع بني عباد ، والتماساً للعون ضدهم إستعانوا بملك قشتالة ودفعوا له الجزية.
- بنو عامر وحكموا شرق الإندلس وبسط نفوذهم على الثغور الممتدة من مرية حتى مصب نهر أبرة سنة 1051م في بلنسية ومرسية ، وكانوا يتحالفون طبقاً لظروفهم مع الأدارسة تارة ومع بني عباد تارة وبني ذي النون تارة أخرى.

الانقسام الطائفي وضعف ملوك الطوائف

ومن دويلات الطوائف ما هو عربي كبني عباد في إشبيلية وبني هود في سرقسطة ، ومن هو من البربر كبني الأغطس المكناسيين في بطليوس، وبني ذي النون الهواريين في طليطلة ، ومنها ما هو صقلبي كبني مجاهد وبني غانية في شرق الأندلس (87) ، كان هذا الانقسام مدعاة لتأجج الوضع وليس استقراره في أرض الأندلس فمطامع حكام تلك الدويلات في توسيع نطاق سيطرتهم لم يكن لها حدود فإنفجرت الحروب بينهم وإنشغلوا عن مواجهة الخطر الأسباني بخلافاتهم وإقتتالهم ؛ بل إنهم تحالفوا مع الأسبان إن وجدوا نفعاً يحقق أطماعهم ؛ ويقول ابن حزم عن هؤلاء الحُكَّام "والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه" ، ولم يكن العامة أيضاً راضون عن تخاذل الحكام ؛ وقد عبر عن ذلك أحد الشعراء بقوله:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهَرَّ يحكى انتفاخاً صولة الأسد

وقال عنهم ابن المرابط:

ما بال شمل المسلمين مُبدِّدٌ ... فيها وشمل الضد غير مبدد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم ... وطريق هذا الغدر غير مُمهَّد
إن قال لم فرطتم في أمّتي ... وتركتموهم للعدو المعتدي
تالله لو إن العقوبة لم تُخَف ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

وانتقل تخاذل الحكام للبعض من الامة الذين أثروا السلامة بالاستسلام فعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام 456هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة ؛ فكانت وقعة بطرنة التي إنتقدتها شعرا الشاعر أبو إسحاق بن معلى:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم ... حُلَّ الحريز عليكم ألواناً
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها ... لو لم يكن ببطرنة ما كانا

ويصف المُتَمَدِّد بن عباد صاحب إشبيلية وأقوى حكم الطوائف في رسالته الى يوسف بن تاشفين مؤرخة سنة 479هـ هوان حال الاندلسيين فيقول :

"فإننا - نحن العرب - في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرَّق جمعنا، وتغيَّرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا؛ فصرنا شعوباً لا قبائل، وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقلَّ نصرنا وكثر شَمَاتنا ، وتولَّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا

⁸⁷ (- دولة بن عباد بإشبيلية (414هـ إلى 484هـ)- بنو جهور في قرطبة (422هـ إلى 449هـ) -- بنو حمود بمالقة (407هـ إلى 449هـ) -- بنو زيري بغرناطة (403هـ إلى 483هـ) - بنو هود بسرقسطة (410هـ إلى 536هـ) - بنو رزين بالسهلة (402هـ إلى 497هـ)- بنو ذي النون بطليطلة (400هـ إلى 478هـ)- بنو الألفطس في بطليوس (413هـ إلى 487هـ).

بَطْلَيْطَلَة ووطأها بقدمه وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرته جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال".... "ويستغيث به لنجدة الاندلس فيستطرد " نزعته بهمتي إليك واستصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين مُحَمَّد....".

وادلّى ملكا قشتالة ألفونسو السادس وألفونسو الثامن بدلوهما فى وصف حالة الخنوع التى أصابت مسلمى الأندلس فيقول الأول فى تعقيبه على طلب ابن تاشفين له قبل موقعة الزلاقة بالإسلام أو الجزية بقوله " أمثل هذا يخاطبني وأنا أبى نغرم الجزية لأهل ملّته منذ ثمانين سنة" (88)، وفى رسالة ألفونسو الثامن التى صاغها له وزيره المسلم ابن الفخار الى المنصور الموحدى يُشير لحالة التخاذل الأندلسي فيقول " .. وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلاّدهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبى الذراري وأمثل بالرجال ".

وكانت مصيبة الاندلس ما سجله اهلها شعرا :

أصابها العينُ في الإسلام فارتزأت
يا من ذلّة قوم بعد عَزْهِمْ
بالأَمْس كانوا ملوكاً في منازلهم
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
يا ربَّ أم وطفلٍ حيلَ بينهما
وظفلة مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت
يقوِّذها العُلجُ للمكروه مكرهه
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ

المستعربون (Mozarabes)

والموايدون

واضع الف **الاندلس**

ومن اسباب ضعف الاندلس القوى غير الاصلية فى بنية المجتمع الاندلسى التى تنقسم ولاءاتها كالمسيحيين والمعاهدين (الاسبان المستعربين) ، والمسلمين المولدين مختلطى الاصول انصاف الاسبان او من يمكن تسميتهم بالعنصر الثالث ، فالمعاهدين هم اولا واخيرا اسبان ولاؤهم كله لعنصرهم بثقافته وطموحاته اما ما يربطهم بالاندلس فهو مجرد علاقة تعايش مادية لا روح فيها ، والمولدين رغم رابطهم القوى بالاندلس بحكم النسب والانتساب والمعايشه الا ان إنتمائهم يتأرجح بين عنصرى انتمايهم الاسلامي والاسبانى بما لهم معهما من ارتباط مشترك ومودة ورحما وتكمها فوق ذلك المصلحة ؛فولاء المستعربين الاسبان او المسيحيين الاندلسيين (المعاهدين) دائما ما يرتد الى اصله ويصبح خطرا كامنا فى السلم والحرب ، فقد غلبت عليهم العصبية وانحازوا الى بنى جلدتهم ودينهم وناوعوا دول الاسلام المتعاقبة كلما بدت بوادر ضعفها وظهرت بارقة امل فى التوحد مع أتربهم من بنى جلدتهم

⁽⁸⁸⁾ عندما ضعفت الاندلس في عهد الطوائف ؛ طبق رامون برنجر الأول صاحب كتلونيا منذ سنة 1040 نظام الباريا (الجزية) على بعض دول الطوائف المجاورة لحدوده ، وغدت ظاهرة الباريا فيما بعد واسعة الانتشار عندما التجأ ملوك الطوائف في اقتتالهم الداخلي الى عون قشتالة التي قويت ففرضت عليهم الجزية الثقيلة بالرغم من انها كانت إستنزافاً لخزائنها ، وكانت بعض دول الطوائف تدفع جزيات متعددة لكل دول الاسبان القوية المجاورة لها ؛ فمملكة سرقوسة Zaragoza كانت تدفع جزية لممالك كتلونيا وأرجل ونافار وقشتالة وأراجون التي تشترك معهم في الحدود ، في حين أن الدول الطائفية المعزولة الحدود تدفع جزية واحدة فقط للمملكة الإسبانية التي تحدها ؛ وبفضل التجارة الخارجية هود للاندلس في أواسط القرن الحادى عشر، خاصة صادراتها من الحرير تمكنت من توفير الموارد الرئيسية للوفاء بدفع جزيتهم (الباريا) .

وملتهم ؛ فعند انحلال دولة المرابطين انتهزوا فرصة استيلاء الفونسو الاول ملك اراجون على سرقسطة ودعوه الى غزو بقية الاندلس ، وعندما اخترقت جيوشه عام 519هـ/1125م اراضي غرناطة وحاصرت المدينة هبوا لمساعدته بالاقوات والمؤن وشاركوا بالالاف فى جيشه ، وإستاء المرابطون من تصرف المعاهدين وأخذ اميرهم على بن تاشفين بفتوى القاضى ابو الوليد ابن رشد بوجوب تغريبهم عن الاندلس لنقضهم العهد والخروج على الذمة ؛ فهجر عدة الاف منهم الى المغرب .

وهذه الطائفة تمتعت بمعاملة كريمة فى الاندلس فى مجال حرية المعتقد وحقوق المواطنة وعدم المساس بأموالهم او لغتهم او ثقافتهم او التمييز ضدهم وكانت لهم مكانة فتزوج من نساها الخلفاء ومن نسلهن الخليفة عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد والسلطان محمد بن اسماعيل النصرى وابو عبد الله محمد ابا الوليد اسماعيل ، ومن رجالها من تولى مراكز القيادة والوزارة وانتظم الكثيرون منهم فى حرس السلاطين فى الاندلس والمغرب (89) .

وولاء طائفة المسلمين المولدين انصاف الاسبان عادة ما يتوزع بين فرعى اصوله عند المحن وفى بعض الاحيان قد يُعَلَى مصلحته الخاصة بما يهدد استقرار البلاد ، الا اذا انحاز الى اسلامه واستقر على أندلسيته وقرر الدفاع عنها وان غلبته المنفعة المادية انحاز لمن غلب وتأرجح هواه بين ولائاته ، وهؤلاء لهم ميزة وقت السلم والحرب فهم قادرون بعلاقاتهم المتنوعة بفرعى اصولهما ان يقومون بدور الوسيط لمعالجة المشاكل .

اما المسلمون المولدون من اصول مختلطة انصاف الاسبان فكانوا عنصر قوة فى المجتمع الاندلسى لما لهم من حظوة مع مجتمع الاسبان وممالكها مما اتاح لهم القيام بدورهمزة وصل واتصال قادرين فى بعض الاحيان على تسوية الامور بين الاندلس والممالك اليبيرية خاصة وانهم فى معظم الحالات من عليّة القوم القادرين على أعباء الزواج المختلط ، ومما يؤخذ عليهم ثوراتهم المتكررة التى كان لها اثر فى اضعاف البلاد مثل ثورة الربض وثورة طليطلة ايام الحكم بن هشام وثورة بنى قسى فى الشجر الاعلى وينحدر من الكونت قسى القوطى ؛ وثورة بن حفصون اخطر ثوار الاندلس وهو الذى استطاع تأسيس دولة مستقلة فى منطقة رندة اواخر القرن 9 م وثورة محمد بن سعد بن مرديش امير بلنسية ومرسية ضد المرابطين وكان يجند فى جيشه الكثير من النصارى ، وتنازعت ولأى البعض منهم الانتماءات المختلطة فتأرجح طبقا للمصلحة الشخصية ، فعندما جاء قرار طرد المورسكيين برز تأثير عامل الانتماء المشترك على مسلك كل من المولدين والسلطات الاسبانية بتعاطفهما معا فى المعاملات الخاصة بهم او قبول السلطات شفاعتهم بشأن إخوتهم من المسلمين ، وإستخدمتهم السلطات احيانا فى تسوية بعض فى الاضطرابات وثورات المورسكيين ، ومنهم من استجاب بسهولة الى التنصير والاندماج فى المجتمع الاسبانى لضمان التمتع بما يوفره لهم هذا من حقوق مدنية اسوة بالاسبان كالاحتفاظ بأموالهم ؛ ومنهم من رفض الاغراءات وتمسك بالاسلام وتقبل بعزم المصير المنتظر لكل من تمسك بدينه وقوميته ، اما السلطات فعاملتهم على انهم مواطنين اصلاء وعاملت من استجاب منهم للتنصير برفق.

صراع ملوك الطوائف

صراع طليطلة وقرطبة وتوسع اشبيلية

اضعفت الحرب الطويلة بين قرطبة وطليطلة كليهما وباتا مطمعا لاشبيلية اقوى الامارات الطامحة للتوسع ، والتى بلغت اوج قوتها فى عهد المعتمد بن عباد (90) ، وكانت الاطماع التوسعية لاشبيلية قد بدأت فى ولاية أبو عمرو المعتضد ابو المعتمد عندما أرسل ولديه المعتمد وجابر على رأس جيش لفتح مالقة من بني زيري ، فاستعصت وبحسب إحدى الروايات سقطت فى أيدي المعتمد وأخيه لفترة قصيرة ، لكن أغاثها باديس الصنهاجي بقوة خاضت معركة شديدة قتلت وأسرت فيها الكثير من الجيش ، وفرا ابنّا المعتضد وبقية الجيش إلى رندة .

وفى عام 435هـ/1043م تولى المأمون بن ذي النون إمارة طليطلة وكان متحالفاً مع مملكة قشتالة لتمكنه من الاستيلاء

⁸⁹ يُشير دافيدسون الى جوهر قائد الجيش المغربى الذى قضى على مملكة صغى الاسلامية فى افريقيا بانه كان من الاندلسيين ؛ ومن غير المعروف ما اذا كان يقصد الاسبان المستعربين الذين خدموا فى جيش السلطان او الاندلسيين.

⁹⁰ وهم سلالة عربية من مدينة العريش فى شبه جزيرة سيناء ويرجع اصلهم الى النعمان بن منذر حاكم الحيرة ، قدم بنى عباد الى الاندلس مع طالعة بلج فى بداية القرن الثانى الهجرى ، وفى مطلع القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) استقل أبو القاسم محمد بن عباد اللخمي بإشبيلية، ثم خلفه ابنه أبو عمرو المعتضد عباد وأخيراً حفيده المعتمد فى عام 458 هـ (1066م) .

على قرطبة من أميرها محمد بن جهور ، وعندما علم المعتضد حاكم إشبيلية وبنو الأفطس حكام بطليوس بالأمر سارعوا لانقاذ قرطبة من بنى ذي النون ، وسرعان ما انضم اليهما باقي ملوك الطوائف فى حلف كبير، لكن المعتضد الذى يطمح الى التوسع استغل إنشغال باقي ملوك الطوائف ولم يرسل الى قرطبة سوى قوة صغيرة وسير بقية قواته الى لبلة وولبة وشلطيش واستولى عليها ، واستمر فى توسعه فاستولى بعد ذلك بأعوام على قرمونة.

إستيلاء إشبيلية على قرطبة

توفي أبو عمرو المعتضد في 2 جمادى الآخرة عام 461 هـ (1069م)، وترك لابنه المعتمد بن عباد إمارة قوية تولّى حكمها وعمره 30 عاماً ، ولما تعرضت قرطبة التي اضعتها حربها الطويلة مع طليطلة للحصار، أرسل إليها المعتضد على الفور جيشاً فك الحصار واستولى عليها وأسقط إمارة بني جهور، وبات المعتضد أقوى ملوك الطوائف في الأندلس.

توسع طليطلة وحربها على إشبيلية

وتحالفها مع قشتالة

تحالف المأمون بن ذي النون الذى تولّى حكم إمارة طليطلة عام 435هـ/1043م مع مملكة قشتالة لتمكنه من الاستيلاء على قرطبة من أميرها محمد بن جهور كما اسلفنا، وإستدعى إنقاذها تحالف ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتضد حاكم إشبيلية وبنو الأفطس حكام بطليوس ، تخوّف ملك طليطلة من نوايا إشبيلية وحاول التحالف مع صهره عبد الملك المظفر أمير بلنسية لكنه رفض ، فتحالف مع ملك قشتالة فرديناند الأول واستوليا معاً على بلنسية عام 457 هـ (1065م) ، وكان من المخطط الاستيلاء على إشبيلية ، إلا أنّ وفاة فرديناند المفاجئة ونشوب الحرب بين أبنائه على حكم قشتالة تسبباً بإيقاف خطة الهجوم على بني عباد.

وفي عام 461هـ (1069م) أخذ المأمون حاكم طليطلة فى التوسع ، فاستولى عام 1073م على مرسية وأريولة ، وعقد حلفاً وثيقاً مع ألفونسو السادس حاكم قشتالة الجديد بعد انتهاء صراع أبناء فرديناند ، كما تحالف مع بني الأفطس حكام بطليوس وبني هود حكام سرقسطة إستعداداً لمعركته مع بنى عباد فى إشبيلية فشن عليها الحرب عام 468هـ واستولى على قرطبة التابعة للمعتمد بن عباد بمقاومة بسيطة بعد أن تسلّل إليها ابن عكاشة قائد المأمون في الليل مع رجاله، وقُتل في المعركة عباد سراج الدولة ابن المعتمد ، وأخذ البيعة من أهل قرطبة للمأمون.

توقّفت الحرب لوفاة المأمون بن ذي النون في عام 468هـ (1074م)، وبعدها بثلاث سنوات في عام 471هـ ، استعاد المعتمد قرطبة من جديد وقتل ابن عكاشة قائد جيش ابن ذي النون انتقاماً لابنه واستولى على طليطلة لضعف حاكمها الجديد القادر بالله ولد المأمون بن ذي النون الذي خلف والده على الحكم كما نجح فى الاستيلاء على الكثير من المدن التابعة لها ومنها بلنسية.

توسع إشبيلية (المعتمد) وتحالفه مع ملك برشلونة

فى محاولة غزو مرسية الفاشلة

فى تلك الفترة خطط المعتمد للتوسع وبدأ بمرسية وهى تحت حكم أبي عبد الرحمن بن طاهر، وقَدّم ابن عمار كبير وزرائه إغراءاتٍ ووعود لبعض وجهائها تشجيعاً لهم على الثورة ؛ وفى نفس الوقت عقد ابن عمار حلفاً مع ملك برشلونة الكونت ريموند برانجيه لمساعدة المعتمد فى فتح مرسية مقابل عشرة آلاف مثقالٍ من الذهب وإتفقا بدون علم المعتمد إرتهان ابن أخ برانجيه لدى المعتمد لضمان مساعدة ملك برشلونة وإحتجاز قائد الحملة الرشيد ابن المعتمد عند برانجيه إذا لم يصل المال الذى وُعدّ به ، وبعد حصار جيشا المعتمد والبرتغال مرسية ، عاد المعتمد إلى قرطبة ومعه الرهينة لكنه تأخّر بإرسال المال عن الموعد المُحدّد ، فظنّ كونت برشلونة أنه خُدع فقبض على ابن عمار والرشيد ، ولما فشل جيش إشبيلية فى تحريرهما ، سجن المعتمد ابن أخ الكونت فى إشبيلية ، وطالب كونت برشلونة بمضاعفة مكافأته ثلاث مرات لتصل إلى ثلاثين ألف مثقالٍ من الذهب، ولم يكن المعتمد يستطيع تدبير هذا المبلغ فصنع عملة زائفة من خليط من الذهب والمعادن ، ولم ينتبه الكونت لذلك وتم مبادلة الرهائن الملكية بفك اسر ابن أخ ريموند والرشيد ومع هذا فشل الاستيلاء على مرسية .

حاول ابن عمّار ثانية غزو مرسية فاستولى على مدينة مولا مركز تموين مرسية ، وسرعان ما سقطت مرسية تحت وطأة الحصار والمجاعة وفتحت أبوابها بالخيانة، وأخذت البيعة للمعتمد ، وغضب المعتمد من ابن عمّار لتماديّه فى تجاهله أوامره بإطلاق

سراح ملك مرسية أبو عبد الرحمن بن طاهر ، وكتبه شعراً يهجو ، فكتب ابن عمار قصيدة أحرقها ولم يرسلها شتم فيها المعتمد وزوجته وأبنائه ، أرسلها يهودي من الميسير في حاشية ابن عمار إلى حاكم بلنسية الذي أرسلها بدوره إلى المعتمد ، فغضب الأخير غضباً شديداً ، لكنه لم يُقدّم على أي إجراء اتجاه ابن عمار لما كان بينهما من صداقة وود شديد.

ثار جند عمار في مرسية لتأخره في دفع رواتبهم ففرّ هارباً إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة لمساعدته في استعادة المدينة إلا أنه طرده ، فتوجّه إلى بني هود في سرقسطة وأغراه بغزو حصن شقورة شمال مرسية ، فزوده بجيش صغير قاده إلى الحصن وهناك عُذِرَ به وقبض عليه بني سهيل أصحاب الحصن وسجنوه وفرّ جيشه عانداً إلى سرقسطة ، وعرضوا بيعه لمن يدفع أكبر ثمن له من ملوك الأندلس فشراه المعتمد وأرسل ابنه الراضي ليحضره إلى قرطبة مهيناً ورُجِّحَ به في سجن إشبيلية إلى أن قتله المعتمد بنفسه في السجن .

مسيرة الاسترداد

قشتالة والاستيلاء على طليطلة

الهدف الثمين الاول

أسس لعدم استقرار الأندلس في المدى الطويل نتائج موقعة بلاط الشهداء التي أثمرت عن تحالفات أوروبية لصمد مد الإسلام في أوروبا ، وهو التحالف الذي باشرته الكنيسة مما أضفى عليه صبغة مقدسة تضمن له الحشد المستمر ، وكان أول ضحاياه المستوطنات الأندلسية في أوروبا التي كان مصيرها نذيراً أطلقه بزوغ صحوه أوروبية مشحونة بالتحدي الصليبي للأندلس بأن ذات المصير في انتظارها ما دام كيانها هشاً (91).

وامام قوة الوحدة الأوروبية وإنسياق مسلموا الأندلس وراء خلافاتهم وإقتتال طوائفهم ؛ تجمعت الممالك الإسبانية بقيادة قشتالة في وحدة كيانات حرب استغلت كل مناسبة وفرها لها ملوك الطوائف لتخريب تماسك البلاد ووضعت بذور خراب الأندلس ومأساة شعبها التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً (92) .

وكان فرناندو الأول الملقب بالعظيم هو من وضع لبنة الوحدة الإسبانية الأولى بتوحيد قشتالة ومملكة ليون ، وكان يرصد الوضع في أندلس الطوائف ويقاوم المسلمين كلما سنحت الفرصة ؛ وبعد وفاته تولى ابنه الملك ألفونسو السادس الذي استطاع أن يدفع المسلمين جنوباً بعدما استولى على عدد من الحصون والمدن الصغيرة ؛ وتشجع بتخاذل المسلمين للتفكير في استخلاص الأرض الإسبانية من أيديهم فانتهج منحاً إستراتيجياً قويا في حربهم بعدما خبرهم واستخف بهم ، فشن هجمات قوية على طليطلة بعد حصارها في شهر صفر 487هـ / مايو عام 1085م ، واستولى عليها من صاحبها القادر بالله بن ذي النون الذي أحسن والده المأمون بن ذي النون إليه وأواه في بلاطه عندما لجأ إليه هاربا من أخيه سانشو الثاني الذي استولى على عرشه (93).

وكانت طليطلة أول هدف ثمين لألفونسو السادس فموقعها إستراتيجي ذو تحصينات طبيعية قوية صمدت لأكثر من خمسة أعوام للغارات والحصار كما أن مكائنها التاريخية كعاصمة للقوط وللدولة الأموية يعنى الكثير للإسبان والعرب ؛ كما أنها ثالث أكبر القواعد الأندلسية وتلى في الأهمية قرطبة وإشبيلية ، والمحزن أنه عندما هاجمها ألفونسو السادس لم يهب احدا من ملوك الطوائف لنصرتها سوى المتوكل بن الأفطس حاكم بطليوس باداخور Badajoz (94) ؛ الذي أرسل جيشاً بقيادة ابنه الفضل فشل في نجدها ، ومن المؤسف أن المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية وأعظم أمراء الأندلس قدراً كان قد شارك في حملة ألفونسو على

⁹¹ وهو ما جعل مؤرخو الإسلام يدقون ناقوس الخطر ويدمغون حكامها بعدم المسؤولية فقد كان تاريخهم سافراً من التناحر الطائفي والانتحار القومي ؛ اعتمدت دنياهم الصغيرة عن الخطر الرابض على رأس البلاد ، ويبدو أن الخلاف والاختلاف كان سنة وتقليد بين عرب وبربر الأندلس ؛ أسس له الخلاف الأول بين الفاتحين العظام طارق بن زياد وموسى بن نصير منذ بداية الفتح ، وزاد الأمر سوءاً تحول الخلافات لثورات منذ الفتح ففي ولاية عبد الرحمن الغافقي آخر الفاتحين العظام في الأندلس حدثت ثورات كثيرة بين العرب والبربر وأعلنت بعض الأقاليم مثل قطلونيا استقلالها عن الدولة الإسلامية ولكن تم إخمادها .

⁹² تعمداً الاستطالة في سرد مأساة الأندلس لما فيها من عبر لعرب كل العصور تبين أن ضعفهم في تفرقهم وإن الاستقواء بالغرباء كارثي النتائج ينتهي بضيايعهم ، والأندلسيون الذين استعانوا بأعدائهم على إخوانهم واستخدمهم أعدائهم ضد إخوانهم ذهبت ريحهم إلى غير رجعة وقدموا درساً لعرب كل العصور وعبرة خالدة وتدور الدوائر على من لا يعتبر ، والتاريخ العربي يتكرر وكأنها دورة حتمية تلاحقهم في تاريخهم.

⁹³ Dr Lea , History of Inquisition In Spain -- v.i.p62,64,51 نقلا عن نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصنين ص55 و69 و72

— محمد عبدالله عنان.

⁹⁴ المتوكل بن الأفطس الوحيد من حكام الطوائف الذي رفض الخضوع لألفونسو أو دفع الجزية له .

سمراء يقصد مرابطي المغرب (99).

ترك ألفونسو حصار إشبيلية بعد ثلاثة أيام وإستمر في حملته على باقى إمارات الأندلس، فأسقط إمارة بني هود في سرقسطة وبني ذى النون في بلنسية وأخيراً بني صمادح في المرية واستمر في مسيرته حتى بلغ نابار بالقرب من غرناطة ؛ ولما تساقطت مدن الأندلس فى ايدى قشتالة واصبحت إشبيلية مُهددة اجتمع فى قرطبة كبار القوم من الفقهاء والقضاة ووجهاء المدينة لمناقشة الوضع المتردى ، واتفقوا على الاستعانة بعرب إفريقية الزيريين او بنى هلال لمساعدة ملوك الطوائف وعرضوا هذا المقترح على القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم ففضل المرابطون قائلوا «أخاف أن يخربوا (الزيريون او بنى هلال) الأندلس كما فعلوا بإفريقية ، ويتركوا الإفرنج ويبدأون بكم ؛ والمرابطون أقرب إلينا وأصلح حالاً» ، وكانت فكرة استدعاء المرابطين تدور في خاطر المعتمد منذ مدة ، لذا بادر إلى عقد اجتماع مماثل لملوك الطوائف في قرطبة ثم في إشبيلية أيدوا فيه طلب النجدة من يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، ووقع علي رسالة الاستغاثة 13 أميراً من أمراء الأندلس، ولم يعارضها الا عبد الله بن سكوت والي مالقة ، وممن اعترضوا على اللجوء الى المرابطين "الرشيد" ابن المعتمد وولي عهده ؛ وكان رد والده المعتمد "والله لا يُسمع عني أنني أعدتُ الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري" ، وقال " إن ذهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الأمرين أمر الملتئمين - لقب المرابطين - ولأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إليهم من أن يروعوا خنازير الفرنج " ؛ ولما خوّفه بعضا من حاشيته من ابن تاشفين وقالوا: "المُلك عقيم ، ولا يجتمع سيفان في غمد واحد" ؛ أجابهم ابن عباد "تالله إنني لأوثر أن أرعى الجمال لسلطان مراکش على أن أغدو تابعاً لملك النصارى وأن أودي له الجزية، إن رعي الجمال خير من رعي ال"خنازير" ؛ وتشكّلت البعثة المرسلّة من قبل ملوك الطوائف من قاضي قرطبة ابن أدهم، وقاضي بطليوس ابن مقانا، وقاضي غرناطة ابن القليعي، ومعهم وزير المُعتمد أبو بكر بن زيدون، وحملت معها رسالة مكتوبة من المُعتمد إلى الأمير يوسف مؤرخة بسنة 479هـ، وهذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا

.. إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدّين ومحيي دعوة الخليفة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبارها، الشّاكر لأجلالها، المعظّم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللاند بحرامها، المنقطع إلى سمّو مجدها، المستجير بالله وبطولها مُحَمَّد عباد، سلام كريم يخصّ الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية فى غرة جمادى الأولى 479هـ / 1086م، وإنّه أيد الله أمير المُسلمين ونصر به الدّين، فإنّا - نحن العرب - فى هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرّق جمعنا، وتغيّرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا؛ فصرنا شعوباً لا قبائل، وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقلّ نصرنا، وكثر شُمّاتنا ، وتولّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بطليطة ووطأها بقدمه وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون .

ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصره جاره ولا أخيه، ولو شاعوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال وكثر شُمّاتنا ، وتولّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بطليطة ووطأها بقدمه وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصره جاره ولا أخيه، ولو شاعوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك ؛ وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال ، وأنت أيدك الله سيد حمير ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين مُحَمَّد، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" ، وتسهيلا على قوات المغرب فى ان تكون لهم قاعدة فى الجزيرة كطلب ابن تاشفين ؛ أرسل المعتمد الى ولده يزيد والي الجزيرة ليُسَلِّم الثغر إلى المرابطين الذين ارسلهم ابن تاشفين لاستلامها.

⁹⁹ لاحظ بعض الباحثين عدم وضوح تسلسل الأحداث التاريخية بين المعتمد بن عبّاد وألفونسو، مثل وقت حصار ألفونسو لإشبيلية، وبلوغه بعد ذلك في غزواته جزيرة طريف، ووقت حدوث قصة وفد ابن سايب، وكذلك بعض الأحداث الأخرى.

المرابطون ونجدة دول الطوائف

(يوسف بن تاشفين ونصر الزلاقة (Sagrajas)

عام 479 هـ - أكتوبر 1086م)

ولما عبر ابن تاشفين الى الاندلس أرسل كتاباً الى الفونسو السادس يعرض عليه الإسلام أو الجزية أو الحرب طبقاً لقواعد الحرب الإسلامية⁽¹⁰⁰⁾ ، ومما جاء في الكتاب "بلغنا يا الفونس أنك نحوت الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد: 14] ، غافر: 50، ولما قرأ ألفونسو الكتاب غضب وقال: "أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم أهل ملته الجزية منذ ثمانين سنة ، وقال لرسول الأمير يوسف "قُلْ للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك".

وكان الفونسو قد أرسل منذراً ملوك وأمرأ أوروبا لما أدرك أنها الحرب ، بأنهم إن لم يتداركوه بالعون فسوف يضطر إلى الصلح مع المسلمين ويتركهم أحراراً في عبور جبال البرانس ليدخلوا قلب أوروبا ، وكتب في هذا الخصوص "شأنجة" ملك أرغون وملك فرنسا وما وراء جبال البيرينية ، وجبليقية ونافارة والبابا الذي أعلنها حرباً صليبية مقدسة وأرسل كبار الرهبان والقساوسة لدعم القوات في هذه المعركة الفاصلة، فجاءته الإمدادات والمتطوعون والجنود من كل مكان من إسبانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ؛ وبلغ جيشه مئة ألف من المشاة وثمانين ألفاً من الفرسان ، منهم أربعون ألفاً من ذوي العدد الثقيلة والباقيون من ذوي العدد الخفيفة ، وقدرتهم مصادر أخرى بثمانين ألفاً إلى مائة ألف (101)، مما أثلج صدره حتى قال سأقاتل الجن والإنس وملائكة السماء . وأرسل إلى المعتمد بن عباد رسالة يستهزئ فيها به ويأبى تاشفين (102) يقول " إن صاحبكم يوسف (ابن تاشفين) قد تعنى من بلاده وخاض البحور وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم " ، ووجهة نظره في ذلك حسبما قال لأهل وده ووزرائه " إنني أرى إن أمكنتهم من دخول بلادنا وناجزوني بين جدرها ربما كانت الدائرة عليّ فيكتسحونها ويحصدون من فيها في غداة واحدة ، ولكن مناجرتي لهم في حوز بلادهم إن كانت عليّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى، فيكون في ذلك صوتٌ لبلادنا وجبرٌ لمكاسري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفتُ أنا أن يكون منهم في إذا ناجزوني في وسطها " .

ولما اجتمع جيش الفونسو أعجبه كثرتة ؛ فاستدعى مفسر الرؤيا المسلم الذي سبق أن فسر له ما كان قد رآه في منامه وأنذره بهلاك جيشه (103) ، فقال له " بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم " ، فانصرف المعبر وقال لبعض المسلمين هذا الملك هالك وكل من معه ، وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث مهلكات .. وفيهن إعجاب المرء بنفسه " . لبث ابن تاشفين في " إشبيلية " ثمانية أيام يرتب القوات ويعد العدة ، وكان أكثر من التعب والصيام والقيام وأعمال البر ، ثم غادر " إشبيلية " إلى " بطليوس " ، وكان ألفونسو في أثناء ذلك مشغولاً بقتال ابن هود أمير " سرقسطة " ، فلما بلغه الخبر ترك حصار المدينة وتوجه للقاء ابن تاشفين وعسكر الجيشان المتحاربين في سهل تتخلله الأعراس تسمى بالزلاقة يفصل بينهما نهر

⁽¹⁰⁰⁾ يذكر البعض (ابن خلكان في وفيات الأعيان ، ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس ص91؛ و الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ابن الخطيب ، د. سعدون عباس: دولة المرابطين في المغرب والأندلس ص78 ، ابن أبي زرع الأندلسي: روض القرطاس ص9) أن الفونسو السادس أرسل إلى ابن تاشفين سلطان المرابطين الذي هدده به المعتمد يستخف به قانلاً: "فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك؛ فإن غلبتني فتلك نعمة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا عليك واستكملت الإمارة والله يتم الإرادة ." يلاحظ أن نص هذه الرسالة مماثل تماماً لنص رسالة ألفونسو الثامن للسلطان يعقوب المنصور سلطان الموحدين بالمغرب قبل موقعة الارك ولا نعرف عما إذا كان المؤرخون العرب مروجوا هذه الرسالة وقعوا في هذا الخطأ أم أن الفونسو الثامن اقتبس الرسالة من رسالة الفونسو السادس وعندنا فإن الرسالة كانت من الفونسو الثامن إلى السلطان الموحدي أبي يوسف المنصور ، ولم نجد في المراجع الأجنبية نصاً للرسالتين للتحقق منهما .

⁽¹⁰¹⁾ كان جيش المسلمين في هذه المعركة ثمانية وأربعين ألفاً نصفهم من الأندلسيين ونصفهم من المرابطين .

⁽¹⁰²⁾ الروض المعطار.

⁽¹⁰³⁾ رأى الفونسو في منامه أنه راكب فيلا ، وهو ينقر على طبلٍ صغير بين يديه ، فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرف أحد تأويلها ، فأحضر مسلماً عالماً بتعبير الرؤيا ، فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه ، فقال " تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله العزيز قوله تعالى " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل " ، وقوله تعالى " فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير " ، ويقتضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه " .

صغير، وكان معسكر ابن تاشفين وراء ربوة عالية بينما عسكر الأندلسيون أمام النصارى الذين كان إمتداد جموع فرسانهم لا تترك نهايتها الأبصار فبعثت ضخامتها في قلوب الأمراء الأندلسيين اليأس من النصر والظفر .
وبقى الجيشان ثلاثة أيام دون قتال لا يفصلهما سوى النهر ، وكان الموقف لا يحتمل تأجيل المعركة فهذه الجموع الهائلة للجيشين ليس لديها ما يكفيها من المون إذا طال مكثها ؛ فأرسل ابن تاشفين إلى ملك النصارى كتاباً يُخبره بين ثلاث إما أن يعتنق الإسلام أو يؤدي الجزية للمسلمين فإذا أبى الاثنان فعليه أن يستعد للقتال ؛ فكتب ملك النصارى إلى ابن تاشفين قائلاً له " إن غداً يوم الجمعة وهو يوم المسلمين ولا أراه يصلح للقتال ويوم الأحد يوم النصارى، وعلى ذلك فإني أقترح اللقاء يوم الاثنين ، فوقع هذا الاقتراح من يوسف موقع الرضى، وتحدد اللقاء يوم الاثنين الخامس عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين وأربع مئة للهجرة، بيد أن المسلمين ارتابوا في نيات ملك قشتالة وتحوطوا ضد أية مفاجأة ، لاسيما أن المعتمد بن عباد قد خبر خداعه في الحروب ، فبعث عيونه بالليل ليرصدوا حركة معسكر النصارى فعدوا مسرعين ليخبرونه بأنهم سمعوا ضوضاء جيوش النصارى وقعقة السلاح إستعدادا للهجوم .

وعندما تراءى الجمعان عام 479 هـ - 1086م ، هال ابن عباد منظر فرسان النصارى في دروعهم الحديدية ومعهم القسوس والرهبان يحرضونهم على القتال ورفعوا صلبانهم وأنجيلهم وتبايعوا على الموت ، ففر بعض الأمراء الأندلسيين قبل خوض المعركة بعد أن أيقنوا بالهزيمة ؛ وسارت المعركة في البداية لصالح قشتالة التي هاجمت فرسان المعتمد بن عباد بضراوة لبسالته في القتال ، ولما اشتد الوطيس فاجأت القوات الرئيسية لابن تاشفين معسكر الاسبان ودمرته وقتلت من فيه ثم انقضت على بقية القوات الاسبانية وعندها أدرك ألفونس أنها الهزيمة فبادر وهو جريح بالهرب تحت جناح الظلام مع قلة من فرسانه لم تتجاوز الأربعمئة جرحى مات معظمهم في الطريق ولم ينج منهم إلا مائة فارس فقط ، وأسر المسلمون ثلاثة عشر ألفاً وغنموا مئة ألف خيمة ، ومن الخيل ستة وأربعون ألف ومن البغال مئة ألف بغل ومن الحمر مثلاً، ومن السلاح التام سبعون ألفاً، ومن الغد شئ كثير ، وبعد المعركة استمر المعتمد بقيادة جيشه لاستعادة الأراضي التي كان قد خسرها لقشتالة، ففتح حصوناً في ولاية طليطلة، إلا أنه تراجع بعد ذلك نتيجة هزيمة تلقاها في مرسية.

عودة ابن تاشفين إلى المغرب

وفكرة الاستيلاء على الاندلس

كانت نية ابن تاشفين بعد نصر الزلاقة أن يتابع غزوته لاستعادة طليطلة وإخضاع قشتالة ، لكن وفاة ولده أبي بكر وأحداثاً خطيرة وقعت في المغرب جعلته يعود ، وقبل مغادرته جمع أمراء الاندلس ونصحهم بالتوحد والاعتصام بحبل الله ، وفي طريق عودته مرّ بإشبيلية فدعاه المعتمد إلى النزول عنده ففضى هناك ثلاثة أيام أخذته فيها إشبيلية بجمالها، ورأى ترف المعتمد في المأكّل والمشرب والعيش (104)، فعلق على ترفه قائلاً: «الذي يُلوح لي من أمر هذا الرجل (المعتمد) أنه مُضَيِّعٌ لما في يديه من الملك، لأن هذه الأموال التي تُعينه على هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل فأخذهُ بالظلم، وأخرجهُ في هذه الترهات، وهذا من أفحش الاستهتار» ، وتحرى عن رضا معاوني المعتمد كعلامة لحسن عمله ؛ فانزعج ابن تاشفين من عدم رضاهم ولم يؤثر هذا على احترامه للمعتمد وكان يقول عنه «إنما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت إمرته » ، وقد كانت هذه الضيافة وبالا على المعتمد بعدما كشفت مجون تبذيره لاموال الامة(105) .

¹⁰⁴ (زعم أبو بكر بن اللبابة شاعر المعتمد انه امتلك في الأندلس 200 مدينة وحصن، وله 173 ولدا بالمصدر- سير أعلام النبلاء لـ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - الجزء التاسع عشر- ص61 - مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت - لبنان.

¹⁰⁵ (المصدر - المعتمد بن عباد - علي أدهم 2000 الإدارة العامة للثقافة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة - كان للمعتمد زوجة مغرم بها وكانت أقرب زوجاته إلي قلبه فقد كان يغدق عليها الكثير من الأموال لإرضائها ، ومن أشهر قصص تبذيره عليها انها اشتبهت المشي في الطين لما رأت الناس يمشون فيه فأمر المعتمد فسحقت كميات من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرايبيل وصُب ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيادي حتى أصبحت كالطين وخاضتها الرميكية مع جواربها ، وقصة هذه المرأة جديرة بالاشارة لانها اغرقته في اللهو والتبذير ، فقد كان المعتمد شاعرا وبينما كان يتنزه مع ابن عمار في مرج الفضة - أحد متنزهات إشبيلية المطلة على نهر الوادي الكبير - قال «صنع الريح من ماء الرّرد» فتقاعست بديهة ابن عمار صديق عمرة وكبير وزراؤه عن إستكمال بقية بيت الشعر وكانت بقربهما امرأة تغسل الملابس في النهر، فقالت: «أيّ درع لقتال لو جمد» ، وقد أعجب

ألفونسو وإعادة الحشد

وعودة ابن تاشفين الى الأندلس

عاد ألفونسو إلى طليطلة، وبدأ في جمع المقاتلين الذين تشتتوا في شمال الأندلس بعد هزيمة الزلاقة، لإستئناف الاسترداد وفي عام 480 هـ - 1087م أي بعد عام واحد من معركة الزلاقة وبنى حصناً جديداً لقواته قرب مدينة "مرسية" حصن "ليييط" ليكون منطلقاً وقاعدة لعملياته حشد فيه ثلاثة عشر ألف مقاتل ؛ فتخوف المعتمد بن عباد وسعى الى ابن تاشفين من جديد عام 482 هـ - 1089م وشرح له الأوضاع فاستجاب له وعبر بقواته المضيق في نفس العام ، وحاصر الحصن حصاراً شديداً لكنه فشل بسبب قلة العتاد والسلاح ، واختلف يوسف والمعتمد مع أمراء مرسية بسبب نيتهما متابعة الزحف ضد النصاري وإعترض عليهم الأمير عبد العزيز بن رشيق أمير مرسية الذي أشهر سيفه على المعتمد ، فاعتقله ابن تاشفين فتسبب في ثورة جند الأمير الذين إنسحبوا وصاروا يقطعون طرق المون على الجيش المرابطي ، وانسحب معهم بعض ملوك الطوائف ، وعاد ابن تاشفين إلى المغرب تاركاً وراءه حامية مرابطية ، وفي نفسه من الأندلس "الكثير المقعد" كما يقول المراكشي .

رغب ابن تاشفين في الاستحواز على الأندلس فقال لمعاوينة «كنتُ أظنُّ أني قد ملكت شيئاً، فلمَّا رأيت تلك البلاد صَغُرَتْ في عيني مملكتي، فكيف الحالة في تحصيلها (أخذها)؟»، وشجَّعه أعيانه طمعا في خيرات الأندلس ، وأشاروا عليه بأن يتركز بعض رجال المرابطين في حصون الأندلس، ليساعدوا في انتزاعها ، وبعد موافقة المعتمد تمركزت قوة من المرابطين وعليهم "بُنجين" أميراً في حصون الأندلس.

وبعد استفتاء عدد من الفقهاء والعلماء منهم أبي حامد الغزالي ، قرَّر يوسف بن تاشفين أن يضمَّ إمارات ملوك الطوائف إلى الدولة المرابطية بالقوة، وكان أغلب متقفي الأندلس والكثير من أهاليها يدعمونه في ذلك ويتأملون قدومه، فعبر إلى الأندلس مرة أخرى وحاصر غرناطة واستولى عليها من أميرها عبد الله الزيري وفوجئ المعتمد بن عباد بذلك ، فأرسل إلي ابن تاشفين يستفسر ويطلب مقابلته إلا أنَّ الأخير رفض فعقب المعتمد للمتوكل أمير بطليوس « بأنه لا بدَّ أن يسقينا من الكأس التي أسقى بها عبد الله أمير غرناطة» ؛ وصدق حدسه فقد سير يوسف بن تاشفين الجيوش الى الأندلس ، وطلب من قائدها سير بن أبي بكر أن يطلب من ملوكها الرحيل، فإن لم يفعلوا فليحاصروهم وليقاتلهم .

وفي عام 484 هـ (1091م) اجتازت جيوش المرابطين مضيق جبل طارق ، وانقسمت إلى أربع فرق منها جيش بقيادة سير بن أبي بكر توجه إلى إشبيلية، وثانٍ بقيادة أبي عبد الله بن الحاج توجه إلى قرطبة، والثالث بقيادة جرور اللتموني توجه إلى رندة، وكلها من مدن بني عباد، وأما الجيش الأخير فقد اتَّجه إلى المرية ، وبقي ابن تاشفين في سبتة بالمغرب ليتدخل إذا ما اقتضت الضرورة ؛ وكانت طريف أول مدن المعتمد التي سقطت في أيدي المرابطين ، و سلم أهل قرطبة المدينة لجيش ابن الحاج في شهر صفر من عام 484 هـ ، وقُتلَ واليها الفتح بن المعتمد المعروف بالمأمون وهربت زوجته زائدة الأندلسية إلى قشتالة، وقتل ابن المعتمد الراضي في رندة، وسقطت قرمونة في شهر ربيع الأول، ولم يتبقَّ في يد المعتمد بن عباد الا إشبيلية .

إشتبك المعتمد بن عباد مع المرابطين في معارك صغيرة متكررة آملاً في استنزاف قواهم إلا أنَّه فشل ؛ وحاصره المرابطون في إشبيلية التي إندلعت بها الثورة ضده الا انه أبى إخمادها بالقوة ، ولما أصيب باليأس راسل ألفونسو السادس ملك قشتالة وطلب منه إنقاذه ؛ فتغاضى الأخير عن خلافتهما السابقة وأرسل جيشاً كبيراً إلى قرطبة لمساعدته هزمه المرابطون بالقرب من حصن المدور.

أخذت المؤامرات تحاك داخل إشبيلية لتسليم المدينة للمرابطين ، وفي النهاية نجح الثوار في مساعدة المرابطيين في اقتحامها بحفر ثغرة في سور المدينة اقتحمها المرابطون ثم تراجعوا الى ان تمكنوا في عصر نفس اليوم ذاته من اقتحامها ، واشتدَّت المعركة، وأصيب الأهالي بالهلع وأخذوا يقفزون من على الشرفات ويفرّون إلى النهر وقتل أربعة من أبناء المعتمد خلال المعركة ، وسقطت إشبيلية في يوم الثلاثاء من منتصف شهر رجب عام 484 هـ بعد مقاومة عنيفة ، وقيل كذلك في يوم الأحد 21

المعتمد بموهبتها بالشعر وفتن بجمالها، وكانت جارية رميك بن حجاج فإشترأها وتزوجها، وعُرفت بعد ذلك باعتماد الرميكية نسبة لمالكاها السابق ، ومما يُظهر تعلقه بها انه غير لقبه من "المؤيد بالله"، إلى المعتمد على الله تيمناً باسمها "اعتماد".

عام 1233م ، ومن الواضح ان التحركين لم يكن لهما علاقة بالاسترداد بقدر ما كان خدمة لاغراض جيواستراتيجية تخدم الربط بممتلكاتها الخارجية ؛ ومع الفوضى التي عمت الاندلس عام 636هـ/1238م اثر وفاة الثائر ابن هود وانهيار دولته ؛ حاصر خايمي بلنسية فاستغاث اميرها ابو جميل زيان سليل آل مرديش (حكام بلنسية قبل الاسلام) بالحفصى امير تونس ؛ ولما لم تدركه المعونة اضطر للاستسلام بشرط تأمين اهل بلنسية على انفسهم واموالهم وحريتهم فى مغادرتها متى شاءو ؛ وفى سنة 1241م استولى على شاطبة وثغر دانيا ، ورغم العهود التي قطعها خايمي للاندلسيين الا انه تنصل منها وقرر طرد سكان البلاد التي افتتحها فهاجرت جموع منهم الى غرناطة واخرى الى افريقيا وبقي القليل كمهجنين .

انشغلت المملكة بنزاعاتها الخارجية من جديد عندما نشب نزاع بين شارل دانجو ابن ملك فرنسا وبيدرو الثالث (الاكبر) ملك اراجون سنة 1274م حول ملكية صقلية و نابولى اللتين آلتا الى زوجه ابنة مانفرد ، واستطاع بيدرو ان ينتزع صقلية من يد الفرنسيين ورد محاولاتهم غزو قطلونيا فى اراضى اراجون ومد سيادته الى بروفنس فى جنوب فرنسا قبل موته عام 1285م.

الموحدون ونجدة الاندلس

انتصار الارك

9 شعبان سنة 591هـ / يوليو عام 1195م

اختلفت أحوال الأندلس فى القرن السادس الهجرى وثار الأندلسيون بزعامة القضاة والعلماء لما استشعروا ضعف المرابطين ، واستقل الثوار كل منهم بناحية وطرردوا عمال المرابطين الذين ضعفت قبضتهم على البلاد بعد تداعى دولتهم المركزية فى المغرب وقيام دولة الموحدين على انقاضها ، واستعان بعض الثائرين بالنصارى فاستعان القاضي ابن حمدين وهو من القبائل العربية بالملك القشتالي الفونسو السابع فى صراعه مع يحيى ابن غانية المسوفى المرابطى سنة 540هـ/1144م ومكن النصارى من الدخول إلى شرق قرطبة وخرّبوا المساجد بما فيها المسجد الجامع ، وفى مالقا استعان القاضي أبو الحكم بالاسبان فى صراعه مع المرابطين، فنار عليه الاهالى وحاصروه فى قصره فإنتحر فقطع الأهالي رأسه وصلبوا جثته.

الموحدون

والجهاد فى الاندلس

فى تلك الاثناء كانت دولة الموحدين قد بلغت فى عهد عبد المؤمن مدا أعظم مما كانت عليه دولة المرابطين ؛ فهو الذى استرجع الثغور الإسلامية فى تونس من يد الفرنج بعد ان هزم أساطيلهم بعد معارك بحرية هائلة ، ومع اشتداد ضربات الاسبان وبالاخص قشتالة استناره تدهور حال مسلمى الاندلس فسير سنة 540 هـ جيشاً بقيادة أبي عمران موسى بن سعيد فيه عشرون ألفاً من المشاة، وعشرة آلاف من الفرسان للسيطرة على الأندلس وفتح غرناطة ؛ ولما جاءت الوفود الأندلسية تستنصره للجهاد ضد عدوان ملك البرتغال الذى أخذ حصن القصر وقتل حاميته، فعبّر عبد المؤمن بنفسه للجهاد عام خمس مئة وست وخمسين 556هـ ، وجعل من غرناطة مركزاً دفاعياً قوياً تمركز فيه حامية قوية مشتركة من جند الموحدين والأندلسيين ، ونقل العاصمة من اشبيلية إلى قرطبة.

وحاول ابن سعد أمير بلنسية استرداد غرناطة من الموحدين بعد عودة عبد المؤمن إلى مراكش، وتجمع حوله الأندلسيون المعارضون لحكم الموحدين ، وتحالف ابن سعد لهذا الغرض مع الاسبان لقاء جزية كبيرة يؤديها لهم ، ولكنه انهزم على مقربة من غرناطة ثم هزمه ثانية .

وعزم عبد المؤمن أن يعبر إلى الأندلس للجهاد ثانية فجهز جيشاً كثيفاً وحشد لنقله أربع مائة سفينة كبيرة لكن المنية سبقته فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة 558 هـ قبل انفاذ حملته.

جهاد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

تولى الحكم ولده أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وانصرف إلى الجهاد بالأندلس فابتدأ بزعمائها وهزمهم وعلى رأسهم

أمير بلنسية ابن سعد ؛ فلجأ الأندلسيون للتحالف مع الاسبان ضد الموحدين ، فرد أبو يعقوب يوسف بعبور مضيق جبل طارق إلى الأندلس في صفر سنة 566 هـ وواصل مسيرته حتى اشبيلية عاصمة الأندلس آنذاك، ثم سار إلى بلنسية واستولى عليها ومكث في الأندلس أربعة أعوام نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى ثم عاد إلى مراكش عام 571 هـ بعد أن بنى جامع اشبيلية.

عبر يعقوب يوسف إلى الأندلس مرة أخرى في صفر سنة 580 هـ لرد البرتغاليين فسار على رأس الجيش معتزماً حصار لشبونة وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح، أن يستولى على قلعة شنترين ، وبعد أحد عشر يوماً من حصارها ضربها بآلات الحصار، ولم تمض ثلاثة أيام حتى سقطت ، واستشهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في الثاني عشر من ربيع الأول 580 هـ في قتاله مع البرتغاليين .

جهاد أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور ونصــــــــــــر الارك

خلف أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور والده أبو يعقوب يوسف المنصور الموحدي ، وفي سنة 585 هـ قام ملك البرتغال سانشو الأول عام 1191 م بغزو مدينة شلب المسلمة - سلفش (faro) بمساعدة قوات صليبية وعندما علم السلطان الموحدي يعقوب المنصور بذلك جهز جيشه وعبر البحر الى الأندلس وحاصر مدينة شلب وأخذها وأرسل في ذات الوقت جيشا من الموحدين والعرب فغزا أربع مدن مما بأيدي المسيحيين من البلاد التي كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين عاما.

ويروي عبد الواحد المراكشي الحدث بتفصيل فيقول: «قَصَدَ بطرو بن الريق مدينة شلب من جزيرة الأندلس فنزل عليها بعساكره، وأعانته من البحر الإفرنج بالبطس والشواني، وكان قد وَجَّهَ إليهم يستدعيهم إلى أن يُعِينُوهُ على أن يجعل لهم سبي البلد وله هو المدينة خاصة، ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها وسبوا أهلها، وملك ابن الريق البلد، وتجهَّز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة وسار حتى عبر البحر، ولم يكن له هَمٌّ إلا مدينة شلب المذكورة ، فنزل عليها، فلم تطق الروم دفاعه، وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها، ولم يكفِه ذلك حتى أخذ حصناً من حصونهم عظيماً يقال له: طرش ثم عاد يعقوب المنصور إلى عاصمته مراكش ، ونتيجة لذلك طلب ألفونسو من السلطان الهدنة والصلح فهادنه 5 سنين وعاد إلى مراكش عاصمة بلاد المغرب.

هجمات الممالك الاسبانية

بعد أقل من خمس سنوات عاث الفرنج في الأندلس عيئاً شديداً فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا ، وإنضم إليهم ألفونسو الثامن بعد انقضاء مدة الهدنة التي كانت بينه وبين المنصور الموحدي، فبعث إلى جميع النغور الإسلامية يُنذِرُ بانتهاك الهدنة وكان المنصور منشغلاً بمعاركه في المغرب ضد الخارجيين عليه من بني غانية ، فعدل عن عزمه وبدأ في التفكير في العبور إلى الأندلس.

ارسل ألفونسو خطاب استهزاء وسخرية للسلطان يعقوب المنصور يدعوه فيه إلى مواجهته وقتاله :

نص الرسالة

” يااسمك اللهم فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته ، الرسول الفصيح، أما بعدُ فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفة كما أني أمير الملة النصرانية.

وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخائل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري وأمئل بالرجال، ولا عذر لك في التخلُّف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منّا بواحد منكم، فالآن خَفَّفَ الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً.

وقد خَكِي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام تُقدِّم رجلاً وتؤخِّر أخرى، فلا أدري أكان الجُبْن أبطأ بك أم التَكْذِيب بما وعد ربِّك، ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لَعَلَّ لا يسوغ لك التقحُّم معها.

وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك واعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إليَّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطران والمسطحات، وأجوز بجمعتي إليك وأقاتلك في أعزِّ الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة

كبيرة جُلبت إليك، وهدية عظيمة مَنَلْتُ بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة المَلَتَيْنِ والحُكم على البرَّين، والله تعالى يُوَفِّقُ للسعادة وَيُسَهِّلُ الإرادة، لا ربَّ غيره، ولا خير إلَّا خيره، إن شاء الله تعالى".

فلما قرأ السلطان المنصور الخطاب اشتد حنقه وكتب على ظهر رقعة منه :أرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون الجواب ما ترى لا ما تسمع، وأمر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيبتهم، فثار الناس للجهاد ودوت صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب ؛ وسير قواته إلى الأندلس، وعبر إلى الجزيرة الخضراء في 591/7/20 هـ، ولم يسترح بها إلَّا قليلاً ، ثم بادر المنصور بالسير إلى إشبيلية ومكث بها مدة قصيرة نظم فيها جيشه وتزود بالمؤن وانضمت إليه الجيوش الأندلسية فتجمع له جيش ضخم من 200 ألف حسب الذهبي : سير أعلام النبلاء، 319/21، بينما تقدره مصادر أخرى 100 ألف مقاتل ويقول المؤرخون أن المسافة بين مقدمة الجيش ومؤخرته كانت مسيرة 3 أيام بينما يذكر آخرون أن العدد بين 60 و80 ألف مقاتل فقط ، بينما كان جيش ألفونسو الثامن ملك قشتالة قوامه 225 ألفا (خمسـة وعشرين ألفاً ومائتي ألف)، ويضم فرسان قلعة رباح وفرسان الداوية وقوات من مملكتي ليون ونافار ومعهم جماعة من اليهود لشراء أسرى المسلمين لبيعهم في أوروبا (108).

وبادر المنصور بالسير إلى طليطلة عاصمة مملكة قشتالة فبلغه أن ألفونسو حشد قواه في مكان بين قلعة رباح وقلعة الأرك فغير مساره إلى هناك وعسكر في مكان يبعد عن موضع جيش ألفونسو مسيرة يومين ، وكان ذلك في الثالث عشر من يونيو عام 1195 الموافق 4 شعبان 591 هـ ؛ وعند إقتراب المعركة أرسل الأمير الموحدي رسالة إلى جيشه يقول فيها اغفروا له وتغافروا فيما بينكم فإنَّ هذا موضع غفران ، وطَيَّبُوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم ، وقام الخطباء يخطبون عن الجهاد ، ووقعت المعركة عند حصن الأرك جنوب طليطلة على الحدود بين قشتالة ودولة الأندلس ومحلها اليوم (Sta Maria de Alarcos) غرب (giudad real) المدينة الملكية الحديثة ، وانتهت المعركة بنصر المسلمين .

أحاط المسلمون بحصن الأرك بعد المعركة وهم يظنون أن ألفونسو الثامن تحصَّن فيه فدخلوه غنوة وأضرمو النيران في أبوابه، وإستولوا على ما كان فيه من الأموال والذخائر والأرزاق والأسلحة والعدد والأمتعة والدواب والنساء والذرية من زعماء الروم بلغت أربعة وعشرون ألف فارس أسارى ؛ إمتنَّ عليهم أمير المؤمنين السلطان يعقوب المنصور بالحرية ، فعزَّ ذلك على الموحدين والمسلمين وحسبوا ذلك سقطة من سقطات الملوك .

واصل ألفونسو هرويه إلى طليطلة ، فحلق رأسه ولحيته ونكس صليبه ، وألى على نفسه الا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرساً ولا دابةً حتى يأخذ بالثأر، وطارده السلطان إلى طليطلة وحاصرها ورماها بالمجانيق وضيق عليها ، فخرجت إليه والدة ألفونسو وبناته ونساؤه وبكين بين يديه ، وسألته تركهن في البلد وشأنهم ، فرقَّ السلطان إلى حالهن ومنَّ عليهن بها ووهبهنَّ من الأموال والجواهر ما جَلَّ وردَّهنَّ مكرماتٍ وعاد إلى قرطبة ، فأقام شهراً يُقسَّم الغنائم بمقتضى الشرع وخصص خمسها لبناء جامع في إشبيلية تخليداً لذكرى الأرك.

ومن نتائج النصر ان استطاع الاندلسيون استرجاع تروخلو وبلاسينسيا وكوينكا وقلعة رباح وبينافينتي ومالاغون وكاراكويل وتالفيرا وكلها تقع بالقرب من طليطلة عاصمة قشتالة ثم اتجه السلطان بجيشه إلى العاصمة وضرب عليها حصارا واستخدم المسلمون المجانيق ولم يبق إلى غزوها ويخبر المقرئ عن نتائج ذاك الحصار فيقول«فخرجت إليه(يعني للمنصور) والدة الأذفونش (ألفونسو) وبناته ونساؤه وبكين بين يديه، وسألته إبقاء البلد عليهن، فرقَّ لهن ومنَّ عليهن بها، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جَلَّ، وردهن مكرماتٍ، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قرطبة، فأقام شهراً يقسم الغنائم، وجاءته رسل الفنش (ألفونسو) بطلب الصلح ؛ فصالحه بهدنة عشر سنوات بناء على طلب قشتالة ، وأمن الناس مدته».

ويختلف مؤرخو المسلمون في نتائج المعركة فيخبر المقرئ في كتابه نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب «وكان عدَّة من قتل من الفرنج - فيما قيل - مئة ألف وستة وأربعين ألفاً، وعدَّة الأسارى ثلاثين ألفاً، وعدَّة الخيام مائة ألف وستة وخمسين ألف خيمة، والخيول ثمانين ألفاً، والبغال مائة ألف، والحمير أربع مئة ألف، جاء بها الكفر لحمل أنقالتهم لأنهم لا إبل لهم، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى، وبيع الأسير بدرهم، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائم بين

⁽¹⁰⁸⁾ابن الأثير: الكامل في التاريخ 237/10، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون 245/6، 182/4، 183، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 213/5، ويوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين 84/2.

المسلمين بمقتضى الشرع، ونجا ألفنش (ألفونسو) ملك النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وألى أن لا ينাম على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرساً ولا دابة، حتى يأخذ بالثأر». أما ابن خلدون فيذكر أن عدد القتلى 30 ألفاً ويجعلهم ابن الأثير 46 ألفاً و13 ألف أسير.

موقعة العقاب

وهزيمة الموحدين

إتهمت قشتالة ليون ونافار بأنهما كانتا سبب الهزيمة لإبطائهم المدد (109) واستغل ألفونسو الثامن هدنة السنوات العشر في الاستعداد للحرب فهادن منافسيه السياسيين في أيبيريا ملوك البرتغال ونافارة وأراجون وحصن مملكته وبعث إلى البابا إنوسنت الثالث يدعو لإعلان حرب صليبية على الأندلس فاستجاب البابا وأعلنها حرباً صليبية لا يحل الغفران على من لا يساهم أو يشارك فيها ، ومدته الدويلات الإيطالية وفرنسا بحشد من القوات والمون ؛ ولما اطمأن للوضع نقض الهدنة عام 1209 م باقتحام حصن رباح وسط الأندلس والإغارة على جيان وبياسة وأجزاء من مرسية ؛ فأعلن السلطان يعقوب المنصور الجهاد وأمر بتجهيز الجيوش ويذكر بعض المؤرخين المسلمين أن تعداد الجيش الإسلامي وصل لثلاث مئة ألف مقاتل لكثرة المتطوعين فيه ، ووقعت المعركة في 16 يوليو 1212 م في واد يسميه الإسبان نافاس قرب بلدة تولوسا وهذا سبب تسميتها بمعركة لاس نافاس دي تولوسا حسب التاريخ الأسباني ؛ ووقعت قرب حصن أموي قديم يسمى العقاب ولذلك تسمى في التاريخ العربي باسم معركة العقاب أو معركة حصن العقاب وانتهت بهزيمة ساحقة للمسلمين .

ومن أسباب النكبة إساءة وزير السلطان للقواد الأندلسيين وحبسه أعطيات الجنود المغاربة حسب تبرير مؤلف كتاب المعجب بقوله " أنهم لم يسلوا سيفاً.. بل انهزموا عندما حمل عليهم الإفرنج ، وعلى أية حال فبعد سبعة عشر عاماً من انتصار المسلمين في الأرك تمكن الأسبان عام 1212م من هزيمة الموحدين في موقعة العقاب فكانت ضربة شديدة بدأ معها انحلال قواهم وزوال دولتهم ومعها الأندلس عامة ؛ وهو ما استشعره أهل الأندلس فأثشد الشاعر ابن الدباغ الإشبيلي مشيراً إلى هذا الحدث بقوله :

فقلت لها أفكر في عقاب ** غدا سببا لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام ** وقد دخل البلاء من كل باب

الأندلس (بعد هزيمة العقاب)

أولاً - نهاية دولة الموحدين

وثورة الأندلس بزعامة ابن هود

ودعوته للخليفة العباسي

بعد وفاة السلطان أبو يعقوب المنصور سنة 620هـ/1223م دون عقب يخلفه ؛ أعلن العادل والمأمون ابنا شقيقا السلطان نفسيهما وريثا عرش الموحدين في كل من الأندلس والمغرب ، وإقتسم الأخوان السلطة في الأندلس في البداية ، فاستولى السيد أبو عبد الله محمد (الملقب بالعادل) أمير غرناطة على بلنسية بينما استولى المأمون على حكم اشبيلية وبعض الانحاء المتبقية من الأندلس .

في هذا التوقيت ثار الأندلسيون بزعامة ابن هود على الموحدين في أواخر عهدهم ، وزاد النقرة على الأخوين تحالفهم مع قشتالة للقضاء على الثورة مقابل التنازل لها عن عدد من الحصون ، فأغتال الثوار العادل كعقاب له على خضوعه لملك أراجون فألت غرناطة التابعة له إلى أخيه المأمون الذي أصبح سلطاناً على المغرب .

كانت الأحوال في المغرب مضطربة بسبب ثورة القبائل على المأمون رفضاً لاستبداده ، وكان سلطانه في الأندلس أيضاً يتداعى منذراً بزوال دولة الموحدين في كلا البلدين ، ففي الأندلس ثارت المناطق التابعة لمرسية عام 625هـ/1228م بزعامة

(يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، 95/2، وليفي بروفنسال: مجموعة رسائل موحدية ص238.

ابن هود الذى دعى الى تخليص الاندلس من الموحدين والاسبان معا ، ولم يتمكن المأمون من وأد ثورة الاندلس واستفحل امر ابن هود الذى تمكن من الاستيلاء على مرسية و أعلن طاعته للخليفة المستنصر العباسى ودعا له على المنابر وكاتبه بذلك فأيده ، وتمكن ابن هود من ضم جيان وقرطبة (عام 629هـ / 1231م) وماردة وبطليوس ؛ ولما لاحت فى الأفق بوادر ثورة جديدة فى المغرب قرر المأمون الرحيل اليها لينقذ ملكة هناك لكنه مات فى الطريق عام 1231م ، وبموته انهارت دولة الموحدين فى الاندلس ، ولم يتبقى فى ايدى فلولها من الامراء الا اشبيلية وما جاورها ، وآلت الى ابن هود مرسية وشرقى الاندلس والولايات الجنوبية وشواطئها فيما بين الجزيرة الخضراء والمرية وفيما بين قرطبة وغرناطة .

ثانيا - ظهور ابن الاحمر

وتأسيس الدولة النصرية فى غرناطة

فى تلك الفترة ظهر على الساحة محمد بن يوسف الاحمر النصرى ، وهو من مواليد ارجونة عام 595هـ / 1198م وسليل سادة حصنها وهم من اعرق البطون العربية ويتصل نسبهم للصحابي الجليل سعد بن عباد سيد الخزرج ، عمل محمد بن يوسف على نشر نفوذه فى الانحاء الوسطى وبعض القواعد الجنوبية ودخلت فى طاعته قرمونه وقرطبة واشبيلية حتى اواسط عام 629هـ ؛ واستولى على بعض مدن الموحدين من اهمها جيان وشريش ومالقة عام 630هـ / 1233م ؛ ولكنه خسر اشبيلية وقرطبة لفترة آلتا فيها الى ابن هود الذى كانت علاقة ابن الاحمر به متقلبة فكان يصانعه تارة ويُقاتله اخرى ؛ فإبحاز اليه (ابن هود) عندما دعمته الخلافة العباسية ثم انقلب عليه وتحالف مع عدوه ابو مروان الباجى الذى انتزع منه اشبيلية بعد ان هزمه معا فى بعض المعارك (110) .

وبعد وفاة ابن هود وانهيار دولته سعى ابن الاحمر لفرض سيطرته على انحاء الاندلس فانتهاز دعوة ثوار غرناطة له لتولى حكمها بعد اغتيالهم عتبة المغيلي والى ابن هود الراحل ؛ فدخلها فى رمضان عام 635هـ / 1238م بعد اشهر قلائل من وفاة ابن هود واتخذها حاضرة ومقرا لحكمه ، وبدأ يتوسع فى ارض الاسلام فأستولى على المرية بعد هروب حاكمها الرميمى وزير ابن هود الى تونس ، وأيدته عامة الناس فى الجنوب الا بعض الامراء الذين رفضوا الانضواء تحت حكمه وفضلوا الخضوع لملك قشتالة صلحا مقابل الاحتفاظ بمناصبهم وهو ما كان يُشجعه اسبان قشتالة وارجون بكل الاغراءات (111) ؛ وممن استسلموا عام 641هـ / 1243م حاكم مرسية محمد بن هود وحكام لقنت واوريوالة وقرطاجة وجنالة.

مناجزة ابن الاحمر قشتالة

استفادت اماره غرناطة من سقوط المدن الاندلسية بانضمام فلول المسلمين الفارين منها بثرواتهم وخبراتهم ، فتجمع بها ذخائر العلم والثروة وصفوة الخبرات ؛ وزدادت قوتها العسكرية وجيشها قوة بمن انضم اليه من جنود تلك المدن ، واصبحت غرناطة من القوة لتهمز قشتالة فى مرتش ، وكان بنى اشقيلولة وكبيرهم ابو الحسن من اهم دعامات ابن الاحمر العسكرية سواء ضد ابن هود او قشتالة ؛ وتجاوزت العلاقة بينهما حدود السياسة الى الاصهار والمشاركة فى السلطة فمنح ابن الاحمر ابو الحسن اشقيلولة حكم وادى آش ومنح ولده الاخر محمد حكم مالقة ، ولكن الامور لا تدوم فتهيب ابن الاحمر من اطماعهم فى الحكم واخذ جانب الحذر فتوترت العلاقة بينهما .

110 (نهاية الاندلس ومصير العرب المنتصرين ص 26 - بعد فترة دس ابن الاحمر على حليفه من قتله ليخلوا له الجو ؛ وحاول ان يستظل بأحد الحكام الظاهرين فدعا لابي زكريا الحفصى صاحب افريقيا (تونس) وتلقى منه بعض العون) وقيل انه دعى بعد ذلك لبعض الوقت للخليفة العباسى ، وفي هذه الأثناء عقد ألفونسو حلفاً مع سانشو الأول ملك أراغون ونافارا، وبرنغار ريموند كونت برشلونة للقضاء على ما تبقى من دويلات الأندلس ، فزحفت جيوشهم الى قورية وطريف حتى ضواحي اشبيلية ، فأحرقوا ودمروا القرى والمزارع المحيطة بها. (عام 624هـ / 1227م) .

111 (نهاية الاندلس ومصير العرب المنتصرين ص 24- 31 .

ضغوط الاسترداد

ما بين قشتالة واراغون

انتهاز فرديناند الثالث اقتتال المسلمين ووضعهم المفكك بعد موقعة العُقاب المشار اليه عاليه (نهاية دولة الموحدين - ثورة الاندلسيين وإقتتالهم) ، وسارع بغزو بعض المعاقل الاسلامية فسقطت أوييدا بعد معركة العُقاب مباشرة وقُتل 60 ألفا من أهلها وفي الغرب سقطت في هذه الموجة بطليوس عام 1228م وميوركة عام 1229م ، ثم هزم ابن هود وانتزع منه ماردة وبطليوس عام 1230م وأبدا عام 1233م ، واستمر في الضغط عليه بإعتباره زعيم الاندلس الحقيقي والاشد خطرا ؛ فهزمه ثانية في شريش عام 1233م رغم التفوق العددي لجيش ابن هود وقرطبة عام 1236 وشلب عام 1242 وجيان عام 1246 وإشبيلية عام 1248 وشتنمرية الغرب عام 1249م (¹¹²) وولبة عام 1257م ، وسقطت قادس عام 1262م وشريش عام 1264م وسقطت كل من أركوس وصيدا الأندلسية .

وقام ملك أراغون وكونت برشلونة جيمس الأول باحتلال جزر البليار، بين عامي 1228م و1232م ومدينة بلنسية عام 1238م ، ولم ينقض القرن الثالث عشر الميلادي حتى كانت ولايات الاندلس الشرقية والوسطى كلها قد سقطت في يد الاسبان ، ولم يتبق في يد المسلمين سوى بضعة ولايات صغيرة في الجنوب ولاح شبح الفناء واستئصال شأفتهم من شبه الجزيرة الايبيرية لولا تدخل القدر بإنشغال الاسبان بنزاعاتهم وحروبهم الاهلية لفترة.

مهادنة ابن الاحمر قشتالة

التحالف المهيمن والخسران المبين

لما إستعصت غرناطة على فرديناند بوضعها الجديد تركها الى حين ، وركز جُهدَه في إخضاع الثغور الشرقية التي أصبحت هدفه الاول الاكثر اهمية وهي في محصلتها النهائية ستخلق غرناطة حصارا بعزلها وقطع وسائل اتصالها بالمغرب مصدر إمداداتها لاختزال المدى الزمني في عملية الاسترداد ؛ وبعدما تحقق غرضه التفت الى غرناطة فاستولى على عدد من حصونها وحاصرها عام 1244/هـ-642م ولكنه رُد بخسائر فادحة ، وفي العام التالي حاصر حصن ارجونة ، ولما رأى ابن الاحمر قوة قشتالة قرر مصانعتها فذهب الى معسكر فرديناند ووقع معه (1247/هـ-643م) اتفاق سلام لمدة عشرين سنة يحكم بمقتضاه ابن الاحمر غرناطة باسم الملك وتابعا له على ان يحضر ابن الاحمر اجتماعات مجلس الكورتيس المجلس النيابي القشتالي ، وان يدفع جزية سنوية 150 ألف قطعة ذهب للملك ، ويتنازل الى قشتالة كعربون حُسن الطاعة عن جيان وارجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر والفرنثيرة ؛ والخطر في هذا الاتفاق موافقة ابن الاحمر على معاونة قشتالة في حروبها ضد اعدائها بمن فيهم من المسلمين ؛ وكان اول تطبيق عملي لهذا البند تقديمه العون الى قشتالة في الاستيلاء على قرمونة ، ومساعدتها في تثبيط همة الجهاد لدى حكام القلاع بإقناعهم بتسليمها مقابل شروطا سخية لسكانها المسلمين .

وبهذا الاسلوب تمكنت قشتالة حتى عام 645هـ / 1247م من وضع يدها على جميع الحصون المحيطة بأشبيلية ثم هي ذاتها وقعت ضحية الحصار بمشاركة قوات ابن الاحمر في اغسطس عام 1247م وكانت في يد احد حكام الموحدين ، واستسلمت المدينة بعد ثمانية عشر شهرا مقابل تأمين أهلها على انفسهم وتأمين حريتهم في البقاء او الهجرة. ودخل القشتاليون المدينة في 27 رمضان سنة 646هـ / 23 نوفمبر 1248م ، وكان فتح اشبيلية اخر فتوح فرديناند الثالث قبل موته عام 1252م ، وساعد ابن الاحمر القشتاليين في الاستيلاء على ثغر قادش عام 1262م بعد وفاة فرديناند الثالث بعشرة اعوام .

¹¹² كان فرديناند الثالث يطمح بعد هذه الانتصارات الى عبور مضيق جبل طارق وضرب دولة الموحدين في عقر دارها إذ كانت في حالة من الضعف والانقسام والثورات ولم يمنعه من ذلك سوى موته في إشبيلية عام 1252 .

تمرد ابن الاحمر على قشتالة

والاستنجاد بمغرب بنى مرين

ومع اشتداد عود ابن الاحمر أمل ان يتخلص من الاتفاق المهيمن ، فتمرد على القشتاليين وهزمهم مرة وانهزم عدة مرات على يد دون نونيو دى لارا قائد ملك قشتالة ؛ فعاد ابن الاحمر من جديد فى اواخر سنة 665هـ (1267م) الى مهادنة القشتاليين مقابل التنازل لهم عن عدد كبير من البلاد والحصون يُقدر عددها بمئة حصن ومدينة معظمها فى غرب الاندلس ، وتفرغ ابن الاحمر لتنظيم مملكته واصلاحها ؛ ودبت الخلافات بينه وبين اصهاره بنى اشقيلولة ، فاستقلوا بحكم مالقة فحاصرها عام 665هـ/1266م ومعه قوة من قشتالة ، لكنه فشل فى استعادة المدينة بعد ثلاثة شهور من حصارها ، كما فشلت محاولته الثانية لاستعادتها عام 668هـ / 1269م .

عاودت قشتالة من جديد تحرشها بغرناطة رغم الاتفاق الموقع بينهما ، فاستنجد ابن الاحمر بسلطان المغرب ابى يوسف المرينى اوصى ابنه بالتحالف مع بنى مرين لمواجهة خطر الاسبان عند موته عام 671هـ (1272م) قبل ان يشهد نتيجة هذه الاستغاثة .

شخصية الاحمر او ابن الاحمر

يصف ابن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية فى كتابه مملكة بنى الاحمر ابن الاحمر الكبير مؤسس الدولة فيقول " كان يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والاقدام والتواضع الجم وسلامة الطوية والجمهورية ، شهما عظيم التجلد رافضا للدعة والراحة مؤثرا للتقشف والاجتزاء باليسير بعيدا عن التصنع ، شديد العزم مرهوب الاقدام يلبس الخشن ويستشعر الجد فى اموره شغوف بالجهاد وله مقدرة على التنظيم ، اما الغريبيون " فيرونه ابرع الامراء فى الدفاع عن الاسلام والمسلمين وقت العصور المضطربة ، جريئا مأكرا لا يرجع فى ذلك الى طبيعة خبيثة وانما الى الخلق السائد لدى خصومه الذين كان مرغما على مقارعتهم نقانصهم واخلق عصره المنحلة ، فقد كانت العهود والمعاهدات وشروط السلم الشريف ومجاملات الفروسية تُفهم بطريقة خاطئة فى العصور الوسطى وكثيرا ما تنتهك عن عمد ، وأن خضوعه لاعدائه سياسة حكيمة التدبير اقدم عليها لصيانة ملكه وتوطيد سلطانه فقد كان الغزو المستمر يرهق مملكته التى كان عليها ان تستفيد بخبرات ونشاط وتراث وقيم وحضارة المهاجرين من اللاجنين الاندلسيين لدعم حضارتها وهو ما كان اثنى مما لديهم من الثروة (113) " .

جهاد بنى مرين فى الاندلس

(الجهاد العظيم - ولاية ابن الاحمر الفقيه)

قامت دولة بنى مرين فى المغرب على انقاض دولة الموحدين ، وكان اول احتكاك لها بالاسبان عندما هاجمت اساطيلهم عام 657هـ / 1258م ثغر سلا المغربى وقتلوا وسبوا كثيرا من اهله ، ولما وصلت استغاثة ابن الاحمر سلطان المغرب ابى يوسف المرينى وهو فى طريقه لغزو تلمسان عام 670هـ ؛ استشعر السلطان ابى يوسف المرينى خطورة الموقف فى الاندلس ، ووجد ان الجهاد فيها اكبر من إقتتال المسلمين ، فبعث الى يغمراسن صاحب تلمسان يصالحة للتفرغ للجهاد فى الاندلس ، لكن الاخير رفض طلب السلطان فقاتله (670هـ / 1272م) وهزمه الى ان فر ، ولكن وقت النجدة كان قد فات بوفاة ابن الاحمر عام 671هـ (1272م) .

وبعد عامين من استغاثة ابن الاحمر ، جدد ولده ابو عبد الله محمد بن يوسف بن الاحمر الملقب بالفقيه الاستغاثة بالسلطان وتنازل له عن طريف ورندة وثر الجزيرة لتخدم عمليات انزال القوات المغربية واقامة قواعد الاقامة والامدادات ، ووصلت الى سلطان المغرب رسائل استغاثة مماثلة من بنى اشقيلولة فى وقت كانت فيه دولة بنى مرين قد بلغت عنفوانها آنذاك . فأرسل السلطان ابى يوسف الى امير تلمسان يصالحه للمرة الثانية للتفرغ للجهاد فوافق الاخير ؛ فبادر السلطان بإرسال ولده أبا زيان مصحوبا بخمسة الاف فارس فنزل فى ذى الحجة 673 هـ / 1275م الى طريف فى الاندلس وهاجم شريش واغتنم

وعاد الى الثغر ولحق به السلطان فى صفر 673 هـ / 1275م فى جيش كثيف من البربر. ومما يؤسف له ان علاقات ابن الاحمر الفقيه والسلطان شابها التوتر منذ البداية بسبب اجارة السلطان لبنى اشقيلولة ، الامر الذى اعتبره ابن الاحمر الفقيه محاولة لفرض المصالحة ، فأوجس خيفة وغادر مغاضبا السلطان مفكرا معاودة مهادنة قشتالة.

تقدم السلطان مجاهدا ومعه قوات بنى اشقيلولة حتى بلغ ضواحي قرطبة ، فخرج له القشتاليون فهزمهم فى ربيع الاول 674هـ/1275م وقتل قائداهم الدون نونيو دى لارا صهر الملك الذى سبق له هزيمة غرناطة عدة مرات ، وأرسل رأسه الى ابن الاحمر الفقيه فأرسله معطرا فى مجاملة لملك قشتالة تحسبا لما قد يخبئه له المستقبل من تدهور محتمل فى علاقته بالسلطان بسبب تقريبه بنى اشقيلولة كما اسلفنا ؛ وكان انتصار السلطان اول نصر باهر للمسلمين منذ هزيمتهم فى معركة العقاب ، يماثل انتصارهم فى الزلاقة والارك.

وبعد اسبوعين من هذا النصر خرج السلطان ابو يوسف غازيا للمرة الثانية وتجاوز إشبيلية بعد تحصنها خلف ابوابها ؛ متقدما الى شريش فحاصرها ثم تراجع عنها استجابة لطلب رهبانها الامان والصلح ، وقفل عائدا الى المغرب فى رجب 674هـ بعد خمسة اشهر قضاه فى الاندلس ، وبعد وفاة حاكم مالقة المنشق تنازل ابنه محمد بن اشقيلولة عن حكمها الى سلطان المغرب ورحل للاقامة فى المغرب ؛ فتهيب ابن الاحمر الفقيه من ذلك وقرر الاستيلاء على مالقة قبل ان تصل اليها يد السلطان فلم ينجح فى ذلك ، واغضب تصرف ابن الاحمر السلطان.

وبعد عدة اشهر 677هـ/1278م قام السلطان بالعبور الى الاندلس ونزل بمالقة ثم سار ومعه بنو اشقيلولة غازيا حتى اشبيلية لكن القشتاليون إجتنبوا التصادم معه ، وحاول السلطان اثناء وجوده فى الاندلس تصفية الامور مع ابن الاحمر الفقيه فاستدعاه للقائه لكن سعيه لم ينجح فعاد الى المغرب .

لم يلبث ابن الاحمر الفقيه ان اثار من جديد غضب السلطان بعدة اجراءات عدائية فى اواخر عام 677هـ ؛ بمحاولته من جديد انتزاع مالقة قاعدة السلطان فى الاندلس بعدما اقنع صاحبها بمبادلتها بثغرى المنكب وشلوبانية من املك غرناطة على المتوسط ؛ كما تحالف مع قشتالة من جديد ضد المغرب التى منع قواتها من النزول الى الجزيرة بالاندلس ، وسمح لقوات قشتالة بالنزول فيها ؛ وارسل الى خصم السلطان الامير يغمراسن فى المغرب الاوسط يسأله العون ضد السلطان ، ولم يتمكن السلطان من الرد على هذه التجاوزات بسبب سوء الوضع فى المغرب حتى وافته الفرصة عام 678هـ / 1279م ، أرسل ابنه ابا يعقوب على رأس اسطول ضخم الحق هزيمة شديدة باسطول الاسبان فى معركة هائلة فى بحر الزقاق دمر فيها سفنهم واستولى على بعضها واجلاهم عن الجزيرة .

واراد الامير ان يعاقب ابن الاحمر الفقيه بنفس منطقته بالتحالف مع قشتالة ضده ، الا ان السلطان انكر على ابنه ذلك لمخاطره على المسلمين ، فقام الامير بالزحف على ثغر مربلة من املك غرناطة للاستيلاء عليه فإمتنع عليه الثغر . انتهزت قشتالة تأزم الموقف بين ابن الاحمر الفقيه والسلطان فزحفت على غرناطة عام 679هـ فاستصت عليها ، وعندها ادرك ابن الاحمر الفقيه دقة موقفه فسعى الى مصالحة السلطان فتقبل الاخير تقديرا لدقه موقف المسلمين فى الاندلس ؛ واشترط على ابن الاحمر الفقيه ان يتنازل له عن مالقة لتكون قاعدة لعبور قواته الى الاندلس لاحقا ، لكن احداث الخوارج فى المغرب اقعدت السلطان لفترة عن جهاده .

ومن حسن الحظ ان انشغلت قشتالة بخلافاتها الداخلية عن غرناطة التى استقطبت هى والمغرب اطراف قشتالة المتنازعة فلجأ اليهما طلبا للمساعدة الانفانت فيليب واعوانه سنة 669هـ/1270م ؛ طالبا عونها ضد اخيه الفونسو العاشر الامر الذى كاد ان يفجر الحرب بين المسلمين وقشتالة لولا تدخل فيولا ملكة قشتالة لارضاء المنشقيين ، ثم لجأ اليها ايضا الملك الفونسو العاشر عام 1282م / 681هـ بعد ان انتزع ابنه العرش منه ؛ فأرسل وفدا من الاحبار الى سلطان المغرب يستغيث به فلم يتوان السلطان فى نصرته فعبّر اليه فى الاندلس والتقاءه فى الجزيرة وامده بمائة الف من الذهب ليستعين بها على حشد القوات ، وقدم اليه الفونسو تاجه رهنا لمعونته ؛ ودعمه السلطان بمحاصرة قرطبة وهى تحت يد قشتالة آنذاك وواصل زحفه الى طليطلة حتى وصل حصن مجريط .

وقد اثار دعم السلطان الفونسو العاشر خيفة ابن الاحمر الفقيه فإتجه كعادته الى التفاهم مع الملك الجديد سانشو ، وحاول استفزاز السلطان من جديد فهاجم ثغر المنكب وهى تحت يد السلطان ، فارتد السلطان لقتاله لولا تراجع ابن الاحمرذى ساعده الحظ

فى استرداد قمارش بعد وفاة حاكمها وصهره وعدوه ابا اسحاق بن ابي الحسن بن اشقيلولة عام 682هـ ، ولكنه لم يتمكن من استرداد وادى آش لرفض ابي الحسن (ولد ابا اسحاق) التنازل عنها مستقويا بتحالفه مع قشتالة ، ولما تصالحت الاخيرة مع المسلمين انضوى ابا اسحاق تحت لواء المغرب كبديل لقشتالة.

بوفاة الملك المخلوع الفونسو العاشر إنتهت الحرب الاهلية فى قشتالة عام 1284م/683هـ بعد عامين من اندلاعها ؛ وكان هذا نذيرا بتجدد عدوانها على غرناطة فتحسب السلطان ابو يوسف وابنه ابا يعقوب لذلك فعبر فى عام 684هـ الى الاندلس للمرة الرابعة وغزى اراض قشتالة و طارد اساطيلها فى بحر الزقاق ، مما اثلج صدر ابن الاحمر الفقيه فبعث الى السلطان مددا من غرناطة تصالحا معه .

ولما رأى سانشو ملك قشتالة عقم المقاومة ؛ صالح السلطان الذى طالبه بالامتناع عن العدوان على الاندلس ونىذ الدس بين امرائها ورفع الضرائب عن تجار المسلمين بدار الحرب ، فوافق سانشو وحضر الى معسكر السلطان محملا بالهدايا ووافق على طلب السلطان تسليم فاس ذخيرة الكتب العربية المعتنمة من الاندلس بلغت ثلاثة عشر حملا.

اقام السلطان قبل عودته الى المغرب ابنه ابا زيان حاكما على الثغور الاندلسية واوصاه بعدم التدخل فى شئون الفقيه ، وترك بعض قرابته من مشاهير الغزاة لدى ابن الاحمر هم بنو العلاء المرينى الذين تولوا قيادة الجيش الغرناطى وكانت لهم مواقف جهادية مشكورة ، وادركت المنية السلطان فى محرم 685هـ وهو فى الجزيرة بالاندلس ، وكان ابو يوسف من اعظم ملوك المغرب ومن اعظم مجاهديها ومن عظيم صفاته الصفح الشديد كثرة العفو حليما متواضعا كريما سمحا جوادا يحسن الى اعدائه وهى الصفات التى جعلته يصبر على تجاوزات ابن الاحمر الفقيه.

جهاد السلطان أبو يعقوب

(ولاية ابن الاحمر الفقيه)

كعادتها حنثت قشتالة بعهدا وهاجمت الثغور الاندلسية التى تحت يد السلطان فى عام 690هـ/1291م ، فاشتبكت معها قوات المغرب المتمركزة هناك وحاول سانشو منع المون عنها فأرسل اسطوله الى بحر الزقاق ليحول دون قدوم الامدادات ، فبعث ابو يعقوب سلطان المغرب الجديد الذى سار على نهج والده (المجاهد العظيم ابو يوسف المنصور) باسطول للتصدى لقشتالة ، لكنه إنهزم فى اغسطس 1291م فأرسل اسطول آخر انسحبت قشتالة امامه ، كما عبر السلطان بجيشه وغزا فى ارضها ثم عاد الى المغرب عام 691هـ.

حاول ملك قشتالة الدس لابن الاحمر الفقيه محذرا من نوايا المغرب وتفاهما على انتزاع ثغر طريف مدخل الجزيرة من يد السلطان ، واشترط ابن الاحمر الفقيه استلام الثغر عقب استعادته مقابل ما تنازل عنه من اراض لقشتالة ، وحاصرت قواتهما طريف بحرا باسطول قشتالة وبرا بعسكر ابن الاحمر الفقيه الذين عسكروا بمالقة لمعاونة الاسبان ؛ وسقط الثغر بعد اربعة اشهر لكن ملك قشتالة رفض تسليمه لابن الاحمر الفقيه ؛ فصالح الفقيه السلطان الذى رحب باستقباله فى ارض العدو بالمغرب واطرح عام 692هـ/1292م ، وتنازل له ابن الاحمر الفقيه عن الجزيرة ورندة والاراضى الغربية وغيرها من الحصون التى كانت من قبل فى يد المغرب ، وارسل معه السلطان حملة لغزو طريف لم تنجح فى مهمتها ، وفى ظل هذا المناخ من المودة تنازل السلطان ابا يعقوب طوعا لابن الاحمر الفقيه طبقا لطلبه عن وادى آش التى ادخلها من قبل ابي الحسن ولد ابا اسحاق بنى اشقيلولة فى طاعة المغرب وبذلك اصبحت كل الاندلس تحت يد ابن الاحمر.

قام الفقيه إثر وفاة سانشو بالزحف على قشتالة عام 695هـ/1295م واستولى على قيجاطة وعلى الحصون التابعة لها واسكن بها المسلمين ، وفى صيف 699هـ/1299م فعل نفس الشئ مع مدينة القبذاق ، وسعى من ناحية اخرى الى تحييد اراجون فوقع مع خايمي الثانى فى 31 ديسمبر عام 701هـ/1301م (قبل وفاته) تجديدا لمعاهدة الصلح والتحالف الموقعة قبلا عام 695هـ/1299م ؛ التى تنص على عدم اضرار احدهما بالآخر ، وان تعادى اراجون اعداء غرناطة مسلمين كانوا ام قشتاليين ، وبالمقابل يتعهد ملك غرناطة بمعاونة اراجون ضد ملك قشتالة والا يعقد معه صلحا الا بموافقة حليفه ، ويتعهد ملك اراجون لسلطان غرناطة على نحو مماثل وان يقدم السلطان الى حليفه المعونة من الفرسان فى ارض مرسية اذا احتاج مثل هذا العون والا يعترض على ما يأخذه ملك اراجون من اراضى قشتالة الا ما كان لغرناطة اصلا فيرد اليها ، وان يفتح كلا منهما بلدة امام تجار البلد الاخر امنين على اموالهم وانفسهم .

مات ابن الاحمر الفقيه في شعبان عام 701هـ/ مايو 1301م بعد توقيع الاتفاق بثلاثة اشهر ، وبعد ثلاثون عاما من الخطوب قضاها حاكما ، نجح في اقرار الاستقرار ، وخلفه ابنه ابو عبد الله محمد الملقب المخلوع .

أبو عبد الله محمد الملقب المخلوع

التمرد على بنى مرين

تولى عبد الله محمد الملقب المخلوع حكم غرناطة ، وكان ضريرا ذا نباهة وعزم ، محبا للاصلاح والانشاء ومن بين انشاءاته المسجد الاعظم بالحمراء ، اضطربت الامور في عهده القصير بسبب سطوة واستبداد وزيره ابو عبد الله اللخمى ، كما اضطربت علاقته بسلاطين بنى مرين في المغرب لغزوه سبتة في اراضيها الافريقية ؛ رغم انه كان في بداية عهده على علاقة وثيقة بالسلطان ابا يعقوب وساعده في حصاره تلمسان بإرساله بعض الجند خبراء حصار الحصون بناء على طلب السلطان ادوا مهمتهم على احسن وجه ، الا انه انقلب وعاد الى محالفة قشتالة كعادة اسلافه مما اغضب السلطان فرد اليه جنده عام 703هـ .

تمادى عبد الله محمد المخلوع في غيه فحرض عمه ابي سعيد فرج بن اسماعيل حاكم مالقة على ان يستثير اهل سبتة في المغرب للخروج على طاعة السلطان ؛ فجهز ابي سعيد فرج عام 705هـ/ 1306م قوة بحرية قادها عثمان ابن علاء المرينى وهو من الذين تركهم السلطان السابق ابو يوسف في بلاط ابن الاحمر لمساعدة جيشه ؛ استولت علي سبتة من املك السلطان وارسلت حاكمها ابو سعيد اسيرا الى غرناطة .

واستباقا لرد فعل السلطان فكر ابن الاحمر المخلوع في العبور للمغرب والسلطان مشغول بحصار تلمسان ، فغضب السلطان لهذا الغدر وارسل قوة بقيادة ابنه ابي سالم لاسترداد سبتة من الغرناطين فشلت وطاردها عثمان المرينى قائد قوة غرناطة متوغلا في انحاء سبتة عام 706هـ ، ففاد السلطان عملية استرداد سبتة الا انه مات قتيلا 706هـ/ 1307م قبل القيام بمهمته ، واعقب مصرعه حربا بين ولديه ابي ثابت وابى سالم على العرش .

كان ابي العلاء المرينى قد هزم تجريدة السلطان ابا يعقوب لما تصدت لتوسعه في ارض المغرب قبل وفاة السلطان ؛ حتى بلغت به الاطماع ان دعى لنفسه بالملك مدعوما من بعض القبائل ؛ لكن ابو ثابت السلطان الجديد قاد جيش ضخم في سنة 707هـ استرجع به من الخارجين عليه عدة حصون وطارده عثمان بن ابي العلاء الى سبتة وحاصرها ؛ وامر ببناء مدينة تطوان لنزول عسكره لاحكام حصار طويل ، لكنه مرض ومات عام 1308م اثناء الحصار ؛ وخلفه اخوه سليمان ابو الربيع الذى فك الحصار عن سبتة ورجع بجيشه الى فاس فلاحقه عثمان بن ابي العلاء لكنه انهزم في معركته مع السلطان الجديد ، وقتل من جنده الكثير ففر عائدا الى الاندلس .

ثورة ابو الجيوش نصر بن محمد الفقيه وعزل المخلوع

استرداد المغرب سبتة

وسقوط ثغرا المرية وجبل طارق في يد الاسبان

دبر ابو الجيوش نصر بن محمد الفقيه الثورة على اخيه ابو عبد الله المخلوع لطغيانه ، وقتل الثوار المخلوع ووزيره المستبد ابن الحكيم في عيد الفطر 708هـ/ 1309م ، وتولى ابو الجيوش الفقيه عرش غرناطة ، وفى العام التالى 709هـ بعث اهل سبتة الى سلطان المغرب يدعونه لتخليصهم من حكم الاندلسيين ، فارسل لهم حملة بقيادة تاشفين ابن يعقوب دخلت المدينة بعد نجاح الثورة في طرد الغرناطين منها .

كان وضع غرناطة متأزما بسبب تصرفات ابن الاحمر فقد تدهورت علاقته مع المغرب ففقد الحليف الوحيد القادر على نصرتة فاستغلت قشتالة انقسام الحليفين المسلمين ، فغزى فرديناند الرابع ارض غرناطة في اوائل عام 709هـ ووصلت جيوشه الى الجزيرة الخضراء ، كما بعث اسطوله لحصار جبل طارق استكمالا لمخططة في تطويق الاندلس لضمان قطع الامدادات القادمة من المغرب ، وكانت قشتالة قد مهدت لهذا المخطط باستيلائها على طريف بتواطؤ مع ابن الاحمر الفقيه كما اسلفنا الذى غابت عنه المخاطر والنوايا الاستراتيجية لقشتالة ؛ ومن السذاجة ان نقول انها غابت عنه وهى واضحة للعيان من البسطاء ولم تغب قط عن سلاطين المغرب او الاندلس على مدى الصراع .

ولضمان نجاح الحصار وسقوط جبل طارق حث خايمي ملك قشتالة ملك اراجون على المشاركة في المخطط بمحاصرة ثغر

المرية لشغل قوات الاندلس ، فاستجاب له ملك اراجون رغم معاهدة التحالف التى تربطه بغرناطة .
لكن المخطط لم يكتمل فقد نجحت المرية فى افشال الحصار ، وتمكنت من هزيمة قوات اراجون التى حاولت التسلل الى المدينة عبر اتفاق تحت اسوار المدينة ، بينما ألحقت قوة اندلسية صغيرة جاءت لنجدة الثغر بقيادة عثمان بن ابي العلاء هزيمة فادحة بقوات اراجون الاخرى المتأهبة بالقرب من الثغر رغم ما بذلته اراجون من جهود جبارة فى القتال .
لكن قشتالة نجحت من ناحية اخرى فى الاستيلاء على جبل طارق نهاية عام 709 هـ / مارس 1310م بعد عدة اشهر من الحصار الضارى رغم انتصار المسلمين فى المعارك الاولى ، وكان سقوط جبل طارق لحظة حاسمة فى تاريخ الاندلس ادرك عندها ابن الاحمر فداحة خطاه وضرورة استحضار قوة المغرب الى الاندلس وعودة التحالف معها ، فأرسل فى مصالححة السلطان وتنازل له عن الجزيرة ورنده وحصونهما ترغيبا له فى الجهاد واقترب باخت السلطان الذى ارسل له المدد ، ولما رأى ابو الجيوش نصر بن محمد الفقيه بعدما ضاقت به السبل بسقوط جبل طارق وانشغال المغرب بامورها ، ان الوضع لا يمكن اصلاحه اتجه الى مهادنة قشتالة من جديد ودفع لها الجزية مما اثار السخط عليه وبدأت بوادر ثورة فى الافق ، فاعلن ابن عمه الرئيس سعيد فرج صاحب مالقة (صاحب غزوة سبتة) العصيان وقاد الثوار فحازوا القواعد الجنوبية حتى غرناطة ، وتمكن من هزيمة الملك نصر الذى قبل التنازل عن العرش مقابل حكمه وادى آش فقط وبقي عليه حتى توفى عام 722هـ/1322م ، واقام الثوار ابا الوليد اسماعيل حفيد اسماعيل اخو ابن الاحمر الكبير راس الاسرة النصرية ملكا .

ابا الوليد اسماعيل

والجهاد ضد قشتالة

تولى ابا الوليد اسماعيل حفيد اسماعيل اخو ابن الاحمر الكبير راس الاسرة النصرية) عرش غرناطة عام 713هـ/1314م وهو يتمتع بخلال باهرة وكان متشددا فى امور الدين فأحمد البدع وأقام الحدود وحرّم المسكرات وطارد الفساد الاخلاقى وحرّم جلوس الفتيات فى ولائم الرجال وكان مجاهدا نشطا لم يمهله العمر لاستكمال جهاده الذى بدأه فى اوائل عهده بمهاجمة قشتالة التى هزمت هزيمة شديدة فى وادى فرتونة 713هـ واستولت منه على عدد من الحصون ، وتجهزت لمهاجمة الجزيرة لمنع الامدادات عن غرناطة الا ان تعجيل ابا الوليد بتحسينها واعداد الاساطيل لحمايتها ، رد قشتالة عنها فهاجمت بدلا منها غرناطة المدينة ، فاستنجد ابا الوليد بالمغرب لكن السلطان ابي سعيد الغاضب رفض المساعدة وطالب بتسليم عثمان بن ابي العلاء لما فعله فى بنى مرين فى غزوة سبتة ، ولكن غرناطة رفضت طلبه .

وجد أبا اسماعيل نفسه وحيدا فى مواجهة قشتالة فبادر بملاقاتها ورد عدوانها فهزم قواتها بما فيها المتطوعين الانجليز هزيمة شديدة فى البيرة عام 718هـ / 1318م ، وقُتل فى المعركة اوصياء العرش الدون بيدرو والدون خوان ، وكان الفضل فى نصر غرناطة رغم قلة قواتها يعود الى شجاعة ابو سعيد عثمان بن ابي العلاء المرينى شيخ الغزاة .

وبهذا النصر افتتحت غرناطة عهدا جديدا من القوة ، واكبه طلب خايمي الثانى ملك اراجون (عام 721هـ/1321م) مصالحتها لمدة خمسة اعوام ، وتضمنت الاتفاقية بخلاف النصوص المعتادة نصا جديدا يضمن خروج المدجنين بأهلهم واموالهم من الاراضى المستردة الى ارض المسلمين ، مما كان له اكبر الاثر فى تعزيز وضع غرناطة اقتصاديا وثقافيا وعسكريا لتنوع خبرات هؤلاء المهاجرين .

تعاقبت غزوات غرناطة فغزى ابا اسماعيل سنة 724هـ/1324م مدينة بياسة وحاصرها حصارا شديدا واطلق عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدفع حتى استسلمت ، وفى عام 725هـ استولى على مرتش وكانت اعظم غزواته لكنه قُتل غيلة بباب قصره بعد عودته بثلاثة ايام الى غرناطة فى 725هـ/ يونيو 1325 م على يد ابن عمه صاحب الجزيرة محمد بن اسماعيل بسبب جارية رائعة الحسن من السبى انتزعها منه .

ابو عبد الله محمد

واستعادة جبل طارق

خلف ابا الوليد اسماعيل ولده ابو عبد الله محمد وكان فى الحادية عشر من عمره وهو من ام اسبانية ، ومن اول اعماله تجديد معاهدة الصداقة مع اراجون بناء على طلب خايمي الثانى فى 726هـ/1326م لانقضاء اجلها ؛ وقاتل اسرة المرينى وعلى

رأسهم عثمان بن ابي العلاء ومعهم عم السلطان محمد بن فرج ابن اسماعيل الذين اعتصموا بالمرية وبعض ثغور الجنوب ، وكان القتال بين الفريقين سجالا .

إنتهزت قشتالة الفرصة فاستولت على ثغر البيرة وعدة حصون ولما تفاقم عدوانها تصالح ابو عبد الله مع هؤلاء الخوارج وترك لهم حكم وادى آش ، وسعى للاستنجاد بابي سعيد سلطان بنى مرين عام 729هـ . واعاد له الجزيرة وحصونها التى سبق ان تخلت عنها المغرب عام 712هـ عندما انشغلت بامورها الداخلية لابن الاحمر ، وفى نفس العام (729هـ) اوشى بقتل وزيره ابن المحروق لاستبداده بالحكم .

استلزم معاودة نجدة الاندلس استعادة جبل طارق باى وسيلة ، فطلب ابو عبد الله محمد عام 732هـ مساعدة المغرب وذهب الى عدوة مستجدا بالسلطان ابي الحسن على بن عثمان بن ابي يعقوب الذى كان شغوفاً بالجهاد ويدرك ان خطر الاسبان لا يقتصر على الاندلس وانما يطول المغرب ايضا ؛ فبعث ولده ابي مالك بالامداد فحاصرت قواته وقوات غرناطة جبل طارق برا وبحرا ، فسارع الفونسو الحادى عشر للتصدى لهم بقوة اضافية ، لكنه فوجئ قبل وصوله بهزيمة القوة الاسبانية امام جبل طارق واستسلام حاميتها فى 733هـ / 1333م بعد حصار مشدد ، فانتهى للتصالح مع المسلمين ورجع الى حاضرتة ، فاستردت غرناطة جبل طارق من يد الاسبان بعد 24 عاما ، واثناء عودة ابو عبد الله محمد الى غرناطة أغتيل بتحريض من بنى ابي العلاء فى ذى الحجة من نفس العام 733هـ / 1333م لتوجسهم منه لتضرره من تدخلهم فى شئون الدولة ، وتولى اخوه ابو الحجاج يوسف بن ابي الوليد.

ابو الحجاج يوسف بن ابي الوليد

انتكاسة جهاد بنى مرين

تولى ابو الحجاج يوسف بن ابي الوليد عام 733هـ / 1333م وكان فى السادسة عشر من العمر ومن اول اعماله مطاردته قتلة اخيه بنى ابي العلاء بمباركة من سلطان المغرب ابي الحسن ونفاهم الى تونس ، فارسلهم سلطانها ابي يحي بدوره الى ابا الحسن فى المغرب متشفعا فيهم ، فعفا عنهم الا انه اودعهم السجن لتأمرهم عليه من جديد .

ولكثر غزوات الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة فى ارض غرناطة جدد ابو الحجاج يوسف بن ابي الوليد عام 735هـ / 1335م معاهدة التحالف مع الفونسو الرابع ملك اراجون ، واستنجد بالسلطان ابا الحسن فأرسل له ولده الامير ابن مالك الذى تقدم فى اراض قشتالة حتى سهل بجانة وحصد الكثير من الغنائم فسيرت قشتالة وارايجون والبرتغال اساطيلها المشتركة الى جبل طارق بقيادة الدون جوفرى تنوريو لقطع الامداد عن جيش المغرب ، وفاجأت القوات الاسبانية جيش المسلمين وهزمت هزيمة شديدة قُتل فيها ابن السلطان فى اواسط 740هـ / 1339م ، وواصلت القوات الاسبانية تقدمها فى اعماق غرناطة حتى الجزيرة الخضراء وحاصروا طريف وتغلبوا على حاميتها .

وفى محرم عام 741هـ / يوليو 1340 م عبر السلطان فى اسطول من 140 سفينة وقوة كبيرة للثأر لابنه ، فنزل سهل طريف ولحق به ملك غرناطة ابو الحجاج يوسف بن ابي الوليد ، وفى 30 اكتوبر وقعت المعركة غربى طريف على مقربة من نهر سالادو ونجح المغاربة فى البداية فى صد الفونسو الحادى عشر ، وقاتل الاندلسيون القوة البرتغالية مستخدمين الانفاط فى المعركة ولكن الخلل دب فى صفوف المسلمين عندما اقتحم الاسبان معسكر السلطان وذبحوا نساؤه واولاده ، واستطاع السلطان ابو الحسن العبور الى المغرب مع جنوده ، واراد ابو الحجاج يوسف الى غرناطة وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون لها مثيلا منذ هزيمتهم فى العقاب ، و بعد الهزيمة واصلت قشتالة غزواتها فاستولت على حصن بنى سعيد 742هـ .

اعد السلطان ابو الحسن نفسه للانتقام وارسل عام 743هـ / 1342م اسطوله الى بحر الزقاق وسار بجيشه الى سبتة وبادرت قشتالة للقائه ونشبت معركة بحرية انهزم فيها المسلمون ومُزق اسطولهم ، وحاصر الاسبان ثغر الجزيرة الخضراء وسار اليهم ملك غرناطة يوسف لفك الحصار الا انه فشل رغم استخدامه الالات القاذفة ، واستسلم الثغر فأصبحت الجزيرة وطريف فى ايدى الاسبان ولم يتبقى غير جبل طارق همزة الوصل بين الاندلس و المغرب .

السلام مع اراجون

وحصار قشتالة جبل طارق

فى اواخر عام 745هـ/1345م جدد ابو الحجاج يوسف بن ابى الوليد سلطان غرناطة مع بيدرو الرابع ملك اراجون اتفاق الهدنة الموقع عام 735هـ/1335م مع الفونسو الرابع ملك اراجون للمرة الثانية لتحقيق هدنة فى البر والبحر لمدة عشر سنوات ، واخذ موافقة سلطان المغرب ابو الحسن فى صفر عام 746 هـ/ يونيو 1345م عليه . وفى عام 1348م تعرضت المنطقة لوباء انتشر فى حوض المتوسط وفتك باهله وفقدت خلاله الاندلس الكثير من سكانها وخيرة علمائها ، وفى عام 750هـ/1349م حاصرت قشتالة جبل طارق لمدة عام صمدت فيه القوة المغربية واضطر القشتاليون الى رفع الحصار عام 751هـ/1350م بفضل هذا الوباء الكبير الذى حصد تلك السنة كثير من جُند الحملة كان من بينهم الملك . وبعد اعوام من الهدوء اغتيل ابو الحجاج يوسف وهو فى السابعة والثلاثون من عمره اثناء صلاته عيد الفطر عام 755هـ/ اكتوبر 1345م على يد معتوه ، وقد شهد عهده بناء البرج الاعظم بالحمراء بافخم اجنحته و ذاعت شهرة العلماء المسلمين لا سيما فى الفلك والكيمياء .

ويصف لنا ابن بطوطة الذى زار غرناطة فى عهده ما شاهده فى الاندلس من خيرات وصناعات فريدة ويصف غرناطة برياضها وبساتينها بعروس الاندلس وأشار الى ما بها من نهضة ادبية زاهرة ووجود جمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والفقهاء والشعراء من ابرزهم ابن الخطيب اعظم كتاب وشعراء الاندلس الذى كان وزيرا للحجاج ابو يوسف .

مراسلات المغرب ومصر

بخصوص الوضع فى الاندلس

خاطب سلطان المغرب ابو الحسن ؛ الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر والشام حول احداث الاندلس ؛ يخبره بجهوده لنصرة الاندلس ومساعدة صاحبها بالمال والرجال ؛ وأشار لاستطالة الحرب ونفاذ الاموال والاقوات وخسارته اسطول النجدة الذى ارسله واضطراره عقد الصلح مع النصارى وتسليم الجزيرة لهم مبدئياً نيته فى الاستمرار فى الجهاد ، ولم يطلب شيئا محددا فرد عليه قلاوون برسالة مؤرخة رمضان 745هـ بكلام عام يعزیه فى فقد الاسطول وما لحقه من هزائم قائلا ان الحرب سجال وان الله قد يمن عليه بالنصر مرة اخرى (114).

انقطاع جهاد المغرب فى الاندلس

وترك غرناطة لمصيرها

بوفاة السلطان ابو الحسن عام 752هـ/1351م بدأ انحلال دولة بنى مرين ، فانقطع عبورها الى الاندلس الا مرات قليلة اخرها عام 756هـ/1355م فى عهد محمد الملقب بالغنى بالله ملك غرناطة ؛ عندما ارسل ابو عنان سلطان بنى مرين ابنه ابا بكر السعيد ومعه قوة من الفرسان الى جبل طارق لتأمينه وتجديد تحصيناته بعد ثورة حاكمها عيسى بن الحسن الذى قبض عليه الاهالى وارسلوه ومعه ابنه الى المغرب حيث أعدموا ؛ وترك بنى مرين الاندلس الى مصيرها لانشغالهم بامورهم الداخلية فقد كانت دولتهم على اعتاب الانهيار .

محمد بن يوسف بن اسماعيل الملقب بالغنى بالله

خلف محمد الملقب بالغنى بالله ولده ؛ وكان يافعا صغير السن وفى اول عهده امنت غرناطة شر قشتالة التى انصرفت عنها بحروبها الداخلية ، وفى 28 رمضان عام 760هـ/1359م فر الغنى بالله الى وادى آش اثر ثورة اطاحت به واقامت اخوه المعتقل اسماعيل ملكا مكاته ؛ تدخل سلطان المغرب ابى سالم ابو الحسن لدى سلطان غرناطة الجديد اسماعيل متشفعا فى اخيه المخلوع الغنى بالله لجميلة سابقة عليه عندما لجأ الى الاندلس فرارا من اخيه السلطان ابوعنان ، وتمكن من إحضاره الى المغرب ومعه

¹¹⁴ (السلوك فى دول الملوك للمقريزى ص 447 و 448 نقلا عن كتاب نهاية الاندلس ومصير العرب المنتصرين ص 120 _ محمد عبد الله عنان .

وزيره ابن الخطيب عام 761هـ .

وحاول الغنى بالله ان يستعيد ملكه بمساعدة بيدرو الثانى (115) ملك قشتالة طبقا لاتفاقه معه ؛ لكن الاخير تجاهله وآثر التعاون مع سلطان غرناطة الجديد للتفرغ للاضطرابات داخل مملكته ، فعول الغنى بالله على مساعدة وزير الدولة المغربية عمر بن عبد الله الذى قام بشنون البلاد بعد مصرع السلطان ابي سالم .

وواتت الغنى بالله الفرصة بمقتل اخيه اسماعيل فى ثورة غرناطة على يد سعيد حاكم مالقة الذى سبق ان قاد الثورة ضدّه ؛ فجاز ومعه الوزير ابن الخطيب الى الاندلس واستولى على مالقة التى فر منها ابوسعيد الى حماية ملك قشتالة ، ثم تقدم الى غرناطة واستعاد ملكه عام 765هـ/1361م .

وفى ولايته الثانية بعد ان استرد عرشه زاره ابن خلدون فى الاندلس لعلاقة وطيدة ربطتهما معا فى المغرب اثناء عمل الاخير فى بلاطها ، واثناء وجوده فى الاندلس ارسله السلطان الغنى بالله عام 765هـ/1363م مبعوثا الى بيدرو ملك قشتالة الذى اعجب بابن خلدون وطلب منه البقاء فى خدمته لما عرف انه من مواليد اشبيلية لكنه اعتذر .

وفى عام 767هـ/1366م تمكن الغنى بالله من إفشال انقلاب ضده وزاده هذا قوة، وفى عام 768هـ/1367م عقد صلحا مع بيدرو الرابع ملك اراجون لمدة ثلاثة سنوات بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن ابي فارس سلطان المغرب ، يحق فيه لهما بمقتضاه الاتجار المتبادل فى اراض البلدين والتجول دون اعتراض او مغارم ، وان تطلق اراجون حرية الهجرة للمهجرين والامتناع عن مساندة اعداء كل للآخر او الاضرار به ، اما علاقته بقشتالة فقد غلب عليها التهادن الا قليلا من المناوشات ، وقدم خلالها الحماية الى ملكها المخلوع بيدرو القاسى.

العلاقات مع مصر

كانت علاقاته مع مصر متواصلة وهناك رسالة كتبها وزيره ابن الخطيب " من امير المسلمين بالاندلس محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله الى الاشرف شعبان سلطان مصر" يعرب فيها عن اغتباطة لتلقى رسالة سلطان مصر ويهنئه فيها بنصره فى موقعة الاسكندرية على لوسنيان ملك قبرص عام 767هـ/1365م ، ملمحا الى ما يذكيه هذا النصر من اشفاق وعطف على الاندلس التى يدهمها الاعداء بلا انقطاع ؛ مذكرا اياه بجهاد غرناطة وتعرضها الدائم لهجمات العدو (116).

جهاد الغنى بالله

ضد قشتالة

حرر محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله موقعين حصينين فى برغة ورندة الشرقية من ايدى قشتالة بعد معارك طاحنة فى شعبان 767هـ/1366م ؛ كانت تقطع بهما الطريق على ثغر مالقة ؛ وتابع غزواته فى مدينة اطريرة وفتح حصن اشر فى ضواحي اشبيلية عاصمة قشتالة ، واقتحم مدينة جيان فى 769هـ/1367م ودمر مدينة ابدة وعاد الى غرناطة ؛ وفى اواخر 769هـ أرغم الاسبان على اخلاء الجزيرة الخضراء بعد قتال مرير وهدم اسوارها ، وفى عام 771هـ/1370م زحف على اشبيلية وحاصر قرمونة واقتحم مرشانة ، وكانت المملكة فى عهده فى اوج قوتها؛ وكان عهده عهد رخاء فعنى بالانشاءات فبنى المارستان الاعظم وعنى بتجديد الحصون وبث روح الجهاد ، وتوفى فى عام 793هـ/1391م وتولى ابنه يوسف ابو الحجاج (يوسف الثانى).

يوسف ابو الحجاج (يوسف الثانى)

تولى يوسف ابو الحجاج (يوسف الثانى) عام 793هـ/1391م واستهل عهده بمهادنة قشتالة وحدثت خروقات من الطرفين وهزم قشتالة هزيمة شديدة ؛ وثار عليه ولده محمد لايتاره اخيه الاكبر لولاية العهد ولكن الثوار تفرقوا بعدما وبخهم سفير المغرب وطلب منهم الوحدة ضد الاسبان ، ومات عام 797هـ/1394م بعد حكم ثلاثة سنوات وتولى ابنه محمد العرش بعد ان اقصى

¹¹⁵ كان بيدرو اثناء حروبه الاهلية ضد اخيه هنرى يستخدم فرقة من حلفائه المسلمين سنة 1368 م ، المرجع السابق ص 132.

¹¹⁶ (المرجع السابق ص 135)

أخيه الأكبر يوسف .

محمد بن يوسف

جهاده قشتالة وتهادنه مع اراجون

تولى محمد بن يوسف العرش عام 797هـ/1394م بعد ان اقصى أخيه الأكبر يوسف وسجنه ؛ وابتدأ عهده بمهادنة قشتالة ولكنها لم تلتزم بالعهد فهاجم ولاية الغرب وخربها ؛ واستولى على حصن إيامونتي ، وراسل ملوك العدو وتونس لمساعدته ، فادركه ملوك تونس وتلمسان بنجدة بحرية انهزمت تجاه جبل طارق ، فعلاود مهادنة هنري الثالث لمدة عامين وعقد لجنة تحكيم لتقدير الاضرار في 6 أكتوبر 1406م.

وبعد وفاة هنري في آخر العام نقض فرديناند الوصي وعم ولي العهد الهدنة وهاجم غرناطة واستولى على عدد من الحصون فرد محمد ابو يوسف بغزو ارض قشتالة وبعد عدة معارك انتهى الامر عام 811هـ/1408م بهدنة جديدة لمدة ثمانية شهور ، واثناء قتاله قشتالة عقد صلحا في عام 1405م لمدة خمس سنوات مع مرتين ملك اراجون وابنه ملك صقلية ونص الاتفاق على ان تعاون غرناطة ملك اراجون او ملك صقلية في الحرب على اعدائهما متى كانوا من غير اصدقاء غرناطة بأربعمائة او خمسمائة فارس ؛ ويقوم ملكا البلدين بإعانة غرناطة بخمس سفن محملة بالرجال والعتاد على ان يتكفلا بالنفقات على الا يكون عدو غرناطة صديقا للملكين ، وان تمتنع الاطراف عن مساعدة الخوارج والثوار من الجانبين ، وضمان حرية الانتقال والاتجار بين رعايا الاطراف في ارض كل للاخر امنين على انفسهم واموالهم وان يسمح باصلاح السفن المعطوبة لكل طرف في موانئ الآخر متى لجأت اليها ، والا يُسمح لسفن الاعداء التي استولت على بضائع اى طرف ان تبيع ما غنمته في موانئ الطرف الآخر وان يُسمح لرعايا كل طرف او سفنه متى كانوا في اسر العدو وتم الاستيلاء على هذه الارض بفك اسرهم بمالهم مقابل مائة دينار ذهباً عن الشخص الخ ، وتوفى السلطان عام 811هـ/1408م وتولى أخوه يوسف الثالث الذي كان سجيناً طوال عمره في احدى القلاع الحصينة .

يوسف الثالث

ثورة اهل جبل طارق

خلافه مع المغرب ووفاقه مع قشتالة

سعى يوسف الثالث في اول عهده الى مد الهدنة مع قشتالة لمدة عامين لكن القشتاليون ابوا تجديدها وطلبوا اليه الخضوع لسلطانهم ان اراد السلم ؛ فرفض ولما انتهت الهدنة حاصرت قشتالة مدينة انتقيرة فتصدى لها فانهزم واستسلمت المدينة عام 1412م وتم بعدها الصلح مقابل اطلاق غرناطة لاسرى قشتالة ، وفي عهده ثار اهل جبل طارق ودعوا سلطان المغرب ابا سعيد المريني لاحتلال الثغر باعتباره الاقدر على حمايتهم فبعث اليهم اخاه عبد الله تخلصا منه فهزمته غرناطة واسرته ثم ردت الى المغرب بعد ان زودوه بالمال ليناهض اخاه فاستطاع بمساعدة القبائل ان ينتزع الملك من أخيه ، وبعد ذلك ساد الوفاق بينه وقشتالة فاستقرت الاوضاع مثلاً لم تشهد له غرناطة مثيلاً من قبل ، فكانت غرناطة تغص بالفرسان والاشراف من الاسبان الذين اجتذبتهم ابهة بلاطها وفروسيتها ، حيث كانت تعقد حفلات المبارزة بين فرسان البلدين في اعظم ساحات المدينة ، في احتفالات مبهرة تحضرها الفتيات سافرات ؛ وتمتعت غرناطة في عهده بالرخاء والامن ، وتوفى السلطان عام 820هـ/1417م بعد حكم دام تسعة اعوام وخلفه ابنه الايسر .

الايسر (الانقلابات ودعم قشتالة وفتنها)

تولى الايسر عام 820هـ/1417م ؛ وكان سئ الخلال متعاليا ؛ خفف من سوء خلاله لين وزيره يوسف بن سراج زعيم اسرة من اعرق البطون العربية في غرناطة ، ثارت عليه غرناطة وخلعته عدة مرات لكنه استرد عرشه كل مرة ، وكان عهده مضطربا فتربص به الاسبان مستغلين ضعف مركزه بين الاندلسيين ، وكانت قشتالة تشجع الثوار الذين يستلهمون وحيها ثم هاجمته عام 831هـ/1428م فزادت الامور اضطرابا ، فزحف الثوار على غرناطة لاهماله رد عدوانها ، فهرب الايسر الى تونس ليحتمي بسلطانها ابا فارس الحفصي .

أقام الغرناطيون محمد بن محمد بن يوسف (الثالث) الملقب بالزغير ملكا و تتناقض الروايات حول قرابته من الايسر

فقاتل بأنه ابن اخيه وقاتل بأنه ابنه ، وهرب يوسف ابن سراج وزير الايسر الى قشتالة من بطش الزغير ، ونجح بالاتفاق معها على اعادة الايسر للعرش بمعونة سلطان تونس الذى زوده بفرقة من الفرسان التونسيين وهدايا لملك قشتالة ، فعبر الايسر الى الاندلس ونزل فى المرية فاستقبله الشعب بحفاوة ، و لما علم الزغير بقدومه ارسل للقبض عليه ، فانضم معظم الجند اليه ، فتقدم الايسر وحاصر غرناطة بشدة فسلمها اليه انصار الزغير ، ودخلها عام 1430م وسط ترحيب شعبي ، وقبض على الزغير وقطع رأسه وانتهت ولايته بعد حكم عامين وبضعة اشهر.

بعدما نظم الايسر الامور حاول تجديد الهدنة مع قشتالة فرفض خوان الثانى الا بعد ان يسدد لقشتالة ما انفقته لاسترداد عرشه وفوقه جزية سنوية اعترافا بالطاعة ؛ فرفض الايسر ولم يعبا بتهديدات قشتالة التى ما كادت تنتهى من الفتنة الداخلية حتى هاجمت غرناطة ، لكن الايسر تمكن من ردها فعاود ملك قشتالة الهجوم على عدد من الحصون وسبى وغنم .

الحجاج يوسف بن المول

الاستعانة بقشتالة لاغتصاب الحكم

ومع تدهور الوضع وانقسام غرناطة شيعا متنافسة ؛ بدأت الفتن من جديد والتف خصوم الايسر حول الحجاج يوسف بن المول وام ابنة السلطان محمد بن يوسف بن الغنى بالله ، وهو امير قوى وافر الثراء انتهاز وجود خوان الثانى ملك قشتالة معسكرا بالقرب من غرناطة يراقب الاحداث فلجأ اليه طالبا العون ووقع معه معاهدة فى 7 محرم سنة 835هـ / 16 سبتمبر 1431م بأن يحكم باسمه وتحت طاعته وعقد معه وثيقة خضوع ، يقر فيها بأنه من اتباعه وخدامه ، وانه سيحضر جلسات الكورتس بنفسه ان كان منعقدا جنوب طليطلة او بمندوب ان انعقد فى قشتالة ، وأن يدفع له عشرون الف دينار من الذهب جزية سنوية ويمده بالف فارس لمحاربة اعدائه نصارى كانوا او مسلمين ؛ وتعهد لخوان الثانى بتحرير الاسرى النصارى اذا حاز العرش ، وبالمقابل تعهد ملك قشتالة بالصلح معه وابنائه من بعده وأن يكون فى عونه ضد اعدائه من المسلمين او النصارى والا يحمى من يلتجئ اليه من الاعداء.

وتنفذا للاتفاق ارسل الملك خوان الثانى قوة غزت مرج غرناطة وهزمت الايسر هزيمة شديدة ؛ ومد يوسف بقوة قشتالية مكنته من غزو بعض القواعد وهزم الايسر ودخل غرناطة فى يناير 1432م ؛ وفر الايسر الى مالقة التى بقيت على طاعته .
و بعد ايام من دخوله غرناطة وقع يوسف عهد الخضوع لقشتالة فى 27 يناير 1432م على غرار ما فعله وندم عليه رأس الدولة النصرانية من قبل ؛ ولم يمتد العمر به فمات بعد ستة اشهر لكبر سنه ومرضه ، فردت الاحزاب الايسر الى عرشه.

عودة الايسر للحكم

مهادنة ومجاهدة قشتالة

وطلبه معونة مصر

بعد عودة الايسر الى العرش بادر بعقد السلم مع قشتالة لمدة عام ، وكعادتها لم تحترمها وجاست فى اراض غرناطة فهزمها المسلمون وقتلوا واسروا عدد كبير من القشتاليين عند مدينة ارشدونة عام 838هـ/1434م ، وتمكن الايسر فى العام التالى من هزيمة قشتالة اكثر من مرة فى اهواز غرناطة ووادي آش ؛ فعندما اغار القشتاليون على وادى اش واستولوا على بعض الحصون وهاجموا جبل طارق ؛ باغتهم الاهالى وهزموهم وقتلوا قائد الحملة وكثرة من جنودها 840هـ/1436م ؛ وتقاتل الفريقان قرب كازورلا واصيبا بخسائر فادحة لكن النصر كان لحليف المسلمين ، وساد الهدوء بعد ان هدت الخسائر الجسيمة الطرفين .

الاتصال بمصر

ولما اشتدت قشتالة من جديد أرسل الايسر فى اواخر عهده سفارة الى سلطان مصر الظاهر جقمق فى رجب عام 844هـ/

ديسمبر عام 1440م (117) طلبا للعون والاتحاد فوعده بمخاطبة ابن عثمان (يقصد العثمانيين) لنجدة الاندلس ؛ ولما اكد سفراء الایسر له ان الطلب موجه الى مصر اعتذر عن تقديم عون عسكري لبعد الشقة ، ولما طلبوا دعما ماليا وعتادا ودهم ولكن الاخبار لم تُفد بوفائه بذلك (118).

خلع الایسر والتنازع على الملك

رغم بلاء الایسر في الجهاد الا ان سوء ادارته الداخلية اثار غضب سادة غرناطة ؛ وانقسموا الى فريقين لجأ الاول منهم الى ملك قشتالة ومنهم الامير يوسف بن احمد حفيد السلطان يوسف الثاني وابن عم الایسر ، والفريق الاخر ناصر بزعامة الامير محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله الملقب بالاحنف الذي افلح في دخول غرناطة سرا هو وعصبته واخذ في تأجيج الثورة ؛ ولما وجد الفرصة مواتية هاجم الحمراء وقبض على الایسر وزج به في السجن ونادى بنفسه ملكا في اوائل 1441 م ، الا ان الامور لم تستقر له فقد كانت معظم الاسر الكبيرة تعارضه لقسوته وتؤيد الامير يوسف بن اسماعيل اللاجئ الى قشتالة ؛ وكان من مؤيديه الوزير ابن عبد البر بنى سراج الذي تمكن من السيطرة على قرطبة لعدة اشهر ، في الوقت الذي تمكن فيه الامير يوسف من مغادرة قشتالة واستقطاب بعض البلاد والحصون في غرناطة الى جانبه.

ولما استرد الاحنف غرناطة في اوائل 1446م تحالف مع اراجون للتفرغ لتعقب يوسف بن اسماعيل وحليفته قشتالة فتمكن من هزيمتها هزيمة شديدة قرب جنجالة سنة 1450م ؛ أدت بملكها خوان الثاني الى تسوية خلافاته مع اراجون وتعزيز مساعدته للامير يوسف بن اسماعيل وزوده بقوات للتصدى للاحنف فهزمه ووصل الى العرش سنة 1454م .

تبدل الملوك على غرناطة

وسقوط جبل طارق

وتداعي دولة بني مرين داعمة الجهاد

تناوب على حكم غرناطة في فترة زمنية قصيرة العديد من الملوك يتبدلهم المعارضون من الامراء وزعماء الطوائف الاقوياء ومعهم قشتالة احيانا او ورائهم في فترة تردى فيها الوضع الداخلي نتيجة الإضطراب بين زعماء الطوائف بما هدد كيان الدولة خاصة الإضطراب بين بني سراج وبني الثغرى ، فتولى الامير سعد بن علي حفيد يوسف الثاني لمدة اربعة اعوام ، وأعيد السلطان يوسف الخامس بن اسماعيل للحكم وكان عادلا محبا للإصلاح والانشاء ، وفي اول عهده هادن خوان الثاني ملك قشتالة واعلن خضوعه له وأدى له الجزية اغتناما للسلم للتفرغ للوضع الداخلي وعندما حاول القضاء على بني سراج تفجرت فتنة خطيرة. وبعد موت خوان الثاني عام 1454 رفض السلطان ابن اسماعيل اعلان الطاعة لهزنى الرابع ملك قشتالة الجديد واغار عليها ؛ فرد هنرى بغزو اراض غرناطة بجيش كثيف وعاث قتلًا وسببا ؛ الحق به المسلمون خسائر فادحة ؛ وكان اخطر حدث في تلك الاثناء سقوط جبل طارق عام 1462م عندما فاجأ الدوق مدينا سيدونيا حامية بني مرين المغربية ، فكانت ضربة قاسية عزلت غرناطة وسدت طريق تواصلها مع المغرب التي تضاعل مددها لتداعي دولة بني مرين (1464م) التي تعهدت دعم الاندلس على مدى قرنين .

¹¹⁷ (اختلفت الرواية المصرية في اسم سلطان غرناطة فيسميه السخاوى /عبد الله بن محمد ابن نصر و يسميه المقرئى / الغالب بالله عبد الله بن ابي الجيوش نصر وليس الایسر وحسب رأى محمد عنان كاتب نهاية الاندلس ومصير العرب المتتصرين يرى ان المقصود هو الامير محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله الذى تولى اوائل 1441م .
¹¹⁸ (نهاية الاندلس ومصير العرب المتتصرين ص 147 و148 .

الفصل الثانى السقوط (868 - 897هـ / 1463-1492 م)

انقسام غرناطة

نزاع اسرة المستعين بالله على العرش

فى عام 1463م هاجم الامير سعد المستعين بالله (ابن الاحمر) الحمراء واستولى على العرش بعد فرار السلطان اسماعيل ، وما كاد يقعد على العرش حتى ثار عليه ابنه ابو الحسن بتحريض من بنى سراج واخرج والده من غرناطة وتولى حكمها وهو فى الثلاثين من العمر ، ولما اشتد ضغط النصارى علي ابو الحسن صالح والده عام 868هـ ؛ وفى اخر العام مات المستعين بالله ، ودب الخلاف من جديد حول العرش بين أبنائه أبو الحسن الحاكم الفعلى واخويه ابى الحجاج انتهى بوفاة الاخير بينما استمر الصراع مع اخيه الاخر السيد ابو عبد الله محمد المعروف بالزغل (اى الشجاع) والى مالقة ؛ (119) ؛ فى وقت قويته فيه شوكة الاسبان بتوحد قشتالة وارجون تحت عرش واحد ؛ فلجأ الزغل الى قشتالة عام 874هـ/1469م وطلب العون من هنرى الرابع ملك قشتالة عام 1469/874م لمعاونته ضد اخيه ، فبادر السلطان ابو الحسن بالاغارة على قشتالة عام 1470م ثم فى العام الذى يليه وانتزع بعض أراضيها.

فى تلك الاثناء ثار الفرسوطى حاكم مالقة على السلطان واستدعى الثوار ابو عبد الله محمد الزغل اخو السلطان من قشتالة واقاموه ملكا ، فإتشغل السلطان الذى لم يفلح فى استعادة الثغر بمقاتلة اخيه عن مناجزة قشتالة لمدة ثلاثة اعوام انصرفت فيها هى ايضا الى معالجة خلافاتها الداخلية حتى عام 1474م ، وبذلك انقسمت المملكة شطرين متناحرين انتهى الامر بينهما بهدنة تعترف بالامر الواقع ، وفى نفس الوقت وقعت هدنة بين المسلمين و قشتالة التى تفرغت للتصدى لغزو ملك البرتغال ارضيها فى الفترة ما بين 1475م و حتى فبراير 1476م ارتد بعدها البرتغاليون .

وحدة قشتالة وارجون

ومحاولات ابو الحسن التفاهم مع قشتالة

فى تلك الاونة 1474م ، مات هنرى الرابع ملك قشتالة وال حكمها الى اخته الاميرة ايزابيلا زوجة الامير فرديناند ابن عمها وريث العرش الارجونى ؛ وفى عام 1479م تولى زوجها عرش اراجون بعد تنازل ابيه ، وبذلك توحدت المملكتين لأول مرة تحت عرش واحد واصبح النضال موحدا ضد غرناطة المنقسمة والضعيفة امر واقع خطير وادرك الاسبان ان تشديد الضغط فى هذه الاونة (120) التى يقتتل فيها الغرناطيون سيثمر بنجاح الاستراتيجية طويلة المدى التى اتبعوها للاسترداد . فرفض فرديناند وايزابيلا وهما يقدران الوضع فى غرناطة على وجه صحيح ؛ محاولات ابو الحسن عام 883هـ/1478م تجديد الهدنة الا باعلانه الخضوع لهما وتأدية الجزية السنوية التى كان يؤديها السلاطين قبله فرفض ، فأغار قشتالة على حصن بللنقة واستولت عليه ؛ فرد ابو الحسن باسترداد حصن الصخرة وقتل حاميتها وسبى سكانها فى ديسمبر عام 1481م . فى تلك الاونة إحتدم الصراع بين زوجتا السلطان لاقتناص السلطة كل لاولادها ؛ مما أوصل السلطان لإعتقال زوجته الحرة وولدها منها بتحريض من محظيته الاسبانية التى سعت لاغتنام العرش لابنها ، لكن الاسيرين الملكيين تمكنا من الهروب الى وادى

¹¹⁹ (وهذا التاريخ ورد على لسان رحالة مصرى زار البلاد عام 870هـ وتابع احداثها الى عام 887هـ / 1482م ، هو عبد الباسط بن خليل الحنفى فى كتابه الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم - المرجع السابق ص153 .

¹²⁰ (لم ينشأ عن زواج فرناندو ملك اراجون وايزابيلا ملكة قشتالة توحيد المملكتين فى إسبانيا موحدة ، فقد ظلنا عرشين مستقلين ويوقعان معا على الرسائل ويخطبهما رؤساء الدول الاخرى ثنائيا، ورغم تصريف فرناندو امور الحرب مع غرناطة وحده الا ان ايزابيلا ظلت الملكة الحاكمة ، وعكست وصيتها عام 1504 هذا المعنى فقد حددت أنه حال موتها على فرناندو تسليم تاج قشتالة لخوانا وريثتها المباشرة وهو الوضع الطبيعى الذى ارادت به الملكة الحاكمة لقشتالة حرمان زوجها من ارتقاء العرش .

آش ونازعا والدهما السلطان.

هاجمت قشتالة آنذاك في فبراير 1482م / محرم 887 هـ غرناطة واستولت على المنطقة الواقعة بين غرناطة ومالقة وعجز السلطان عن استردادها بالرغم من هزيمته قشتالة أمام لوشة في 887 هـ يوليو 1482م واستولى منهم على بعض الانفاط التي تستخدم في حصار المدن .

وعند عودة السلطان غرناطة فوجئ بثورة مؤيدى ابنه ابو عبد الله بسبب مفاصده وتعصفه هو ووزيره ، ففر السلطان الى اخيه الزغل في مالقة وهي تحت حصار قشتالة ، وفي اواخر عام 887 هـ تربع ابو عبد الله على العرش وهو في العشرين من عمره فأطاعته وادى آش بينما بقيت مالقة وغرب الاندلس على طاعتها لابيه السلطان.

ولما كان الجهاد في الاندلس له تقديره بين اوساط الشعب الذى يستشعر الخطر المحدق به ؛ اجتاح ابو عبد الله عددا من الحصون 888 هـ/1483م وهزم قشتالة في عدة معارك لكنها أسرته اثناء عودته ، فأعادت احزاب غرناطة السلطان ابو الحسن الى العرش لكنه لكبر سنه وكفاف بصره (مات ابو الحسن عام 890 هـ/1485م) تنازل عنه لاختيه الزغل.

تمكن الزغل من تكبيد الجيش القشتالي خسائر فادحة في صفر 888 هـ/1483م في معركة الشرقية ؛ كما إنتزع بمساعدة مؤيديه المرية من يد يوسف ابو الحجاج ابن اخيه السلطان السابق ؛ ويقال ان ذلك تم بايعاز من اخيه السلطان نفسه بسبب توسع المد القشتالي (الإستيلاء على رندة عام 890 هـ/ابريل 1485م وتهجير اهلها رغم وعد الامان ، ومحاولة الاستيلاء على ماكلين لكن الزغل الذى كان بالمدينة يجدد حصونها هزمها في 890 هـ/يوليو 1485م.

بعد انتصار المسلمون في ماكلين ، رأى فرديناند ملك قشتالة ان يستفيد من اسيره الملكى ابو عبد الله في تأجيج الموقف في غرناطة بين الفريقين المتنازعين وليروج الانهزامية بين المسلمين ويحرضهم على الاستسلام ليغت عضد المسلمين ؛ فأطلق سراحه بعد ان إطمأن الى تعاونه وحصل منه على عهد بالخضوع ؛ فأعلن ابو عبد الله نفسه ملكا واخذ يدعو للسلام مع قشتالة ودخول الامان معها بضمانته ، وعمل على تأجيج ثورة حى البيازين الشعبى داخل غرناطة عام 891 هـ/1486م واهل الحى معروف عنهم انهم دائما عنصر فتن ؛ وانتهت الفتنة بعد شهرين باتفاق يحكم فيه ابو عبد الله المناطق الشرقية تحت طاعة الزغل .

وفي 891 هـ/1486م كان ابو عبد الله متحصنا ب لوشة عندما إستسلمت بعد دفاع مجيد الى قشتالة مقابل الامان والرحيل باموالهم ، فأخذه فرديناند واطلق سراحه بدون سبب واضح بعد ان أمده بالسلاح والرجال لمناجزة عمه ، فى وقت إزدادت الفتنة اشتعالا بين اهل البيازين لانشغال الزغل إنشغل عنها بمواجهة هجوم قشتالة على بلش مالقة فى ربيع 829 هـ/مارس 1487م التي سقطت فى ايدي القشتاليين ، وعند عودته من المعركة علم الزغل بدخول ابو عبد الله غرناطة فى ابريل من نفس العام بناء على رغبة اهلها ؛ طمعا فى ان تنقذهم محالفته الاسبان من النهاية المأسوية المحتومة ، فارتد الزغل الى واد آش وتحصن به وانقسمت المملكة بذلك الى شطرين .

توالى بعد ذلك سقوط المدن الاندلسية ، واستولى الاسبان على سلسلة من الحصون المحيطة بغرناطة رغم مقاومة اهلها الباسلة بفضل استخدام الانفاط (121)؛ وكان مصير اهلها الطرد ، وهاجمت قشتالة مالقة اخر ثغور المسلمين واستولت عليها بعد ثلاثة شهور من الحصار الشديد وذلك فى اواخر شعبان 829 هـ/اغسطس 1487م ؛ بعد ان حصل اهلها على امانا حنت به فرديناند بعد ذلك عندما قرر إستعبادهم اوفتداء انفسهم ، وقدم السفن لمن شاء الرحيل الى المغرب ؛ ولم يُسمح للاخريين منهم بالاقامة فى غرناطة وان كان قد إستثنى البعض وسمح لهم بالاقامة فى قشتالة .

¹²¹ (استخدم العرب الانفاط ضد لويس فى المنصورة على نحو ما سيرد لاحقا واستعمله الموحدون فى حصار لبة 655 هـ/1257م ضد جيوش الفونسو العاشر ملك قشتالة ؛ واستخدمها الاندلسيون فى حصار بياسة 724 هـ/1324م فى عهد ابو الوليد اسماعيل وفى وادى لكة 1340م وفى الدفاع عن الجزيرة 742 هـ/1342م فى عهد ابى الحجاج يوسف ، و لم يتمكن الاندلسيون بعد سقوط ثغورهم من الحصول على موادها فى الوقت الذى استخدمها الاسبان بكثرة بعد ان استنسخوها من الاندلسيين وتوفرت موادها لديهم .

إستغاثة الأندلس بدول الإسلام هوان أمة على أمتها

موقف سلاطين بني مرين

كان مسلمو الأندلس كلما اشتد بهم الأمر استجدوا بملوك المغرب أيا كانت دولهم سواء المرابطين والموحدين والمرينيين ، فنصرهم المرابطون في معركة الزلاقة والموحدون في معركة الأرك وانهزموا والأندلس في معركة العقاب التي أدنت بزوال الإسلام من إسبانيا ، أما بنو مرين فقد استماتوا في الدفاع عن الأندلس وهي تنازع الرمي الأخير إلا أنهم لم يتمكنوا من تحقيق انتصارات ساحقة كتلك التي حققها المرابطون في معركة الزلاقة، والموحدون في معركة الأرك ، ويرجع هذا إلى أن المرينيين كانوا يقاتلون بإمكانياتهم الذاتية بينما كان المرابطون والموحدون يقاتلون بإمكانيات المغرب العربي كله ، فالسلطان المريني أبو يوسف المنصور (815 هـ/1286م) عبر إلى الأندلس أربع مرات لإغاثة أهلها ووصلت جيوشه إلى طليطلة، وقرطبة بل إلى مدريد وهي قريبة من آخر معقل وصل إليه الإسلام في الأندلس، فأطال عمر غرناطة وإنقاذها من الانهيار السريع أمام ضربات ملوك قشتالة وأرغون .

ومهما كان فإن بني مرين ساهموا بدور فعال في حماية الأندلس قبل أن يدخلوا في دوامة من الفوضى والاضطرابات الداخلية والخارجية مع جيرانهم من جهة ثانية بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كان يمر بها المغرب في هذه الفترة من تاريخه على وجه الخصوص ، والتي حالت دون تمكن المرينيين أو الوطاسيين ليس فقط من إنقاذ الأندلس بل جعلتهم عاجزين حتى عن حماية سواحلهم من الاحتلال الإسباني والبرتغالي ؛ ويصف الرحالة المؤرخ المصري عبد الباسط بن خليل الحنفي أوضاع المغرب في هذه الفترة من خلال مشاهدته خلال زيارته شمال إفريقيا في مطلع القرن السادس عشر، فيقول " ووقع بفاس وأعمالها خطوط وحروب وفتن وأهوال، وفساد عظيم، وخراب بلاد وهلاك عباد ، وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة مدن من منابر العدو مثل طنجة وأصيلا وغير ذلك.. ولا زالت الفتن والشرور قائمة مستحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا" ؛ ويقول المؤرخ الأندلسي المجهول الذي عاصر مأساة غرناطة عن عدم قدرة المغرب الرد على إستغاثة أهل الأندلس بملوك المغرب، فيقول "إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم ، فلم يأتنا أحد منهم ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا، وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفا ، والمدد يأتيه من بلاده، ونحن لا مدد لنا..."

موقف سلاطين الحفصيين

وعندما لا يجد أهل الأندلس من ملوك المغرب أذانا صاغية ؛ كانوا يستغيثون بملوك بني حفص في تونس فعندما سقطت بلنسية أرسل أهلها إلى أبي زكريا الحفصي يستمدون منه النجدة والمدد ، وجعلوا على رأس بعثتهم شاعرهم ابن الأبار القُضاعي الذي ألقى بين يديه قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها قد درسا

ولجأ إليه كذلك أهل إشبيلية وأهل المرية طلبا للمدد ولكنه لم يكن يملك القوة الكافية التي تمكنه من اقتحام الأندلس والقضاء على رؤوس الفتنة من ملوك الطوائف ، وإنما اكتفى بإرسال أسطول مشحون بالمؤن والسلاح والمال لم يصل إلى المحصورين في بلنسية ، وأرسل مددا آخر أثناء حصار إشبيلية استولى عليه الإسبان ، وأثناء حصار غرناطة وهي في الرمي الأخير لم يكن بمقدور الدولة الحفصية التي كانت تعيش آخر أيامها كات عاجزة عن صد أي عدوان داخلي أو خارجي بل أن سواحل تونس نفسها لم تنج من الاحتلال الإسباني.

موقف ملوك الدولة الزيانية

وممن لجأت إليهم الأندلس ملوك بني زيان ؛ فعندما ضيق الإسبان الخناق على غرناطة أستجد أبو عبد الله ملكها بأبي حمو الزياني بقصيدة من نظم الشيخ الفقيه أبي البركات محمد بن أبي إبراهيم البلقيي مطلعها :

هل من مجيب دعوة المستجد أم من مجير للغريب المفرد

وبرسالة من إنشاء الوزير ابن الخطيب يذكر فيها أنهم : "... لم يعانوا منذ أن فتحت الأندلس شدة، وضيقا أشد مما هم عليه الآن

؛ وذكر بأن ملك النصارى جمع لهم جيوشا من سائر الأمم النصرانية وقاموا بإحراق الزروع ، و ليس للمسلمين مغيث يلجأون إليه - بعد الله - سوى إخوانهم في الدين ؛ وذكر أنهم أعلموا الميرنيين بهذا الخطر وأنهم يقومون بما يقدرون عليه من دعم ومساندة ولا يملكون غير أنفسهم وقد بذلوا في سبيل الله وهم ينتظرون نجاتكم " .

ولما كانت المملكة الزيبانية تعيش نفس الظروف المتدهورة كبقية دول المغرب العربى ولا تؤهلها ظروفها حتى للدفاع عن نفسها وتعذر عليها تقديم أي دعم جدي لأهل غرناطة ؛ قام أبو حمو الزيباني بإرسال الأحمال العديدة من الذهب والفضة والخيول والطعام ؛ وبفضل هذا المدد أمكن لأهل غرناطة أن يثبتوا للدفاع عن مدينتهم فترة أطول.

موقف مصر

بعثة الزغل الى مصر

أثناء حصار قشتالة مالقة في يونيو 1487م ارسل السلطان الزغل استغاثة الى ملوك الاسلام في المغرب وتونس ومصر والقسطنطينية ، ولم تكن دول الاسلام بعيدة عن اخبار الاندلس ، فقد كانت شعوب الاسلام تتابع نضال شعبها شغفا وجزعا وحسرة على عدم القدرة على نجاتهم ، وروج شعر ابن الخطيب الوزير والعالم الاندلسي الشهير اخبار المأساة الاندلسية ، والشعر عند العرب من اهم وسائل تداول الاخبار، كما تتبع ابن اياس المؤرخ المصرى اخبارها اولا باول ، كما اذاعت رحلات كل من ابن بطوطة وابن خلدون اخبار الاندلس ، وتناقلها التجار المصريون الذين كانوا على علاقات تجارية وثيقة مع ثغور الاندلس في مالقة والمرية كشهود عيان ومنهم عبد الباسط بن خليل الحنفى المصرى فى كتابه الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم ؛ الذى زار البلاد فى عام 870هـ وتابع احداثها الى عام 887هـ/ 1482م .

وصلت سفارته الى مصر فى نوفمبر عام 1487م بعد سقوط مالقة ؛ وتسلمها السلطان الاشرف قايتباى وتضمنت طلب تجريدة لان غرناطة على وشك السقوط ، ولما كانت الظروف فى مصر غير مواتية بسبب تربص الاتراك والوضع الداخلى وكانت مالقة قد سقطت ؛ إكتفى قايتباى بتقديم عون دبلوماسى (عون العاجز) يستمد فعاليته من سيطرة مصر على الاراضى المقدسة فى بيت المقدس ، فأرسل سفارة من راهبين من رعاياه النصارى احدهم القس انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس الى كل من البابا انوسان الثامن وفرديناند ملك نابل (نابولى) ، و فرديناند وايزابيلا ملكا قشتالة وارجون المتحدتين بصفتهم المعنيين الرئيسيين بعاتبهما فيه لما يحدث على ايديهم للمسلمين فى الاندلس ، وطالبهم بالكف عن ذلك ورد الاراضى التى حازوها من المسلمين ، وهدد بمنع الحج والتكبير بكنائس الاحبار وهدم جميع الاديرة فى الاراضى المقدسة .

وصلت السفارة الى مقصدها الاخير اسبانيا عام 1489م بعد عام ونصف من انطلاقها ، و جاء رد فرديناند وايزابيلا اصحاب اليد العليا فى الامر وديا مصحوبا ببعض الهدايا انكرا فيه الاتهامات فيما يحدث للمسلمين وانهم يتمتعون بحقوق المواطنة كالمسيحيين ، واكدا بقوة على اصرارهما على استرداد الاندلس لانهما لا يستطيعان صبرا على ترك ارض الاباء والاجداد فى يد الاغراب (122) .

وتردد بعض المصادر الغربية أن دول المشرق التى اثارها السقوط السريع للقواعد الاندلسية قررت نجدة الاندلس ، وان بايزيد الثانى سلطان الترك والاشرف قايتباى سلطان مصر تهادنا رغم المعارك الدموية بينهما واتفقا على انجاد الاندلس بان تقوم تركيا بإرسال اسطول قوى لغزو صقلية الخاضعة لمملكة اراجون لشغل فرديناند وايزابيلا وان تبعث مصر وافريقية (تونس) جندا كثيفا يعبر الى الاندلس لنجدها ، ويبدو ان الامر ليس الا شائعة اكثر منها حقيقة .

كرر الأندلسيون الاستغاثة فى عهد الملك الأشرف قانصو الغوري (1501-1516) سلطان المماليك فى مصر والشام ، داعين إياه أن يتوسط لدى الملكين الكاثوليكين فرديناند وايزابيلا لاحترام معاهدة الاستسلام ووقف أعمال الاضطهاد ضد المورسكيين ، فأرسل الغوري وفدا إلى الملكين يبين لهما أنه سوف يجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام ، إذا لم تراع الاتفاقات السابقة بينهما وبين المسلمين .

فأرسل إليه الملكان فرديناند وايزابيلا ردا حملته الحبر بييترو مارتيري دى انجلريا فى اغسطس 1501م ، ينوها فيه بخسن معاملتهما للمسلمين فى اراض الاسبان ، ووصل الحبر القاهرة اواخر يناير 1502م واستقبله الاشرف جان بلاط الذى انهى اللقاء بعد اعتراض البعض ومنهم مهاجرين اندلسيين على استقبال رسول ملك استولى على ارض المسلمين ، وعاد الاشرف تحت الحاح الحبر واستقبله سرا فى 6 فبراير 1501م وتلقى منه شهادات الموانى المغربية تفيد بوصول الاسر المسلمة اليها دون مشاكل كما انه ليس هناك تنصير اجبارى ، و لم يكن السفير الحبر صادقا فيما يتعلق بالتنصير الاجبارى الذى كان قد بدأ فعلا ومعه محاكم التفتيش التى استأنفت مهامها منذ عام 1499م والادى ان الحبر حصل من قانصو الغوري على اعفاء نصارى بيت المقدس من الفروض والمغارم اى الضرائب .

موقف الدولة العثمانية

فى عهدى السلطان محمد الفاتح وابنه السلطان بايزيد الثانى

ارسل أهل غرناطة فى منتصف سنة 1477 قبل سقوط غرناطة بأربعة عشر عاما ؛ سفارة الى إستانبول وجهت فيه نظر السلطان محمد الفاتح إلى تدهور أوضاع المسلمين في الأندلس وناشدوه التدخل لإنقاذهم ، لكن الظروف لم تساعد السلطان الفاتح لأنه كان هو الآخر يواجه تحالفا صليبيا ضم البابا سكست الرابع (1471-1484)، وجنوة ونابولي والمجر وترانسلفانيا وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس وعددا من الزعماء الألبان الذين كانوا يضمرون عداء شديدا للدولة العثمانية. وبعد وفاة الفاتح عاود الأندلسيون الكرة مع ابنه السلطان بايزيد الثانى (1480-1511م)، الذى تزامنت عليه التزامات الداخلية والخارجية (صراعه مع أخيه جم (1481-1495م) - حربه مع المماليك فى أدنة فى الفترة 1485-1491 وحربه مع التحالف الصليبي (الذى ضم ترانسلفانيا والمجر والبندقية وفرنسا والبابا يوليوس الثانى) التى أسفرت عن تنازل العثمانيين عن بعض ممتلكاتهم ، ورغم ظروفه الصعبة لم يهمل السلطان بايزيد استغاثة أهل الأندلس فأرسل إلى البابا رسولا يعلمه بأنه سوف يعامل المسيحيين في إستانبول وسائر مملكته بنفس المعاملة إذا أصر ملك قشتالة على الاستمرار فى محاصرة المسلمين فى غرناطة والتضييق عليهم ، وبالفعل أرسل أسطولا بحريا بقيادة كمال ريس إلى الشواطئ الإسبانية سنة 1486؛ قام بإحراق وتخريب السواحل الإسبانية والإيطالية ومالطا ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا ، ولكن عمليات الاسطول العثمانى لم تثن الملكين الإسبانين عن استراتيجيتهم فى إنهاء الوجود الإسلامى فى إسبانيا .

تطويق غرناطة وسقوط اخر الثغور

قررت قشتالة الضغط على الزغل باعتباره الخطر الحقيقى الذى لم يتم ترويضه ؛ فحاصرت بسطة منذ رجب 894هـ/ يونية 1489م لمدة ثلاثة شهور صمدت خلالها المدينة بإستبسال ، و لما ايس قاندها يحي النيار من النصر قبل اغراءات الاسبان السخية مقابل الاستسلام ووقع اتفاقا معهم فى ديسمبر يضمن له ولاهله (ولده وابناء عمه) حقوقا مميزة ، ويقضى الاتفاق بقبول فرديناند وفيما يلى النص " والا تدفع انت واهلك واعقابك وحشمك اى جزية او مغرم ابدا فى سائر مملكتى ، واذا تنازل صهرك ملك وادى اش(يعنى الزغل) عن نصف الملاحات التى اهبها اليه ادفع لك خمسمائه وخمسون الف مرافيدى فى ملاحات دلالية ، واذا تم تسليمى وادى اش فى الموعد المحدد اكافئك على جهودك فى خدمتى بعشرة الاف ريال ، واذا صحت عزيمتك على التنصر وعلى خدمتى فسوف اكتم ذلك خلال الفتح حتى لا يتقول عليك رجالك ، وسوف تستقبل التعميد سرا فى غرفتى حتى لا يعرفه المسلمون الا بعد تسليم وادى اش (123) " .

وبناء على هذا الاتفاق استسلمت بسطة فى ديسمبر من نفس العام وغادر معظم اهلها الى وادى اش ؛ وخلال نفس الشهر (ديسمبر) سقطت بقية الحصون اما بعد معارك شديدة او بالاستسلام بشروط سخية ، وكان الغرض من تقديم مثل هذه الشروط هو تشجيع غيرها على الامتثال لمثل هذه الاغراءات ، واثمرت خيانة يحي النيار بالتدخل لاقناع الزغل فاستسلم بشروط مناسبة من

الامتيازات معاش مناسب ونصف دخل الملاحات واحتفاظه باملاكة بشرط موافقة البابا على هذه العهود ؛ ودخل الاسبان وادى اش فى 30 ديسمبر 1489م ، الا ان كرامة الزغل منعت من الاستمرار فى هذه الاتفاقية ، فنزل عن حقوقه لقاء مبلغ ضخم ورحل الى المغرب ومعه كثير من الكبراء ووصل وهران واستقر فى تلمسان.

وبذلك جاء الدور على الجزء الخاضع للسلطان ابو عبد الله وهو جزء صغير متبقى من غرناطة لم تلتهمه قشتالة بعد ، فتقدم الاسبان للاستيلاء على ثغور المنكب والمرية المنفذ البحرى المتبقى مع المسلمين الذى يعتمدون عليهما للحصول على المؤن ، وكان لابد من الاستيلاء عليهما لاحكام الطوق على الاندلس فاستسلمت الاولى فى ديسمبر 1489م/895هـ واستسلمت الاخيرة فى فبراير من العام التالى .

الفصل الثالث نهاية الاندلس سقوط غرناطة وزوال حكم الاسلام

سقوط الحمراء

واستسلام ابو عبد الله

طلب فرديناند من ابو عبد الله تسليم حصن الحمراء لكنه ماطل وارسل الرسل اليه يثنيه عن هذا المطلب ، ولما فشلت جهوده قامت الحرب وتقدم فرديناند حتى حاصر غرناطة في 1490م لكنه انسحب بعد معارك دموية ؛ خرج بعدها السلطان ابو عبد الله ليسترد بعض الحصون فاستولى على اندرش 895هـ (استردها الاسبان بعد اسابيع) وعلى همدان في رمضان 895هـ / اغسطس 1490 م وغنم منها ذخيرة واطعمة كثيرة واسر منتين من جنودها ، ثم توجه الى ثغر المنكب في اخر رمضان لاعادة الصلة مع المغرب فتحرك الاسبان لاجادها .

شجع هذا الخروج الجهادي اهل البشرات ووادي اش للانتفاضة ضد الاسبان ، وبعث الثوار الى السلطان طلبا للعون والنجدة ، وخرج اهل وادي اش الى الروابي خوفا من القتال فنقلهم ابو عبد الله الى غرناطة ولحق بهم اهل المرية وبسطة؛ هنا قرر فرديناند ان الوقت قد حان للاجهاز على غرناطة فقد اصبحت منهكة وضعيفة بما يكفي لاسقاطها ، فهي في رمقها الاخير ولا حليف ينجدها ؛ فالمغرب حليفها التاريخي الوحيد بات في حالة من الضعف غير قادر معها على التحرك او حتى تقديم النجدة ؛ لخشيته من بأس اسبانيا البحرى في وقت إنشغل فيه بمواجهة البرتغال التي احتلت معظم ثغوره بما فيها سبتة وطنجة.

أعد فرديناند خمسون الفا من الرجال مزودين بالمدافع ، وخرج اوائل عام 1491م واتلف ما حول غرناطة من مزارع وهدم قراها وقتل واسر اهلها استعدادا لحصار غرناطة حصارا طويلا ؛ فأقام مدينة امامها لايواء جنده في الشتاء ؛ وشدد فرديناند حصاره برا على غرناطة وطوق جبال سبييرا نيفادا لمنع وصول المؤن عن طريق البشرات ؛ واطلق سفنه لمراقبة التحركات البحرية لضمان عدم تسرب المؤن من الشمال الافريقي ؛ ومع اشتداد الجوع والمرض بأهل غرناطة نتيجة للحصار الممتد ، كانت فرسانها تخرج من حين لآخر للاغارة على جيش قشتالة لرفع الروح المعنوية وكان موسى بن ابي الغسان يقود المسلمين في هذه الاغارات ، وهذا القائد الشجاع تزعم المحرضين على القتال وعدم استسلام المدينة حتى الشهادة ؛ وحث السلطان على رفض مطلب فرديناند تسليم الحمراء ، وكان ناقما على السلطان لانتهزاميته والقى في ذلك خطبة عصماء تنبأ فيها بالمصير فقال " اتعتقدون ان القشتاليين يحفظون عهودهم ، وان يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ما له من حسن الطالع ! لشد ما تخطنون انهم جميعا ظمنون الى دمناء الموت خير ما تلقون منهم ، واغتصاب نسانكم وبناتكم وتدنيس مساجدكم ، تنتظركم المحارق الملتهبة لتجعل منكم حطاما هشيما " .

وبعد ثمانية اشهر من الحصار دب اليأس بين العامة فخرجت الجماهير الصاخبة تنذر بالفوضى ، ورغم رفض العامة ومعهم موسى بن ابي الغسان الاستسلام الا ان السلطان ازاء الوضع المتردى مال ومعه زعماء اخرون الى الاستسلام فأرسل يتفاوض سرا مقابل شروط سخية لاشخاصهم لا نصيب للشعب فيها .

وثيقة إنجـليزية

تكشف معاناة غرناطة قبل سقوطها

كشف الدكتور خوسيه غوميث سولينيوي في المؤتمر الثامن عشر للغة والادب والمجتمع الأسباني في مدينة مالقة بجنوب إسبانيا عن وثيقة إنجليزية تؤكد ان الحصار الذي عانت منه مدينة غرناطة «كان أكثر شراسة مما هو معروف حتى الآن ان «اهالي غرناطة مروا بمعاناة قاسية خلال اعوام الحصار عندما قامت القوات الأسبانية بتحطيم وحرق الحقول المجاورة للمدينة مما تسبب في مجاعة رهيبة بين السكان ، ولهذا السبب اضطر الاهالي إلى أكل الكلاب والقطط ، وان العرب دفعوا ثمنا باهظا للغاية بسقوط آخر جوهرة لهم في أوروبا ؛ ويذكر المؤلف ان عدد القوات التي حاصرت غرناطة كان أكبر بكثير من عدد القوات الغرناطية.

وتستعرض الوثيقة أيضا للكنوز الهائلة التي حصل عليها الأسبان بعد الفتح «ففي مسجد غرناطة كان هناك 300 مصباح من الذهب والفضة.. وعثر ملك إسبانيا على كميات هائلة من الذهب وبها بنى الكنيسة مكان المسجد» ، ويذكر المؤلف الإنجليزي ان «الملك فرناندو لم يسمح للمسلمين الا بما يستطيع كل واحد منهم ان يحمله على ظهره من حاجات، ما عدا الذهب والفضة والسلاح»، ولهذا فان الجيش الأسباني وجد عند دخوله المدينة الآلاف من الأسلحة من سيوف ودروع ومناجيق؛ ويقول د. غوميث سولينيو ان انهيار الحكم العربي في هذه المدينة كان له صدى كبير وواسع جدا ليس فقط في إسبانيا وانما في كل أوروبا، فأقيمت الصلوات في العديد من المناطق.

مفاوضات الاستسلام

تولى القائد ابو القاسم عبد الملك والوزير يوسف ابو كماشة التفاوض منذ بداية سبتمبر الى 25 نوفمبر 1491م ، وتم التوقيع على اتفاقا يضم 56 مادة تنص على " تسليم المدينة خلال ستين يوما على ان يرتفع السلطان قبل تسليم الحمراء بيوم خمسمائة رهينة من بينهم ابن السلطان واخوة وابناء الزعماء لدى قشتالة لمدة عشرة ايام لإصلاح قصر الحمراء ، ويتعهد فرديناند ومن خلفه الى الابد بترك الشعب (الاندلسي) بالاحتكام الى شريعتهم وان تترك لهم مساجدهم ، ويترك للمسلمين سلاحهم الا المدافع كبيرها وصغيرها ، ويحق لمن يشاء مغادرة البلاد الى المغرب ان يبيعوا اموالهم المنقولة لمن شاءوا ويحق للملكين (فرديناند وايزابيلا) شراؤها ، كما يتعهد فرديناند بتوفير السفن لنقلهم الى المغرب خلال عشرة ايام ولمدة الثلاث اعوام اللاحقة بدون اجر ، والا يرغم مسلم على اعتناق النصرانية ولا تجبر مسيحية اسلمت على الارتداد الا بعد سؤالها ؛ وضمت الاتفاقية حقوقا لليهود منها حقهم في المغادرة الى المغرب أو غيرها ؛ وضمان امن السفن المغربية القادمة لتقل المهاجرين بين البلدين(124) ، وتم في الوقت نفسه توقيع خطاب الامتيازات الخاصة باقطاع السلطان بعض الاراضي والحصون واحتفاظه واولاد واهله بممتلكاتهم ، واعفائهم من الضرائب ، ومنحه هبة بعد تسليم الحمراء مقدارها ثلاثون الف جنيه قشتالي من الذهب وتوفير السفن لنقله واهله واتباعه واموالهم نتيجة بيع اراضيهم الى المغرب ان شاء .

وتم تسليم الحمراء في 2 يناير 1492م ؛ بعد تسع وثلاثون يوما من توقيع الاتفاق وقبل موعد الستون يوما المنصوص عليه لتسليمها ؛ خوفا من عواقب الامور بعد غضب العامة لما علموا بالنصوص السرية للسلطان وخاصته ، وتفشت حالة من الصدمة والحزن بعد معرفة نصوص الاتفاق وتعالق الاصوات الغاضبة على السلطان واسرته واصحابه ؛ منادين بالمقاومة حتى النفس الاخير ؛ وترك ابو عبد الله غرناطة وهو في الثلاثين من العمر حزينا باكيا ، فأثار سُخْط والدته عائشة فأشدت البيت الشهير :

أجل فلتبك كالنساء ملكا لم تستطع ان تدافع عنه كالرجال

وانطلقت المراثي لسقوط الاندلس ؛ منها مرثية اندلسية مجهولة المصدر :

احقا خبا من جو رندة نورها وقد كسفت بعد الشمس بدورها

وفي مقطع اخر يقول :

فوا حسرتا كم من مساجد حُوت وكانت الى البيت الحرام شطورها

فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى واياتها تشكو الفراق وسورها

وكم طفلة حسناء فيها مصونة اذا اسفرت يسبى العقول سفورها

فأضحت بأيدي الكافرين رهينة وقد هتكت بالرغم منها ستورها

الى ان يقول عن التخلي عن الدين ...

وكم من صغير بدل الدهر دينه الى

وجاءت الى استنصال شافة ديننا جيوش كموج هبت دبورها

¹²⁴ (النصوص كاملة ص 236 من كتاب نهاية الاندلس ومصير العرب المتصرين .

وللايجاز نستأثر بمرثية امير الشعراء احمد شوقي التي جاء فيها :
حسبهم هذا الطلول عظات من جديد على الدهور ودرس
واذا فاتك التفات الى المــــــــــــــــاضى فقد غاب عنك وجه التأسى

استقر ابو عبد الله واسرته وخاصته من سادة الاندلس فى بلدة اندرش فى منطقة البشرات التي وهبها له فرديناند ، يقضى وقته فى الصيد ؛ ولم تغمض عينا فرديناند وايزابيلا عنه وعصبته خاصة وان الامر لم يستقر لهما بعد مع المورسكيين بسبب تدميرهم من اوضاعهم الصعبة التي يعايشونها بعد سقوط دولتهم .

وكان فرديناند وايزابيلا يفهمان جيدا قدرة هذا الشعب على تجاوز المحن والشدائد ونهوضه من بين نكباته التي خبراها فى نضال قشتالة معهم ؛ فوضعا ابو عبد الله تحت رقابة مشددة لضمان عدم تجمع الاندلسيون حوله لاثارة القلاقل ، وسعيا الى ارغامه على الرحيل الى المغرب وجرت مفاوضات من وراء ظهره فى هذا الخصوص مع وزيره فى مارس 1493م بعد عام من مغادرته الحمراء وكاد ابو عبد الله يفتك بالوزير لما علم بالامر .

ويقضى الاتفاق بتنازل السلطان المخلوع عن كافة املاكه مقابل عشرون الف جنيه قشتالى من الذهب وتنازله عن اختصاصه المدنى والجنائى ، وقيام ملك قشتالة بشراء املاك الاميرات و مرافقيه على ان يغادروا جميعا الى المغرب فى موعد اقصاه اكتوبر 1493م.

ورحل ابو عبد الله ومعه الف ومائة وثلاثون شخصا من كبراء الدولة الى المغرب حيث استقر نادما ينفى عن نفسه تهمة الخيانة والتفريط فى الاندلس قائلا شعرا :

ولا تُعاتب على اشياء قد قُدرت	وخطُ مستورها فى اللوح بالقلم
وعد عما مضى اذ لا ارتجاع له	وعد احرارنا فى جملة الخدم

الفصل الرابع
ما بعد السقوط
المأساة الإسلامية
(الهوان المورسكى)
المأساة والنضال
(897 - 1018 هـ /// 1492 - 1609 م)
(التنصير الاجبارى - محاكم التفتيش - الخروج)

معاملة الاسبان للمدجنين

(المورسكيين "الموروس" maures)

أثناء حرب الاسترداد ؛ وفى وقت ما زالت غرناطة قادرة على النضال ويُعمل لها حساب ، ولم يكن فى الافق ما يشير الى قُرب زوال دولة الاسلام فى الاندلس ؛ عامل الاسبان المسلمين (المدجنين) الذين اضطرتهم ظروف الحياة للبقاء تحت حُكمهم بلا تطرف فى معظم الاحوال ؛ ولم يبال ملوكهم منذ عام 1248م بالاحاح البابا انوسان الرابع باسترقاق او تنصير المدجنين ، ولم يكن ذلك مرجعه الرحمة الاصيلة وانما المصلحة ، فكانوا يقصدون من حُسن المعاملة تشجيع بقية المدن المسلمة على الاستسلام سلما تجنباً لعناء الحرب واعيانها .

فالبضغظ على هؤلاء المدجنين وما زال فى ايديهم سلاحا لم يُنتزع ؛ عملا خطيرا يؤدي الى القلاقل والثورة ، كما ان ترحيلهم وهم انمة المهن وعصب الحياة الاقتصادية سيقوض إقتصاد البلاد وهى ما زالت فى حاجة ماسة لخبراتهم فى جميع المجالات ، فقد كانوا يستأثرون بالتفوق فى العلوم والمهن والفنون والزراعة والطب والهندسة والبناء والصناعات الدقيقة ، وعليهم صيانة مشاريع الرى التى سبق ان اقاموها والاستفادة بخبرتهم فى زراعة المحاصيل التى سبق ان استحدثوها علاوة على ان نشاطهم الاقتصادى مصدر هام للضرائب .

وإتبع خايمي الفاتح ملك اراجون نفس المنهج المعتدل فى البداية فمنح مسلمى وادى اوشوا امتيازات كثيرة نص عليها اتفاق الامان " بأن يقلبهم من الجرائم التى أرتكبت فى الوادى ومن الديون التى عليهم لليهود وان يستمروا فى تطبيق شريعتهم وان يُعلموا اولادهم القرآن جهرا والقيام بسائر شريعتهم ويعفون من الضرائب فى السنة الاولى ويدفعون ما كانوا يدفعونه لملوكهم المسلمين " الى اخرة من قرارات سمحة مقابل تعهدهم بعدم الاقتراب من مناطق الحروب والا يساعدوا اعداء اراجون " .

بيد انه كانت هناك طوائف من المدجنين اقل حظا فى المناطق الاخرى؛ ففى بعض الحالات كان هناك حظرا على ممارسة العبادات فى العلن ، و فى حالات اخرى حصلوا على حرية التعبد وضمان الاملاك لكن فُرضت عليهم قيود ؛ فحُرم عليهم الاكل والاستحمام مع الاسبان او علاج النصارى او إتخاذهم رقيقا او خدما ، والا يتخذوا مسائل الدين المسيحى موضعا للمناقشة (125) ، وهناك حالات من التطرف فى سلوك الاسبان كانت انتقامية فى حال تكبدهم كثير من القتلى فى المعارك ، فكانوا يصبوا جام غضبهم على الاسرى واهل المنطقة.

وفى اواخر القرن الخامس عشر لما لاحت نهاية غرناطة ، تغيرت معاملة الاسبان للمدجنين الى الاسوء إستجابة لضغوط الكنيسة ، وتزايدت سوءا بزوال حكم الاسلام نهائيا ولم تعد هناك قوى يُحسب لها حساب ، فتأكلت العهود فتعرض المسلمون للمحن بدأ من منعهم من مزاوله مناسكهم مرورا بإرغامهم على التنصر وانتهاءا بفظائع المحن على ايدى محاكم التفتيش وبالترحيل ، وهى محن ليس لها مثيل فى التاريخ يسجلها د. جوستاف لوبون فيقول " رغم ما عاهد عليه فرديناند العرب بعد سقوط غرناطة عام 1492م ؛ على حرية العقيدة واللغة فقد حل الاضطهاد والتعذيب مع حلول عام 1499م ، ودام ذلك قرونا ابتداء بالتنصير ثم الاحالة الى محاكم التفتيش الرهيبة التى احرقت المسلمين بما فيهم كثير من المتعدين والمتنصرين .

125 (dr. leap 66-67 . ، وعن 13-14 p. madrid 1857) condicion social de los moriscos de espana .. نقلا عن نهاية الاندلس ومصير العرب المتنصرين ص55 .

التنصير الاجبارى وديوان التحقيق

" محاكم التفتيش La Inquisition "

بعد سقوط غرناطة اقبل بعض المسلمون الاندلسيون من ذوى الاصول الاسبانية على اعتناق المسيحية طمعا فى عطف الاسبان وضمان عدم المساس باملاكهم وضياعهم ، ومن هؤلاء سعد ونصر ولدا السلطان ابى الحسن من زوجته الاسبانية ومُنحا لذلك ضياعا فى ارجبة وتسمى احدهما الدوق فرناندو والاخر دون خوان دى جراناى صاحب غرناطة وخدم قائدا فى جيش قشتالة ، وتنصر سيدى يحي النيار قائد المرية (ابن عم الزغل ولسليل الاحمر) وتسمى الدون بيدرو دى جراناى وزوجه مريم بنت بنغيش وابنه ، وتنصر الوزير ابو القاسم بنغيش ومعظم افراد اسرته وعادوا لاسم الاسرة القديم **Los Venegas** ، وتنصر الوزير يوسف بن كماشة الذى اصبح راهبا ؛ كما تنصر اغلب سكان غرناطة من بادية وحاضرة فرارا من تعسف وتكيد السلطات الاسبانية ان لم يكن طمعا فى الاغراءات المقدمة ، كما عم التنصير بقية الانحاء بالترغيب والترهيب تحت ضغط الاسبان.

حتى ذلك الحين لم يكن التنصير قد فُرض كسياسة اجبارية بسبب مقاومة فرديناند لضغوط الكنيسة فى هذا الشأن ، لكنه استسلم فى عام 1499م وبدأ باستخدام الترغيب كما حدث فى البشترات ووادي الكرين ولانخرون عندما اعفى اهل هذه الانحاء الذين تنصروا او ينتصرون بمرسوم فى يوليو عام 1500 م من جميع الالتزامات والضرائب المفروضة على المورسكيين بالنسبة لاملاكهم الثابتة والمنقولة واعفاهم من الغرامات التى فرضت لمشاركتهم فى الثورة وقدرها خمسون الف دوقية وغيرها من منح واعفاءات .

و فى سبتمبر من نفس العام حصل سكان مدينة بسطة المتنصرين على مثل ذلك من مزايا ، وايضا سكان **Morria** فى غرناطة المخصص لسكنى المسلمين (جيتو) ؛ وكان فرديناند قد اصدر مرسوما بالزام المسلمين بسكنى احياء خاصة كاليهود وكانت هذه الاحياء تسمى **Morria** اى المور اوالمورسكيون ، وكانت تفصلها عن احياء المسيحيين اسوار عالية ؛ ثم تحول موقفه من التنصير بالترغيب الى التنصير الاجبارى فأصدر مرسوما فى 20 يوليو عام 1501م بتطبيق التنصير العام الاجبارى على امة بأسرها من الاندلسيين المسلمين ووضعهم تحت إشراف ديوان التحقيق " **La Inquisition** " المعروف بمحاكم التفتيش ليتم التحقق والوثوق من صحة اعتناقهم المسيحية .

وديوان التفتيش مؤسسة قديمة شكلتها الكنيسة مع بداية القرن الثالث عشر ؛ من الاساقفة الدمينيكان والفرنسيسكان لتعقب المارقين على الدين فى المانيا وايطاليا وفرنسا ، واخذت بتطبيقه مملكة اراجون فى اوائل القرن 13م فى ملاحقة الملاحدة الالبين ، وتوسعت مهمة المحاكم لتشمل تعقب السحرة والمهرطقين واحراق كتبهم ومعها كتب الدين الاسلامى والعلوم التى اعتبرتها من كتب الهرطقة ؛ واستخدمت الدواوين اساليب رهيبة فى تعذيب المتهمين وقضت باحراق واعدام المارقين ومصادرة املاكهم ، ومن بين التكنيل الذى فرضته هذه المحاكم انها كانت تغطى مصاريف سجن المتهم من املاكه حتى تُبدد امواله ولا ينتفع بها ذويه (126) ؛ وفى قشتالة طبق هنرى الرابع لاول مرة محاكم التفتيش عام 1465 م على المتنصرين اليهود ، و لم يلتزم بها فرديناند حتى سبتمبر 1480م لمكانة اليهود المالية الكبيرة عندما اعادها من جديد ضد اليهود ومن بعدهم المسلمين بضغوط البابا الشديدة .

وينتقد دون لورينتى الحبر المؤرخ ؛ احوال محاكم التفتيش واساليبها القاسية ضد المسلمين ويصفها " بألقسوة الشائنة التى جعلت المسلمون ينفرون من اعتناق المسيحية بينما كان ممكنا بيسر تحقيق التنصير باساليب انسانية ؛ ادى تجاهلها الى ازدياد مقت المسلمون لدين حملتهم القوة على اعتناقها ، وهو ما كان سببا لقلقل واضطرابات ادت عام 1609م الى نفى هذا الشعب البالغ المليون ، ويقدر عدد من انتزعهم ديوان التحقيق فى مائة وتسع وثلاثين عاما بثلاثة ملايين ما بين يهود ومسلمين مورسكيين " ، بينما يصف الكاردينال والحبر الفرنسى ريشليو المأساة " بأنها اشد ما سجلت صحف الانسانية جرأة ووحشية " . ومن أنواع التعذيب إملاء البطن بالماء حتى الإختناق وإستخدام الأسياخ المحمية وتمزيق الأرجل و فسخ الفك وكانت أغلب الأحكام بالإحراق.

وبعد إحتلال نابليون لأسبانيا ألغى محاكم التفتيش ولكن رهبان (الجزويت) أصحاب هذه المحاكم إستمروا فى القتل والتعذيب سرا ؛ فأرسل الماريشال سولت الحاكم العسكرى لمدير الكولونيل (ليمونكى) ومعه ألف جندى وأربعمئة مدفع وهاجم دير الديوان وبعد تفتيش الدير بدقة عثر على سلم يؤدى إلى باطن الأرض ، ويصف الكولونيل فى مذكراته الوضع فى الاتى :

" فإذا نحن فى غرفة كبيرة مربعة وهى عندهم قاعة المحكمة ؛ فى وسطها عمود من رخام به حلقة حديدية ضخمة رُبطت بسلاسل كانت تُربط الفرائس بها وهم رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش (الدينونة) وهو عبارة عن دكة يجلس عليها رئيس المحكمة وإلى جواره مقاعد أخرى أقل إرتفاعا لبقية القضاة ؛ وتوجد آلات لتعذيب وتمزيق الأجساد البشرية ، وتمتد تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض ، وما رأيته فيها إستفز نفسى ويدعوا إلى التقرز ما حييت ؛ رأينا غرفا صغيرة فى حجم الإنسان بعضها عمودى وبعضها رأسى فيبقى سجين العمودية واقفا فيها على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه ويبقى سجين الأفقية ممددا بها حتى الموت وتبقى الجثة بالسجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم ، ولتصريف الروائح الكريهة المنبثقة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية لا زالت فى أغلالها سجيئة والسجناء كانوا رجال ونساء وأطفالا وشيوخا ما بين الرابعة عشر إلى السبعين وزيادة فى النكاية بالسجناء كانوا يستيقظونهم عراة ، ورأينا ما تفشع لهوله الأبدان فى الغرف الأخرى من آلات لتكسير العظام وسحق الجسم ومما عثرنا عليه صندوق فى حجم الرأس تماما يوضع فيه رأس المعضب بعد أن تُربط يديه وقدميه بالسلاسل حتى لا يقوى على الحركة وبقطرون على رأسه الماء البارد من أعلى الصندوق نقطة نقطة ، وقد ادى هذا اللون من التعذيب الى جنون الكثير وعثرنا على آلة تسمى السيدة الجميلة وهى عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الإستعداد لعناق من ينام معها وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة وكانوا يطرحون الشاب المعضب فوق هذه الصورة ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه و خناجره فإذا أغلق الباب مزق الشاب إربا كما عثرنا على آلة لسلس اللسان ولتمزيق أئداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين العراة حتى يتناثر اللحم من العظم".

الثورة ضد التنصير العام

أثار التنصير الاجبارى وقسوة ديوان التحقيق تذمر المسلمين ، فتفجرت ثوراتهم من حين لآخر ، وتحول الامر فى بعض الحالات الغاضبة الى القتال ؛ ففى مارس عام 1501م احتشدت بعض البطون الوركسية فى منطقة رندة بالجبال الحمراء واستطاعت اقتحام الجبل والفتك بعمال الحكومة ؛ فسير فرديناند حملة قوية انهزمت هزيمة شديدة وقُتل قائدها دوق قرطبة ، فهرع فرديناند الى غرناطة للثأر لكنه جنح للهدوء وعفى عن الثوار بشرط اعتناقهم النصرانية فى ظرف ثلاثة اشهر او مغادرة اسبانيا ومصادرة اموالهم ، فهاجرت على الامان جموع كثيرة الى المغرب قدمت اسبانيا لهم السفن وهى مغتبطة بالتخلص منهم باعتبارهم اشد العناصر الاندلسية جنوحا للثورة .

ولاضعاف المورسكيين اتخذ الاسبان عدة اجراءات فى فبراير عام 1515م لحرمانهم من قوتهم الاقتصادية ، واضعاف قدرتهم على الحشد والتجمع لوادى اى تمرد مسبق ، ومنعهم من تهريب ثرواتهم الى المغرب اذا ما فكروا فى الهرب ؛ فحرموا على المنتصرين والمدجنين المقيمين فى قشتالة التوجه الى غرناطة خشية الاحتشاد فيها تحسبا من الثورة ، وحظروا عليهم بيع اموالهم بدون ترخيص ومن يفعل ذلك يُعاقب بالموت ومصادرة امواله حتى يضمنوا عدم هروبهم الى المغرب بثرواتهم والعودة الى الاسلام حسبما ذكره المرسوم فقد كان الاسلام شاغلهم (127) ، علاوة على اجراءات اخرى لاحقة كنزع السلاح وحرمان المنتصرين من الهجرة الى المغرب منعا لارتدادهم الى الاسلام ، وتشدد الاسبان فى معاقبة المورسكيين بعقوبة الاعدام ومصادرة الاملاك والاسترقاق .

وفى عام 1524م اصدر الامبراطور شارلكان خليفة فرديناند وحفيده (فترة حكمه امتدت من 1516 الى 1555م) ، مرسوما يجدد فيه ضرورة تنصير كل من بقى على الاسلام واخراج من يأبى من اسبانيا ومُعاقبة كل من لم ينفذ ذلك خلال المدة الممنوحة بالرق مدى الحياة ، ونص المرسوم على تحويل ما تبقى من المساجد الى كنائس فى الحال ، وفى عام 1526م تظلم

المورسكيون من قرار الترحيل فأحال الامبراطور امرهم للتحقيق ، وبعد تدخل كبار المورسكيين من اصول اسبانية اصدر الامبراطور مرسوما يلغى الترحيل ، مفاده أنه " طالما ان تنصير المورسكيين كان صحيحا بمسارعتهم بقبوله بمحض ارادتهم اتقاء لما هو اشر منه ، وباعتبارهم نصارى يمنعون من مغادرة اسبانيا ، وان يُنصر كل اولادهم فإذا ارتدوا قُضى عليهم بالموت والمصادرة .

فى نفس الوقت حاول نبلاء اراجون مع الامبراطور لاستثناء الجالية المسلمة من التنصير على اساس انه لم تبدر منهم خطينة سياسية او دينية وان إخراجهم ومعظمهم من العاملين فى ارضه خسارة اقتصادية فادحة له ولهم وخرابا لضياعهم ومزارعهم ، فالجالية المسلمة تشكل قوة العمل فى المنطقة فهم المزارعون والصناع المهرة ، ولكن الامبراطور اصر على قراره وكلف محاكم التفتيش بالمهمة وتم تنصيرهم عام 1526م .

ثارت ثائرة المورسكيين المسلمين فى بلنسية وسرقسطة ومعظم الانحاء مع استمرار تنكيل الاسبان بهم وبسبب القرارات الظالمة ، لكن الاسبان تمكنوا من قمعها تباعا الا بلنسية ذات الكتلة المسلمة الكبيرة (تضم سبعة وعشرين الف اسرة) ، فقد تمكنت من الصمود وساعدها على ذلك سهولة تلقيها العون من المغرب لوقوعها على البحر .

ولما اشتدت الثورة جردت الحكومة قوة كبيرة مزودة بالمدافع وارغمت المدينة على الاستسلام على ان يمنحها الامبراطور الامان مقابل التنصر ، وغدلت عقوبة الاسترقاق بالنسبة للثوار الى الغرامة ، ولما تكرر تدمير اهل بلنسية قرر الامبراطور طرد المسلمين منها وحظر على النبلاء إستبقائهم فى ضياعهم ، فعاد المسلمون الى الثورة لكنها ما لبثت ان أُخمدت ؛ وإنصاع اهل المدينة امام عدم الحيلة فى النهاية ، وطلبوا مقابل الدخول فى النصرانية الا تمتد اليهم يد ديوان التحقيق لمدة اربعين سنة ، وان يحتفظوا خلال هذه المدة بلغتهم وملابسهم القومية وبعض حقوق الميراث والزواج ويسمح لهم بحمل السلاح وتخفيف الضرائب ، وأستخدم اوقافهم على الاتفاق على الفقهاء وما تبقى من ريعها بعد ذلك يُرصد لبناء الكنائس ؛ وقد رُفُضت مطالبهم الا فيم يتعلق بمهلة استخدام الملابس واللغة فسمح لهم الامبراطور بعشرة اعوام فقط ومنحهم بعض الامتيازات بالنسبة للضرائب والزواج ، فاقبلت اغلبية اهالى بلنسية على التنصر الا اقلية فضلت المقاومة فمزقتها جند الامبراطور بعد قليل .

تقدم مسلمو غرناطة الى الامبراطور اثناء زيارته للمدينة عام 1526م بطلب تخفيف قيود محاكم التفتيش ومطاردتها لهم ، فاحال مطالبهم الى التحقيق الذى اوصى بتخلى المورسكيين عن لغتهم وثيابهم القومية واسماؤهم العربية والا يتسمون بها بعد ذلك ، والا يستخدمون الحمامات وان تُفتح منازلهم ايام الجمع والسبت للتأكد من انهم لا يمارسون الاسلام سرا ، وأرجى تنفيذ هذه القرارات عدة مرات ، وتمكنوا بعد دفع مبلغ طائل الى الامبراطور من قبول حقهم فى ارتداء ملابسهم القومية والاعفاء من مطاردة محاكم التفتيش اذا أتهموا بالردة فأصدر عفوا عن مخالفاتهم السابقة .

ولما لم تتحقق وعود الامبراطور بالمساواة بين المسلمين وبين رعاياه ؛ وشعورهم بالاستعباد وإثقالهم بالضرائب فباتوا يفرون الى المغرب عبر بلنسية ، ولما ادرك ذلك الامبراطور حظر عليهم الامبراطور عام 1541م النزوح الى بلنسية او ايا من الثغور أو تغيير مساكنهم الا بموافقة ملكية نظير رسم فادح لعرقلة هجرتهم الى المغرب ، ونتيجة هذا الحظر غير المورسكيون مسير الهجرة للتصويه على السلطات فاصبحت تمر عبر الثغور الايطالية حتى لا تلتفت اليهم عيون محاكم التفتيش التى ركزت مراقبتها على منع الهجرة الى ارض الاسلام فى المغرب ، ومن ضمن الاجراءات الاخرى الهادفة الى عدم تسرب الثروات من اسبانيا وحرمان الفارين من الهروب بأموالهم ، حظر الامبراطور شارلكان على المورسكيين بيع الحرير والذهب والفضة والحلى والاحجار الكريمة حتى لا يستطيعون استبدال املاكهم بما خف حمله وغلى ثمنه ويفرون بثرواتهم الى المغرب ، ومنعهم من حمل السلاح حتى ما استصغر منه منعاً للثورة وعقوبة المخالف الجلد ، وأمر المسلمين بالسجود فى الشوارع عند مرور كبير الاحبار وان يحمل المسلم شارة زرقاء فى قبعته حتى يُمكن التعرف اليهم لمراقبة سلوكهم .

وفى بعض الاحيان اتخذ الامبراطور مواقف معتدلة ففى عام 1543م اصدر عفوا عن اهل دلكامبو واريقالو عما ارتكبهوا من كُفر ومروق والاكتفاء باعترافهم بذنوبهم امام الديوان ورد املاكهم التى صُودرت الى الاحياء منهم ، وسمح لهم بتزويج اولادهم الى النصارى الخالص والا تُصادر المهور التى دفعوها للخزينة بسبب ذنوبهم بل ترد الى نسلهم من هذا الزواج وتوَل الاملاك الى الزوجات النصرانيات الخالص سواء برسم الزواج او الميراث .

تحريم حمل السلاح

حرم فرديناند على المورسكيين حمل السلاح وجرد اهل بلنسية بعد ثورتهم منه بالجملة ؛ ورخص فقط بحمل الاسلحة

المنزلية الصغيرة ، ولكن السلطات تشددت في منح التراخيص ، وفي عام 1545م صدر تحريم انواع السلاح كافة ، نُفذ بشئ من اللين .

وفي عهد فيليب الثاني (1555-1598م) اتخذت تدابير اشد فُحِرم علي المسلمين عام 1563م حمل السلاح الشخصي الذي كانوا يستخدمونه للدفاع عن تجارتهم في الاماكن النائية واشترط لذلك موافقة الحاكم العام ، الذي اثار بتشدده في منح التراخيص غضب المورسكيين المقيمين في النواحي النائية الذين لا يمكنهم التخلي عن السلاح الشخصي في الدفاع عن سلامتهم . وفي الاحتفال بالعيد القومي لسقوط غرناطة في يناير عام 1567م ؛ جدد فيليب قانون تحريم استخدام اللغة والثياب العربية السابق صدوره عام 1526م في عهد والده ، وحدد ثلاث سنوات ينتهي بعدها استخدام اللغة واوقف صناعة الملابس العربية ، وسمح باستخدام الموجود منها عامين بالنسبة للملابس الصوفية وعام للحريية ، وحرّم عليهم الاستحمام بالحمامات واكد على وجوب هدم الحمامات العامة والخاصة (128) ، وطلب من المسلمين فتح منازلهم ايام الجمع والاعياد ليستطيع القسس ورجال السلطة مراقبة ما يقع بداخلها وغيرها من قرارات تتعلق بالكف عن العادات الاسلامية وغيرها لمضايقه المورسكيين .

الثورة المورسكية الكبرى وإعلان الاستقلال

اثار هذا القانون غضب المورسكيين فهبوا لتعديل له لكن الامبراطور اصر على التنفيذ مستثنيا بلنسية لوجود كتله اسلامية كبيرة بها تغلب عليها روح التمرد فوافق بعد وساطة على معاملة اهلها برفق في شئون الردة فلا تُنزع املكهم على ان يدفعوا اتاوة سنوية قدرها الفان وخمسمائة مثقال لديوان التحقيق ؛ وعزم اهل غرناطة على الثورة بزعامه فرج بن فرج وهو صباغ ينتسب لبني سراج من اشراف غرناطة ومن فرسانها ايام الدولة الاسلامية ، فخطط مع اهل البشرات على مهاجمة غرناطة يوم احتفال الاسبان بالخميس المقدس من ابريل 1568م ، لكن تسرب الاخبار ارجأ التنفيذ الى ديسمبر من نفس العام ، واستغل فرج الوقت في بث روح الثورة في انحاء الاندلس ؛ وجاءته الفرصة عندما هاجم بعض المورسكيون مجموعة من القضاة والمأمورين الاسبان كانوا في طريقهم الى غرناطة وجرّدوا القوة التي رافقتهم من كمية كبيرة من البنادق ، فسار بها فرج ومعه مائتي فرد الى غرناطة فأبى سكان البيلازين مساعدتهم خوفا من رد فعل السلطة الاسبانية واكتفوا بتقديم مساعدات مادية ، فارتد فرج بمجموعته وتحصن في جبل سييرا نفادا ولحققت به الجموع وامت الثورة الارزاء وهاجم المورسكيون الاسبان .

اعلن الثوار الاستقلال وتوجوا في ديسمبر 1568م فتي في العشرين من عمره من بنى اميه هو الدون فرناندو دي كاردوبا ابن السلطان ابي الحسن من زوجته الاسبانية ، وسموه محمد بن امية وكان يعمل مستشارا في بلدية غرناطة ، واتخذ عمه فرناندو الزغوير (الصغير) واسمه العربي ابن جوهر قائدا عاما للقوات ، وابن فرج كبيرا للوزراء ؛ وناشد المورسكيين بخلع طاعة الاسبان والعودة الى الاسلام ؛ ووقعت نقمة الثوار اول ما وقعت على مضطهديهم خاصة عمال الحكومة وقسس محاكم التفتيش وتمادى ابن فرج في الانتقام وجعلها مذبة عامة وجل منها المسلمون والنصارى فعزله محمد بن امية ، فنزل راضيا الى صفوف المجاهدين .

مفاوضة الاسبان الثائر محمد بن امية واغتياله

عمت الثورة معظم الاندلس ونجحت في التغلب على معظم الحاميات الاسبانية الاخرى عدا مربلة و مالقة ورنده لوجود حاميات اسبانية قوية بها ، فتوجهت قوة اسبانية بقيادة منديخاور حاكم غرناطة في 2 يناير 1569م الى آكام بوكيرا حصن الثوار الذين تصدوا لها رغم نقص الاسلحة والعتاد وبعد معركة عنيفة تقهقروا الى سهول بطرنة فنكل الاسبان بمن تخلف منهم لا سيما النساء والاطفال .

حاول منديخاور التفاهم مع الثوار على العفو مقابل السكنى ، ووسط في الامر بنيغيش من كبار المورسكيين وسليل الاسرة الغرناطية العريقة ، فكتب بنيغيش ابن امية مؤنبا اياه لتعريض اهله وامته للهلاك ناصحا له بالتوبة والتماس العفو ، فقال ابن امية للتصالح وارسل اليه في امر التسليم لكن المتطرفون من المتطوعين المغاربة رفضوا الاستسلام فاستمرت المعارك واصابوا الاسبان بهزيمة شديدة في آكام جواخريس وقتلوا منهم مائة وخمسين جنديا وضابط لكنهم اثروا الارتداد بعد قتال شديد .

¹²⁸ (ينتقد المطران جريرو المورسكيين (سنة 1565م) بأنهم يستحمون في ديسمبر ، - المرجع السابق ص 363 وهو مايدل على انهم اكثر نظافة من الاسبان .

فر ابن امية ولم يظفر الاسبان به انما اسروا امه وزوجه واخواته ، واسترق الاسبان من اختاروهم من الاسرى وقتلوا من تخلف بعد ان نكلوا بهم ، ومن بين الاسرى الزمار زعيم الثوار وابنته الصغيرة ، وكان مصيره فظيحا لاستبسالة في المعارك فأرسلوه الى غرناطة حيث عذبوه بوحشية وانتزعوا لحمه من عظامه حيا ثم مزقوه اشلاء .

أعاد الثوار احتشادهم من جديد في شرق البشرات في حشود عظيمة واخذوا يهددون المرية ، فسار المركز لوس فيليس على رأس جيش كبير تمكن بعد معارك شديدة من هزيمتهم ونكل بأسراه من المقاتلين واسرهم ، كما ذبح الاسبان مائة وخمسون من اعيان المورسكين في غرناطة كانوا رهينة في سجنها عندما تردد ان الثوار قادمون لتحرير المدينة .

صدر قرار بتشتيت المورسكين في النواحي الشمالية لاضعافهم وواد ميلهم للثورة ؛ فكانت مأساه جديدة فرقت الاسرة الواحدة وافقدتها املاتها بالاضطرار ببيعها بأبخص الاسعار للانتقال للاماكن الجديدة ، وأهاجت هذه الاجراءات المورسكيون فانقضوا على الحاميات الاسبانية في البشرات ومزقوها واحتشدت جموعهم في ثورة من جديد في الهضاب والسهول ، وإنضم اليهم ابن امية لقيادة الثورة وقرر التوجه الى العالم الاسلامي طلبا للعون فبعث اخاه الى القسطنطينية فلم ياتيه ردا واعتذرت الجزائر مكتفية بالتشجيع ووعد سلطان مراكش بالغوث ، ولم يُعْثَم سوى عدد من مجاهدي المغرب وفرقة من المرتزقة الترك .

سار المركز لوس فيليس لمقاتلة الثوار لكنه فشل في حسم المعارك ، فألقى بفشله على منديخاور حاكم غرناطة قائد قطاع من القوات متهما إياه بالتعاطف مع المورسكين وعزله ؛ وفي تلك الاونة اغتال المرتزقة الترك ابن امية بخديعة حاكها ديجو بن الجوازيل (الوزير) انتقاما منه لاستيلائه على جاريته الحسنة ؛ فزور بالتعاون مع تلك الجارية خطابا مهورا باسم ابن امية الى ابن عبو قائد الجيوش يتوعد فيه الترك وقام بتسريبه اليهم فقاموا باقتحام المعسكر وإغتيال ابن امية .

مفاوضة الاسبان الثائر محمد بن امية واغتياله

اختار الثوار ابن عم الملك القليل ابن عبو (اسمه المورسكي ديجو لوبيز) الذي تسمى بمولاي عبد الله محمد ؛ واعلنوه ملكا على الاندلس وكان اكثر فطنة وروية وتدبرا فكون جيشا مدربا واكثر تنظيما من عشرة الاف بين مجاهد ومرترق ومغامر وجلب السلاح من المغرب ، وسار عام 1569م الى ارجبة مفتاح غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير وذاعت شهرته فأعلن المورسكيون الطاعة له وكثرت غاراته على ضواحي غرناطة .

القتال والتفاوض

تفاهم الموقف بعد عجز الاسبان عن قمع الثورة ، فعين الملك فيليب الثاني اخوه الدون خوان قائدا عاما لغرناطة ، وبعثه في ديسمبر على رأس جيش لانهاء الثورة ، فحاصر جليرا في وادي آش وهي من امنع قواعد المورسكين ، وكان يدافع عنها ثلاثة الاف مقاتل منهم فرقة تركية ، فسقطت في فبراير عام 1570م بعد معارك هائلة استبسلت فيها النساء وقُتل فيها عدد كبير من كبراء الاسبان ، فانتقم الاسبان بقتل كل من فيها نساء واطفالا .

فاجأ عدة الاف من الثوار بقيادة الحبقى الدون خوان في شعب الجبال قُرب بسطة في سيرون ومزقوا بعض سرايا الاسبان وقتلوا عددا كبيرا منها ، فاعاد خوان تنظيم قواته بصعوبة وسار حتى اندرش في مايو 1570م ولما استعصى عليه الامر ؛ ارسل في ملاينة الحبقى ووعدته بالعفو التام ان اعلن في ظرف عشرون يوما الخضوع على ان يتقدم بظلاماتهم للنظر فيها ومن لم يعلن خضوعه سيقتل عدا النساء والاطفال دون الرابعة عشر ، فرفض الثوار لعلمهم خيانة الاسبان للوعود فعاد خوان الى قتالهم .

ارسل فيليب قوة اخرى بقيادة دون سيزا قاتلت مولاي عبد الله في شمال البشرات لم تتمكن من حسم الموقف ، وبعد فترة مال الجميع للمفاوضات بوساطة الدون فرناندو دي براداس ، وهو من اهل وادي آش وله صلات طيبة بزعماء المورسكين ، فوافق الحبقى على الخضوع لفيليب مقابل العفو عن الثوار ، ولكن مولاي عبدالله وبقيّة الزعماء رفضوا الاتفاق لما تضمنه من نفهم ، ولما رأوا اصرارا الحبقى على الترويج للاتفاق استرجوه الى معسكرهم وقتلوه ، ولما ارسل خوان الى مولاي عبد الله للصالح رفض الاخير مصرا على القتال حتى النهاية ولن يموت الا مسلما ، وبذلك تاجت الثورة حول ردة من جديد ، فسير الاسبان ثلاثة جيوش في اتجاه البشرات والثاني الى وادي آش والثالث الى بسائط ردة ، واجتاحوا كل شئ في طريقهم وامعنوا في القتل وهدموا الضياع والقرى وخرّبوا الحقول ، فأخذت الثورة في الانهيار امام هذا الجبروت ، وفر كثير من المورسكين الى المغرب ، وبقي مولاي عبد الله وجيشه الصغير الذي امتنع عن الاسبان .

تشيتت المورسكيين فى الداخل

اصدر فيليب فى 28 اكتوبر 1570م امرا بتشيتت المورسكيين من معاقلمهم خصوصا اهل البيازين حتى ينضب معين الثوار من مدد الرجال ، ونكل بالمورسكيين فصادر عقاراتهم ونهب جنوده اموالهم وفتكوا بالنساء والاطفال فهلك الكثير خلال عمليات الترحيل ، فهرب المورسكيون الى السهل وهاجموا وقتلوا الكثير من الجند المتققلين بالغنائم ؛ واستطاع الاسبان كشف مخاباً مولاي عبد الله بوشاية قائد مغربى مقابل وعد بالعفو عنه ورد زوجته وابنته الاسيرتان لديهم ان سلمهم عبد الله حيا او ميتا ، مستغلين حنق هذا المغربى على عبد الله لمنعه اياه من العودة للمغرب ، فقام ومعه شردمة من الجند وقتلو الملك والقوا بجثته الى الاسبان الذين مثلوا بها ؛ وعلى اثر ذلك استسلم كثير من الثوار وانتهت ثورة المورسكيين الكبرى.

استمر الاسبان فى مناقشة مشروع قرار فيليب الثانى تشيتت المورسكيين فى الفترة من عام 1582م حتى وفاته عام 1598م ، وتراوحت الاراء ما بين الاسترقاق وهو موقف الاحبار المتطرفين وعلى رأسهم المطران ربيرا وبين ارسال الالاف منهم كل عام للعمل فى السفن ومناجم الهند حتى يفنوا ، وذهب البعض الى قتلهم دفعة واحدة او قتل البالغين واسترقاق الباقين وبيعهم عبيدا ورأى بعض الوزراء اغراقهم فى البحر.

ثوار المورسكيين يستنهضون روح الجهاد المغربى

قشتالة تعاقب بنفى المورسكيين (مأسى الرحيل)

فى اوائل عهد فيليب الثالث وضع الدوق دى ليرما عام 1599م مشروعا متطرفا للتخلص من المشكلة المورسكية ، يقضى باعدام الشبان والكهول ما بين الخامسة عشر والستين أو إسترقاقهم ونفى النساء فوق الستين الى المغرب وايداع الاطفال معاهد كنسية ، ونزع املاتهم وافر مجلس الدولة المشروع ، وحدث انذاك (عام 1608م/1017هـ) ان لجأ الشيخ مأمون بعد هزيمته امام اخيه السلطان زيدان فى المغرب الى فيليب طلبا لعونه مُتعهدا منحه ثغر العرائش نظير معاونته.

فارسل فيليب معه عدد من السفن استولت على الثغر ولكن مؤيديه انفضوا من حوله لخيانته ولم يساندوه فى معاركه فانهزم وقُتل بعد ذلك ؛ ولما علم المورسكيون بخيانة الشيخ ارسلوا الى السلطان زيدان يبدون استعدادهم لتزويده بمائتى الف مقاتل ان اقدم على احتلال احد ثغور اسبانيا ، ولكن السلطان رفض القتال خارج اراضيه واستمر فى معاركه مع الاسبان فى المغرب حتى وفاته عام 1627م/1037هـ .

وفى عام 1644م ، ثار "طاهر الحر" وجماعة معه ، لم تعط الوثائق اسمه النصراني ، وهو من المرية وينسب نفسه إلى بيت بني الأحمر ، وكان يخطط لتحرير الاندلس واستعادة الدولة الإسلامية بالتعاون مع مورسيكي الرباط حيث كان مقررا أن يبحروا من المغرب الى إشبيلية ويدخلوها من مصب الوادي الكبير بالسفن ويحتلوها بمساعدة ملك البرتغال الذى يسعى للانفصال عن إسبانيا التى سبق ان ضمتها بعد هزيمة بلاده فى معركة وادى المخازن ، ويمهد لهم الامر فى الداخل دوق مدينة سيدونيا حاكم منطقة الأندلس ، ولكن لم نجد مصدرا متاح يشير الى ذلك (129).

ولما علم الاسبان بتحريض المورسكيين سلطان المغرب واستعدادهم للعودة الى الثورة ، اجتمع مجلس الدولة فى اوائل عام 1608م للنظر فى مصير المورسكيين من جديد ، واقتراح المطران ربيرا النفى كأرفق حل وايده معظم الاعضاء للتخلص من المورسكيين الذين يهدد تناسلهم السريع بمعدلات تزيد عن معدل توالد النصارى التركيبية السكانية للبلاد ويهدد امنها ، وأمهل المجلس المورسكيين شهرا لبيع املاتهم وتدبير امورهم للرحيل ، ومن تخلف عُوقب بالموت ومصادرة امواله .

وصدر مرسوم بالنفى النهائى فى 22 سبتمبر 1609م واحتشدت عشرات السفن فى مياه ميورقة تم جمعها من نابلى وصقلية

¹²⁹ (من وثائق كتاب "من إفريقيا إلى أميركا" الصادر في نهاية سنة 2000 بالاسبانية ، لدوقة مدينة سيدونيا سليلا حاكم الاندلس المسلم ، ان جدها الاكبر احتفظ سرا فى قصره بمسجدا سريا.

وميلان لنقل المنفيين ، وقلص المرسوم المهلة بالنسبة لاهالى بلنسية من شهر المسموح به الى ثلاثة ايام فقط للتجمع ؛ وضيق عليهم فيما يحملونه من متاع بمقدار ما يستطيعون حمله على ظهورهم فقط ، وشدد عليهم عقوبة التخلف بأن من يضبط بعد ذلك تكون عقوبته الموت اذا ما ابدى مقاومة وما عدا ذلك تُصادر امواله ويُحاكم ، وقرر المرسوم عقوبة جماعية لجميع سكان الناحية بالموت اذا ما أضرم احدهم نارا فى املاك المرحليين من المزارع او المنازل او اخفى متاعا؛ ووجب القرار تلك الممتلكات الى النبلاء الاسبان وشدد عقوبة اخفاء المورسكيين المرحليين ؛ بينما أُعفى من الترحيل 6% من المورسكيين بغرض القيام بأعمال صيانة المبانى وتشغيل مصانع السكر والعناية بمحصول الارز وتنظيم شئون الرى .

ادت هذه الاجراءات الى كارثة انسانية كانت اول ما أُبتلى به المورسكيين على طريق الالام الطويل فأنقسمت وتشتت الاسر وتفرقت الاسرة الواحدة اذا كان من بين ابنائها نصارى ؛ فقيم ترحيل الطرف المسلم دون الطرف النصرانى مع استبقاء الاولاد ، وسمح القرار بعودة عشرة مرحلين من الذين وصلوا الى المغرب مع السفن العائدة لطمأنة الاخرين على سير العملية.

تمرد المورسكيون

روع القرار بحيثياته المجحفة المورسكيين ؛ وترددوا فى الرحيل لمعرفتهم بمشاكل الهجرة الجماعية المتعجلة فهي بمثابة الانهيار الذى سبق ان خبروه على مدى تاريخهم بعد تساقط مدنيهم ، حيث يتبدد الاستقرار وتضيع الممتلكات والاموال ومُعانة الانتقال الى المجهول ، وفى ظل هذا التردد اجتمع فقهاء المورسكيون وأقروا الرحيل واعتبروا من يبقى مرتدا مارقا ؛ ولصعوبة الامر ثار المورسكيون فى بعض المناطق فتم اخماد الثورة بعد ان اسفرت عن عدد كبير من القتلى ؛ وتعذر اخماد ثورة وادى اجوار لضخامة اعداد الثوار الذين تحصنوا بها وهم خمسة عشر الفا ، ولكن الحكومة نجحت فى النهاية فى الفتك بالالاف منهم وسبي النساء والاطفال وباعوهم رقيقا ونقل الباقون قسرا الى الموانى ، بينما تعذر اخماد ثورة مويلادى كورتيس الا بعد عام لتحصن تسعة الاف ثائر بها تبقى منهم حوالى ثلاثة الاف عند الترحيل.

كان الترحيل الى الموانى يتم فى حراسة الجند لضمان عدم فرارهم ولحمايتهم من عصابات الاسبان التى تعترض مسيرتهم للنهب والقتل احيانا ، ومن الموانى تنقلهم السفن الى وهران التى كانت بيد الاسبان ومنها الى تلمسان ، وفى 15 ديسمبر بدأ تنفيذ القرار على المقيمين فى قشتالة ومنحهم شهرا مهلة ، وحاول من لديه اطفال السفر إختياريا بدون ترحيل للاحتفاظ باولادهم الصغار بدعوى السفر داخل اسبانيا ، فسافر عشرة الاف الى قرطاجة ثم تسربوا الى المغرب ، وقصد سبعة عشر الفا الى فرنسا عبر اراضى قشتالة ، وتوجه 25 الفا من اراضى اراجون الى نافار الفرنسية بعدما سمح لهم هنرى الرابع بالتوطن فيما وراء نهر الجارون بشرط بقائهم على الكاثوليكية ومن لا يرغب فقد هيا لهم السفن للسفر الى المغرب .

وفى غرناطة صدر قرار الترحيل بنفس النصوص مع إباحة بيع املاكهم المنقولة مقابل بضائع اسبانية ، ولا يُسمح لهم بإصطحاب الذهب او الحلى او النقود الا ما يكفى نفقات الرحلة ، وصُودرت عقاراتهم لصالح العرش ، ونزح من اهلها مئة الفا ، وإستغرقت عملية الترحيل خمس سنوات حتى يناير 1614 م .

الخروج الثانى

الهروب عبر الاطلنطى

وطرد المورسكيين من المستعمرات الاسبانية فى امريكا

خلال فترات المعاناة وتضييق الاسبان على طرق الملاحة الى المغرب لمنع هروب المورسكيين ، فرت بعض العناصر الاندلسية من اسبانيا والبرتغال الى جزر الاطلنطى والامريكتين فقد كانت لهم سابق معرفة بدروبها قبل ان يكتشفها كريستوفر كولمبس ، ولحققت بهم عناصر اخرى من احفاد المورسكيين طردهم شارل الخامس ملك اسبانيا من اراضى الدولة ومستعمراتها

بعد قراره الصادر عام 1539 (أقر عام 1543) بطرد أحفاد المسلمين الذين أحرقتهم محاكم التفتيش من غرب الاندلس (130) ، وتطور الأمر لعملية واسعة لطرد المورسكيين من الممتلكات الأسبانية في الأمريكتين بدعوى أنهم ينشرون الإسلام ، وقد وصلت هذه العناصر إلى أماكن أخرى في شمال أمريكا .

مأسى الطريق (نهب المنفيين والاعتداء عليهم)

تعرض المنفيون خلال رحلة الألام لملاحقة العصابات الأسبانية أو البدو في أفريقيا ، ويقول دلوبون إن أكثر المهاجرون قُتلوا في طريق الترحيل على الأرض الأسبانية ، و يقدر الراهب بليد القتلى بثلاثة أرباع المنفيين وكان راضيا بذلك فقد قتل هو وأعوانه مئة ألف من بين 140 ألفا كانت تضمهم قافلة واحدة على الأرض الأسبانية (131) ؛ كما لم يرحمهم الأعراب في المغرب فتهبواهم وسبوا نساءهم ، ويعلق الكونت اجيلار حاكم وهران بأن كثير من المورسكيين فضلوا البقاء في وهران خوفا من اعتداءات الأعراب ، وفي فرنسا تعرض الكثيرون أيضا للعدوان والنهب الأمر الذي كان مثار احتجاج أحمد سلطان الترك إلى ماري دي مديتشي الوصية على العرش طالبا منها حماية المنفيين .

ويتردد أن ثلثا المنفيين أهلكتهم الأمراض والاعتداءات وعاد الكثيرون منهم ممن وصل إلى المغرب إلى الموانئ الأسبانية بعد الشدة العظيمة التي أصابت أهل فاس من الجوع والغلاء والوباء عام 1628م ملتجئين التنصر والعبودية لدى أسر يعرفونها ، ولكن مطلبهم رفض ، وتمكن البعض منهم من التسرب إلى داخل إسبانيا ؛ ويُقدر المؤرخ نافاريتي أعداد المنفيين المورسكيين خلال الترحيل بحوالي خمسة ملايين بينهم مليوناً يهودي ، ويقدرهم دون لورنتي مؤرخ ديوان التحقيق المرحلين بمليون مسلم ويهودي هم تعداد هذا الشعب عام 1609م من إجمالي سكان إسبانيا البالغ ثمانية ملايين حسب تقدير سفير البندقية عام 1595م . وعمن مات خلال عصور الاضطهاد تشير بعض التقديرات إلى أن إجمالي من مات منذ فتح فرديناند لغرناطة بحوالي ثلاثة ملايين مسلم ، بينما يقدر الحبر دون لورينتي مؤرخ ديوان التحقيق من انتزعهم ديوان التحقيق خلال 139 عاما (مائة و تسع و ثلاثون عاما) بحوالي ثلاثة ملايين ما بين يهود ومسلمين (132).

ويصف الكريدينال الفرنسي ريشليو المأساة " بأنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية تجاوزا ووحشية " (133) ، ويراه د. جوستاف لوبون مأساة حضارية لإسبانيا فيقول " مما يؤسف له أن ذلك حرم إسبانيا عمدا من هؤلاء الملايين الذين كانت لهم الإمامة الثقافية والصناعية في وقت افتقر فيه الأسبان الفاتحون لكفاءات مماثلة ، فعانت لقرون من الفراغ الذي خلفه مصرع وهجرة هؤلاء الملايين .

المورسكيون

خصالهم ومقوماتهم

هذا الشعب خليط من البربر والعرب المولدين مع القوط ، يقول فيهم ابن الخطيب أن أنسابهم عربية فيهم كثير من البربر والمهاجرين ، شعب طيب الخصال حسن الصورة ذوى أنوف معتدلة ، ألوانهم بيضاء شعورهم سوداء متوسطى القد باعتدال لسانهم عربي فصيح ، يتسمون بنضرة اللون وناقة الملبس وحسن الطاعة والإباء ؛ ويصف نساءهم بالجمال والرشاقة والسحر وتُبلّ خلال مُبالغن في الزينة والتبرج ، وهناك من يصف نساؤهم بالجمال والسحر واعتدال السمن وحسن المحاورة ينذر فيهن الطول يسرفن في الزينة والتعطر ، ورجالهم تخلوا عن لبس العمامة واستبدلوها بالقلنسوة إلا القضاء احتفظوا بعمامتهم . ويصف سفير البندقية المورسكيين سنة 1595م ؛ بأنهم مجتمع متماسك وشعب ينمو بإطراد عددا وثروة يكرسون

¹³⁰ استقر المورسكيون الفارون من البرتغال في جبال الأبالاش بشرق الولايات المتحدة ، ويسمون أحيانا "The white of the Appalachians" ، طبقا لـ "Brand Kennedy" في كتابه "The Malingers" عن أصول المالينجرز بتمويل من جامعة فرجينيا الغربية، يقول إنه تبين أن أصول هؤلاء إسلامية فهم من أندلسي البرتغال ، وما زالت عاداتهم الإسلامية باقية إلى الآن ، ومنهم ينحدر "أبراهام لينكولن" ، المصدر محاضرة الدكتور علي بن المنتصر الكتاني عن المسلمون الأفارقة والمورسكيون في الأمريكتين قبل كريستوفر كولومبس الإسلامية في أوروبا وأمريكا والمحاضرة مرفقة بالملاحق .

¹³¹ (حضارة العرب ص 271 .

¹³² (حضارة العرب ص 272 .

¹³³ (المرجع السابق ص 339 .

نشاطهم في التجارة ؛ وعندهم يقول ثرفانتس الكاتب الاسباني " انهم يتكاثرون فجميعهم يتزوج وهم اغنى طوائف اسبانيا يقتصدون في الانفاق ويكتزنون المال ولا يشترون العقارات ، ولا يدخلون اولادهم الجيش او سلك الكهنوت ، ويصفهم دى بدرانا المؤرخ الحبر بانهم شعب ذو اخلاق متينة اشراف في معاملاتهم ليس بينهم عاطل يعطفون على فقرائهم . وتنعت مؤلفات الرحالة الأوربيين "الموروس" **maures** المقيمين في تطوان بالمغرب بأنهم ظرفاء ومتحضرين ولطفاء مع المسيحيين.

بلغت اعداد المورسكيين ما بين ثلاثة الى خمسة ملايين جملة سكان مملكة غرناطة عند الخروج ، فقد احتشدت فيها الامة الاندلسية المتداعية من كافة الارحاء على مدار قرون التراجع منذ القرن السابع الهجرى ، منهم نصف مليون سكان مدينة غرناطة وحدها .

هجرات الاندلسيين والمورسكيين الى المغرب

على مر التاريخ الاسلامي⁽¹³⁴⁾

هجرة الاندلسيين باتجاه المغرب عادة فرضتها الاخوة في العرق والدين والجوار منذ قيام الاندلس، ولعل أقدمها تلك التي كانت في سنة 133 هـ، بسبب الفتنة والمجاعة، حينما «خرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين»، وكان لهذه الهجرة المبكرة «آثار إيجابية على عمران الشمال وتعريبه»^[1]، مثلها في ذلك مثل هجرة الربضيين المشهورة إلى فاس أواخر القرن الثاني/ الثامن الميلادي، على عهد الحكم بن هشام الأموي، والذين استقروا بالعدوة التي تحمل اسمهم (عدوة الأندلس) ؛ وتوطدت عرى الاخوة بين المغرب والأندلس في القرون اللاحقة عندما أصبحت الأندلس جزء من الإمبراطورية المغربية على عهد المرابطين والموحدين وحصصن الجهاد في الأندلس ، وقد اتخذ توافد الأندلسيين الى المغرب أحيانا شكلا رسميا كهجرة أهل شرق الأندلس الذين استقروا برباط الفتح بناء على ظهور للخليفة الموحدي الرشيد سنة 637 هـ / 1240 م.

واستمرت هجرات الأندلسيين إلى المغرب في العصر المريني ، لتصل إلى مداها عقب سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1492 م، بحيث توافد الأندلسيون على المغرب واستقروا في مَدَنه وبواديهِ، في تطوان وأحوازاها، وشفشاون، وبادس، وطنجة، وقبائل غمارة الريفية، وأصيلا، وسلا، وآسفي، وأزمور وأنفا ، بيد أن أهم فترات الهجرات الأندلسية الاضطرابية هي تلك التي أعقبت قرار طرد المورسكيين من إسبانيا المتخذ في مجلس الدولة يوم 4 أبريل 1609 م، وتميزت بكونها هجرات جماعية تمت تحت ضغط الاسبان وارهاب محاكم التفتيش ، حيث أقتُلعت مجتمعات بأكملها من محيطها الاجتماعي الأندلسي لتغرس في عدد من مدن المغرب وبواديهِ. وقد تنوع استقرار هؤلاء الأندلسيين بالمغرب تنوعاً كبيراً، إذ لم يقتصر على مناطق معينة، بل شمل مناطق عدة من أقصى شمال المغرب إلى أقصى بلاد سوس. على أن أهم تجمعات الأندلسيين هي تجمعات مصب أبي رقراق وتطوان .

استقرار المورسكيين في تطوان

مما لا شك فيه أن الهجرة المعروفة والأكثر أهمية من الأندلس إلى مدينة تطوان، هي تلك التي حدثت سنوات قليلة قبل سقوط مملكة غرناطة، آخر معقل للإسلام بشبه الجزيرة الإيبيرية بيد المسيحيين نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، أي حينما هاجر أبو الحسن علي المنظري نحو هذه المدينة التي كانت آنذ مدينة مخربة ومهجورة خلال قرن تقريبا ؛ وقد هاجر بصحبة القائد المنظري عدد من العائلات الغرناطية التي تولت إعادة بناء تطوان حوالي سنة 889 هـ / 1484 م، واستقرت بها بعيالها وتقاليدها وعاداتها، مجسدة بذلك الحياة الجديدة للأندلسيين المغاربة في هذه المدينة التي أضحت تعرف منذ تلك الفترة بـ"غرناطة الصغيرة" وبـ"أخت غرناطة"، نظرا لطابع الحياة الذي كان يحياه سكانها الجدد، والمطبوع بروح غرناطية.

ولقد استمر تدفق المهاجرين الأندلسيين على تطوان بوتيرة متباعدة، فهم لم يهاجروا من غرناطة وأحوازاها فقط، بل من

(134) البيوتات الأندلسية - المورسكية بتطوان - الجنود والامتدادات - الدكتور سلاوى الزاهري - أستاذة باحثة - تطوان

جميع أرجاء إسبانيا، وخاصة من قشتالة وأرغون، وكان هؤلاء المورسكيون الذين تنصّروا في الظاهر يدينون بالإسلام سرا، ولم تشملهم قرارات النفي الأولى في 1566-1567، أما عملية الطرد الكبرى التي أمر بها فليب الثالث سنة 1609 م فقد شملتهم جميعا. واستقبلت تطوان كذلك مهاجرين أندلسيين كانوا قاصدين مدنا ونواحي أخرى من المغرب. ولعل أبرز مثل على ذلك، جماعة بأسرها، وهي جماعة الهرناتشيين التي مرّت بتطوان قبل أن تتابع طريقها نحو الرباط حيث استقرت بصفة نهائية.

وكان هؤلاء المهاجرون المتأثرون بالمجتمع السائد الذي عاشوا فيه منذ الأسلاف الأوائل قد وجدوا صعوبة أكثر للتكيف مع المجتمع المغربي، إلا أن هذه الصعوبات كانت أقلّ في تطوان (كما في الشاون)، وكان الاندماج الاجتماعي للمهاجرين سهلا نسبيا نظراً أولاً لأواصر القرابة التي كانت تربطهم بالسكان المستقبليين، ونظراً أيضاً للتشابه بين الوطن الأصلي وبلد الاستيطان، الشيء الذي لم يتوفّر في مناطق أخرى من المغرب (بالنسبة لهورنتشي الرباط مثلاً).

نالت تطوان حظاً وافراً من حصة المهاجرين الأندلسيين لأسباب كثيرة، أهمها قربها من الأندلس، والذي مكنهم «استنشاق هواء إسبانيا»، كما قال ⁽¹³⁵⁾ Rojas، إذ يكاد المهاجر يقطع بوغاز جبل طارق حتى يجد تطوان في مقدمة المدن التي تستقبله، فيفضل الإقامة بها على مواصلة الترحال إلى مدن أخرى، ولسبب آخر بالغ الأهمية هو أن مجددها أبا الحسن علي المنظري، قائد أندلسي، جددها على الصورة التي كانت عليها غرناطة بما تثيره لديهم من اشجان، علاوة على عدم تعرّضهم للنهب مثلما حدث في جهات أخرى وحسن استقبال الوافدين الأندلسيين بتطوان ⁽¹³⁶⁾، وعناية آل النقيس ذوي الأصول الأندلسية ⁽¹³⁷⁾، وعلى رأسهم أحمد بن عيسى النقيس الذي تلقّت المدينة خلال حكمه (1608-1622 م) الهجرات الأولى بعد قرار الطرد؛ فقد عُرف بتعاطفه مع المورسكيين القادمين من إسبانيا، وبإشراكهم في اجتماعاته واستشارتهم في قراراته.

وتعلق الدكتورة سلوى الزاهري الباحثة باختلاف التقديرات بالنسبة لعدد المهاجرين الذين استقبلتهم تطوان خلال فترة الطرد، فقد أشار المورسكي أحمد بن قاسم الحجري إلى سبعين ألفاً مورسكي، وهذا التقدير اعتبره المهتمون مبالغاً فيه. وقد قدّم دوق مدينة شذونة إحصائية أكثر توازناً، وذلك بحصر هذا العدد في عشرة آلاف مورسكي كانوا بمدينة تطوان سنة 1022 هـ / 1613 م وفي تطوان تعايشت العائلات الأندلسية والإسبانية خلال فترة الحماية الإسبانية وبعدها؛ فلقد احتلت إسبانيا تطوان مرتين متتاليتين، الأولى خلال حرب تطوان سنة 1860 م، والثانية خلال فترة الحماية (1912-1956 م)، أعانلات مسلمة وعانلات مسيحية تحمل نفس الاسم العائلي، وقد تكون منحدره من نفس السلف ⁽¹³⁰⁾، مثل عانلات: أرغون، بايزة، برميخو، بوير، قشتيلو، لوقش، مرشينة، مرين، مرتين، مدينة، ملينة، مواليش، بايصن، روكاش، الرويز، صلاص، الطريس، الزكري، بيلين، بلاشكو، قبريرة، قردناش، شابيس، كونشة، فيديريكو، غارسية، الغراندي، ليون، مادونادو، مندوصة، مونظميور، بريدة، راميريز، رامون، الرضوندو، الرينة، رودريكو.

مساهمة العائلات الأندلسية

في الحياة المغربية

التحق أهل الأندلس بمجالات العمل المختلفة في المغرب الأقصى... فمال أهل البادية إلى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء وعلموا أهل المغرب أشياء لم يكونوا يعلمونها فكثر مستغلاتهم وعمت الخيرات، ومال أهل الحواضر إلى المدن فاستوطنوها ففاق أهل الصنائع أهل البلاد وصيروهم أتباعاً لهم ومتصرفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وأفرغوا فيه من أنواع الحنق والتجويد ⁽¹³¹⁾؛ واعتترف المؤرخ الإسباني بالدور الإيجابي للمورسكيين بالمغرب، وكتب قائلاً: «لقد سال الدم المورسكي بسخاء في المغرب، وقد غمر المورسكيون مساجد المغرب بالفقهاء ومدارسها بالأساتذة، وحكوماتها بالوزراء، وكل وظائفها بمستشارين وقادة وفنانين وصناع وجنود وتجار وبحارين وأدباء وقضاة،

¹³⁵) Hossein Bouzineb; Gerard Wieggers, «Tetuán y la expulsion de los moriscos», op. cit., p. 77.

¹³⁶ (المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ج 2، ص. 61.

¹³⁷ حسن الفكيكي، "تطوان وحصيلة توثيق الهجرات الأندلسية: نموذج من الأرشيف العام بسيمنكاس"، ضمن أعمال ندوة تطوان والتوثيق، منشورات كلية الآداب بتطوان، 2007، ص. 23.

إلخ، حتى تشربت حضارة إفريقية ببريق أندلسي» (138).

عائلات اشتهرت بالعلم والأدب والتدريس مثل - بُريدة Pareda وسكيرج، أو السكيرج ، و أسر اشتهرت في ميدان التوثيق والقضاء وعائلات اشتهرت بالفلاحة والحرف الصناعية الرويز Ruiz «كانت صنعتهم صنع الأسرة للمكاحل البلدية وغيرها» (129) ، زريق عائلة أندلسية جلها فخارون، لا زالوا إلى الآن ، البنزي عائلة تصنع الحديد» ؛ فديكو تخصصت في صناعة الورق، يذكر اسمها في المثل التطواني الذي يقول: «الله يرحم عمي فديكو اللي خلا كل شي في طريقو»، ومن أشهر أفراد عبد الرحمان بن أحمد فديكو، كان يصنع الورق حسب تقنية ورثها عن أجداده، وعلمها لابنه عبد السلام، وكان يقيد الحياة سنة 1035 هـ / 1626 م ؛ قاسم بن أحمد فديكو، كان يصنع الورق حسب تقنية ورثها عن أجداده وعلمها لابنه عبد القادر، وكان يقيد الحياة سنة 1040 هـ / 1631 م ؛ وهناك أسر اشتغلت بالوظائف العسكرية منها أسرة أخطاب واشتهر أفرادها بمهارتهم في الرمي بالمدافع، 1236 هـ / 1821 م ، وعبد الكريم أطاب يرأس فرقة المدفعية بتطوان عام 1246 هـ / 1830 م. ، و أسرة فرتلة من أشهر أفرادها الحاج محمد فرتلة، كان من فرقة البحرية التابعة لحامية تطوان سنة 1246 هـ / 1830 م. ، و أسرة الشولو عرف منها الشولو عبد الرحمان، الخبير في المدفعية، بعثه السلطان في 5 ماي 1862 م لتطوان لشراء المدافع للمدينة من طرف الباشا عبد القادر أشعاش. وبالإضافة إلى عمله كرئيس لفرقة المدفعية بحامية تطوان، كان الخبير الشولو يعمل ميقاتيا بالمسجد الأعظم التطواني من سنة 1280 هـ / 1863 م إلى حين وفاته سنة 1870 م.

إستفاد المورسكيين في القرن 16م

جهد القراصنة

بعد سقوط غرناطة مهدت اسبانيا لمخططاتها بالتوسع في المغرب العربي ؛ فاحتلت ثغر وهران عام 1505م ، ولكن ظهور القراصنة الاتراك بدعم من العثمانيين في المياة المغربية وعلى رأسهم القرصان التركي الشهير عروج (بارباروسا او ذى اللحية الحمراء) ومن بعده اخيه خير الدين افشل الكثير من مخططات الاسبان البحرية في المنطقة ؛ فقد نزل عروج بالجزائر عام 1517م وإتخذها قاعدة للاغارة على الارض والسفن الاسبانية ، لكن القدر لم يمهله كثيرا فقتل في احدى المعارك في العام التالي ، وبعد مقتله قاد عمليات القرصنة اخيه خير الدين الذي استولى على معظم الثغور المغربية وكان لديه نخبة من امهر الرابنة الاتراك الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة وتلقى اسمه كأحد امراء البحر، وعينه السلطان سليم العثماني حاكما عليها وامده بالسفن والجند فتوسع بنشاطه في المتوسط .

ولما استشعر المورسكيون ثقل القبضة الاسبانية اندفعوا يفرون الى المغرب ، ولما ضيق عليهم الاسبان سبل الهجرة الى المغرب ، استعانوا بالقرصنة الترك والمغاربة لتسهيل فرارهم والتف حول خير الدين المجاهدون المغاربة والمورسكيون ، وبدأوا إغاراتهم على الشواطئ الشرقية لاسبانيا لمدة ثلاثة شهور اسروا خلالها كثير من الاسبان وعاثوا في المنطقة وجمعوا عددا كبيرا من المورسكيين الفارين من البقاع الساحلية .

وفي عام 1529م قامت سفن خير الدين بعملية إنزال برى لقواته في اوليفا شمال غربي دانية امام مصب نهر التيا ، استطاعت فيها تجميع واجلاء ستمائة شخص من من بلنسية ، وبعد اتمام المهمة طارد الاسطول الاسباني سفنه حتى جزر البليار ، وهناك إنقلبت سفنه للهجوم واغرقت بعض السفن الاسبانية واسرت بعضا منها ، وعادت بأحمالها من المورسكيين والاسرى الاسبان سالمة الى الجزائر ، وتتابع اغارات خير الدين على السواحل الاسبانية وتقدر اعداد من إستفدّهم في اغاراته بحوالى سبعين الفا (139) .

وبعد وفاته خلفه امير البحر التركي غرود الذي قام عام 1559 م بغارة كبيرة استطاع ان ينقل فيها الفى وخمسمائة مورسكي ؛ وفي عام 1570م استطاعت سفن القرصنة ان تحمل جميع المورسكيين في بالميرا ، وعام 1580م حمل اسطول من

(138) الإسباني غيرمو كوثاليت بوسطو كتابه: "المورسكيون بالمغرب" 89 ، عمدة الراوين، ج 3، ص 176؛ معلمة المغرب م 13 ص 4498.

(139) حضارة العرب ص 370 نقلا عن The Barbary Corsairs _ للاستاذ لاي بول الذي يتناول هذه الغارات ، وكتاب غزوات عروج .

الجزائر الفين وثلاثمائة من بننسية ، وفي العام التالي قامت سفن مماثلة بحمل جميع سكان كالوسا .
وشارك تونسيون في الاغارة على اسبانيا ، ومن اشهر المغيرين عمر محمد باي في الفترة 1007-1019هـ / 1598-
1610م من عهد عثمان داي ، وفي عام 1602م شارك في الاغارات قرصان انجليزى بتشجيع من بحارته المغاربة ركز فيها على
اقتناص الاسبان وبيعهم في اسواق الرقيق بالمغرب .

وساهم بقدر كبير في عمليات الاغثة زعماء المورسكيين في المغرب مثل الرئيس بلانكيو والرئيس احمد ابو على (من
اشونية) ومراد الكبير جواديانو من المدينة الملكية ثيوداد رويال ، وغيرهم من المورسكيين الذين ابلوا بلاء حسنا و كانوا خير
مرشد للقراصنة لاحكام غاراتهم ، وبلغت اغارات الاغثة في الفترة 1528-1584م حوالى ثلاثة وثلاثين غارة عدا اغارات السفن
الصغيرة ، ومن اهم من وقع في اسر القراصنة في تلك الفترة الكاتب الاسبانى ثرفانتس الذى أسر عام 1575م ونقل الى الجزائر
وافتدى عام 1580م ، وللاسف توطأ بعض امراء الثغور في شمال افريقيا مع الاسبان ضد قراصنة الترك الذين ضايقوهم بفرض
الأتاوات ، ولم تكن مأساة اخوانهم المورسكيين متاججة في اسبانيا بعد ، فقد خاطب ابي عبد الله محمد الحسن سلطان تونس
الامبراطور شارلكان في 13 اغسطس 1535م / 12 صفر 942هـ يطلب حمايته من الترك مقابل تسليمه مدينة بونة مما سمح لسفن
الاسبان بالخوض في مياه تونس بعد انضواء اميرها الحفصى المعزول تحت لوانهم سنة 1535م ، كما كاتب ابي عبد الله محمد بن
القاضى صاحب حصن كوكو بالمغرب الاوسط الامبراطور شارلكان سنة 949هـ / 1542م يستحثه على قتال الترك وراحة الناس
منهم.

ولم تستطع اسبانيا سيدة البحار انذاك النيل من القراصنة امام استثناء اغاراتهم في القرن السادس عشر ، وتحول
القراصنة من اعمال الاغثة بعد انتهاء ترحيل المورسكيين الى النهب والقراصنة وسمح لها الولاة الاتراك في طرابلس وتونس
والجزائر باستخدام شواطئهم مقابل ضريبة على الغنائم كما استخدمتهم بعض الدول الاوروبية في مضايقة بعضها البعض والاضرار
بتجارة الاخر ، وقاومت اغاراتهم كل من انجلترا وفرنسا وهولندا في القرن السابع عشر ولم تنقطع الا بعد احتلال فرنسا للجزائر .

قضية المورسكيين اليوم المطالبة بالحقوق

عقد أحفاد المورسكيين في بلدان المغرب العربي عام 2002 مؤتمرا بمدينة شفشاون في شمال المغرب ، دعوا فيه إسبانيا
إلى الاعتذار عن الفظائع التي اقترفتها محاكم التفتيش بحق اجدادهم وطالبوها برد الجنسية الاسبانية للراغبين اعمالا بحق المساواة
بينهم وبين أحفاد اليهود المورسكيين .

وتبنى خوسي أنطونيو بيريث تابياس عضو الحزب الاشتراكي الحاكم في اسبانيا والناطق باسمه في 12 نوفمبر/ تشرين
الثاني 2009 مطالبهم ، فتقدم الي مجلس النواب الإسباني بمشروع قانون للإعتراف بالظلم الذي لحق بأكثر من 300 ألف
مورسكي ممن طردوا من إسبانيا في القرن السابع عشر ، اسوة بما تم بشأن اليهود السفارديم الذين طردوا من إسبانيا عام 1492
، وطالب بالاعتذار لأحفاد المورسكيين في المغرب وتعويضهم بأن تتخذ الحكومة الإسبانية كل الإجراءات الكفيلة بتعزيز الصلات
الاقتصادية والاجتماعية والثقافية معهم .

تعقيب

ان يتم طرد شعب بكامله من ارض عاش فيها اكثر من سبعة قرون ، لهى مأساة الاسلامية ليس لها مثيل في تاريخ
البشرية ؛ مأساة تسبب فيها قادة غصوا الطرف عن مصالح امة وضعت قدرها في ايديهم فلم يصونوا الامانة وانصرفوا للهو
والتنافس على السلطة والجاه والاستقواء في سبيلها باعدائهم على اخوانهم وهم مدركون للخطر المحدق بامتهم فاستحقوا ان تذهب
ريحهم ويرحلوا الى غير رجعة ؛ ولكن النتائج تجاوزتهم فجروا معهم امة بحسرتها وألامها الى الهاوية ، كان فيها الشعب
شاهدا¹⁴⁰ لا فاعلا على مذبحها وتركهم يلعبون بمقدراته وهو يرى قدره المحتوم يقترب ، امة رفضت فلولها القهر وثارت لدينها

وقوميتها ، ولم يثنيها عن المضي في الثورة الا انقطاع المدد وانصراف قادة المسلمين عن نصرتها الا بما تيسر لديهم من الدعاء والاسى وهى ذخائر لا تنفع في رد عدو فاستسلمت مقهورة لقدرها .

ان اجبار امة عزيزه بحضارتها ؛ على ترك موروثاتها التى اضاءت دنيا ذلك الزمان قسرا وطردها من وطن عاشت فيه مع غيرها فى تسامح لهو حقا فاجعة أبدية ؛ ولا مجال للمقارنة بين فتح العرب للانندلس وفتح الاسبان لغرناطة ، فالعرب عندما فتحوا الاندلس لم يخرجوا عن نحل ذلك الزمان الذى كانت فيه الحدود والدول تتغير مدا وجزرا والقبائل تتحرك فى كل اتجاه عبر القارات ؛ ولم يكن الفتح إغتصبا لارض فلا هم صادروا أملاكها ولا طردوا شعبا او غصبوه على الهجرة من بلاده وارضه ولا ارغموه على ترك عقيدته لا اعتناق الاسلام .

فالقوط اهل الجزيرة الاصليين لم يعانوا من حكم الاسلام فهم على علاقات وثيقة بالمغرب العربى منذ عهد الرومان عرقيا فالبربر لهم انتدادات عرقية بينهم كما ان القرطاجيين لهم امتداداتهم العرقية والثقافية القديمة فى ايبيريا ، ولما جاء المسلمون تعايشوا معا بتسامح ورضى ومنافع متبادلة ولم يغتصبوا حقوقه وارض سكانه ، وهو ما فعله المسلمون من قبل عندما دخلوا حمص عام 637/636م فقد تصالحوا مع اهلها على تقاسم الدور والحدائق الشاغرة (141) ، ولم يستولوا على المساكن العامرة وهو ما حدث مع اهل كل البلاد التى فتحوها بما فيها ايبيريا .

واعتدل المسلمون وعدلهم من اسباب سرعة فتوحهم واستقرار حكمهم فقد كانوا اقل جباية من البيزنطيين والساسانيين للضرائب ، ولم يعمدوا للتخريب انتقاما من الشعوب التى افتتحوها اذا ما قاومتهم وكبدتهم خسائر كبيرة كما فعل المغول والاسبان ، وإنما كان العرب مخلصين لهذه الشعوب.

ولعل السهولة والسرعة التى اجتاز بها العرب جزيرة القوط ودخلوا مدنها الكبرى صلحا وبدون مقاومة بفضل وساطة الامير يليان ورئيس اساقفة اشبيلية ؛ يعكس مدى تقبل القوط للمسلمين لما راوا فيهم عدلا وعدم جور او انتهاك لمقدساتهم وموروثاتهم فضلا عن عدم المساس بأوضاعهم وممتلكاتهم ، ويؤكد د لوبون على ان اهل الجزيرة الايبيرية الاصليون كانوا ينظرون للعرب على انهم مخلصين لهم من استبداد حكامهم الغرباء ، والذين بسبب ذلك فترت القوطيين فى الدفاع عنهم أمام المسلمين ، فتغيير حكام غرباء بأخرين لا يعنيه طالما احسن الحكام الجدد معاملتهم ولم يتدخلوا فى شئونهم ؛ وهو ما فعله العرب فأحسنوا معاملة سكان البلاد وتركوهم واموالهم ، واعتدلوا فى مقدار الجزية بما ارتضاه اهل البلاد الاصليين وهو دينارا سنويا عن الحر، ونصف دينار عن المملوك (142).

ان سقوط غرناطة فى اخر عهدها استغرق اقل من خمسين عاما أضاع فيها حكامها ثغور النجدة بإهدار علاقتهم بدولة بنى مرين المجاهد الاعظم لاستحياء الاندلس ، وإنشغلوا بالهزل عن الجد وبالاضطراب حول الصغائر عن التصدى للكبائر والاعداء ، وانقلبوا على من ساعدوهم ففسدوا كل شئ ؛ وافسدوا سنن التغيير ومحاسن التبديل بطول البقاء فى السلطة ولم يتركوها لمن هم اهل لها ، فأسرة الاحمر رغم عجزها عن مواجهة قشتالة تركت صغارا عديمى الخبرة يتناوبون على حكم البلاد عجزوا عن تقدير الموقف الصحيح فى المدى الطويل ، وكانوا يعملون لذر الرماد فى اعين شعبهم مجرد انتصار هنا وانتصار هناك ومعركة هنا واخرى هناك تعلن مواصلة الجهاد دون ان يكون هناك خط ثابت لاسترداد ما خسروه من ارض ومعهم من السلاح والمال والحضارة ما تفوقوا به على الاسبان ، لم يكن هناك الناصح الامين ولا القوى القادر الذى يلتف حوله العقلاء والمجاهدون لتسيير الامور على نحو صحيح وللأسف تنعموا ففترت همتهم ؛ وحال العرب اليوم يُذكر بتاريخ الامس فتاريخهم بمأسية دورة تتماثل كل حين وتكرر ولا مجيب واع .

¹⁴¹ (الفتوح العربية الكبرى - هيو كينيدي ، ترجمة د قاسم عبده قاسم .

¹⁴² (د.جستاف لوبون - 264 .

الكتاب الثالث
البعد الاسلامي
في افريقيا جنوب الصحراء
الفصل الاول
الحضارة والجهاد في السودان الغربى

إفريقيا الغربية قبل الاسلام

إقتضت تجربة الكاتب العملية في غانا وسيراليون في غرب إفريقيا ، البدء من تلك المنطقة لاسباب إرتآها ، فتاريخ الإسلام فيها يمثل فصلاً فريداً في تاريخ حضارة الإسلام من جهة والمنطقة من جهة أخرى ، فهو الذي حررها من عزلتها وفك عقدة جمودها وخلصها من أزمة تطورها ، فانفتحت بها علي الحضارة الإنسانية لتستلهم طريق النهضة ، فأصبحت المنطقة خلال قرون قليلة منطقة رائدة من مناطق المد الحضاري ؛ فالغرب الافريقي رغم حداثة عهده على عالم الحضارة أحرز مكانة مميزة وتعاظم شأنه بالتحاقه بعالم الإسلام ، فدائرة تجارة الاسلام العالمية هيأت له مكانة اقتصادية لم يكن بالغها الا من خلال هذا الانتماء ، وتراكمت لديه ثروة ذاخرة من الثقافة فاقت مثيلاتها في سائر جنوب الصحراء وبلغ صيت " تمبكتو " و " جني " كعبتا علمه الافاق (143)، وقامت بالاسلام إمبراطوريات لأول مرة في تاريخه لم تضاهيها إمبراطوريات الاسلام في شرق القارة .

ولكن بيئة من الظروف الصعبة حلت وتجذرت في غرب إفريقيا ، تركت تداعيات خطيرة وسلبية على مد الإسلام ومجتمعاته لقرون ؛ بدءا من " الاضطراب العظيم " ، الذي إغرق الساحل الغربى في فوضى دموية وهمجية وحشية في الفترة من منتصف القرن 15 م الى منتصف القرن 19 م نتيجة اعمال قنص البشر لصالح تجارة النخاسة الأوروبية / الامريكية واسعة النطاق ؛ زاده اضطرابا على اضطراب المد الاستعماري وما احدثه من نهب للثروات وتدمير الثقافات واستعباد البشر وافراغ الشخصية الأفريقية من هويتها الوطنية ومضمونها الثقافي وإعادة صياغتها في اطار من ثقافة المستعمر " الاحلال الثقافي " ليضمن الهيمنة علي تلك الشخصية ، واخضاعها لمشينته لإقتلاع جذور مقاومتها .

والاستعمار الفرنسي من الرواد الاوائل في هذا المجال ، فهو اول القوى الإستعمارية التي تبنت هذا النوع من السياسات ، وطبقها بضراوة لا مثيل لها ؛ وأبلغ دليل حي على الأثر التخريبي لهذه السياسة ما تعانيه بعض دول المغرب العربى من بليلة في الهوية ، لم تتعافى منها بالرغم من مضي حقب طويلة علي استقلالها .

وساهم التبشير الأوروبي بدور في خلق هذا المناخ المضطرب ، عندما خرج عن دائرة الدعوة وظيفته الاساسية ، ليتحالف مع الاستعمار ضد الامال الوطنية للافريقيين في نيل الحرية فاستفز شعوب القارة ، وكان تطبيقه سياسات تبشيرية واسعة النطاق في مناطق نفوذ الاسلام التاريخية سببا لوقوعه في صدام لا مفر منه مع الإسلام الذي هبت مجتمعاته للزود عن هويتها وتراثها ؛ وفي الوقت الذي عانت فيه المنطقة من تلك البيئة الضارية بيد الفرنسيين على وجه الخصوص وبدرجة اقل على يد الانجليز ؛ تعرضت المنطقة الاسلامية في الشرق على يد البرتغال لضراوة أبشع زادها فظاعة انقضاؤها بكرائية على مناطق الساحل الشرقى بحرب اباداة وحشية مشحونة بالعداء والثأر ضد الإسلام ، استنفرت فيه اثيوبيا .

وبالرغم من وحدة المصايب في المنطقتين ، إلا أن وقعها في الشرق خفف من وطأته قُربه من قلب عالم الاسلام الذي عزز صمودها وهب لنجدتها ؛ بينما إعتمدت شعوب الغرب التي عزلتها وحشة الصحراء على الذات في الدفاع عن هويتها الإسلامية ؛ ومن بين اسباب الاختيار الاخرى غلبة الهوية الإفريقية في الغرب عنها في الشرق ؛ ففي الغرب يمكن تمييز العرق الافريقي بنقاء عما هو عليه في الشرق ، فرغم ما شهدته المنطقتين من تصاهر عرقي واسع النطاق بين البربر والعرب وبينهم وبين الافريقيين في الغرب والوسط ، وبين الافريقيين والعرب على وجه غالب في الشرق ؛ بقيت بطون هذا الانصهار في الغرب على أصلاتها الإفريقية لغلبة عنصرها وطغيانه العرقى في بحر افريقي صافى ، بينما غلبت في الشرق الاصاله العربية مشربة بملامح أفريقية ، كانت

¹⁴³ اهلت روانع تمبكتو المدينة للترشح ضمن عجائب الدنيا السبع الجديدة في عام 2007.

خلاصته هجينا عرقيا وثقافيا مشتركا (السواحيلية) ؛ وهذا التباين يجعل الحديث عن حضارة إسلامية إفريقية خالصة الطابع في الغرب أكثر وضوحا عما هو عليه الحال في الشرق.

كما أن الغرب خزان بشري هائل فهو أكثر مناطق إفريقيا إزدحاما بالسكان ؛ تدين غالبيتها بالإسلام وهي مازالت تزاوّل دورها في دفعه في إقليم لم تُحسم بعد هويته الدينية بشكل قاطع ، وهو ما يفسح المجال أمام تقدم الإسلام بفضل حركة الكتل البشرية الإسلامية وإنسياب قبائلها بعرض إمتدادها العرقي عبر حدود الإقليم ، يساعدها على ذلك طبيعة التسامح الأفريقية التي تتحلّى بها قبائل تضم بطونها كل العقائد دون حساسية.

ما يحظى به الإقليم من وزن على المستوى الإفريقي فرصه من الثروات الطبيعية ضخمة ، وهو بكتلته الإسلامية وبثقله الإقليمي يمكنه المساهمة في خدمة الدائرة الإسلامية ، يدعمه في ذلك جاليات عربية ذات وزن اقتصادي ونفوذ سياسي تقوم بنفس دور تجار الإسلام في دفع مده ؛ ومن الإيجابيات التي رصدناها أن مسيحيو هذه الجاليات يتعاونون بدون حساسية في خدمة مقاصد قوميتهم العربية بما فيها المحتوى الإسلامي ؛ وهي ظاهرة ايجابية تستمد قوتها من وحدة الانتماء القومي للثقافة الإسلامية ، متجاوزة الانتماء العرقي ولعل د بطرس غالي كان بليغا في التعبير عن هذا البعد بقوله انني ابن الثقافة الإسلامية.

واخيرا ما تضيفه خبرة الكاتب العملية على الدراسة من صدقية لاحتكاكه المباشر بالمنطقة علي مدار سنوات ثلاث 1984 - 1987 ، اقتضت فيها واجبات وظيفته مسئولية خدمة البعد الإسلامي في كل من غانا وسيراليون .

ومن هذا المنظور سوف نقسم مبحثنا جنوب الصحراء إلى ثلاث نطاقات يتداخل فيها نطاقا الصحراء والسافانا ، الأول الصحراء وغرب إفريقيا أو السودان الغربي علي إمتداد المنطقة مابين تشاد وحتى الساحل الغربي وبعمقها جنوبا حتى المحيط لخضوع هذه المنطقة لظروف واحدة ، والثاني يضم الساحل الشرقي وهضبة الحبشة كوحدة لخضوعها لظروف مشتركة وعلاقات متشابكة ممتدة ؛ وبينهما السودان النيلي باعتباره نطاقا وسيطا له علاقات بالنطاقين .

الإقليم - العزلة ومبادرة قرطاجة

لم تكن إفريقيا جنوب الصحراء بالمكان المألوف لعالم الأسم ، فقد عاشت عزلة طاغية لقرون طويلة عن بقية أجزاء العالم ؛ غابت فيها عن فوران الحضارة الإنسانية فلم تشارك في مدها بالفعل أو التفاعل وعاشت وكأنها جُرم منعزل في كوكب آخر ، وعندما أطلت عليها تباشير الحضارة من بعيد ، وصلتها ضعيفة واهية ما لبثت أن تلاشت دون أثر يمكن تقصيه ، بسبب الجمود الذي استكانت له وباتت معه الأوضاع السائدة عقبة كاداء أمام " التطور " ، فأصبح الإقليم اسير دائرة مقفلة من الجمود لا فكاك منها إلا بنظام قادر علي كسر تلك الدائرة .

وكانت ظروف الجغرافيا ممثلة في الصحراء الكبرى سببا رئيسا في هذه العزلة ، فقامت الصحراء كحاجز منيع يفصل بين شمال إفريقيا وجنوبها ؛ وحالت بإتساعها وقسوتها دون قيام إتصال سلس بين جزئي القارة بشكل دائم وفعال ، فكانت سببا في بقاء الجنوب بمعزل عن نبض الحضارة الإنسانية في مربضها في حوض المتوسط ؛ فلم ينفذ من مدها إلى المنطقة سوى صدي خافت سرعان ما تبدد بفعل ظروف البيئة السائدة في جنوب الصحراء .

وزاد الامر تعقيدا عدم تطلع أهل الإقليم لكسر سياج العزلة بالاتصال بالشمال ، فعبور الصحراء امرا صعبا لا يمكن تحقيقه الا بشكل جماعي منظم ، كما ان طبيعة الإقليم بمجتمعاته البدوية محدودة المتطلبات وبساطتها ؛ لم تدفعه للمغامرة بمبادرة عبور المجهول لتحقيق تواصل دائم مع الشمال ، الذي كان صاحب المبادرة بالاتصال بدافع من ألياته الحضارية التي تسعى بالفطرة وبحافزه الحضاري لسبر غور الجديد المجهول.

وبادرت قرطاجة رائدة الكشف بتحسس المنطقة في بدايات القرن الخامس ق م بحملة تضم 60 سفينة و30 ألف رجل بقيادة " هانو أو حنا Hanno " ، وصلت سيراليون والكاميرون والجاون ، وكانت تتردد سفنها على المنطقة من حين لآخر طلبا لإحتياجات محددة ، واطرها الفيلة التي كانت سببا في انتصار قرطاجة في الحروب البيونية (Poeni) الفينيقية باللغة الرومانية وتعني حروب قرطاجة) التي قادها حنا بعل Hanibal القائد القرطاجي الشهير على روما ، وقد يكون من اسباب فرض قرطاجة

سرية على دروب التجارة مع المنطقة هو حرمان الرومان من جلب الأفيال (144) .
وإدار بربر شمال إفريقيا العلاقات الدائمة مع المنطقة نيابة عن قرطاجة ، وإقتصرت الاتصال بين الطرفين على معاملات يضيق نطاقها ليقصر على ذهب الجنوب وملح الشمال بصفة رئيسية ، واستمرت العلاقات عبر الصحراء مسئولية البربر في عهد الرومان الذين توقف نفوذهم عند الحدود الشمالية للصحراء ؛ ولم تترك صلات قرطاجة إحدى قوى الحضارة تأثير يُعَدُّ به في تطور الإقليم من الناحية الحضارية لمحدودية الاحتكاك وسرعته وعدم الاستقرار ، فلم يكن هناك ما يحفزها لترك نواة بشرية تجلب معها الحضارة وتتعهدها .

ولكن قرطاجة بالتأكيد هي وولايات البربر الليبية كانت أحد منافذ تسريب تباشير الحضارة إلى جنوب الصحراء (145) ، وإن كان " سينسر ترمينجهم " ينكر على قرطاجة القدرة على نفث الحضارة في الإقليم لأنه يرى أن طبيعتها التجارية عادة ما تحد من القدرة على خلق نتاج حضارى (146) ؛ وفي ذلك تجنى على شعب عريق كالفينيقيين (أصل القرطاجيين) ذوي الحضارات المنتشرة على امتداد سواحل البحر المتوسط ، الذين اهدوا إلى الإنسانية أولى الأبجديات التي مازال الغرب يستخدمها حتى الآن وسبق أن تعرضنا لنتائج الحضارى في الشرق وأوروبا .

وفي رأينا أن قرطاجنه كمستوطنة حديثة العهد في الشمال الإفريقي إنشغلت بتثبيت وضعها في مستعمراتها المتوسطية وبالذات قرطاجة الجديدة جنوب الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا) ، في وقت لم تترك لها حروبها مع الإمبراطورية الرومانية (147) ، فرصة لتكريس مدها البحرى لإقامة مستوطنات جديدة في منطقة نائية يكتنفها الغموض والصعوبات ولا تخدم أهدافها الاستراتيجية الملحة ، كما لم تُغرم طبيعتها المناخية القاسية على التفكير في إقامة مستوطنات ساحلية على أرضها ؛ فطبيعتهم كشعب بحرى إنصرفت باهتمامهم إلى الساحل وتجاهل الصحراء .

إحتجاب الإقليم عن الديانات السماوية

أسهمت العزلة في إحتجاب الديانات السماوية عن الإقليم ، فتوقف تأثير اليهودية عند مناطق البربر في الصحراء دون أن تمتد بينهم أو عبرهم جنوب الصحراء ؛ وهم همزة الوصل مع المنطقة ، بسبب غلبة الوثنية بينهم ولاحجام اليهودية نفسها عن التبشير لطبيعتها العنصرية بإحصارها في العنصر اليهودى فقط ، ولذا إختفت اليهودية مع اختفاء العنصر اليهودى بذوبانه في المحيط المحلى أو برحيله ، تاركا مستعمراته اطلالا كشافه على سبق وجودهم .

وصفها " ابن خلدون " أثناء مروره بها في رحلاته جنوب الصحراء وهي مستوطنة " القصور " ، كما أورد المؤرخ المالى " محمود كعت " وصفا لاطلالها في كتابه " الفتاش " ، ويُعتقد أنها كانت ليهود فارين من اضطهاد الرومان في المشرق أو يهود من البربر ، فروا فيما بعد من سبرانكا "برقة" عام 115م إلى داخل إفريقيا ، واستقرت في حوض النيجر الأوسط ، وانتقلت إلى السنغال وتلاشت في سكانها المحليين دون أن تترك أثرا يذكر.

ولم تنجح المسيحية أيضا في بث نفوذها عبر الصحراء ، فلم يكن أمامها متسعاً للعبور لأرض جديدة ، ولم يتجذر وجودها في شمال إفريقيا على أرض غير صلبة يتنازعها العداء المستحكم بين مذاهبها على مدى قرن من الزمان على غرار ما فعله الوندال الآريين ببقية الطوائف (148) ، وارق القيصر قسطنطين سيول من الدماء لوضع حد للصدامات بين طوائفها دعما للمسيحية .

وحسنت كراهية البربر للرومان المستحكمين في بلادهم رفضهم اعتناق عقيدة أعدائهم ، وبالتالي عدم إمتدادها جنوبا ، وبذلك بقيت منطقة جنوب الصحراء بمعزل عن تأثير الديانات الكتابية حتى وصول الإسلام إلى شمال إفريقيا وتغلغله عبر الصحراء حاملا إلى الجنوب لأول مره عقب الحضارة على نحو غير مسبوق في تاريخ المنطقة ، فتفرد وأنفرد بصياغة حياتها حتى بداية

¹⁴⁴ المرجع E.W.BOVILL The Golden Trade Of The Moors P. 41 - by

¹⁴⁵ يقول دافيدسون ص 25 " تسربت تباشير الحضارة إلى القارة عبر ثلاث منافذ كوش التي كانت أعظم حضارات الجنوب في بعض الجوانب ، وقد تولت مهمة نقل الحضارة المصرية في القرن الثامن قبل الميلاد ، والمنفذ الثانى قرطاجة وولايات البربر الليبية ، ثم بلاد البخور في جنوب الجزيرة اليمن وحضرموت.

¹⁴⁶ المرجع Spencir Trimingham History of Islam in West Africa; P 14 -

¹⁴⁷ استمرت الحروب البونية الأولى (264 - 241 ق م) والثانية (218 - 201 ق م) والثالثة (149 - 146 ق م) .

¹⁴⁸ جوستاف لوبون - حضارة العرب ص 245 .

القرن السادس عشر .

أزمة الحضارة بالاقليم

انتشر البربر على الرقعة الممتدة في شمال افريقيا ، بين الاسكندرية والمحيط الاطلسي غربا ، وكانوا زمرا منقسمة ومتقاتلة ، لم تتح طبيعتهم المنعزلة والمتناثرة اقامة سلطة مركزية تضمهم في دولة كبيرة ، وكان الرومان بعد تجربتهم الدامية مع قرطاجة لا يسمحون لهم بتكوين مثل هذا الكيان ؛ ولم تُتَح طبيعتهم البدوية لهم حظا من الحضارة (149) ، فلم تحمل حركتهم الى الجنوب قبل الاسلام مكونا حضاريا يُعتد به ، فكان اقصى ما بلغته المنطقة من حضارة حتى القرن الحادى عشر الميلادى تقريبا ، هو نموذج مملكة "غانة " حضارة الإقليم اليتيمة ؛ وهو نموذج بسيط لحضارة العصر البرونزي Post –Neolithic ، ينسب الي عالم الحضارات الخاملة .

عجز انغلاق الاقليم وتجذر ازمته الحضارية الى عدم قدرته على تجاوزه خاصة وانه غاب عن اللحاق بعصر الحديد (صناعته) معدن الحضارة المتقدمة عن بقية العالم بفارق 1200 الى 1400 عاما تقريبا بعد إكتشافه في اسيا الوسطى (150) ، ونفقد شواهد اخرى الى مدى زمنى ابعد بفارق 2500 عام تقريبا عندما عرفته عام 1150م ، فيفيد الزهرى الرحالة والمؤرخ العربى ان غانا استخدمت فى حملاتها عام 1150م سيوف ورماح من الحديد ، ضد اعداءها الذين كانوا يستخدمون أسلحة من قضبان الابنوس (151) .

ولعبت البيئة بدورها المهيمن على عملية التطور (152) ، دورا فى تأخر الاقليم عن ركب الحضارة ، فالمنطقة بطبيعتها الجغرافية تشكل جيبا فضفاضا خاوى الوفاض على اتساعه من البشر ، اغرقته كثافته السكانية المحدودة بنمطها البدوى في تيه غاب معه الاستقرار والسلطة المركزية ، فعجزت فلول البشر عن تعظيم إمكاناته لافتقادها الاستقرار وادارة معطيات التطور (153)، فإستطاعت البيئة شرنقة مفردات الحضارة الواردة في أضيق نطاق فى عزله محكمة ، واصبح الجيب " ثقب أسود " يمتص ما فى محيطه ويُفنيه .

ومثل هذه المجتمعات المنعزلة ينتهى بها الامر للاستكانة والخضوع التام لظروف محيطها وضوابط بيئتها ، فتصبح اسيرة دائرة من الجمود لا نهاية لها ، وفى ضوء الخلاصات المتقدمة أثبت التاريخ أن المجتمعات الرعوية المنعزلة عادة ما تكون محدودة التطور واسيرة الجمود ، وفى ظل هذه المعطيات أصبح الاقليم أسير " أزمة حضارة " يتطلب الخروج منها نظام قادر على شحذ عوامل النهضة ؛ وهذه نقطة هامة لصالح الإسلام الذي تمكن بمنظومته الحضارية من فك عقدة جمود الاقليم والخروج به من أزمة الحضارة الى طريق التطور والحضارة الإنسانية.

وإذا ما تقصينا وضع حضارة غرب افريقيا او جنوب الصحراء فى منطقة الانهار التى توفر بيئة الاستقرار اللازمة للتطور (154) ، لا نجد اختلافا حضاريا يُذكر يتجاوب مع وجود النهر عن بقية المناطق البدوية ، فقد كان من المفترض ان تكون مناطق الانهار أكثر استقرارا وتطورا بزراعتها المستديمة ومجتمعاتها المستقرة وادارتها المركزية التى تدفع الامور وتطورها ؛ فمجتمع الاستقرار نظام معقد اجتماعيا واقتصاديا يفرز مشكلات معقدة تستثير القرائح الابداعية لايجاد حلول مبتكرة لها ، وهو ما يلحق تغييرا محمودا بالبيئة المحيطة تظهر معه من جديد مشكلات أكثر تطورا يتم التغلب عليها من خلال حلول جديدة ايضا ، فى عملية دوائر متجددة تعيد صياغة الازواضع القائمة للبيئة الحالية فى شكل أكثر حداثة و تطورا فى صورة بيئة جديدة ، فى دورة لا تنتهى من

149 (جوستاف لوبون - حضارة العرب ص 256.

150 اكتشفت أسيا المعدن عام 1300 ق.م وكان هذا سببا فى تفوق الحيثيين والآشوريين على أعدائهم ، وكانت جنوب الصحراء تستخدم الذهب والنحاس حتى سنة 200 بعد الميلاد ووصل الحديد الى غانا من خلال قرطاجة او ليبيا عن طريق البربر فى فترة ما بين القرن الاول الى الثالث الميلادى سابقة الاقليم الغربى كله .

151 (افريقيا القديمة تكتشف من جديد - ياسيل دافيدسون ص 42 .

152 (يخالف بذلك رأى القائل برد التفوق أو التأخر للخصائص العرقية .

153 (معادلة التطور = تفاعل الإنسان مع احتياجاته المتجددة ومعادلتها بثوابت البيئة ومشكلاتها وايجاد حلول ، تؤدي حصيلته كله للتطور فى دائرة متجددة وهذا يستلزم الاستقرار لضمان التفاعل طبقا للمعادلة السابقة فيخلق اقتصاديات (انتاج زراعى وصناعى ؛ وما يفضي اليه فانضمهما من قيام تجارة مع الآخرين) .

154 (خريطة الانهار الافريقية فى ملحق الخرائط للتعرف على المناطق المحتملة للحضارات .

الفعل ورد الفعل ، ومن اسباب عدم توصل المنطقة بنمط تطورها الى نمط مناطق الانهار العظمى في عالم الحضارات الفاعلة ؛ هو قلة الكثافة السكانية التي عادة ما تضيق تطلعاتها البسيطة بحدود بساطة مشكلاتها ، فعدم وجود مشكلات معقدة مثل تلك التي تستثير مجتمع الاستقرار في عالم الحضارات لم تستدعي هذه المجتمعات لإستثارة الابداعية وحلولها ، وبالتالي اجهض غياب الابداعية التغيير الذى هو عامل رئيسى للتطور ؛ وبالنسبة لبقية جنوب الصحراء لم يختلف الوضع عما كان عليه الحال في النطاق الغربى ، باستثناء الحبشة والنوبة اللتين سبقتا الي استقبال الديانات السماوية والإحتكاك بالحضارة العالمية ، فتهيأ لهما نمط حضارى أرقى مما كان لحضارة " غانة " رغم ثراء الاخيرة.

دورة المد الاسلامى جنوب الصحراء

المداخل

تتابع مد الاسلام فى ظل الخلفاء الراشدين فى القرن 7 م شرقا وغربا تحت سقف البحر المتوسط ؛ ومع تولى الأمويون الخلافة انطلقت الفتوحات فى كل الاتجاهات ، ومع تقدم الفتوح عبر الاسلام جنوب الصحراء الى عمق افريقيا عبر المداخل التالية :

1- مدخل باب المندب

وهواقدم مداخل المد الاسلامى الى افريقيا ، فقد عبره المسلمون الاوائل فى القرن السابع الميلادى فى اولى هجراتهم عندما حملتهم الاقدار الى الحبشة للاحتماء بعدل النجاشى من اضطهاد قريش ؛ وكانت طبيعة هذه الهجرات مؤقتة لم يكن هدفها الاستقرار ، فلا يُعتد بها فى مجال المد الحقيقي الا بما تركته من ظلال على ملك الحبشة وحده دون بقية البلاد .

تتابعت هجرات المسلمين عبر باب المندب الى القرن الافريقى فقد استهل الفارون من الإضطهاد الأموى فتح باب الهجرة ، وعلى دربهم هاجر شيعية وسنية من فارس واليمن وحضرموت ؛ أقاموا إمارات على الساحل الشرقى كان لها دور بارز فى نشر الاسلام جنوبا على طول الساحل الشرقى وغربا الى الداخل الافريقى سنترض لها بتفصيل عند تناولنا هجرات العرب الى المنطقة .

2- المدخل الشمالى

من مصر جنوبا إلى السودان ، حيث تفرقت طلائع الاسلام على مدى الاجيال نحو عمق إفريقيا جنوبا وغربا حتى ساحل السنغال ، ليلتقى بطلائع المد الاسلامى القادم من المغرب العربى ومن ليبيا إلى تشاد في القطاع الوسيط ومنها تفرق شرقا وغربا.

3- مدخل الجنوب الاقصى

وهذا المدخل يختلف في طبيعته عن المداخل الاخرى ، فقد عبره الاسلام من الهند وجنوب شرق آسيا (الملايو) قفزا عبر المحيط الهندى ، ومعهما عناصر افريقية من شرق القارة جاءوا جميعا مدفوعون بضغوط الاستعمار فى حوالى القرن السابع عشر ، أى بعد مرور عشرة قرون على الأقل من مد الإسلام في المناطق الشمالية والشرقية واقل من ذلك فى الغرب .

أدوات المد الإسلامى ودورته

بعد تحلل امبراطورية الامويين ، تعهد العباسيون والدول المتعاقبة فى مصر مد الاسلام عبر النوبة وعبر الصحراء الشرقية حتى البحر الاحمر ؛ وتعهد البربر المد الى شبه الجزيرة الايبيرية وعبر الصحراء الكبرى جنوبا فى القطاع الغربى والوسيط ، وشاركتهم قبائل العرب فى حركتهم للاتجار او للاستقرار ؛ وساهمت دول الاسلام المحلية بعد ذلك فى مد الاسلام ومن بعدها جاءت الجماعات الصوفية ودولها التى كان لها شأن عظيم فى مد الاسلام فى العديد من الانحاء فى أرجاء القارة السمراء .

أخذ المد الاسلامى شكل دورة متكررة لا خروج عنها ، فسار فى ركب التجارة ومع القبائل المهاجرة الى مستقرها الجديد كنواة لمجتمع إسلامى ، يتضخم بالوقت ويتعاضم وضعه الاجتماعى تبعا لتعاضم قوته الاقتصادية ، تُهيئ له ركيزة سياسية تصبح دولة تتعهد مع نموها الطبيعى الدعوة ؛ وعندما تدرکها الشيخوخة تخفى تاركة المجال إما لدولة اخرى او لجماعة صوفية تتحول مستقوية بمؤيديها الى دولة تقوم بدورها فى مد الاسلام اما عن طريق الدعوة لتصحیح العقيدة واما عن طريق الجهاد.

اولا : كانت التجارة هى الاساس والمقدمة الاولى في مد الإسلام ، فلم يقتصر دورها ابدًا على التبادل السلعى وإنما كان لها بالتوازي دورا ثقافيا ، فالتجار فى حقيقة الامر رُسل ثقافة فعادة ما ينقلون ثقافتهم الوطنية للشعوب التي يحتكون بها او يندمجون فيها ؛ وبفضل قوتهم الاقتصادية وما يستتبعها من مكانة اجتماعية مرموقة ، يتهيأ لهم بمرور الوقت تأثير قوى على الحكام

والمجتمع ، ويفرز هذا الوضع المتميز مناخا ايجابيا فى ادراكات المجتمع المحلى نحو هؤلاء التجار وثقافتهم ؛ مما شجع على انسياب الثقافة الاسلامية بهدوء رافع لتصبح جزء متوحدا فى كيان هذا المجتمع .

ثانيا : حركة القبائل ودور الكيانات الناشئة ؛ ويُعظم تأثير النواة الناشئة إنصهارها فى المحيط السكانى الجديد ؛ وعندما يصبح لها بطون محلية متجذرة الهوية أكثر اندماجا وانتماءً ، تحظى بقبول وتقبل المجتمع المحلى الذى يعتبرها جزء لا يتجزأ من كيانه ؛ يتعاظم تأثيرها مع تضخم عددها ويتبعه تعاظم دورها بمرود ايجابى على مد الإسلام فى المدى الطويل ؛ وعندما تستشعر النواة المسلمة بمرور الوقت قوتها وتزايد وزنها الاجتماعى والاقتصادى تسعى لإثبات هويتها وقوتها ومكانتها بالقيام بدور سياسى ينتهى اما بالهيمنة او بالانفصال فى كيان متميز (الدولة) ؛ وما حدث فى ممالك غرب افريقيا والنوبة نموذج جلى لهذا المسلسل، فقد دخلها الاسلام بالتجارة ثم الهجرة وبعد الاندماج والمصاهرة تسلمت البطون قياد الحكم ، ومع تزايد الاسلام قوة اعتنقت الأغلبية فاصبح يهيمن على صياغة نواحي الحياة .

ثالثا : جهاد الدول

ومع تحول كيانات الاسلام الى دول تتعهد نشر الاسلام ، ومع دخول شعوب جديدة الى العقيدة تتداخل عليها مفاهيم غريبة نتيجة اندماج ثقافات جديدة ، ومن سنن التطور أن ينعكس حال الممالك من ضعف او قوة على مناحى الحياة بما فيها العقيدة ، فتبادر هذه الدول بالتدخل لتصحيح وتقويم الامر ؛ ولكن فى حالات ضعفها وعدم قدرتها على العمل ، يتقدم الدعاة لهذه المهمة فتتولى الجماعات الصوفية تصحيح مسار العقيدة وحماية الدعوة والزود عن البلاد والامة وان اقتضى الامر الاستيلاء على السلطة ؛ وفي معظم الأحوال فى افريقيا الغربية وشرق افريقيا أخذت هذه الحركات التصحيحية شكل الجهاد فى مرحلة ما من تاريخها .

ومن الملاحظ أن أدوات المد الإسلامى الثلاث التجارة وحركة القبائل والكيانات السياسية تعمل بالتداخل أو بالتتابع ، ومن المثير للدهشة أنه كلما إختل دور إحدى هذه الوسائل قىض الله الوسيلة البديلة لتستمر الدعوة فى مسيرتها ، وإذا ما إستعرضنا طبيعة المد الإسلامى جنوب الصحراء ، نلاحظ أنه فى بداية عهده تقدم لاجئاً سياسياً إلى الحبشة ، ودخل نطاق الصحراء فاتحاً شأنه شأن مده الفاتح فى الشمال ، وواصل تقدمه جنوب الصحراء تاجراً ومهاجراً فى معظم الأحوال وفاتحاً فى بعض الأحيان ، وهو نفس النهج الذى سار عليه بامتداد منطقة " السافانا " ، أما فى أقصى الجنوب الإفريقى فجاء تقدم الاسلام قفزاً برفقة ضحايا الاستعمار من المنفيين والمستعبدين المسلمين من جنوب شرق آسيا من الملايو والهند الذين وصلوا منطقة " الكيب " فى القرن السابع عشر الميلادى ، ومعهم العمال المسلمين الذين جلبهم الإستعمار من الهند وزنجبار للعمل فى حقول السكر بمنطقة " الناتال " .

اسلام البربر

كان البربر أهم العناصر العرقية فى شمال افريقيا عند الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ، بحكم انتمائهم الاصيل الى المنطقة وكثافتهم العددية وانتشارهم الجغرافى الذى امتد ما بين الاسكندرية وحتى ساحل الاطلنطى ، ويلبهم من الناحية العددية الافريقيون اهل تونس (155) ، وهم اخلاط من الفينيقيين واليمنيين والفلسطينيين وبعض اللاتين علاوة على الروم طبقة الحكام الوافدين الذين كانوا أقلية مكروهة قاسى الجميع من سطوتها واذاها واضطهادها الدينى ، الذى لم يسلم منه مسيحيو المذاهب الاخرى المختلفة .

كان أول احتكاك للبربر بالاسلام عندما بعث " عمرو بن العاص " والى مصر ، ابن شقيقته " عقبة بن نافع " الى "برقة" عام 22 هجرية للاتصال بزعمائها تمهيدا لفتحها ، وقد نجح عقبة فى مهمته بسبب رغبة البربر فى التخلص من حيف الروم وجورهم ، فعاهدوه على الاسلام ودعم جيشه عند قدومه ؛ وبعد قيامه بفتح الساحل الليبى تقدم داخل الصحراء عام 23 هجرية وفتح "فزان" و "ودان" ، فى نفس الوقت الذى تقدم اليها " يسر بن أرطاة " وتوقفت قوات الاسلام عن فتح افريقيا (تونس) بأمر الخليفة "عمر بن الخطاب" الذى حذر من فتحها لحكمة إرتأها قانلا "ان افريقية لمفرقة ، غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد مابقيت" ؛ فاستقر "عقبة" عندئذ فيما بين اعوام 23 - 27 هجرية فى برقة واشتغل بدعوة البربر الى الاسلام فأسلم

(كانت تونس تُسمى افريقيا ؛ فلم تكن افريقيا تعنى ابدا جنوب الصحراء .

على يديه الكثيرون ، وفى عهد الخليفة عثمان ما بين 28- 40 هجرية ، عرقلت الفتنة الكبرى الفتوح الإسلامية الى انتهائها عام 40 هجرية ؛ بعدها استعاد "عمرو بن العاص" ولاية مصر وإستأنف فتح إفريقيا ، فأرسل عقبة عام 41 هجرية الى قبيلة "لواتة" فأعادها الى الإسلام ومعها ايضا قبيلة "ودان" .

وبعد إسلام العديد من قبائل البربر استجابت اعداد كبيرة منهم لدعوة عقبة للجهاد ولعظم مكانته بينهم إنضموا الى جيشه ، وبعد ذبوع معجزاته لما هو معروف عنه بأنه مُجاب الدعاء (156) اسلمت اعداد كبيرة منهم ؛ وتسنى له ان يجمع جيشا كثيفا بعدما رد اليه " يزيد بن معاوية " القيادة ، فتوجه به الى " دكرور " لاستلام القيادة من " ابي المهاجر بن دينار " ، وتابع الجهاد ففتح " طنجة " ، ولما راودته فكرة غزو بلاد " القوط " فى شبه جزيرة " ايبيريا " ؛ نصحه " يليان الغمارى " ، ملك طنجة بتجنب الاشتباك معهم لكثرتهم ، واوصاه بدلا من ذلك بمواصلة فتوحه بين البربر الذين خبرهم ؛ وتقدم عقبة فى السوس الادنى (وليلى) والسوس الاقصى حتى بلغ المحيط وتابع تقدمه داخل الصحراء ؛ وفى طريق عودته فى قلة من جنوده أستشهد ومعه المهاجر بن دينار فى كمين قُرب " تهودة " بالصحراء ، دبره لهم "كسيلة بن لمزم" بالتعاون مع " الكاهنة " ملكة جبال " اوراسى " ، بعد هروبه وارتداده عن الإسلام.

ويُسجل للبربر انهم كانوا اسرع عناصر اهل شمال افريقيا اعتناقاً للإسلام (157) رغم انّ انتشاره بينهم قد مرّ بصعوبات لارتداد كثيرًا من قبائلهم عن الإسلام نحوًا من اثنتي عشر مرة ، فهم كانوا اسرع من إسلام شعوب الشام والعراق ، وضرب " عمرو بن العاص " المثل بسرعة اسلام " برقة وزويلة " فى خطابه الى الخليفة " عمر بن الخطاب " ، ويردّد حسين مؤنس سرعة اسلام البربر الى عدم انضمامهم لاي عقيدة كتابية ، واسلام زعاماتهم ومعاملة المسلمون الكريمة للبربر وحكامهم ، فـ " عثمان بن عفان " رضى الله عنه فك أسر " زمار بن صقلاب " أمير " مغراوة و زناتة " وأقره أميراً على قومه فعجلت تلك المعاملة بإسلامه واسلام اعداد كبيرة من قومه عرفانا بهذه المعاملة الكريمة ؛ وكان اسلام " كسيلة بن لمزم " أبرز زعماء البربر على يد " المهاجر بن دينار " حدثا عظيما استتبعه اسلام عددا كبيرا من قومه ؛ ولا يقلل من شأن الحدث ارتداده بعد ذلك لاسباب شخصية بينه وبين " عقبة بن نافع " (158) .

و يرجع ميل البربر الى الإسلام ، الى رضاؤهم عن سياسة اللين والملاينة التى اختصها بهم ولاية المسلمون دون سائر السكان ؛ فقد ساوى الحكام بين العرب وبين البربر ، على اساس ان ارضهم فتحت صلحا لاغوة ؛ فشجعت هذه المعاملة البربر على نصرة الاسلام والاشتراك فى جيش الفتح ، مسجلين بذلك أولى خطواتهم على طريق الجهاد ، ويسجل للولاة المسلمين عقبة بن نافع ، والمهاجر بن دينار وزهير بن قيس ، وحسان بن النعمان ، وموسى بن نصير ، الفضل الكبير فى مد الاسلام بين البربر .

البربر وحمل لواء الاسلام

بعد انتشار الاسلام بين البربر فى القرن الثامن الميلادى ، حملوه معهم فى حركتهم عبر الصحراء سواء للتجار او فى هجرتهم ، وانفرد البربر بالدعوة عبر الصحراء وهم الذين خبروا مسالكها على مدى القرون فى الوقت الذى انصرف فيه العرب الى الفتح وتعزيز وجودهم فى شمال افريقيا وشبه جزيرة ايبيريا ، وتركوا الصحراء التى خبروها بالفطرة ولم تغرهم بجديها ومشاقها للمغامرة بفتوحاتهم فيها وتركوها للبربر خبراء الابحار فيها ، الذين ساعدهم استخدام الجمل على نطاق واسع فى تحقيق ثورة فى علاقات الاقليمين ، تدفقت على متنها الحضارة من الشمال الى الاقليم (159) ، وكان قدوم المولى " ادريس الاكبر " العلوى ، الى المغرب عام 172 هجرية / 789م ، فارا من ملاحقة أبناء عمومته " بنو العباس " ؛ دعما ونصرة للإسلام بين البربر الذين أمنوا

¹⁵⁶ (وهو فى طريقه الى فتح " خاوار " ، فى الموقع الذى سُمى " ماء الفرس " ، تفجر الماء من تحت قدمي فرسه فى وادٍ فقر استجابة لدعائه ، حيث حفر المسلمون سبعين بئرا فى المنطقة عندما ادركوا وفرة الماء ليرتوى الجيش ، وفى " قمونية " عام 50 هجرية " اخلت الوحوش المكان استجابة لندائه " إنا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنا نازلون فارتحلوا " ؛ وهو المكان الذى سُمى بعد ذلك " وادي الوحوش " واتخذة عقبة موقعا لبناء " القيروان " التى انتهت من بنائها عام 55 هجرية

¹⁵⁷ (وياتى الافريقيين من بعدهم فى سرعة الاسلام .

¹⁵⁸ (أسلم كسيلة على يد ابن دينار وكانت العلاقة بينهما طيبة ؛ وبعد إستلام عقبة القيادة المرة الثانية من ابن دينار تسببت شِدته مع كسيلة رغم نُصح ابن دينار لاستعداد الأخير وارتداده عن الاسلام وانضمامه الى " الكاهنة " ملكة جبال " اوراسى " ، بعد هروبه.

¹⁵⁹ (دخل الجمل افريقيا باعداد محدودة لأول مرة عام 525 ق.م على يد الفرس عند غزوهم مصر ، وكانت ندرته سببا فى استيلاء قيصر الروم على اعداد منه من مدينة تابسوس عام 46 ق.م ، وقد استغرق وصول الجمل الى المغرب الأقصى عدة قرون ومع قدوم العرب تزايد استخدامه على نطاق واسع.

البيعة له ولآل البيت لدى قبائل البربر من " أوربة " أكبر قبائل البربر وتبعها بقية القبائل زناتة - زواغة - زواعة - لماية - سودراتة - غياثة - تنزة - مكناسة - غمارة (160) ، ويسجل لقبيلة " صنهاجة " البربرية العربية الأصل قيامها بتوحيد قبائل البربر ونشر الإسلام بينهم ومن بعدهم بين الشعوب الأفريقية بدءا بغانا ، وعندما بلغت صنهاجة مبلغا كبيرا من القوة تمكنت من توحيد معظم القبائل البربرية ، وناجزت " غانة " المملكة الوحيدة ذات الحضارة بجنوب الصحراء ، وانتزعت منها " أودغشت " عام 222 هجرية / 836م واتخذتها حاضرة لها لكن غانة استعادتتها عام 990م بعد ضعف صنهاجة وانحلالها .

وتناقلت قبائل البربر لواء الدعوة الواحدة تلو الأخرى ؛ فسلمته صنهاجة الى المرابطين ومنهم انتقل الى الموحدين (عام 515 هجرية / 1121م) ، الى أن تسلمته الشعوب الأفريقية ذاتها ، لتصبح الدعوة مسنوليتها في ألمصاف الأول في نطاق السافانا ، ولم يكن تحمل الشعوب الأفريقية مسؤولية الدعوة يعنى انقطاع دور البربر فقد استمرت مشاغل الاسلام مضيئة في ايديهم ، تتناقلها قبائلهم في عمق جنوب الصحراء وعبرها ؛ وكلما اشتدت بهم الاسباب كالجفاف وشظف العيش وتعرضوا للمعاناة على أيدي قبائل " بنى هلال و بنى سليم " العربية ، زادت حركتهم كثافة فكانت معاناتهم من حُسن طالع الاسلام (161).

مناجزة البربر غانا

تقدم "المرابطون" ، بقيادة عبدالله بن ياسين عام 1054م لفتح "أودغشت" مرة ثانية وغانة ، لكن المنية وافته قبل أن يتحقق هدفه ، وبعد وفاته بخمس وعشرين عاما تمكن تلميذه أمير المرابطين " ابوبكر عمر اللمتوني " وأبنة الأمير أبو يحيى ، من دخول العاصمة " كومبي " سنة 469هـ / 1076م وأسلم ملكها تنكامين (162) ؛ فكان فتحا لغانة دخولها عبادة الإسلام ، بعدما كانت اضاءتها من قبل تباشير عابرة بإسلام ملكها ثلوتان ابن تكلان سنة 222هـ - 837م دون ان يعتنقه ملوكها التابعين وان كانوا بقوا على مودة مع المسلمين واستعانوا بهم في كثير من شئون البلاد وادارتها.

تجارة عبر الصحراء

صاحب تطور تجارة عبر الصحراء تطور مراكزها على طول الطريق الى " غانة " ، كما اسبغ ذلك على غانة تطورا كبيرا من جراء توسع التجارة باستقرار مجتمع التجار المسلمين فأصبحت مركزا تجاريا عظيما ، اجتذب قطاعات أخرى من المسلمين من العاملين في قطاع الخدمات المجتمعية اللازمة لهم بما فيهم العلماء لرعاية الجانب الثقافي للجالية المسلمة ، علاوة على الصناعات والحرفيين المهرة .

هيا هذا الوجود بابا لنقل كثير من تطبيقات الحضارة الاسلامية ، فأصبح المجتمع الاسلامي بحضارته الفائقة وثوراه ونفوذه محل اهتمام ملوك غانة والمجتمع ، فاستعان الملوك بالمسلمين في مجال العلم وإدارة شئون البلاد ؛ واتاحت مكانة التجار المتميزة وقوتهم الاقتصادية نفوذا لدى الملوك والمجتمع الذين أقبلوا على الثقافة العربية الراقية ، فسهل ذلك انتشار الإسلام وثقافته واصبحت غانة اكثر تحضرا ، ومع تمكن الاسلام من ملوك غانة وزعماء قبائلها انتشرت العقيدة لتصبح بعد فترة غانة مملكة اسلامية .

ارتبط مد الاسلام بمد التجارة وارتبطت حركتهما ، فكان تغير مد حركة التجارة يعنى ايضا تغير حركة مد الاسلام ، فتحركا معا عبر الصحراء الى غرب افريقيا شرقها وغربها وجنوبها ؛ الى الساحل والداخل ، وغير كليهما اتجاها في القرن الخامس عشر الميلادي عندما اقلت تجارة الصحراء بسبب اغلاق بوابتيها الشمالية " سلجماسة " والجنوبية بسبب حروب المراكشيين والأسبان في الشمال ، والغزو المراكشي في الجنوب فتحول مسارها الى مناطق الداخل والساحل الغربي الأكثر إستقرارا بإجتذاب من التجار الأوروبيين الذين ظهروا هناك واستتب هذا افول طريق عبور الصحراء وتدهورت مراكزه الخدمية .

¹⁶⁰ (24) طارد العباسيون ابناء عمومتهم العلويين على يد موسى الهادي العباس منذ موقعة " الفخ " في الحجاز عام 169 هجرية فتفرقوا في الامصار .. المرجع: الامام ادريس مؤسس الدولة المغربية - ص 32 و 40 - مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الاسلامي - الرباط العدد 31 لعام 1988م.

¹⁶¹ دفع الخليفة الفاطمي في مصر بقبائل " بنى هلال و بنى سليم " العربية الى شمال افريقيا لتأديب " المعز بن باديس " (1016 - 1062م) حاكم تونس لخروجه عليه ؛ فقامت هذه القبائل بمحاصرة القيروان و نهبتها بعد سقوطها و خربوها فافل نجمها وانتقل الثقل الثقافي الى الاندلس والمغرب .

¹⁶² (ابن خلدون ص

وكان تغيير التجارة وجهتها بمثابة تغيير في وجهة مد الإسلام على نحو متطابق ، وفي نفس الاتجاه فحركة التجارة والاسلام صنوان ، فبينما كانت التجارة وعاء للإسلام يتمدد على متن حركتها ، أصبح الاسلام هو ايضا وعاء لها تتمدد على متنها فمن قصد الدعوة من اجل الدعوة كان يتاجر ابتعيش في حركته ؛ وكان تحول مسار طرق التجارة خيرا للدعوة ، فقد بلغت مناطق لم تكن ت بجهاد ممالك الإسلام ؛ فقد إخترفت بالدعوة حاجز الغابات الإستوائية التي عجز الجهاد عن اجتيازها ، وبالمقابل خدم الإسلام التجارة بدفعها داخل دائرة حركة التجارة الدولية لعالم الاسلام بسوقها الواسعة وسيطرته على مقاليد التجارة الدولية (163) بفضل امتداداته الامبراطورية في ارجاء واسعة من العالم ، التي وفرت الامن والخدمات لطرق التجارة ومنها غرب افريقيا التي وفرت امبراطورياتها باتساعها الامن والاستقرار لطرق التجارة في اراضيها فزادت التجارة ازدهارا .

هجرات القبائل

وحركة القبائل في مد الاسلام وثقافته لا يقل عن دور التجارة ، فحركة القبائل كحركة التجارة تحمل في طياتها الاسلام وثقافته واتاحت الفرصة لامتزاج شعوب المنطقة وإعادة صياغة التركيبة العرقية والثقافية فيها ، فقبائل البربر والعرب بحركتها الدائمة على مدى خمسة قرون امتزجت مع الفولاني وغيرهم ، فأسست مرتكزا بشريا لبطون إفريقية غالبية في كامل قطاع السافانا المستعرض كان لها دورا غالبا في مد الاسلام ، ببلوغها بالدعوة أفاق لم تكن لتبلغها بدون اصالة هذه الشعوب في المنطقة ، تلك الشعوب التي أصبحت تملك الاسلام ويملكها فرضت حضارته عليها مد متواصل وتدفق متلاحق لتدلى هي نفسها بمساهماتها الفكرية في دلو تلك الحضارة.

اهم الشعوب إسهاما في الدعوة

8 الشعوب السنغالية

وينتمي إلى هذه المجموعة شعب التكرور، الذي أنجب المجاهد الكبير " عمر الفوتي التكروري " (عمر تال) ، والفوتي نسبة إلى بلدته فوتا والتكروري نسبة إلى قومه ، وكان عمر الفوتي يسعى إلى إقامة دولة اسلامية تضم غرب افريقيا ؛ وتمكن كمقدمة من تأسيس دول سلفية في الفوتاجالون ، قامت بالتصدي للاستعمار الفرنسي وتجارة الرقيق في السنغال في القرن 19م ، وكان الفولا عصب جهادة .

وإلى هذه المجموعة ينتمي شعب الماندو (الماندينجو أو المالينكا (المالين) سبق الإشارة اليهم في كشوف عبر الاطلنطي ، وهم من أرباب التجارة ، غطى نشاطهم ما بين النيجر الأعلى والساحل الغربي في السنغال ، ولهم فضل تأسيس مملكة مالي الإسلامية العظيمة ؛ وينتسب اليهم شعب صنغي الذي داخلته بعد الغزو المراكشي عناصر أندلسية ، جاءت إلى المنطقة ضمن جيش الغزو ، واختلطت بقوة مع الفولة والبربر والباامبرا وشعوب أخرى.

وشعوب التكرور والماندينجو هم أبرز من رفع لواء الدعوة في وادي النيجر ، ولهم فضل نشر الإسلام في ساحل العاج وسيراليون وساحل الذهب (غانا المعاصرة) ، والتكرور هم من حملوا لواء الدعوة إلى السودان الغربي وغينيا ، وكان لهم دور رائع في محاربة تجارة الرقيق التي قامت مع بداية المد الاستعماري في شمال سيراليون، ونجحت جهودهم إلى حد ما في إقامة عهد من الأمن بعد اضطراب ووحشية على حد قول المؤرخ الإنجليزي "كلود جورج" (164) .

وينتمي إلى المجموعة السنغالية الولوف والهوسا الذين خالطتهم دماء بربرية وعربية منذ القرن 8 م ، ودخل منهم قطاعاً في الإسلام في القرن العاشر ، بينما تأخر دخول قطاع آخر حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، وهم أهل تجارة إستقروا في شمال نيجيريا ، وقامت على أرضهم المملكة السلفية للمجاهد الأكبر " عثمان دن فوديو " ، التي شمل جهادها قطاعا كبيرا من الاقليم

¹⁶³ يقول جيمس فيرجيريف في كتابه الجغرافيا والسيادة العالمية .. " ان العرب سيطروا على مقاليد التجارة الدولية البحرية وتوسعوا فيها بفضل تقدمهم الملاحي ومعلوماتهم المتقدمة التي اقتبستها عنهم أوروبا واعتمدت عليها في الوصول إلى الشرق وهو حدث كانت نتائجه أفعال تأثرت في مجرى التاريخ " ، المصدر الجغرافيا والسيادة العالمية ص 217 (سلسلة الالف كتاب) ترجمة على رفاعي الانصاري، وهذه الكشوف كانت تستهدف في البداية الاسلام فقد استهلكت البرتغال ريادة الكشوف الاوروبية بدافع عدائي لاقتناص التجارة الدولية من ايدي المسلمين وتحويلها بعيدا عن أرضهم.

¹⁶⁴ (نعيم قداح ص 86 - افريقيا الغربية في ظل الإسلام .

وكان لها فضل كبير في نشر الاسلام .

& الفولا

وهم بدو رُحل يطلق عليهم احيانا "البوهلة" أو "البولة" ؛ وأختلف علماء الاجناس في أصلهم فمن قائل أنهم حاميون جاءوا من شرق إفريقيا ، وآخرون يقول بأنهم ساميون جاءوا من " برقة " في مطلع العهد الميلادي ، وإستقروا في "تمبكتو " و "ماسينا " ، وتقدموا غربا في القرن التاسع الميلادي إلى بلاد " فوتا " ، ثم ارتدت بعض عناصرهم في القرن الحادي عشر الميلادي ، في هجرة عكسية عائدة الى الشرق حتى وصلوا حوض النيل ، تاركين بطونا انصهرت محلياً على امتداد مسيرتهم مابين السنغال و تشاد ، ومن أكثر هجراتهم تأثيرا في مد الإسلام ، هجرتهم خلال القرن السابع عشر الميلادي ، فقد هاجرت كتل من موطنها في حوض جامبيا لتستقر في السنغال وفوتاجالون هروبا من مطاردة النخاسة الأوروبية احيانا ومدافعتها احيانا اخرى ؛ و كانت تلك العناصر عصب جهاد الحاج " عمر الفوتى التكرورى " السابق الاشارة اليه .

وكتل الفولا المهاجرة إلى نيجيريا شكلت هي ايضا عصب جهاد " عثمان دن فوديو " مؤسس امبراطورية الهوسا السلفية في كل من ارض الهوسا (165) و تشاد ، في سعيه لإقامة دولة إسلامية موحدة ، وهم من أشد الدعاة حماساً للإسلام فقد تعهدوا بقوة وإخلاص عظيمين لواء الدعوة عقب أفول " مالى " ، ويصفهم الرحالة الإنجليزى " مور " الذي زار بلادهم عام 1731م بأنهم يشبهون العرب ويتحدثون العربية (166) .

& العرب

تحرك العرب في صحبة البربر عبر الصحراء المغربية عقب الفتح العربى ، وهاجروا الى كل من تشاد في القرن العاشر الميلادي ونيجيريا والنيجر في القرن الرابع عشر الميلادي ، كما وصلت بعض عناصرهم صغى مع الغزو المراكشى أواخر القرن السادس عشر الميلادي الى ، كما ان لهم بعض الفضل في نشر الإسلام في وادى النيجر .

& المجموعة التشادية

وموطنها السودان الأوسط ، ومن شعوبها " توبو " الذين يقيمون في المنطقة المعروفة باسمهم ؛ وهم خليط من الزوج والبربر والفولة والعرب ، وهناك أيضاً شعب " ودانى " وشعب " كانورى " المقيمون في "بورنو" وهى شعوب قامت بنشر الإسلام في عهد مملكة " كانم وبورنو " .

& الجنود الهنود والعبيد المحررين

قام المسلمون من جند الهند الذين خدموا ضمن القوات البريطانية في "ساحل الذهب" غانا المعاصرة بنشر الاسلام على المذهب الأحمدي ، وقام العبيد المسلمون المحررون والعائدون من أمريكا اللاتينية المعروفون " بالناكوس " بدور كبير في نشر الإسلام مطلع القرن العشرين في المناطق التى استقروا بها على الشواطئ الغربية لإفريقيا حول خليج غينيا وفي داهومى و بورتو نوفو .

¹⁶⁵ (يقع الموطن الأصلي للهوسا في شمالي نيجيريا وجنوبي جمهورية النيجر الحاليتين، وهي المنطقة التي تعرف في التاريخ بـ"بلاد الهوسا" (Hausa Land) قبل أن يقوم المستعمر الأوروبي برسم تلك الخطوط الوهمية التي أطلق عليها الحدود السياسية لخدمة مصالحه ، وخلال القرون السالفة خرجت مجموعات كبيرة من الهوسا من موطنها الأم بغرض التجارة ونشر الدعوة الإسلامية وأداء فريضة الحج وإستقرت بعدد كبير من الدول (غانا - توجو - الغابون - جمهورية الكونغو - غينيا بيساو - بوركينا فاسو - بنين - الكاميرون - تشاد - إفريقيا الوسطى - الجزائر - ليبيا - السودان - المملكة العربية السعودية - إريتريا - إثيوبيا).

¹⁶⁶ (نعيم قداح ص 88 - إفريقيا الغربية فى ظل الإسلام .

مسيرة مد الاسلام

المرحلة الاولى .. مرحلة المد عبر الصحراء جنوبا الى مملكة غانة القديمة ، وهى المرحلة التى تحمل فيها البربر المسئولية الرئيسية لدفع نواة المد الاسلامى فى الصحراء و منطقة السافانا ، وكانت ادواتها الرئيسية التجارة وحركة القبائل.

والمرحلة الثانية .. مرحلة التمدد فى نطاق السافانا من بحيرة تشاد شرقا الى جبال الفوتاجالون غربا ، وفيها تولت مسئولية هذه المرحلة الشعوب المحلية الافريقية وبطون البربر المتأفرقة وكانت ادواتها الفتح والتجارة والاستيطان ؛ وقد شهدت هذه المرحلة مجد المد الاسلامى الجهادى للكيانات الاسلامية الكبرى غانا ومالى وصنغى .

والمرحلة الثالثة .. مرحلة التمدد نحو الساحل الغربى عبر جبال الفوتاجالون و نحو الساحل الجنوبي عبر حاجز الغابات الاستوائية ، وفي هذه المرحلة افتقد المد الاسلامى الإرادة السياسية بعد اختفاء ممالك الإسلام الكبرى التى طالما دعمته امام ضغوط الاستعمار ؛ واستمر الاسلام فى تقدمه إعتماداً على قوته الذاتية في بيئة معادية بعدما استنفذ التصدى للاستعمار معظم جهاد الصوفية ودولهم السلفية .

و المرحلة الرابعة .. مرحلة المد الذاتى الحر والكثيف فى ظل الاستعمار .
ونتعرض لكل مرحلة على نحو اكثر تفصيلا في الفصل التالى

الفصل الثانى مسيرة مد الاسلام الكيانات السياسية للإسلام

المرحلة الأولى - ممالك الإسلام
من القرن 13 وحتى بداية القرن 16م

(1) مملكة غانة (167)

مرت المملكة فى طريقها الى الاسلام بمرحلتين الاولى وثنية لم يسبق لها فيها ان تعرفت على الديانات الكتابية المتقدمة على الاسلام فكان الاسلام فيها ضعيفا مُرحبا به اخذاً بمكونات حضارته ، والثانية مرحلة الاسلام الخالص وبتناولهما على النحو الاتى :

العصر الوثنى [بين القرنين 4 - 13 م]

تأسست غانة فى شمال غرب حوض النيجر الأعلى فى القرن الاول الميلادى على ايدى شعب السوننكى احد فروع بربر صنهاجة ، على حد ما ذكره المؤرخ الإسلامى " محمود كعت " فى كتابه " الفتاش " ، وفى القرن الرابع لحقت بهم جماعات أخرى من البربر أكثر تطوراً استولت على السلطة ، وبمرور الوقت إنصهرت تلك الجماعات فى شعب السوننكى فنشأ عن ذلك الاندماج جيل جديد تمكن من زمام الحكم سنة 775 م ، وبفضل التجارة التى انتعشت على ايدى العرب والبربر ، وجدت غانا دافعا على التوسع لفرض السلام والاستقرار لتأمين طرق القوافل لتعزيز التجارة وبالتالي ازدهارها .

لم يكن القرن التاسع الميلادى أول عهد المملكة بالاسلام فيذكر دافيدسون ان المسلمون وصلوا الى شاطئ المحيط سنة 681 م ؛ وكانوا قبل ذلك بخمسة عشر عاما قد دفعوا ببيعوثهم جنوبا عبر الصحراء واعتادوا فى الاعوام التالية ارتياد السودان الغربى فى ارض السافانا بين الاطلنطى وحدود السودان النيلى (168) ، ويتحدث المؤرخ الاسلامى البكرى عن بشائر إسلامية متقدمة فيذكر أن الأمويون أوفدوا حملة إلى غانة فى صدر الإسلام ما بين 734 - 750 م يُعتقد أنها حملة " عقبة بن نافع " ، وأن أحفاد جنودها ذابوا عرقيا وثقافيا فصاروا على دين المنطقة بحكم السنن الغالبة التى بمقتضاها تمتص الأغلبية الأقلية .

استهدفت مملكة البربر المتحدة بقيادة صنهاجة (القرنين التاسع والعاشر الميلادى) غانة ، وإنزعوا منها " أودغشت " عام 222 هجرية / 836م واسلم ملكها السوننكى انذاك تلوتان أو بولاتان ابن تكلان حوالي سنة 222هـ - 837م وحارب جيرانه الوثنيين ، ولكن هذا لم يجعل ملوك غانة من بعده يُسلمون خاصة بعد ضعف دولة البربر التى تعهدت انتشار الاسلام فى غانة وهو ما شجعهم على استرداد أودغشت عام 990م ، وفى الوقت الذى استعصت فيه المملكة على السقوط كانت وفود التجار المسلمين تتوافد دون اى حساسية او عدائية من جانب المجتمع الغانى الذى تعايش مع الاسلام واسرت ثقافته ملوكه فقبوا المسلمين واستخدموهم فى ادارة شئون البلاد ؛ وبمرور الوقت تشكلت نواة مجتمع اسلامى ، تضخم بالتوالد وازدادت اليه الهجرة الوافدة المعلمين و الفقهاء الذين جلبوهم من العالم الاسلامى لتعليم أبنائهم ، ويشير " المهلبى " إلى وجود تجار مسلمين من مصر والمغرب مستقرين بالإقليم أسهموا فى نشر العقيدة ، كما ذكر أن حكام " كاو كاو " (كوكو) إعتزفوا بالإسلام نحو عام 985 م ، وكانت هذه مقدمة لزيادة كثافة وانتشار المد الإسلامى الذى إعتنقه بعض رؤساء القبائل فى عام 1040م .

تعاظم وضع المجتمع الإسلامى الجديد بفضل تميزه الاقتصادى والثقافى والحضارى و ثراء التجار ومكانتهم لدى الملوك فآظفروا مودة وتسامحا نحو الاسلام والمسلمين ، ويقول البكرى " ان الملك رغم وثنيته كان يُؤثر المسلمين الامر الذى شجع كثيراً من الوثنيين على إعتناق الاسلام طمعاً فى مثل تلك الخطوة (فالناس على دين ملوكهم) ، فكثر أعداد المسلمين حتى أصبحت

¹⁶⁷ (غانة القديمة التى نتحدث عنها هنا تقع فى شمال وشمال غرب حوض النيجر الأعلى ؛ ولا علاقة لها ب غانا الحالية التى هى فى الأصل ساحل الذهب التى اطلق عليها " نكروما عند الإستقلال اسم " غانا " تيمنا بأولى الممالك الإفريقية .

¹⁶⁸ (افريقيا القديمة تكتشف من جديد - باسيل دافيدسون ص 30 .

لهم احياء خاصة بهم فى العاصمة " يرسنى " التى انقسمت الى شطرين ؛ أحدهما للمسلمين و به 12 مسجدا مزودة بالآبار للزراعة وخدمة طاقمها من الأئمة والمؤذنين والراتبين والفقهاء وحملة العلم ؛ ويستطرد فى وصف القطاع المسلم المتمدين فيصف مبانيه بأنها على الطراز المراكشى بينما القسم الوثنى متخلف ويشبه الغابة و يضم مسجدا لخدمة من يفد اليه ؛ ويشير "البكرى" الى تأثير الحضارة الاسلامية على مختلف جوانب الحياة الإدارية والاجتماعية فى غانة ، فيقول ان ملوكها استخدموا المسلمين فى إدارة شئون البلاد بشكل كثيف فمنهم صاحب بيت المال والوزراء ، ومعظم حاشية الملك وأكثرية الجند والمترجمين والمدونين الذين استخدموا اللغة العربية فى تدوين السجلات الرسمية والعمليات التجارية لعدم وجود أبجدية للمنطقة " ، وهو دليل على عدم سبق معرفة المنطقة للكتابة ومدى تخلفها الحضارى .

العصر الإسلامى

تمكن المرابطون بقيادة " أبو بكر ابن عمر اللمتوني" وأبنة الأمير أبو يحيى من الإستيلاء على العاصمة " كومبى" عام 469هـ / 1076م بعد نضال استمر من 1054 الى 1076 م ، وخلال بقاء القوات البربرية أسلم الملك تنكامين وعدد كبير من سكان المملكة طواعية ولم يتخلوا عن عقيدتهم رغم انسحاب القوات الإسلامية بعد عامين وتسارعت وتيرة انتشاره بعد ان اعتنقه الملوك ورؤساء القبائل ؛ فإسلام الملك " تنكامين " ومعه عدد كبير من سكان المملكة كان اعلان بانتصار الإسلام السياسى استتبعه أسلام معظم زعماء الأقاليم ورعاياهم ، وإمعاناً فى الإسلام إدعى بعض الملوك شرف الإنتساب لآل البيت ، كما راحوا يؤثفون علاقتهم بالخلافة العباسية فى بغداد (169) وبذلك نرى أن المملكة سواء فى حقبتها الوثنية أو الإسلامية كانت حلقة من حلقات تاريخ الحضارة الإسلامية وبذلك أصبحت غانة منذ ذلك التاريخ مملكة اسلامية .

(2) إمبراطورية مالى

من 1213م وحتى نهاية القرن 16

ميلاد مالى

استقل شعب الماندينجو فى مملكة " كانجابا " بعد انهيار غانة وتوسع فى اراضى دولة المرابطين فيما بعد ، و فى عام 1203 م استولت قبائل الصوصو(غالبيتها انذاك من الوثنيين) بقيادة " سومانجورو " على العاصمة " غانة " واتجهت بعد ذلك للسيطرة على بقية البلاد ؛ فاستولى سوندياتا عام " 1237م " على مملكة " كانجابا " المسلمة واخضع ما تبقى من اراضى " غانة " ممهدا الطريق لاقامة إمبراطورية مالى العظيمة ؛ ويقول ابن خلدون ان الملك جور ماتدانا كوناتي هو اول ملك يُسلم من ملوك مالى وذلك فى القرن الخامس الهجري تقريبا وحج فى عام 442هـ ، وان قبائل الماندينجو اعتنقت الإسلام حين دخلها جماعة من المسلمين وحج جماعة من ملوكهم أولهم برمندار.

التوسع الإمبراطورى

وفى عهد " منسا ولى " [1255 : 1270 م] تحولت مالى الى إمبراطورية مترامية الاطراف ، وبلغت أقصى إتساعها فى عهد " منسا موسى بن أبي بكر " المعروف بـ " كانكان موسى" [حكم فى الفترة من 712- 738هـ / بينما تشير بعض المراجع انها 1307 : 1322 م] ؛ حتى غطى نفوذها سهل السافانا الفسيح من تشاد شرقا حتى السنغال غربا وأرض " الهوسا " فى شمال نيجيريا ، وبلغت ضخامتها مسيرة عام حسب وصف كانكان موسى نفسه لاحد قضاة القاهرة اثناء مروره بها فى رحلته الى الحج (170) .

الكشوف البحرية لمالى فى الاطلنطى

ولم تتوقف طموحات ملوك مالى فى التوسع عند نطاق البر ، وانما تجاوزته إلى ما وراء البحر فأرسل سلف منسا موسى

¹⁶⁹ (إفريقيا الغربية فى ظل الإسلام -نعيم قذاح ص 6 .

¹⁷⁰ (إفريقيا القديمة تُكتشف من جديد ص 46 - باسيل دافيدسون - ترجمة نبيل بدر (مجموعة نافذة على الفكر العالمى الحر) نقلا عن ابن بطوطة .

حملة بحرية لاستكشاف ما وراء الأطلنطي ذهبت ولم تعد ؛ فأعقبها منسا موسى بأخرى كان نصيبها الإخفاق ، ويتحدث العمرى في الفصل العاشر من كتابه " مسالك الأمصار " عن رحلات مالى في الاطلنطي قام بها اسلاف كانكان موسى (كما اسلفنا ص20) ، بالفى سفينة ابحرت غربا ولم تعد ، ويقول العمرى نقلا عن ابن امير الحاجب ان كانكان ذكر له انه صمم على اكتشاف نهاية البحر المجاور فأرسل مائتى سفينة محمل نصفها بالرجال والنصف الآخر بالذهب والمياه وبمؤن تكفيها عامين ، لم يعد منها إلا واحدة فقط ، ذكر قائدها انه لم يغامر بدخول نهر شديد التيار يصب في البحر اختفت فيه بقية السفن (171).

ولا تكمن عظمة ذلك الملك الورع " منسا موسى " بما حققه من توسع ، وإنما فيما بلغته المملكة من رُقي على أيديه ، فقد فتح بمحبته للثقافة والعلم باباً واسعاً اندفعت منه قوى التحضر لتفعل فعلها على نحو غير مسبوق فى الاقليم ، فحققت هذه الدولة اعظم انجاز فى مجال الحضارة فى الاقليم حتى ذلك العصر ؛ فيفضل انتشار ثقافة الإسلام ؛ تجاوزت المنطقة بمراحل أقصى مستوى بلغته الحضارة فيها ممثلة فى حضارة " غانة " ، وهو ما يعنى تحرر الاقليم لأول مرة من ربقة " ازمة الحضارة " .

الإدارة

طور " سوندياتا " البلاد من الناحية الادارية ، فقسمها الى مقاطعات ادارية وعمل على تنظيمها ، وفى عهد منسا موسى بلغ بها مرحلة متقدمة تتلائم واتساعها وقوتها ، فاستكملت " مالى " فى عهده مظاهر دول ذلك العصر ؛ فاستحدث نظام الإحتراف فى الجيش لتوفير قوة عسكرية قادرة على حماية الأمن الداخلى والخارجى للإمبراطورية ؛ وقسم البلاد الى أربعة عشر إقليماً إدارياً طبقاً لإصولها العرقية ، جعل لكل منها حاكم يتمتع بسلطات واسعة على غرار الحكم الذاتى ، على ان يقوم الحكام بالمثل أمامه من حين لآخر لإطلاعهم على الأوضاع ، وشكل حكومة تضم فريقاً من المستشارين والوزراء كلهم من المسلمين وأنشأ نظاماً للأوسمة والرواتب لمكافأة الحكام وشحذ همهم الإدارية ، وهو تطور غير مسبوق فى شكل الحكم وفى تاريخ ادارة الاقليم .

وبلغت المملكة فى عهده أوج عظمتها وقمة تطورها وهو ما سجله " بوفيل " بالقول بان المملكة كانت تمثل فى تاريخ

¹⁷¹ المرجع محاضرة الدكتور علي بن المنتصر الكتاني المغربي التى ذكر فيها أن مسلمي مملكة مالى هم اول من عبر المحيط الى امريكا مذكرا بما جاء على لسان شهاب الدين العمري فى كتابه "مسالك الأبصار وممالك الأمصار" بأن سلطان مالى منسا موسى لما ذهب للحج عام 1327م ، أخبر بان سلفه أنشأ مائتى سفينة وقطع المحيط الأطلسي نحو الضفة الأخرى وأتابه عليه فى حكم مالى ولم يعد ، وبذلك بقي هو فى الملك " ، ويستطرد الدكتور علي ان كتابات وُجدت فى البربر والبرازيل وجنوب الولايات المتحدة إما بحروف كوفية عربية او بحروف لغة الماندينك الإفريقية لشعب الماندينك "الفلاتي" المسلم ، تدل على إنتشار شعب الماندينك من البحر الكاريبي الى شمال وجنوب الأمريكتين ، ويُضيف ان لغتهم تركت أثرا حياً لدى الهنود الحمر فهناك قبائل هندية مازالت تكتب بحروف لغة الماندينك ، وتشير كتابات المكتشفين الأوروبيين الأوائل بمن فيهم كريستوف كولومب؛ الى الوجود الإسلامى فى أميركا قبل وصول الأوروبيين ، ففي كتاب "إفريقيا واكتشاف أمريكا" "Africa and the discovery of America" للأستاذ ليون فيرنيل بجامعة هارفرد عام 1920م ، يقول: "إن كريستوف كولومب كان واعياً الوعى الكامل بالوجود الإسلامى فى أمريكا"، وركز فى براهنه على براهين زراعية ولغوية وثقافية، وقال بأن الماندينك بصفة خاصة انتشروا فى وسط وشمال أمريكا، وتزاوجوا مع قبيلتى الهنود الحمر "إيروكوا" و"الكونكير" فى شمال أمريكا ، وانتشروا فى البحر الكاريبي جنوب أمريكا، وشمالاً حتى وصلوا إلى جهات كندا ، وذكر كريستوف كولومب بأنه وجد أفارقة فى أمريكا كان يظنهم من السكان الأصليين ، وذكر الكاتب الفرنسى "جيم كوفين" فى كتابه "بربر أمريكا"، "Les Berberes d'Amerique"، بأن قبيلة "المامي"، "Almami"، الموجودة فى أمريكا قبل كريستوف كولومب وتتركز فى الهندوراس فى أمريكا الوسطى ، ترجع تسميتها الى كلمة المامى المعروفة فى إفريقيا الغربية بأنها "الإمام"، وعادة ما تُطلق على زعماء المسلمين ، كما أشار الى ذلك كتاب "التاريخ القديم لاحتلال المكسيك"، "Historia Antigua de la conquista de Mexico"، لماتويل إيروسكو إيبيرا، فيقول: "كانت أمريكا الوسطى والبرازيل بصفة خاصة، مستعمرات لشعوب سود جاؤوا من إفريقيا وانتشروا فى أمريكا الوسطى والجنوبية والشمالية" ؛ واكتشف الراهب فرانسيسكو كازيس، عام 1775م قبيلة من السود مختلطة مع الهنود الحمر فى نيوميكسيكو فى الولايات المتحدة الأمريكية "المكسيك الجديدة"، واكتشف تماثيل تظهر فى المرفقات تدل دلالة كاملة بأنها للسود الذين لم يكن لهم وجود فى أمريكا أصلاً إذا كانوا قادمين من إفريقيا.

ودلل المحاضر على الوجود الإفريقى الإسلامى فى أمريكا، من الذهب الإفريقى وتجارة القطن قبل كولومبوس ، فالذهب الإفريقى فى أي مكان له دلالة ثابتة على أصله خاصة فى القرن الثالث عشر فقسمته 32 موزعة 18 ذهباً ، و6 فضة، و8 أقسام نحاس، وهذه التركيبة من الذهب وجدت عند الهنود الحمر ؛ وهناك قرآن لغوية ، فالكلمات التى تطلق باللغة العربية أو اللغات الإفريقية على النقود، شبيهة بمسميات الهنود الحمر ك غنى، وغنية، وغنيمة أصبحت بلغة الهنود الحمر: "غواني" "Guani"، معناها: الذهب كنقود، ونقية ونحاس، أصبحت بلغتهم: "نيكاي"، بمعنى: حلى من ذهب كلمة "التبر" صارت: "توب"، أى: الذهب ؛ وتجارة القطن جاءت من إفريقيا الغربية وتعجب كولومب نفسه فى كتاباته حيث قال: "إن الهنود الحمر يلبسون لباساً قطنياً شبيهاً باللباس الذى تلبسه النساء الغرناطيات المسلمات"، وابنه أكد ذلك الكلام ، وهناك فى غواتيمالا بأمريكا الوسطى قبيلة "كاليفونا" "Galifona" يسمونها "الهنود الحمر السود"، وهم بقايا المسلمين الماندينكا كثير من عاداتها لا زالت عادات إسلامية ؛ وقال "مبيرا موسى" عام 1946 فى مقال فى جريدة "ديلي كلاريون"، "Daily Clarion"، فى "بيليز"، وهى إحدى الجمهوريات الصغيرة الموجودة فى أمريكا الوسطى، "عندما اكتشف كريستوف كولومب الهند الغربية، أى: البحر الكاريبي، عام 1493م، وجد جنساً من البشر أبيض اللون ، خشن الشعر، اسمهم "الكاريب"، كانوا مزارعين، وصيادين فى البحر، وكانوا شعباً موحداً ومسالماً، يكرهون التعدي والعنف، وكان دينهم الإسلام، ولغتهم: العربية!".

الدول الإفريقية الأصلية نموذجاً رائعاً لقدرة الزوج على التنظيم السياسي وتحقيق الرخاء والتوسع (172).

الإقتصاد والتجارة

وفرت مناجم الملح في الشمال ومناجم الذهب في الجنوب ثروة للبلاد ، اضافت اليها غنائم الفتوح الكثير ، كما ادى توسع تجارتها بفضل ارتباطها بدائرة التجارة الدولية لعالم الاسلام من ناحية ، ومهارتها في ادارتها من ناحية اخرى الى انتعاشها الاقتصادي ؛ ويتحدث ابن خلدون عام 1400م عن ضخامة قوافلها التجارية التي كانت تضم سنويا مالا يقل عن إثني عشر ألف جمل الى مختلف الارحاء .

ويعلق باسيل دافيدسون على دقة حركة هذه التجارة ومهارة المملكة في ادارتها ، فيصفها بانها كانت تتم بصورة رائعة إذا ما قُورنت بحركة التجارة في أوروبا في القرن التاسع عشر ، وقد ذاع صيت ثراء المملكة في الانحاء بعدما عكسته مواكب حج ملوكها عبر ارض الاسلام ؛ تلك الرحلات التي كان لها الاثر الاكبر في تقديم مالى الى العالم الخارجى وتداول اخبارها.

العمارة

كان للمغرب بحكم الموقع نفوذا كبيرا وتأثيرا على الغرب الافريقى في معظم المجالات ، وفي مجال العمارة إقتبست المملكة هندسة وطرق البناء على يد المهندس و الشاعر الأندلسي " أبو إسحاق الساحلى " الذى أحضره منسا موسى معه من مكة ؛ فاستخدم البناء المراكشى بقبابه واسطحه المستوية كما استخدم الكُتْل الكلسية ويعد هذا ثورة في مجال العمارة بالإقليم ، في بناء قصرا ومدرسة djinguereber ومسجداً بجامعة سنكور في تمبكتو ، وهذه المدرسة احدى المدارس الثلاث بالجامعة ، ويقول ابن خلدون انها تكلفت 200 كيلو غرام (12000 مثقال) من التبر للتصميم والبناء.

العلم والثقافة الدينية

يسجل " ابن بطوطة " الذى زار المملكة في القرن الرابع عشر الميلادي اهتمام ملوك مالى بالثقافة وتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن ، ومن اكثرهم رعاية للعلم " منسا موسى " الذى غنى عناية بالغة بالحركة الثقافية وحظى العلماء بمكانة مرموقة في عهده ، وهو الذى إستحضر حشدا من العلماء البارزين من العالم الإسلامى .

وخصص لهم وللعلماء المحليين والكتبة الرواتب المجزية ليتفرغوا للعلم والابداع وأوفد الطلاب إلى الأزهر و فاس لتلقى العلم ، ولكثرة الدارسون بالأزهر اقام لهم فى رواقاً سُمى " رواق التكرانة " نسبة الى بلاد التكرور ، وأقام المدارس ومعاهد العلم وزودها هي والمساجد بالكتب التى شرى منها الكثير أثناء مروره بالقاهرة وهو فى طريقه الى الحج ؛ ويسجل " ليو الإفريقى " الذى زار المملكة فى عهد منسا موسى مدى ربحية تجارة الورق التى كانت تغل ارباحا تفوق أرباح تجارة اى سلعة أخرى، لتزايد الطلب عليه والكتب في أسواق المملكة .

ومن اكبر انجازات منسا موسى فى مجال العلم تأسيس جامعة " سانكور " الإسلامية في"تمبكتو ، التى اطلقت النهضة العلمية فى البلاد بفضل موقعها الاستراتيجى كملتقى لطرق التجارة و ثراء المدينة التجارية التى ضخت الموارد اللازمة لتلك النهضة ، فأصبحت المدينة فى القرن 14م ولقرون مقبلة كعبة العلم والثقافة بالإقليم ، وفى قمة الازدهار العلمى وصل عدد المدارس بالمدينة 180 مدرسة ضمت 25 ألف طالب بخلاف مكتباتها العظيمة المليئة ب ذخائر الكتب"(173) ؛ ويصف الكتاب الأوروبيين المدينة التى بلغت مكانة متقدمة من التحضر والمدنية بأنها لا تقل عن المستوى السائد انذاك في أوروبا .

تأثر منسا موسى كما تأثر غيره من ملوك مالى من قبل وبعد بمشاهداته أثناء الحج ومن ابرز ما تأثر به الحركات الإصلاحية التى إنتشرت في العالم الإسلامى في العصور الوسطى فتعمقت مفاهيم الدين وما إستتبعه بالرجوع بالعقيدة الى اصولها

⁽¹⁷²⁾ .المرجع السابق ص 40.

⁽¹⁷³⁾ (كان الطوارق عادة ما يلجأون فى القرن 5 هجرى 1080م الى المنطقة الخصبة حول ثنية نهر النيجر هروبا من الصحراء فى فصل الجفاف ، وكانت بالمنطقة إمراة تدعى " بكتو" ولما كانت كلمة مكان فى اللغة المحلية " تين " فادمجوا الكلمتين " تين بكتو" وتحور بمرور الوقت الى تمبكتو .

في مختلف نواحي الحياة وتطهيرها مما شابها ، فأعلن الإسلام ديناً للدولة وطبق الشريعة الإسلامية واطلق الدعوة إلى الجهاد .
ويلاحظ حدوث طفرات حضارية في مسيرة تقدم مالى تظهر بعد العودة من معظم رحلات الحج ، من جراء الجديد الذى تقتبسه رغم ان بعض ما اقتبسته كان بلا معنى ، ولا اساس له الا الرغبة فى التشبه بسلطين الاسلام على نحو ما فعله السلطان " منسى سليمان " بجلب حاشية من 30 مملوكاً من ممالك القاهرة إلى المملكة تشبها بسلطين مصر.

العلاقات الخارجية والمكانة الدولية

لم يكن للإقليم قبل الإسلام علاقات خارجية يُعتد بها ، ولكن تطورها فى ظل الاسلام وانفتاحها على عالمه واتساعها الامبراطورى وثرانها وتجارتها الخارجية العريضة ، فتح امامها الباب لبناء علاقات خارجية مستمرة ومستقرة وثيقة فى مختلف النواحي .

وبفضل رحلات حج ملوك مالى تبلورت مكانة البلاد الدولية وذاع صيتها فى العالم بروعة مواكبها وكثرة ذهبها وبذخ ملوكها ؛ ووصف مؤرخو ذلك الزمان روعة موكب " منسا موسى " ، وما تضمنه من أحمال الذهب وهداياه إلى سلطان مصر ، وظلت تلك الروعة حديثاً يتناقله أهل القاهرة طيلة المائة عام التالية اذ فاق الموكب بروعة مواكب الحج الاخرى التى شهدت المدينة خلال القرن الثامن الهجرى ، فاجذب صيت المملكة وثرانها إنتباه دوائر الاقتصاد والعلم فشد التجار وأهل العلم الرحال إليها ، كما اولاهم المؤرخون الاهتمام فتداولوا أخبارها ، وإهتم الجغرافيون برصد موقعها فأخذت مكانها لأول مرة على خريطة العالم عام 1335 م ؛ وإبتعث منسا موسى السفراء إلى " فاس " ليوطد الإتصال بسلطان المغرب "أبو الحسن على المرينى" ، وإلى مصر وتبادل الرسائل مع سلاطينها الذين كانوا عادة ما يولون سلاطين مالى الإهتمام والكرم عند مرورهم بمصر فى طريقهم إلى الاراضى المقدسة ، مثل مافعله السلطان " بيبرس المملوكى " مع السلطان " منسى ولى " فى القاهرة بتوفير المؤن والجمال .

تأثير مالى على حضارة الاقليم

كان ما تحقق على أيدى مالى ، علامة بارزة ومرحلة تاريخية رائدة ارسى سنن التطور فى الاقليم لأول مرة ، كأثر يتابعه الآخرون من الدول المتعاقبة ، وكان دور الإسلام وراء النهضة ملموساً ، فالمسلمون هم رواد الحضارة فى الاقليم ؛ فقبل الإسلام لم يهتم الملوك الوثنيين بنشر العلم الذى لم يكونوا على علم بوجوده اصلاً الا بعد اتصاليهم بالمسلمين ؛ فالثقافة الإسلامية أصبح لها ظلال ساطعة على غانة ومن بعدها امبراطورية مالى وبانت اللغة العربية هى لغة العلم والمكاتبات الرسمية فى غانة قبل اسلامها وفى مالى بعد اسلامها ؛ وبدون الاسلام ماكان انتشار اللغة العربية ولا انتشار الثقافة و العادات والأسماء واللباس العربى .
ويسجل بوفيل مدى التقدم الذى حققته مالى وجعل منها نموذجاً لما أمكن تحقيقه لأول مرة من نهضة فى منطقة السودان الغربى ؛على حد قوله " ترك كانكان موسى عند وفاته سنة 1352 امبراطورية تمثل فى تاريخ الدول الافريقية الاصلية نموذجاً رائعاً للاتساع والرخاء ، ونموذجاً رائعاً يعبر عن مدى قدرة الزواج على التنظيم السياسى (174) ، ويتحدث ابن بطوطة بإعجاب عن انتشار العدل والامن فى المملكة ويشيد بشعبها الذى يصفه بأنه اكثر الشعوب كراهية للظلم .

أقول مالى

تدهورت أحوال المملكة بعد منسا موسى ؛ نتيجة لإنغماس ملوكها فى الترف وإفتقادهم الروح العسكرية التى أقامت بها المملكة مجدها ، فأغرى ذلك الطامعون فاستنزفت الحروب الداخلية قواها ، فاستقل الطوارق بالأقاليم الشمالية واستولوا على " والاتا " و " تمبكتو عام 1433 م ، و إستقل الموشى والتكرور والولوف ببعض الأقاليم ، وضمت مملكة صنغى الفتية الناشئة الأقاليم المتبقية الى اراضيها فى الفترة من عام 1468 م وحتى نهاية القرن ، و أختفت مالى تماماً فى السبعينات من القرن السادس عشر بعدما أدت رسالتها فى دفع حضارة الإقليم نحو مرحلة أكثر تطوراً، إستكملتها مملكة " صنغى " الإسلامية لتصل

(174) إفريقيا القديمة تُكتشف من جديد ص 48 - باسيل دافيدسون - ترجمة نبيل بدر (مجموعة نافذة على الفكر العالمى الحر) .

بالمنطقة الى قمة تطورها في العصور الوسطى .

(3) مملكة صنغى (مطلع القرن 11: نهاية القرن 16)

ميلاد صنغى

اقام " السوروكو" مملكة " دندى " فى القرن 7 م ، وفي بداية القرن الثامن الميلادي إندمجت مع مملكة " جبالى في مملكة باسم " الكاوكاو " تحت حكم " ذا اليمين " زعيم قبيلة لمتة البربرية (يمنية الجذور) بعد استقرارها فى النيجر ، وجذب ثراء المملكة التجار المسلمون للاستقرار بها ، ونجحت جهودهم فى اعتناق ملكها " ذى القصى" المعروف بـ " ضياء كوسوى " الاسلام عام 1009 م [ترتييه الخامس عشر في سلسلة حكام الأسرة] ، وبعدها بعام أنتقل بعاصمته إلى " جاو " .

وفى الفترة من القرن 11 م حتى بداية القرن 14م خضعت المملكة لحكم غانة ثم اخضعها السلطان منسا موسى سلطان مالى اعتبارا من عام 1375 م ، وفى القرن 14 م تعرضت لغزوات قبائل موسى السودانية والطوارق ، وبعد تحريرها بدأت تتطلع للتوسع ومع وصول " سنى على " عضو الأسرة البربرية الحاكمة إلى السلطة فى عام 1464 م (الملك 18 فى تسلسل الملوك) ، فقد تحولت المملكة الصغيرة على يديه الى امبراطورية عاتية ، فقد كان رجلاً محباً للحرب والغزو ، لا يعرف الإستقرار أو الراحة فوصل بسلطانه الى أرض الهوسا شرقاً الى موطن الطوارق شمالاً ، وإلى بلاد الفولانى والمادينجو غرباً ، اى بحجم قارة اوروبا .

ولا يذكر التاريخ فضلاً لهذا الرجل فى مجال الحضارة فلم يكن معروفاً عنه حُب العلم أو العلماء الذين عانوا من بطشه ؛ ولم يكن له فضل على المملكة سوى ما حققه من توسع جعلها اقوى دولة فى المنطقة بالتوازي مع بورنو ؛ وبوفاته انتزع وزيره " محمد تورى " (1492 - 1528م) " المُلْك " ، وكان يُعرف باسم " اسكيا محمد " ويُلقب بـ " أسكيا العظيم " ، وهو اعظم ملوك المنطقة وأكثرهم تأثيراً فى تاريخها ، فقد دخلت المملكة على يديه أزهى عصورها تقدماً بفضل وعيه وتقواه ؛ فكان ورعاً محباً للعلم يتحلى بالعدل والحكمة قام باعمال جليلة لخدمة الاسلام ؛ وبجهاده بلغت المملكة أقصى اتساع فوصلت حدودها صنغى وما بين بحيرة تشاد شرقاً حتى الاطلنطى غرباً وغطت شمال نيجيريا (فتحها عام 1513 م) .

ويرجع سر التوسع العظيم لـ صنغى الذى لم تشهد المنطقة له مثيل من قبل ؛ الى قوتها العسكرية وقدرتها التنظيمية الفائقة فقد كانت الأكثر تنظيماً فى المنطقة ؛ وبلغت المملكة فى عهده مبلغاً عظيماً من الرقى ، وضعها فى مكانة تجاوزت مكانة من سبقها من ممالك العصر الوسيط ؛ ودفعت بحضارة السودان الغربى خطوات ابعد نحو الكمال (175) ؛ ونستعرض على نحو موجز انجازات المملكة فى عهده :

الإدارة .. أقام أكثر النظم الإدارية تطوراً فى تاريخ الاقليم متفوقاً على نظم مالى ، فأنشأ مجلساً للوزراء عين له رئيساً ، عين فيه وزيراً للعدل وَاخر للمالية والشئون الإدارية ، وعين قائداً عاماً للجيش ، وأعاد تنظيم الإدارة فقسم البلاد أربع أقاليم لكل منها حاكم ، يتبعه عدد من الوحدات الإدارية ، وأقام القضاة بالمدن الرئيسية ومنهم كثير من اصطحبهم فى عودته من الحج ، وعين شيخاً للإسلام مسئولاً عن الشئون الدينية مقره تمبكتو .

التعليم .. وهو القطاع الذى شهد أعظم إنجازاته ، فحققت البلاد فى عهده تقدماً علمياً لم يسبق له مثيل دفع البلاد على طريق التحضر الزاهر ، فأعاد بناء جامعة " سانكور " بعد ان تهدمت فى إحدى غارات " سنى على " ، وبنى 150 مدرسة فى تمبكتو وحدها واقام المكتبات وشرى الكتب ، وشجع العلماء بالعطايا والرواتب وجلب كثيرين من البلاد العربية خلال رحلة الحج 1497م ؛ وذُهب " إسكيا محمد " أبعد مما ذُهب اليه " منسا موسى " سلطان مالى ، فى تكريم العلماء فاقطعهم الارض وخصص الجرايات ليتفرغوا للعلم ، وشهدت ولايات الهوسا " الحوصة " على يديه مداً ثقافياً يُعد الاول من نوعه ، وظهر فى المملكة مراكز علم جديدة فبالإضافة الى تمبكتو ظهرت " كانو " و " كاتسينا " بعدما مدت المملكة سلطانتها على شمال نيجيريا ، ومن ابرز علماء المملكة " محمد كعت" المؤرخ الذى عمل وزيراً " لإسكيا محمد " و " عبد الرحمن السعدى " مؤلف تاريخ السودان و " أحمد بابا " خبير الشريعة الإسلامية و " محمد المغلى " المعروف بالبغدادى وقد كان بمستوى علماء الشرق .

الإقتصاد.. ازدهرت المملكة اقتصادياً بفضل اندماجها فى التجارة الدولية للعالم الاسلامى ، وايضا بما حققه لها تطويرها

مناجم الذهب في الجنوب ومناجم الملح في الشمال ، وهما أهم عناصر تجارة عبر الصحراء ، ووفر لها ثراؤها موارد إضافية للانفاق على النهضة وأسهمت فتوحاتها لبعض المناطق الخصبة جيدة الرى فى دعم انتاجها الزراعى ، وكعادة دول الاقليم التى تتخذ التجارة ركيزة اقتصادية ، حرصت صنغى على تأمين الطرق وتنظيم الأسواق ، فعينت المراقبين ووحدت الموازين .. وكان ثراء المملكة ملحوظا باديا للعيان مما اكسبها صيتا و مكانة عظيمتين فى العالم الاسلامى على نحو ما كان لمملكة مالى .

تأصل الاسلام فى مناحى الحياة

تأثر أسكيا العظيم بروحانية الحج ؛ فأغدق وهو كريم الطبع على الحجاج وأهل الحرم ، فتصدق بكثير من الاموال وشرى البساتين بالمدينة المنورة وحبسها على خدمة حجاج صنغى مستحدثا نظام الأوقاف ؛ وبعد عودته حرص على تطبيق قواعد الشريعة وارغم النساء على إتباع قواعد الاختلاط بالرجال والملبس الشرعى ، وأبطل الكثير من البدع ، وبلغت المملكة على يديه قمة حضارتها ، ولعظيم خدماته للإسلام وللحضارة بالمنطقة ، خلع عليه الخليفة العباسى بالقاهرة عام 1497م لقب " خليفة السودان " .

أقول صنغى

وبوفاة " إسكيا محمد " ، إنقضى عهد الفتح العظيم ، وبدأ الضعف يحل بالامبراطورية نتيجة الصراع الذى دار على العرش ، وجاءت نهاية الامبراطورية العظيمة على أيدي المراكشيين ، الذين تقدمت قواتهم لفتح الإقليم عام 1590 م حسما لنزاعهم مع صنغى على مناجم ملح " تغازة " ؛ والذى رأى المنصور (توفى عام 1610) سلطان مراكش المنتشى بانتصاره على البرتغاليين في معركة القصر الكبير في الشمال الافريقى أن يحسمه عسكريا ، فاستولت قواته على " تغازة " عام 1591م و العاصمة " جاو " عام 1600 م ، بعد قتال ضارى مع قوات " إسكيا إسحق " ، وكانت هزيمة اسكيا اسحق بسبب افتقار قواته العدد والعدة ، وتفوق القوة المغربية بأسلحتها النارية التي لم يكن لها مثيلاً في أيدي قوات صنغى.

انهيار صنغى واضطراب الاقليم

الحق الغزو اضرارا فادحة بحركة التجارة ، نتيجة عدم الاستقرار الذى ساد الاقليم ، فتدهورت الاوضاع الاقتصادية وفقدت صنغى ثرائها وبالتبعية بريقها فى عيون " السلطان زيدان " سلطان مراكش الجديد فتخلى عنها عام 1618 م ، بعدما أدرك فشل الحملة فى تحقيق أغراضها الاقتصادية ، ولم يهتم السلطان باستعادة قواته ، فتركها تتدبر شئونها اعتمادا على نفسها ؛ وكان قادتها قد أقاموا ولاية محلية تدعى " الرماة " ، وكانت ولاية ضعيفة تتبع السلطان اسميا لا عمليا ، تعاقب على حكمها مائة وثمان وعشرون حاكماً في الفترة من 1660 : 1750 م ، خلال قرن تقريباً تدهورت فيه احوال البلاد فى جميع المجالات ، وفقدت تمبكتو وجنى كعبتا العلم بالإقليم مكانتهما الثقافية ، وتعرض أهل العلم للتفكيك والنفي بسبب مدافعتهم ظلم الولاة ، وخسر الاقليم ذخيرة كتبه التى نقلها الجيش المراكشى إلى فاس ، وفشلت ولاية الرماة فى ملئ الفراغ بالاقليم لضعفها ، وإمعاناً فى الضعف خضعت لملوك " سجو " الوثنيين(176-177) ؛ وعجزت المنطقة عن افراز قوى اقليمية بديلة قادرة على احداث التوازن فى الاقليم ، فتفجر الشجار بين الدويلات المسلمة ذاتها الامر الذى مهد الطريق امام مد الاستعمار لیتصيد هذه الامارات المتفرقة واحدة بعد الاخرى . وفى نهاية هذه المرحلة ظهرت نواه لدولتين ، على مقربة من المنطقة هما مملكة كانم وبورنو وامارة الهوسا ، سيكون لهما شأن فى خدمة الاسلام ، فكلتاها كونتا امبراطورية ممتدة ؛ الاولى على النمط المعتاد للدول والثانية على النمط الصوفى بزعامة " عثمان دون فوديو " وهو من ابرز القيادات الصوفية التى نجحت فى تأسيس دولة بهذا الحجم ، تركزت على ارض الهوسا كمركز انطلاق لصحوة إسلامية كبرى اكتسحت معظم الإقليم فى القرن 19 م .

176 (السعدى سنقلاً عن الإسلام والثقافة العربية د/حسن أحمد محمود.

177 (الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا د/حسن أحمد محمود ص 268 .

(4) مملكة كانم وبورنو [القرن 8 القرن 16]

نشأت المملكة في وقت متزامن مع مملكة صنغى وهما متداخلتين عرقيا ، فشعب كانم في أغلبيته خليط من عناصر نيلية و بربرية ، هاجرت إلى شرق بحيرة تشاد ، ويرجح البعض ان العناصر النيلية في أغلب الظن مصرية ، جاءت من الشرق الى المنطقة قبل الميلاد ولحققتها عناصر مصرية أخرى أو نوبية ، فرت من مملكة مروى الكوشية بعد إنهيارها في عام 300 م على أيدي مملكة إكسوم الحبشية (178) ؛ و فيما بين القرنين 8 و 10م التحقت قبائل الساو بالمنطقة واسست دولتها ويعتقد دافيدسون ان الساو ينحدرون من دارفور وبعضهم من ميرو .

وفي عام 550 هـ/1106م ، قدمت إلى " كانم " هجرة مصرية حديثة من فقهاء المالكية فرارا من الخليفة الفاطمي " الظاهر لاعزاز دين الله " ، تبعتها عناصر بربرية من طوارق صنهاجة في الفترة ما بين 800 : 1250م في هجرات متعددة فيما بين النصف الاخير من القرن الحادى عشر والنصف الاول من القرن الثانى عشر ؛ فجاءتها مجموعة بقيادة أسرة " بني سيف " التي يتصل نسبها الى " سيف بن ذي يزل " بطل قبيلة حمير اليمنية تمكنت من إخضاع شعب "زغاوة" الوثني وأسسوا سلطنة " كانم " ، واستحدثت الاسرة نظاما للحكم يقوم على " مجلس عظيم " من اثنى عشر شخصا يرفعون قراراتهم الى السلطان ، وكان الخلاف حول حقوق هذا المجلس سببا في الحروب .

وانتشر الإسلام على يد الملك " أوي " أحد أبناء هذه الأسرة بينما يعطى " القلقشندي " هذا الشرف إلى " الهادي العثماني " جد الأسرة ، و أخذت المملكة في التوسع في القرن الثالث عشر على يد الملك " دوناما ديبا لينمى " المعروف بـ دونامة الأول 1210 : 1240 م حتى بلغت حدودها في بعض التقديرات الى النيل الاوسط وحدود مصر وطرابلس ونيجيريا وكانت دارفور وجبل اروي تابعة لكانم اثناء توسعها الشامل في القرن 13 ؛ في عهد دونما الذى بسط سلطانه على طرق التجارة التي تربط مالى وبقيّة دول السودان الغربى حتى فزان شمالا بقلب العالم الاسلامى في الشرق الاوسط (179).

ورغم قوة دونامة ، انقسمت الامبراطورية في حياته واندلعت الحرب بين اولاده الذين استقل بعضهم بالاقاليم التي كانوا يحكمونها ولكنه استطاع ان يخمد نيران الصراع ، وهذأت الامور فترة وجيزة في عهد خليفته " سليمان " لكن الحروب لم تنقطع طيلة قرنين تعرضت خلالها لغزو قبائل البولالا (بلالة او الفولة) التي استقرت حول بحيرة تشاد وادت لانقسام المملكة وظهور " بورنو " ؛ وينقل دافيدسون عن اركل ان قبائل البولالا (البولة) هم ايضا من دارفور من منطقة جبل اوري التي كانت عاصمتهم وقت سيادتهم المنطقة في القرنين 14- 15 م .

مملكة بورنو

قامت قبائل "بلالة " في عهد السلطان " عمر بن إدريس " [1394 : 1398 م] بالثورة على الأسرة الحاكمة وإفتمحت العاصمة " جيمى " ، وطردها السلطان إلى " بورنو " غرب البحيرة حيث أقام مملكة جديدة استطاعت فى عهد الملك " ماى " أن تستعيد " كانم " ووحدة البلاد ، وفي القرن السادس عشر الميلادي بعد إخضاع القبائل الثائرة توسعت المملكة مستغلة الفوضى التي عمت الإقليم نتيجة الغزو المراكشى ، فبسط " ماى على " سلطانه على بقايا صنغى وإمارات الهوسا ، و بلغت المملكة أقصى إتساعها في عهد البطل العظيم " إدريس ألوما (1571 – 1603م) " ، واصبحت كانم / بورنو من جديد اكبر دولة ظهرت في منطقة المراعى بين النيجر والنيل(180) .

وفي القرن السابع عشر، اعترى المملكة الضعف لانغماس ملوكها في الترف ، فأغرى ذلك قبائل الطوارق للاستيلاء عليها ومن بعدهم قوات الهوسا الفولانية ، بعد ان دحرت سلطان بورنو " محمد بن على " ؛ فى إطار حركة الأمام " عثمان دن فودى " عام 1818 م ، ولكن بورنو لم تستكن لحكم الهوسا ؛ فقاد الداعية " محمد الأمين الكانمى " حركة تحرير تمكن بها من طرد الفولانيين ، ونصب نفسه سلطاناً عام 1826 م ، وإتخذ " كوكو " عاصمة له (181) .

(178) اسست مملكة اكسوم عناصر مهاجرة من جنوب الجزيرة العربية بعد استقرارها في الحبشة .

(179) المرجع : افريقيا القديمة تُكتشف من جديد ص 50 -52 -54 ؛ باسيل دافيدسون ..

(180) افريقيا القديمة تُكتشف من جديد ص 50 ؛ باسيل دافيدسون .

(181) ظلت أسرته تتعاقب على الحكم حتى أخضع البريطانيون المملكة.

وفى عام 1893 م بسط البطل الأفريقى السلطان " رابح بن الزبير " (من اصل سودانى) سلطانه على المملكة ومعها "باقرمى" ، مؤسساً بذلك امبراطورية اسلامية كبرى فى تسعينات القرن التاسع عشر الميلادى ، حاز فيها اجزاء من نيجيريا أقام فيها عاصمة " ديكوا " ، ولكن الفرنسيون قضوا على الامبراطورية عام 1900م ، عقب انتصارهم على السلطان العظيم فى معركة " قوسورى " .

إنجازات كانم

مرت المملكة بنفس الأطوار التي مرت بها دول الإسلام بالمنطقة من نظام سياسى إسلامي وتطبيق نظم مركزية متطورة فى الادارة استحدثتها اسرة سيف تقوم على " مجلس عظيم " ، من اثني عشر شخصا لاتخاذ القرارات لرفعها للسلطان ؛ والتوسع بالجهاد والاختذ بأساليب الحرب والغزو ، النهوض بالتجارة وتوسعها بفضل الانضمام لمنظومة التجارة العالمية للعالم الإسلامى ، والانفتاح على العالم الإسلامى من خلال "رحلات الحج " ؛ وأقتباس ثقافة الإسلام والتواصل مع مراكز العلم فى " تمبكتو - كانو - جنى - جاو " ومع مثيلاتها فى كل من المغرب ومصر .
وللمملكة الفضل الأكبر فى نشر الإسلام فى محيط بحيرة تشاد وأرض الهوسا كما نجحت فى صهر القبائل المهاجرة الى اراضيها ، واعتمد ثرائها على مرور التجارة اراضيها الى البحر المتوسط عبر فزان ، والى حوض النيل شرقا .

العلاقات مع مصر

كانت علاقات كانم بمصر وثيقة بسبب القرب الجغرافى ، وتطورت بعد مرور السلطان " دوناما " بالقاهرة فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وهو فى طريقه الى الاراضى الحجازية ؛ وعلى نحو آخر تبادل البلدان الهجرات السكانية كما سبق التنويه بالنسبة للمصريين .
وبالنسبة لأبناء كانم فقد استقروا فى مصر على نطاق واسع للاتجار أو للدراسة ، فطائفة كبيرة من تجار كانم استقرت فى مدينة " قوص " ، وسيطروا على جزء كبير من التجارة الدولية المارة بمصر فتعاظمت ثرواتهم وأصبحوا مقرضين لسلطين مصر وملوك البلاد المجاورة ؛ وكان لطائفة التجار دور كبير فى رعاية الوافدين من كانم لتحصيل العلم ، ولكثرة اعداد الوافدين أقامت رابطة التجار مدرسة بالفسطاط فى الفترة 1242 : 1253 م ، لتعليم الوافدين من طلبية كانم (182).
ومكانة مصر عند الكانميين كبيرة ، وتصور حجم هذه المكانة رسالة ملك كانم الى الظاهر ابى سعيد " برفوق " سلطان مصر عام 1391م ، يلقب فيها ملك كانم سلطان مصر ، بملك مصر أرض الله المباركة أم الدنيا (183) ، ووصفه مصر بأم الدنيا يعكس حقيقة ما تمثله مصر فى إدراك الأشقاء الإفريقيين ؛ وتضمنت الرسالة الشكوى من رذائل أعراب قبائل "جذاما" التى قامت بفضائع ضد إخوانهم من المسلمين فى كانم خروجاً على الاسلام .. وتفيض الرسالة (سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وصغار الرجال ، وقاموا على المسلمين فقتلوهم قتلاً شديداً ؛ وسبوا قرابتنا من المسلمين يبيعونهم لجلاب مصر والشام فنبعث الرسل ينظرون) فى مصر ، فإن وجدوهم فلينتزعونهم من أيديهم (184) .

5) إمارات الهوسا

ينحدر شعب الهوسا من قبائل بربرية هاجرت من واحة " إير " إلى شمال نيجيريا فى القرن العاشر الميلادى ، تمكنت من إقامة سبع إمارات أهمها "كانو وكاتسينا" ؛ وكانوا على الوثنية حتى عام 1353 م حسبما ذكره ابن بطوطه أثناء زيارته للبلاد

¹⁸² (الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا د/حسن أحمد محمود ص 239 - القلقشندي ج 4 ص 281 .

¹⁸³ (المرجع السابق نقلاً عن القلقشندي .

¹⁸⁴ (المصدر السابق ص 238 نقلاً عن القلقشندي ج 8 ص 106 : 117 .

، واتحدت هذه الامارات في دولة كبيرة هي "كبيى" ، استطاعت ان تصمد في وجه محمد تورى المعروف بـ " إسكيا محمد العظيم " سلطان صنغى (1492 : 1528 م) الذى تمكن في النهاية عام 1513 م من السيطرة عليها .

وقد بدأ مد الإسلام اليها منذ القرن الخامس عشر الميلادي بفضل أربعين فقيهاً من تمبكتو و جنى جاءوا لتعليم ملك " كانوا " الإسلام و ساهم فى جهود الدعوة في الفترة 1438 : 1450 م بعض فقهاء المغرب أمثال " محمد عبد القادر المغيلى " و أهل " بورنو " ، و في عهد محمد تورى سلطان صنغى (1492 : 1528 م) إشتدت الحركة الإسلامية .

وبعدا مائتى عام تقريبا استولت شعوب الفولانى بقيادة الإمام العظيم " عثمان فودى ده " على تلك الامارات فى اطار حركته لانشاء امبراطورية اسلامية عصبها الفولا (سنتعرض لها لاحقا في اطار الحركات الصوفية) ، ورغم ما حققته الامبراطورية بالنسبة لمد الاسلام الا ان كتل وثنية كبيرة استمرت باقية حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

المرحلة الثانية

جهاد الصوفية من اجل الدعوة
ومناجزة الاستعمار في غرب افريقيا

كان للإسلام تأثير كبير على صياغة الحياة في المنطقة منذ وجوده ، وسار في مده على نحو طبيعي في بيئة مستقرة يتفاعل معها على نحو إيجابي حتى بداية القرن 15 م ، وكاد ان ينفرد بالاقليم كعقيدة في نهاية مسيرة مده الطبيعي ، لولا متغيرات عاتية عصفت بالمنطقة وعرقلت هذا التطور سبق الإشارة إليها في مرحلة الاضطراب العظيم فقد تفتتت تجارة النخاسة الأوروبية بشكل مكثف ووحشى على الساحل الغربي منذ عام 1444 م واتسع نطاقها مع عام 1788 م لسد الإحتياجات المتزايدة عبر الأطلنطى .

وأجج التجار الاوربيون في ظل رواج هذه التجارة ، الحرب الشرسة بين الإفريقيين الذين كانوا مادة للقتل وادواتها في نفس الوقت ذلك الاضطراب الذى أفرزته تجارة النخاسة الأوروبية / الامريكية واسعة النطاق على كل المستويات ، التى غطت بكثافة خمسة آلاف كيلومتراً ما بين موريتانيا شمالا والكونغو جنوبا.

وفي مرحلة لاحقة باشرها التجار الأوروبيون بأنفسهم ودفعوا بعملياتها الى عمق الارض الافريقية لضمان مزيد من حصادها ؛ فأوقعوا الإقليم في اضطراب عظيم ليس له مثيل ، ففرت شعوب بكاملها خوفا من الوقوع في ربة العبودية مما أسفر عن فراغ سكانى هائل تدهورت معه مناحى الحياة من عمران وزراعة ، ويعزوا " ديرك كارتوم " تدهور شعوب إفريقيا عامة آنذاك إلى وحشية التى مورست بها تجارة النخاسة الأوروبية .

و تصاعدت الضغوط على مد الإسلام بمجئ الاستعمار ، فعزل تطور مسيرته الطبيعي التى كادت ان تجعل في نهايتها من معظم جنوب الصحراء إرثا طبيعيا للإسلام وجزءاً متمما لإفريقيا العربية ، ففي سعيه لإجتثاث جذور المقاومة الأفريقية ، رأى من الضروري هدم الموروث الثقافى لهذه الشعوب التى تحول دون نفاذه في اعماقها لاختضاعها ؛ فإنتهج سياسة " الإحلال الثقافى " التى ركن عليها لتخريب الثقافة المحلية وفرض ثقافته على اساس ان روابط الثقافة اقوى واطول مدى في دوامها ، وكانت مجتمعات الاسلام الاكثر تماسكا وتحضرا ، والاكثر اعتدادا برصيدها الثقافى لانتماها لعالم ذو حضارة ، هى المعنية بتدمير هويتها التى تزيد من عناد هذه المجتمعات وتدعم مقاومتها صلابة في تصديها له، فإندفعت الامور نحو صدام تصاعد بمرور الزمن.

وزادت المواجهة حدة إستعانة المستعمر بالتبشير في ارض الاسلام ، فاشتعلت المواجهة واندفع الصوفية في نضال كبير وجدوا فيه أنفسهم في موقع المسئولية للحفاظ على الهوية الإسلامية ، فاطلقوا روح جهاد كانوا هم أبطاله .

التعريف بالطرق الصوفية

تنبئ الصوفية على إتفاف العامة حول الخاصة ، في رباط روحى قوى تحت مظلة الجماعة وزعامة الامام ، ومضمونها الروحى هو مصدر قوة الحركات الصوفية ؛ وللصوفية مكانة كبيرة لدى الافريقيين ، فهى عميقة الجذور في معظم ثقافاتهم القديمة ممثلة في بعض جوانب النظام الكهنوتى الوثنى من حيث ترابط الجماعة تحت مظلة الكاهن الاعظم .
واهم الطرق الصوفية واكثرها انتشارا فى المجتمعات الافريقية القادرية والتيجانية فى الغرب الافريقى ، والسنوسية فى تشاد والصحراء الليبية ، ونتعرض بإيجاز لكل منها بتعريف بسيط :

القادرية

تأسست في العراق للإرشاد السلمى ، وإمتد نفوذها الى شمال إفريقيا فى القرن الثاني عشر الميلادي ، ومن بعدها إفريقيا الغربية عن طريق شنقيط " موريتانيا " ؛ وتمركزت الحركة في "ولاتا" بجنوب غرب الصحراء .
واصلت الحركة تقدمها في القرن الخامس عشر جنوبا لتصل " تمبو " Timbo " في الفوتاجالون ، وانتشر دعائها بين الشعوب الوثنية التى رحبت بالدعوة ، ومن أبرز جهودها نشر الإسلام بين قبائل " البامبرا " الوثنية فى مطلع القرن العشرين ، ومع توسع الدعوة ظهرت الحاجة الى تأهيل مزيد من الدعاة ، فأرسلت الحركة البعوث إلى القيروان و طرابلس و فاس و تلمسان والقاهرة و أقامت

المدارس و تعهدها بالرعاية .
ورغم منهجها السلمى ، ترصدها الإستعمار الفرنسى ودخلت معه فى صدام ثم تهدنت معه ؛ وكانت مهادنة شيخها " عبد الله سيديا " (الموريتانى) الاستعمار الفرنسى سبب انقسام الحركة فإنشق عنها المريدية والتيجانية.

التيجانية

نشأت فى الجزائر على يد " أحمد بن محمد التيجاني " (1737 : 1815م) ، المنشق عن القادرية لرفضه تساهل شيوخها مع الفرنسيين ؛ فانتقل فى اواخر حياته الى فاس ، وقدر لفرقة أن تنتشر إنتشاراً واسعاً فى إفريقيا الغربية ، وأن تصبح ملهمة كل الحركات الدينية المكافحة للإستعمار ؛ وهذه الفرقة اتبعت الأسلوب السلمى فى نشر الإسلام كالقادرية .
تبنّت الحركة الجهاد ضد الاستعمار ؛ وأسست عدة دول صوفية قصيرة الأجل فى إفريقيا الغربية بدأت بحركة " الحاج عمر الفتوى (1798 : 1865م) السابق الإشارة إليها التى إنطلقت من السنغال ، وكان هدفها الأكبر طرد الفرنسيين وتوحيد المسلمين فى ظل دولة إسلامية واحدة ولكنه مات ولم ينجز هدفه ، وفى آواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، إنقسمت التيجانية بسبب خلافات تافهة إلى فرق متعددة فى فاس " مراکش " وموريتانيا و السنغال ومالى والفوتجالون " غينيا " .

السنوسية

أسسها الفقيه الجزائرى " محمد بن على السنوسى " { 1787 : 1879 م } وهو من مستغانم ؛ درس فى جامعة القرويين وفى الأزهر وكان فى أول الأمر قادرياً ثم أصبح وهابياً ، بدأ بنشر مذهبه فى عام 1837م ، ويقوم على محو البدع ومباشرة الدعوة بكل ضروب الإقناع والإغراء ، ولهذه الفرقة دور هام فى نشر الإسلام فى المنطقة الواقعة بين وادى النيجر وبحيرة تشاد وحتى شمال نيجيريا .
تعرضت الطريقة لمضايقات الفرنسيين ، مما اضطر " محمد بن على السنوسى " الى الإنتقال إلى واحة " جغبوب " فى برقة " ليبيا " ، وانتشرت الطريقة قبل موته فى القسم الشرقى من الصحراء الكبرى " ليبيا " وفى التيبستى وتشاد والأهير ، وحارب السنوسيون الفرنسيين حرباً شديدة ودعموا كل حركات الطوارق التحررية .
ومن أفضال السنوسية دورها فى محاربة تجارة الرق فكانوا يشترون العبيد ويعلمونهم اللغة العربية والقرآن والفقه وأصول الدعوة ، ثم يحررونهم ليصبحوا دعاة للإسلام ، وفى عام 1917 تمكنت فرنسا من هزيمتهم فى " أغادس " ولكنها لم تتمكن من القضاء على تصميمهم على الجهاد ؛ فاضطر الفرنسيون للتعاون مع الإنجليز فى شن الحرب عليهم فى رباطات الصحراء بالنيجر وفى واحة جغبوب وغيرها ؛ وانسلخت عن الطريقتين الرئيسيتين القادرية والتيجانية فرق الفاضلة والشاذلية والخلواتية وجماعة الشيخ " سيديا " (مواطنها موريتانيا) .

جهاد الصوفية

المرابطون (دولتهم فى الأندلس والمغرب وأجزاء من غرب إفريقيا) (185) ، وهم أول من استن الجهاد فى الغرب الأفريقى ، عندما إستقدم زعيم قبيلة " جدالة " البربرية الفقيه المغربى المالكى " عبد الله بن ياسين " ، لتمكين الإسلام الصحيح من نفوس البربر ودعوة قبائلهم للوحدة ، ولما لم ينجح ابن ياسين فى هذا إعتزل واصحابه فى جزيرة تانية ، واقاموا رباطا يُعسكروا فيه وانضم إليهم الكثيرون ؛ ومن رباطهم تسموا " المرابطون " وتحولوا الى الجهاد ، واعد ابن ياسين أتباعه للجهاد ، فشرع يخلق منهم فئة فدائية على أساس دينى صرف ؛ فلما زاد أنصاره عدداً خرج بهم مجاهداً فتمكن من توحيد قبائل البربر ، وتقدم لغزو مملكة غانة كما سبق الذكر ، ومن بعد إستشهاده واصل أتباعه جهادهم ليؤسسوا مملكة كبيرة ضمت الأندلس والمغرب وأجزاء من غرب إفريقيا ، وللمرابطين تدين الحركات السلفية " الصوفية " فى الاقليم بالفضل ، فى اتباع نهج حركتهم فى الجهاد.

¹⁸⁵ أن ياسين والد عبد الله بن ياسين - مؤسس دولة المرابطين - عبر المحيط الأطلسي مع جماعات من أتباعه وذهب إلى شمال البرازيل وغينيا، ونشر الإسلام ، وأسس منطقة كبيرة تابعة للدولة المرابطية ، وهذا موثق بالوثائق التي تملكها الدوقة المشار إليها ، وإلى يومنا هذا هناك مدن وقرى فى تلك المناطق اسمها فاس، مراکش، تلمسان، سلا ، قبل وصول كريستوفر كولمبس .

حركة الأمام " عثمان فودی ده "

وهو الأمام الشهير " عثمان دن فودیو " ينتمي الى شعب الفولاني المنتشر بالسهل الساحلي لموريتانيا وسهول السودان الغربي ، إستقرت أسرته في شمال نيجيريا وتفقّه في الدين وإشتغل بالعلم ، ثم رحل إلى الحجاز وتأثر بالوهابية ؛ ولما رآه تدهور حال المسلمين ؛ إنطلق يحارب البدع واستنهاض روح الاسلام ، وبدأ دعوته بالحسنى فاجتذب كثيرا من الأتباع لما رأوا فيه من صلاح وصدق وتكشف ، وسار علي نهجه في الكشف والورع ولده " السلطان محمد بل " الذي كان يأكل من كسب يديه ويأبى أن يفتات من أموال المسلمين (186) .

وبعد أن ذاع صيت الامام عثمان وكثر أتباعه ، خطب ود امراء الهوسا فتحالف مع أمير " جوبير " ، إلا أن دسانس العلماء الحاقدين افسدت ما بينهما فرحل إلى إمارة " زنفر " و" كب " حيث أسلم على يديه عدد كبير من الوثنيين .
أقلق تزايد أتباع الامام امراء الهوسا فأخرجوه مع طائفة من أنصاره من أرضهم في فبراير سنة 1806 م وطاردوه ، فاضطر لاعلان الجهاد ضدهم مستندا لشعوب الفولاني عصب امارات الهوسا ؛ واستطاع في الفترة 1806 : 1810 م ، أن يفتح تلك الإمارات جميعاً ، وأقام سلطنة فولانية في " جوبير " وأقام بها عام 1808 م ، وانتقل بعد ذلك للإقامة في " سوكونو " التي اتخذها عاصمة لدولة المجاهدين وحظي الشيخ " عثمان " بإعجاب كثير من المسلمين من بينهم ملك مراكش.
قسم الامام عثمان الإدارة بين ولديه ليتفرغ للعبادة ، فكانت " سوكونو " من نصيب " محمد بللو " ، و جواندو GWANDU " من نصيب عبد الله " ، وبوفاته عام 1817 م بُويع ابنه " محمد بللو " للخلافة واستمر فيها حتى مات عام 1837 ، ويسجل الرحالة " كلبرتون " عند زيارته للمملكة في عهد " محمد بللو " مدى إستقرارها ورخاءها.

النظام الإداري والتجاري

أقام الامام عثمان الحكم في هذه الإمبراطورية على أساس الشورى وقواعد الإقتصاد الإسلامي ، فأقام بيتا للمال بمصارفه الشرعية وإستقل بالقضاء عن السلطة التنفيذية ؛ واتبع تنظيما للحكم يقوم على " خلافة " مركزية في " سوكونو " تتبعها امارات فرعية ، واعتمدت المملكة الاسلام كقوة سياسية واجتماعية واسلوب حياة قائم على روح التضامن الاسلامي ، وقد ساعدها هذا المنهج على تجنب الاختلافات و شروور العصبية فسهل احكام السيطرة على الاعراق المختلفة .
اقامت امبراطورية الفولاني شبكة جيدة من الطرق ، غطت ما بين كانو وبرنو والكونغو وساحل الاطلنطي ، ونجحت الادارة رغم اتساع المملكة في توفير الامن على طرق تجارة عبر الصحراء ، وادى نظامها بمكوناته الى ازدهار إقتصادها وامن طرق تجارتها وشبكة مواصلاتها الى ازدهارها تنامي تجارتها ونشاط حركتها الثقافية .

العقيدة

اجتهدت المملكة في نشر الإسلام حتى جنوب نيجيريا ، وساعد ما قدمته من اغراءات اقتصادية واجتماعية الى اجتذاب العديد من الشعوب الى اسلام ؛ ومن الملفت ان بعض الوثنيين الذين لم يُسلموا واكثرهم من التجار كانوا يأخذون بمظاهر الاسلام باعتباره اساسا للتميز فإقتبسوا الملابس والاسماء والعادات ، وكان هدفهم من وراء ذلك تعزيز نشاطهم التجاري ، وقد ساهم هذا الارتباط بشكل ايجابي وسريع فيما بعد في اندماج تلك العناصر العرقية المختلفة في الاطار الاجتماعي الاسلامي .

تخاذل مد الاسلام

بمرور الوقت تهاون " الفولة " في كثير من المعتقدات الاساسية من اجل مآرب سياسية ، وسادت روح التخاذل وتآكل الجهاد باسقاط شروطه الاساسية وأبقوا على شروطه الثانوية ، فأخذوا بنظام " الامانة " الذي يسمح للوثنيين بدفع الجزية دون الاسلام ، فتباطأ مد الاسلام وفي بعض الحالات لم يتقدم خصوصا في المناطق الجبلية المنعزلة مثل " ماندارا " و " كوتوكو " ،

التي بقيت بعيدة عن سلطة الفولاني عام 1850 م ، فبقيت بها كتل كبيرة على وثنياتها ومعها فئات قليلة من المسلمين ؛ وقضى الأنجليز عام 1890 م على الامبراطورية بعد إحتلالهم نيجيريا.

جهاد أحمدو لمبو بن حمد بوبو

وهو أيضا من أصل فولاني تزعم حركة إصلاح ديني وسياسي بعد عودته من جهاده مع الامام عثمان دن فوديو إلى مسقط رأسه في " ماسينا " (جمهورية مالي حاليا) ، وفي عام 1813 م أطلق الجهاد في أعالي النيجر " مالي حاليا " ضد الوثنية ، فهزم " البمبارة " أصحاب مملكة " سجو " وتقدم بقواته ليحتل تمبكتو وجنى ، وأقام مملكة سلفية عاصمتها " حمداً لله " .
ضمت سيعمانة مدرسة لتحفيظ القرآن وستين حلقة لتدريس علوم الشريعة ، توفي الشيخ أحمدو تاركا إمارة إسلامية لم تُعمر طويلاً إنتهت في عهد ابنه " أحمدو شيخو " عام 1852 م ؛ على ايدي الفرنسيين ، وتعتبر حركة الأمة " الماسينية " بقيادة " أحمدو لمبو " من أكبر الحركات ذات الأثر البالغ في دفع الثقافة الإسلامية في الذراع الغربي لنهر النيجر .

كفاح عمر تال (عمر الفتوى التكروري) في مالي وغينيا

ولد الشيخ " عمر بن سعيد تال (طال أو فال) " في بلاد التكرور في " فوته " عام 1788 م ؛ اضطرت أسرته وهو صغير الى اللجوء الى المناطق الداخلية الامنة هربا من مطاردة النخاسين وعائلته عائلة مجاهدة قاومت الوثنية والإستعمار بشدة ، تلقى العلوم الإسلامية في الأزهر عام 1233 هجرى / 1825 م ، وزار الحجاز ثم مراکش حيث إلتقى الشيخ " أحمد السقالي " خليفة التيجاني .

واعتنق على يديه مبادئ التيجانية التي لاقت نجاحاً عظيماً في السنغال في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ، وكان للشيخ عمر مكانة عظيمة لدى سلاطين المناطق التي مر بها في السودان و"وداني" (في شرق تشاد) ؛ واكمبره سلطان كانم وقدم له المساعدة ؛ وصاهاه سلطان " سكوتو " في شمال نيجيريا " محمد بللو حفيد المجاهد الكبير عثمان دان فودي " ؛ وبفضل شخصيته الفذة وانتمائه العرقي تعززت التيجانية بين التكرور في السنغال ، وكان له الفضل في مد التيجانية الى وادي النيجر " مالي " .

اثارت شعبيته مخاوف الحكام ، فاستقبله الشيخ " حمد " ملك ماسينا أثناء مروره بـ " حمد الله " عاصمته (الفولة) بكثير من الحذر لخوفه على ملكه من شعبية الشيخ الواسعة ، وعززت مخاوفه أفكار الحاج عمر الداعية الى توحيد بلاد غرب افريقيا تحت راية واحدة ، كما إنتابت المخاوف ملك " البامبرا " بمملكة " سيجو " الوثنية ، عند مرور الشيخ بها فسجنه زمناً ثم أطلق سراحه ، وهذه المملكة من الممالك المعروف عنها طول مقاومتها للإسلام ، وفيما بعد غزا الحاج عمر المملكة وقتل هذا الملك ونشر الإسلام فيها .

وفي الفترة 1840 : 1847 م أسس الحاج عمر بمدينة " الدنكراي " شمال شرق غينيا ، زاوية قامت على نظام عسكري ديني يشبه الرباط { المعسكر } ، إنصرف فيها إلى تنظيم جيشه لمقاومة الوثنية ونشر الإسلام ، ومحاربة الإستعمار والمتعاونين معه من الأرستقراطية الناشئة ، وعزم على تحقيق وحدة البلاد الإفريقية في ظل الإسلام ، إحياءاً لأمجاد ممالك الإسلام الكبرى في الإقليم ، واستعان في تجهيز الجيوش بجمع أتباعه الذهب من منطقة " البورة " ، واستهل الشيخ نشاطه بنشر طريقته في السنغال عام 1847 م ؛ و أرجأ جهاده ضد تحالف الفرنسيين والوثنيين حتى يعيد تنظيم قواته ، فعاد إلى رباطه في " الدنكراي " عام 1850م وبني حصناً ومسجداً .

وباتساع شعبيته ، بدأ جهاده وقضى في الفترة 1850 : 1854م على الإمارات الإسلامية والوثنية الصغيرة الواقعة في جواره في شمال الفوتاجالون انظر الخريطة السابقة) ، ووجه ضربات شديدة إلى مملكة " سيجو " (في مالي) الوثنية كما اسلفنا ، وإستخلص منها كثير من المناطق ، ونشر بين سكانها الإسلام ؛ ثم تحول إلى مسقط رأسه في السنغال [الفوتاتورو] حيث له كثير من الاتباع ، وإتبعه كثير من الزعماء وانضموا قواداً في جيشه .

اصطدم الشيخ بالفرنسيين لما استنصرهم عليه بعض القادة في جيشه من زعماء البلاد المنضمين اليه الذين بدون معاونتهم ما كان يستطيع الفرنسيون تحطيم قوته في السنغال وضياع حلمه في إقامة دولة اسلامية موحدة في الاقليم التي كان قريباً من تحقيقه ، ويقول الفرنسي " مولارد " ، لولا الإستعمار الفرنسي لنجح الحاج عمر في إقامة دولة إسلامية موحدة في إفريقيا

الغربية وهو في ريعان الصبا " ؛ واستمر الشيخ في مجاهدة الفرنسيين إلى أن توفي عام 1865 م ، ويقول الفرنسيون أن الشيخ عمر بما كان يمثل من حماس وطموح مهد الطريق أمام من أتى بعده من الزعماء الأفريقيين لمقاومة الاستعمار ، وبعد وفاته تابع ابنه الجهاد من بعده في صراع مرير مع الفرنسيين على مدى ثلاثة وثلاثين عاماً ، إنتهت بتغلب فرنسا عليه ، وبذلك خمدت النزعة الحربية للتيجانية .

الحركة و محاربة النخاسة الأوروبية

وللتيجانية دور جليل في مدافعة شرور تجارة النخاسة (قبل عهد الشيخ عمر) ، إتبع فيها الحركة إستراتيجية ماهرة في محاربة تجارة النخاسة تقوم على تجميع السكان في مستعمرات على الضفة اليمنى لنهر النيجر يمكن الدفاع عنها ، وتصدت الحركة بقوة لكل من حاول عبور النهر من التجار الأوروبيين ، وفي عام 1769 م حذر الإمام " عبد القادر حمدي " في رسالة له الى " بلنشو " رئيس التفويض التجارى الفرنسي في السنغال من مغبة هذه التجارة وهدد بقتل كل من يتعامل فيها إذا لم يعيدوا أبناء المسلمين الذين في أسرهم (187) .

حركة موديبو أداما " الفولانية "

قاد "موديبو عبد الله أداما " آخر الحركات الإسلامية الإصلاحية التي قام بها الفولاني في شمالي الكاميرون ونيجيريا ، وبذلت حركته جهدا كبيرا في نشر الإسلام في جبال الكاميرون ، وحركته من أقوى الحركات التي واجهت الإستعمار في غرب إفريقيا ، وإنتهت دولته عام 1910م بمقتله على يد الجيوش الألمانية الزاحفة .

طرق أخرى

وهناك طرقا أخرى يحفل بها التاريخ الإفريقي تتضارب بشأنها المراجع ، فخلطت بين الأصول والفروع والقواد والتابعين ، وجعلت من الحركة الواحدة حركات متعددة ، فرأينا إهمال السرد المطول المفصل تجنباً للخطأ ؛ والاقتصار على الحركات التي يعيننا جهادها ، ونضرب مثلاً ببعض هذه الحركات أمثال:

المجاهد " أحمد ساموري توري " الذي دوخ الفرنسيين على مدى 18 عاما في الفترة 1881 - 1898 م أعاق فيها تقدمهم في غينيا وأعلى ساحل العاج وجنوب مالي فاستحق لقب بونايرته السودان الغربي ؛ و بفضل جهوده اسلم الكثير من الوثنيين . جهاد " المهدي محمد رايرو " الذي ثار عام 1821 م على امام التيجانية لمهادنته الفرنسيين الذين تقدموا للسيطرة على ساحل السنغال ، وقد إستمر " المهدي " في حربه ضد التوغل الفرنسي ولم يتوقف عن الدعوة للعقيدة وتصحيحها حتى أستشهد ، فحمل من بعده ابنه " أحمد " راية الجهاد في الفترة 1868: 1875م .

حركة الحاج " محمدو بيسو " الذي لقب نفسه " محمد الأمين " وجاهد الفرنسيين ثلاث سنوات إستقل فيها بمنطقة بوبو في شمال فولتا العليا ؛ و إنتهت حركته بسجنه عام 1887 بعد أن تمكن منه الفرنسيون .

وحركة " محمدو بودو " الذي جاهد الفرنسيين في الفترة 1891 - 1894م ؛ وتابع الجهاد من بعده "فودي أسماعيل تونكارا" ، الذي نجح عام 1908م ، في جمع المسلمين ضد الحكم الفرنسي في مالي وغينيا . وإنتهى امره بالاعتزال بجبال فوتاجالون ليتفرغ لتعليم تلامذته الإسلام .

البطل " بادمبا " سلطان " سيكاسو " (جنوب مالي)

وهو من المجاهدين الذين استعصوا على الفرنسيين لمدة طويلة في اواخر القرن 19 م ، ولما سقطت سوكاسا في يد الفرنسيين ، نكلوا باهلها انتقاما لمقاومتها لهم وما تكبدوه من خسائر ، فاستباح قادة الفرنسيين التصرف بنساء السلطان واقتسام

الجماليات ، واقتادوا اهل المدينة الى الساحل فى مسيرة طويلة تساقطت خلالها النساء قتلى وبيع من تبقى على قيد الحياة رقيقا (انظر ملحق الخرائط بموقع الامارة)

(تقويم عام)

المد الإسلامى وتأثيره الحضارى على غرب افريقيا

كان للإسلام فضل فى حل عقدة ازمة الحضارة فى الغرب الافريقى وانفتاحه على الحضارة ، وفى القرون الوسطى بلغ الاقليم بحضارة الاسلام قمة نظامه الادارى والسياسى ، واستكملت كياناته السياسية مقومات الدولة داخليا وخارجيا ، وفتحت رحلات الحج ابواب الاقتباس الحضارى فازدهرت ثقافته ، كما ازدهرت تجارته بدوراتها فى حلقة تجارة عالم الاسلام الدولية فعرفت عن طريقها القوافل الإفريقية طريقها الى العالم الخارجى لأول مرة واصبح الاسلام عامل تواصل وثيق بين المنطقة ودول الاسلام. حقق الإسلام بالتجارة وحركة القبائل انتشارا أكبر مما حققه بالجهاد ، وليس هذا إغماطاً لفضل الجهاد فالأرادة السياسية مطلوبة وبالحاح في المراحل الأولى لتحقيق إندفاعه فى مد الإسلام قبل إنطلاقه الذاتية .

وثابت التاريخ أن نضوج المد الإسلامى بالتفاعل الحر باعمال الفكر والايمن يبقى أكثر رسوخاً عما حققه بـ " ضغوط " الفتح والجهاد ؛ فالقصر يفرز بيئة باطنية تظهر ما لا تبطن ، ومظهرا بلا جوهر ونماذج هشة من المسلمين اسلمت اما نفاقا او خوفا ترتد فى اول فرصة مواتية ، وان لم تفعل لغرض تراه فقد تنتهج أساليب باطنية وتصبح فرق سرية ، تنقلب الى خطر داهم يعمل على تقويض الإسلام بما تنطوى عليه تلك النفوس من عداء مستتر ، وهو ما وعاه الحكام المسلمون مثل " اسكيا محمد " الذى إضطر امام رفض أهل " ونقارة " الاسلام ، الى تركهم لوثيتهم خوفا من توقف العمل بمناجم الذهب ، بعد أن هددوا بهجر العمل احتجاجا على ضغوطه عليهم لاعتناق الاسلام ؛ وهناك أمثلة أخرى في منطقة " فوتاتور " و " فوتا جالون " ، وقد أثبت المد الهادئ تفوقه على المد الهادر حتى فى إختراق حواجز الطبيعة فالتجار المسلمون إخترقوا بالدعوة الغابات الإستوائية التي عجزت جيوش إسكيا محمد و إدريس ألوما عن إختراقها.

ويفسر المختصون اليسر والسرعة التي سار بها مد الإسلام بوجود جذور توحيدية فى بعض العقائد الإفريقية تتشابه مع الإسلام ، مثل فكرة الإله الواحد بمسمياته " إله السموات - الأول والآخر - الموجود بذاته قبل الوجود " ، كما ان فكرة العقاب والنواب والبعث لدى قبائل مالى وغينيا وسيراليون تتشابه مع مثيلتها فى الاسلام ؛ وهى معتقدات إنسابت بالفطرة في وجدان الأجيال منذ آدم وفقدت بمرور الزمن اصلها السماوى ، وساهمت طبيعة الإسلام ، بما تنطوى عليه من قيم تعزز الشعور بالأخوة والجماعة وعدم التمييز بين الأعراق واحترام الاسلام للذات واعتزازه بمعتقديه بنبذ الضعف والخنوع وتخليصهم من نظم الاستعباد الاقطاعية التي تعبدتهم فيها ملوكهم ؛ كما ان الوحدة والتوحيد فى العقيدة خلصت الافريقى من الإضطراب الروحى الذى خلقتة زحمة المعتقدات الوثنية وسذاجتها ، قد ساهمت جميعا فى اجتذاب الافريقيين الى الاسلام ، وزاد من اقبالهم عليه توافقه مع العديد من قيم المجتمع الافريقى الجوهرية وعلى رأسها تعدد الزوجات ؛ فى اقبالهم على الإسلام صنو الرقى ، ويقول العالم الفرنسى " رو " " إن الافريقيين كانوا يذهبون إلى المسجد مع المسلمين ليبدووا بمظهر الرقى والتقدم ، لتعارف المجتمع على أن الإسلام صنو الرقى (188) " .

وفتحت طبيعة " التسامح الإفريقية " الطريق امام مد الاسلام ، فقد سمحت بتعايش ديانات متعددة تحت مظلة واحدة فى محبة ودون عداوات ، ليس فقط داخل القبيلة الواحدة بل وايضا داخل الأسرة الواحدة ، ولا نغفل ماأسبغه قيام أبناء القارة بمسئولية الدعوة ، من الفة بين المجتمع والإسلام ، مما كان له الفضل فى تجنب افراز عداوات كتلك التي أفرزها الإستعمار وعنصرية الرجل الأبيض تجاه التبشير الأوروبى .

أثر حضارة الإسلام

أطلق الإسلام الإقليم الى عالم الحضارة بعد ان اجتاز به عقدة التطور بحضارة الإسلام ؛ التي استهلكت بها المنطقة أول فصول تاريخها الحضاري ويشير الرحالة الألماني هنريش بارت " Barth " الى فضل الإسلام في تحضر افريقيا فيقول " من الغريب أن هذه الشعوب (الإفريقية) تظل مجهولة حتى تعتنق الإسلام فتظهر علي مسرح الأحداث ويدخل تاريخها عهد النور الساطع "(189).

وبفضل حضارة الإسلام التي وصلت المنطقة في العصر الوسيط ؛ استهلكت المنطقة أول فصول تاريخها الحضاري ؛ و يقول نعيم قداح " .. " كان إنتشار الإسلام الذي عرف طريقه إلى القارة منذ أكثر من ألف عام ؛ مرحلة حضارية حاسمة إنتقلت فيها إفريقيا بآسيا في لقاء وثيق مُجد ومتجدد ؛ فيفضل الإسلام أصبح المجتمع الإفريقي منتسبا للحضارة الإنسانية . واصبح التأثير العربي العامل الاساسي في صياغة الحياة العامة للسودان الغربي منذ ايام غانة القديمة " ، ويشير كل من الرحالة الأندلسي " البكري " والعالم الكبير " ابن خلدون " إلى ماوصله الاقليم من مدنية وعمران في مطلع القرن 14م ، بلغ بها شأننا عظيما في ظل حضارة الاسلام (190) .

ويذكر دافيدسون " ان بعض دول الاقليم في بداية العصر الوسيط كانت تفوق اوربا حضارة في بعض الاحيان ، وينقل عن بالمر تعليقه على هذه النقطة في معرض حديثه عن غانة في وقت معاصر لصالح الدين فيقول " أن الغرب ظل حتى ذلك الحين جاهلا بدانيا متوحشا (191) .

قاومت مجتمعات الاسلام بعناد وصلابة محاولات الاستعمار امتصاصها ثقافيا ، ووقف وراء صمودها قوة الانتماء للإسلام والاعتزاز به وبذاتها وتراثها ؛ وتصدت الحركات الصوفية لمقاومة الإستعمار الأوروبي منذ وصوله ارض القارة ، ولم يقتصر دور الدعاة على الجهاد بل امتد الى التنمية الاقتصادية والنهوض بمجتمعاتهم لدعم صمودها في وجه الضغوط الاقتصادية التي استغلها الاستعمار والتبشير للتأثير على صمودهم ؛ فأقام البعض مثل " أحمد بامبا " زعيم " المريدية " في السنغال تعاونيات للزراعة المستديمة فقام أتباعه في الفترة من 1889: 1912 م باستصلاح الأرض وزراعتها بالفستق تحت شعار " من يعمل ويزرع يأكل " ، وأقاموا من ريع الزراعة منشآت ومدارس تكفل الفقراء واجتذب النشاط الاقتصادي تجمعات سكنية من حوله فنشأت مجموعة من القرى وتحول المجمع الى مؤسسة إقتصادية كبرى .

الثقافة العربية في الاقليم

بدأ انتشار الثقافة العربية قبل اسلام الاقليم ، على أيدي مسلمي غانة التي لم تعرف مملكتها ثقافة اوابجدية في تاريخها لأول مرة الا العربية منذ عهدها الوثني ، فقد عرفت معنى الكتابة لأول مرة وكانت الابجدية العربية اول ما عرفه الاقليم من ابجديات ، وهو نفس الحال في بقية الغرب الافريقي الذي لم يعرف مثل غانة معنى الكتابة الا بالاسلام ، ويقول باسيل دافيدسون ان اول سجلات مكتوبة عرفتها غرب افريقيا كانت في القرن الخامس مكتوبة بلغة عربية صحيحة (192) ، ومع وصول الثقافة العربية في الاقليم ذروة ازدهارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين برعاية مراكزها الثقافية المزدهرة في امبراطوريات الاسلام في تمبكتو - جنى - اغاديس - كاتو - كتسينا ، اصبحت اللغة العربية لغة الدين والثقافة والادارة في غرب افريقيا وظلت سائدة حتى وصول الاستعمار الذي استبدلها بلغته وثقافته .

وعلى مدى قرون تسربت اللغة العربية إلى مايزيد عن مائة وخمسين لغة محلية في جنوب الصحراء ، ما بين القرن الافريقي والمحيط الاطلسي ، ويذكر " توماس أرنولد " أن العربية أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة السوداء ، ويشير الرحالة الإنجليزي " مور " في زيارته للمنطقة عام 1731 م الى أن معظم أهالي جامبيا البريطانية يتحدثون اللغة العربية ، ويؤكد تقرير مجلس العموم البريطاني عام 1804 م اتقان قبائل " المالينكة " في سيراليون اللغة العربية ويقوا يتحدثون بها في الامريكتين

¹⁸⁹ (الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ص 235 - د. حسن أحمد محمود .

¹⁹⁰ (المرجع السابق - ص 265 من الاعمال المعمارية التي قام بها المغاربة تخطيط مدينتا " جنى " و " غاخ " - المصدر نعيم قداح) .

¹⁹¹ (باسيل دافيدسون - افريقيا القديمة تُكتشف من جديد ص 42 .

¹⁹² (ص 31 من كتابه ؛ كتب ابن منبه في عام 738 اول السجلات العربية عن المنطقة .

ويقول بول مارتي ان الأفريقيين كانوا يستخدمون اللغة العربية في الاجتماعات الرسمية ويكتبون بها رسائلهم ، وان المعاهدات زمن الاستعمار كانت تُكتب بالعربية والفرنسية ، وتشير المراجع إلى وجود تراث ضخم للغة العربية ، فقد معظمه ونُقل بعضه إلى فاس خلال الغزو المراكشي ، ولحسن الحظ عُثر على عدد كبير من مؤلفات كتاب الاقليم محفوظة في المعهد الفرنسي في داكار تقدر بثلاثمائة مخطوط عربي بخلاف ماتضمنه حالياً مكتبة " كانوا " الملينة بالكتب العربية (193).

نالت مراكز العلم في الإقليم " تمبكتو - جنى - كانو - كاتسينا " صيتاً وشهرةً وحظاً وافر من المجد ، وكانت مكانة علماءها تضاهي مكانة قراءهم في أي مكان آخر ، ويذكر السعدى أن الفقيه العربي عبد الرحمن التميمي الذي أحضره السلطان موسى من الحجاز ، هجر تمبكتو بعدما ادرك ان لا مجال له امام تفوق علمائها ؛ ويشير ابن حجر الى عالم تكرر في كان عبداً بمصر وشغف بالعلم من متابعتة لدراسة أبناء سيده ، فكتب (طالب) سيده واشترى حريته بخمسمائة درهم وفرها من عمل يده بمقتضى حق المكاتبه الذي ضمنه الاسلام ، وانتقل الى دمشق وذاع صيته كعالم (194) .

ولضيق المقام عن سرد كل أسماء العلماء البارزين بالاقليم تخيرنا منهم المؤرخ السعدى عبد الرحمن بن عبد الله (1595 : 1656م) الذي ترجم سيرة سبعة عشر عالماً للفلك في تمبكتو (فقد كتابه خلال الغزو المراكشي) ومن كتبه " تاريخ السودان " ؛ وأستاذ العالم المؤرخ محمد بن أبى بكر الوائلورى ؛ والمؤرخ أبو العباس التكرورى (1556 : 1627م) من أصل موريتانى ويُعرف بأحمد التمبكتي ؛ صاحب كتاب " نيل الإبتهاج بتطريز الديباج " الذي يضم تراجماً لأكثر من مائة مؤرخ وأديب وشاعر وفقه ممن دونوا أفكارهم بالعربية .

وهناك أبو النناء محمود بن عمر كاتى الصنهاجى التمبكتي (1463 : 1548م) وهو قاض وفقه ومؤرخ لكتاب " التاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس " في تاريخ مملكة غاو وغيرها من ممالك الاقليم ، والكتاب عبارة عن نقد علمي للبحث التاريخي ، وبعضٌ ممن ظهروا في القرن التاسع عشر الميلادي وكتبوا باللغة العربية السنغالي كلميا دياكيتا 1858م - مالك سى - موسى كالم - والمجاهد عثمان دان فوديو - وابنه محمد بللو ، وعلماء الفوتاجالون الذين أرخوا باللغة العربية للفتاح المجاهد سامورى تورى 1881 : 1898م المنتسب لشعب الماندينجو .

الوجود العربى

لم تكن اعداد العرب كبيرة ، فلم يكن وجودهم محسوساً الا في مراكز التجارة ومدنها الرئيسية كاتسينا - جوا - تمبكتو - جينى - كانو - كاكوا ، وكان من بينهم تجار من مصر والسودان .

تأثير الإسلام على المجتمعات الوثنية

لم يمنع تأخر القبائل الأفريقية في اعتناق الاسلام ، اقتباسهم مجامع حضارته ، فقد أخذت القبائل الكثير من جيرانها المسلمين ؛ فقبائل " الموسى " (مملكة ياتنجا) اقتبست قبل اسلامها كثير من العادات والنظم الإدارية والقتالية والصناعات الجديدة من المسلمين رغم عدائها لهم ؛ ووقوفها في طريق مد الاسلام الى الساحل الجنوبى ، ودخلت معه في حرب طويلة ، وشنّت على المدن الإسلامية بالتحالف مع مملكة البامبرا " سيجو " هجمات في القرن الخامس عشر الميلادى في عهد كانكان موسى ، أحرقوا فيها تمبكتو وهاجموا " جنى " و " والاتا " ؛ وإنتهى الصراع بهزيمة " ياتنجا " هزيمة منكرة تحت ضربات " مالى وصنغى وغاو " ، وبالذات ضربات الاسكيات في اعوام 1496 م ، 1549 م ، 1561م ، فأنكفأت على نفسها حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

و فى تلك الاثناء الاسلام ينتشر بهدوء فيها " ياتنجا " بفضل التجار ، رغم ما لقوه من عنت حكامها الموسى الذين

¹⁹³ (نعيم قداح - إفريقيا الغربية فى ظل الاسلام ص 168 .
¹⁹⁴ (الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا - د/ حسن أحمد محمود ص 236 - 252 .

منعهم من اداء المناسك علانية لتخوفهم من انتشار الاسلام ، لكن نجاح التجار فى تحويل الاسرة الحاكمة الى الاسلام كان فتحا كبيرا لكلا من الاسلام والموسى فى نفس الوقت ، الاول لصالح انتشاره والثانى بما استتبعه التحاق بلادهم بعالم الاسلام من تفاعل اقتصادى وحضارى .

وكان من نتيجة اسلام الحكام ان توجهوا الى العالم الاسلامى لاستقدام الانمة والمستشارين ، اما بالنسبة لمملكة البامبرا " سيجو " ، فقد قضى عليها المجاهد الكبير عمر تال وتحولت فى نفس القرن التاسع عشر للإسلام .

الفرق الحضارى بين المجتمعين الاسلامى والوثنى

كان الفرق شاسعا بين المجتمعين الاسلامى والوثنى ، فالاول مجتمع حضارة ورقى وتنظيم وعدل وتفوق فى مضمونه الروحى والاخلاقي ، موصول برباط يشده الى رصيد خارجى قوى يتواصل ويتفاعل معه ، يشاركه الامه واماله بروح من الاخوة والتضامن ، ويفتح امامه افاق التقدم ويحميه من الانحمار ، ويشهد واقعه على دور الاسلام الايجابى على مجتمعاته ؛ وهو ما رصدته الرحالة الإنجليزى " جوزيف طومسون" الذى توغل فى افريقيا الغربية كشاهد فذكر " أن مناطق الوثنية مغيبة لتفشى الخمور ويسودها الوحشية ، بينما مناطق الإسلام تتسم بالمظهر الأخلاقى الوقور والأدب الجم ، وهو ما يشير إلى وجود نواة لمبدأ أكثر رقىا ذو تأثير عميق جعل من الزنجى إنساناً جديداً بفضل الإسلام " ؛ و مع توغله فى أرض الإسلام حتى "LOKOAJA" على نهر " بينويه " بالنيجر بمدخل السودان الأوسط ، يقول " انه وجد نفسه فى دولة تقوم على العدل ، شعبها متقدماً عظيماً الرقى ، تغص بالتجار والصناع المهرة " (195).

وأثر الإسلام فى إفريقيا الغربية أثرا فريدا يختلف عن أثره فى أى منطقة أخرى فى عالم الاسلام ؛ فبالإسلام عرف تباشير الحضارة وتواصل معها ؛ ومن لغة أهل الجنة اقتبست أبجديتها الأولى فتعرفت على القراءة والكتابة ؛ وبروح التضامن ووحدة الأمة الإسلامية تجاوزت شعوبها تحيزات القبلية وانصهرت على إختلاف ألوانها واعراقها بدون تمييز أو عنصرية ؛ ومنه وبه أقامت أولى ممالكها الكبرى ذات الحضارة الزاهرة والقوة والسطوة ، وتهايا لها افاق من التعاون والاندماج اوسع مع الثقافة الإنسانية ؛ ومن أبناء شعوب الإسلام الأفريقية جيلاً بعد جيل من أضاف لبننة بعد الأخرى إلى صرح التراث الإسلامى العظيم ، ويزيد من قدر إنجازات الإسلام أن ما تحقق على يديه من " تطور " تم فى وقت قصير لم يتجاوز القرون الثلاثة وهي الفترة التي إستغرقها الخروج من أزمة الجمود اللانهائى الذى ساد على مدى يقترب من الالف عام .

موقع حضارة الإقليم فى حضارة الإسلام

يختلف مستوى حضارته عما تحقق فى مناطق الإسلام الزاهرة الكبرى ، فهناك تفاوتات فى الآثار العمرانية للإسلام فى كل من مصر وشمال إفريقيا عما عليه فى غرب إفريقيا ، وفى الأخيرة لم يخلف الإسلام أثرا فنيا ضخما حتى عام 1900 م " كما رصده " توماس أرنولد " (196) ؛ ويمكن تفسير ذلك بوقوع جنوب الصحراء على هامش مناطق الحضارة الإسلامية ، وعادة ما يصل نبض القلب الى الاطراف ضعيفا ؛ ونستثن من ذلك الاندلس التى كانت مركز نابض ، فحدثا عهد الاقليم بالحضارة جعل تركيزه ينصب أولا على امتصاص الامور المتعلقة بالعقيدة لتثبيت اركانها واكمال بناء دولة الاسلام ، ثم امتصاص جوانب الحضارة الأخرى كالفنون والاداب والفلسفه ، وهى امور لم تشغل اهتمام مجتمع خرج لتوه من طوره البدائى ، ولم تجعله طبيعته الرعوية ذواقاً لها ؛ كما ان الوقت لم يتسع لتشييد الصروح فى وقت يضيق على مثل هذه الاعمال التى استغرقت من المناطق الأخرى الكثير كما انها كانت ذاخرة قبل الاسلام بحضارات أخرى عملاقة فالفارق الزمنى فى عمر الحضارة بالاقليمين كبير ، الذى يمتد بالنسبة للشمال فى

¹⁹⁵ (المصدر كتاب الدعوة إلى الإسلام - نعيم قداح ص 176 ، نقلا عن الرحالة الإنجليزى " جوزيف طومسون" فى كتابه " القبائل الإفريقية فى الإمبراطورية البريطانية " .
¹⁹⁶ (نعيم قداح - إفريقيا الغربية فى ظل الاسلام ص 147 .

عمق تاريخ الحضارة الانسانية بقرون طويلة ، بينما لم يتجاوز هذا فى جنوب الصحراء سوى قرون معدودة وهى ما زالت على سطح الحضارة ؛ ولم تتح لها الظروف التطور بسبب سلبيات القرن السادس عشر التى حالت دون استكمال دورة تقدمها فى ظل إختفاء " صغى " وانشغال المنطقة بالإضطرابات الداخلية ومناجزة المستعمر الذى جاء ليقطع التواصل بين المنطقة ومناطق الحضارة الإسلامية ؛ بهجمة شرسة إستهدفت الثروة والتراث والإنسان ؛ فقد إنقضت قوى الاستعمار الاوروبى بعداء أصيل للإسلام على تلك المناطق ، مقوضة كياناته السياسية واحكمت السيطرة على مقدرات القارة البكر التى كان من المفترض إذا ما سارت الأمور سيرها الطبيعى بعيدا عن تحديات الاستعمار أن تصبح إرثا خالصا للإسلام والثقافة العربية .

لم تعى المنطقة ومعها إفريقيا كلها وهما فى غيبوبة الصراع الداخلى ما يجرى فى أوروبا من ثورة صناعية ؛ وعندما بدأت فى استيعاب ما يجرى كان اول ما انفتح عليه إدراكهما الجانب السلبى لحضارتها متمثلاً في آلات الدمار التى إستخدمها الأوروبيون لفرض سيطرتهم على القارة .

المرحلة الثالثة

مد الاسلام فى كنف الاستعمار تحدى المسلمون السلطة الاستعمارية

سياسة الفرنسيين فى مواجهة الاسلام

تفاوتت الاستعمار فى تعامله مع قوى الاسلام ، وكان الفرنسيون اكثرهم احتكاكا بالاسلام الذى وقعت اراضيه فريسة لهم حيث تنتشر مجتمعاته بأغلبية كبيرة فى القطاع الفرنسى فى غرب افريقيا او السودان الغربى ؛ وكان الفرنسيون قد اختبروا صلابة المواجهة مع قوى الإسلام فاثروا فى البداية إحتواء المسلمين ، فاعتمدوا سياسة المهادنة لاستخلاص تعاونهم وخبرتهم فى ادارة البلاد التى كانت فى ايديهم حتى يستقر لهم الامر ، فاتباع **Faidherbes** حاكم الإقليم هذا النهج فى النصف الاول من القرن التاسع عشر عندما إستعان بالمسلمين فى الإدارة بإعتبارهم الفئة الوحيدة المتحضرة بفضل سبقهم الحضاري ؛ ولكن النهج الفرنسى إنقلب الى المواجهة والعداء لما إستمرت المقاومة الإسلامية ، وإجمعت المواقف الفرنسية على عداء الإسلام ، وتفاوتت مواقف حكام الاقليم فيما بين التطرف وأقصى التطرف ، فطالب الحاكم الفرنسى الكاثوليكي "**Mangin**" بشن حرب صليبية ضد للإسلام ؛ واشتط "**Archinard**" فى نهجه فدعى الى تنصير المسلمين على نحو ما حدث فى اسبانيا ؛ ودعى "**Brevier**" لاستعداد العقائد الوثنية على الإسلام ، وهى دعوة لم يُقدر لها النجاح لهشاشة هذه العقائد فى مواجهة صلابة الإسلام وقوة مجتمعاته ، بالاضافة لعدم وجود ما يدفع تلك المجتمعات لمعاداة الاسلام وقد تعايشت معه قبلا بلا مشاكل سواء فى جوارها او داخل قبيلتها .

ومع صمود الحركات الصوفية فى وجه الاستعمار فى غرب افريقيا ازدادت مخاوف الاستعمار الاوروبى (الفرنسى والانجليزى) من انفجار الموقف فى افريقيا الغربية فى ظل دعوة السلطان العثمانى عام 1915 بعد دخوله الحرب العالمية الاولى الى جانب المانيا ، لانتفاضة عامة ضد الانجليز والفرنسيين فى عموم بلاد المسلمين تدعم المحور فى حربه ضد الحلفاء والتى تناقلتها المنشورات فى السودان الغربى ، وتحسبا لصحوة جماعية تنتقل عدواها من مكان لآخر فى العالم الاسلامى تؤلب الاقليم عليهم ظهرت مقدماتها بتحريك جحافل السنوسية لغزو الصحراء الفرنسية فى ديسمبر 1916 ، وكان فى نية السنوسية غزو سكوتو وبورنو ويولا ، وحشد الصوفية لدعم احمد الشريف السنوسى الكبير فى مسيرته الى مصر .

عمل الاستعمار على عزل الاقليم بالحد من تواصله مع بقية عالم الاسلام لفصم عرى تضامن امته ، وحاول بليلة العقيدة بسلخ الاسلام من عالمية سياقه ووحدته اصوليته بالايحاء بتعددية الاسلام وإختلافه من بيئة لآخرى ، فابتدع اصطلاح " الاسلام الاسود " ، مستوحيا مبررات النفسية الافريقية فى ابتداع المسيحية السوداء لتمييز نفسها وتبرير انفصالها عن المسيحية البيضاء (197) .

لم تهدأ مخاوف الاستعمار بانكسار دول المحور واستتباب الامر ، فقد طغت عليه وتجذرت فيه روح العداء للإسلام ، ففى عام 1950 دعى الضابط الفرنسى " فيليب فونداس " فرنسا فى كتابه " الإستعمار الفرنسى فى إفريقيا السوداء " لإنتهاج سياسة عدوانية لمقاومة الإسلام فى هذا العالم (يقصد إفريقيا) ، والقى باللانمة على المسؤولين الفرنسيين فى عدم تقديرهم خطر الإسلام حق قدره فى ظل الظروف السائدة آنذاك فى الوضع السياسى والاجتماعى .

سياسة الانجليز

أما الإنجليز فقد تبنوا سياسات تختلف من مكان لآخر ومن زمان لآخر حسب مقتضى الحال ، واتبعوا فى البداية نظام الحكم غير المباشر ثم تراجعوا عنه فى بعض المناطق ، ولم يلجأوا فى البداية لعزل المسلمين عن عالمهم فى شمال افريقيا ، فسمحوا باستمرار الإتصالات الثقافية للشمال المسلم فى نيجيريا مع مصر والسودان ، ووافقوا على إقامة جامعة إسلامية فى " أيبادان " **Ibadan** اكبر المدن الوثنية فى جنوب البلاد .

ولما ساورتهم المخاوف من المسلمين نتيجة للصحوة الاسلامية المشار اليها ، سلكوا المسلك الفرنسى فأوقفوا الإتصال بين

¹⁹⁷ (الاتصال والانقطاع بين افريقيا والعرب ص 20 - جاكوب ادى اجابى استاذ التاريخ بجامعة ايبادان ورئيس جامعة لاجوس .

مسلمى نيجيريا والشمال الافريقى خشية تسرب الأفكار المناهضة للإستعمار وعملوا على مهاجمة الإسلام وتشويه صورته في التعليم الرسمي وبث الفرقة بين المسلمين.

سياسة الالمان

وإتبع الاستعمار الالمانى نفس الاسلوب فى مستعمراته بوسط افريقيا رواندا وبوروندى وزانير ففى البداية جلب المسلمين العارفين بالقراءة والكتابة من الساحل الشرقى للمساعدة فى الادارة والقيام لعدم وجود من يعرف القراءة والكتابة غيرهم ، ولكن شكوى المبشرين من نجاح هؤلاء المسلمين فى نشر الاسلام جعل سلطة الاستعمار الالمانى تُقيد حركتهم داخل الاسوار .

وسائل الإستعمار

فى محاربة الإسلام

وتطويع الافريقيين

بنى الاستعمار استراتيجية طويلة المدى لاختضاع الشخصية الافريقية واضعاف مقاومتها على المستويين الفردى والجماعى بتخريب هويتها وعلى رأسها الهوية الاسلامية السائدة فى معظم افريقيا الغربية ومحاربة الاسلام كعقيدة لمنع تقدمه بين الوثنيين بما يصعب استقطاب السلطة الاستعمارية لهذه الفئة وتضامنها مع المسلمين فى مقاومتهم لسلطانه ، فى وقت يمكن فيه ايجاد نقاط تلاقى تجمع بين الاستعمار والوثنيين ، فابتكر وسائل منها :

(1) اعادة صياغة الهوية (مكوناتها اللغة والتعليم والعقيدة)

تستمد الشعوب صلابتها وقدرتها على المقاومة من ثقافتها وادبياتها ومعتقداتها الراسخة وهى مقومات لها قدرة هائلة على توحيد الشعوب وتعزيز مقاومتها ، والاسلام له جوهر قوى صقل شخصية شعبه وعززها بقدرة هائلة على المقاومة والصمود مدعومة بروح التضامن بين الامة جمعاء تتوحد فيها هذه الشعوب التى يشدد بعضها بعضا ، والثقافة بطبيعتها تشد عرى التضامن ولها من التأثير ما يدوم ولا يبلى بين اطرافها ، ومن هذا المنطلق امتطى المستعمر صهوتها للهيمنة على القارة ، فقرر صياغة هوية الاقليم فى اطار ثقافته ليضمن ارتباطا دائما وولاء لا ينقطع.

ولما كانت مقاومة المسلمون عنيفة ضد الاستعمار لعدم ثقتهم به ومعرفتهم مدى الاضرار التى ستلحق هويتهم من جرانه ، فقد عزفت مجتمعات الاسلام عن التعامل مع كل ما يستهدفهم به الاستعمار شرا او خيرا ، ونأى المستعمر من جانبه عن التعامل معهم مخططا لاستدافهم بتخريب شخصيتهم الاسلامية " عقيدة وثقافة " والتضييق عليهم اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا .

بدأ المستعمر بتشويه الاسلام وهدم حضارته وهز صورة العرب منبع الاسلام ، فقام بتحميل العرب والاسلام مسئولية بعض القضايا الاجتماعية ذات الحساسية الشديدة لدى الافريقيين وعلى رأسها قضية الرق ، وهى ليست قضايا اسلام ولا مسلمين انما قضية إتجار وتجار ، وبث فى إدراك الافريقيين بما فيهم المسلمين أن الإسلام عامل تخلف اذا ما تصدينا للمقارنة بين حضارته والحضارة الاوروبية ؛ وفى هذا النطاق عمل على تقويض التعليم الإسلامى ولغته العربية اداة التواصل بين المسلمين ، وتشدد فى تقييده التعليم الاسلامى على نحو ما سنورده ، وحظر العلاقات من أى نوع بين مسلمى الاقليم واخوتهم فى شمال القارة وجرى المنطقة من وسيلة التواصل بين الاقليمين ، وسعى لاضعاف اللغة العربية العامل الرئيسى فى احياء الثقافة الاسلامية ووسيلة التواصل الممتد مع عالم الاسلام ، فعمل على كتابة اللغات المحلية بالحرف اللاتينى بدلاً من الحرف العربى المُستخدم لقرون .

تشدد المستعمر خاصة الفرنسيون بقوة لا هواده فيها فى تقييد تعليم المسلمين عامة واللغة العربية خاصة ، تحت شعار " لا مدرسة ولا تاريخ " ، وأخضعوا القليل من التعليم الاسلامى الذى سمحوا به " فى السودان الفرنسى " ، لاشراف ورقابة المكتب السياسى ، وضيقوا على المسلمين فرص التعليم العام لحرمانهم من تحصيل العلوم الحديثة ؛ وإشتطوا فى محاربة محاولات المسلمين تعليم ابناءهم اللغة العربية والثقافة الاسلامية فى المدارس الخاصة ويقول " فيليب فونداسى " لما لم يستسلم مسلمى الإقليم لمحاولات الإجتثاث الثقافى وامتنعوا عن الحاق ابناءهم بمدارس المستعمر ، التى هيمن التبشير عليها وقاموا سرا بإرسال ابناءهم إلى الخرطوم والقاهرة لحرصهم على تحصيل الثقافة العربية الاسلامية ، اجبرالمستعمر من ارسلوا ابناءهم الى مصر والسودان على إستعادة ذويهم من هذه البلاد قبل أن يتموا تحصيلهم العلمى ، وأودع بعضا ممن اتموا دراستهم السجن عند عودتهم

مباشرةً ، ولقد اثبت المجتمع الاسلامى فى افريقيا انه كان الاكثر صلابة فى مقاومة الامتصاص (198). عملت الادارة الاستعمارية فى محاربتها للاسلام على بث الفرقة والانقسامات وتأجيج الانفصالية فى مجتمعاته لضعافها ، فقامت بتأليب الأقليات بأنواعها عرقية ومذهبية والفرق الاسلامية المختلفة لاثارة الانفصالية والفتن المذهبية والبلبله داخل المجتمع الاسلامى وبين المسلمين انفسهم على نحو ما فعله " كاردير " مدير المكتب السياسى للشئون الاسلامية التابع للادارة الفرنسية فى داكار عام 1957 للوقية بين المسلمين بترويج اشاعة كاذبة عن سعى المهديين لهدم قبر الرسول " عليه الصلاة والسلام " مستغلا جهل العامة وحساسيتهم الدينية ؛ وبالنسبة للمجتمعات الوثنية فقد نجح الاستعمار فى إسباغ عصب هويته (اللغة والعقيدة) عليها ؛ وهى مفردات يمكن فرضها بسهولة على مجتمعات قبلية صغيرة ذات مقوم ثقافى ودينى هش لها كم كبير من اللغات والعقائد ولا تواصل بينها ان تتقبلها وتسعى اليها.

تضمن مخطط تخريب الهوية اولا افراغ الشخصية من محتواها ثم ادخال مفردات الهوية الجديدة ولجأ الى الترغيب فى فرض هويته ، فأقرن إعتناق لغته وعقيدته بالحصول على العديد من الامتيازات واهمها التعليم ، ويوجز الباحث الافريقى " Osie-Mensah Aborampah " القول فى ان اعتناق الافريقى للمسيحية ، كان يعنى التحول الى هوية الرجل الابيض فكرا وقيما ، وهو ما يعنى انتصار العالم الابيض على العالم الاسود وفقدان الافريقى لذاته وخسرانه هويته ، فحضور المبشرين يعنى ان الافريقيين قد ذابوا نفسيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا فى عالم الرجل الابيض (199) ، كما اشتمل المخطط ايضا على إستبدال اسماء البشر لضمان انتزاع الافريقى من ذاته ومن جذوره ، فكان على الافريقى ان يتخلى عن اسمه ليعتنق إسما اوروبيا ؛ وكل من يرفض ذلك من المسلمين يُحرم من الالتحاق بالتعليم العام البسيط والعديد من الخدمات ، ومن يرفض لغة المستعمر لا يتعلم فاللغة عامل تقارب بين الافريقى والمستعمر ، وبعد ان كادت العربية ان تُصبح لغة توحيد بين الافريقيين كما حدث فى سائر البلاد من قبل اصبح الاستعمار يعمل من اجل هدف مماثل على مستوى القارة ولكن بدلا من لغة واحدة اصبح هناك عدة لغات طبقا لعدد القوى الاستعمارية فتعددت انتماءات الافريقى بتعدد لغات المستعمر بينما كان مسار العربية والاسلام سيودى لان يفهم الافريقى ويتكلم لغة واحدة هى العربية يمارس بها عقيدته بلغتها الاصلية الحية ، وبفضل الاسلام استمرت حية فى وجدانه ومناسكه ونقلها معه الى الامريكيتين على نحو ما اسلفنا .

وبالرغم من نجاح الاستعمار فى فرض لغته لاهميتها فى المدرسة ، الا ان الامر اختلف بالنسبة للعقيدة خاصة المسلمين لقوة العقيدة وتنظيمها ومواءمتها لطبيعة الانسان وعادات الافريقى ومجتمعه الذى يقبل بتعدد الزوجات لاهميتها كقوى منجبة للايدى العاملة فى مجتمع زراعى يعتنق النظام الابوى ؛ وبالنسبة لغير المسلمين فقد وجد المستعمر صعوبة فى انتزاع الافريقى من الشعوذة التى تحكم عقائده لادخاله فى المسيحية لعدم توافقه مع عاداته المتأصلة فيما يتعلق بتعدد الزوجات ، وهو ما حاولت بعض مؤسسات التبشير التوافق معه فى مرحلة لاحقة بإجراء بعض التعديلات فى جوهر العقيدة فتقبلت تعدد الزوجات ، وان تنصر لم يتخلى عن الكثير من عقيدته الوثنية ويخلط بينها والمسيحية.

اجتناب المسلمين

مدارس التبشير وسلبياته عليهم

ومما يؤخذ على المسلمين أنهم وهم فى دفاعهم عن هويتهم اعتزلوا كل ما هو اوروبى شره وحلوه ؛ فعاقبتهم الادارة الاستعمارية على عدم توافقه معها بحرمانهم من العلم وتولى الادارة ، مما اسفر عن تجميد أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، فساهموا بلا وعى فى تداعى وضعهم الثقافى ، وماترتب عليه من نتائج سلبية اهدرت فرصهم فى الترقى العلمى والاجتماعى فى المستقبل ؛ حتى انهم عند الاستقلال لم يكونوا مؤهلين فى بعض الحالات لحكم بلادهم التى يشكلون فيها الاغلبية ، فاقامت الادارة الاستعمارية عليكم حكاما من غيرهم.

وفى الوقت الذى ضيق فيه الاستعمار على المسلمين ، فتح الباب على مصراعيه لمكافأة الوثنيين المتوافقين فى كافة المجالات باستثناء العلوم الحديثة التى كان يسمح منها بالقدر الذى يلبي احتياجات الادارة الاستعمارية منها ؛ ويصور " عبد الله

198 (أفريقيا الغربية فى ظل الاسلام - ص 147 - نعيم قدام.

199) Osieh mensah, The christianization of Akil frica p 104, - workshop by African society in libya 1986.

الالورى" في مقالة له بمجلة حضارة الإسلام المأساة التي خلفها إعتزال مسلمو شمال نيجيريا التعليم العام الذي يتعهدده التبشير فيقول.. " تفشت الأمية بين النشء لعدم إقبالهم على العلم ؛ فلا هم مقبلون على العلوم الإنجليزية بسبب التعصب للإسلام ، ولا هم مقبلون على تعلم العربية بجد ونشاط فبات الجهل ممدودا ، وزاد الامر سوءا تعسف امراء المسلمين وعلماء الدين في مواجهة حملة لواء الاصلاح ، مما كان سبباً في إعتناق عدد من مثقفي الشمال المسلمين للمسيحية " ؛ ونوهت المقالة بجهود نشطاء المسلمين الذين آلمهم الوضع المتردى للمسلمين فسعوا للتغلب عليه ؛ وعلى العكس من ذلك أشاد بمسلمي الجنوب الذين كانوا افضل حالا لسعيهم الى الرقى وتحصيل العلم دون ان يقلل ذلك من نشاطهم في الدعوة الإسلامية .

(2) الأفكار التغريبية للدراسات العلمية للمجتمعات الأفريقية

اجرى المستعمر دراسات متخصصة على المجتمعات الأفريقية لاستخلاص اساليب احتوائها وإخضاعها لارادته ، واستجلاء نقاط الضعف فيها وفيما بين طوائفها للايقاع بينها وبين المسلمين في حربة ضد الاسلام ؛ واعتصرت الدراسات من بعض الحقائق بعد ليها مبررات تساير المنطق في ظاهرها تصب في خدمة مخططاته ، فاستخلصت هذه الدراسات عن قصد من بعض سمات الطبيعة الانسانية التي تعايش معها الافريقى ولا تتعلق بالاسلام ، نتائج مغلوطة للاساءة للإسلام ، استخدمها المستعمر لتبرير ممارساته ؛ كاعتقاد المجتمعات الإفريقية الاستسلام للغالب في إطار اطاعة المغلوب للغالب ، وقبول الخضوع للحكام المستعبدين بدون تمرد ليس من طبيعة هذه المجتمعات الذين جمعهم في حالة الوثنيين وتجار المسلمين تحالف فوقى مستقل للشعوب قائم على المصالح المتبادلة .

وفيما يتعلق بمجتمعات الاسلام اشارت الدراسات الى انها إستسلمت لإستغلال الحكام المسلمين في اطار حكم الإسلام إطاعة ولى الامر ، والذي استخدمه اولئك الحكام لتكريس نفوذهم على رعاياهم وقهرهم ، وهى جميعا امور لا جديد فيها فى علاقة مجتمعاتهم مع الاستعمار وبالتالي ليس من حق الافريقيين التذمر لعدم تغير الحال عما كان عليه فى ظل نظمهم الاقطاعية القهرية ، وان عليهم ليس فقط القبول بالامر الواقع وانما ايضا العرفان للمستعمر الذى يُدينون له بالفضل لما قدمه اليهم من تعليم راق ومفردات حضارته التى لم تتوفر لهم من قبل .

ورأت الدراسات الجهاد بأنه عنصر عداء واستعداد فى العلاقة بغيره من المجتمعات ؛ عندما يفرض (الجهاد) نفسه بالقوة قسراً وقهراً وهو فى ذلك لا يختلف عن الإستعمار فى هجومه عليهم ، وحملت الدراسات الاسلام المحارب وزر تجارة الرقيق ، التى غذاها بالاسرى المستعبدين فى المعارك التى فجرها إستباحته قتاله المجتمعات غيرالإسلامية ، وحملت العرب إثم بدء هذه التجارة فى القارة الافريقية ؛ وبهذا فلا فرق بين تجارة الرقيق العربية وتجارة الرقيق الأوروبية التى إستبدلت الرق الجماعى بالرق الفردى ، محاولة تبرير فظائع تجارة النخاسة الأوروبية ؛ وإتهمت الدراسات مسلمي شمال الصحراء عربا وبربرا بمسئولية تخريب حضارة غرب افريقيا مستشهدين بإجتياح المرابطون ومن بعدهم المراكشيون دول غرب إفريقيا " الإسلامية" ، (فى ذلك اقرار غير مقصود بوجود الحضارة الاسلامية بالاقليم بعدما كانوا دائما يحاولون نكرانها) .

تركت الدراسات فى مجملها أثار سلبية عميقة على نفسية معظم شعوب جنوب الصحراء ، وتمكنت من بعض مفكريها فتواصلت نظرتهم مع نظرة الإستعمار العدائية للإسلام الى ما بعد الاستقلال ؛ فاعتنق هؤلاء ومنهم زعماء وفلاسفة أفكارا انقسامية تستند الى التصنيف العرقى والجغرافى تتحدث عن " إفريقيا السوداء " و " القومية الزنجية " و جنوب الصحراء او " إفريقيا جنوب الصحراء " لتمييزها عن شمال الصحراء وإفريقيا الشمالية البيضاء المسلمة ؛ وهى أفكار ان كان لها سند من حقائق الجغرافيا والاثنيات فلا سند لها فى التاريخ وتتجاهل تراث الماضى ، فالإقليم شهد على مدار تاريخه وإمتداده الجغرافى من البحر الأحمر وحتى ساحل الاطلنطى تمازجا عرقيا وثقافيا نشط بين الافريقيين زنوجا وعربا وبربرا على مدى قرون كاد أن يصبح معه جنوب الصحراء جزءاً متمماً لإفريقيا العربية لولا قدوم الإستعمار ليند ما لم يكتمل .

(3) التبشير الأوروبي

ومحاربة الاسلام - الهيمنة على الافريقيين

تطور المد التبشيري

حتى الحرب العالمية الاولى

لم تعرف افريقيا جنوب الصحراء ؛ المسيحية قبل الإستعمار إلا ما كان لها من رصيد في الحبشة والنوبة ولم يكن لهما دور في مد المسيحية ابعد من حدودهما ، وبدأ التبشير نشاطه جنوب الصحراء في منتصف القرن الخامس عشر ، مع قدوم الاوروبيين حيث بدأ على يد البرتغاليين في الساحلين الغربى والشرقى ، فأقاموا له المراكز في ساحل الذهب " غانا " و نجحوا في تنصير ملكها عام 1491م ، وأقاموا أسقفية في أنجولا وكنائساً في اماكن عدة من بينها " ممبسة " المسلمة في الشرق ؛ ولم تسلم الحبشة (اليقوبية) حليفهم من محاولاتهم التبشير بالكاثوليكية ، وتبعهم الأسبان بالتبشير في " داهومى وغينيا الأسبانية " ، وساهم الفرنسيون بنشاط مكثف في غرب إفريقيا ، والألمان في الكونغو والكاميرون والإنجليز في نيجيريا وساحل الذهب .

لم يحقق التبشير نتائج كبيرة فى الفترة ما بين القرنين 15 و 19 م لعدم تحمس الافريقيين لتعارض العقيدة الجديدة مع بعض عاداتهم وتقاليدهم الجوهريّة ، ويروى الميجور " مونتيرو " الذى ترأس بعثة برتغالية الى بلاط حاكم لواندا جنوب الكونغو عام 1831 ، ان الاهالى لم يكونوا شديدي الحماس لاعتناق المسيحية ، ولكنهم كانوا يتقبلون التعليم والمعرفة ، وذكر ان ما يشيعه الاوروبيون عن طهي الافريقيين للمبشرين في الاوانى الضخمة ليس الادعاء اوروبية ، فلم يثبت حتى عام 1884 سوى مقتل ستة من المبشرين الثلاثمائة الذين توغلوا في شرقى افريقيا قبل ذلك العام ؛ ويضيف ان كان البعض اعتنقها (المسيحية) مجاملة وتقرباً للاوروبيين ، فإن البعض الآخر اعتنقها باغراءت بسيطة ففى ممالك الكونغو استطاع الاوروبيون اغراء كثير من الملوك باعتناق المسيحية ببعض الاقارب التي لا تضفى عليهم شيئا حقيقيا من النبالة بمثل ما تمثله للاوروبيين (200) .

إنقطع التبشير عن معظم مناطق القارة فى الفترة التى إنغمس فيها الاوروبيون فيما بينهم فى حرب المائة عام على أرض القارة الاوروبية ، وانصرف البرتغال الاكثر نشاطا فى هذا المجال الى تجارة العبيد ونهب ثروات القارة السمراء ، وهو ما إستتبعه إنحسار المسيحية بتقلص عدد اتباعها وارتداد معظم من اعتنقها .

وتجربة التبشير البرتغالى فى شرق افريقيا فاشلة ، لان معظم مدن الساحل مدن مسلمة مزهوة بلاسلامها ، ونجاح التبشير فيها حالات محدودة وبضغوط الاستعمار واقتصرت على ابن سلطان مالندى المسلم الذى أخذه البرتغاليون وربوه فى جوا بالهند على النصرانية ، فأصبح متعصبا لها وحاول فرضها بالقوة على شعب بلاده بعدما رجع اليها ، لكنه عاد الى اسلامه بعد مدة وتمكن من طرد البرتغاليين الا انهم عادوا وتغلبوا عليه ففر ومات مشردا (201) .

ولم يكن التبشير عندما عاود نشاطه من جديد عام 1815 م ، بأحسن حالا عما كان عليه الحال من قبل ، فقد تأثر مده سلبا بعدة اسباب منها فجعية الافريقيين فى التبشير لدوره فى تبرير ممارسات الإستعمار ضد الشعوب الافريقية بتفسيرات تلمودية كشفت الارتباط القائم بينه وبين الاستعمار وضد مصلحة السماء ؛ كما لقت عنصرية الكنيسة الاوروبية تجاه القسس السود بظلها على التبشير ؛ ورفض المجتمع الافريقى التخلّى عن عاداته الاساسية التى تتعارض مع جوهر المسيحية مثل تعدد الزوجات ومبدأ السلفية الذى يقّس ارواح الاجداد ويحتفل برفاتهم كل عام وكان التخلّى عنها يضر بهذه المجتمعات ، فتقييد الزوجية يضر بالانتاجية ومحاربة السلفية تضر بالسلطة الابوية للنظام الاسرى .

نجحت حركات الانسانيون فى تحرير عبيد انجلترا وتوطينهم فى سيراليون عام 1787 ، وأعيد توطين العبيد الامريكيين المحررين فى ليبيريا عام 1821 ، وازدادت اعداد العاندين مع توقف تجارة النخاسة عام 1807 ، فإحتشد عدد كبير من العبيد المسيحيين المحررين فى الغرب الافريقى ، فنشط التبشير فى المنطقة كما تحسن مده فى ارجاء القارة عامة مع استقرار الوضع للاستعمار ، فتقدم الى جامبيا عام 1821 وغانا عام 1834 واراض اليوروبا عام 1841 والساحل الشرقى وغرب كينيا عام 1840 ؛ اما تقدمه فى السودان الغربى (الفرنسى) كان محدودا لتصدى الكتل الاسلامية وعلى راسها قبائل " الفولة " ، وصمدت سيراليون وهى ارض اسلام خالص فى وجه التبشير رغم تعدد توطين العبيد المحررين فيها بهدف اضعاف قوة المسلمين العديدة .

⁽²⁰⁰⁾ إفريقيا القديمة تكتشف من جديد ص 122 و ص 61 دافيدسون .

⁽²⁰¹⁾ إفريقيا القديمة تكتشف من جديد ص 59 - 60 باسيل دافيدسون -

وبعد انتهاء المنازعات الأوروبية بين القوى الاستعمارية بتقسيم مناطق النفوذ في القارة الأفريقية في مؤتمر برلين عام 1884 - 1885 م ، أصبح المناخ مواتيا للتبشير فقد انقطع تنافس الكنائس التبشيرية المختلفة للقوى الأوروبية ، لكنه لم يحرز تقدما محسوسا اعتمادا على الذات على نحو ما أحدثه الاسلام بقوة دفعه الذاتي ، فاتفقت القوى الاستعمارية على دعمه بكل الطرق فأولكوا له الخدمات الاجتماعية والتعليم والصحة وربطوا به العديد من المزايا .

كان الفرنسيون اول من فوض مسئولية تلك الخدمات للتبشير و حذت حذوها بقية القوى الإستعمارية ، ويسجل القس " Schanaham " اهمية هذا الربط بقوله .. " أن التبشير بالله وحده لم يثمر في نيجيريا ، فكان من الضروري ربطه بشيء مفيد نافع ودائم اكثر استمرارية بتكليفه بمسئولية التعليم والصحة ؛ فلا يمكن لاحد ان يعترض على المدرسة والمستشفى " .

وعزز هذا الربط موقف التبشير وزاد من نفوذه في المجتمع الافريقي ، ودعمته الادارة الاستعمارية التي دائما ما كانت تتعاون معه بكل قوة ، فكانت تستجيب لطلباته المتعلقة بالافريقيين ؛ فاقبلت جماهيرهم على التعميد للحصول على قسط من هذه الخدمات والتمتع بمزايا هذا النفوذ .

وحتى نتبين حجم الخدمات التي اوكلها المستعمر للتبشير في السودان الفرنسي ، نورد هذا البيان بالخدمات الاجتماعية التي قدمها التبشير على سبيل المثال (202)

التعليم	807 مدرسة	تضم 47 ألف طالب
خدمات طبية	70 صيدلية	خدمت 1.7 مليون شخص
خدمات متنوعة	-----	قدمت لـ 462 ألف شخص

التبشير في القرن العشرين (203)

في ظل هذا الربط تقدم التبشير على نحو غير مسبوق في القرن العشرين ؛ فقد أصبح اعتناق المسيحية عملية جماعية وغير اختيارية في معظم الاحوال ، بعدما اتخذت الصبغة الرسمية باعتبارها دين يحظى بدعم السلطة الاستعمارية يرتبط الحصول على العديد من المزايا التي يقدمها التبشير باعتناق المسيحية ، واتباع التبشير وسائل سهلة وذكية ذات مردود سريع واكيد ، فقدم فرصا للعمل ودرب العمالة تدريباً مهنياً وقام بتشغيلها في برامج زراعية تحت شعار " الانجيل والمحراث " ، ونفس الشئ طبقه في مجال التمريض وغيره من المجالات ، وركز على تنصير الام أولا وهي التي ستجلب بنفوذها القوى داخل الاسرة الابناء ثم الازواج الى المسيحية ، و تنافست المذاهب المسيحية بكل الطرق في اجتذاب الافريقيين للعقيدة المسيحية .

وسائل التبشير بعد الحرب العالمية الأولى :

تبنى التبشير المنهج العلمي في عملياته فقام بدراسة المجتمعات الإفريقية وعایشها المبشرون ليتعرفوا على نواحي الضعف والقوة في شخصيتها لاستخلاص أساليب التعامل معها ، فألموا بكل نواصيها ، ولم يعبأ أولئك المبشرون في سبيل الدعوة بشظف المعيشة وظروف المناخ والأمراض المتوطنة التي عصفت بأرواح البعض منهم ، بل تقبلوها راضون غير متذمرين ، وتاريخ المبشرين ملئ بالتضحيات والمثابرة من اجل تحقيق رسالتهم .

وبناء على هذه الدراسات طور التبشير وسائل الدعوة فنجح في اجتذاب الافريقيين للمسيحية ، ومن اهم الاساليب ، ترجمة الكتاب المقدس الى اللغات المحلية في وقت متزامن مع انتشار التعليم بين الافريقيين ؛ وهيات الترجمة الفرصة لانتشار المسيحية بعدما أصبح من السهل على الافريقي الاطلاع عليه ذاتيا وفهمه بعيدا عن المبشرين الاوروبيين الذين اثاروا حفيظته

²⁰² (أفريقيا الغربية في ظل الاسلام - ص 147 - نعيم قداح .

²⁰³) Report of The Commission of the missionary council of the church assembly in london " call from Africa " rational , rationality, and techniques of Christian missionary conversion of Africans, by Themba Sono, p. 17—25 Christian missionarism and the alienation of the African mind - workshop by African society in libya 1986.

بوقوفهم الى جانب الاستعمار ؛ وتطويع بعض المذاهب مبادئ المسيحية لتتوافق مع العادات الإفريقية لتجاوز تعارضهما الذى حال من قبل دون انتشار العقيدة ، فقبلت بعض المذاهب تعدد الزوجات رغم أن التبشير إتخذ من هذا المبدأ منطلقاً للهجوم على الإسلام . وحايى المستعمر معتنقى المسيحية دون غيرهم فى مجالات التعليم و الوظائف والخدمات التى ما كان يمكن الحصول عليها من السلطات الاستعمارية بدون نفوذ المبشرين ، فكان الحصول على قسط من هذه الخدمات مشروطا باعتناق المسيحية ، فأغروا بذلك الوثنيين والانتهازيين من المسلمين على اعتناق المسيحية ، وقد أثمرت هذه السياسة في تقدم المد التبشيري داخل المجتمعات الوثنية التي إنبهرت بالأوروبيين وراقها اعتناق ثقافتهم فأصبح تعمد الوثنيين جماعيا .

علاقة التبشير بالاستعمار

منذ بداية المد الاستعماري والعلاقة وطيدة بين التبشير والاستعمار بدافع الولاء الوطنى والانتماء العقيدى والعرقى ، فقد كانت مراكز التبشير على الساحل هى نقاط إنطلاق جنود المستعمر ، وكان التبشير يتحرك فى كثير من الأحوال فى ظل الإستعمار الذى يؤمن حركته المدية الى مناطق الداخل ليصل الى الكتل الوثنية ؛ وقد أسدى التبشير بالمقابل الكثير من الخدمات الى السلطة الاستعمارية بإستخدامه العقيدة لتبديد مقاومة المسيحيين الأفريقيين باقتناعهم بالرضى بما هم فيه وتقبل الواقع ، والعفو فى اطار التسامح المسيحى عن ممارسات الإستعمار اللا إنسانية خلافا لمبادئ السماء السמה للمسيحية الحقبة التى تملى على المبشرين الدفاع عن المضطهدين.

وهنا علينا التفريق بين طبيعة التبشير المسيحى " كعقيدة " سماوية بنقائها الإلهى وبين " سلوك " المبشرين الذين لم يتمكنوا من الإرتقاء به إلى سمو العقيدة ، فعادة ما تخضع تصرفاتهم كبشر لاعتبارات دنيوية كثيرة تسيطر عليها الأهواء ، وفى ظل هذا الارتباط العضوى أصبحت العلاقة بين الاثنين مصيرية فاستمرار التبشير مرهوناً بوجود قواه الوطنية الإستعمارية .

موقف التبشير من الاسلام

لم يطمئن الاستعمار بعد إستقراره فى القارة الى الاسلام الذى إمتنع عليهم واجهدتهم مجتمعاته بضراوة مقاومتها ، فبدأ يتحسب له ، وقد عبر عن تلك المخاوف العديد من المستشرقين فيقول جاردنر " أن قوة الإسلام الكامنة تخيف أوربا " (204) ؛ وسأيره القول " مورو بيرجر " بأن "الإسلام يفزعنا عندما نراه ينتشر بيسر فى أفريقيا " .

وما زال التخوف والقلق قائما مترسحا في فكر الغرب ، ففي سبعينيات القرن العشرين اشار جين روستو رئيس قسم التخطيط بالخارجية الامريكية ومستشار الرئيس جونسون بكل الوضوح الى ضرورة التصدى للإسلام فيقول " ان هدف العالم الغربى استمرارا لهدف الحرب الصليبية في الشرق الاوسط هو تدمير الحضارة الاسلامية ، وان قيام اسرائيل جزءا من هذا المخطط " ؛ وسبقه في هذا الاتجاه مسنول بالخارجية الفرنسية عبر عن مخاوفه بشكل اشمع عام 1952 ، فذكر ان " العالم الاسلامى عملاق مقيد لم يكتشف نفسه بعد ، حائر قلق ضائق بتخلفه ؛ يعانى من الكسل والفوضى غير انه راغب في مستقبل افضل وحرية اوفر ، وعلينا ان نبذل كل جهد حتى لا ينهض ؛ وفشلنا يعرضنا لخطر جسيمة ، فصحة العالم العربى والقوى الاسلامية الكبيرة نذير بكارثة للغرب وانتهاء لدوره في قيادة العالم"(205) ، وتواصلت تلك النظرة المعادية للإسلام الى وقتنا هذا بمسمى صدام الحضارات والعداء للإسلام والتخوف منه .

وجد الإستعمار فى التبشير وسيلة فعالة بما أوكله اليه من خدمات لخلق كتل مسيحية تجمعها بها العقيدة والثقافة ، تدعّمه فى محاربة الاسلام واضعاف قواه وهو هدف استراتيجى لكل من الاستعمار والتبشير يتعلق بالسياسة اكثر منه بالعقيدة ؛ وقد عبر القس " سيمون " عن الارتباط العضوى والتعاون الاستراتيجى للسيطرة على القارة فيقول " ان التبشير عامل مهم لكسر شوكة الوحدة الإسلامية التى تهدد السيطرة الأوروبية " (206)؛ ويؤكد القس " سبنسر ترمنجهام " بقوله " إن الهدف الرئيسى للكنيسة هو خلق كتل مسيحية تقف في وجه التكتلات الإسلامية في الدول الإفريقية إذا ما إدعت لنفسها حق السيطرة أو النفوذ في تلك الدول

²⁰⁴ التبشير والاستعمار ص 36 الطبعة الرابعة- نقلًا عن قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله - سنة 1998 تأليف "عبد الودود يوسف" .

²⁰⁵ الغزو الثقافى يمتد في فراغا للشيخ محمد الغزالي ص 30 (نقلًا عن الاقتصاد الإسلامى ص 32) .

²⁰⁶ كتاب كيف هُدمت الخلافة ص 190 - القس سيمون .

" (207) .

قام التبشير بدراسة العقيدة الإسلامية لسبرغورها فيعينهم العلم بالشئ على محاربته ، وتعلم المبشرون اللغة العربية وتغلغلوا بين مسلمي القارة ليشككهم في دينهم ويقللوا من شأن حضارته ويثيرون الكراهية ضد العرب اصل العقيدة ، فأثاروا قضايا من قشور الامور لايقاع الحيرة والشك بين المسلمين فيسهل التأثير عليهم وتنصيرهم بالاغراءات لإضعاف كثرتهم العددية. تأثرت المجتمعات المسلمة سلبيًا باحتكار التبشير للتعليم لرفضها التعامل مع مدارس المبشرين خوفاً على عقيدة ابنائها فضاعت منهم فرص تحصيل العلوم المعاصرة ، وإقتصرت تعليمهم على التعليم الديني الذي وفروه بجهودهم الذاتية ؛ وبضياح فرصهم في تحصيل العلوم المعاصرة التي توهم للحياة العامة ضاعت معه فرص الترقى المادي والاجتماعي لانعدام فرصهم في الحصول على الوظائف الهامة وتقلصت حقوقهم داخل اوطانهم وفقدوا ثقلهم السياسي فأختل التوازن الوطني بعد الاستقلال لما احدثه هذا من خلل لمدى طويل ، ففي بلاد الاغلبية المسلمة اعتبرهم المستعمر غير مؤهلين لتولي الحكم فسلمه غيرهم عند الاستقلال ، مثال ما حدث في السنغال عندما تقلد ليوبولد سنجور الفيلسوف السنغالي المسيحي منصب رئيس الدولة وبقي على رأسها حقبا طويلة ، وهو نفس ما حدث في تشاد بتولى " فرانسوا تيبني " ، وفي سيراليون بتولى سيكا ستيفنز .

وحتى نتبين مدى الغبن الذي الحقه التبشير بالمسلمين في نيجيريا ذات الاغلبية المسلمة في ظل الإستعمار الإنجليزي (208) ، نرصد سيطرة التبشير على 99% من مدارس نيجيريا (عام 1942) التي تركز أغلبها في اقليم الجنوب المسيحي الذي حصل منها على 26 مدرسة مقابل كل مدرسة في الشمال ، اى بنسبة توزيع 26:1 لصالح القطاع المسيحي ، وتضاول عدد الطلبة المسلمون بالمقرنة بغيرهم فقد بلغ عدد طلبة الجنوب المسيحي عام 1957 حوالي 2,5 مليون طالب مقابل 190 ألف طالب في الإقليم الشمالى المسلم الذي يتجاوز عدد سكانه ضعف سكان الجنوب .

وبالنسبة للمناطق الفرنسية في غرب افريقيا حُرِم المسلمون من إنشاء المدارس الا من بعض الكتاتيب التي رفضت السلطة الاستعمارية إدخالها في باب تلقى المنح والمساعدات الحكومية على غرار ما قدمته الى مدارس التبشير ، كما وقفت بالمرصاد للمدارس الإسلامية لعرقلة عملها فتارة تغلقها وتارة تعتقل معلمها الوافدين من شمال إفريقيا أو من أبناء البلاد الذين تعلموا في الدول العربية (209) .

ورغم هذه الضغوط نجح البعض امثال الشيخ محمود بن عمر باه من فوتاتورو في انشاء سلسلة مدارس نظامية ، باسم الفلاح في غرب افريقيا مالى والكامبيون ووسط افريقيا ، مستلهما نفس النسق لمدرسة الفلاح في مكة ، وبلغ عدد مدارس هذه السلسلة 77 مدرسة في الفترة من 1941 الى 1943 ، وتخرجت اول دفعة من الدارسين من مدرسة كايا kaya بمالى عام 1951 ، وبلغ عدد خريجها خمسين تلميذا أبتعث منهم تسعة عشر الى الازهر في سرية تامة خوفا من ملاحقة سلطات الاستعمار. ومما يؤخذ على برامج التعليم الفرنسى ضعفها وتدنيها ، فقد كانت اهداف تعليم الافريقيين في عمومها محدودة بمصالح الاستعمار ولا تخدم البلاد ، فلم تتجاوز اهدافه سوى تخريج موظفين على قدر محدود من المعرفة لتسهيل اعمال الادارة ، فلم يكن الغرض رقى مستوى الافريقيين والارتقاء بمعارفهم أو إعداد متخصصين في مجالات خدمة للبلد ؛ وقد جاء المخطط التعليمي الفرنسى لما وراء البحار لعام 1954 معبرا عن ذلك المفهوم ، فركز على التعليم المهني البسيط رافضا بشدة أى توسع في التعليم الثانوى بالمستعمرات الا فيما يخص تعليم الفرنسيين الذين حُصصت لهم الكثير من المدارس وأغدقت عليها الأموال ، ويوضح العالم الفرنسى " جورج هاردى " مدير التعليم السابق في الجزائر وسائر إفريقيا السوداء ، اهداف فرنسا التعليمية في مستعمراتها إذ يقول " إن التعليم في المستعمرات ليس أمراً عادياً ومن الخطر التوسع فيه " .

وهو ما تم تطبيقه عمليا فعدد الطلبة الجامعيين في إفريقيا الغربية لم يتجاوز ألف طالب جامعي فقط عام 1956 ، وهى نسبة ضئيلة مقارنة بعدد السكان البالغ عشرين مليون نسمة آنذاك ، و تدنت نسبة الطلبة في السنغال بعد ثلاثمائة عام من الإحتلال إلى 9% فقط من اجمالى السكان (210) ، وفى شرق القارة فى ممباسا التى يبلغ مسلموها 85% من عدد سكانها يشغل ابناؤها

(207) القس " سينسر ترمنجهام " فى كتابه - الكنيسة المسيحية في السودان بعد الحرب الثانية.

(208) نيجيريا عملاق افريقيا التانه ص 77 - د احمد شلبى . 1956 .

(209) افريقيا الغربية فى ظل الاسلام - نعيم قداح ص 241 ، تقلا عن جريدة لوموند الفرنسية ايلول 1956 .

(210) كتاب إفريقيا الغربية في ظل الإسلام - نعيم قداح ص 241 نقلا من جريدة لوموند - ايلول 1956 .

36% من الاماكن فى المدارس الابتدائية ونسبة 8% من المدارس الثانوية . وفى ضوء تدنى نسبتهم فى الثانوية فقد لا تجد منهم احد فى الجامعة ، وفى اوغندا التى تصل نسبة المسلمين فيها الى ما يزيد على 45% ، نجدهم يشغلون نسبة 5% فى الجامعة ، وفى تنزانيا التى يشكل المسلمون نسبة 86 % من سكانها تصل نسبتهم فى الجامعة 5% فقط .

التبشير الاوروبى جنوب الصحراء

(نطاقى الوسط و الشرق)

بدأ التبشير فور وصول البرتغاليين الى الساحل الشرقى للقارة فاستهدفوا الجميع وثنيين ومسلمين ، ولم يستثنى التبشير المسيحيين الشرقيين ممثلة فى المذهب القبطى " اليعقوبى " فى الحبشة ، وتشير التقارير الى نجاحهم فى الفترة 1561- 1630 فى اجتذاب بعض زعماء الوثنيين الى اعتناق المسيحية مقابل اغداق القاب لقيمة لها عليهم ؛ كما ارغموا بعض المسلمين بالمنطقة الشرقية على اعتناق المسيحية منهم ملك " مونوباتا " وزعيم ممبسة وابن ملك مالندي ، ويشير ترمنجهام الى ان الذين اعتنقوا المسيحية على ايدى البرتغاليين إرتدوا عنها فى فترة خمولى التبشير بسبب الحروب الاوروبية البينية ، ولم يتبق على المسيحية فى القرن 18 سوى نفر قليل وجدهم التبشير عند استئناف نشاطه ؛ وعدم تزايد اعداد المسيحيين دليل على عدم اهتمام الحبشة بالتبشير بين جيرانها.

بعد احتلال الانجليز لـ " زنجبار " المسلمة عام 1840 حولها الى مركز تبشيري كبير ليثبت نشاطه فى منطقة البحيرات العظمى داخل القارة ، ولم يسلم الصومال المسلم من نشاط تبشيري واسع النطاق إستثار جهاد " محمد بن عبد الله حسن " ، وتزايدت حدة النشاط التبشيري فيه مع تقسيم الصومال فى نهاية القرن 19 بين الدول الاوروبية فى مؤتمر برلين . وفى كينيا بما فيها من عرقيات مسلمة من الصوماليين وعرب ممبسة والامارات العربية السابقة ؛ خلع الانجليز حاكمها المسلم بعد أن دخلوها ووضعوا قانونا يقصر الحكم على المسيحيين وتعهدوا التبشير بالرعاية (211) .

تدنى نسبة التعليم بين المسلمين

فى دول شرق القارة

وفى ممبسة العربية المسلمة وهى الان خاضعة لكينيا يبلغ مسلموها 85% من عدد سكانها لكن نسبة اشغالهم الاماكن فى المدارس الابتدائية اقل من نسبتهم العددية حيث يشغل ابناءؤهم 36% فقط بينما تتدنى هذه النسبة فى المدارس الثانوية الى 8% ، وبالتالي فنسبتهم فى الجامعة لا تُذكر . واوغندا التى تزيد فيها نسبة المسلمين على 45% ، يشغل ابناءؤهم نسبة 5% فى الجامعة وفى تنزانيا التى يشكل المسلمون بها نسبة 86 % نسبتهم فى الجامعة 5% فقط ؛ وفى موزمبيق التى كان المسلمون يشكلون نسبة 35% من اجمالى السكان مقابل 10 % من المسيحيين والبقية من الوثنيين ، عزل البرتغاليون المسلمين عن العالم الاسلامى لاضعاف هويتهم وعطلوا الدراسات الاسلامية ومنعوا استخدام اللغة العربية وأعتبر تعليمها جريمة ، وتعرض العلماء للتكنيل والنفى وأخضعوا التعليم عام 1940 للتبشير بالاتفاق مع الفاتيكان ، وكادت الكونغو ان تتحول الى أغلبية مسلمة قبل دخولها ربة الاستعمار ، فقد كان نصف البلاد فى عام 1863 تحت سيطرة العرب والمستعربين الافريقيين وشاع انتشار اللغة السواحيلية بين أهلها .

وفى اوغندا حيث كان للاسلام نفوذا منذ عهد متيسا الذى اسلم فترة وارتد ؛ وبلغ مسلموها من القوة آنذاك لدرجة انهم بدلوا الملوك فقاموا بالتعاون مع المسيحيين بخلع الملك موابى عام 1888 واقاموا اخيه كيويوا Kiwewa ، ثم خلعه بعد شهر واقاموا بدلا منه اخوه كاليما ، ولما أعاد المسيحيون الملك المخلوع Kiwewa خلعه المسلمون مرة اخرى بعد اسابيع ولكنه إستعاد عرشه مرة اخرى بمساعدة المسيحيين مقابل التنازل عن كثير من سلطاته لزعماءهم (212) .

²¹¹ (مأساتنا فى افريقيا - عماد الدين خليل ص 115 .

²¹² (The New Columbia Encyclopedia 1975 , p. 2816)

وتناوب على اوغندا التبشير الانجليزى عام 1877 ومن بعده الكاثوليكي الفرنسى عام 1879 ، ورغم النشاط التبشيرى تقدم الاسلام بسرعة منذ عام 1884 بسبب اضطهاد الملك موانجا Mwanga خليفة متيسا للمسيحيين فى الفترة 1886 الى 1888 فقتلوه .

ورغم السلبات التى يتناقلها الاوربيون عن ممارسات المستعربين خاصة تجارة الرقيق فقد كان من المتوقع أن تصبح الكونغو دولة مستعربة لولا الاستعمار البلجيكي الذى اجتث ذلك التطور فاضع التعليم بجميع مراحلہ للمبشرين ، الذين مارسوا ضغوطا على المسلمين فاصبح عليهم اذا ما رغبوا فى الحصول على قسط من التعليم ان يتقبلوا التعميد فى الكنيسة ويتخلصوا من اسمائهم الاسلامية ، والا استحال عليهم ان يسجلوا انفسهم مدنيا وهو شرط ضرورى للحصول على الخدمات (213) .

ونجح التبشير من خلال برامج التعليم فى اجتثاث هوية البلاد بفرض الفرنسية لغة رسمية بدلا من السواحيلية المنتشرة بحجة انها لغة المستعربين العرب ، وكلما لاح فى الافق من يحاول إعطاء المسلمين حقوقهم أزاحوه مثلما فعلوا بـ " أدولا " رئيس الوزراء بتهمة انه مسلم متكرر طمس حقيقة اسمه الاصلى " أبدوللا " ليخفى هويته الاسلامية فجردوه من جنسيته بالادعاء أنه سنغالى الأصل (214) ؛ وفى ممباسا التى يبلغ مسلموها 85% من عدد سكانها يشغل ابناؤهم 36% من الاماكن فى المدارس الابتدائية ونسبة 8% من المدارس الثانوية وبالتالي فنسبتهم فى الجامعة لا تذكر واوغندا التى تصل نسبة المسلمون فيها الى ما يزيد على 45% يشغلون نسبة 5% فى الجامعة وفى تنزانيا التى يشكل المسلمون بها نسبة 86% نسبتهم فى الجامعة 5% فقط .

مقارنة بين مد التبشير

ومد الاسلام فى القرن العشرين

رغم التقدم الذى حققه التبشير بوسائله المستحدثة ودعم الاستعمار ، تشير الحقائق الى تفوق مد الإسلام على مد المسيحية رغم كل الظروف المناوئة التى خاض فيها عبر الصحراء والغابات الاستوائية وصولا إلى الساحل الجنوبى لغرب افريقيا بإندفاعه الذاتية متحررا من مثالب واثقال الارتباط بسلطة سياسية ؛ بينما اثقل حركة التبشير ارتباطه بالاستعمار وتحيزه العنصرى ضد الشعوب التى يعمل على اجتذابها .، ويبرر الاب Gerard Rothe " تفوق مد الإسلام على مد المسيحية بين الافريقيين الى سهولة اعتناق الاسلام على اعتناق الكاثوليكية فيقول " من السهل ان تصبح مسلما ، فلن يستغرق الامر سوى عدة دقائق بينما يستغرق عدة سنوات لان تصبح كاثوليكي ؛ ويستطرد فى القول بأن الاسلام فى افريقيا قوى يمتد بسرعة ويخترق الجماهير فى غربها بسرعة البرق فقد تضاعف عدد مسلميها خلال عشرين عاما ؛ من اربعين مليون الى ثمانين مليون مسلم ؛ بينما نجحت الكنيسة الكاثوليكية خلال نفس المدة فى تنصير 15 مليونا فقط " .

ويقول " فيليب فونداس " رئيس مكتب الإستخبارات الفرنسية فى كتابه "الإستعمار الفرنسى فى إفريقيا السوداء " أن الإسلام تمكن خلال خمس سنوات من إكتساب ثلاثين ألف من قبيلة " موسى " فى منطقة واحدة فقط ؛ بينما لم يتمكن المبشرون خلال خمسين عاما من تنصير سوى ثلاثة وسبعين ألفا فى العديد من المناطق " ؛ ويذكر القس " سبنسر ترمنجهام " أن الإسلام حقق خلال خمسين عاما ما لم يحققه فى القرون الثلاث السابقة ، فقد أقبل على اعتناقه الملايين من قبائل المحاروصا والبهل ومئات الألوف من قبائل ألولوف التى إحتفظت بوثنيتها لقرون طويلة رغم إحتكاكها طوال الوقت بالمسلمين .

ويرى ترمنجهام ان الثورة التى اطلقها تعليم الافريقيين ، وإحتكاكهم بالمذاهب الفكرية كانت سببا فى اختراق مجتمعاتهم وتفسخها لهشاشة مضمونها الفكرى والعقيدى ، وان إعتناق هذه القبائل للإسلام جاء لإقتناعها بأن الوثنية لاتؤهلها حتى فى ظل الحضارة الأوروبية لخيار القرن التاسع عشر ؛ بينما مكنهم اعتناق الاسلام من الإحتفاظ بهويتهم الإجتماعية ومؤسساتها .

ويبرر " Cruise O' Brien " إسلام " الولوف " بأنه ثورة إجتماعية توحدت فيها طبقة العمال الزراعيين ضد

(213) نجد ان ممباسا التى يبلغ مسلموها 85% من عدد سكانها يشغل ابناؤهم 36% من الاماكن فى المدارس الابتدائية ونسبة 8% من المدارس الثانوية وبالتالي فنسبتهم فى الجامعة لا تذكر واوغندا التى تصل نسبة المسلمون فيها الى ما يزيد على 45% يشغلون نسبة 5% فى الجامعة وفى تنزانيا التى يشكل المسلمون بها نسبة 86% نسبتهم فى الجامعة 5% فقط .

(214) ماساتنا فى افريقيا - عماد الدين خليل ص103 .

الأرستقراطية الوثنية الحاكمة ، ويرى تونبي ان شبكة التسهيلات والاتصالات التي اقامها الاستعمار لخدمة اغراضه اصلا فتحت الافاق امام اقتحام الاسلام مجتمعات السود والسيطرة على القارة (215) ؛ ويذكر جاكوب ادى اجابى استاذ التاريخ بجامعة ايبادان نقلا عن كاتب فرنسي " ان عدد معتنقى الاسلام خلال خمسين عاما من الهيمنة الاستعمارية فى غرب افريقيا ، تجاوز اعداد من اعتنقوه طوال تاريخ الاسلام على مدى 1500 عاما ، وهو رقم لم يسبق للاسلام أن حققه طوال تاريخه ، فالشعوب التي عرفت بطول مقاومتها للاسلام مثل كيبواو والمبارا من سيقو (سيجو) وكارتا اعتنقوا الاسلام بالجملة ؛ وان المسلمون نجحوا بشكل افضل من المبشرين فى استغلال المؤسسات الاستعمارية فى مجال الدعوة كالمدين الجديدة والاسواق والتجنيد (216) .

ويعتقد توماس أرنولد فى كتابه " الدعوة إلى الإسلام " أن الإسلام فى تقدم ملحوظ ، بعد ان سجل تقدما كبيرا فى القرن العشرين ؛ وهى حقيقة اشار اليها البابا " جون بول الثاني " عرضا فى خطابه أثناء زيارته مصر فى مارس 2000 ، بمناسبة مرور الالفية الثانية على رحلة " العائلة المقدسة " اليها ، فأشار للتأثير القوى للإسلام على إفريقيا بقوله :

"The Advent of Islam brought splendors of ART and learning which have a determining influence on the Arab World and on Africa"

وأوردت نشرة الفاتيكان " Redemptoris Missio " لعام 1991 دعوة نفس البابا " جون بول الثاني " الى الدول الإسلامية لفتح أراضيها أمام التبشير ، كرد على الانتشار السريع للإسلام فى أفريقيا وغزوه المناطق التاريخية للمسيحية بأسرع من انتشار الكاثوليكية " حسب تفسير مساعدو البابا فى الخبر المنشور فى نيويورك تايمز (217) .

وتحقق كل هذا الانتشار بقوة الاسلام الذاتية وإمكانات دعاته المحدودة وبدون أى تمويل خارجى او دعم سياسى من ايا من الدول ؛ على نحو ما توفر للتبشير من موارد ضخمة قدرتها النشرة الدولية لبحوث الإرسالية المسيحية طبقا لبيانات عام 1991 بحوالى " 81 " مليار دولار للانفاق على التبشير فى العالم ولم تحدد المخصص للتبشير فى أفريقيا وان كنا نعتقد انه مبلغا ضخما فهى معقل التبشير الاول فى العالم ، وتعطى ارقام العمل التبشير مؤشرا لحجم المبالغ المخصصة وذلك على النحو التالى 16 ألف معهد دينى - 500 مدرسة لاهوتية - 600 مستشفى - 500 مستوصف يشرف عليها 14 ألف مُنصر .

ومن الاسباب التى اثرت سلبا على مد المسيحية لصالح مد الاسلام الموقف السلبي للمبشرين الأوروبيين من الامانى الوطنية للأفريقيين ؛ فقد كان تأييدهم السلطة الاستعمارية انطلاقا من الولاء الوطنى ؛ ودعمهم لممارساتها الجائرة ضد الامانى الوطنية للأفريقيين سببا عند المقارنة تفضيلهم الانضمام الى الاسلام على المسيحية ، فالاسلام دين اصيل محلى وطنى الجذور عايشته مجتمعات الوثنية ولم تنقطع صلتها به لقرون طويلة سابقة ، عهدت فيه توافقا مع عاداتها الاجتماعية الجوهرية كتعدد الزوجات ، ودعاته من بينهم وليسوا بيضا غرباء يذكرونهم بأنه دين الغرباء ، فكانت هذه المجتمعات أقرب الى الاسلام منها الى المسيحية.

وافاد مد الاسلام افرازات العداءات القديمة المستحكمة بين الكنائس المسيحية وتنافس مذاهبها للإستئثار بإيمان الوثنيين الذى وصل بالمشاحنات إلى حد الصدام المسلح فى بعض الاحيان ، كما ادى تمييز الكنيسة فى سلك الكهنوت ضد رهبانها الأفريقيين لانقسام العقيدة ذاتها ما بين اوروبية بيضاء وإفريقية سوداء .

وزاد الهوة اتساعا ما استشعره الأفريقى العادى من ان مفهوم الدين لدى الرجل الأبيض تغذيه نظريته العنصرية ، فأصبح هناك انفصام فى نظريته الى العقيدة ذاتها ، فهناك " دينا للبيض " يجب ان يقابله دينا للسود ؛ الامر الذى اوجد سببا إضافيا لانقسام الكنيسة المسيحية بالقارة ، فظهر تيار من الكنائس المستقلة بالغت فى تطرفها بالدعوة الى مسيحية سوداء بكنائسها المختلفة تقبل الرسالة (المسيحية) ولا تقبل الرسول (التبشير الاوروبى) رفضا لعنصريته ، وبلغ تيار التطرف اقصاه بإعتناق عبادات مستحدثة خرجا على الرؤية المسيحية ؛ فأغلب المبشرون البيض مارسوا تمييزا عنصريا ضد قرنائهم الإفريقيين فى سلك الكهنوت بالتواصل مع النظرة المتدنية لبناء جلدتهم لكل ما هو اسود ، فاحتكر الرهبان الأوروبيين المناصب العليا للكهنوت تاركين الوظائف الدنيا للأفريقيين الذين أثارت حفيظتهم تلك النظرة الدونية المخالفة لروح المسيحية الرافضة للتمييز بين البشر.

²¹⁵ (المرجع Survey Of International Affairs 1928 p. 191-192) :

²¹⁶ (الانقطاع والاتصال بين افريقيا والعرب ص13 - افريقيا العدد 1 اكتوبر 1986

²¹⁷) نيويورك تايمز فى 1/23 1991 .

ولما تنبه البابا " بيوس الحادي عشر " الى خطورة الامر على الكنيسة وحركة التبشير ، دعا المبشرين للعمل فقط من أجل ملكوت السماء لا لبناء مملكة أرضية وطالبهم باتاحة الفرصة للإفريقيين للوصول للدرجات العليا ، وقد لقي الكرسي الرسولي في سبيل تحقيق ذلك عنناً كبيراً من المبشرين الاوروبيين ولم يسلم الأمر من وقوع حوادث عند تطبيق المساواة فقد رفض الكهنة البيض الخضوع لسلطة الكاهن الإفريقي (218).

اضر بمد المسيحية الموقف السلبي للمبشرين الأوروبيين من الامانى الوطنية للإفريقيين بإعلاؤهم الولاء للاستعمار انطلاقاً من الولاء الوطنى على الولاء لتعاليم السماء والسيد المسيح " عليه السلام " ؛ بالإصطفاف الى جانب السلطة الاستعمارية وتبرير ممارساتها اللانسانية والعنصرية ضد الشعوب الإفريقية فى قضايا التحرر الوطنى وتجارة النخاسة بالمخالفة لضمير المسيحية الحق ، فقد وجد التبشير ان عليه مضطرا ان يغض الطرف عن الممارسات الوحشية والعنصرية للسلطة الإستعمارية بل وجد ان عليه القيام بتبريرها مستخدماً التأثير الروحي والهيمنة الدينية .

ويصف دافيدسون موقف التبشير السلبي من تجارة العبيد " بالموقف الاشد ايلاماً وتعذيباً للنفس فلم يسعى للتصدى لهذه التجارة بالتدخل لدى السلطة الاستعمارية لوقفها ولم يحرك ساكناً لوقف المعاملة الوحشية التى لقيها العبيد ، ويقول إن الاساقفة الأوروبيون كانوا يجلسون في أبراجهم العاجية على رصيف الميناء في أنجولا ويمدون أيديهم الرحيمة لتعميد العبيد بالآلاف ، وهم يساقون مكبلين بالأغلال في طريقهم إلى البرازيل " ؛ وحاولت الكنائس الأوروبية التبرأ من هذه التهم تحسباً لمستقبل تحركها فى القارة بعد الاستقلال ف عقدت مؤتمراً في نيروبي عام 1963.

كان من نتيجة ذلك أن انفصلت الكنيسة الوطنية الإفريقية عام 1891 ، بزعامة الليبيرى " د. أدوارد بليدين " عن الكنيسة الإنجيلية في غرب إفريقيا ؛ " وكان بليدين قد مهد " لهذا الانفصال بالدعوة فى كتاب له عام 1887 ؛ لإنشاء كنائس بعيدا عن نفوذ الكنائس الأوروبية على غرار كنائس الزنوج بالولايات المتحدة الأمريكية ، وقاد "كاجيا" دعوة مماثلة في كينيا للتخلص من الدين الأجنبى على حد قوله قاصداً المسيحية الأوروبية (219).

أسفرت حركة الكنائس الوطنية عن ميلاد كنائس إفريقية تبنت عقيدة مسيحية إفريقية اللون تتواءم مع احتياجات المجتمع الإفريقى ؛ متسامحة مع تعدد الزوجات اسبغت على السيد المسيح عليه السلام مسحة إفريقية سمراء البشرة ؛ كانت هذه الكنائس بروتستانتية في أغلبها في كل من غانا ونيجيريا وليبيريا انفصلت عن بعثات التبشير ؛ كما ظهرت عن نفس الانشقاقات كنائس للعبادات المستحدثة خليطاً بين المسيحية والوثنية وبعضها الآخر بعيدة عن جوهر المسيحية تجاوزت المضمون الحقيقى للعقيدة ؛ وقد إنتشرت في الأماكن التي لم تستقر فيها المسيحية بعمق ، كما ظهرت كنائس المتنبيين " مدعى النبوة " وكان من اهم المروجين لها وليم هارس من مواليد ليبيريا عام 1850 وتقوم على مفاهيم إفريقية بعيدة عن المسيحية .. ووسط كل هذا خرج تيار رافض يدعو الى العلمانية (220) .

الكنائس الإفريقية الوطنية

ولما كانت الوطنية سبب ميلاد الكنائس الإفريقية ؛ فقد غلبت عليها روح القومية فتبنت سياسيات داعية الى " افرقة " مناحى الحياة ومقاومة الإستعمار وعلى رأسها :

- استقلال إفريقيا التام عن السيطرة الأوروبية.
- إلغاء الأسماء الأجنبية والعودة للأسماء الإفريقية.
- إحترام التقاليد الإفريقية .

- تطهير الكنيسة من الرجز الأوروبي الذي قُدم للإفريقيين على أنه جزء من تعاليم المسيحية .

ولم يُرض هذا الانفصال الكنائس الأوروبية ، فلجأت الى السلطة الاستعمارية الوطنية للتصدى لهذا الانقسام فقامت القوات الإنجليزية بملاحقة " كاجيا " وألقت به وبأتباعه في السجون .

²¹⁸ (إفريقيا الغربية في ظل الإسلام -نعيم قداح ص 196 .

²¹⁹ (باسبيل دافيدسون ص59 .

²²⁰ (مصر وإفريقيا ص225-د. زاهر رياض .

من الملفت للنظر ان الإسلام رغم العراقيل ؛ تقدم منسابا في مد سلمي هادئ بقوة دفعه الذاتي على الارض الافريقية ، محققا بانسيابه السلمي أكثر مما تحقق بجهاد كياناته ؛ ولو كانت الامور قد سارت على نحو طبيعي دون هذه البيئة المضطربة التي تعرضنا لها لكانت افريقيا اليوم ليست فقط هي القارة المسلمة حسب تصنيفها الحالي الواقعي وانما كانت مسلمة بكاملها ، ويقول د. جمال حمدان في تقويمه لمد الاسلام في تلك المرحلة " إن السلطة الاستعمارية أثقلت خطوات الإسلام ولولاها لكانت خريطة الإسلام اليوم على الأرجح شيئا مختلفا عما هي عليه بالقارة " ؛ وإعترض البعض على القول بأن الاستعمار اضر بمد الاسلام بل يؤكدون على انه أفاده بتسامحه عندما تركه يمارس دوره كقوة تشريعية وسياسية داخل مجتمعاته وبالإستعانة به في ادارة بعض البلاد فإستغلوها لنشره ، وكذلك الإستفادة بمعطيات الحضارة الأوروبية في مجالات الاتصالات والمواصلات التي طبقها الاستعمار في افريقيا لتسهيل حركته ؛ وهو إدعاء مردود عليه فالشريعة منهاج حياة وكيان مجتمع ؛ لا يمنحها او يمنعها احد فهي ممارسة يومية لا تنقطع ؛ اما الادعاء بالتسامح معه كقوة سياسية في بعض المناطق الخاضعة للإستعمار (البريطاني والالمانى والفرنسى) فقد كان مقصدها مصلحة المستعمر عدم استثارة عداء المجتمع لتسهيل لاعمال الادارة دعما للاستقرار ، وليس خبا في الإسلام الذي عانت مجتمعاته حربا شعواء منهم ؛ والمشكلة في علاقة الاسلام بالتبشير الأوروبي التي شهدتها القارة على مدار القرون ، انعقدت أساسا على تدخل التبشير في الشأن الاسلامي بإعتراض مده والسعي لاضعافه وتشويه صورته لدى ابناءوه وإستهدفهم بالتنصير .

وخارج هذا الإطار لم تستثمر حركة التبشير في مناطق الوثنية عداة المسلمين وإنما استقبلوه بتسامح بلغ حد التعاون في بعض الأحيان انطلاقاً من منطق أن القضاء على الوثنية سواء بالدعوة أو التبشير يصبان في وعاء الإيمان بالله على نحو ما حدث في بعض مناطق الغرب الأفريقي ؛ ومن أبرز المتعاونين في هذا المجال الشيخ "تيرنو أبو بكر الحمالي " الذي تزعم حركة تعاون إسلامي مسيحي في السنغال وموريتانيا لمجابهة الإلحاد إيماناً منه بوحدة الديانات السماوية .

أما عن علاقة الاسلام بالتبشير الافريقى الوطنى فلم تكن سلبية على النحو المعقد الذى كانت عليه مع التبشير الاوروبى ، فلم يكن هناك رصيد تاريخى من العداء معاً بينهما على فقد ساد بينهما التفاهم انطلاقاً من وحدة الانتماء القومى الافريقى ، وفى سياق طبيعة تسامح الشخصية الافريقية جمعتهم اخوة القبيلة الواحدة ؛ وسجل التاريخ صوراً فريدة للتعايش بين المسجد والكنيسة فى الكثير من الحالات ويضرب " الفونس غونى " عالم الأديان الإفريقى المثل بما حدث فى الداومى(بنين) وداكار للاخوة بين المسلمين والمسيحيين عندما إنبرى الأصدقاء المسلمون لاحت الموتى المسيحيين لقبول التعازي داخل الكنيسة بجانب اهله بينما بقي المسيحيون الأوروبيون خارج الكنيسة على الرصيف المقابل.

مستقبل المد الاسلامي

ويرصد المهتمون بتطور الديانات مداً غالباً للإسلام في إفريقيا فيرى د/ جمال حمدان في كتابه " العالم الإسلامي المعاصر " أن الإسلام في إفريقيا في مد زاحف بقوة وإيقاع لم يعرفهما في قارة أخرى ، ولا يعرفهما دين سواه " ؛ ويسايره في هذا الرأي " هانوتر " وزير خارجية فرنسا سابقاً بقوله " أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يميل الناس (في إفريقيا) إلى اعتناقه بشدة تفوق أي دين آخر ."(221).

ويرى تونبي المؤرخ البريطاني مدا اكبر يتجاوز أفريقيا الى متسع العالم فيقول " طالما أن الإسلام قادر على أن يصيح حضارة الجنس الأسود في أفريقيا فلا يوجد سببا يجعل مده مقتصر على قارة وحيدة ومحسورا في إطارها (222) ، وتؤيد الإحصاءات هذا المنحى فافريقيا على اتساعها قارة ذات اغلبية مسلمة وثان اكبر القارات بعد آسيا عددا من حيث عدد المسلمين ، وتضم 26 دولة ذات اغلبية إسلامية و20 دولة بأقليات إسلامية كبيرة ، وتُظهر احصاءات القرن الماضي هذا التطور - تقدير وسترمان D.Westerman عن دائرة المعارف الإسلامية - مجلد/2 ص 649 ، وفيما يلي جدول يبين هذا حسب الاعوام:

⁽²²¹⁾ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص 18 نقلا عن التبشير والاستعمار ص 36 الطبعة الرابعة نقلا عن قادة الغرب يقولون دمرُوا الإسلام أبديوا أهله - سنة 1998 تأليف "عبد الودود يوسف".

²²²) Survey of international affairs, 1928 p 191-192 .

المسلمون في افريقيا

عام	مليون مسلم	يشكـ لون نسبة %	جملة سكان بالمليون	القارة
1950	42	21,2 %	198	
1960	115	45 %	240	
1968	155	57 %	—	
1973	303	—	—	
1988	323	52,8 %	611	
2003	414	48 %	861	
2005	432,6	47,8 %	905,6	

ويُظهر الجدول زيادة عامة مطردة في أعداد المسلمين بالقارة وكذلك في نسبتهم الى جملة السكان ؛ فقد تضاعفت اعدادهم منذ منتصف القرن الماضي (من 21,2% عام 1950 إلى 48% عام 2003) ، ويرجع جزءاً كبيراً من هذا النمو الى الدعوة .. وهذا يجعلها أكثر القارات تحولا للإسلام ؛ فهي وتضم حالياً أكثر من 1/4 مسلمي العالم، فهي القارة التي تضم اغلبية مسلمة لسكانها والثانية على مستوى العالم .

الفصل الثالث تجارة النخاسة الأوروبية وتجارة الرق العربية في إفريقيا

النخاسة قضية عقيدة أم قضية سلوك ؟

روجت الدراسات الاستعمارية ؛ افتراءات عن مسئولية الإسلام عن فظائع تلك التجارة ، استهدفت التشهير بالعرب والمسلمين مستغلة حساسية الأفريقيين تجاه هذه القضية لتعميم سلبيات تجارة النخاسة الأوروبية المستقرة في وجدانهم على نحو متطابق على مثيلتها التي مارسها قلة غير مسئولة من تجار العرب .

ورغم الاقرار بسلبيات تجارة الرق عامة ، فلا يجب أن نضع تجارة الأوروبيين بأفريقيا الواسعة وإحترافيتها بالغة المهنية بوحشيتها منذ اقتناص الطراند واحتجازهم في الموانئ ونقلهم في أقفاص الى المراكب لوضعهم في عنابر تنطبق اسطحها ضيقا علي صدورهم ثم بيعهم سلعا ، وكلها ممارسات جعلت مثالب تجارة الرق لتجار العرب كنقطة في بحر بالمقارنة الى مثالب مثيلتها الأوروبية ، فلا يمكن وضعهما على قدم المساواة عند المقارنة ، ولا يعنى وجود الرق في المجتمع الإسلامي أن يكون مبررا لتجريح الإسلام فالرق ترفضه كل الأديان ؛ ولكنه نظام عميق الجذور في النظام العالمي القديم مارسه جميع أمم العالم انذاك أبيضها وأسودها ؛ وهما في نفس الوقت على السواء كانا مادة تجارتها ، ولم يسلم الأنبياء منها فيوسف عليه السلام أُسْرق .

والحضارات القديمة بما فيها الحضارة اليونانية فكرها الفلسفي لم تستهجن الرق ، بل إن المجتمع الاثيني بُنى على عرق الرقيق ؛ عاش فيه الأحرار على كد الأرقاء ، وفي الإمبراطورية الرومانية بلغ الرق درجة بالغة من التنظيم والإتساع والوحشية ايضا ؛ وتعكس شراسة ثورات العبيد المتكررة ضد روما مدى معاناتهم ورفضهم الاستخفاف بإنسانيتهم عندما جعلتهم أدوات لهو وإستمتاع وحشيين في ساحات النزال بين الوحوش والبشر ؛ هذا المصير الدامي المليء بالألم والحزن جعل من الموت نعمة كبرى ومطلبا للعبد للخلاص من نير الاستعباد وحيفه عبر عنه " سبارتاكوس " زعيم عبيد روما الثائر في قول بليغ " الموت هو الحرية الوحيدة التي يستطيع العبد أن ينالها " ، وأوروبا نفسها مارست الرق بين ابنائها فنظم بعض الأوروبيون بالتعاون مع يهود براغ إسترقاق الصقالبة وبيعهم للاندلس للعمل كمماليك في حرس السلطان أو بيعهم في شمال أفريقيا ؛ كما ان الدول الأوروبية التي أغارت على الشمال الأفريقي باعت اسراها من المسلمين في أوروبا ، وسترد بعض الحالات في العرض .

والحديث عن الرق ليس حديث عن " عقيدة " وإنما عن " تجارة " ؛ والتجارة تتعلق بـ " سلوكيات " القانمين عليها ولا تتعلق بمبادئ أخلاقية أو عقائد ، وإذا ما تعرضنا لموقف العقائد السماوية من الرق فلا يختلف موقف الإسلام أو المسيحية من أى إستهانة " بالإنسانية " وهما اللتين قد بلغت منهما الرحمة مبلغ العناية بما دون الإنسان ، فما بالك بالإنسان ؛ والفكر الرشيد لا يحملهما وزر سلوك أتباعهما المثقله بالظلم والمصالح الضيقة .

الإسلام والرق

وإذا ما راجعنا الإسلام ؛ نجده دعا معتقية لخطوات لو سارت سيرها الصحيح لانقضى الرق وزال مبكرا ، وهذه الخطوات تعنى التدرج في الفعل لا الاندفاع فيه لحكمة اقتصادية واجتماعية وأخلاقية ، فليس من السهل تحريمه دفعة واحدة وهو جزء من البناء الاجتماعى والاقتصادى الراسخ ليس لدى العرب فقط وإنما لدى بقية اجزاء عالم ذلك الزمان ؛ فالاسلام جرم الرق بين المسلمين وحرم استرقاق غير المسلمين الذين يعيشون احرارا في المجتمع الإسلامي ؛ وبالنسبة للحروب معين الاسترقاق فلا يجوز إسترقاق الأسرى من المسلمين أما غيرهم فمتروك أمره للسلطان إما أن يمن عليهم بالحرية أو يقبل افتدائهم وليس استعبادهم ؛ والإسلام وفر للعبد حق افتداء نفسه من اجر عمله لدى سيده فيما يُسمى المكاتبَة ، فإذا ما طلبها فلا يمكن لسيده رد طلبه ايا كان السبب .

ورغم تحريم استرقاق المسلم للمسلم ، لم تستثن عصابات صيد الرقيق العربية مسلمي افريقيا من تجارتها ؛ فقد سجل التاريخ حوادث اقتناص واختطاف مسلمين على نحو ما اشارت اليه شكوى ملك كانم إلى الظاهر ابى سعيد " برقوق " سلطان مصر عام 1391م عن رذائل أعراب " جذاما " ، التي قامت خروجاً على الاسلام بسبى النساء والصبيان وصغار الرجال ليبيعونهم لجلاب مصر والشام .

الاسلام والاحسان

الى الرقيق وعتقهم

حض الإسلام معتنقيه على حسن معاملة العبيد ، فيأمر النص الالهى بذلك " وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (النساء 36) ؛ وهناك احاديث كثيرة فى هذا الشأن فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من العبيد اخوة لسادتهم الاحرار وحرّم ضربهم و كلف بمعاونتهم وعدم الغت معهم لقوله " هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت ايديكم ؛ فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ؛ ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه "، كما قال " اذا اتى احدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لُقمة او لُقمتين او أكلة أو اكلتين ، فإنه ولى علاجه " (223) .

والعتق قرره النص القرأنى حسب قول الله تعالى " فلا اقتحم العقبة ، وما ادراك ما العقبة فك رقبة " ؛ كما أقر سبحانه مبدأ " المكاتبه " كحق لا يرد للرقيق حال مطالبته بحريته ؛ ("سورة النور آية 33") وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) .

وأمر الإسلام الولي أن يعين عبده عند طلبه المكاتبه ، فيمنح الحرية فور طلبها فيصبح العبد حرا بقوة الامر الالهى ولا يستطيع احد رده فيؤجر عن عمله عند سيده فور طلب "المكاتبه " ويدفع من اجره ما كاتب سيده عليه لشراء حريته ، وتسهيلا على العبيد المكاتبين خصص الاسلام جزءا من مال الزكاة لعتق الرقيق المكاتبين لإعانتهم علي نيل (التوبة آية 60) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60) .

كما فرض الاسلام تحرير الرقيق فى كل مناسبة وبشكل واسع ووعد مُعتقوا الرقيق بالخير والثواب ، والرسول عليه الصلاة والسلام (عن ابن عمر رضى الله عنه) يقرر لاقل الاسباب عتق الرقيق مثل الضرب " من ضرب غلاما له حدا لم يأت به أو لطمه فإن كفارته ان يعتقه " ؛ وجعل الاسلام عتق الرقيق مثوبة وقرى الى الله و جزء من " الديات " ومن باب " الكفارات " . وشجع الرسول الكريم على عتقهم وتحريرهم فيقول " أيما امرىء مسلم أعتق إمراة مسلما ، إستنقذ بكل عضو منه عضواً من النار " وفى حديث آخر " ثلاثة حق على الله عونهم المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف .

وفى كتاب سبل السلام للصنعانى الجزء الرابع - كتاب العتق - ذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام أعتق 63 نسمة عدد سنى عمره ، وعبد الرحمن بن عوف أعتق ثلاثين ألفا وذو الكلاع الحميرى أعتق ثمانية آلاف فى يوم واحد ؛ وهناك أمثلة على إقبال الناس على عتق العبيد تقربا الى الله حتى ان البعض كان يشتري رقيقا ليعتقها مثل ربيعة بنت العباس ، وأوصى الخليفة المعتصم قبل وفاته بعتق 8 آلاف من مماليكه ، ومنى الخليفة عثمان بن عفان عبيده بالعتق اذا ما وضعوا السلاح عندما هبوا للدفاع عنه أثناء حصاره منعا للاقتتال بين المسلمين .

معاملة الإماء

وفىما يتعلق بالإماء ؛ فقد صان الإسلام كرامتهن ودعى سادتهن الى نكاحهن كالحرائر متى كن مؤمنات بزواج شرعى بصداق لا مخادنة ولا سفاح " سورة النساء آية 25 " وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُخْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25) وإذا حملت الأمة ولم يتزوجها سيدها فلا يحل له بيعها أو أن يهبها بل تبقى فى عصمته حتى وفاته وتحصل على حريتها كاملة بعد موته ؛ وإذا ولدت لسيدها تصبح حرة فوليدها يولد حرا ويحررها (أعتقها

⁽²²³⁾ عن ابا ذر الغفارى والبخارى نقلًا عن رياض الصالحين ص 573 ،

وليُذْها (224) ، كما قال " من ملك ذا رحم محرّم منه فهو حر " .

مكانة الرقيق في المجتمع الإسلامي

بلغ الرقيق في المجتمع الإسلامي مكانة اجتماعية ، لم يبلغها معظم الأحرار من مواطني البلدان الإسلامية او في غيرها من البلاد ؛ فعدد لا بأس به من العبيد البيض والسود على السواء ، كممالك مصر القوقازيين والاحباش (كافور الاخشيدي) ، بلغوا منازل رفيعة فصار منهم السلاطين والامراء ومن الإماء أمهات خلفاء وأمرء ، ومنهن من جمعن في أيديهن مقاليد الحكم كشجر الدر في مصر ، ومنهن من أثرت الحياة الفنية في عصر بغداد الذهبى ومعظمهن من الروميات والتركيات والهنديات والصقلييات. وسجل الاوروبيون الوضع الطيب الذى عاشه وحظى به عبيد الشرق فـ " نابليون بونابرت في معرض مقارنته بين اوضاع الرقيق في الشرق والغرب في سيرته الذاتية ، يقول " في الشرق هي ما نجده في الكتب المقدسة فالعبد يتزوج ابنة سيده ، والباشوات (في مصر) كانوا عبيدا ومعظم الوزراء والمماليك ومنهم على مراد بك (كبير المماليك) بدءوا حياتهم بممارسة الأعمال الدنيا في منازل سادتهم وترقوا إما لجدارة أو لمجاملة ؛ أما في الغرب فالعبد دائما في مكانة متدنية وحتى عندما عتق الرومان العبيد لم يمنحهم المساواة بالأحرار" (225) .

ويقول د جوستاف لوبون ان كل من درس الرق في الشرق دراسة جدية مثل مسيو ايبر ومسيو شارم ومسيو دو فوجانى مدير مدرسة اللغات بالقاهرة وغيرهم ، اثبتوا أن الضجة التى اثارها بعض الاوروبيون حول هذا الموضوع ليس لها اساس من الصحة ؛ فالارقاء في الشرق افضل حالا من الخدم في اوربا فهم في الشرق يؤلفون جزءا من الاسر ويستطيعون الزواج احيانا من بنات سادتهم ، ويتسّموا اعلى المراتب ، ومتى ارادوا التحرر ينالونه بمجرد ابداء الرغبة امام احد القضاة ، وعلى اية حال فإن عدد الرقيق في بلاد الاسلام قليل (رأى مسيو ايبر).

وينقل د لوبون عن مسيو شارم ان الرق وان كان وصمة عار في جبين الانسانية لكنه في مصر لينا هينا نافعا منتجا والغاؤه مصيبة فمن ينقذ هؤلاء الرقيق اذين آسروا في الحرب من القتل واكل لحومهم على ايدي اسريهم وحوش افريقيا الوسطى الذين لا يحجمون عن ذلك ان عجزوا عن بيعهم حتى يتجنبوا تكبد اطعامهم ، وادان محبو الانسانية الانجليز الذين يرون انه كان من الاجدر ان يأكلهم أمثالهم من ان يُسترقوا ويتسبدهم الاجنبى.

ويستطرد د لوبون بأن مسيو دو فوجانى يقول ان الارقاء يفضلون الاسترقاق السالم ، الذى يوفر لهم سيد يرعاهم ويقوم بشئونهم ، على الحرية استفادة بحق المكاتبية ، لعدم رغبتهم في تحمل اعباء حياة التحرر من كد قلق لتكسب اسباب المعيشة ؛ كما يُضيف نقلا عن مسيو دو فوجانى انه في حالة انجاب الامة من سيدها يتساوى ابنها مع ابن الزوجة في الحقوق ، فاذا كان بكر ابيه كان له امتياز البكرية .

ويقول مسيو ايبر ان امهات سلاطين آل عثمان زعماء الاسلام كُن من الاماء ولا يرى هؤلاء السلاطين في ذلك ما يحط من قدرهم ، وكان ممالك مصر يشترون صغار الموالى من الفقفاص ويتبنونهم ويعلمونهم ويدربونهم ويزوجونهم بعض بناتهم ، ويفوضونهم في ادارة شئونهم الخاصة ، وفي القاهرة تجد من اكابر الوزراء والقادة والقضاة من هم كانوا في الاصل رقيقا تم شراء الواحد منهم بما لا يزيد على الف وخمسمائة فرنك (226) .

الرق بين جوهر العقيدة والسلوك الانسانى

رغم ثراء الجانب الروحي للعقيدة الرحيم في مضمونه تجاه الرقيق ، نجد انحرافا في تطبيق المجتمعات الإسلامية في الواقع العملى ، فيغشى الامر على من اخذ بظاهر الامر ويجهل أصله في العقيدة ، فيُسى بجهله وسوء تقديره في الحكم ، وفى كثير من

²²⁴ كتاب سبل السلام للصنعاني الجزء الرابع - كتاب العتق ص232

²²⁵ (المرجع مئز - الحضارة الإسلامية ج ١ - ص 273 نقلا عن الحواضر الإسلامية الكبرى ص192 (1976) - د عصام الدين عبد الرؤوف ، ومن المستغرب ان يعيد نابليون العمل بنظام الرق رغم سبق استهجان الثورة الفرنسية ، .

²²⁶ حضارة العرب ص 379.

الاحيان ينحرف سلوك البشر عن المبادئ ؛ وتجب التفرقة بين المنظور الايماني الصحيح وبين السلوك الانساني الغير قويم للمجتمع والافراد ؛ فالاول ثابت لايتغير والاخير يتغير طبقا للظروف ونظرة الجماعة ويختلف الموقف من جماعة لأخرى ومن زمن لآخر طبقاً للمصالح السائدة في البيئة الاجتماعية المحيطة ، وعلينا الأخذ في الاعتبار عند الحكم إختلاف الرؤى بين منظور الحاضر ومنظور مجتمع ذاك الزمان ؛ والا نقيس الماضي بمعطيات الحاضر والا اختلت الرؤية وفسد الحكم .

وبخلاف المبررالاقتصادي لاستمرار لإحتياج للرقيق قوة للعمل ، وهو اساس استمرار هذا النظام في المجتمع الإسلامي ، فإن البعض يرى فيه نعمة من منظور القرن الرابع عشر الميلادي للرقيق بدخول الاسلام وعتقا لهم من الوثنية (227) ؛ وان لا غضاضة في تكليفهم بالأعمال الدنيا فهم مثلهم في ذلك مثل الاحرار الذين يؤجرون للعمل بها من أهل البلاد.

مقارنة بين تجارنا

الرقيق الأوروبية والعربية

وعند التدقيق بين تجارة الرقيق العربية وبين تجارة النخاسةالأوروبية ؛ نرصد فروقا هائلة فتجارة العرب كانت محدودة الحجم يضيق نطاقها لينحصر في قلب القارة ، مارستها قلة من تجار لم يشاركوا في عملية المطاردة ، بينما كانت التجارة الأوروبية عملا مؤسسيا منظما وإحترافيا عال المستوى لها مؤسساتها وأساطيلها وقلاعها وحرسها ؛ إتسع نطاقها ليغطي الساحل الغربي بطول خمسة الاف كيلو متر ما بين موريتانيا والكونغو ، وزادت سفنه عن ثمانية آلاف أقلت علي أقل تقدير حوالى عشرين مليون إرتفعت بها تقديرات أخرى إلى ما بين ثمانين ومائة وخمسين مليونا من البشر مات أربعة أخماسهم خلال نقلهم عبر الاطلنطي ، بخلاف من هلك أثناء عمليات القنص داخل القارة اوفى مسيرتهم الحزينة الطويلة نحو الساحل لتصديرهم .

وتصور قلاع الأوروبيين لخدمة هذه التجارة على الساحل الغربي مدى الوحشية التي انغمست فيها هذه التجارة التي تحولت الى عملية إصطياد وحشية للعنصر الأسود ؛ يقول عنها مراسل ماتابيلي تايمز " ان اصطياد الزوج اصبح وسيلة للتسلية ،فكنا نحرق قرى لمجرد انها للوطنيين ... وكنا نطلق الرصاص عليهم لا لسبب الا لانهم سود "(228) ، وكان دفع عمليات المطاردة والقنص في عمق الداخل بتحريض ومباشرة الأوروبيين يُشعل الحروب والفوضى بين الافريقيين لتلبية احتياجات المجتمعات الغربية المتزايدة ، فكان هؤلاء المطاردون هم الرواد الاول للاستعمار .

ولم تجد معظم دول غرب اوروبا حرجا في الاتجار بالعبيد ، فالبرتغال رائدة هذه التجارة احتكرتها مدة ليست بالقصيرة في القرن 16 ؛ ثم لحق بها الاسبان والهولنديون في القرن 17 والفرنسيون والانجليز في القرن 18 م ؛ بل الادهى ان تداعت قيم الحرية الفرنسية وتناسى الاستعمار الفرنسي مبادئ الثورة الفرنسية في استهجان الرق عام 1793 وتحريمه عام 1848 في عهد الجمهورية الثانية ؛ وقامت قواته في نفس عام التحريم ببيع أسراها من ثوار وأهل " سيكاسو " (جنوب مالي) المسلمين بيع الرقيق ، انتقاما من سلطانها المجاهد " بادمبا " ، على نحو ما ورد آنفا.

وكانت للفرنسيين مراكز لبيع الرقيق يرفرف عليها العلم الفرنسي في غرب افريقيا ، واستشرى الفرنسيون في شراء العبيد ، وكانوا يدفعون 300 فرنك للرأس لتجنيدهم في الجيش ، لسد احتياجاته من الجنود في الفترة من 1890 الى 1895 لاستخدامهم في حروبهم الاستعمارية ، حتى قيل ان الاستعمار الفرنسي صناعة افريقية تم على ايدي هؤلاء المجندين من العبيد الافريقيين ابناء القارة ؛ وقد كلفت حروب الفرنسيين القارة الكثير من الضحايا ماتوا بأيدي ابنائها الذين حولهم الفرنسيون من طراند الى قناصين (229) ؛ وهلك خلال تلك الفترة اعداد كبيرة تزيد على ضحايا حروب قرن حسب تقدير المؤرخ الفرنسي كانال .

ويمكن حصر الفرق بين تجارة الجانبين في الاتي :

* ان التجارة الأوروبية مارست تمييزا عنصريا ضد السود باستهدافها العنصر الافريقي ؛ وتمييزاً دينياً ضد المسلمين باسترقاقهم اذا لم يعتنقوا المسيحية للخلاص من ربقة العبودية ؛ ولنا ان نشير الى ما حدث مع حسن بن محمد الوزان الزناتي " البربري الاندلسي الاصل(مواليد غرناطة) ، المتسمى " جيوفاني ليوني" المعروف بـ " ليو الإفريقي" المؤرخ الشهير

227 (تتغافل هذه النظرة عن استرقاق المسلمين لمسلمي الاصل .

228 (دافيدسون - ص 100 .

229 (- L " Afrique Noire , Canal .. نقلنا من نعيم قداح ص 219 .

الذى سجل رحلاته فى افريقيا فى كتاب اخرجته عام 1525م ؛ وتقول القصة ان القراصنة الأوروبيون اسروه عام 1518 وهو عائد من استانبول الى تونس ، ولم يبيعونه كبقية الاسرى بل قدموه الى البابا ليو العاشر ابن لورانزو دى مديتشى سليل الاسرة الشهيرة المعروفة باهتمامها بالتجارة العالمية .

فوجد فيه البابا ضالته وضالة كبار التجار لمعرفة مايجرى في قلب القارة المجهولة الواقعة خلف دول الشمال الافريقى المسلمة ، فأعتقه لما تنصر وسماه جيوفانى ليونى المعروف بـ " ليو الإفريقى " و رده الى افريقيا ، ويتردد انه عاد الى تونس ودفن بها مسلما (230) ، اما تجارة الرقيق العربية فلم تمارس عمدا تمييزا دينيا ابدا ، فقد شملت الابيض والاسود والمسلم والوثنى . * ان التجارة الاوروبية كانت منظومة عمل متكاملة اعتمدتها مجتمعات فى الغرب وبالذات المجتمع الامريكى جزءا من النظام الاجتماعى والاقتصادى اصبحت فيه هذه التجارة جزء من منظومة اقتصاديات العمل تخضع لاليات السوق يخلق فيها الطلب العرض ، فكلما ازدادت إحتياجات المجتمع شراها تفاقمت تجارة عبر الاطلنطى .

ولم يكن من السهل على تلك المجتمعات التخلّى عن الرق الذى اطلق إبطاله نيران الحرب الاهلية ؛ وبينما كان المجتمع فى الغرب هو الذى يستثير العرض بالطلب ، كان العرض فى الحالة العربية هو الذى يستثير الطلب وبالتالي فإن المجتمع ونظامه هما الجانى فى الحالة الاولى بينمت هو التاجر فى الحالة الثانية بما يوفره من عرض محدود لقلّة من الاثرياء يحتاجونهم للمساعدة فى الاعمال الخاصة ، ولم يكن الطلب عليهم بغرض استخدامهم فى منظومة اقتصادية ضخمة كما فى الغرب فكانت هذه التجارة عملا فرديا محدود السوق فى المجتمع الاسلامى لم يستدع الامر التوسع فيها ، وحتى عندما جند محمد على الافارقة فى الجيش اجباريا لفترة محدودة .

ولم يتم هذا عبر التجار العرب وانما دبرهم بالاتفاق مع زعماء قبائل جنوب السودان مقابل هبات من الاموال دون المساس بحريتهم ولفترة محدودة ومعاملة كريمة ، ويلقون عناية فائقة فكان يعتبرهم اعلى من الجواهر على حد وصفه ، وامعانا فى اراحتهم كان يستجلبهم لهم اسرهم حتى لايشعروا بالغربة ويؤجروا على خدمتهم بالجيش وكان يتم تحريرهم بعد انتهاء الخدمة واعادتهم الى بلادهم اذا رغبوا؛ فتجارة النخاسة الأوروبية على النحو المتقدم كانت سبة في جبين الحضارة الأوروبية لا يُبرئها منها قرارها عام 1807 بحاربة الرق ، فلم تكن تلك الصحوة صحوة ضمير أو وازع أخلاقى ، وإنما كانت بدافع انتفاء الجدوى الاقتصادية لطاقة الانسان (العبيد) كقوة محرّكة فى الصناعة ، بعد استبدالها بالالة سيدة الصناعة بتكلفة اقل من استخدام الانسان ؛ فقد تبين لدول الغرب بعد انتفاء الحاجة اليهم ان من الافضل ردهم الى المستعمرات واستبقائهم فيها لحسن استغلالها ، وفى الوقت نفسه قطع الطريق على انتقادات جماعات حقوق الانسان ، وإذا تحرينا الاسباب الرئيسية لقرار بريطانيا التصدي لتجارة النخاسة عبر الاطلنطى فلا نجد خالصا لوجه الانسانية ، وانما تشوبة الرغبة فى الإضرار بإقتصاد الولايات المتحدة ثأرا من حركة إستقلالها (عام 1780)

وإذا كان على الأوروبيين أن يتحملوا وزر اتساع نطاق تجارة النخاسة واطلاقها فى معظم انحاء القارة السمراء ، فلا نغفى الإفريقيين ومعهم تلك الفئة من تجار العرب من تحمل نصيبهم من اللوم ، فالعبودية كانت فى افريقيا جزءا من النظام الاقطاعى لممالكها ، استعبد فيه الحكام ابناء القبيلة وابناء القبائل المهزومة وكانوا يتعاملون بوحشية مع الاسرى لا مثيل لها يأكلون فيها لحومهم ، واكلوا لحوم البشر من القبائل الافريقية سبق وان هاجموا بعض مدن الاسلام فى الساحل الشرقى بعد ان هاجمها الاسطول البرتغالى .

وينقل دافيدسون صورا عن تلك الوحشية من خلال رؤية شاهد عيان هو الكوماندور بيكون قائد القوات البريطانية عند دخوله " بنين " عام 1897 ، الذى يصفها بمدينة الدماء وبقايا البشر المنتثرة فى كل مكان وتاريخها سفر ضخم لابشع انواع العبودية ؛ فعلى يمين مقر الملك شجرة مخصصة لصلب الضحايا وما زال عليها بقايا اثنين من القتلى معلقة ، نجم تحتها جماجم وعظام بشرية لضحايا كثيرين .

وينقل عن " ايهلى " بأن تجارة العبيد فى الكونغو كانت جزء من الاطار الاجتماعى للدولة ، تحولت مع نموها الى عملية

²³⁰ (المصدر باسيل دافيدسون إفريقيا القديمة تكتشف من جديد ص 41 و 54 .

صيد وحشية، وقارن بين الروايات الأوروبية عن ممارسات هذه التجارة فى القرنين 15 و 16 ، عندما كانت فى بدايتها ، وبين ما يجرى بعد مرور 300 او 400 عاما ، ليدلل على فظاعة ولعنة هذه التجارة " (231) .

ومن الخُفق الزج بشرائع السماء فى هذا الهراء ؛ فلا الاسلام ولا المسيحية مسنولتان عن هذه التجارة ، فالامر يتعلق بجانب سلبى للسلوك البشرى ، ولا يمكن بحال قبول اى تبريرات عندما تتعلق بالجانب الانسانى ومعاناته ، فالأوروبيون على سبيل المثال برروا تجارتهم بسند بيولوجي وثقافى بدعوى تدنى الافريقى عرقيا وحضاريا وفكريا ، واستغلوا شرائع الله على غير حقيقتها وفسروا الانجيل على غير مقتضاه وفى غير موضعه ، بالادعاء بان الافريقيين ينحدرون من سلالة متدنية هى سلالة " حام " الذى نعتة الانجيل بخادم الخدم وان تدنى وضعية الافريقين مرجعها تلك اللعنة .

ولا يمكن بحال تحميل المسيحية وزر سكوت المبشرين على انسياقهم فى تبرير فظائع تجارة الرقيق ودعوتهم العبيد للاستسلام وتقبل ما هم فيه كنوع من الخلاص ؛ فالمسيحية برينة من كل ذلك ؛ براءتها من دعوة البابا الكسندر السادس الى انتهاج العنف لتنصير الامم البربرية عام 1493م ، وما يلى صوراً لقلعة الميدا لحجز العبيد قبل ترحيلهم عبر الاطلنطى التى اصبحت رمزا للقهو والعبودية.

²³¹ (إفريقيا القديمة تكتشف من جديد - باسيل دافيدسون ص 59 - 61)

“ نباتا ” (نوباتا) على يد “ ألارا ” مؤسس الاسرة الكوشية الاولى 593 - 780 ق.م ، واستطاع خليفته “ كاشتا ” أن يضم النوبة السفلى للمملكة ، وفى عهد الفاتح العظيم “بى عنخ” ببيعنخى 747 - 716 ق.م غزى مصر ثم عاد الى نباتا ؛ وتصدت الاسرة الكوشية الحاكمة فى مصر فى عهدى “ تانوت أمانى ” وطهارقا (تهراقا) للأشوريين الذين حسموا الصراع فى النهاية لصالحهم ، وبسقوط طيبة ومنف فى أيديهم تقهقر طهارقا الى عاصمته “ نباتا ” ومات بها عام 644 ق م .

وفى الفترة 350 : 593 ق.م نقل الكوشيون عاصمتهم من نباتا الى مروى جنوبا لوفرة الحديد بها ولاسباب أخرى غير معلومة قد تكون امنية ؛ ومع انتقالهم الى مروى دخلوا مرحلة جديدة من الحضارة المروية ، وكان لها فضل تطوير الكتابة المروية التى تشكلت من 23 علامة ؛ واثناء الاحتلال الفارسى لدلتا مصر قامت ثورة فى الوجه البحرى فى عهد ارتكزركزس (464-424ق م) ، كانت الاشد خطرا والاكثر عنفا من بين ثورات المصريين لتحرير البلاد ، قادها الامير ايناروس بن بسمتيك وهو حسب عالم المصرات الكبير سليم حسن ، نوبى الاصل من ناحية امه ابنة تهراقا التى زوجها اباه الى نيكاو بن بسماتيك حاكم سايس (235)

قيام ممالك النوبة

(نوباديا - مقرة - علوة)

إنتهت مملكة كوش على ايدى عيزانا ملك اكسوم الحبشية عام 350 ق.م ، وقام على انقاضها ثلاث ممالك نوبية هى “نوباديا ” فى الشمال وعاصمتها فرس ، والثانية “ مقرة ” فى اقليم دنقلة وعاصمتها دنقلة ؛ وهاتان المملكتان اندمجتا فى وحدة بعد ذلك ، والثالثة “ علوة ” وعاصمتها سوبا جنوبى الخرطوم ، واستمرت هذه الممالك حتى دخول الاسلام .

النوبة و العهدين البطلمى والرومانى

غزى بطليموس الثانى بطلمى مصر النوبة ، فرده ملكها “ أركامون ” على أعقابها وتصالحا على إقامة منطقة محايدة فى النوبة السفلى تفصل مروى عن مصر ؛ امتدت من دابود حتى المحرقة عُرفت بأسم الاثنى عشر فرسخا (Dodekaschoinos) ؛ وخلال العهد الرومانى (استغرق 30 ق.م وحتى 651م) ، وقع الرومان اتفاقا مع المرويين يبقى سيادة مروى على النوبة مع خضوعها لحماية الرومان ، غير أن الملكة “ أمانى زيناس ” او ريناس ملكة “ كنداكى ” النوبية تمردت والحقت الهزيمة بثلاثة فيالق رومانية قادها “ بترونيوس ” ، وأسرت المنات من قواته واحتلت أسوان ، وكان من نتيجة ذلك توقيع اتفاقية ثانية تُعفى النوبة من الجزية الرومانية .

العهد المسيحى

دخلت المسيحية النوبة على ايدى التجار والرهبان المصريين الفارين من اضطهاد وبطش الرومان فى القرنين الأول والثانى الميلادى ، ولكنها لم تسود وبقيت الوثنية غالبية حتى عام 453 م وذلك طبقا لشهادة Maximinus قائد الحملة التأديبية الرومانية التى بعثها الامبرطور مرقيانوس ؛ وفى الفترة ما بين القرنين الرابع و السادس الميلادى شاعت المسيحية بفضل التبشير المصرى والرومانى ، فتحولت الممالك الثلاث نباته ومقرة وعلوة إلى المسيحية .

اعتنقت “ نوباديا ” المسيحية فى عهد الامبراطور البيزنطى جستنيان (527 : 565م) ، بجهود المبشر جوليان “ يوليان ” ؛ الذى أقنع سلوكو ملك نوباديا باعتناق الدين الجديد عام 543م ، ثم تقدمت المسيحية الى “ علوة ” عام 580م ، وبينما انتشر المذهب المونوفيزى فى نوباديا وعلوة بضغط من الامبراطور تيودور ، بينما أعتنقت المقرة المذهب الديوفستى ثم اليعقوبى بعد قيام العرب بطرد الروم من مصر.

²³⁵ موسوعة مصر القديمة الجزء 12 التمهيد ص 13 و 111 و 121 .

تقدم الاسلام الى النوبة

تقدم الإسلام من مصر إلى المنطقة على نفس الطريق الذي سلكته المسيحية ؛ وكان اول احتكاك للنوبة بالاسلام عندما أرسل عمرو بن العاص عام 21 هجرية 641 م / نفس العام الذي فتح فيه مصر حملة بقيادة "عقبة بن نافع" لاستكشاف المنطقة ففوجئ بمقاومة عنيفة من النوبيين فصالحهم وقفل راجعا ، وتوقفت محاولات المسلمين التوغل في النوبة السفلى حتى نهاية عهد عمرو في سنة 31 هجرية 651 م .

نقضت النوبة عهدها مع المسلمين بعد رحيا عمرو وتولى " عبد الله بن أبي سرح " حكم مصر ، فقاد عبد الله حملة حاصر فيها "دنقلة" عام 652 م ، أظهر فيها النوبيون مقاومة عنيدة ومهارة فأنقذ في إصابة عيون المقاتلين بالسهم ؛ وهم معروفين منذ عهد الفراعنة بمهارتهم في رمي النبال ؛ وينقل البلاذري عن شاهد عيان ان النوبيون رماة مهرة لا يخطئون الهدف ، وقد أصيبت في المعركة عيون ثلثة من التابعين منهم معاوية بن حديج ، وهو ما حدا بالعرب لأن يطلقوا علي النوبيين رُماة الحدق (236) ، وعن تلك الموقعة يقول الشاعر:

ولم تر عيني مثل يوم دنقلة والخيل تعدو والدروع مثقلة

الصلح بين العرب والنوبة - معاهدة البقط

ولما ضاق النوبيون من حصار العرب وضر بهم دنقلة بالمنجانيق ، طلب ملكها قليدوروث الصلح وعقد الطرفان صلحا عُرف بـ " البقط " PACTUM ، وتعنى بالرومية الاتفاق ؛ وتقضى المعاهد بان تقدم النوبة عدد 362 من الرقيق سنويا للعرب ، ولوالى مصر 40 عبدا ، ولحاكم كورة اسوان الذى يتولى تسليم الرقيق عشرون عبدا وخمسة عبيد الى مبعوث الوالى الذى يجيء الى اسوان عبدا واحدا لكل شاهد من الشهود العدول على المعاهدة وعددهم اثنا عشر ، وتقدم مصر بالمقابل الف اردب من الغلال ويهدى للسفراء ثلاثمائة اردب .

وقضت البقط بحرية المرور لا الإقامة لمواطنى كل طرف فى ارض الآخر مجتازين غير مقيمين مع ضمان الامن لمواطنى كل طرف فى ارض الآخر ، كما تضمنت نصا ينظم ايفاد كهنة الكنيسة المصرية الى النوبة وحماية مسجد دنقلة ، والمعاهدة لم تكن معاهدة اذعان وانما مصالحة او هدنة كما يسميها خرداذبة فليست خراجا ولاجزية كما يقول البلاذري (237).

محاولات النوبة للتوصل من البقط

حكمت المعاهدة العلاقات على مدى ستة قرون لم تنقطع فيها محاولات النوبة نقضها والتخلص منها ، وتزامنت المحاولات مع تغير الدول فى مصر لتختبر النوبة جدية الدولة الجديدة فى التمسك بها ، لكن الدول المتعاقبة لم تنهون فى شأن البقط فأخذت النوبة بالحسنى تارة وبالشدة تارات بحملات متعاقبة ووصل الامر ببعض هذه الدول ان دفعت بالعديد من القبائل العربية للاستقرار بالنوبة لضمان خضوعها ، ولما قويت هذه القبائل وإندمجت فى المحيط البشرى زاد نفوذها وتصاهرت مع ملوك النوبة فأل اليها الحكم بالوراثة فتمكن الاسلام من عرش النوبة .

بدأت محاولات التوصل من البقط فى عهد المعتصم العباسى على يد الملك زكريا بن يوحنا بضغط من ابنه جورج ، فمنع النوبة البقط لمدة 14 عاما بدعوى صعوبة الوفاء بالتزاماتها فيما يتعلق بتسليم اعداد العبيد المنصوص عليها فى الاتفاق للمسلمين ، فقد كان التزاما ثقيلًا بتدبيره من ابنائها ويضر بالاقتصاد لاستنزافه الايدى العاملة (238) ، ويستلزم الوفاء به الاغارة على الآخرين حسبما ذكره البلاذري ، وسعى زكريا بن يوحنا للتفاهم مع الخليفة فأرسل اليه ابنه ليفاوضه ، قاصدا ان يشاهد ولده العنيد بنفسه قوة دولة الخلافة ؛ وكان الخليفة كريما معه فوافق على اعفاء النوبة من سنوية اداء البقط وقصرها على مرة كل ثلاثة اعوام بدلا من كل عام ، على ان يستمر المسلمون فى الوفاء بالتزاماتهم سنويا ، وزيادة فى الكرم اطلق سراح السجناء

236 (الثقافة العربية فى افريقيا ص 279 .

237 (المسالك والممالك ص2 نقلًا من الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا.

238 (السودان عبر القرون ص 33 - د. مكي شيبيكة

النوبيين ، ولكنه رفض مطلبه سحب الحامية العربية من مدينة القصر.

النوبة والسيادة المصرية

الدولة الطولونية

وفى عهد الدولة الطولونية هزمت الحملة التى ارسلها احمد بن طولون بقيادة عبد الله بن عبد الحميد العمرى لتأكيد سيادة مصر على النوبة جورج ملك النوبة ، ومدت الحملة مهمتها بإخضاع اقليم البجا للسيطرة على مناجم الذهب وتأمين الحدود ، وشارك فى الحملة قبائل ربيعة وجهينة العربيتين اللتين سيكون لهما شأنًا فى مستقبل المنطقة .

الدولة الاخشيدية

ومع قيام الدولة الاخشيدية اغارت النوبة على الواحة الخارجة عام 951م ، ثم على اسوان عام 956م ، فأرسل الاخشيد حملة تأديبية بقيادة ابنه انوجور بن الاخشيد عام 957م هزمت النوبيين ثم تقدم حتى ابريم ؛ وفى اواخر عهد كافور أغارت النوبة على مصر وتقدمت حتى ادفوا .

الدولة الفاطمية (تغلل القبائل العربية)

مع قيام الدولة الفاطمية 969م على انقاض دولة الاخشيد ، امتنعت النوبة ثانية عن اداء البقط ، ولما علم جوهر الصقلى بإغاراتهم على جنوب مصر فى اواخر عهد الاخشيديين أرسل حملة بقيادة احمد بن سليم الاسوانى اخضعت جورج ملك النوبة . وفى اواخر عهد الدولة الفاطمية انقلبت العلاقة مع النوبة الى ود ومصالحة رغم عدم اسلام ملوكها ، بينما كان جند النوبة فى الجيش الفاطمى من المسلمين محبى آل البيت ومن اكبر المؤيدين لدولتهم بمصر ، وكان الاسلام قد بدأ فى الانتشار بين النوبيين فى العهد الفاطمى مع انتشار القبائل العربية فى المنطقة . ويذكر المؤرخ ابن سليم الاسوانى وان كثرة من النوبيين اعتنقت الاسلام ويتمسكون بلغتهم ، وان العرب بالمنطقة كانوا فى حالة استقرار واستقلال ويتحدثون النوبية ويضيف ان المسلمون توغلوا فى الارض السودانية جنوبا حتى سوبا عاصمة علوة للاتجار ولوجودهم الدائم بها اصبح لهم فيها رباط .

دولة المماليك

وفى عهد الدولة المملوكية وتزامنًا مع قيام الحروب الصليبية ، غلبت الروح الصليبية على ملوك النوبة فتعاطفوا مع الصليبيين رغم غياب العلاقة بينهما ، ودفعتهم روح التعصب العقيدى للتعاطف مع الاقباط فيما تعرضوا له من إضطهاد بيبرس بعد اتهمه لهم بحرق بعض احياء القاهرة عام 1264م (239) ؛ و زاد الامر سوءا ضيق النوبيين من انتشار العرب بمناطقهم واقامتهم دولة اسلامية فى النوبة السفلى تحت حكم بنى كنز ؛ وسيطرة المماليك على عيذاب المنفذ الوحيد لتجارة النوبة الخارجية بما فيها سيطرتهم على الطرق المؤدية للاماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين . لهذه الاسباب اغار النوبيون على جنوب مصر لشغلها عن الصليبيين فى الشام فهاجموا أسوان وخربوا السواقي واسروا عدد من السكان سخرهم فى بناء كنيسة بدنقلة وهاجموا ميناء عيذاب (التابع للمماليك) عام 1272م وقتلوا القاضى المصرى والوالى الحدرى التابع لهم ونهبوا المتاجر والاهالى (240) .

رد المماليك بغنف فأرسل السلطان " الظاهر بيبرس " عام 1276م حملة بقيادة والى قوص ارسل معها شكندة ابن اخت الملك المعارض الفار بالقاهرة ؛ ونصرتة على خاله الملك داوود الذى فر الى "علوة " بعد هزيمته ، وتوجت شكندة ملكا بدلا منه . صادرت الحملة ممتلكات الملك الفار واتباعه وأرغمت دنقلة على التنازل عن المنطقة الشمالية (نصف أراضيها) الى مصر مع فرض جزية دينارا عن كل عاقل لرفض النوبة عرضا بالاسلام ، ونص الاتفاق مع الملك الجديد شكندة بأن يحكم باسم

²³⁹ (المرجع : د. مكى شبكية _ السودان عبر القرون ص 42 .

²⁴⁰ (السودان عبر القرون ص 43 د. مكى شبكية.

السلطان نانبا عنه ويرسل الى مصر نصف ما يجمعه ويطلع السلطان على أحوال البلاد ويمنع الاعراب من الاستقرار في النوبة . ومنذ ذلك التاريخ احتفظ المماليك بوجود دائم في النوبة فأبقوا بها حامية ، وبذلك المعاهدة دخلت النوبة في تبعية مطلقة لمصر واصبح ترسيم ملوكها يتم على اساس الولاء المطلق للسلطان المملوكى فى القاهرة ورهنا بارادته ، وتشير المراجع إلى أن المكاتبات السلطانية المملوكية أصبحت تخاطب ملك النوبة بـ "النائب" دليلا على التبعية .

وتعاضمت مكانة السلطان حتى ان انقلابات القصر فى النوبة التى تتم بعيدا عن ارادته ما كانت تستطيع ان تمارس شرعيتها بدون استرضاء الارادة السلطانية ، وإمتد نفوذ السلطان الى علوة (الابواب) ايضا التى كانت تسعى لإسترضاءه وتجنب غضبه ، فعندما لجأ اليها داوود ملك النوبة الفار قبض عليه ملك الابواب وارسله الى القاهرة حيث مات في المعتقل ، وفى ظل التطلع الى مصر كانت خلافات مقرة وعلوة تُحال لتحكيم السلطان بالقاهرة (241) .

وفى عهد قلاوون الذى بلغ فى عهده النفوذ المملوكى ذروته ارتقى مسلمو البيت النوبى لأول مرة العرش ، فبعد إغتيال شكندة عام 1277 م لم يطمئن قلاوون (خليفة بيبرس) الى " ببرك " (خليفة شكندة) فأرسل اليه حملة بقيادة " ايدمر " قتلته ونصبت "سماسون" ملكا بدلا منه بنفس الشروط المنصوص عليها قبلا مع شكندة ، وكان "سماسون" داهية مارس المكر والخداع منذ اعتلائه العرش متأرجحا ما بين الولاء والتمرد ، وانتهت مؤامراته بسقوطه ، وقصة هذا الملك المخادع هى المخاض الى اسلامية المملكة ، فبعد اعتلائه عرش دنقلة على اسنة الرماح المملوكية شجر بينه وبين ملك الابواب فى علوة الشمالية خلاف إحتكم فيه الاخير الى السلطان قلاوون، وبعد سماع السلطان سفارتا الطرفين تأكد من صحة الشكوى ، فأرسل الى ملك " الابواب" مبعوثا مرورا بارض البجا لتجنب العبور فى ارض سماسون لعدم اطمئناته الى خداعه ، فلما علم سماسون بالمهمة قبض على مبعوث السلطان عند عودته وكاد ان يقتله لكنه تراجع لخوفه من العقاب واعاده الى مصر ، فأرسل السلطان عام 1287م حملة بقيادة الامير عز الدين ايدمر والى قوص ؛ شاركت فيها القبائل العربية كنز وبنى هلال واولاد ابى بكر واولاد عمر واولاد شيبان وشريف لتأديب سماسون انتهت بفراره ؛ وقام عز الدين ايدمر بتنصيب ابن اخت الملك طبقا للعرف النوبى ملكا وبقي معه فى النوبة مندوبا ساميا مقيما بأمر قلاوون.

وبعد عودة الحملة انتهز سماسون غياب الامير ايدمر عن دنقلة وحرّض النوبيين على الملك الجديد الذى فر الى السلطان فأعاده عام 1289 م مع حملة من 40 الف رجل ، لكنه مات فى الطريق فعين السلطان ابن اخت الملك المتوفى " داود " حاكما للنوبة ؛ وعند وصول خبر الحملة الى سماسون فر من جديد بعدما تخلى عنه مؤيدوه ، ودخلت الحملة دنقلة بدون قتال بطلب من الاسقف وعادت بعد ان تركت قوة مقيمة.

ولكن سماسون نجح فى العودة بمعونة مؤيديه الذين سبق ان خذلوه وقتل الملك الجديد وقبض على الامير المملوكى فى دنقلة ورجاله ، وارسلهم الى القاهرة محملين بالهدايا ومعهم الالتزامات التى على النوبة طالبا العفو فوداعه السلطان وثبته لانشغاله بالاجهاز على عكا اخر معاقل الصليبيين فى الشام ، وبوفاة قلاوون امتنع سماسون سنة 1291م عن الوفاء بالبقط والجزية وطلب من السلطان الجديد خليل بن قلاوون تاجيلها الى العام التالى ، متعللا بخراب البلاد من جراء الحملات المملوكية ولكن تهديد السلطان ووعيده جعله يرتهن والدته واهله فى ضيافة السلطان بالقاهرة حتى يفى بالبقط .

وبعد وقت قصير طلب عودة والدته قائلا " ان ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء " (242) ؛ وضمن رسالته شكوى ضد ملك الابواب فى علوة ، فضاق السلطان ذرعا بمراوغته فاستغل ثورة " أنى" احد امراء البيت النوبى وارسل حملة بقيادة الافرم اعادت الامور الى نصابها وفر سماسون واختفى الى الابد ولم يُسمع عنه بعد ذلك ، واستمرت الحملة فى مطاردة الامير الثائر الذى التجأ الى بلاد " الفونج " على مسافة 33 يوما جنوبى دنقلة .

أقام السلطان الامير النوبى " بدمة " المقيم بالقاهرة ملكا خلفا لسماسون ، وحلف النوبيون قسم الولاء له فى صيغة ولاء اصيل للسلطان بالقاهرة بقولهم " لولا مولانا السلطان ما اطعنك ومتى تغيرت ازلناك ونحن نرضى ان يقيم مولانا السلطان (علينا)

²⁴¹ (المسالك والممالك ص2 نقلًا من الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، د. حسن احمد محمود ص284.

²⁴² المرجع : د. مكى شبيكة - السودان عبر القرون ص 47-48 ، وقد اوردنا هذا النص لمداوله عن مكانة المرأة فى النوبة ولعلنا نجد فى ذلك تفسيرًا للنظام الامومى فى ارث الملك الذى ينتقل الى ابن اخت الملك ؛

ملكا فلاحا او جبليا فان بلاد النوبة مالها ملك الا مولانا السلطان ونحن رعيته " ، وبذلك إستقرت العلاقات على نحو من الابدية ، واصبحت مصر الملاذ والملجأ للنوبة عند الخطر ، فاستجد الملك " أمى " بالناصر قلاوون لرد العربان فاغاثه بحملة استغرقت سنتى 1306 - 1307م لتأديب العربان على ما احدثوه من فوضى فى الاقاليم السودانية ، وقطعهم الطرق على الممتلكات المملوكية فى برية عيذاب وسواكن .

وتوغلت الحملة حتى جبل أذينات على شاطئ نهر عطبرة وواصلت مسيرتها حتى جبلا كسلان والسوس فى بلاد التاكة ، حيث قاتلوا الهلنكة (الحنقة) فى دلتا القاش ، وعادت مجتازة اربينات وبلاد الابواب الشمالية عبورا الى اسوان ثم قوص ، واکرمها ملك الابواب اثناء عبورها دنقلة بمناسبة زوال مخاوفه من وصولها الغرب من وراء حدوده الجنوبية التى كانت سببا فى عدم ذهابه لملاقاتها حسب طلبها لكنه اغدق عليها الزاد فزودها بمنتا (200) رأس من الابقار والاغنام وكمية من الذرة كانت فى حاجة اليها بعد نفاذ مؤنتها فى تلك الرحلة الطويلة ؛ وهذا الملك كان دائما ما يخطب ود السلطان وتجديد الولاء له ودائما ما كان حريصا على ان يخبره بأخبار مطاردة الثائر النوبى انى .

اسلام ملوك مقرة

بعد إغتيال الملك " أمى " ، تولى اخوه " كرنيس " الحكم عام 1311م ، ولما إمتنع عن الوفاء بالقبض عام 1315 م ، ارسل السلطان حملة طاردته الى مملكة الابواب وأقام بدلا منه الامير عبد الله برشمبو المسلم ملكا عام 1316م ، وعندما علم كنز الدولة المسلم ذوى النسب المختلط بالعرب بما حدث فى النوبة وهو محتجز فى القاهرة ، طالب بالعرش لاحقيقته طبقا لمبدأ التعاقب على العرش النوبى باعتباره ابن اخت الملك المخلوع كرنيس الذى أیده من منفاه فى طلبه مستلهما رغبة السلطان فى تنصيب مسلم العرش .

وازاء إصرار السلطان على تنصيب عبد الله برشمبو ، توجه كنز الدولة بدون اذن السلطان الى دنقلة للاستيلاء على الملك منتصرا بالنوبيين والعرب ، فوصل " الدر " عام 1317م والتف حوله النوبيون ، فحرض السلطان الملك المعين برشمبو للقبض عليه لكن كنز الدولة تمكن من هزيمته وارتقى العرش ، فاطلق السلطان الناصر سراح " ابرام " اخو الملك المخلوع كرنيس ، وكلفه بالقبض على كنز الدولة وابن اخته ، ووعده بإطلاق سراح اخيه كرنيس المعتقل فى القاهرة واعادته الى عرشه ، و يُروى ان كنز الدولة استسلم طائعا لترحيله الى القاهرة مقيدا حسب رغبة خاله ابرام لكن موت الاخير والتفاف النوبيون حوله حال دون ترحيله ، وتولى العرش من جديد عام 1317 م ؛ ولم يستسلم السلطان فبعث الى دنقلة بحملة جديدة عام 1323م لاعادة كرنيس الى العرش ، لكن موت الاخير فى الطريق قبل ان يصل النوبة ثبت كنز الدول كملك رغم انف السلطان (243).

امارات القبائل وزوال السلطة المركزية

بعد تولى بنو كنز العرش وانتشار القبائل العربية فى بلاد النوبة السفلى (مقرة - دنقلة) ، تلاشت سلطة ملوك النوبة تحت ضغط مناكفة تلك القبائل التى اسست امارات صغيرة مستقلة ، ولكن مطاردة المماليك و قبيلة الهوارة للكنوز الذين تركزوا حتى ذلك الحين فى محيط اسوان دعتهم للانتقال الى النوبة السفلى .

هجرة القبائل

رغم تقييد البقطة هجرة المسلمين الى النوبة وإستثناء التجار من هذا الحظر وعدم حرص النوبيون على التشدد فى تطبيق حظر الهجرة على فئات اخرى لاسباب لانعلمها قد يكون ورائها منافع إقتصادية ؛ اغرى جماعات من بنى أمية على الفرار الى النوبة واراض البجا وساحل البحر الاحمر والاستقرار بهذه المناطق عقب سقوط الدولة الاموية .
وبدءا من القرن التاسع الميلادي لحقت بالنوبة بعض قبائل عربية فرت من مصر بسبب تدهور الحال او تحت ضغط النظم

²⁴³ هناك تضارب بشأن عودة كرنيس للملك على يد الحملة وهروب كنز الدولة من دنقلة ثم عودته للملك بعد انسحاب الحملة حسب رواية د مكى ص 51 ؛ وعليه ارتأينا السرد على ما هو عليه طبقا لمراجع اخرى نعتقد انها اقرب الى المنطق فليس من المعقول ان يقاوم كنز الدولة خاله الملك السابق كرنيس عند عودته وهو الذى استسلم لخاله ابرام من قبل دون قتال وهو يعلم انه سيقوم بترحيله مقيدا الى القاهرة .

فى عهود المعتصم العباسى والمستنصر الفاطمى والمماليك ؛ عندما قرر المعتصم التخلص من القبائل العربية الثائرة فى الجيش وإستبدالها بالترك فدفع بها الى النوبة ، ومثله فعل المستنصر الفاطمى اشد السلاطين عداءا للبدو المشاغبين صعبى المراس ، ويحدثنا المسعودى عن توطن جماعات من عرب قحطان وربيعة وقريش فى ارض اشتروها فى النوبة السفلى ، تنازعوها مع ملوكها الذين قاوموا الصفقة حتى لا يقيم العرب بينهم وفى اراضهم بحجة ان رعاياهم عبيد لا يحق لهم بيع الاراضى ، وحسم النزاع حاكم اسوان لصالح قبائل العرب ، ويرصد "ابن سليم الأسوانى" فى زيارته للنوبة آخر القرن العاشر الميلادى قوة وضع العرب فى المنطقة ، فيقول " يتصرف المسلمون فيما بين أسوان والشلال الثالث تصرف الملاك وأصحاب البلاد ، بعدما إندمجوا فى حياة الناس وتعلموا لغتهم واعتنقوا عاداتهم ، ويزيد بأن المسلمون توغلوا داخل الارض السودانية حتى سوبا عاصمة علوة لغرض التجارة حتى اصبح لهم رباط خاص بهم فيها " (244) .

ثانياً التخوم بين الصحراء الغربية مناطق البجا وساحل البحر الاحمر حتى مصوع وزيلع حملة ابن الحجاب

منذ القرن 8 م ، بدأت عناصر البجا العربية وهى غير مسلمة انذاك فى الظهور فى الصحراء بين النيل والبحر الاحمر ، وكانت تُهاجم صعيد مصر من حين لآخر ، فارسلت مصر لتأديبهم حملة عام 725 م بقيادة ابن الحجاب ، صالحهم على ان يدفعوا 300 رأس من الابل ويجتازوا الريف غير مقيمين والا يقتلوا مسلما او ذميا والا يأووا عبيد المسلمين الفارين ، وترك امر التجارة حرا دون قيد وان يظل وكيلهم فى الريف رهينة فى يد المسلمين.

حملة المأمون العباسى بقيادة عبد الله بن الجهم
ولكن تجدد إغاراتهم على اسوان ، جعل المأمون العباسى يبعث عبد الله بن الجهم على رأس حملة لتأديبهم عام 841 م ؛ جعلت بلاد البجا من حد اسوان الى دهلك (مصوع) ومعهم باضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة ؛ وجعل رئيسهم كنون بن عبد العزيز واهله عبيدا لامير المؤمنين ، وفرض عليهم خراجا قدره 300 دينار ومئة رأس من الابل وعاهدهم على ان يحترموا الاسلام والا يعينوا احدا على المسلمين ؛ والا يقتلوا مسلما او ذميا حرا او عبدا فى ارض البجا او مصر او النوبة ، وعليهم تأمين حياة المسلمين المجتازين لبلادهم للتجارة او الإقامة ؛ وإذا ما دخلوا صعيد مصر مجتازين او تجارا لا يظهروا سلاحا ولا يدخلوا المدائن والقرى ، والا يهدموا مسجدا ابتناه المسلمون بأرضهم فى صبيحة وهجر ، وعلى ملكهم السماح بدخول عمال امير المؤمنين لقبض صدقات من من يُسلم من البجا .

هجرات القبائل العربية الى البجا واسلام العلاقى وعيذاب وسواكن

اجتذبت التجارة والمراعى والذهب قبائل العرب الى ارض البجا منذ الفتح العربى الى مصر ، فوفدت قبائل بلى وجهينة ولحق بهم عبر البحر الاحمر فريق من هوازن عُرفوا فيما بعد بـ " الحلانقة " اقاموا مع البجا فترة من الزمن ، ثم رحلوا الى اقليم التاكة (كسلا) ، وجاء فى اعقابهم امويون فارون استقروا فى ميناء باضع ، وتبعتهم قبائل عربية مُهاجرة من مصر فى عهدا المعتصم والمستنصر تخلف بعضها فى النوبة .

حملة المتوكل على البجا

ولاغارة البجا على مناجم الذهب فى العلاقى ؛ سلط عليهم المتوكل عام 854 م محمد بن عبد الله القمى الذى انتصر عليهم بمساعدة قبائل ربيعة ومضر واليمن التى اصطحبته من العلاقى فانصاع على بابا زعيم البجا للصالح وعرض دفع الخراج ، والا

²⁴⁴ (د. مكى شبكية - السودان عبر القرون . ص 38 .

يمنع المسلمين من استغلال مناجم الذهب ، ووافق القمى وارسل على بابا رئيسهم الى الخليفة في سر من رأى عاصمة العباسيين ليتعرف من مشاهداته خلال الرحلة على قوة المسلمين فأذن وأكرم الخليفة وفادته .

حملة ابي عبد الرحمن العمرى واستقلاله (عهد احمد بن طولون)

وفى عام 868 م ارسل احمد بن طولون حملة بقيادة ابي عبد الرحمن العمرى اشترك فيها كثير من العرب خاصة ربيعة وجهينة للبحث عن الذهب وتأمين الحدود ، فوصل العمرى اقليم شنقير وهاجم قبائل من الشام مستقرة في منطقة إندند استقوت بها النوبة ضده ؛ ولما استشعر ابن طولون قوة العمرى الذى اقام هناك ؛ ارسل له جيشا هزمه العمرى الذى رد على الهجوم بمهاجمة ادفو ثم انسحب الى منطقة نفوذ في المناجم بالعلاقى ليُعِيد إخضاع ربيعة التى انشقت عليه ، واغتيل بعد ذلك على يد قبيلة مضر ، وللعمرى دور كبير في نشر الاسلام في منطقة البجا .

امارة ربيعة وتحالفها مع البجا

بعد اغتيال العمرى انفجر خلاف على مناجم الذهب بين عناصر ربيعة وجهينة المنتشرة حول اسوان ؛ حسمته ربيعة بدعم من اصهارها البجا لصالحها ، وكانت ربيعة قد اسست امارة عربية في منطقة المناجم يشير اليها المسعودى الذى زار مصر عام 940 م فيقول " ان اميرها ربيعة ابي مروان بشر بن اسحاق بن ربيعة يتحكم فى جيش من 30 الف حدرى (حضرى) على ابلهم ، و3 الاف فارس من ربيعة ، وبقوتهم تغلبا على من عاداهم" ، ونتيجة نزاع داخل ربيعة في العلاقى وعيذاب ، قُتل بشر بن اسحق مؤسس الامارة وخلفه ابن عمر محمد بن على المعروف باسم ابن يزيد اسحق ، ويشير المسعودى الى انتشار الاسلام فى المنطقة حتى جزيرة سواكن .

وكان الفاطميون على علاقة طيبة بهذه الدولة ، عرفانا بدورها في نشر الاسلام ولمساعدتها لهم فى ردع الاعراب الذين اثاروا الفوضى فى النوبة ، عندما استعان الحاكم بامر الله عام 1006م باميرها ابي المكارم هبة الله فى مطاردة متمردى بنى امية الذين قدموا من القيروان بزعماء ابو ركوة لغزو مصر ، وانضمت اليه قبائل كتامة وبنو قرّة فى برقة وانتصروا على والي الحاكم بامر الله ، ولكن الجمع تفرق بعد هزيمتهم فى الفيوم لتخلى بنو قرّة عنهم ، وفر ابو ركوة الى النوبة حيث اعتقله ابو المكارم ، وتقديرا لهذه الخدمة اسبغ الحاكم بامر الله على ابو المكارم لقب كنز الدولة فتسمت القبيلة بالكنوز منذ ذلك التاريخ .

صلاح الدين والجند السودانية وكنز الدولة

ساند الجند السودانية (النوبية) المتيمين فى حب آل البيت الفاطميين فى نزاعهم مع صلاح الدين وحاولوا اقصائه من الوزارة لخلافه مع الخليفة الفاطمى العاضد (245) ، وبعد هزيمتهم عام 1172م انسحبوا الى الصعيد ، واستبدلهم صلاح الدين بالترك والديلمية فى الجيش ؛ ورغم تأييد كنز الدولة (النوبة) لصلاح الدين فى حربه ضد الجند السودانية الا ان ذلك لم يشفع له وأخذ صلاح الدين بموقف الجند السودانية ؛ وارسل اخيه تورانشاة ليقيم فى النوبة للحد من نفوذ كنز الدولة ، ولم يستقر بها تورانشاة لفقرها واقطعها احد قواده وعاد.

ولما ثار كنز الدولة وقتل والى صلاح الدين فأرسل الاخيراخاه العادل على رأس جيش قتل كنز الدولة واجلى قبيلته من البجا الى النوبة حيث اندمجوا في السكان .

²⁴⁵ (لم يكن ملوك النوبة قد اسلموا حتى ذلك الحين وان كانت هناك قطاع قد اسلم من الاسرة ، ويبدو ان هؤلاء الجنود هم من الذين تم استخلاصهم من البقظ واسلموا وتعاطفوا مع الفاطميين باعتبارهم من آل البيت ، ومن المعلوم ان الدولة العباسية والطولونية والاخشيدية استخدمت النوبيين فى الجيش فالمعصم جند 40 الف جندى ؛ واستكثر كافور الاخشيدي والمستنصر الفاطمى منهم فى الجيش لانتساب والديهما الى النوبة .

حكم المماليك سواكن وعيذاب

اتخذ الفاطميون والمماليك من بعدهم ميناء عيذاب في ارض البجا معبرا للتجارة والحجيج خلال الحروب الصليبية لتجنب المرور عبر سيناء ، ومع اتساع النفوذ المملوكي عين المماليك بجانب الوالى الحدرى واليا وقاضيا مصريين ، وفي عام 1265 م ارسل بيبرس حملة الى سواكن تركت بها قوة مملوكية ، وكانت هذه الحملة بهدف تأديب حاكم سواكن ودهلك احتجاجا على سوء معاملته للتجار المصريين ومصادرتة اموال من توفى منهم .

وفي عام 1272 م تمردت النوبة على المماليك وهاجموا عيذاب وقتلوا الوالى والقاضى المصريين ونهبوا وقتلوا عدد من اهلها ومن غير المعلوم رد فعل المماليك ، وفى عامى 1306 و 1307 م استنفر النوبيون الناصر قلاوون ضد فوضى العربان بالمنطقة فارسل حملة واصلت سيرها حتى سواكن وعيذاب ثم حدود الحبشة ودخلوا بلاد الابواب فى علوة في طريق عودتها كما سبق الذكر .

ولاية الكشاف قوصوة (كوسوفو) فى النوبة

أضحت النوبة نهبا للقبائلية بعدما اضعفتها ضربات المماليك والقبائل العربية ، وعندما قامت الحرب بين قبيلتنا الجوابرة والغربية ، والاولى تتبع مملكة عمارة دونقس من ارض الفونج ، إستنجدت قبيلة الغربية بالسلطان العثمانى سليم الاول الذى كان قد احتل مصر انذاك ، فأنفذ حملة عام 1520م بقيادة حسن قوصى من قوصوة (كوسوفو الحالية) أحتلت قصر الدر واضطرت الجوابرة الى التقهقر الى اقليم دنقلة ، واستقر القوصوى فى النوبة وحكمها ونسله من بعده حتى الجندل الثالث ، فيما سمي بولاية الكشاف تحت رعاية الخلافة العثمانية حتى 1903؛ ويذكر نعيم شقير أن عمارة دونقس ملك الفونج فى السودان تخوف بعد هذه الحادثة من التوسع العثمانى فى اراضيه ، فنصح الامام السمرقندى بأن يرسل الى السلطان سليم يعلمه بانهم ينحدرون من قبائل عربية صميمة تدين بالاسلام .

تقويم عام المد الاسلامى فى النوبة الشمالية والتخوم

مد الاسلام

رغم أن اهل مقرة كانوا عنيدي المقاومة ويتميزون بالشجاعة والصلابة والشراسة فى القتال ، الا انهم كانوا ميالين بطبيعتهم للاخلاق الى السلم ولا يستنهضوا عداء أحد ، ولذا قاوموا بعناد المد الاسلامى فى البداية عندما تقدم غازيا ، بينما لقي مده السلمى قلوبا مفتوحة مؤسسة على قاعدة من الايمان لعقيدة سماوية هى " المسيحية " فكان من السهل البناء الاسلامى عليها ، وقد استغرق اسلام مقرة وقتا طويلا حوالى ستة قرون بسبب تشدد المملكة أيام قوتها ، مما اثقل هجرة العناصر الاسلامية اليها فى القرون الاولى وأخر معه الامتزاج العرقى والثقافى لقرون الى ان لفظت مصر القبائل المشاغبة الى النوبة فقامت بالمهمة فى نشر الاسلام ؛ وكان الاسلام رغم هذا فى مد هادىء خلال القرون الست الاولى بفضل التجارة الذين استثنتهم البقظ من حظر الإقامة وبفضل إستقرار القبائل العربية وما استتبعه ذلك من تزواج عرقى مع اهل البلاد ، وساهم النوبيون العائدون من مصر بعد انتهاء خدمتهم العسكرية فى جيوشها الدولة فقد كانوا دعاة للاسلام بين اهلهم (246) .

ومع وصول مسلمو البيت الملكى النوبى الى سدة الحكم ، اقبل النوبيون على الاسلام بكثافة للتخلص من عبودية النظام الاقطاعى الذى يستعبد الملك بمقتضاه رعيته ويتصرف فيهم تصرف العبيد ويحرمهم من تملك الارض ، ودخلت المملكة دائرة الاسلام فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى واكتمل اسلامها بدخول جمهرة كبيرة فى العقيدة فى القرن 15 ، وتحولت " مقرة " الى مملكة إسلامية .

الوضع الثقافى

لم يجتذب الاسلام فى العهود الاولى مكونات حضارته الى النوبة على نحو ما حدث فى الغرب الافريقى ، لاسباب تتعلق بطبيعة العناصر البشرية سواء المقيمة او الوافدة فهما على السواء مجتمعات بدوية رعوية الطابع ؛ عاشت على ارض قاحلة جديبا الثقافية ، فالنوبيون أهل البلاد استكانوا لازمة حضارة بعد تردى حضارتهم ، على غرار ما كان عليه الحال فى غرب افريقيا قبل الاسلام ، لتأكل ثقافتهم القديمة حسما تشيراليه اوراق النسبة النوبية (تأريخ البلاد) ؛ وهو نفس حال القبائل العربية المهاجرة التى كان موروثها الثقافى البدوى اجذب ؛ كما ان تمسك النوبيون بلغتهم وتساها القبائل العربية فى لغتها وهشاشة الموروث الثقافى للجانبين وغلبة اللغة النوبية وسيادتها فلم يكن هناك مجال لثقافة بل الادهى ان القبائل العربية تنوبت لغة وعرفا من اثر معاشتها الاغلبية النوبية والانصهار فيها ، وانتهى بها الامر الى الذوبان فى محيطها النوبى واعتناق كل ما هو نوبى طالما ان المشترك هو الاسلام ؛ وهذا دائما مصير الجماعات الرعوية فى الاقاليم المنعزلة ينتهى بها المصير الى الانصهار والتأقلم ، ومن الملاحظ ان عملية ذوبان العناصر العربية فى المحيط النوبى استتنت الاسلام كعقيدة فهو الهوية الوحيدة التى بقيت لتسود كلا الطرفين .

لم يطرأ تغيير فى الوضع الثقافى بعد مجيء الاسلام ، الا فى اوائل القرن 14 م على يد الداعية اليمنى " غلام الله بن عانذ " الذى انتقل الى دنقلة وراعه عدم وجود اى مظهر من مظاهر العلم والتعليم فقام بتعمير المساجد ، وبدأ فى نشر العلم مبتدئا باولاده وابناء بعض المسلمين (247) .

ويذكر التاريخ بعض العلماء البارزين من النوبيين ، لم يتألق نجمهم على ارض النوبة ولكن على ارض مصر، ويرجع السبب الى ضحالة الوضع الثقافى على نحو ما اشرنا اليه سابقا ، وعلى رأسهم العالم الشهير ابو الغيظ ثوبان بن ابراهيم الملقب ذى النون المصرى ، واخرين منهم يزيد بن ابنى صيب عالم دين كان والده من سبى النوبة فى الحملة الاسلامية الثانية ، وتكاثر اعداد العلماء النوبيين بعد انتصار الاسلام وغلبته على السودان كله بعد زوال تقسيماته النوبية وتسليم مقدرات الحكم الى سنار

²⁴⁶ (استخدمت الدولة العباسية والفاطمية والطولونية والاششيدية النوبيين فى الجيش ، فالمعصم جند 40 الف نوبى ، واستكثر منهم كافور الاششيدى والمستنصر الفاطمى بوجه خاص فى الجيش لانتساب والدتيهما الى النوبة .

²⁴⁷ (الخط المقيزى - ج 1 ص 326 و ص 209.

رعاية العلم والعلماء (178).

الوضع الاقتصادي

ومن الناحية الاقتصادية كانت مقرة أفقر ممالك النوبة ، فهي جذباء قليلة الموارد قليلة السكان تجارتها محدودة ، وهي اسباب تفسر ما جاء فى البقط من تمسك النوبة بحظر هجرة المسلمين المنصوص عليها حتى لا يزاحمونها ضيق المعيشة ، كما تفسر محاولاتها الدعوى للتوصل من اعباء البقط الثقيلة ، ويعكس تحديد البقط سلعا يعينها تقدمها النوبة او تحصل عليها طبيعة اقتصادها الفقير ؛ فما تحصل عليه النوبة هو مواد غذائية وكساء وهي مواد تحتاجها الدول الفقيرة ، وما تقدمه مقابلها من عبيد محدودى العدد لعدم وجود مواد بديلة لديها لهو دليل اخر على فقرها الزراعى وفقرها العام فى كافة الموارد ، وهذا بالذات يجعلنا نلتمس الغنى لعرضها اللا انساني جعل العبيد مادة يُقايس بها من ابنائها عبيدا حتى ولو كان لا مندوحة فى ذلك للنظام النوبى الذى يستعبد رعاياه اصلا .

ولم يتكرر ان اخذ المسلمون بمضمون مماثل للبقط فيما يتعلق بالعبيد فى اى اتفاق مع اى طرف اخر فى فتوحهم ، وهو استثناء مصلحة وانسانية فى الصميم رغم ان النظرة السطحية لا تقبل به وسنرى مبرراته فى السطور التالية ؛ فقد قبل المسلمون إستثنائيا عرض النوبة تسليم 362 عبدا سنويا الى بيت مال المسلمين لفقرها ولما فيه من جانب انساني بتخليصهم من استعباد النظام الاقطاعى النوبى الذى يسعد فيه الملك شعبه وليتبنوا برادتهم الحرة فى عالم الايمان بالدين الجديد وما وفره لهم من امكانية التحرر بالمكاتبة والمن عليهم بالاسلام ليكونوا يوما دعاة له فى بلادهم عند العودة وهو ما حدث فعلا ؛ كما انهم كما اتضح من العرض انهم لم يعملوا خدما وانما جندا وهي مهنة لها شرفها وتقديرها .

وبساطة الرقم تخرجه عن حدود الاتجار وعن سوء القصد (اللانسانية) ،الدليل على ذلك ان المسلمون قد راعوا الجوانب الانسانية عند انتقاء العبيد فوضعوا شروطا تنظيمية تُحقق لهم التوازن الاجتماعى والنفسى ، فاستبعدوا الاطفال والعجزة والشيوخ اخذا فى الاعتبار خصوصية وضع هذه الفئات ، واشترطوا ان يكون العبيد المنتقين من الذكور والاناث شبابا اصحاء وفى اعمار متقاربة ؛ وهذه الشروط دليل فطنة فصغر السن يضمن القدرة على العطاء ويجعل هناك متسعا من الوقت امام العبد للتشبع بالاسلام والعودة الى بلاده كغرس وفسيحة للدعوة وان لم يعد فقد ضمنوا وجود مجتمع متناغم ومتكامل من الجنسين يخفف عنهم عبء الغربة .

ولا يفوتنا ان نشير الى أن البقط تضمنت نصا غريبا وغير معتاد مشمول بالمعاملة الشخصية لا جبر فيه ، وما كان النوبيين مجبورون عليه ، فالبقط هدنة وليست جزية او خراج كما انها ليست معاهدة اذعان يفرضها غالب على مغلوب بل مودعة ومصالحة يتبادل فيها الطرفان الاخذ والعطاء على قدم المساواة ، ويستلقت النظر انه بعد اتفاق الجانبين على ما تقدمه النوبة الى بيت المال ، نصت البقط على اهداء عددا من العبيد لاشخاص فى الجانب المسلم ، بان يُهدى الى الوالى بمصر 40 رأسا والى حاكم كورة اسوان الذى يتولى تسليم الرقيق عشرين رأسا ، والى مبعوث الوالى الذى يجيء الى اسوان خمسة عبيد ، ولكل شاهد من الشهود العدول على المعاهدة وعددهم اثنا عشر ، عبدا واحدا لكل منهم (248) .

والمغزى من تقديم النوبة عبيدا على سبيل الهدية ، لدليل على اعتيادهم الامر ولا يلتزمون بالمسيحية ولا يقدرن البشر الانسان ، ولا حرج لى نظام قائم على استعباد شعبه القيام بذلك ، انما هو نوع من الكرم من جانبها قابله الجانب المسلم بكرم مماثل كهدايا للسفراء ، وان كان بطريقة مختلفة كل باسلوبه وبما يعكس ثقافته وتقاليده .

ورغم تجاوز حكام المسلمين فى كثير من الاحيان عن مراوغة النوبة فى تنفيذ البقط مراعاة لصعوبة هذا الجانب على نحو

248 (نذكر ثانية بنود المعاهدة التى تقضى بان يحصل العرب على عدد 362 من الرقيق سنويا مقابل تقديم مصر الف اردب من الغلال ويهدى السفراء بثلاثمائة اردب وتقضى بدفع 40 رأسا للوالى بمصر و عشرين رأسا الى حاكم كورة اسوان الذى يتولى تسليم الرقيق و خمسة الى مبعوث الوالى الذى يجيء الى اسوان و عبدا واحدا لكل شاهد من الشهود العدول على المعاهدة وعددهم اثنا عشر ، وقضت ايضا بحرية المرور لا الاقامة لكل فى ارض الآخر " بدخول البلاد مجتازين غير مقيمين (كان هذا بسبب اشتراط البقط على المسلمين فى معاهدتهم عند فتح الاسكندرية " الا تساكنتهم النوبة و حمايتهم من اهلها وسواهم من اعدائهم المصدر فتح العرب لمصر د. الفرد بطر ص 238 و 249 " كما ضمنوا الامن لمواطنى كل طرف فى ارض الآخر ، و تضمنت نصا ينظم ايفاد كهان الكنيسة المصرية وحماية المسجد فى دنقلة ؛ والمعاهدة هى هدنة كما يقول خرداذبة ولم تكن معاهدة اذعان وانما مصالحة، كما ليست خراج ولا جزية كما يقول عنها البلاذرى (المسالك والممالك ص2 نقلنا من الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا - د حسن احمد محمود ص284.

ما فعله الخليفة العباسي عندما اعفاها من اداء البقظ وقصرها على مرة كل ثلاثة اعوام ، الا انه لم يعف الجانب المسلم من التزاماته اليها سنويا لمساعدتها لعلمه بفقرها رغم عدم اسلامها ، و يبدو ان تمسك الدول الاسلامية المتعاقبة بالبقظ وهى تعلم عجز النوبة عن ادائها استهدف الضغط عليها لقبول الاسلام لتحريرها من الاتفاق ، والدليل على ذلك ان الاتفاق الجديد الذى تم بين بيبرس وشكندة ملك النوبة اخذ بنظام الجزية لرفض الاسلام .

وهناك نقطة يهمننا اضافتها ، فقد قضت البقظ بحرية المرور لا الاقامة لكل طرف فى ارض الآخر (النص بـ " دخول البلاد مجتازين غير مقيمين ") ؛ وتضمن الاتفاق هذا النص جاء احتراماً لاشتراط البقظ على المسلمين فى معاهدة فتح الاسكندرية " الا تساكنتهم النوبة وحمائتهم من اهلها وسواهم من اعدائهم " ، ولا نعلم لذلك سببا اختصاصهم النوبة بالذات رغم بُعد الشقة (249) .

ثالثا مملكة علوة

هجرة القبائل العربية الى علوة

قامت علوة على انقاض مملكة مروى بعد ان خربت جيوش اكسوم ، واكبر اقاليمها الابواب ، وعاصمتها سوية تقع جنوب الخرطوم على ضفة النيل الشرقية ، انسابت اليها القبائل العربية على مر القرون عبر " مقرة " ، وتلاحق توافد هذه القبائل بكثافة فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى بفعل ضغوط الفوضى التى عمت النوبة الشمالية بعد اختفاء السلطنة المركزية وانتشار القبائل العربية ، وكانت " جهينة " اسبق القبائل وصولا وانتشارا فى ممالك النوبة الثلاث وفى منطقة البجا (250) ، ومثلها قبيلة فزارة التى فى السودان الاوسط والغربى ، ومن بين الاسباب التى دعت القبائل العربية الى هجرة مملكة مقرة الى علوة هو فقر الاولى وثراء الاخيرة ، فقد كانت ارض علوة متسعة وخصبة ، مطرها غزير ، وفيرة المرعى يوجد بها الذهب بوفرة ، ويتصف اهلها بقلّة التدين ولا تعصب لديهم فى امور الدين وهى امور تثير الشحنة ، مسالمون بالطبيعة لا يضيقون بالغرباء ولا يتضررون من مزاحمتهم ، فهناك متسع من الارض لهم جميعا .

المملكة قبل اسلامها

ينقل المقرئى عن ابن سليم الاسوانى حال المملكة فى القرن 14 م فى اوائل عهد الفاطميين ؛ فيصف عاصمتها سوية ، بأن بها دور حسان واسعة ، وبساتين وكنائس كثيرة الذهب وهو وفير فى البلاد ومتملكها (اى ملكها) يتوج به ، وهو اكثر مالا واعظم جيشا وخيلا مما لدى متملك مقرة ، وبلده اخصب واوسع وبها كثرة من المواشى والمروج الواسعة والعديد من المحاصيل وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب ، يسترق ملكها من يشاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون عليه ذلك ، ويسجدون له ولا يعصون له امرا ويرضون بالمكروه الواقع بهم .

ويصف المقرئى اهل علوة بانهم اقل فهما من اهل مقرة وهم يقول اى اهل علوة نصارى على مذهب اليعاقبة ، اساقفتهم قادمون من قبل صاحب الاسكندرية وكتبهم بالرومية ، وبعض اهل البلاد شاب عقيدته الوثنية ، يعترفون بوحدانية الله ويتقربون اليه بالشمس والقمر والكواكب ، ومنهم من لايعرف الخالق ويعبد ما استحسنته من الجماد والشجر ، ويُرجع المقرئى ما شاب العقيدة المسيحية من وثنيه "الى انقطاع الصلة بين المملكة والكنيسة المصرية لفترات طويلة دون سبب واضح" ، ويشير المقرئى الى الوجود العربى فيقول وللمسلمين رباطا فى العاصمة .

ويؤكد فرنسيسكو الفاريز البرتغالى فى اوائل القرن 16 م ما قاله المقرئى عن الخالة الدينية فيقول "بأنهم يجهلون دينهم فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين او اليهود ، ويقال انهم كانوا على النصرانية وفقدوا الدين ولم يتبق لهم عقيدة ويأملون ان يكونوا مسيحيين ، ولما حاولوا فى عام 1522م الحصول على قساوسة من الحبشة اعتذر لهم النجاشى قائلا انه يعتمد على البطريق فى بلاد المسلمين لارسال " أبونا " ، فكيف يعطيهم من يتفضل به عليه غيره " ، ويبدو ان اهمال الكنيسة المصرية لهم ورفض نجاشى الحبشة ارسال " أبونا " قد يكون مرجعه عدم الرضا على جهود ملوك البلاد فى نشر المسيحية او لخلاف معهم لسبب

249 (فتح العرب لمصر د. الفرد بطر ص 238 و 249 ")
250 (انشأت بطونها في ارض البجا مدينة " أربجى " فى غرب النيل الازرق سنة 1474 م .)

لاتعرفه .

ومن الناحية الثقافية والاقتصادية ، لم يختلف الحال فى المملكة عما كان عليه الحال فى مقرة ، فلم يكن بعلة نهضة ثقافية قبل اسلامها ويؤخذ على اهلها ما ذكره المقرئزى على لسان ابن الاسوانى بأنهم اقل فهما من اهل مقرة ، و حالها الاقتصادى كان صعبا فى اواخر عهدها ، و السياسى كان حالة من الضعف العام لعدم تمكن ملوكها من السيطرة على القبائل العربية التى تكاثرت وازدادت عددا ، فاضطروا الى التقرب الى زعماء جبهة بالأصهار اليهم للحصول على مساعدتهم فى السيطرة على الاوضاع ضد اغارات الزغاوة الذين جاءوا من بورنو عبر دارفور ليستقروا فى الاقليم ، وفى تلك الاثناء وفد الى الاقليم بعض قبائل البربر وبفضل هذه القبائل مجتمعة إتسع إنتشار الإسلام ونفوذته فى علوة .

ظهور دولة الفونج المسلمة (مملكة عمارة دونقس)

وفى مستهل القرن السادس عشر الميلادى ؛ تعرضت المملكة لإنقسامات كبيرة وانفطت الصراع وانتشرت الفوضى وظهرت دولة اسلامية تحت حكم عمارة دونقس ملك " الفونج " ذوى الاصول البرنوية ، فتمكن وحليفه "عبد الله جماع" شيخ عرب القواسمة من الإستيلاء على "سوبة" عاصمة علوة عام 1505م واقاموا على أنقاضها مملكة اسلامية ، وبقيام تلك المملكة إنطوى تاريخ الممالك المسيحية الثلاث فى النوبة كلها .

كان اسلام علوة مختلفا عن اسلام مقرة فبينما استعصت الاخيرة على الاسلام عدة قرون ، كان الامر سهلا ويسيرا بالنسبة الى علوة بسبب دعة شعبها وعدم تعصبه دينيا وعرقيا وقلة كثافة السكانية وافتقاره الى الثقافة ، وكان تأثير الاسلام عليه اقوى وأوضح منذ البداية فمع اعتناقه الاسلام تعرب واكتسب لغته لكثرة العرب الذين تجاوزوا اهلها عددا على عكس مقرة التى اسلمت واسبغت لغتها على العرب وامتصتهم .

رابعا ممالك الاسلام فى السودان

إمبراطورية الفونج

اصل الفونج ومملكة عمارة دونقس (مملكة سنار)

يحتسب الفونج انفسهم من سلالة الامويين الذين فروا الى المنطقة بعد زوال دولتهم فى الشام ، وهم كاهل السودان الشمالى والاوسط ينتسبون الى العرب ، وتأسست نواة المملكة فى الفترة من عام 1418 إلى 1450م على يد " ماى عثمان " ويقال انه من اعضاء الأسرة الحاكمة فى بورنو ، فر مع اتباعه الى ارض " الشلك " على النيل الابيض .

وفى عام 1500 م ، تمكن " عمارة دونقس " زعيم الفونج من إخضاع البدو فى الشرق وفرض نفوذه على المنطقة ، وقام بالتعاون مع حليفه عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من القضاء على مملكة علوة عام 1505 م (251) ، واقاموا على انقاضها مملكة اسلامية كبيرة فوض عمارة دونقس حكم جزئها الشمالى الى حليفه عبد الله جماع .

و فى عام 1534 م اضطر لأسباب أمنية الى نقل حاضرتة من سوبة الى سنار ، ويصف داود رابينى اليهودى الذى زار المنطقة عام 1521م عمارة بأنه اسود اللون يحكم السود والبيض فى حاشيته بعض اهل البيت ، يمضى وقته فى التنقل بين ارجاء مملكته للسهر على شئونها فى حراسه كوكبة من ستين فارسا وتبنى الاستراحات له على الطرق ، وعدد ما يملكه عمارة من ابل وماشية واغنام ، وأشار الى وجود الذهب فى ارضه ، وتعرض لخلى زوجاته والى ضخامة تجارة المملكة تدليلا على ثرائها ، ويذكر انه وصل البلاد فى قافلة من ثلاثة الاف بعير.

وبعد فتح الترك مصر عام 1517م واصبحوا فى الحد الشمالى لدولة الفونج ؛ ارسل الترك سرية من جند البوسنة بقيادة حسن قوسى عام 1520 لنصرة قبيلة الغربية فى بلاد سكوت والمحس ضد قبيلة الجوابرة التابعة للفونج وارغموها على التقهقر الى دنقلة ، وأقلق عمارة تدخل الترك وتمركز القوة البوسنية فى النوبة بالقرب منه واستيلاؤهم على سواكن منفذ السودان للحج (252)، فنصح الامام السمرقندى حسب رواية نعيم شقير بأن يرسل الى السلطان سليم يعلمه بانهم يحدرون من قبائل عربية

²⁵¹ (يسميها السودانيون دولة العنج – دشبيكة ص 58 .

²⁵² (اقام كوسى اماره عاصمتها الر خاضعة للاتراك على ان يرسل الجزية السنوية اليهم وغرفت اسرة كوسى بالكشاف الغز .

صميمة تدين بالاسلام حتى يرد عدوانه .

تفتت السلطة المركزية

انفرد القواسمة العرب بالجزء الشمالى المسمى " عبد اللاب " بحكم ذاتى عاصمته "قُرى" على ان يدفعوا الجزية لسلطان الفونج ، وقامت مملكة تغلى (تيجالى) فى جبال النوبة عام 1530 م على يد أحد الزاهدين الجعليين تعاقب عليها من بعده عشرين ملكا من سلالته ، واستمرت المملكة على استقلالها حتى الفتح المصرى ، كما ظهرت عدة مشيخات عربية لعدم امكانية دوام سلطة مركزية قوية قادرة للسيطرة على هذا الفضاء الهائل .

تمرد الشيخ عجيب على الفونج

(عهد عدلان ود آى 1611م)

وفى عهد الملك عدلان ود آى ، تمرد الشيخ عجيب شيخ العبدلاب لما استشعر مكانته بين القبائل العربية التى تميزت بوعى نسبى وتزايد نفوذه على منطقته ، وعمل على النهوض بحكمه وحقق نهضة تعليمية بفضل رعايته للعلم والعلماء وابتعث الوفود الى الازهر وبنى فيه رواقا للسنارية وآخر فى المدينة المنورة .

وفى عام 1611م تمكن الفونج من هزيمته ، ومات قتيلا فى المعركة وفرت عائلته الى دنقلة ، ولكن الملك عدلان تصالح معها واقام اكبر ابنائها شيخا على "قُرى" لارضاء القبائل العربية ، وبعد انتهاء المعركة وعودة القادة مظفرين ، خلعوا الملك عدلانا لتعسفه و كثرة مظالمه اثناء غيابهم فى ساحة القتال ، وأقاموا بدلا منه ابنه بادى سيد القوم ، وفر الملك المخلوع عدلانا الى الحبشة داعيا امبراطورها الى مساعدته فى استرداد عرشه.

بادى سيد القوم بن عدلان ود آى

(الحرب الحبشية الاولى 1618-1619م)

كانت علاقة بادى سيد القوم بالحبشة غير مريحة بعد فرار والده الى الامبراطور، وزاد الامر خشونة غضب الامبراطور لتجاهل بادى سيد القوم احتجاجاته بشأن التعديت التى قام بها عامله نايل ود العجيب على حدود الحبشة ، كذلك بعدم تعاونه فى رد النحاس الذى استولى عليه حاكما حبشيا فر به مع فرسانه الى ارض خاضعة لنفوذ سنار ، وقد مرت الامور بلا حروب .

وفى عهد رباط ابن الامبراطور قامت الحبشة بالاغارة على مناطق حدودية فى قضايف ودبرى والتاكا اغتتمت ورجعت ، ثم عاودت مهاجمة مملكة اروما التابعة للفونج لعدم دفعها الجزية ، وهى مملكة هامة تجاريا يتمركز فيها سوق مركزية لقبائل عطبرة ، كما هاجمت اقليم التاكا .

وفى مملكة اروما انذر قائد القوة الحبشية ملكتها الفارة فاطمة بتسليم نفسها والا بقى فى المملكة الشتاء كله ، فاستسلمت ومثلت امام الامبراطور الذى عاتبها لامتناعها عن دفع الجزية التى درج اسلافها على دفعها لبلادها ، وبعد تبريرها بعدم حضور احد من جانبها للمطالبة بها منذ زمن بعيد ، رأف بحالها لكبر سننها وضعفها وأطلق سراحها بعد قبولها الوفاء بما طلبه .

بادى ابو دقن 1645م (غزواته واستقلال الشيقية)

تصفه مخطوطة الشيخ احمد كاتب الشونة الذى عاصر اواخر عهد الفونج ، بأنه متدين من ذوى الكرم والشجاعة غزى النيل الابيض وفتك بالشك وبجبال تغلى الذى ذهب اليها لتأديب ملكها ، ولكن الملك المطلوب كان له موقف كريم ادى للمصالحة فقد كان يقاتل بالنهار ويرسل المون الاقوات ليلا لجيش الفونج الغازى ، الامر الذى اثر فى بادى وقبل الصلح والجزية السنوية ، ورجع بادى بسبائيا واسكنهم فى قُرى خاصة سميت باسماء جبالهم شرق وغرب النيل الازرق حول سنار ، واستخدمهم فى الجيش ، وفى عهده عام 1690 م ، تمرد الشيقية بزعامة " عثمان ود حماد واستقلوا عن " العبد اللاب" حكام الجزء الشمالى من مملكة الفونج .

وفيما يلي نستعرض سيرة بعض الملوك الذين جرت في عهدهم بعض الاحداث الهامة تجنباً للاستطالة :

بادى الاحمر 1692م (البعثات الفرنسية)

مرت بسنار ثلاث سفارات فرنسية فى طريقها الى الحبشة ، لبث نفوذها الدينى والتجارى والعسكرى وتحويلها الى الكاثوليكية ، وهى بعثة بونسييه الفترة 1698-1699م ، وبعثة كرمب عام 1701م ، وبعثة دى رول عام 1705م ، وتمت البعثتين الاولتين فى عهد بادى الاحمر ؛ وكان احد اغراض التحرك الفرنسى اعداد الحبشة لمحاربة سنار والاتراك والاستيلاء على مصوع وسواكن وهما املاك تركية وقامت فرنسا من اجل ذلك ، بإنفاذ مدربين عسكريين الى الحبشة . وقاد المخطط القنصل الفرنسى فى القاهرة فأرسل الطبيب " بونسييه " لعلاج ابنة ملك الحبشة عام 1698 – 1699م ومعه مبشر من الجزويت ، استتبعه بأعداد أخرى من المبشرين وصلوا سنار عام 1701م رفقة الرحالة كرمب Krump . وإتبعها دى ميليه القنصل الفرنسى بسفارة دى رول Du Roule عام 1705م والتي كانت مهمتها الى الحبشة تنفيذ الاستيلاء على مصوع وسواكن ، وفى الوقت نفسه ارسل دى ميليه الى ملك سنار رسالة تهديد ، ولم يُكتب لهذه السفارة ان تصل الى مقصدها بعدما كشفت الكنيسة القبطية فى مصر لملك سنار غرض البعثة المعادى فى محاولة لافشال المخطط التبشيرى لفرنسا لخلع الحبشة من المذهب يعقوبى التابع للكنيسة المصرية ، فقام ملك سنار بالقبض على دى رول وانتهى الامر بمقتله (253).

وصف السفارات الفرنسية لحال المملكة

يقول بونسييه ان عدد سكان مدينة سنار يبلغ مئة الف نسمة وبها تجار مصريين يشترون عدد كبير من العبيد ، ويستخرج اهل سنار اللؤلؤ من سواكن ويتاجرون مع اليمن والهند ، وتعرض بونسييه لعادة وحشية يتبعها حكام البلد فعند انتقال السلطة يتشكل مجلس خاص يقوم بقتل اخوة الملك الجديد لمنع المنافسة على السلطة حفاظا على الاستقرار . ويتضح من وصف بونسييه ان ثقافة المملكة محدودة ، ومعرفة كثير من الناس بعقيدتهم الاسلامية هشة لم تتجاوز حدود " الشهادة " وان العادات منذ عهد الوثنية ما زالت قائمة ورغم ذلك يتمسكون بدينهم ويتسمون بالسماحة مع من خالفهم فى العقيدة ، وضرب مثلا باختلاف عدد من اعضاء بعثته مع اهل البلاد حول امور الدين فى حضور الملك الذى كان يتدخل لوقف احتداد المناقشة دون ان يغضب .

وتحدث كرومب عن مشاهداته فى سنار عام 1701م ، فيتحدث عن استقلالية المنجل ملك "قرى" التابع للفونج وسلطته فى اعلان الحرب بعد موافقة ملك سنار ، وتحدث عن اتساع ملكه الذى شمل كل بلاد النوبة من الشمال الى اريحي جنوبا والى مشارق سواكن ، ويشير كرومب الى تصرف المنجل بوضع رسالة ملك الفونج على رأسه قبل قراءتها كرمز للخضوع ، لكن الامر فى رأيه مسألة رمزية لما لمس من قوة واستقلالية المنجل ، وهو ما يشير الى تفتت السلطة المركزية . ويصف كرومب سنار بأنها تاتى بعد القاهرة من ناحية الازدحام السكانى ، تتردد عليها القوافل التجارية من القاهرة ودنقلا والنوبة والهند ودارفور وبرنو وفزان وغيرها ، ويقطنها جميع الاجناس وهم امنون مطمنون وسوقها منظم ومقسم حسب السلع واورد الذكر عما ذكره بونسييه حول قتل اخوة الملك عند وفاته ، وأشار الى ما يملكه ملك سنار من البنادق التى لا تتجاوز منتى بندقية ومدفع واحد .

بادى ابو شلوخ 1724م

(الحرب الحبشية الثانية 1744م)

اغار الامبراطور اياسوس الثانى على حدود مملكة سنار وارسل حملة فى مارس 1744م توغلت فى سنار احرق القري وقتلت الناس واغتصبت الغنائم من الماشية والابل ، وبعد ثمانية ايام من التخريب واجهت الحملة مقاومة عنيفة على ضفاف الدندر ؛ وتمكن جزء كبير منها من مواصلة السير على ضفة النيل الازرق حتى قبالة سنار .

²⁵³ (السودان عبر القرون- د مى شبكية.. دار الجيل بيروت 1991.

تملك أهلها الرعب وكاد الملك ان يُخلى المدينة لولا نصيحة احد افراد عائلة دارفور الملكية الذى كان لاجنا لديه يُدعى خميس فقد نصحه بعبور النهر وقتال الاحباش على الضفة المقابلة ، ونجحت الخطة وتمكن الجيش من حصر الاحباش داخل مثلث النيل الازرق والدندر ودحروه ؛ ولما بلغ الامر قوات الحبشة الاخرى قبل وصولها ورأى الامبراطور الا امل فى انقاذ القوة المحاصرة تراجع ، وتذكر مخطوطة الشيخ احمد ان الامبراطور كان موجودا فى المعركة ، وان اخبار النصر افرحت السلطان العثمانى واذاغت صيت سنار .

الحملة على كردفان (خلعه وتولى ابنه)

بعد انتصاره على الحبشة ارسل الملك بادی حملة الى كردفان بقيادة ود تومة ومعه زعماء العبدلاب ومحمد ابو لكى وخميس قادة النصر على الحبشة لكن الحملة اندحرت وقُتل قائدها ود تومة ومعه زعيم العبدلاب فى معركة قحيف عام 1747م ؛ وانفرط عقد الجيش الا ان ابو لكى نجح فى اعادة تنظيمه وهزم به جيش امارات المسبغات (فى كردفان- اقارب سلطان دارفور) وضمها الى سنار بعد ان رافقه خيرات المنطقة وامكانياتها الضخمة من الرجال والخيول ، وضم قوات كردفان بفرسانها الى جيشه . وعندما علم ابو لكى والزعماء الذين معه بطغيان بادی ونوابه فى غيابهم ونفور الرعية منه لتجرؤه على النهب والقتل وغيرها من مظالم وتغيير القوانين وتبديل العوائد وسوء التصرف باستعانتته بالانواب (بالنوبة) فى الرئاسة بدلا من اهل الاصول ؛ فلما عاد زعماء من الحملة خلعوا الملك بادی واقاموا بدلا منه ابنه ناصر .

فر الملك المخلول الى الحبشة وقبل الارض بين يدى الامبراطور وارتضى ان يكون تابعا له ، وطلب المساعدة لاسترداد عرشه فطالبه الامبراطور بالتريث ومنحه مقاطعة رأس الفيل للاقامة فيها ، ولما علم السناريون بخيانتته استدرجوه الى داخل السودان بحجة حشد الجيوش لاسترداد العرش واغتاله الشيخ ولد حسن حاكم تيوة وقتله غيلة .

سيطرة الهمج على السلطة

اصبح ملوك سنار العوبة فى ايدي الهمج (254) يقيمونهم ويخلعونهم متى شاءوا ، فخلع ابو لكى الملك ناصر ثم اغتاله ومعه بعض الفونج الذين حاولوا استرداد الحكم ، وولى الحكم من بعده اخوه اسماعيل ؛ وبعد موت ابو لكى تولى اخوه بادی ود رجب المشيخة ، وقام بعزل الملك اسماعيل الذى تأمر مع الفونج لقتله ، واعقبت هذا فترة من القلاقل السياسية والحروب الاهلية وتردى الوضع الإقتصادي ، واستمر هذا الوضع حتى فتح محمد على السودان عام 1820م .

الوضع الثقافى فى مملكة سنار

اضحت سنار برعاية بعض ملوكها مركزاً ثقافياً هاماً فانتشرت المدارس وازدهرت تجارة الكتب ونالت ديار ثقافتها شهرة عظيمة فى بربر وكورتى (كعبة الشايقية الثقافية) ، والدامر (كعبة الجعليين الثقافية) ، و"الفاشر" ، وتشير مخطوطة الشيخ احمد (على سبيل التأريخ) الى النهضة الدينية فى البلاد فى عهد عدلان ود أي ، وفى عهد الشيخ عجيب شيخ العبدلاب الذى شجع العلوم الدينية وبنى رواقا للسنارية فى المدينة المنورة واخر فى الازهر الشريف واكرم العلماء واقطعهم الاراضى .

وفى مجال الدعوة يسجل للملك بادی ابو دقن كثير من الفضل فقد عرف بتدينه واکرامه لاهل العلم والدين ، ومن صور الجهاد العظيمة جهاد الفقيه البدوى " أبو صفية البديرى " ضد الوثنيين فى جبال النوبة رداً على هجومهم على كردفان ، ونجح فى نشر الإسلام بينهم حتى تمكن من المنطقة ، وأبو صفية البديرى سبق له المجاهدة مع المجاهد أحمد جُرى المجاهد الأكبر ضد الحبشة .

ولا تغفل ما قامت به المملكة لدفع المخاطر عن الاسلام وارضه من مجاهدة الحبشة فى الحربين المشار اليهما ومحاربة مملكة البلو ؛ وتشجيعها الدعاة أمثال الشيخ إسماعيل الوالى فى جبال كندكرو .

254) وهم من ذرارى العرب المتناسلين من الانواب (النوبيون) الذين اسكنهم بادی ابو دقن قرى خاصة حول سنار ومنهم محمد ابو لكى ، و قيل انهم فرع من الجعليين العوضية المتصلة بالعباس ابن عبد المطلب ، المرجع د. مكى شبكية ص 87 .

النظام الإداري والتجاري

يشير بونسييه وكرمب الى وجود نظام ادارة جيد كالذى استحدثه الملك دكين وغيره مما اخذوه عن الاتراك من نظم ، وللمملكة علاقات تجارية واسعة مع العالم الإسلامي وصلت اليمن والحجاز والعراق وسورات بالهند رغم بعد المسافة مع الاخيرة التى كانت الرحلة اليها تستغرق عامين . وكانت للمملكة علاقات وثيقة مع تونس والمغرب بحكم الارتباط بالمذهب المالكي ومع الأتراك حكام موانئ البحر الأحمر الذين كان لهم وكلاء دائمين في “ سنار ” ، وكان لسنار علاقات متميزة مع مصر في مجال التجارة والثقافة فكان أبناؤها يفدون إلى الأزهر لتلقى العلم و كان لهم رواق بالأزهر.

سلطنة دارفور

أقام الداو المهاجرون من مصر القديمة مملكة “ مروى ” بالجبل المعروف باسمها ، وفي الفترة من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر انضمت اليهم عناصر مهاجرة من البربر والعرب ، وادى تصاهرهم الى ميلاد شعب “ الطنجر ” وأول سلاطينهم “ أحمد المعقور ”.

الفور وسليمان سولون

وظهر لاحقا شعب “الفور” المخلط بهجرات عربية واول سلاطينهم “ سليمان سولون ” ، وسولون في لغة الفور تعنى العربي ؛ وإدعى سولون نسبه الى بنى العباس عن طريق والدته الجعلية ؛ واستعان بالعرب الوافدين لإخضاع متمردى جبال “ مرة ” ، وهذا الرجل يشبه في كثير الفاتحين العظام أمثال منسى موسى وإسكيا محمد في غرب إفريقيا ، وعمارة دنقس في سنار ، ففي عهده اتسعت المملكة حتى “ كردفان ” ، التى أقام فيها إمارات “السبعات ” وأوقع الهزيمة بجيوش “ العبد اللاب ” و كاد أن يعبر النيل لمهاجمة “ سنار ” عاصمة الفونج ، وإمتدت حدوده ما بين بشر الفترون في الصحراء الكبرى حتى بحر الغزال جنوباً ومن النيل فى الشرق حتى وادى فى الغرب ز

وفى عهد عبد الرحمن الرشيد الفترة 1778- 1799 م ، إتخذ من “ الفاشر ” عاصمة ، وأقام علاقات واسعة مع العالم الإسلامي وإعترف بسيادته السلطان العثماني ومنحه لقب “ الرشيد ” فإكتمل سلطان المملكة الذى إنتهى فى عهد الادارة الانجليزية للسودان التى قتلت السلطان على دينار على يد هندلسم باشا على نحو ما سيرد فيما بعد . ومن الناحية الثقافية سارت النهضة على نفس النهج الذي سارت عليه قبلها ممالك الإسلام الأخرى فأصبح للمملكة مراكزها الثقافية وأرسلت البعوث إلى مصر واصبح لها رواقا خاصا فى الأزهر (رواق دارفور) ؛ و كان لها إقتصاد مزدهر وتجارة كبيرة مع العالم الاسلامى وكانت مواكبها التجارية محملة بخيرات البلاد لبيعها في أسواق مصر وإرسال حصيلة البيع في “ صرة ” مع ركب الحجاج المصريين إلى الحجاز(255).

الباب الخامس
محمد على وفتح السودان
الفصل الاول
فتح السودان وتوحيده

تقدم الجيوش بقيادة اسماعيل

لم ينقطع تطلع مصر للسودان ، فعقب مذبحه القلعة فر اليها المماليك وحاولوا فى ظل الفوضى التى سادته الإستيلاء على دنقلة بمساعدة ولاية "الكاشفية" ، ولما فشلوا استقروا فى بعض مدنه ؛ وتطلع محمد على الى فتحه وتجنيد اهله فى الجيش والتغيب على ذهبه لخدمة توسعه الامبراطورى ، والانطلاق من ارضه الى منابع النيل فى عمق القارة الافريقية التى يمتلك السودان مفاتيح قلبها ويؤمن بابا للتوسع فيها بعيداً عن محاذير التوسع فى منطقة المتوسط التى قيد الأوروبيون حركته فيه .
وفى عام 1820م انطلقت جيوش محمد على الى السودان بقيادة ولده اسماعيل وهو فى الخامسة و العشرين من العمر ؛ ففضى على الإمارات والمشيوخ وأخضع سلطنة " سنار" عام 1821م ، ثم تقدم الى غرب السودان فاستولى على كردفان فى نفس العام و" فازوغلى " فى الجنوب عام 1822م ، وتم فتح السودان عام 1825م بعد إخضاع شرق البلاد .

اولويات محمد على فى السودان

كان تجنيد السودانين اهم اهداف محمد على ، وتظهر رسائله الى ولديه اسماعيل وابراهيم حرصه على تحقيق هذا الهدف وضرورة الاهتمام به ؛ فبعد فتح سنار بأربع اشهر بعث بإبراهيم الى السودان لمعاونة أخيه اسماعيل بحنكته ومهارته الحربية ، وطلب منه فى رسالة يقول " ان جلب السودانين هو غاية المراد ونتيجة المقصود ... " ؛ فقرر ابراهيم فى ربيع الاول سنة 1237هـ تعديل اتجاه الفتح لتحقيق هدف ابيه فى الحصول على المجندين ، فبدلاً من اخضاع القرى و الجبال القريبة من سنار قرر القيام بحملتين يقود احدها الى الدنكا على النيل الابيض وتتجه الاخرى بقيادة اسماعيل الى جبال الصعيد بالسودان ؛ ولكن مرضه حال دون اتمام حملته فعاد الى القاهرة بينما تمكن اسماعيل من الحصول على 477 من الصالحين لتجنيد .
وفى رسالة اخرى عاتب محمد على ابنه اسماعيل لتقاعسه عن ارسال المجندين يقول فيها " ان المقصود الاصلى من هذه التكاليف الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا اليكم مرة بعد الاخرى وانما الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لاعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا " ؛ وكرر التأكيد فى رسالة تالية على اهمية الموضوع فقال " ان الغرض من انتدابكم الى تلك الديار واختبار هذه المتاعب الشديدة ومن تعزيزكم بسواد عظيم من الجنود والمهمات هو عبارة عن الحصول على العبيد ... وايصالهم الى ثكنات اصوان غير معرضين للضياع والتلف وليس فى نيتنا ولا فى نظرنا غاية اعز من هذا الامل وان قيمة العبيد الصالحين للعمل عندنا بمثابة قيمة الجواهر ... بل هو اعز من ذلك واجل كما هو بديهي وظاهر" (256).

وحتى يجبر محمد على اسماعيل على الاهتمام بالامر ، إرتهن ارسال المدد الذى يطلبه من الجند من مصر بعدد ما يرسله من المجندين السودانين الى مصر ، فكان محمد على يرسل له الف جندى كلما وصله ثلاثة الاف منهم ؛ ولتوفير الاعداد المطلوبة لاغراض التجنيد ، امر محمد على بمنع الجلابة من تصدير الرقيق خارج السودان وان تؤخذ الضرائب رقيقاً للجندية لو امكن ، وخاطب سلطان دارفور للمعاونة فى هذا الغرض ، وكان غرض محمد على الحربى من تجنيد هؤلاء الرقيق (حسب قوله فى رسالته لابنه) ، هو مساس الحاجة اليهم لردع هجمات ايران على حدود الدولة العثمانية ولسد احتياجات قواته فى الحجاز ، وكان مطلوباً للتجنيد اربعون الفا .

كان يتم فرز المجندين لاستخلاص من يصلح منهم ويرسلوا على دفعات من عدة الاف الى اسوان ثم تلحق بهم اسرهم ، وكان يتم افهامهم انهم احرار يتقاضون اجرا مقابل تجنيدهم ، ولما علم محمد على بموت البعض منهم فى الطريق امر ببناء ناقورات (مراكب مخصوصة) لنرحيلهم لضمان سلامتهم ، وعين لهم الانمة لتعليمهم الدين الاسلامى ، وفى نهاية الامر كف محمد على عن تجنيد السودانية لعدم نجاح التجربة ، نظرا لعدم قدرتهم على التأقلم مع المناخ فى منطقة المتوسط ولجا الى تجنيد

المصريين بدلا منهم .

الادارة بين القسوة والاعتدال

لم تمض على الفتح سنتان الا وبدأ التمرد والعصيان بسبب ثقل الضرائب التى فرضها عمال الادارة فى غياب اسماعيل وبدون موافقته لانشغاله فى حملته على جبال الصعيد ، فكانت النتيجة هروب الناس من عبء الضرائب فهجروا مزارعهم الى الجبال والى مناطق الحدود مع الحبشة ؛ ولما علم اسماعيل بفداحة الضرائب اوصى بالرفق بالاهاالى وامر بتخفيفها الى ما يطاق ؛ وكان معروفا عنه عدم استباحة اعراض الناس وممتلكاتهم واموالهم ، فقد كان يدفع ثمن ما يحصل عليه ، ومما يؤخذ عليه شعوره بالتسامى وشدته التى استثارت الشايقية.

كانت شدة اسماعيل محل انتقاد والده فى رسالة له محذرا ومعلما ، يعلمه اصول الحكم والقيادة والحرب ، فحذره من الاستبداد ونصحه بالمشورة والا يستبد برأيه فى الحرب ، وطالبه بتوحيد الكلمة وحذره من جسامه مسئولية حربه على المماليك ، وان تغلب المرء على مثل هذه المسئوليات العظيمة لا يتحقق الا بالعدالة وخبرة الرجال المجريين (257) ، وخروجا على نصيحة والده اهان اسماعيل نمر زعيم الجعليين لما عجز عن الوفاء بما فرضه عليه من ماشية وجمال ومال ؛ فكانت هذه الاهانة سببا فى مقتله عندما احرق الجعليون خيمته انتقاما لزعيمهم وهو فى معسكره بشندى عام 1239 هـ .

اعقب الحادث حملة انتقامية ، تطرف فيها الدفتردار حاكم السودان فتجبر فى إخماد ثورة الجعليين فنشر الرعب والذعر وفرت الخلائق من وجهه على حد وصف د. شببكة ، وفى حملته الثانية اخمد الثورة بعد هزيمة نمر فى النصوصب عام 1238 م ، واستمرت الشدة مع خلفه عثمان وكان فظا اتسم عهده بالقسوة ، تزامنت قسوته مع قسوة الطبيعة من قحط وجذب وامراض ، ولم يدم عهده لحسن الحظ الا 8 شهور مات بعدها مريضا بالسل .

وبسبب هذه الشدة كره السودانيون الاتراك وحكمهم (كانت الادارة وقواد محمد على من اصل تركى ، بينما كان جنود جيشه من المرتزقة من غير المصريين) ، وبموته انقضى عهد الشدة بمجئ سلسلة من الحكام المعتدلين أمثال محوبك حالفته الطبيعة فى يمنه خيرا فهطل المطر وفاض النهر وعم الرخاء فإطمأن الناس بحكمه ؛ وخلفه خورشيد فلم يجور فى حملاته الا على العاصيين واهتم بتطوير الزراعة والرئى والثروة الحيوانية وجلب الخبراء من مصر وارسل الفلاحين السودانيين الى مصر لتعلم اساليب الزراعة الحديثة ، ولمحبة الناس له حزن الاهالى على انتهاء خدمته بعد اثنتى عشر عاما من الحكم العادل ، انساهم فيها ما لحق بهم قبلا من ظلم وجور.

اعقبه احمد باشا ابو ودان الجركسى وكان عادلا حازما فتح بلاد التاكة واخمد مقاومة عرباتها ، ولكن الشائعات اطاحت به فاعفاه محمد على من منصبه لافكاره الانفصالية بإلحاق السودان بالسيادة التركية بدلا من السيادة المصرية ، لحرمان محمد على منها الذى فتحها باسم السلطان العثمانى ؛ ومات احمد باشا فى السودان قبل عودته قيل مسموما بدسياسة محمد على ، وبرحيله كانت نهاية عهد الحكمدارية العظام لاتجاه محمد على لاختضاعها لسلطته المباشرة ، فلم يشأ ان يترك السودان لقادة قد تساورهم مثل هذه الاحلام ، فاقام حكما لامركزيا تحت اشرافه المباشر.

محمد على وتطوير السودان

كان اهتمام محمد على بتطوير السودان واضحا ، وكان عهد خورشيد علامة بارزة فى هذا الاتجاه فاقام الطرق الحديثة وارسل السودانيين الى مصر لتعلم الحرف والصناعة وجلب الخبراء المصريين فى الرئى والزراعة والثروة الحيوانية ، وحفر الترع وأقام نظاما للرئى المستديم وعلم السودانيين صناعة السواقي نقلا من مصر ، وقام الزراعيون المصريون بتطوير الزراعة والثروة الحيوانية .

وفى مجال تعدين الذهب مطمع محمد على الذى قام بنفسه بإفتتاح منجم الذهب فى فازوغلى حرصا على حضور المناسبة ، واقيمت له سريعا مدينة صغيرة ضمت قصرا لسكناه ومساكن ومستشفيات للعمال وثكنات للجند ، ولما لاحظ اثناء الزيارة حاجة

السودان للكتبة ، أرسل الى مصر طلبا لاحتياجات الادارة منهم ، ولم يبخل فى تخصيص الاموال اللازمة لذلك الامر فيقول فى خطابه الى مصر " لترقية البلاد واصلاح حال العباد و لا اهمية للمال اذا انفق فى هذا السبيل(258) " ، وفى اواخر عهده (محمد على) اختفت الشدة التى سادت بداية العهد التى استلزمتهما إحكام سيطرته على البلاد ؛ وتوفى محمد على باشا عام 1265 هـ بعد 29 عاما من فتح السودان ، قضى منها الست الاولى فى الفتح والاضطرابات.

ومن محاسن الفتح المصرى اللافتة إقامة حكم مركزى قوى على اتساع ارض السودان لأول مرة بعد ان قضى على الممالك الصغيرة المتناحرة وانهى حروب القبائل التى لا تنتهى ، وانتشر الامن وتأمينت المواصلات وانفتحت البلاد على المدنية الحديثة بتطبيق سياسة عمرانية وزراعية وتعليمية عظيمة، فتولد شعورا بوحدة البلاد.

ادارة عباس الاول

ادار عباس بن طوسون حفيد محمد على السودان فى اواخر ايام جده الذى يعيش حالة من غياب الوعى ، بإعتباره اكبر افراد الاسرة بعد وفاة عمه ابراهيم ولى العهد ، وفى عام 1848م تولى الحكم رسميا .

شهد السودان فى عهده نشاط التجار الاوروبيين وافتتاح القنصليات الاجنبية وبدء النشاط التبشيري ، وكانت تجارة العبيد النشاط الرئيس للتجار الاوروبيين ، الذين اقاموا لها المحطات وانشأوا لها حرسا مسلحا من العبيد ، وتوغلوا فى النيل الابيض الى نهر السوايط وبحر الغزال وغدكرو ، واصبحت لهم مظاهر وسطوة الحكام .

اثارت سطوة الاوروبيين عبد اللطيف باشا حاكم السودان فتشدد معهم ، فشكوه الى الخديوى عباس مع ادعاؤهم اساءته للرهبان الكاثوليك فى الخرطوم ، فاستدعاه تحت ضغطهم الى مصر ، رغم انه كان معروفا عن عباس كراهيته للاجانب ، ومن اعماله اقامة مدرسة بالخرطوم عين بها رفاعة الطهطاوى مديرا للتخلص منه فكان هذا من حُسن الطالع للسودان .

ادارة سعيد المحب للسودانيين

تولى سعيد الحكم عام 1854 م ، وكان معجبا بالسودانيين واتخذهم حرسا خاصا فى رحلاته لمطاردة العربان فى الوجه القبلى ، ورفاههم الى مراتب الضباط وابطل غزوات صيد السود ومنع تجارة الرقيق ، والغى الجمارك بين البلدين ، وتابع احوال السودان وراقب سلوك ولاته بها لضمان حُسن معاملة الاهالى ، فطرد على سرى من حكمدارية السودان بعد تحققه من ارتشائه وفساده .

ومنع الجيش من جباية الضرائب والتسلط على الاهالى وجعل جبايتها من اختصاص الاهالى انفسهم ، وخفف منها وربطها بمقدرة الاهالى حتى يسكن روعهم ويعمروا اوطانهم ؛ وقرر كسبا لود سكان الجبال الا تزيد الضرائب عليهم على ثلث المحصول وان يفهموا انهم احرارا وليسوا بعبيد ، وكون مجالس للاهالى للمشاركة فى الادارة ، ووضع نظاما للبريد وعين اخيه الامير عبد الحليم باشا حكمدارا عليها لضمان رعاية افضل للسودان ، لكن الامير لم يمكث بها كثيرا لظهور وباء فتاك فغادرها ولم يعد .

ادارة اسماعيل

فى ضوء ضياع هيبة الحكمدارية وانتشار الظلم وفساد مشايخ القرى وانتشار الفوضى ، اضطر اسماعيل الحاكم بالانابة (لمرض عمه سعيد) لاعادة الحكم المركزى ، وعندما ارتقى العرش استهل سياسته باستخدام العنصر الوطنى فى ادارة السودان اسوة بمصر ، فعين الشيخ احمد ابو سن كبير مشايخ قبيلة الشكرية مديرا للخرطوم وسنار حكمهما عشر سنين الى ان وافته المنية وكان نزيها امينا ، قامت سياسته على التوفيق بين القبائل وحفظ الحدود مع الحبشة .

كانت سياسة اسماعيل تقضى " بتعمير واصلاح القطر السودانى وادخاله فى عداد المديرية المصرية الاكثر عمراناً وازدهارا وبذل اقصى الجهد لزيادة عمرانه وتوسيع نطاق تجارته ، ومعاملة سكانه بالعدل والحقانية ، وايصاله لغاية الكمال من جهة الامن والانضباط العام ".

تجنيد السودانيين ومحاربة تجارة الرقيق

استمر تجنيد العنصر السوداني من الرقيق ، وزاد موسى باشا اول حكمدار فى عهد اسماعيل بالسودان جهوده فى هذا الشأن ، فاتفق مع قبائل الشلك والدنكة وفازوغلى على توريد العدد المطلوب نظير 500 قرش عن كل رجل ؛ ونبه الخديوى الى افهام الجميع انهم احرارا (لا عبيدا) ، حيث انه لا يجوز قبول الانفار فى الاورط بصفة ارقاء نظير الاموال ، وان ما يقوم به شيوخ القبائل (تزويدهم بالانفار) ما هو الا خدمة حسنة للحكومة يجب مقابلها التنازل لهم عن الاموال المقررة عليهم ، وان يجرى تفهيمهم بأن هؤلاء الانفار سيكونون احرارا مثل سائر العساكر .

قام حمدى موسى بتنفيذ الاوامر الخديوية فى محاربة تجارة الرقيق ، بتشديد دوريات البوابير النهرية فى النيل واقام فاشودة وعزز حاميتها لهذا الغرض لاحكام الرقابة على النهر ، وتعرض للتجار ففرض الضرائب على الزرائب ووضع التحجيرات (القيود) على توريد الاسلحة لهم ، وطلب من القناصل عدم حماية التجار الاوروبيين .

وفى ضوء هذا التشديد اضطر التجار لبيع زرائبهم الى الحكومة التى باشرت الشراء لتشجيعهم وغيرهم من التجار المحليين على اخلائها ، وبلغ ما دفعته الحكومة فى زمن جعفر باشا لشراء هذه الزرائب ، ما يربوا على المائة الف جنيه وهو مبلغ ضخم فى ذلك الزمن .

ولما لم تقض هذه الاجراءات على تجارة الرقيق ، اصدر اسماعيل امرا بضم اراض التجار الى الحكومة إحكاما للرقابة على تجارة الرقيق وتمكن اسماعيل من الحصول على تنازل السلطان التركى عن مصوع وسواكن بصفة دائمة بحجة احكام الرقابة على هذه التجارة لاتصالهما بالسودان.

ثورة الجند السود فى كسلا

لم تشهد السودان فى تلك الفترة ثورات الا التى قام بها الجند السود فى كسلا ، لسوء اوضاعهم وسوء معاملة قادتهم واستخدامهم لشهور طويله فى اعمال الجبائية ، وتم القضاء على هذا التمرد بفضل النفوذ الدينى للسيد حسن الميرغنى ، وعلى اثر ذلك أمر الخديوى بالغاء الفرق السودانية وإستبقاء اورطة واحدة منها يسرح منها العجزة ويُرسل الباقين الى مصر على الا تضم الاورطة المستبقاة احدا من قبيلة الدنكا او الذين كانوا فى المدفعية لتمردهم ، على ان تجرد الفرقة من المدفعية ويشدد عليها الانضباط العسكرى.

شهد السودان فى عهده نهضة عمرانية ، فقامت الحكومة بتشجيع السكان على البناء فباعت مواد البناء بتكلفتها الفعلية دون تريح ، وخططت لاقامة الخرطوم على الطرز الحديثة حسب توجيهات الخديوى " بان تكون شوارعها واسعة منظمة وان تقام المباني وفقا لقواعد الصحة وفن الهندسة وتُحفر مصارف السيول لمنع تراكم الامطار وان تُقام القشلاقات بعيدا عن البلد ويجب اشادة المستشفى فى مكان طلق الهواء له حديقة " .

اتبعت الاداره المصرية سياسة زراعية كبيرة للنهوض بهذا القطاع فواصلت حفر الترعة وادخلت زراعة القطن ، ومن الناحية الثقافية ارسلت البعوث الى مصر لدراسة الصناعات الميكانيكية والطب والصيدلة ، وفى السودان اقامت خمسة مدارس فى عواصم المقدرات تضم كل منها تسعمائة تلميذ ، وقدمت المنح للمدارس الدينية وطلابها واساتذتها ، واهتمت بتجديد المساجد ، وفى مجال الخدمات والاتصالات مدت خطوط البرق والسكك الحديد ، ولما رأى الخديوى صعوبة السيطرة على السودان من الناحية الادارية لاتساعه الكبير ، امر بتقسيمه اداريا الى عدد اكبر من الوحدات حتى يتسنى حكمه بفعالية .

الفصل الثانى

محاربة تجارة الرقيق والفتوح المصرية

فى المنطقة الاستوائية واعالى النيل

عرف السودان تجارة الرقيق قبل محمد على بزمان بعيد ، فقد كانت عسبا إقتصادياً مستشريا فى منطقة النيل الأبيض مصدر هذه التجارة بوجه خاص وكانت منطقة منعمة التحضر ، فموروثها الثقافى وثنى ونظم حكمها استبدادية تتعدد قبائلها وحروبها واشتغل زعماء القبائل فيها بالرق وهو ما اتاح الفرصة لاستئراء هذه التجارة .

وفى المرحلة الاولى من الفتح المصرى ، شارك محمد على بطريق غير مباشر فى هذه التجارة للحصول على المجندين على النحو السابق التعرض له فليس الامر عبودية واستعباد بقدر ما هو استئجارا لخدماتهم بمقابل مادي فهم فى الحقيقة " اجراء " لمدة معينة لاداء وظيفة معينة هى الخدمة العسكرية ، وهى مهنة يشرف من يلتحق بها وتعالى من قدره بما فيها من فروسية وفضائل ، وبعد انتهاء التجنيد يعود هؤلاء المجندون الى اوطانهم ، دون ان يفقد المجند كرامته او حريته وكان يتم التأكيد على ذلك له ولقبيلته ولم يكن يحرم من اسرته التى كانت تلحقه الى مصر ، وكانت قبيلته تحصل على مقابل مادي لكل فرد تقدمه .

وفى مرحلة لاحقة توقف محمد على عن ذلك ، واتخذ بادرة طيبة للحد من نظام الرق بخطوة تدريجية ، فأمر خورشيد حكمارة السودان (ولايته من يناير 1826 الى ابريل 1838) ، بالغاء استخدام الرقيق كعملة لدفع رواتب الجند والضباط بعدما نما الى علمه ذلك من القنصل البريطانى ، وكانت كلماته بليغة اذ قال فى رسالته الى الحكمارة ان كانت الحجة فى ذلك انه يعود على الميرى بفائدة فانه مستعد لقبول الضرر والخسارة فى هذا السبيل .

استمرت سياسة محمد على فى محاربة هذه التجارة ، ولما ماظل التجار واستمروا فى تجارتهم دون خوف معتمدين على قوتهم الاقتصادية والعسكرية ونفوذهم بمناطقهم ، فالزبير زعيم التجار كان ملكا غير متوج فى بحر الغزال ومثله سليم قيطان ملكا فى النيل الابيض ، فاقترح احمد باشا المنكلى المشرف على حكمارة السودان (ولايته من اكتوبر 1843 الى ديسمبر 1845) احتكار الحكومة لهذه التجارة لضعاف التجار، ولكن محمد على رفض منعا لاحتجاج الاوروبيين .

فى عهد عباس الاول (1848 الى 1854) تولى القناصل منذ قيام قنصلياتهم حماية مواطنيهم من تجار البشر فى مواجهة السلطات المصرية فى السودان ، فتوغل تجار النخاسة الاوروبية مستندين لمساندة القناصل صاعدين فى النيل الابيض واقاموا المحطات الى نهر السوبات وبحر الغزال وغندكرو واخذوا يجندون الاهالى لحماية متاجرهم .

وفى عهد سعيد (من 1854 الى 1863) كان فى خدمة التجار الاوروبيين عدد كبير من الاهالى الفارين من اراضيهم بسبب الضرائب الباهظة خاصة فى دنقلة ، اما الخديوى اسماعيل (1863- 1867) فتشدد فى محاربة تجارة العبيد ، ولم يتورع عن عزل وإعتقال مدير البحر الابيض فى فازوغلى ومعاقبته بالاشغال الخسيسة ليكون عبرة للآخرين لتهاونه فى التصدى لغارات النهاضة على الدنكة والشلك (مصدر الرقيق) وقيامه بإعادة بيع الرقيق المصادر من التجار لحسابه ؛ وحكم بإسترداد الرقيق الذى باعه واعادتهم الى اوطنهم بالراحة ، واكد على عدم وقوع ذلك مرة اخرى " ، وفيما يلى مقطعات من رسالة الخديوى الى حكمارة السودان بتوجيهاته حيال هذا الامر فيقول " ان اهم ما نفكر فيه ونسعى الى تحقيقه هو ادخال السودان بما فيه جهات البحر الابيض فى دائرة المدنية والعمران كما هى الحالة فى اقاليم الحكومة الاخرى ، ويستطرد قائلا " ومع ان السودان لا ايراد له فى الوقت الحاضر فائنا لمجرد ادخاله فى هذا الطريق ورغبة فى اسعاد اهاليه قد انشأنا مديرية البحر الابيض التى كلفتنا انشاؤها الكثير من النفقات ، ونسعى لعمران تلك الارحاء ، وان من اهم واجبات المدير حفظ الامن ... وقطع دابر الاشقياء والسعى الدائم لعمران مديريته واسعادها ، وبينما الغت الحكومة بيع الرقيق الذى يُسترد من الاشقياء اذ هو يعيد بيعه لحسابه " .

وقد قام موسى حمدى (ولايته من مايو 1862 الى مايو 1865) بتنفيذ الاوامر الخديوية فى محاربة تجارة الرقيق بتشديد دوريات البوابير النهرية فى النيل وأسس فاشودة وعزز حاميتها لاحكام الرقابة على النهر وفرض الضرائب على الزرانب ووضع التحجيرات (القيود) على توريد الاسلحة للتجار وطلب من القناصل عدم حماية التجار .

وفى ظل هذا التقييد إضطروا الاوروبيون لبيع زرانبهم الى الحكومة التى باشرت الشراء لتشجيع التجار على اخلائها وبلغ ما دفعته الحكومة لشراء الزرانب فى زمن جعفر باشا الى ما يربوا على المائة الف جنيه ، ولما لم تقض هذه الاجراءات على تجارة الرقيق اصدر اسماعيل امرا بضم اراض التجار الى ملكية حكومة السودان ليحكم سيطرته عليها ، فاثار المشاكل مع التجار ورفض

الزبير التخلي عن سلطته ونفوذه بسهولة وتصدى بقوات التجار للشيخ محمد البلالي مندوب اسماعيل المعين على المنطقة ، وانتهت المعركة في جولتها الثانية لصالح التجار ومقتل المندوب .

ومع ادراك الزبير عدم مقدرته على التصدي للحكومة لمدة طويلة ، وخوفا من العواقب وإتهامه بالثورة سعى للتصالح مبررا تصديه لمندوب الحكومة بالادعاء بأنه هو الذى ابتدره بالقتال ، ولما احس الخديوى بقوته التى يمكن ان تدعم سلطة الحكومة عفى عنه وعينه مديرا لبحر الغزال ، وحاول الزبير ان يثبت ولاؤه للخديوى ، فلما علم باعتداء قطاع الطرق فى منطقة نفوذه بالقرب من دارفور على رسول الخديوى توجه لتأديب الرزيقات والقبض على زعمانهم اللاجئين لدى دارفور ، ولما رفض سلطانه تسليمهم بعدما اقرروا بالخضوع لسلطانه بعد مرور 30 عاما من الانفصال عن مملكته ؛ غزى الزبير دارفور وفتحها وارسل الى الادارة فى طلب التعزيزات تأكيدا لولائه وانتمائه الى الحكومة ، وبعدما علم الخديوى بنصر الزبير رقاها الى رتبة لواء اقرارا بفضله فى فتح دارفور بجهوده الذاتية وماله وعبيده وبدون ان يكلف الحكومة مالا او رجالا ، واعفاه من تبرير هجومه على دارفور وقرر انه جاء ردا لعدوان اميرها على الحكومة المصرية الذى هو فى الوقت نفسه اعتداء على مشروع منع تجارة الرقيق .

وفى برقية تالية امتدح الخديوى الزبير وطالبه بالتشدد فى القضاء على هذه التجارة ، وفى رسالة اخرى دعاه لخماد ثورة دارفور لوفرة قواته الخاصة ، فقد كان لديه 6 الاف مسلح نصفهم من العبيد الخصوصيين مزودين بالاسلحة النارية ، ولما استشعرت الحكومة خطره طالبت بحل قواته من العسكر والعبيد والبحارة وتحويلهم الى الجنديّة بماهيات ، وان يسلمها نصف رصيده من مخزون سن الفيل المقدر بحوالى 600 قطار ، فلم يمانع ، لكنه غضب من مضايقات الحكماء المستمرة له فرحل الى القاهرة ليشكوا للخديوى الذى كان يتصرف بالحكماء بناء على تعليماته فاستقر بها .

فتوحات اسماعيل

فى المنطقة الاستوائية

(بيكر وغوردون وأعلى النيل)

اولا صموئيل بيكر

ارتبطت الفتوحات المصرية بمحاربة تجارة الرقيق او كانت كلاهما سببا للآخر ، ولرغبته فى الفتح وفى نفس الوقت القضاء على تجارة الرقيق ، عين الخديوى اسماعيل صموئيل بيكر الانجليزى عام 1869 اثناء زياره الى القاهرة مع ولى العهد الانجليزى ، بعدد لمدة اربع سنوات براتب سنوى قدره عشرة الاف جنيه لفتح منطقة خط الاستواء ، وكان بيكر قد ذاع صيته بعد اكتشافه بحيرة البرت عام 1864م (259) ، وهذا ما اهله لدى الخديوى للقيام بمهمة الفتوح فى المناطق الاستوائية ، لخبرته ومعرفته الجيدة بها وحدد امر الخديوى الى بيكر المهمة على النحو التالى فى " ديباجة تشير الى عدم وجود ادارة وانضباط فى المنطقة ، وسيادة الهمجية فيها ، وعدم وجود قوانين ولا شرائع تمنع النخاسة المنتشرة ، وان تأسيس تجارة شرعية خطوة مهمة لنشر المدنية وفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى يساعد على اقامة حكومة ثابتة ... الخ " .

وجهازته مصر بما يلزم وانفقت بسخاء على البعثة التى تشكلت من 1700 جندى وصلت غندوكرو بعد مشقة فى ابريل عام 1871 ، وأصدر الخديوى امرا لحكماء السودان يشير فيه الى مأمورية بيكر بغرض توسيع الاقطار السودانية فى جهات النيل الابيض ... لسبق اكتشافه منابع النيل ولديه معلومات كافية عن تلك الجهات "

لقى بيكر منذ بداية حملته ، مقاومة تجار النخاسة خاصة ابو السعود وكيل شركة العقاد وممثل التجار، الذين رفضوا التعاون مع اى سلطة تهدد نفوذهم وتجارهم ، ونجح ابو السعود فى اثارة الاهالى وتحريضهم على الامتناع عن بيع الزاد والمؤن للحملة ، وازاء هذا الموقف العدائى اغتصب بيكر متطلبات الجيش من المؤن عنوة من الاهالى حتى لا تنفق الجنود ، واستمر فى المسير حتى رفع العلم المصرى على غندوكرو ثم تقدم جنوبا حتى وصل فاتيكو وفويرا الفرع الذى يحمل مياة بحيرة فكتوريا ، ثم وصل مازندى عاصمة بلاد انيور الواقعة على بحيرة البرت ورفع العلم المصرى وسط ترحيب ملكها كباريجا ، واعلن ضمها الى مصر

، ولكن الامر انقلب الى عداء فهاجم الاهالى حصن بيكر وإمتنعوا عن تزويد الحملة بالمؤن ، وتركه كباريجا ولم يتدخل ليوقف اعتداء الاهالى على عساكر الحملة وادعى ان لا شأن له بذلك ، ولما وجد بيكر صعوبة السيطرة على الموقف بقواته القليلة وسط هذا الجو العدائى ، انسحب بعد ان احرق ما لم يستطع حمله من معدات ، وتعرض اثناء الانسحاب لهجمات الاهالى التى لم تنقطع ليلا ونهارا .

وفى طريق عودته القى القبض على ابو السعود بتهمة الخيانة العظمى لعرقلة الحملة والعدوان على جنودها وتحريض اهالى السودان على عدم تزويدها بالمؤن، وعاد الى مصر لانتهاه تعاقدته وانتهت خدمته فى مايو عام 1873 ، بعد ان تكلفت الحملة ثمانمائة الف جنيه حصىلة تأسيس ثلاث محطات جديدة غندوكرو وفاتيكو وفويرا .

ثانيا غوردون

الولاية الاولى

حاكم مديرية خط الاستواء

استقدم اسماعيل ضابطا انجليزيا اخر ، التقاه وزيره نوبار بالمصادفة بالسفارة الانجليزية فى الاستانة ، ليحل محل بيكر هو غوردون لفتح المناطق الاستوائية وادارة جنوب السودان ، وكان غوردون يعمل فى لجنة دولية للإشراف على الملاحة فى الدانوب وشارك فى حربى القرم و الصين ، والغريب انه رفض ان يتقاضى العشرة الاف جنيه التى كان يتقاضاها بيكر كمرتب سنوى وارتضى الفين فقط وكان لهذه اللقطة اثرها الايجابى على علاقته بإسماعيل فكان قريبا الى قلبه فمنحه سلطات واسعة خلصت له فيها حكم مديرية خط الاستواء مستقلا عن سلطة الحكمادية العامة فى السودان فى ولايته الاولى ، ثم حكمادية السودان ذاتها فى ولايته الثانية .

وكان عليه ان يستفيد بالخلاصات المستفادة من حملة بيكر للبناء عليها ، فاطلع على تقرير الحكومة عن المهمة المطلوبة ومضمونه يقول " بأن المديرية التى شرع الاميرالاي غوردون فى مباشرة تنظيمها وحكمها ، لا يُعرف من امرها سوى الشئ القليل ، ولغاية السنوات الاخيرة كانت واقعة بين مخالف قوم من الافاقين ، همهم الحصول على الارباح غير المشروعة ، يتجرون فى العاج والرفيق يديرونها بواسطة المسلحين " ، و اشار لاستيلاء الحكومة على مكاتب اولئك التجار بعد ان دفعت تعويضات لهم مؤملة وضع حد لتلك التجارة الممقوته المنافية للانسانية " .

ولما لم تكن هناك وسيلة اخرى لابطال تجارة الرقيق التى ما زالت ترتكز الى قوة السلاح متحدية الشرائع والقوانين ، وعدم قدرة الحكمادية على التواجد القوى فى المنطقة للسيطرة على الامور ووضع حد لتلك التجارة ؛ قرر الخديوى فصل هذه الارجاع فى حكم منفصل ، وطالبت المذكرة بتحرير العبيد وتسليمهم لعشيرتهم ومن لم يهتد الى اهله يعمل فى الارض ، وفيما يختص بالعلاقة مع القبائل المقيمة على سواحل البحيرات نبهت الى ضرورة كسب ثقتهم والمحافظة على ممتلكاتهم واستجلاب رضاهم بالهدايا وعليه ان يجتهد فى اقناعهم بالكف عن الحروب التى يضرمونها بغية الحصول على العبيد .

وتوصى المذكرة برعاية الجيش ، فتدعوا الحكماد الى اطعام الجيش طعاما جيدا وتوفير احتياجاته من الطعام بالزراعة حتى لا تكن هناك حاجة للاستيلاء على مخازن القبائل من الحبوب ، اذ ان مثل هذا العمل يدعوا لسوء الظن بالحكومة ، وهو عمل مناف لارادة الخديوى الذى يود كسب ثقة الاهالى (260) ، كما تعرض التقرير لجهود الحكومة فى عهد بيكر فى محاربة تجارة الرقيق فى الاقليم .

محاربة تجارة الرقيق وانفصال اوغندة

بدأ غوردون مهمته عام 1873م تقريبا ، وبدأ فى محاربة تجارة الرق ونجح فى شهرين فى تحرير 12 قافلة محملة بالعبيد والعاج ، واقام العديد من المحطات لضبط التجارة ، ثم توجه للفتح لكن مسيرته فى النيل واجهت صعوبات طبيعية وعدوانية عندما اعترضت القبائل المتوحشة طريق الحملة ، لصعوبة إستحضار المعدات اللازمة لحملة من مصر .

(260) يظهر هذا حرص الحاكم على محكوميه على عكس الاستعمار الذى يأخذ ولا يعطى .

طلب غوردون من الخديوى ارسال حملة بحرية الى ممباسا تتجه منها الى داخل افريقيا ليقابلها هو بمسيرته شرقا ليفتحا معا طريقا سهلا يمتد من البحيرات الى الساحل الشرقى بعيدا عن النيل تجنباً لمشاق الملاحة فيه وتكاليفها ، فاستجاب اسماعيل وبعث حملة بقيادة ماكلوب باشا رست فى خليج ممباسا الامر الذى استثار انجلترا فأوعزوا لسلطان زنجبار بالاحتجاج وضغطوا على اسماعيل لسحب الحملة ، ففعل .

الطريق الى اوغندا

عند وصول غوردون الى مقره فى غندكرو فى بداية ولايته عام 1877م ، وجد فى انتظاره بعثة من متيسا METESA ملك اوغندا ، قادمة للقاء بيكر محملة بهدايا الى الباب العالى وبطلب عالمين من الازهر يهتدى بهما متيسا الى الاسلام (استجاب له الخديوى فوراً) ، فإنتهز غوردون المبادرة لتوثيق العلاقات مع الملك الافريقى ، فبعث له بسفارة ردا على سفارته تحمل بعض الهدايا برئاسة الضابط الأمريكى لوتج الذى يعمل معه .

نجح غوردون فى تأسيس محطات عسكرية عديدة حتى البحيرات ، فأسس حاميات فى انيور واوغندا ونقطة عسكرية فى روباكا عاصمة متيسا بناء على طلب الاخير كدلالة على الحماية ، وتشكلت القوة من 160 جندي بقيادة النور محمد .
واثناء انتظار غوردون المدد من عن طريق ممباسا عبر الطريق الساحلى ، حاول توثيق العلاقات مع متيسا فأرسل اليه سفارة من ثلاثين جنديا بقيادة ارنست دى بلفون الذى بقى فى روباكا فترة ليست بالقصيرة ، وهنا بدأت المتاعب برفض دى بلفون طلب متيسا مساندته ضد خصمه كباريجا قبل الرجوع الى غوردون ، وقفل عاندا الا انه مات وهو فى طريق العودة .
إنقلب متيسا على الحماية المصرية ففقط عنها الامدادات واطلق عليها النار ليلا وحاصرها ؛ وكاد غوردون ان يقوم بعمل عسكرى ضده لما علم بالامر لكنه تراجع وقرر سحب القوة دون سبب مفهوم ، وطلب من الدكتور امين مندوب مصر فى بلاط متيسا التوسط لفك الحصار وتم سحب الحماية بدون الرجوع للخديوى ، الذى غضب وطلب من غوردون ارجاع القوة لكن الامر كان قد انتهى .

ويُرجع البعض انقلاب متيسا على مصر الى اعجابه بالحضارة الاوروبية وقوة ممالكها التى نبهه اليها المستكشف هنرى ستانلى الذى وصل اوغندا عام 1875م ، لاستكشاف الاقليم ونجح فى اقناع متيسا بفتح الباب امام التبشير لضمان عدم مهاجمة مصر لمملكته .

اعتقد متيسا بالخطأ (على حد قول الموسوعة) ان التبشير سيدعمه عسكريا ضد اعدائه (261) ، وكان ستانلى قد سارع بعدما اقنع متيسا بفتح الباب امام التبشير باعداد رسالة الى انجلترا يهيب بها لإستغلال الفرصة المتاحة لنشر المسيحية فى المنطقة بارسال بعثات تبشيرية لاواسط افريقيا لفتح مجاهلها امام المسيحية .

وسلم ستانلى الرسالة الى ارنست ممثل غوردون لما علم بعودته الى السودان لتوصيلها الى مقصدها ، ولما مات فى طريق عودته ، استخرج غوردون من متعلقاته الرسالة وإرسلها الى انجلترا التى استجابت وارسلت بعثة التبشير البروتستانتية (الانجليزية) عام 1877م ، واستتبعها بعثات كاثوليك الفرنسيسكان عام 1879م (262) .

الولاية الثانية

حكمادارا للسودان

الفترة من فبراير 1877 الى اخر 1879 م

بعد انسحابه من اوغندا ، عاد غوردون الى القاهرة عازما على الرحيل نهائيا الى انجلترا لغضب الخديوى منه ، واثناء وجوده فى لندن تنازعت الرغبة فى العمل مبعوثا فى بلغاريا للخارجية البريطانية ولكن الظروف حالت دون تحقيق رغبته ، فاتجه الى تنفيذ المشروع الذى اقترحه على الخديوى بفتح الطريق الذى يربط ممبسة بساحل شرق افريقيا بالبحيرات بالتعاون مع شركة شرق افريقيا الانجليزية .

(261) The New Columbia Encyclopedia 1975 , p. 2816 .

(262) The New Columbia Encyclopedia 1975 , p. 2816 .

وفى طور اخر فكر فى العمل لدى ملك البلجيك فى الكونغوا ، وإنقلبت خطته لما وصلته رسالة من الخديوى يذكره فيها بوعوده له قبل السفر بالعودة ؛ فاستجاب لمعزة الخديوى عنده وعاد الى القاهرة فى فبراير عام 1877 ؛ وفى مقابلته للخديوى إشتراط قيامه بمسئولية حكم السودان كله ، فأجابه الى طلبه وعينه حكمدارا عاما على السودان بسلطات لم تكن لاحد قبله ، وحدد له الخديوى اسماعيل مهامه فى الغاء الرق وتحسين المواصلات داخل هذا الاقليم المتسع لضمان السيطرة عليه وحل مسألة الحدود مع الحبشة .

وفى طريقه الى السودان واثناء وجوده بمصوع بلغه هجوم الزغاوة وميدوب على حاميات الحكومة ونجاح الثوار بقيادة هارون احد امراء دارفور فى عزل الحاميات المصرية بعضها عن بعض ، وبلغه ان الحامية مكونة من اترك ومولدين وشايقية ومغاربة وعشرين مدفعا غير قادرة على مواجهة الموقف ؛ ووصلته رسالة من الخديوى يطلب اليه الاستعانة بجماعة الزبير فى شكا وبحر الغزال وقبائل حمر وكبابيش فى كردفان لاختماد التمرد ؛ ففعل متضررا استجابة لامر الخديوى لاقتناعه بان الامر ما كان فى حاجة للاستعانة بمدد من هؤلاء بقدر ما كان فى حاجة الى قيادة رشيدة.

مشروع غوردون لالغاء الرق

ومواجهة ثورة دارفور

تلقى وهو ما زال فى مصوع برقيه من الخديوى يذكره بما ابلغه به اثناء المقابلة عن نية الشركة الانجليزية فتح الطريق ما بين زنبار ومنطقة البحيرات ، وطلبه بالمحافظة على ما تم فتحه فى خط الاستواء والتوسع فيه ، وامره بتعيين حاكم للمنطقة يتولى تلك المسئولية ففعل ؛ وعندما وصل غوردون الخرطوم فى مايو 1877 ، بعد مسيرة شهرين من مصوع ، وضع مشروع الغاء الرق بناء على تعليمات اسماعيل يقضى بالغائه تدريجيا مع اعتراف الحكومة بوضع الملكية الحالية للرقيق بشرط قيام الملاك بتسجيل العبد باوصافة لدى الحكومة ويحرر العبد بعد 12 سنة ، ويعتق فى حالة الاساءة اليه قبل ذلك المدى ، وهو ما تضمنته الاتفاقية الموقعة بين مصر وانجلترا لالغاء الرق عام 1877.

اختلف غوردون مع خالد باشا الحكمدار بالانابة منذ وصوله كما اختلف مع عثمان رفقى وكيل خالد باشا لفساده وغضب الاهالى عليه ونقلهما الى القاهرة (263) ، وعالج بعض الشكاوى واجرى بعض الاصلاحات ، ثم توجه بنفسه لاختماد ثورة دارفور لتباطؤ سليمان الزبير فى نجدة حاميتها ، الامر الذى اوغر صدره على سليمان الذى راه فتى صغير طائش غير موال للحكومة وطلب اعتقاله واحضاره فاعترض الخديوى حتى لا تتفاقم الامور .

ترجع غوردون حتى لا يغضب الخديوى ورأى ان يعمل على إضعافه ورفع شأن خصومه ، ورأى ان الاصلاح يقتضى تخفيف الضرائب لانها سبب ثورة دارفور ، واقترح تجنيد السودانيين بدلا من المصريين والعناصر الاخرى فهم اهل البلاد وعلى معرفة بها واكثر تواؤمة مع البيئة والمناخ.

وقف الفتنة

بعد استقرار غوردون فى الخرطوم بقليل ، استدعاه الخديوى الى القاهرة لرئاسة لجنة الايرادات لمعالجة الديون الخارجية لاقتناع الخديوى بقدرته على اقناع الجانب الاوروبى بوجهات نظر مصر ومنها تعزيز ميزانية الانفاق على السودان ، لكنه تنحى عنها لتعقد الامور وعاد الى الخرطوم واتخذ الاتى لتعزيز ميزانيته:

- حاول الخروج من مأزق الديون الخارجية لمصر بفصل ميزانيتها عن ميزانية مصر حتى لا تتحمل عبئ الدين ، ونجح فى ذلك .

- تخفيف الاعباء المالية لعدم توفر فائض لدى مصر للانفاق على السودان وقرر فصل الصومال اداريا عن الحكمدارية باعتباره عبئا ماليا .

- واوقف الفتوح داخل القارة فجعل اخر محطة للحكومة المصرية نقطة " مولى " التى تبعد عن منطقة البحيرات 100

²⁶³ (اصبح عثمان رفقى وزيرا للحربية فيما بعد وقامت فى عهده الثورة العربية

ميل ، ونهى الدكتور امين المصرى المقيم فى بلاط متيسا عن الاستمرار فى اتصالاته مع كل من متيسا ملك اوغندا وكباريجا ملك انيور ، لىست السيادة المصرية على المنطقة .

- ووقف مد السكك الحديدية لاكثر من الخمسين ميلا التى وصلتها جنوب وادى حلفا ، واتجهت نيته الى ان يعطى دارفور الى احد ابناء سلاطينها حتى يتخلص من مصاريقها ، وكلها اجراءات قلصت من النفوذ المصرى او تؤدى اليه فى النهاية .

وانشغل تلك الفترة بمحاربة تجارة الرقيق وتعقب سليمان بن الزبير

تمادى غوردون فى اذلال سليمان ، وانتهى العناد بينهما الى عصيان سليمان فتحامل غوردون عليه وعلى الزبير والده ، وإتهمه وهو فى القاهرة بتحريض ابنه على الثورة ، ولما فوضه الخديوى للتصرف فى امر سليمان ، صادر املاك والده وقبض على زوجاته وابنائهم وحاكمه غيايبا فى الخرطوم وقضى باعدامه هو وابنه اسماعيل .

رفض مجلس الاحكام فى مصر التصديق على قرارات المحاكمة لرفض الخديوى ان يؤخذ الاب بجناية الابن ، والغى الاجراءات الصادرة فى حق الزبير امرا باعادة ما صُودر من ممتلكاته ، فأرسل غوردون قوة بقيادة صديقه جيسى لمطاردة سليمان قبل انضمامه الى هارون الثانى فى جبال المنطقة ، فتمكن منه واغتاله ومن معه بعد ان استسلموا .

استبدال المصريين والعرب

فى الادارة بالاوربيين

عين غوردون السودانيين فى الادارة فى بداية عهده كنوع من الإصلاح ، لكنه انصرف عن ذلك بدعوى انهم وبالذات العرب يعرقلون جهوده فى مكافحة تجارة الرقيق ، واصر على التخلص من السودانيين والمصريين من الادارة واستبدالهم بالاوربيين وهدد بالاستقالة اذا لم يُجاب طلبه فوافق الخديوى .

وبعد الموافقة عين غوردون الاوربيين فى الاصقاع النائية بالجنوب ، واكثر منهم فى المناصب العليا فى الحكمادارية فعين من الاوربيين وكيل الحكمادارية (جتلر) ، وقام بإخلاء الجنوب من التجار المسلمين عربا وسودانيين وكان ذلك التصرف الغريب بداية المخطط التامرى لعزل الجنوب تمهيدا لضمه الى الكونغو خدمة لملك بلجيكا الذى يأمل فى العمل معه ، وفى نهاية ولايته هذه كانت بوادر الثورة المهدية قد بدأت .

تولى توفيق واستقالة غوردون

كان غوردون يُقدر اسماعيل وعلى علاقة قوية به وكان يُعبر عن قوة تلك العلاقة بإعلانه تكرارا ودائما نيته إعتزال الخدمة برحيل اسماعيل ، فعلا بعد وفاة اسماعيل ومجئ ابنه توفيق الى السلطة وتولى مجلس النظر الامور وتشده مع كبار الموظفين بما فيهم غوردون سافر الاخير الى القاهرة واستقال ، وقبلها المجلس على ان يقوم بسفارة الى امبراطور الحبشة قضى فيها ثلاثة اشهر كاد ان يموت فيها .

تقويم

الدور المصرى فى السودان

مد الاسلام

إهتم محمد على بنشر الإسلام وشجع الطرق الصوفية وخصص المساعدات للزوايا ؛ وبجهوده واصلت الدعوة تقدمها بين القبائل الوثنية فى السودان وبين المجندين فى الخدمة العسكرية فى مصر ، واعادت مصر الحياة الى رواق " السنارية " بالأزهر ، وخصص له أهل الخير الإعانات والأوقاف كبرلنته هانم .

واكب الفتح المصرى فى المناطق الاستوائية تقدم مد الاسلام ، وكاد ان يُسلم متيسا ملك اوغندا لولا تدخل ستانلى وتشدد مبعوثا الازهر الشريف الذين اوفدتهما مصر ورفضهما الصلاة خلفه لاسباب غير معلومة كما تشير الرواية (264) ، وفوت تشدد رجلا الدين الفرصة على دعم الوجود الاسلامى المبكر فى المنطقة بإيجابياته السياسية باستبقاء اوغندا ومنايع النيل فى عبادة

²⁶⁴ وان صحت نذكر بما تضمنه فصل فن الدعوة انفا من اهمية مراعاة عقلية المدعو .

مصر واستغلال وجود جالية مسلمة فى اوغندا للبناء عليه فى دعم الاسلام ، وكانت الجالية من القوة لدرجة انها شاركت فى خلع وتبديل الملوك كما حدث فى عام 1888 على نحو ما سنفصله لاحقا .

التعليم

اعتنى محمد على عناية فائقة بنشر التعليم بمختلف مراحلہ ولم يبخل فى سبيل ذلك بأى شئ ، فألحق ستة من السودانيين كبداية بمدرسة القصر العينى التجهيزية تم اختيارهم على اساس الصلاحية ، ولندرة الصالحين من السودانيين للدراسة انذاك فرض على اولئك دراسة مجالات إضافية كالزراعة ، وتمادى بتكليف بعدها بدراسة الألسن ليتذوقوا المعارف التمدنية لينشروها فى بلادهم على حد قول رفاعة الطهطاوى ، وتزايد عدد الطلاب السودانيين بمصر ليصلوا عام 1825م إلى مائة فى مدرسة المبتديان . كانت وفاة محمد على نكسة على التعليم فى السودان ، فقد تباطأ النشاط التعليمى فلم يشهد السودان سوى انشاء مدرسة واحدة عام 1269 هجرى فى عهد عباس الاول الذي قرر تطبيق التعليم الحديث فى السودان وانشأ مدرسة زج فيها برفاعة الطهطاوى لإدارتها للتخلص منه ، وضمت المدرسة 250 طالباً لكنها أغلقت بعد إفتتاحها بعام احد مع وفاة عباس . وفى عهد إسماعيل انشئت سبع مدارس إلتحق بكل منها مائة طالب ؛ عُين بعض خريجيها بوظائف الحكومة ، والبعض الآخر بمدارس الهندسة والبرق وهندسة البواخر والطب والصيدلة ، وإبثت آخرون للدراسة بالمدارس الفنية كما بُدئ فى تعليم السودانيين اللغات الأجنبية ، وفى عهد ممتاز باشا حاكم السودان فى الفترة سبتمبر 1871- نوفمبر 1873م خطط لإرسال مائة من خريجي مدرسة الخرطوم لإتمام دراسة الميكانيكا والزراعة بمصر . وفى عهد توفيق استمر التوسع فى بناء المدارس رغم الضائقة المالية التي مرت بها مصر بسبب الديون الأجنبية فأقام مدرسة للطب ، ووجه الخديوى " بتعليم سكان الجهات المذكورة ، وبذل الاعانات لهم و للمساجد التي تدرس العلوم الشرعية وأغلقت هذه المدارس أبوابها خلال الثورة المهدية عام 1881 .

لم يقتصر إهتمام مصر على بعض المناطق دون الأخرى فوصل إهتمامها الى القاصى والدانى ، فاولت إهتماما بنهضة الجنوب كنهضة الشمال ، فاهتمت بالتعليم فى مديرية خط الإستواء منذ عام 1864 فأقامت به المدارس وبعثت اليه بالمعلمين واهتمت بنشر اللغة العربية ؛ كما اهتمت بتعليم أبناء العبيد المحررين فأقامت لهم المدارس فى "سواكن" و "سنار" ن وقد ادت المدارس النظامية خدمات لامثيل لها للإدارة السودانية فقد زودتها بالكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف الامر الذى كان له اثرا بليغا فى النهضة العامة فى ربوع السودان .

العمران والتنمية العامة

راى محمد على ان توطيد ملكه يقتضى العمل على رفاهية السكان ، فعمل على زيادة الانتاج بتحسين المزروعات ونسل الحيوانات واستحضار الخبراء وتدريب السودانيين فى مصر وتعليمهم ، واهتم بالتعدين ، واقام المدارس ، واتخذ بادرة طيبة للحد من نظام الرق.

أما حقبة اسماعيل فقد كانت عمرانية لم يعرف السودان لها مثيلا فى كل العهود التركية السابقة على حد وصف د شببكية ؛ فقد وجه الولاة الى " تعمير البلاد واصلاحها وادخالها فى عداد المديرية المصرية التي هى اكثر عمراناً وازدهاراً ، وكذا توسيع نطاق التجارة ومعاملة اهل البلاد بالعدل والحقانية وان تبذل أقصى الجهود فى تزييد عمرانيته وايصاله الى غاية الكمال من جهة الامن والانضباط العام " (265).

فقد غنى المصريون فى عهد اسماعيل بتطوير الزراعة فأنشأوا نظاما للرى وحفروا الترع وأدخلوا تطبيقات الزراعة الحديثة ومحاصيل جديدة ووزعوا البذور مجاناً وأدخلوا نظام السواقي فى الرى ؛ ولإسماعيل الفضل فى اقامة خطوط البرق وادخال السكك الحديدية ، وهو الذى ولى اهل البلاد الادارة وأنشأ المصانع والمحالج والسكك الحديدية وشجع التجارة . وانشأ اسماعيل المدن فأقيمت مدينة الخرطوم عام 1830 على قواعد التخطيط الحديث حيث نبه اسماعيل الى مراعاة "ان

تكون الشوارع متسعة منظمة وان تنشأ المباني بطريقة تتفق وقواعد الصحة وفن الهندسة " كما اشار لمعالجة هجوم السيول وبناء المستشفى فى مكان فسيح طلق الهواء له حديقة وان يقام معسكر الجند بعيدا الخ ، وقد لاحظ بيكر على النهضة فى الخرطوم وبربرة فى العهد المصرى وأطرى عليها.

الوضع السياسي

ساعد الفتح المصرى على بلورة مفهوم الوطن الواحد بعد دمج الكيانات الصغيرة فى كيان كبير شكل اساسا لدولة مركزية كان محمد على يطمح فى ان يجعلها جزء لا يتجزأ من امبراطوريته ومفتاحا لتوسعه فى قلب القارة ؛ فعمل بحق ومن بعده اسرته على إنهاء السودان ، والدلالة القوية على اخلاص نية الاسرة نلتسمها فى العرض السابق .

ورغم ما شاب ادارة الاسرة بالاصالة او بالوكالة من سلبيات ، فقد كانت تترصد وتباشر الادارة بالتوجيه والعقاب ، ولم تتسم الادارة بطابع استغلالي يأخذ ولا يعطى ، وانما فى الحقيقة كان يعطى ولا يأخذ ، وهو ما ينفى عن مصر ان فتوحاتها كانت بقصد الاستعمار والاستغلال ، ففقر هذه المناطق وقسوة مناخها وما تكبدته مصر من اعباء مالية وبشرية لفتحها وتطويرها ينفي هذا الطرح ، ولكنه لا ينفي عنها روح التوسع الامبراطورى التى تملك كبريات دول ذلك العصر وقادت محمد على الكبير الى فتوح وحروب فى كل الاتجاهات لم يبخل فيها بالتضحية بأبنائه (266) .

ومن هذا المنطلق كانت علاقة الاسرة بالسودان علاقة خاصة فالاسرة العلوية جعلت تلك البلاد وكأنها ملكية خاصة ؛ تحرص على متابعة اوضاعها بكل تفصيلاتها والعمل على حل مشكلاتها وضمان حسن معاملة شعبيها ، وكثيرا ما تضمنت الاوامر الملكية الى الادارة حسن معاملة السودانيين ، فالخديوى سعيد يوجه الى " اجراء ما فيه المنافع العمومية وعمار البلاد ورفاهية العباد .. ومعاملتهم بالرفق والرحمة .. ويقوم بزيارة الى الاقاليم السودانية للاطلاع على احوال من فيها .. " ، ويستهن فى موضع اخر ما شاهده من ضنك الاهالى ومضايقتهم بكثرة المطالبين (الضرائب) ؛ ويوجه " بمراعاة ربط الضرائب على قدر الطاقة " .

ومن بعده حدد الخديوى اسماعيل الخطى لتأمين شعبه فى السودان من الشرور وفساد الادارة فيقول لحكمदार السودان بعدما علم بتهاون مدير منطقة النيل الابيض فى مواجهة غارات النهضة على الدكة والشك " ان اهم ما نفكر فيه ونسعى الى تحقيقه هو ادخال السودان بما فيه جهات البحر الابيض فى دائرة المدنية والعمران كما هى الحالة فى اقاليم الحكومة الاخرى ؛ ويستطرد قائلا ؛ ومع ان السودان لا ايراد له فى الوقت الحاضر فاننا لمجرد ادخاله فى هذا الطريق ورغبة فى اسعاد اهاليه قد انشأنا مديرية البحر الابيض التى كلفتنا انشاؤها الكثير من النفقات ، ونسعى لعمران تلك الارحاء .. " .

وجه الخديوى بمعاينة المدير ليس فقط لاهماله امن المواطنين وانما ايضا لقيامه ببيع الرقيق المحررين لحسابه الشخصى واوصى " ألا يكتفى بعزله وانما يجب ان يُرسل ايضا الى فازوغلى ليعتقل هناك ويستخدم بالاشغال الخسيسة ليكون عبرة للآخرين ، واما الرقيق الذى باعه فيجب استرداده واعادته الى اوطانه بالراحة واسكانه فيها .. " .

وهذا موقف كريم ورحيم للخديوى بمواطنيه السودانيين ، وهذه الوقائع تبرز روح الاخوة التى حكمت تصرفات مصر فى السودان فى معظم الاحيان ، كما تعكس الفرق بين الاستعمار وبين الفتح ، فمصر رغم نضوب مواردها تحملت العبء المالى للفتوح وتكاليف نهضة تلك البلاد المعروفة بفقرها دون مقابل .

ولا ننكر معاناة السودانيين من عبء الضرائب التى فرضتها ادارة الاسرة للاندفاع على الادارة وتطوير البلاد ؛ وأضجرتهم شدة جباة الضرائب من الشايقية والأكرد والمغاربة ، فلم يطق العرب هذه المعاملة وهجروا مزارعهم وهاموا سائحين فى أرض السودان كما عانوا من تعسف الادارة وفسادها ومعظمها من الترك والجرس ، وزاد الامر سوءا اقتحام المعادلة المصرية السودانية عنصر دخيل فى إدارة السودان عندما فوض الخديوى إسماعيل إنجليز فى الادارة ومنح غوردن باشا سلطات واسعة . فأساء إطلاق أيديهم فى أمور الرعية المسلمة فى السودان إلى مصر ؛ وكان له أسوأ الأثر فى بث الفرقة ليس فقط بين

266 () وتلك الروح المتأصلة فى الاسرة هى التى دفعت الخديوى سعيد باشا ليقتف بـ كتيبة مصرية / سودانية من 453 جندي وضابط الى المكسيك لمساعدة القوات الفرنسية فى حربها هناك لتلبية لنداء نابليون الثالث امبراطور فرنسا.

البلدين الشقيقين وانما ايضا بين السودانين أنفسهم بتطبيق الانجليز سياسة فرق تسد وروافدها من سياسات تمييزية على البعض دون البعض الآخر ، ففي مجال الضرائب وجيعة السودانين اعفوا الشايقية من الضرائب دون غيرهم مما أغضب الجعلية وميزوا الميرغنية فأثاروا بقية الطوائف، وفرقوا بين الشمال والجنوب وفصلوا بينهما فأوقفوا تطورهما الطبيعي نحو الاندماج واستعدوهما ضد بعض .

ويقوم د. شببكة المرحلة المصرية بانها قامت على المنافع المتبادلة بالاستفادة من البلاد وفي الوقت نفسه افادة اهلها ، وفي رأيه ان الحكم على العهد بأكمله امرا عسيرا ، فهناك فترات طمأنينة واستقرار تُعَلَى من شأن عهد ما ، وهناك فترات من الشدة والفوضى تُنزل من شأن عهد اخر الى الحضيض ، وفيه من الحكام من كان نظيف اليد وعفيف النفس بينما هناك منهم غير ذلك .

الفصل الثالث الثورة المهدية نهاية غوردون والادارة المصرية وبدء حكم الانجليز

الثورة المهدية

أسس الحركة المهدية محمد أحمد المعروف بالمهدى وهو من مواليد دنقلة عام 1843م (1260 هـ) ، وينتمى لأسرة كنزية من العرب المخلطين مع النوبيين ، عمل ابوه فى صناعة المراكب واتسم بالزهد والتقشف ، وساعده امتداد نسبه الى آل البيت على لم شمل الفصائل المتنافرة حوله المتضررة من الوضع العام ، ومع تصاعد الغضب الشعبى ، بدأ يستثير همم الشعب السودانى ، واتسم فكره بالإصلاح ذى الطابع الجهادى ، ونادى بإبطال الرق واتسع نطاق دعوته لتتحول الى ثورة عامة مع تطبيق الادارة للقوانين الفرنسية الوضعية التى تخالف الشريعة ، و تزامنت حركته مع الثورة العربية فى مصر .

ابتدأت دعوة المهدية سرا ثم بالمنشورات ولما علمت الحكمدارية بذلك ارسلت ابو السعود لتقصى الامر ومعه بعض قرابة المهدى لاقناعه بترك دعوته ، لكن المهمة فشلت واكد له المهدى انه لن يتراجع عنها ولما ذكره ابو السعود بالاية الكريمة اطيعوا اولى الامر رد بأنه ولى الامر فى هذه الاوان ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

فى ضوء هذا الموقف ارسلت الحكمدارية بتاريخ اغسطس 1881م قوة مسلحة بالبنادق ومزودة بمدفع الى جزيرة آبا للقبض على المهدى الذى استعد للمواجهة واعلن لأول مرة مهاديته وفاجأ القوة بمائتى رجل مسلحين بالسيوف والحراب فى مكان موحد لم تتمكن فيه من استخدام اسلحتها ، وقتل منها 120 رجلا وفر الباقون ، وتحسبا لرد فعل الحكومة ؛ سار المهدى الى جبال تغلى بعد ان اعلن ملكها الولاء له ، وتحصن بمكان يصعب اختراقه يدعى "بطن امك" بناء على نصيحة الملك ، وهو مكان اعتاد اهل المنطقة فى ثوراتهم التحصن به هروبا من المطاردة ، وحاول مدير كردفان ملاحقته بقوة كبيرة من الابيض وصلت المنطقة بتاريخ 8 اكتوبر ، لكنها لم تتمكن منه لتضيق الاهالى وملك تغلى عليها فانسحبت فى 23 منه بعدما ادركت ان قوتها لا تسمح لها بالمواجهة ، فسقطت فريسة لهجمات الانتصار الذين غنموا بعض اسلحتها فى تراجعها .

فى اخر عام 1881م توجهت قوة بدون موافقة الحكمدارية فى كتمان من فاشودة بقيادة راشد من 350 جندي و 70 من الخطرية والى الف من الشلك على راسهم ملكهم ، للقضاء على المهدى لكن الانتصار علموا بها واستعدوا لها وانتهت المعركة بنصر حاسم للمهدى ، وقتلت اغلبية القوة بما فيه قائدها وملك الشلك ، ومع صمود المهدى تعززت مكانته وزاد انصاره وقواته وتدفقت عليه الامدادات وأدرك الحكمدار خطورة الموقف وضرورة استدعاء قوات من المحروسة ، فى هذه الاثناء تولى العربيون السلطة واعتقدوا ان ما يحدث فى السودان لا يستوجب ارسال مدد من القوات لاحتياجهم اليها فى مصر تحسبا لهجوم انجليزى ، ورأوا ان حكمدارا جيدا يستطيع اعادة الامور الى نصابها ، وعينوا لهذه المهمة عبد القادر باشا لكفائه وكان يشغل منصب وزير السودان فى الحكومة ، وهو منصب مستحدث .

وصل عبد القادر باشا الخرطوم فى مايو 1882م ، فوجد جتار القائم باعمال الحكمدارية قد ابتعث جيشا من 13بلوكا من الجند النظامية والى وخمسمائة من الخطرية الشايقية بقيادة يوسف باشا الشلالى وهو من الكنوز وحاكم بعض الاقاليم ترقى فى مناصبه لذلكه وكان مساعدا لجسى قائد تجريدة الحكومة على الزبير .

سار الشلالى الى المهدى فى عرينه بقدير لكن حملته تعثرت فى الطريق بعد ان ترصدته جواسيس المهدى ، فقبض عليهم وأعدمهم لما خاطبوه بشدة بطريقة وحشية بتقطيع الاعضاء دون ان يقره القاضى المرافق للحملة على ذلك ، وكانت مثل هذه الاعمال تزيد الغضب على الحكومة وتضعف تعاون اهل البلاد معها ، وانتهت الحملة بمعركة اعتبرها د. شبيكة من اشد المعارك بين المهدية والحكومة باندحار الشلالى الا القليل (يمكن تتبع تحركات المهدية على الخريطة التالية).

ادى نصر المهدي على الشلالى الى مزيد من تعزيز مكانة المهديّة فاشتعلت ثورات التأييد والدعم فزادت الامور تفاقمًا مع الغضب المستمر من اعباء الضرائب ، وتسبب تنكيل الحكومة بـ عامر المكاشفى لانضمام اخيه الشيخ احمد المكاشفى الى المهديّة فى قدير ؛ فى ثورة اخيه فى الجزيرة واقتحامه والثوار سنار ومحاصرة قوات الحكومة التى دخلتها اثناء غياب المكاشفى ، وفك حصارها جتلى بن وثار اخرون مثل الشريف احمد طه ومحمد زين التكرورى فى شرقى النيل الازرق وتمكنوا من هزيمة قوات الحكومة فى عدة معارك ، ولكن قوة بقيادة جتلى ودعم من الشكرية ، تمكنت من قتل الشريف وانتصرت على محمد زين التكرورى فى ابي شوكة ، ولما عاد جتلى الى الخرطوم وجد عبد القادر باشا قد وصل وتولى المسئولية وأرسل قوة طاردت عامر المكاشفى وتمكنت من هزيمة عرب عامر وفر عامر الى المهدي ، كما ثار ود الصحابى فى الجبلين وتغلب على قوة الحكومة ، وهاجم حامية الداعية الاكبر احمد المكاشفى و سار الى سنار ، وهزم فضل الله ود كريف جند الحكومة فى ام سنيطة واستمرت المقاومة حتى نهاية عام 1882 ولم تخمد ، فاضطر عبد القادر فى يناير 1883 لمطاردة الثوار فانتصر على ود كريف ودحر ود المكاشفى ، ودخل سنار وواصل مسيرته جنوبا ليطارد الحاج احمد عبد الغفار وشتت جمعه وعاد منتصرا .



قوى الثورة في كردفان ودارفور

بعد انتصار المهدي في قدير على الشلالى في مايو 1882 ، سقطت حاميات كردفان واحدة تلو الاخرى ما عدا بارة والابيض ، وبعد شهرين تحركت قوات المهدي الى الابيض وطلبت الى الحامية الاستسلام لكنها ردت بقتل الرسولين ولم يتمكن



الانتصار منها وخسروا المعركة وقتل منهم عشرة الاف من ضمنهم اخوا المهدي . ترك المهدي الحامية محاصرة وحاصر معها حامية بارة وقطع الطريق على الامدادات للحاميتين وارسل لاحضار الاسلحة النارية ، وترجع ضخامة خسائر قوات المهدية الى اعتمادها فى القتال على السيف والرمح وعدم استخدامها الاسلحة النارية القليلة

التي غنموها من قوات الحكومة ، لكنهم خلفوها ورائهم لسبب غير معروف ، ومع تدهور الاحوال طلب عبد القادر مددا لردع الثورة ، فلم يوافق عرابى على واكتفى بارسال الاسلحة فغضب وطلب اعفاؤه من الحمدارية ، ولكن الخديوى رفض مدلا اياه بانه يرغب فى ان يكون النصر على يديه .

وبعد احتلال الانجليز مصر ارسلوا الكولونيل ستيوارت للتعرف على الاحوال فى السودان وكان معجبا بإدارة عبد القادر للامور وغضب على جتار لضعف خطته ، وطالب بتعيين ضباط انجليز فى السودان ، فأرسلت انجلترا هكس لرئاسة اركان الجيش فى السودان ، وفى ذلك الوقت الذى استسلمت فيه حاميتا الابيض وبارة للمهدى والغت مصر نظارة السودان التى كان يشغلها عبد القادر استدعته القاهرة رغم توصية ستيوارت باستمرار وجوده.

احرزت قوات الحكومة بقيادة هكس نصرا فى الجزيرة على احمد المكاشفى واخيه من انصار المهدى ، واعدت الحكمدارية العدة لاسترداد الابيض من يد الانصار ، وكان الاهالى يسبقون حملة الحكومة بهجر القرى وعدم ترك ما يفيد الحملة فلم يجد الجيش زادا ولا ماء ولم يجد من يعاونه ، وانهكته مناوشة عصابات المهدى وعندما جاءت المواجهة انتهت التجريدة التى ضمت عشرة الاف جندي بهزيمة منكرة فى غابة شيكان فى 4 نوفمبر 1883 ، وخلصت بذلك كردفان للمهدى وانقطع المدد عن حاميات دارفور .

غوردون فى السودان

الولاية الثالثة

مع استمرار تدهور الحال ، رأت بريطانيا عدم التدخل ونصحت مصر بالانسحاب من السودان الغربى والاستقرار فى جزء محدد تستطيع الدفاع عنه منفردة ، وفى نوفمبر 1883 ، وهى تستعد لترحيل قواتها من مصر وكانت قد قطعت شوطا كبيرا فيه ، اصرت على انسحاب مصر من السودان لكن اباداة حملة هيكس كانت نذيرا بتضخم خطر المهدية ، فأوقفت الترحيل وقررت استبقائها للدفاع عن مصر ضد خطر زحف المهدية .

راى بيرنج المندوب البريطانى فى مصر الثبات فى الخروطم لتأمين انسحاب القوات المصرية ، وكانت دوائر المتمسكين بالبقاء فى السودان يرون ارسال الزبير من القاهرة على رأس حملة من ستة الاف جندي سودانى لقتال المهدية والاستعانة بالترك او بقوات هندية من الجيش البريطانى لدعمه ، وكانت بريطانيا مترددة بالنسبة للاستعانة بالترك .

ولما استقر الامر على اخلاء السودان باكملة ، وقع الاختيار فى البداية على غوردون للقيام بالعملية ، لكن شريف باشا رفض ذلك خشية تخلى القبائل التى ما زالت على ولائها للحكومة عن دعمها ، اذا ما عينت مصر مسيحيا فى هذا المنصب الكبير ، وانتهى الامر الى ابتعاث ضابط انجليزى لسحب الحاميات وتأسيس نظاما للحكم يلئم الوضع فى السودان وهو ما لم يعجب شريف لايمانه بالاحتفاظ بالسودان فاستقال فى يناير 1884.

ومن الجدير بالذكر انه عند مناقشة عملية الاخلاء أستبعد غوردون من قيادة العملية واستقر الامر على عبد القادر وزير الحربية الذى سبق ان خدم فى السودان ، ولكن خلافه مع بيرنج حول مسألة الاعلان من عدمة عن الاخلاء ، اجعلهم يستبعدونه .. فالاول يرغب فى الا يتم ذلك بينما يرى الاخر مصلحة فى ذلك واخيرا استقر الامر على قيام غوردون بالمهمة .

غوردون والاخلاء

وبعد اجتماعات بين الحكومة المصرية وغوردون وبيرنج فى القاهرة ، تم الاتفاق على سحب القوات واقامة حكومة اتحادية من الملوك والسلاطين ، واقترح غوردون الاستعانة بالزبير ، لكن بيرنج رفض لانه يرى ان الزبير يعرقل المهمة ولا يعينه ، و سافر غوردون فى يناير 1884 الى السودان ، وفور وصوله بربر بعث بكسوة الى المهدى وابلغه بأنه سيصبح ملكا لكردفان ، واعلن غوردون للاهالى العزم على الاخلاء واعادة السلاطين ، وكان قد اصطحب معه من القاهرة الامير عبد الشكور من سلالة سلاطين دارفور ، ولكنه رده من اسوان لعدم كفايته وكثرة سكره ، ولكن تنازعت غوردون الافكار بشأن مستقبل السودان وتردد ففكر فى تسليم بحر الغزال الى ملك البلجيك لتوجيه ضربة قاضية لتجارة الرقيق فى منابعها ، وكتب الى الملك بذلك ، وفكر ايضا فى حكم ذاتى للسودان تحت اشراف مصر ثم استبعد الفكرة ، وفكر فى حكومة برئاسة الزبير ، ولكنه فى النهاية استقر على الاخلاء ، فأصدر اوامرة بوقف العمليات الحربية والاعداد للاخلاء ، لكن المهدى لم يمهله وارسل لتطويق الخرطوم .

ثورة السودان الشرقى

هزيمة بيكر و جراهام

فى اغسطس 1883 اثناء تجريدة هكس على الابيض اشعل المهدية الثورة فى السودان الشرقى بقيادة ابى دقنة والشيخ الطاهر المجذوب وتمكنوا من قطع الطريق الى البحر الاحمر طريق انسحاب القوات ، واستمر الانصار فى مناوشة قوات الحكومة وتمكنوا من دحر قوة كبيرة من ستة الاف جندى بقيادة فلنتين بيكر الذى فر ومن بقى معه الى الواپورات (السفن النيلية) الراسية فى مرفأ ترنكات ، ونتيجة هذه الهزائم طلبت لندن من غوردون وهو فى طريقه الى السودان لتنفيذ الاخلاء العودة اذا ما كانت الهزائم تؤثر على مهمته فرفض حرصا على سمعة بريطانيا ، كما اعترض على تفكير لندن ارسال حملة من اربعة الاف جندى الى السواحل الشرقية لتأمين ميناء سواكن وفك الحصار عن حامية طوكر وتسهيل انسحاب بقية الحاميات، مبررا رفضه على اساس ان مهمته سلمية ، والتى كان يروج لها على الاساس السلمى.

حملة جراهام وقوات الصحراء بقيادة ولسلى

تقرر فى النهاية ارسال حملة بقيادة الجنرال جراهام لفك الحصار عن حامية طوكر وحماية سواكن ، وكان غوردون يروج لمهمته السلمية متمسكا بالاخلاء على ان تكون هناك حكومة قوية برئاسة الزبير تساعده فى هذا ، وطلب قيام قوة بفتح طريق سواكن لتسهيل وصول الزبير ، وقد ادى تناقض السلوك البريطانى بين ارسال قوات وادعاء غوردون الانسحاب ، لعدم الثقة فى نية بريطانيا الاخلاء ، خاصة وان رأى العام البريطانى لا يقبل بالزبير وهو اكبر تاجر نخاسة فى افريقيا فى ان يقوم بدور تحت المظلة البريطانية حتى لا تتأثر صدقيتها فى محاربة الرقيق .

اشتبكت الحملة مع الانصار فى المنطقة الشرقية فى عدة معارك ثم عادت الى سواكن ، ولم يكن لديها المقدرة على الفعل او فك حصار الخرطوم ، فى ذاك الوقت هب اهل الجزيرة لدعم الثورة وحاصر الانصار الخرطوم وقطعوا خطوط البرق من حولها فى 12 مارس 1884 ، و تمكن الانصار من الاستيلاء على بربر، وفى 22 من الشهر ارسل ابو قرجة قائد الحصار الى غوردون برد المهدي على رسالته ، بدعوته للاسلام والاستسلام ومع الرسالة جبة هدية فلم يجبه .

ومع تأزم الموقف وتأخر الرد بخصوص اقتراحه تعيين الزبير ، بدأ غوردون الحديث عن استقالته (فى حالة عدم تعيين الزبير) والتوجه عبر الجنوب الى الكونغوا للخدمة لدى ملك البلجيك ، وان تنسحب حامية الخرطوم الى بربر انقاذا لها ، وفى هذه الاثناء كانت المناقشات تدور فى لندن حول انقاذ غوردون ، وفى ابريل تقرر ارسال حملة الانقاذ بقيادة اللورد ولسلى عن طريق النيل ، وكان غوردون صامدا ونجح فى رفع الحصار عن الخرطوم فى اواخر يوليو 1884 ، وتعبقت قواته الانصار الى ام دبان حيث استدرجوها الى ارض مشجرة داخل الاحراش وقضوا عليها ، وبعد هزيمة ام دبان تراجع غوردون عن عزمه ارسال قوة لتحرير بربر ، وانتظر قدوم قوة الانقاذ البريطانية ، وارسل ستيوارت الى مصر عن طريق النيل لينقل اليها الوضع فى الخرطوم ، الا انه قُضى عليه ومن معه بعد ان اصطدمت باخرته بصخرة فى ارض المناصير الذين قضوا على ركبها .

وفى 21 سبتمبر بلغ امر حملة الانقاذ الى غوردون فابتهج وقام باستئجار البيوت على النيل لايواء القوات عند وصولها ، لكن الامر لم يسر كما اشتهى فقد واجهت الحملة مشكلات عديدة لعدم تعاون القبائل التى اعتقدت ان الحملة جاءت بدون رضاء الخديوى من ناحية ، وخوفا من الانصار من ناحية اخرى ، فتحاشت مساعدتها فلم تزودها بالجمال وعرقلت تقدمها .

تقدمت الحملة من كورتى فى 16 ديسمبر 1884 والتقاها الانصار عند النهر ، لكنها نجحت فى اجلائهم من ابى طليح ، وعندما التقت القوة بالواپورات التى سبق ان ارسلها غوردون لاستقبال طلائع الحملة ، ارسلت الحملة قوة انقاذ سريع عن طريق النهر للوصول الى الخرطوم ، لكنها تراجعت عندما اكتشفت سقوط المدينة عند وصولها مشارف الخرطوم فى 24 يناير 1885 .

سقوط الخرطوم ومصرع غوردون

قاد عبد الرحمن النجوى حصار الخرطوم ، وارسل الى غوردون يطلب منه التماس الامان من المهدي عند وصوله ، فأبى رغم تدهور الروح المعنوية فى المدينة ، التى زادها تدهورا وصول المهدي وتجرو مؤيديه داخل الخرطوم على الناس ، فحاول احمد العوام احد المنفيين من ثوار العرابية حرق مخزن ذخيرة القوات الحكومية فتم اعدامه .

لم يتعجل المهدي في مهاجمة المدينة لرغبته في استسلامها دون اراقة دماء ، فكاتب غوردون من جديد في الاستسلام دون جدوى مجاء رد غوردون بمحاولة كسر الحصار ومناوشة الانصار ، ففي اول عام 1885 خرجت قواته مرتين للتصدي للانصار .

وفي هذا الوقت استسلمت حامية ام درمان لنفاذ الاقوات فضمها المهدي الى قواته وكاتب غوردون من جديد للاستسلام واردفه بكتاب اخر دون جدوى ، وفي 20 يناير ، وصلت اخبار موقعة ابى طليح بين الانصار وقوة الصحراء البريطانية التي نجحت رغم المقاومة في التقدم نحو النهر فقرر المهدي عدم الانتظار ، وهاجم المدينة في 26 يناير 1885 واستولى عليها وقتل غوردون برماح الانصار ، وغضب المهدي لمقتله وقيل انه كان يرغب بمبادلتها بعرايى ، ولما علم المهدي بوجود قوة الصحراء في القبة ، ارسل النجوى لمطاردتها ، ولكنها كانت قد تفهقرت الى ابى طليح لسوء حالتها ، وواصلت التراجع تحت غارات الانصار حتى كورتى ، وحدث نفس الشئ للحملة النيلية وفقدت قائدها ولحقت ببقية القوات فى كورتى فى 16 مارس .

وفي الوقت الذى حاولت القيادة الانجليزية فيه اعادة ترتيب الاوضاع طلبت الحكومة الجديدة فى لندن من ولسلى فى 3 ابريل ، صرف النظر عن العمليات الحربية لعزمها الجلاء وفعلوا اصدر امره للقوات بذلك فى 11 مايو ورحل عاندا الى لندن .

تقدم الانصار الى دنقلة فى صيف 1885 ، فوجدوا الانجليز قد اخلوها فضموها الى اراضى المهديّة ، وفى منطقة الخرطوم اسس المهدي ام درمان واقام فيها و بعث قواته للقضاء على التمردات واستكمال اسقاط الحاميات ، وفكر المهدي فى مواصلة فتوحه نحو مصر فأرسل الى الخديوى توفيق خطابا يطالبه بالتسليم للمهديّة ، يقول فيه ها انا قادم على جهتك بجنود الله وعن قريب انشاء الله تعالى ، وكان فى نية المهدي الجهاد فى كل مكان يمكنه الوصول اليه من اجل الدعوة والوحدة الاسلامية ، فبعث الكتب والدعاة للبلاد الاسلامية وعين اسيرا شاميا عاملا من قبله عليها ، و استقبل البعض ثورته بالترحيب فاستنهضه اهل المغرب المقيمين فى مصر ليقم فيهم اميرا ، ويقول فيه تشرشل الذى حارب ضد الثورة المهديّة فى كتابه " حرب النهر " " لو كان المهدي حيا (توفى عام 1885) ، لامكنه بقوة عزمته احتلال العالم الاسلامى " ، وهو ما تنبه اليه ايضا غوردون فذكر فى حديثه الصحفى اواخر عام 1883 اثناء مداولاته فى لندن وقبل حضوره لتنفيذ مهمة الاخلاء ان ثورة المهدي تنتشر بسرعة البرق وسوف تتطاول شراراتها الى الجزيرة العربية عبر البحر الاحمر والى صعيد مصر شمالا وليس فى استطاعة النقط البحرية ان تحبس تيار هذه الثورة (267) .

استغل المهدي الفترة التالية فى العمل على تنظيم البلاد واستقرار الامر فيها الى ان ادركته المنية فى يونيو 1885 قبل ان يستكمل حلمه .

ال خليفة عبد الله بن السيد

تولى عبد الله بن السيد وهو من ابناء دارفور الخلافة بعد موت المهدي ، ولم يستقر الامر فقد انفجر الخلاف بين المهديّة وطال ابناء المهدي ، وعصف باهل الاقليم انحباس المطر والمجاعة عام 1306 هـ فحصد اعداد فاقت ما حصده الحرب المهديّة ، وتفشّت الحروب الاهلية و الفتن والثورات فكلما اخمد احداها فى جهة الا ونشبت فى جهة اخرى واعتصم المتمردون بالجبال ؛ فتمرد زعيم الرزيقات فى دارفور وتمرد الشيخ صالح كبير الكبابيش وحاول الاستعانة بالحكومة المصرية ، واعلن الامير يوسف سليل سلاطين دارفور استقلالها ، فقتله الانصار فأمر الفور ابا الخيرات سلطانا عليهم ؛ واعلن ابو جميزة العصيان فى درتامة واجتمعت حوله قبائل غربى دارفور احتجاجا على سد الخليفة طريق الحج امامهم وتفاقم امر ثوار دارفور ولكن الانصار تمكنوا من الانتصار عليهم فى موقعة عظمت فى فبراير 1889 ، وطاردوا اتباع الامير يوسف بعد مقتله الى وداى لفتحها بعد مراوغة سلطاتها وايوانه اعداء المهديّة.

التقدم نحو مصر

تابع المهديّة قوة الصحراء الانجليزية الى مصر لكنها انهزمت ونجحت القوة الانجليزية فى انسحابها الى حلفا ، وبعد فترة

تقدم النجومي في 3 مايو 1889 بقوة لتعقب الانجليز تعرضت لمصاعب جمة لاخلاء القائد الانجليزي القرى حتى لايجد الانتصار من يدهم بالمون ، وعندما احتشدت القوات برئاسة جرانفيل في اسوان ، طلب الى النجومي الاستسلام لكنه رفض وكانت موقعة توشكى في 3 اغسطس 1889 ، انهزم فيه الانتصار لسوء حالهم ؛ وكان هذا الهجوم سببا في تحول مصر ومعها بريطانيا عن سياسة الاخلاء والعودة الى السودان من جديد ، خصوصا ان قطاع من السودانيين طالب مصر تخليصهم من الخليفة ، فقد تقدم وجهاء وتجار مديرية كردفان بتقديم عريضة عام 1886 في هذا الشأن ، ومثلهم الجعليون الذين طلبوا الى قائد حامية حلفا انهاء حكم الخليفة .

الحرب مع الحبشة

اثناء القتال مع الانجليز في الشمال ، كانت حامية القلابات تناوش الاحباش في الشرق وقتل قائدها فقام الامير الديكيم القائد الجديد باعتقال تجار الحبشة وارسلهم الى ام درمان ، فأرسل الخليفة خطبا الى يوحنس الرابع ملك الحبشة (1872 - 1889) يدعوه للاستسلام (268) ، فقام الملك باستعدادات لاجلاء المهديّة عن القلابات (269) ؛ ولما علم الخليفة باستعداد الاحباش للقتال ، ارسل ابي عنجة لقيادة الجيش في المنطقة ومعه خطاب الى يوحنس الرابعينذره ، ولما لم يرد ملك الاحباش تقدم ابي عنجة في اراض النقيش (النجاشي) بعد مسيرة تسعة ايام واشتبك مع الاحباش في فجر اليوم العاشر ، ولما اشتد القتال فر الاحباش والقوا بانفسهم في النهر .

توجه ابو عنجة الى قنطرة Gondar ام مدانهم يوم السبت 7 جمادى الاولى ، فجاءه كبراء المسلمين في جبرت طالبين الامان فدخل المدينة واعجبته قصورها ثم رجع الى القلابات ، وبعد اربعة اشهر خرج الى الاحباش فلم يجد من يتصدى له فعاد؛ ولما كان الوجود الايطالي قد ثبت اقدامه في مصوع ويهدد بالتقدم في المنطقة (270) ، طلب يوحنس الرابع ملك الحبشة الصلح من المهديّة للتفرغ للخطر الايطالي (271) ؛ فأرسل الى القائد حمدان ابي عنجة (ابو عنجة) رسالة صلح يقول فيها " اذا انا حضرت الى بلادكم واهلكت المساكين ثم جنتم انتم واهلكت المساكين فما الفائدة من ذلك ، والواقع ان الافرنج اعداء لنا ولكم فاذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم بل خربوا دياركم واذا ضربوكم وكسروكم فعلوا بنا ذلك ، فالرأى الصواب ان نتفق عليهم ونحاربهم ونغلبهم " .

وتحدثت الرسالة عن تبادل المنافع التجارية بتبادل اعمال التجارة في ارض كل للاخر " فاذا صار كذلك فهو غاية المنفعة لنا ولكم لانكم انتم ونحن في الاصول السابقة اولاد جد واحد فاذا قاتلنا بعضنا بعضا فماذا نستفيد فالافضل والاصوب لنا ولكم ان نكون ثابتين في المحبة وجسدا واحدا وشخصا واحدا متفقين بعضنا مع بعض ومتشاورين في الشورة الواحدة ضد اولئك الذين يحضرون من بلاد الافرنج والترك وغيرهم الذين يريدون ان يحكموا بلادكم وبلادنا مزعجين لكم ولنا اولئك اعداؤكم واعدائنا نحاربهم ونهينهم ونحرس حدود بلادنا وممالكنا منهم " (272) ، ولما لم يرد الخليفة ، حشد الاحباش جيشا ضخما يفوق قوة الانتصار وتوجه الى القلابات وكان ابو عنجة قد توفي(273) ، وقامت معركة شديدة جرح فيها امبراطور الحبشة يوحنس الرابع جرحا مميتا عام 1889 وانفرط عقد جيشه وطارد الانتصار قوات الحبشة وكان من بين الغنائم تاج الامبراطور .

كتشنر واستعادة السودان

تولى كتشنر قيادة حملة الاسترداد ، لمعرفته الجيدة باللغة العربية وبالسودان منذ ان كان محافظا لسواكن وقيامه بدور ضابط اتصال بين غوردون وحملة الانتقاذ ، و بعد معارك عديدة تمكنت الحملة من هزيمة الخليفة في 24 نوفمبر 1899 ، و بدأ عهد من الادارة المشتركة بين مصر وبريطانيا باتفاقية يناير 1899 التي وقعها من الجانبين كتشنر وبطرس غالى ، وكان الحكم

²⁶⁸ هددت القوات المصرية الحبشة في ايامه .

²⁶⁹ اعتقد ان اصرار الخليفة في رسالته على اسلام يوحنس يجئ ردا على تنصيره جبرا اهالي ولو.

²⁷⁰ احتلت ايطاليا بعد ذلك اريتريا وبعدها ، كسلا في يوليو 1894 باتفاق مع بريطانيا.

²⁷¹ تمكنت الحبشة من الحاق هزيمة ساحقة بايطاليا في موقعة عدوة في مارس 1896 .

²⁷² د شبيكة ص 412 .

²⁷³ كان ابو عنجة وعثمان ادم وابو دقن من احسن قادة الانتصار .

لمصر اسميا بينما انفردت انجلترا بالامر فعليا ، وكان منليك الثانى ملك الحبشة ، اول المهنيين بسقوط دولة المهديّة فأرسل الى كتشنر يشكره على اطلاق سراح اسرى الحبشة من سجن ام درمان ، ويهنه بزوال الدولة الاسلامية من السودان .
ولرغبة منليك الثانى فى التوسع لاستكمال ما بدأه الامبراطور ثيودور (1868-1818) فقد راوغ الانجليز عند ترسيم حدود الحبشة مع السودان ، فكان مندوبوه يرفعون الاعلام على فازوغلى وجميلة على اعتبارهما ارض حبشية ، ولما استطالت المفاوضات فى هذا الشأن اضطر هارنجتون معتمد بريطانيا فى الحبشة الى التساهل بحكم الامر الواقع والتعاطف الدينى ، فترك للاحباش اقليم بنى شنقول بالرغم من انه جزء من السودان (274) .

التكاليف الاستعماري

على الاملاك المصرية

فى السودان الكبير

بعد جلاء مصر ، تعرض السودان للنهش فاحتلت انجلترا طوكر حتى لا تمتد اليها يد ايطاليا ، وقد تكبدت فى سبيل ذلك خسائر فادحة فى قتالها قوات المهديّة بقيادة عثمان دقنة فى فبراير 1891 ، ووافقت بريطانيا لحكومة دى رودينى فى ايطاليا باحتلال كسلا مؤقتا فى يوليو 1894 لحمايتها من المهديّة بعد اعتراف الحكومة الايطالية بسيادة مصر على اراضيها السابقة فى السودان ، وحاول ملك البلجيك فى زيارته الثلاث لانجلترا فى الفترة من عام 1895 وحتى عام 1896 الحصول على موافقتها دون جدوى على تنازل الخديوى عن الاراضى السودانية من جنوب الخرطوم نزولا الى بحيرة نيازا عن طريق الايجار ، لكن انجلترا فى مرحلة لاحقة بعد دخولها الخرطوم وافقت على تأجير اللادو لملك البلجيك طوال حياته على ان تعود بعدها للسودان ، وحاولت فرنسا التقدم الى فاشودة للضغط على انجلترا للانسحاب من مصر ، كما تساهلت بريطانيا مع الحبشة وتركت لها بنى شنقول بالرغم من انها جزء من السودان (275) .

دعوة الخليفة للدول الى المهديّة والاسلام

سار الخليفة على درب المهدي فتوجه برسائل الى ملكة انجلترا و امبراطور الحبشة يدعوها الى الاسلام ، كما ارسل الى العالم الاسلامى لاستنهاض الامة فكاتب السلطان العثمانى " عبد الحميد " فى تركيا ، وانذر الخديوى فى مصر بنيته فتح مصر وارسل منشورا لشعب مصر ، وراسل قبائل نجد والحجاز وسلطان وداى والسنوسى وسلطان سكوتو فى نيجيريا .

ثورات ما بعد المهدي

(ثورات صوفية المهديّة ومدعو النبوة المسيحية)

واجه الانجليز بقوة اى محاولة للثورة من جانب الصوفية من فلول المهديّة ؛ فعندما ثار الشريف محمد الامين عام 1903 واعلن انتسابه لال البيت وجاهر بالدعوة وتحصن فى جبال تقلى بعث اليه الانجليز قوة اقتادته اسيرا واعدم ، كما اعدمو الثائر عبد القادر ود حبوبة عام 1908 فى الحلاويين ، وكان مجاهدا فى جيوش المهديّة ولم يعجبه تساهل اخوانه مع الانجليز ، فباع ارضه واقام الخلوات وتجمع انصاره ولما كثروا تم القبض واعدم ، وادعى ثلاثة من السودانيين انهم نبي الله عيسى عليه السلام ، عام 1904 فى سنجة واتبعه قليل من الناس ، وفى 1907 قبض على رجل من اهل برقو فى القضايف ادعى نفس الامر لم يتبعه احد ، وفى نيالا بدارفور ادعى شخص من مدنى نفس الامر ، وفى عام 1921 ادعى الفكى السحيمى نفس الامر واحتشد خلفه خمسة الاف شخص وتم سحق ثورته

ثورة جبال النوبة

ثار سكان النوبة اثناء حروب المهديّة مرتين ، الاولى فى جبال النما بمركز الدلنج بقيادة عجبنا وكان الاهالى يعطونه

(د شبيكة ص 476.

(د شبيكة ص 476.

الضريبة واخمدتها قوة مشتركة من الانجليز والمصريين والسودانيين بعد محاصرة الجبال عدة اشهر واعتقلت زعيمها في 1917 ، والثانية في جبال ميرى بزعامة الفكى ولم تكن بخطورة الاولى وتم اخمادها .

استقلال ابن دينار بحكم دارفور

وفي دارفور بلد الثورة الدائمة التي كلفت ثوراتها مصر في العهد المصرى اموال طائلة ، رأى كتشنر ان حكم الخرطوم المباشر غير مجدى معها والمهدية ما زالوا يقاتلون ، ففكر في تطبيق الحكم غير المباشر ، فبعث ابراهيم على وهو يمت لسلطين دارفور السابقين وهارب من المهدية ، ليتسلم السلطة الى ان يفرغ الانجليز من استرداد السودان ، ولكنه وجد السلطان على دينار بن السلطان محمد الفضل قد وصل قبله وعاد الى حكمها ، وهو كان حاكما لها في عهد المهدية واعتقلوه اواخر ايامهم في ام درمان ، وتمكن من الفرار قبل سقوطها بيوم وعاد لحكم دارفور ، ولما علم كتشنر طالب مبعوثه بالانتظار لحين اتمام الفتح ولكنه تنازل عن الامر لابن دينار لقوة مركزه .

وتمكن ابن دينار من تحقيق استقلال فعلى ، فقد مارس السيادة ودفع الجزية وطارد القبائل لاختضاعها وكان دائم الشكوى من ايواء الحكومة للفارين ، وكان السلطان يريد الاستقلال الفعلى ، لكن الفرنسيون لم يمهلوه ، فقبل الحرب العالمية الاولى وصلوا الى حدوده الغربية واحتلوا اراض من اصل اراضيه ، فطلب اليه الانجليز عدم مفاوضة الفرنسيين لان ذلك من شأن الادارة الانجليزية ، وطالبوه بمدهم بالمستندات التي تثبت حقه .

ومع اشتعال الحرب العالمية الاولى ارسل ، ابن دينار الى الخليفة العثمانى " يشكوا الانجليز الكفار لمنعهم اهل دارفور من زيارة الاراضى المقدسة ، وانه تارة يشاحنهم وتارة يمالئهم " ، وردت عليه تركيا تخبره بانها اعلنت الجهاد بين المسلمين لدعم دولة الخلافة ، فرد ابن دينار بخطاب اخر يقول فيه انه جاهر الان بعداوة الانجليز والفرنسيين غيرة ، فى دين الله ، ولما علم الانجليز بعصيانه ونيتة السير الى الشرق ، سيروا اليه قوة هزمتة فى برنجية فى 22 مايو 1916 ، ففر الى جبل مرة الحصين حيث داهموه هناك بعد تخلى مماليكه عنه وقتل فى 6 نوفمبر من نفس العام واصبحت دارفور بعد ستة عشر عاما من فتح كيتشنر جزء من السودان .

تتبع

تثبت تفاصيل العرض السابق ان تاريخ السودان سفر من اسفار الحروب والثورات التي لا تنقطع وبالذات النوبة ودارفور حيث الاماكن الحصينة التي تشجع على الثورة ، ومن الواضح ان دارفور كانت نزاعة الى الاستقلال ولعل هذا هو جوهر تمرداها الاصيل في الاونة الاخيرة وان تعددت الاسباب .

وتثبت احداث الثورة المهدية مدى قوة وصلابة الحركات الدينية وقوة الروح الدينية بين السودانين ، التي بسببها رفض جنود القوة الحكومية السودانية في اولى معاركهم مع المهدي اطلاق النار عليه لمكانته الدينية . وهو ماعرضهم للقتل والهزيمة ؛ وبهذه الروح احرزت المهدية بايمان الرجال انتصاراتها بالسيف والرمح على جيوش اكثر تنظيما وتديبا وتسليحا ، ويرى البعض انه لو قدر لهذه الثورة النجاح لكان ذلك في صالح مد الإسلام في جنوب السودان والحيشة .

كان تخلى مصر كرها عن ادارة السودان للارادة والادارة الانجليزية خسارة لانتشار الاسلام ، فقد كثف الانجليز الضغط على الجنوب اضعف نقاط الهوية الاسلامية في جسد السودان ، فاجتهدوا في اجتثاث اللغة العربية والاسلام في الاقليم واستبدلوها بالثقافة الانجليزية والعقيدة المسيحية لاهدار عناصر التماسك والوحدة بين الجنوب وبين الشمال .

والتوافق الزمني بين الثورتين المهدية " و " العرابية " كان تعبيراً صادقا عن إلتقاء سخط الشعبين الشقيقتين ضد خنوع الخديوات لإرادة الإنجليز ، وإهدارهم لإرادة الأمة في الأرضين ، وكانت الاخوة بين الشعبين بخلفيتها الدينية هي التي جعلت عرابي كازهرى يتردد في ارسال الجنود الى السودان واستبقاهم بمصر بدعوى مواجهة الانجليز .

وهي نفس الاخوة التي كانت وراء رغبة المهدي في اسر غوردون لمبادلتة بعرابي باشا ، بفك اسره من الانجليز ، وحزن لضياح الفرصة بمقتل غوردون على ايدي الثوار ، وروح الاخوة هي التي حركت الوحدات السودانية للوقوف بجانب الوحدات المصرية التي تمردت في عام 1924 احتجاجا على قيام الانجليز بترحيلها من السودان لانهاء الادارة المصرية .

الباب السادس
مد الاسلام فى شرق افريقيا
بين الساحل والهضبة
(اريتريا - الصومال - زنجبار - ساحل كينيا - الحبشة)

الفصل الاول
جذور العرب العرقى والحضارى
فى شرق افريقيا

التداخل الجغرافى والعرقى والثقافى

بين شرق افريقيا وعرب الجزيرة

كان شرق افريقيا وجنوب الجزيرة العربية على علاقات وثيقة ممتدة الجذور فى القدم ، وكادتا أن تصبحا من الناحية الفعلية جزءا واحدا ، فقد جمعتهما تراث مشترك ووشائج عرقية وثقافية وتبادلنا النفوذ السياسى ؛ ولعبت الجغرافيا الدور الرئيسى فى هذا التقارب ، فمضيق باب المندب فى عُقب البحر الاحمر سهل الاتصال واختصر المسافات ، كما أن التكوين الجغرافى للساحل فى شرق افريقيا بسلسلة مرتفعاته الغربية حالت دون تدفق اتصاله مع الداخل ، وجعلت منه عالما منفصلا أقرب الى الجزيرة العربية منه الى قلب افريقيا ، فحسم هذا الوضع توجهاته لتكون بشكل كثيف عبر المضيق والبحر ، فانصرف اهتمامه الى جنوب جزيرة العرب.

وإذا ما تقصينا جذور الوجود العربى فى شرق افريقيا نجدها تعود الى فترة سحيقة قبل الميلاد ، فقد ثبت وجود سلالات سامية قديمة فى القرن الإفريقي وأثيوبيا، كانت أكثف هجراتها بين 3000 الى 155 ق.م على عهد دولتي معين وسبأ ويعتقد البعض بين 1000 الى 400 ق.م ، ومن أشهر القبائل العربية التى هاجرت قبيلتا سهرت (سحرت) والجعر (الأجاعز) ؛ والأخيرة هيمنت على الحبشة وأصبحت لغتها أصلاً للغات المنطقة التجراي الحديثة (276) ، ومن القبائل العربية المهاجرة قبائل "حبشت" التى أسبغت اسمها علما على الحبشة ، التى أسست فيما بعد مملكة أكسوم الحبشية، وكان لهذه القبائل السلمية نظامها الاجتماعى المتميز ولغتها التى طغت على سواها وأدخلت المؤثرات السبينية للبلاد ، ثم لحقت بهم مجموعات حميرية بهدف الغزو اتجه بعضها الى شمال إفريقيا .

ووفدت مجموعة من الحضارمة فى أواخر القرن السادس الميلادى يعرفون فى شرق السودان بالحداربة وهم ومجموعة "البلو" المعروفة فى شرق السودان يرجعون إلى أصل واحد من احد افخاذ حمير مواطنهم الأصلي إقليم شحر فى الجزيرة العربية ، وكلمة بلوا مشتقة من بيلويت "Belawiet" وتعني فى لغة البداوية التحدث بلغة أجنبية (277) .

كانت أول هجرة اسلامية الى افريقيا ، عندما لجأ المسلمون الاوائل الى النجاشى ملك الحبشة فى السنة الخامسة من الهجرة اعتصاما بعدله من عدوان قريش عندما قال الرسول (ص) لأصحابه "تفرقوا فى الأرض فإن الله سيجمعكم، قالوا إلى أين نذهب؟ قال ها هنا وأشار بيده إلى أرض الحبشة وقال: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله فرجا مما أنتم فيه، ثم تبعها هجرة ثانية ، ولم تكونا هجرتان هجرة استقرار وانما هجرة فرار الى الله .

ومن بعد توالى الهجرات من الأحساء والبحرين وعمان وحضرموت واليمن بشكل واسع لغرض الاستيطان ، وهى فى معظمها هجرات سياسية فرارا من الحروب والاضطهاد الذى يعقب تغيير الدول ، وفى العصر الاموى (عام 695) نزلت اعداد كبيرة على الساحل الافريقى يقدرون بعشرة آلاف من العُمانيين بقيادة الأخوين سليمان وسعيد بن عباد الجلندى من شيوخ قبيلة الأزدي العربية الحاكمة فى عمان فرار من بطش " الحجاج بن يوسف " الذى سلطه عليهم الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان لتضامنهم مع خلافة عبد الله بن الزبير فى مكة ؛ واقتحموا ميناء " ويونى " الحصين وأقاموا امارة " لامو " شمال " ممبسة " .

وبعد انقسام شيعة اليمن وفدت هجرة " زيدية " فى 122 هـ / 729 م والفترة 140-143هـ / 757-760م ، وانتشروا

²⁷⁶ (ابن عبد البر ، الدرر فى اختصار المغازي والسير ص22، الطبعة الثانية، بيروت لبنان .

²⁷⁷ (الدكتور عبد الحافظ الأصم ، أبحاث ملتقى خادم الحرمين الشريفين، جوهانسبرج جنوب إفريقيا، 1423هـ، ص 118- 119.

على ساحل بنادر وتوغلوا الى خط الاستواء (278) ، استتبعتها هجرة كبيرة من 21 قبيلة عام 149 هـ من قبائلها الشاشبيين والاهول من حضرموت ، وفي عام 920م نزل لساحل بنادر هجرة سنّية من الاحساء تحالفوا مع الاهالي المحليين و طردوا الزيدية الى الجنوب واسسوا مقدشو ، ثم تبعتهم هجرات زيدية اليمن في الفترة من 140-143 هـ 757-760م على ساحل بنادر ايضا وتوغلوا الى خط الاستواء (279) .

وفي عام 900 هـ وصلت هجرة ضمت جماعة من قبيلة حاتم الطائي (ابو الكرم العربي الشهير) ، وحتى عام 1055م وصلت بنادر عناصر شيعية بقيادة الحسن بن علي احد ابناء سلاطين " شيراز " فرارا من ارطغرل السلجوقي بعد فتحه بلادهم ، وتجاوزوا المنطقة السنية وواصلوا الابحار حتى رسوا على ساحل كينيا وتنجانيقا حيث أقاموا امارة كلوة، وفي عام 1303 اندمج جنوب الجزيرة وجزء من المشرق الافريقي في امارة عربية أفريقية تحت سلطان عربي كانت نواة لاول وحدة عربية أفريقية ، وهذه الامارة لم تقم بالحرب وانما جاءت حصيلة للمصاهرة بين سليمان النبهاني صاحب عُمان وبين اسحق حاكم باتاPateل ، قال حكم الجزء الافريقي الى النبهاني إرثا من زوجته بعد وفاة ابياها ، فانتقل اليها بحاضرة ملكه من عُمان في وحدة سياسية ضمتهما تحت حكم الاسرة النبهانية ، وكانت جسرا بين البلدين لانتقال واندماج عرقي وثقافي ممتد . وبالمقابل تسربت عناصر افريقية الى الجزيرة واستقرت وانتشرت وكثير من كبار عرب الجزيرة ينحدرون من اصول حبشية فقد اندمجت شعوب المنطقتين على مدى العصور (280) .

التداخل اللغوي

ثبت من النقوش القديمة للطور الأول من تاريخ الحبشة ؛ وجود أثر للغة والكتابة السبئية وأسماء أماكن في الحبشة لها نظائر في اليمن مثل أوم التي وردت في النقوش السبئية للدلالة على حرم بلقيس أو أحد هياكل القمر ، وثبت ان لغة الجعيز (Geez) لغة الحبشة القديمة انتقلت اليها مع قبيلة الأجاغز العربية ، واستمرت هذه اللغة مهيمنة حتى القرن الثالث عشر الميلادي الى ان فرض الحكام الامهرا لغتهم .

ومن لغة الجعيز خرجت الامهرية والتيجرينية ولغتا الجواراجواي ولغة هرر سليلتا الامهرية ، ويتناول باسيل دافيدسون العلاقات بين الجانبين فيقول " غزت شعوب جنوب الجزيرة العربية السامية أرض اثيوبيا قبل ظهور المسيحية بمئات السنين ، واقاموا حضارة اثيوبية جديدة عكست مقومات حضارة الشعوب الوافدة ، فشعبا اكسوم و الامهري كانا القناة التي انتقلت عبرها الافكار والخبرات من جزيرة العرب الى داخل افريقيا حتى زيمبابوي " .

وبعد انهيار سد مأرب عام 120 م ، تدفق اليمينيون الى الساحل الافريقي واقاموا عددا من المدن ، ويشير الى ما ذكره الرحالة الصيني " تشاو جوكوا " في سجلاته عام 1226 عن الشعوب الاجنبية يشير فيها الى وجود عرب في جبل عظيم من المرجح ان يكون كلمنجاروا ؛ يسكنه التاشي (العرب) ويتبعون ديانتهم ويلبسون ملابس قطنية زرقاء واحذية من الجلد الاحمر .

278 (الزبيدي، محمد حسين ، هجرة العرب المسلمين إلى شرق إفريقيا ، مجلة المؤرخ العربي، العدد (23) ص 7.

279 (الزبيدي، محمد حسين ، هجرة العرب المسلمين إلى شرق إفريقيا ، مجلة المؤرخ العربي، العدد (23) ص 7.

280 (اورد أبو الفرج بن الجوزي في كتابه تنوير الغبش في الباب الخامس والعشرين أبناء الحبشيات من قريش وهم : نضلة بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، نفيل بن عبد العزى العدوي، عمرو بن ربيعة بن حبيب، الخطاب بن نفيل العدوي، الحارث بن أبي ربيعة المخزومي، عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، صفوان بن أمية بن خلف الجُمحي، هشام بن عقبة بن أبي معيط، مالك بن عبد الله بن جدعان، عبيد الله بن عبد الله بن أبي ملكية، المهاجر بن قنفذ بن عمرو، مسافع بن عياض بن صخر التيمي، عمرو بن العاص بن وائل [السهمي] فرظة بن عبد، عمرو بن نوفل بن عبد مناف، مالك بن حسن بن عامر بن لوي، عبد الله بن قيس بن عبد الله بن الزبير، سمرة بن حبيب بن عبد شمس عبد الله بن زعمة من بني عامر بن لوي، عمرو بن هيصم بن كعب بن لوي، يعلى بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، عبد الله بن عبد الله بن عامر بن كريز، محمد بن علي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، جعفر بن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عبيد الله بن حمزة بن موسى بن جعفر، محمد وجعفر ابنا إبراهيم بن حسن بن حسن وأبوهما سليمان بن حسن من بني عقيل بن أبي طالب، محمد بن داود بن محمد من بني الحسن بن علي، أحمد بن عبد الملك من عثمان بن عفان، أحمد بن محمد بن صالح المخزومي، العباس بن المعتصم، هبة الله بن إبراهيم بن المهدي، محمد بن عبد الله بن إسحاق المهدي، عيسى وجعفر ابنا أبي جعفر المنصور، العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد ، وذكر السيوطي في أزهار العروش ذكر أبناء الحبشيات من قريش ومن الصحابة رضي الله عنهم ؛ صفوان بن أمية بن خلف الجمحي ، عمرو بن العاص ، ومن غيرهم عبد الله بن قيس بن عبد الله بن الزبير ، عبد الله بن عامر بن كريز ، محمد بن علي ابن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، جعفر بن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عبيد الله بن موسى بن جعفر ، إبراهيم بن حسن بن حسن وولده محمد وجعفر، سليمان بن حسن عقيل بن أبي طالب، يعلى بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عيسى وجعفر ابنا أبي جعفر المنصور، هبة الله بن إبراهيم بن المهدي ، العباس بن المعتصم، وممن لم يذكره ابن الجوزي الخليفة المقتفي لأمر الله.

الفصل الثانى
الامارات الاسلامية فى
الهضبة والساحل
(البحر الاحمر و شرق افريقيا)

الامارات الاسلامية

فى شرق افريقيا

تدفق التجار العرب على مر العصور على المنطقة واقاموا محطات تحولت بمرور الزمن الى " مستعمرات " غلب عليها الطابع العربى ؛ كانت خاضعة من الناحية السياسية لسيطرة اليمن وعمان لقربها الجغرافى بديهة من عصر حمير وامراء سبأ والاوزان وقطبان ؛ وهاجر من اليمن العديد بعد انهيار سد مأرب ؛ ونقلوا معهم الخبرة فى زراعة الجبال ولغتهم المكتوبة ونظمهم السياسية الى الحبشة.

وتبعهم بعد الاسلام مهاجرون من عمان وحضرموت وفدت في مجموعات صغيرة انتشرت في بعض الجزر ثم المراكز الساحلية واستطاعت أن تؤثر فيما حولها بلغتها ودينها، وتدفقت هجرات المعارضين المؤيدين لخلافة عبد الله بن الزبير فى مكة ضغط الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان ، واسس المهاجرون امارات اسلامية ، واذا ما اخذنا مقدشو التى تأسست عام 920م ، مركزا جغرافيا لتحديد المدن شمالها وجنوبها ، فنجد فى شمالها على ساحل البحر الاحمر حتى مضيق باب المندب مدن سواكن - زيلع - مصوع- جزيرة دهلك وهى ما يسميها المؤرخون العرب مدن الطراز الاسلامى .

ويذكر القلقشندي في صبح الأعشى ان المؤرخون القدامى أطلقوا على الممالك الساحلية في القرن الإفريقي مسمى ممالك الطراز الإسلامى ، وهي البلاد المسماة ببلاد الزيلع المقابلة لير اليمن عند تلاقى أعالي بحر القلزم (البحر الأحمر) ببحر الهند (المحيط الهندي) ، وهي كالطرز (التطريز) على جانب البحر وقال العمري أنها بلاد الزيلع كما يُطلق عليها بمصر والشام ، وحدد طولها برا وبحرا نحو شهرين وعرضها يمتد أكثر من ذلك (281) ، ويقول المقرئ في تحديد نطاقها الجغرافى أن جبرت (إفات) جزء من البلاد ؛ وتقع سلطنة هديه في أقصى حدودها الغربية جنوبى أديس أبابا الحالية..

وكانت سواكن ودهلك تحت حكم الممالك لبعض الوقت وجرد كل من الظاهر بيبرس والناصر قلاوون حملات عسكرية لتأكيد السيادة المصرية عليها ، وتداولت كل من اليمن والحبشة السيادة على دهلك وكان لها ملك حبشى مسلم .

واذا ما نزلنا جنوبا من " مقدشو " على ساحل افريقيا الشرقى ؛ نجد امارات فرقة ولامو تأسستا ما بين عام 684م/ 695م ، مالنده ، ممبسة، وفى الداخل من البحر الى هضبتا الصومال والحبشة سلطنات إفات، دوارو، أرابيتي، هدية، شرخا، بالي وداء الخ وسنتعرض للبقية بالتفصيل فى الاتى :

اولا سلطنات شرق افريقيا

1- إمارة لامو (65هـ-684هـ) ، وهي أقدم الإمارات الإسلامية في المنطقة أنشأتها قبيلة أزد عمان بزعامه سعيد وسليمان أبناء عبد الجلندي سنة 65هـ فى منطقة أرخبيل لامو ، إثر فرارهم من وجه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الى بلد من بلاد الزنج ، ويقول عنها فرج بن حمد الباقرى فى كتابه " أخبار لامو " انها شمال ممبسة (282).

²⁸¹ (رجب محمد عبد الحليم ، العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1405هـ-1985م، ص 17/16.

²⁸² (نور الدين عوض الكريم إبراهيم ، أبحاث الندوة العالمية عن التعليم الإسلامى ، جامعة الملك فيصل، أنجيما 1425هـ-1.2م.

2- أماره بات(Pate) ، وهى اماره محليه خلت بها قبيلة النبهانية بقيادة سليمان بن مظفر النبهاني الذى تزوج ابنة إسحاق حاكمها ثم ورث ملكها بعد وفاة صهره ونقل بلاطه من عُمان إليها ، وشهد عهد النبهانية نشاطا تجاريا من كل مكان ، وسارت قوافلهم التجارية من ممبسي مارة بموشي ونيروبي حتى وصلت إلى بحيرة فكتوريا وغربي إفريقيا ، وللأماره دور بارز في نشر الإسلام مدفوعا بالانتعاش الاقتصادي الكبير الذى حققته الاسرة في شرقي أفريقيا مما كان له أثر كبير في اسلام الشعب الإفريقي.

3- مملكة شوا (283-688هـ/ 896-1289م) ، وهى أقدم مملكة اسلامية بهضبة الحبشة ، أسسها مهاجرو قبيلة بني مخزوم العربية القرشية سنة 283هـ/ 896م فى احدى الإمارات المحلية حيث تقع مدينة أديس أبابا الحالية ، وبدأ بني مخزوم نشاطهم بالتجارة فأثروا ثراء عظيما واختلطوا بأمراء المملكة وتصاهروا مع الأسرة الحاكمة فأل الحكم إليهم . واستمروا فى حكمها قرابة أربعة قرون من الأمن والاستقرار، ولكنها عاشت فى عزلة عن العالم ليسر الحياة فيها ووفرة متطلباتها ، وظل أمر تلك المملكة الإسلامية مجهولاً إلى أن استدلت عليها المستشرق الإيطالي الدكتور روسيني شيرولي فى وثيقة عربية سنة 1355هـ تعرضت لواخر عهد المملكة من سنة 628هـ إلى سنة 688هـ ، وانتهى امر المملكة للخلافات الداخلية وتنازعها مع الإمارات المسلمة المجاورة ((283).

4- سلطنة مقديشو 295 هـ - 98م ، وهى سلطنة أسستها مجموعة من قبيلة بني الحارث نزلت بساحل الصومال أواخر القرن الثالث الهجري وأنشأت مدينة مقديشو وتحالفوا مع سكان البلاد الأصليين وأنشأوا مدن برادة ومركة التي تقع عند نهر وبيى وقرفاوة والنجا وغير ذلك ؛ وكانت المملكة مركزا تجاريا هاما ذات رخاء وقوة ونفوذ وسادها الأمن متسعة العمران ، يصفها الرحالة بأنها مدينة الإسلام المشهورة فى ذلك الصقع كثيرة المساجد عظيمة العمران ، يأتياها المسلمون فى مواعيد معينة من السنة ليقيموا صلاة الجمعة فى مسجدتها الكبير مما عظم الإسلام فى نفوس الوثنيين .

وأضحت صاحبة السيادة على سكان الساحل جميعاً زهاء سبعين عاماً حتى قامت أماره كلوة فى الجنوب فنازعها السيادة ، ويصفها ابن بطوطة فى زيارته لها سنة 731هـ ؛ فيقول انها متناهية الكبر وأهلها لهم جمال كثيرة ينجرون الطين فى كل يوم ولهم أغنام كثيرة وهم تجار أقوياء وفيها تُصنع الثياب وتحمل إلى ديار مصر (284) ، ويتحدث عن نظامهم فى استقبال تجار المراكب الوافدة فيقول " ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصناديق (القوارب الصغيرة) إليه ويكون فى كل صندوق جماعة من شبان أهلها ، ويأتي كل منهم بطبق مغطى فيه طعام فيقدمه لتاجر من تجار المراكب ويقول هذا نزيلي وكذلك يفعل كل واحد منهم ، ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلا من كان كثير التردد إلى البلد وعرف أهله فانه ينزل حيث شاء فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى منه .

ويصف ابن بطوطة طريقة التفتيش الجمركي المتبعة فى ذلك البلد فيقول بمجرد وصول المركب الميناء يصعد إليه صندوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربائه وما وصفه (حمولته) ومن قدم فيه من التجار وغيرهم ، فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق أن ينزله عنده أنزله.

5- سلطنة كلوة 975-1499م

أسسها مهاجرون فى عهد عبد الملك بن مروان ؛ ونزل بها الشيرازيون عام 975-1499م بقيادة على ابن الحسن بن علي

²⁸³ (رجب محمد عبد الحليم: العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 14.5هـ 1985م، ص 17/16.

²⁸⁴ (العمري: مسالك الأبصار، الجزء (2) نقلاً عن د. نور الدين عوض الكريم .

الشيرازي وذويه واقتسم أبناؤه الستة الساحل الشرقي لإفريقية والجزر المواجهة له كل بموضع معين مع التبعية لأبيهم ، ولما استشرع على بن الحسن قوته وعزة جانبه أخذ يمد سلطانه على الأمم المجاورة ، فأرسل أبنا من أبناؤه إلى جزيرة انجوان بجزر القمر وآخر إلى جزيرة منفية ، واستطاع احدهما شاب أن يؤسس مملكة قوية حكمها أربعين عاماً سيطرت على جزء كبير من الساحل الشرقي لإفريقيا وجزره من ممبسة شمالاً إلى سفالة جنوباً ، وضمت بمبة وزنجبار ومافيه وجزر القمر وموزمبيق . وكان حكام الإمارات العربية الممتدة على طول الساحل من مقديشو شمالاً إلى سفالة جنوباً يعترفون لسلطانها بأنه أعظمهم مقاماً ورفعة (285) ، وعم كلوة القوة والرخاء بفضل سيطرتها على مناجم الذهب والحديد في روديسيا الحالية فكان وضعها وثرانها سببا في انتشار الإسلام بتلك الأنحاء .

ويصفها ابن بطوطة قائلاً " مدينة كلوا مدينة عظيمة أكثر أهلها من الزنج المستحكي السواد ولهم شرطات في وجوههم ، وهى من أشهر المدن وأتقنتها عمارة وكلها بالخشب والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب ، وسلطانها عند دخولي أبو المظفر حسن ويكنى أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه

وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها فيصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة لوحده ، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة ، وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف" ؛ ويذكر المؤرخون أن بها ثلاثمائة وستون مسجداً ، وتعاقب على حكمها ثلاثون سلطاناً آخرهم فضيل بن سليمان الذي تولى الحكم سنة 1498م قبل مجيء البرتغاليين .

ثانياً ممالك ساحل البحر الأحمر والهضبة (الصومالية والحبشية)

هى الممالك الساحلية في القرن الإفريقي ذكر القلقشندي في صبح الأعشى ان المؤرخون القدامى أطلقوا عليها ممالك الطراز الإسلامي لأنها كالطرز (التطريز) على جانب البحر ، وهي بلاد الزيلع المقابلة لبر اليمن عند تلاقى أعالي بحر القلزم (البحر الأحمر) ببحر الهند (المحيط الهندي وطولها برا وبحرا نحو شهرين وعرضها يمتد أكثر من ذلك (286) ؛ ويقول المقرئ في تحديد نطاقها الجغرافي أن جبرت (إفات) جزء من البلاد وتقع سلطنة هديه في أقصى حدودها الغربية جنوبى أديس أبابا الحالية ؛ وسكان بلاد الزيلع من عناصر حامية وعربية ، وأغلب الحاميين هم من قبائل الصومال والجالا والأعفار (الدناكل).

ويتركز الأعفار شمال نهر عواش والصوماليون والجالا جنوب النهر والهضبة الشرقية لأثيوبيا التى تسمى ايضا هضبة الصومال تميزا لها عن الهضبة الغربية المعروفة باسم هضبة الحبشة ؛ والزبالعة من الصوماليين وجميعهم مسلمون يختلفون عن جيرانهم حتى الصوماليين في بر الحبش أو في بر الزنج (كينيا وما وراءها) ، وعن بقية المسلمين من الأعفار (الدناكل) والجالا والجماعات العربية ، فرغم إطار الإسلام الواسع الذي يجمعهم بثقافته العربية وحضارته الإسلامية الا ان لكل منها لغاتها ، ولم يكن لهؤلاء الزبالعة مملكة واحدة في العصور الوسطى وتوزعوا بين سلطنات الإسلام التي لم تكن متحدة أو متعاونة في معظم الأحيان (287) ؛ وسنبداً بعرض مختصر عن امكانيات ومكونات كل مملكة للتعرف على قدرتها فى الحشد والمواجهة لتتعرف على اسباب فشلها فى التصدى للحبشة ثم نستعرض العلاقات بينها وبين الحبشة من خلال جهاد السلطنات الكبرى التى تصدت لهذا العمل الجليل .

²⁸⁵ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تنوير الغيش في فضل السودان والحبش، حققه مرزوق علي إبراهيم، طبعة دار الشريف، الطبعة الأولى 1419هـ 1998م - الرياض ص 246.

²⁸⁶ رجب محمد عبد الحليم ، العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1405هـ 1985م، ص 17/16.

²⁸⁷ العمري: مسالك الأبصار، الجزء (2) 485 ، نقلاً عن د. نور الدين عوض الكريم ، أبحاث الندوة العالمية عن التعليم الإسلامي، جامعة الملك فيصل، أنجبينا 1425هـ 2004م .

1- مملكة فطجار 935هـ / 1529م

لم يتطرق الى ذكرها ايا من المؤرخين العرب الا عرب فقيه ، وتقع المملكة شمال وجنوب الجزء الأوسط من نهر عواش يمتد نصفها الشمالي الى قرب مدينة لال بلا (لاليبلا الحالية)، وتفصل بين سلطنة إفات وبين إقليم أمحرا (أمهرا) الحبشى وشوا الاسلامية فى الهضبة ؛ أما نصفها جنوب النهر فيتصل بمعظم الممالك الإسلامية ، ويحدها من الشرق سلطنة عدل وإقليم هرر ومن الغرب مملكة هدية وشرخة ، ومن الجنوب الشرقي مملكة دوارو، ومن الجنوب الغربي مملكة بالي ، واهم بين اهم مدنها شميركرى ، ويُقدر عدد فرسانها بما لا يقل عن عشرة آلاف ومشاتها كثيرون ومن اهم المعارك التى وقعت على ارضها معركة شميركرى الشهيرة التى كانت أول نصر كبير لمسلمي عدل (الزليغ) على الحبشة عام 935هـ / 1529م (288).

2- مملكة دوار

وتقع جنوب سلطنة إفات وجنوب شرق مملكة فطجار، ومساحتها أقل من بقية الممالك الاسلامية فطولها حسب العمرى يبلغ مسيرة خمسة أيام وعرضها مسيرة يومين، ورغم ذلك فقد كانت تملك جيشا قويا لا يقل عن جيش إفات في عدد الفرسان والمشاة، وبها عدد كبير من المدن ويمر بها بعض روافد نهر الوبى شبيلى والتي كانت تسمى نهر بور ونهر بوس ونهر زميت.

3 - ملكة بالي

وتقع جنوب مملكة فطجار ويفصلها عن مملكة دوارو نهر وبى شبيلى، وتقع فيها منابع وروافد نهر جوبا الذي يصب في المحيط الهندي جنوب الصومال ، ويقول عرب فقيه ان أحد روافد هذا النهر وسماه نهر (ونبات) كبير كثير الماء مثل ويبي ، وتضم أرضاً واسعة بقدرها البعض بمسيرة عشرين يوماً طولا وستة أيام عرضا وبها عدد كبير من المدن ، وأشار الرحالة إلى غناها ووفرة خيراتها وطيب هوانها وخصب أراضيها وسكانها كثيرون وجيشها كبير العدد يضم ثمانية عشر ألف فارس ومشاتها أكثر من ذلك.

4 - مملكة داره

وتقع جنوب مملكة بالي فى موقع متطرف بعيدا عن بقية الممالك الاسلامية ، ولم يذكر عنها العمرى أو غيره كثيرا من المعلومات، ولكنه حدثنا عن ضيق مساحتها وعن ضعفها بالنسبة لغيرها من ممالك الطراز الإسلامى فقال أن طولها يبلغ مسيرة ثلاثة أيام ومثلها عرضا ، وهي أقل بلاد الطراز خيلا ورجالا فعسكرها لا يزيد عن ألفي فارس وألفين من المشاة .

5 - مملكة شرح

تقع جنوب هدية جنوب هضبة شوا ايضا فيما يعرف الان بإقليم جوراجيا كمباتا ومساحتها محدودة ضيقة، فطولها يبلغ مسيرة ثلاثة أيام وعرضها مسيرة أربعة أيام ، ويضم جيشها ثلاثة آلاف فارس وضعفه من المشاة .

6- مملكة هدية

كانت معروفة فى الفترة الزمنية ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، تقع الشمال الغربى لبحيرتا Zway و Langano وعلى نهر ابى Abbay ، جنوب هضبة شوا ، وجنوب إقليم الداموت وشمال إقليم كمباتا فيما يعرف الآن بإقليم جالاتما ومساحتها مسيرة ثمانية أيام طولا وتسعة أيام عرضا، ويقدرها Richard Pankhurs بحوالى 180 فى 160 كم ، وهى ان كانت أقل مساحة من إفات - كبرى ممالك الطراز- الا ان جيشها كان أكثر عددا (40000 من الفرسان وضعفه من المشاة

²⁸⁸ (شوقي عطا الله الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة عام 1974 .

بينما كان جيش إفات 35 الفا من الخيالة والمشاة (289) ؛ ورغم قوتها العسكرية رضخت هدية لنفوذ الأحباش منذ وقت مبكر عندما غزاها عمدا صيون (1314-) 1334 لما رفض سلطانها Amano الخضوع ودفع الجزية بتحريض من الامام Bel'am ؛ فاجتاحها بعدما اجتاحت في الطريق اليها سلطنة الداموت في الفترة 1316/1317 ، وقتل من اهلها الكثير واستعبد البعض وهجر الكثير من اهلها ، وفي عام 1332 او 1329 ضم هدية الى اثيوبيا واستخدم اهلها في جيشه. وفي عهد ابنه زارا يعقوب او " زرع يعقوب " (1434- 1468) Zara Yaqob رفض السلطان مُحق Mahiko الخضوع ولكن البعض خلعه واقاموا عمه Bamo سلطانا تجنباً للصدام مع هذا الملك المختل ، وفر السلطان المخلوع الى عدل ولكن سلطانها مبارك تحت ضغط زارا يعقوب اغتاله وارسل رأسه واطرافه الى الاخير ، ومن غرائب " زرع يعقوب " فرضه علي هدية تقديم عذراء مسلمة سنويا مع الجزية الى اميراطور الحبشة لتتصيرها ، والا يلبس المسلمون لباس الحرب ولا يستخدمون السيوف فيما يعتبر نزعا للسلاح ؛ ولا يركبون الخيل بسروج كنوع من الامتهان والتمييز ضدهم ، وينقل " عربى فقيه " مشهد تسليم هذه العذراء عن لسان اهل البلد فيقول " اذا أرسل الينا من يتقبل البنت والمال اخرجنا له البنت على سرير ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلي عليها ونحتسبها ميتة ونعطيها له فأنا وجدنا أباينا يفعلون ذلك " (290).

والغريب ان كثير من ملوك ورجال البلاط الحبشى كانوا يفضلون الزواج من بنات هدية فزاريا نفسه حسب الروايات تزوج من ابنة السلطان محمد وتنصرت بعد الزواج هي الامبراطورة Eleni (الميلاد؟؟-الوفاة1522- حكمت (291) 1468-1478 ، وكان لها نفوذ قوى فى اروقة البلاط الاثيوبى على مدى ثلاثة عهود لثلاثة اباطرة زارا يعقوب وابنه من زوجة اخرى الامبراطور Baeda Maryam I والامبراطور Na'od ، والينا هي التى ارسلت الى ملك البرتغال عمانويل الرسالة المشار اليها سابقا وتعرض المساعدة فى مهاجمة سينا والاعتداء على مكة .

7- السلطنة الثلاثية إفات - عدل- هرر (سلطنة الجهاد)

وهي فى حقيقتها سلطنة واحدة مرت بأطوار ثلاث بدأت بإفات التى استغرقت الفترة 669 هـ - 805 هـ / 1270- 1402م ؛ ثم عدل واستغرقت الفترة 805 هـ - 927 هـ (1402م) ، ثم هرر واستغرقت الفترة 927 هـ / 1520م ، بدأت السلطنة كبيرة وانتهت صغيرة ؛ تقلصت على مر تاريخها تحت ضغوط الحبشة ، ولهذه السلطنة قيادة الجهاد وزعيمة ممالك الطراز التى كادت ان تقضى على الحبشة ، ولنبدأ بالسلطنة الاولى :

إفات (الفترة 669 هـ - 805 هـ / 1270- 1402م)

أسسها مهاجرون من قريش قيل من بني عبد الدار وقيل من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب من الحجاز ؛ استوطنوا مدينة إفات غرب زيلع وهي من أكبر مدن الحبشة اشتهر قومها بالصلاح والتقوى ، وفى منتصف القرن السابع الهجري ولى الحطى حُكم الامارة (مدينة إفات وأعمالها) الى عمر والى أسمع (يُلقب ولشمع) من بني عبد الدار أحد تجار إفات الأقوياء ، وحكمها مدة طويلة قويت بها شوكة الامارة .

وتنسب السلطنة إلى عاصمتها إفات ؛ ويُطلقُ على مدينة إفات جبرة أو جبرت ، وتُقدر مساحة السلطنة بمسيرة خمسة عشر يوما بالسير المعتاد طولاً ، وتضم جيبوتي والجزء الجنوبي من أريتريا وسهول الدناكل والجزء الشرقي من حوض نهر عواش والهضبة الصومالية بما فيها هرر والأوجادين ، وشرقاً تشتمل على جزء كبير من الصومال الشمالي (الانجليزي سابقاً) بما فيه مينائى بربر وزيلع .

ويوفر لها موقعها الاستراتيجى الحاكم بين الهضبة والبحر والسيطرة على ميناء زيلع مركز التجارة الدولية للمنطقة ،

289 (المقرئى: الإمام، ص 14، وفتح غيث ، الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، ص 9-14.

290 (النشاط العربى فى إفريقيا - د/ حسن احمد ص 394 - ص 417 .

291 (كانت ايلنى امرأة قوية وتمكنت من ان يصبح نفوذها قوى داخل البلاط والقصر على مدى ثلاث اباطرة متعاقبين ، اما انها ابنة سلطان هادية تنصرت بعد الجواز اشك فيها وقد تكون من الفتيات التى تقدمهن السلطنة كل عام لتتنصر ، فهي كانت نتبحة فى علم اللاهوت وكتبت كتابين فيه وهذا لا يتأتى الا للمتحرين الدارسين وقد تكون الحق بدير منذ طفولتها منذ تسلمها الامبراطور.

السيطرة على منافذ ومعابر التجارة الدولية للمنطقة بما فيها الحبشة وبها نهر عواش وروافد مثل كوب والدير ، وبها مدن عديدة عامرة مثل شوا، وعدل، وجبا، ولاو، وزيلع، وأنطوكية، وبازملي، وجندبله، وأبونة ، وهي أقرب بلاد الزيلع إلى مصر وتسيطر على مدخل البحر الأحمر من الجنوب الغربي في مواجهة اليمن.

والسلطنة كانت قوية اقتصاديا وعسكريا فقد وفر لها وادي نهر عواش والهضبة الصومالية الارض الخصبة والمياة للزراعة وتربية الحيوان والدواب ؛ ومن وفرة المحاصيل انحطت الأسعار فكان حمل الحنطة يُباع بدرهم ، بخلاف دخلها من سيطرتها على مقاليد تجارة العبور الى الدخل ، وامارة بهذا الثراء لابد وان تكون ذات قوة عسكرية لا بأس بها ، فضم جيشها خمسة عشر ألف فارس وأكثر من عشرين ألف من المشاة (ii) ، وصُعِبَ على الحبشة السيطرة عليها ؛ فقد كان جيشها كبيرا واقتصادها غنيا وفيرا ، ولما كانت إفات أقوى سلطنات المنطقة بما تهيأ لها من مقومات اقتصادية وطبيعية فقد زادها قوة علاقاتها المتينة بمصر والحجاز واليمن ؛ فتها لها أن تنزع سلطنات الهضبة والزبلع وتتحمل أعباء الكفاح والجهاد ضد الحبشة .

نجح ولشع 1270 الى 1285 أن يوحد امارات الساحل والهضبة بعد ان استهلكتها الخلافات المذهبية والعرقية لفترة طويلة ، فى جبهة واحدة ؛ فضم " شوة " بعد ان سقط حكم بنى مخزوم ، وسيطر على عدل ، مورة ، هوبت ، جداية ، وأقام على انقاضها جميعا أمانة " إفات " ؛ انضمت اليها هدية - فطجار- دارة - بالى - ارابينى - شرخا ، فى حلف اسلامى كبير زادت رفعته على رقعة الحبشة .

استشعر التحالف بالوحدة قوة فهب للتصدى للأسرة السلিমانيّة التي تولت الحكم في وقت متزامن وسعت بخلفيتها المتعصبة لمد نفوذها على المنطقة فدار الصدام مع يكونوا ملاك (669- 684هـ/ 1270- 1285) ملك الحبشة ، وكاد أن يقضى على إفات لولا تدخل الظاهر بيبرس سلطان المماليك المصرية بناء على طلب الاهالي لعقد الهدنة.

ورغم خضوع ملوك السلطنات للحبشة في حالات ضعفهم ، إلا أنه كان دائما ما يحدث ان يرفض احدهم الإذعان في بعض الفترات ويخرج على طاعة الحبشة ، وكانت إفات بقوتها وتأثيرها على الولايات الإسلامية المجاورة تتولى الزمام كلما عن عان ، وتنتهز الفرص لتنتفض ضد الأحباش وتعرض على جهادهم فحاول سلطانها حفيد ولشجع الخروج على طاعة الحبشة ، غير أنه لم يلبث أن تراجع حين أجبره أنصاره على ذلك ؛ وحاول محمد عبد الله التمرد على الحبشة ومهاجمة اطرافها .

ثم جاءت مرحلة جديدة من الصراع بوصول عمدا صيون الى الحكم ، فهذا الملكهو الذى بدأ بالتوسع الامبراطورى على سباسب جارات الحبشة من الدويلات الاسلامية وضم معظمها الى الحبشة ووصل بحدوده فى القرن 14 الى البحر الاحمر ، ويجدر ان نتعرض لهذه الفترة الحاسمة فى تاريخ السلطنات بالمنطقة ، ففى الفترة 1316 - 1317 هاجم Hadiya لتمرداها وامتناعها عن دفع بالجزية ؛ وفى الطريق استولى على Damot واشارت سجلاته الى انه قتل النساء والاطفال والرجال وسبى ونهب من ثروات هذه البلاد الغنية وهجر عدد كبير من اهاليهما ، وانه قتل ونهب من ثروات السلطنة ما لا يحصى ، واتخذ منها جندا فى جيشه حاربوا الى جانبه إفات فيما بعد ، وهاجم Gojjam فى المنطقة الشرقية ، ثم تحول عمدا صيون الى ولايات الشمال التى تحاول الاستقلال لتثبيت وضعه فى اندرتا Enderta المتمردة وتثير عليه من حولها ، وفى عام 1329 قام بحمله اوصلته الى البحر الاحمر فى اريتريا هذه الحملات عبرت بالنفوذ الحبشى لاول مرة نهر اواش وسيطر على Dawaro, Bale وبقية السلطنات المسلمة.

سلاطين إفــــــــــــات ومعاصريهم مت ملوك الحبشة

سلطين إفتــــــــــــــــات	ملوك حلبشة المعاصرون	الفترة الزمنية للحكم
1- عمر والى أسمع (ولشمع) (من بني عبد الدار من قریش)	يكونوا ملاك	669-684هـ/1270-1285
2- بزو بن عمر ولشمع	يجبیا صیون	684-694هـ/1285-1294

3- حق الدين بن عمر (عاصر ملكين)	1- ودم أرعد	699 - 714 هـ / 1299 - 1314 م
	2- عمدا صيون	1314 - 1344
4- صبر الدين محمد بن عمر عام 700 هـ / 1300 م	عمدا صيون	714 - 745 هـ / 1314 - 1344 م
5- جلال الدين بن عمر	عمدا صيون	1214 - 1344 م
6- على بن صبر الدين محمد	سيف أرعد (عاصره ملكين عرب)	745 - 774 هـ / 1344 - 1372
7 - أحمد بن صبر الدين حرب أرعد بن علي		745 - 774 هـ / 1344 - 1372 م
8- حق الدين الثاني بن أحمد 766 - 776 هـ / الموافق 1364-1374		
9- سعد الدين محمد بن أحمد: 776 - 805 هـ / الموافق 1374 - 1402 م (فترة ضعف وهجرة أولاد سعد الدين إلى اليمن فترة استمرت حوالي 12 سنة)		

وبات الوجود الاسلامي مهددا في المنطقة لأول مرة فتوحدوا في تحالف لم يكن قائما من قبل ؛ بفضل جهود الانمة الذين حشدوا المجاهدين والملوك والسلطنات ضد عمدا صيون وحرصوا على قتاله منذ سقوط هدية ، فإمتنع السلطان " حق الدين " عن دفع الجزية وتشجع بوحدة السلطنات فغزى الحبشة ، ومما يؤسف له انه قام بالقبض على **Ti'yintay** مبعوث امدا صيون الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أثناء عودته للحبشة عام 1322 وقتله لرفضه الاسلام ، كما قام اثناء غزوته بأعمال خارجة على الاسلام باحراق الكنائس وحمل البعض على الاسلام عنوة (292) ؛ فهاجم عمد صيون افات ودمرها ونهب ثرواتها ، واستمر في مهاجمة الاقاليم المسلمة في جواره (**Kubet, Fedsé Qedsé, Hargaye, Shewa, Werjih**) ؛ وأهلها اهل قتال مهرة في فنون الحرب فإقتحموا الاقاليم المسيحية فقمعها عمدا صهيون بعنف .

وفي فترة بين عامي 1329-1332 م انطلقت السلطنات المسلمة في جهاد عنيد ضد محاولات عمدا صيون السيطرة عليها ؛ فإنتهز تمرد بعض حكامها وعدم دفع الجزية للقيام بحملة عليها إستغرقت عاما تقريبا من فبراير الى ديسمبر فضم هدية مما اتاح له السيطرة على جزء هام من تجارة الداخل التي تتكسب من ورائها الامارات المسلمة في المنطقة الشرقية ، ثم تقدم الى إفات لتتمرد حاكمها صبر الدين الاول ومصادرته بضائع خاصة بعمدا صيون قادمة عبر زيلع . ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فتقول يوميات عمد صيون ان صبر الدين كان يطمح الى حكم الحبشة واسلمتها وإخضاع عمدا صيون ، وأنه في غزوته الاولى عين حكاما لاقاليم تابعة للحبشة هي:

Gojjam Angot, Inderta, Begemder , Amhara ,Damot, Alamalé, " Fetegar ، وانضمت اليه مملكتا **Medra Zega** و **Haydera** ولحق بهم اهل **Manzih** وكلهم انذاك من المسلمين ، وهزمهم عمدا صيون وقتل قائدهم **Dedadir** ابن حق الدين ، ودمر إفات وغنم ما لا حصر له من الذهب والفضة وقتل الاطفال والنساء والرجال .

²⁹² حمل **Ti'yintay** رسالة من عمدا صيون الى سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون عام 1320/1321 وهدده بتحويل مجرى النيل والاضرار بالمسلمين في بلاده اذا لم يحسن معاملته الاقباط.

ولما سلم صبر الدين نفسه الى عمدا صيون سجنه وعين اخاه جلال الدين الاول حاكما ، وفى الطريق الى عدل هاجمت الامبراطور قوة مشتركة من Adal, Gebela, Lebekela, Mora, Paguma, Tiqo ولحق بهم جلال حاكم افات المعين من قبل عمدا صيون ؛ فهزمهم الامبراطور فى معركة Das وتوجه الى عاصمة عدل Talag ثم عاد الى افات وطلب من جلال الدين تسليمه المرتدين عن المسيحية من اهل البلد فسلمه الجنود والقسس فجلدهم واستعبدتهم ، ولما رفض جلال الدين تسليمه البقية خلعه وعين اخوه.

وبعد معركته مع إفات توجه الى Gu'et وارض الصومال الحالية وDilhoya لتأديبها لخلعها حاكمه وطردها المسيحيين وسار الى Degwi و Werjih لنفس الغرض وفى ديسمبر هاجم شارخة وسجن حاكمها يوسف ، وفى سنة 766هـ / 1364م جاء السلطان حق الدين الثاني الى الحكم وكون جيشاً قوياً حقق به نصراً مؤزرأ بعد كفاح مرير على ملك الحبشة سيف أرعد (1344-1372م) واستطاع أن يهزمه وأسر كثير من عسكره ، ولكنه هُزم وقتل عام 1368م (هناك تباين فى التاريخ مع الجدول علما بأن هناك خلط فى تاريخ الحبشة لعدم تسجيله على نحو دقيق) ، وهُزم خليفته سعد الدين محمد بن أحمد (776-805هـ / 1374-1402) الذى تمكن من الفرار الى " زيلع " حيث حُوصِر وقتل وفشلت محاولة الامارات الاخرى نجدة إفات . وفى عام 1415 ضم الإمبراطور اسحاق الاول (1414-1429) إفات وجعلها محافظة إثيوبية ، وفى 1445 دمر الإمبراطور زارا يعقوب (1434-1468) إفات وضم البلاد حتى سيدامو Sidamo الحالية جنوبا .

جهاد عدل (805 هـ / 1402م)

بموت السلطان سعد الدين وفرار ابناؤه الى اليمن عادوا بعد اثنى عشر عاما ليؤسسوا امارة جديدة فى منطقة ميناء عدل وكانت تُعرف باسم "عدل الأمراء" ، وهى منطقة كانت من أقاليم سلطنة إفات حتى عام 805هـ / 1402م ، وهى تضم مدنا هامة ونهرا (نهرشيخ) وعاصمتها دكر "بفتح الكاف مع التشديد" ؛ وتقع على رأس خليج تاجوراء وقرب جيبوتي الحالية ، تضم ميناء زيلع وهرر وجزءا من الصومال الشمالي وإقليم الأوجادين ؛ وأستأنفت السلطنة الجهاد فمُنيت بهزيمة بعد هزيمة ؛ فانهزم صبر الدين الثانى عام 1422 (293) ، ومن بعده المنصور عام 1425 وجمال الدين عام 1433 وبولاك بن منصور عام 1445 ، وانتهى الصراع فى هذه الفترة الزمنية التى تلاحت معاركها فى زمن قصير ، بخضوع الامارات المسلمة ثانية للحبشة بشروط مهينة كما سبق الذكر بما فرضه " زرع يعقوب " ملك الحبشة (1434-1468) على المسلمين فى إمارة هدية تقديم عذراء مسلمة الى امبراطور الحبشة سنويا لتتصيرها وحرَم عليهم لباس الحرب وعدته وإن ركبوا الخيل فبدون سرج . أحبطت انتصارات الحبشة المتتالية وتعاضم قوتها روح الجهاد لدى " عدل " فجنحت الى الخضوع والتخاذل والاستسلام بدافع من المصالح التجارية ، فتهادن محمد بن بدلاى 1445 مع الحبشة ودفع لها الجزية لظروف الاضطرابات فى بلده ، وتبعه فى نفس الخط محمد بن اظهر 1488-1518 .

جهاد الانمة

استنفر تخاذل الحكام وتداعى روح الجهاد انمة الصوفية فى سلطنات الطرز؛ فاقتنصوا السلطة واستنقلوا بقطاعات صغيرة تابعة أسما لسلطان عدل ؛ على ان يؤدون له ما يقرره عليهم من خراج سنوى على غرار الحكم الحبشى الفيدرالى() ؛ مقابل ان يطلق ايديهم فى أمور الجهاد وبذلك أصبحت القوة فى ايدى الانمة وتحول الحكم الى حركة دينية عميقة ، وبدأ عثمان حاكم " زيلع " الجهاد بعد وفاة السلطان محمد بن بدلاى عام 1470 ، ومن بعده محفوظ حاكم " هرر " الذى استغرق جهاده الفترة 1488-1518 (صهر الامام المجاهد احمد الغازى) ، وكاد ان يحقق نصرا حاسما على الحبشة لولا تدخل البرتغال وانتهى امره بالاعتقال عام 1518.

وجاهد الامير " أبون بن أذش " خليفة الامير محفوظ ؛ لكن سلطان " عدل " ابو بكر قتله عام 1525 لعدم ارتياحه لسياسته ، وكان هذا سبب اعدام الامام المجاهد احمد الجرى على قتل السلطان ابو بكر (بعد نقله العاصمة من دكر إلى مدينة هرر

²⁹³ تخلط بعض المراجع بين تواريخ التقويم الميلادى والاثيوبى ؛ او عدم دقة التواريخ لفروق احتساب التأريخ الهجرى عن الميلادى، كما ان هناك غموض كبير فى التاريخ الاثيوبى لعدم وجود مؤرخين لديهم والاعتماد على بعض الرحالة البرتغاليين .

عام 927هـ / 1531م) ليبدأ عهد سلطنة هرر ، واعقبه في حكمها اخية السلطان عمر دين بن محمد من ذرية سعد الدين الذي اختاره الامام المجاهد أحمد بن إبراهيم الغازي الجُرى.

سلاطين عدل
(جهاد الامام الغازي احمد بن ابراهيم)

1- صبر الدين الثاني على بن سعد الدين	817-825هـ/1414-1421م.
2- منصور بن سعد الدين	825-828هـ/1421-1424م.
3 - جمال الدين محمد بن سعد الدين	828-835هـ/1424-1431م.
4- شهاب الدين أحمد بدلاي بن صبر الدين على	835-848هـ/1431-1444م.
5- محمد بن شهاب الدين بدلاي (فترة اضطرابات)	847-875هـ/1443-1470م
6- محمد بن أظهر الدين بن أبي بكر بن سعد الدين	894-924هـ/1488-1518م.
7 - أبو بكر محمد بن أظهر الدين (سلطان هرر بعد سقوط عدل والانتقال الى هرر)	924-933هـ/1518-1526م
8 - عمر دين بن محمد بن أظهر الدين (عينه الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي سلطانا لهرر)	عام 933 هـ / 1526م
الامام الغازي احمد بن ابراهيم	

جهاد الشرق الاعظم

نُبذة عن الامام الغازي

هو المجاهد العظيم الامام احمد بن ابراهيم الغازي الملقب بـ " الجُرى " او "جران" Gragn وكلاهما يعنى الاشول الاولى باللغة الصومالية وهى الاشهر والثانية بالامهرية ، وتسمية بعض المراجع خطأ بـ " القرين " اشتقاقا من " Gran " نقلا عن كلمة جران بالانجليزية ؛ وُلد في هويت بإقليم شوا في فبراير 1507م (مراجع اخرى تقول وُلد عام 908 هجرية الموافق 1500م)، لأسرة اختلفت فيها الاقاويل فينسبه لانفسهم الصوماليون والعفريون والأوروميون وبعض الروايات تقول إنه من الأسر العربية التي قطنت هرر .

عملت اسرته بجيش هرر ؛ تلقى علوم القرآن والحديث فى صباه فى زيلع ، تزوج من ابنة الأمير محفوظ (من امراء الاقاليم) وبعد موت الامير ؛ الحقه الأمير أبون ابقياة الجيش ، ولما قتل السلطان أبي بكر الامير ابون ، ترك الإمام أحمد مدينة هرر واستقر في مسقط رأسه ودعا يجمع الانتصار ويرتب المجاهدين لعدم رضائه عن خنوع السلاطين للحبشة ، واستطاع أن يقتل السلطان أبا بكر بن محمد(انتقلت العاصمة فى اخر عهده الى هرر وتسمت السلطنة بإسمها) وعين أخاه عمر دين بن محمد سلطانا

دعى الى الوحدة وإستجاب لدعوته ممالك الطراز الإسلامى وتجاوزت زعامته منصب السلطان والتف الناس من حوله لصالحه وعدله، وقضى على قطاع الطرق فأمنت البلاد وانصلح حال الناس وأحبوه وقالوا " لا تسموه السلطان ولا الأمير، ولكن سموه إمام المسلمين ، أو إمام آخر الزمان.. وأنه هو الذي يصلح الله تعالى به بلاد الحبشة" ولذلك اشتهر بلقب الإمام ولم يتسم بالسلطان أو الأمير ().

الجهاد العظيم (923- 949هـ / 1526- 1543م)

وفى عهد السلطان " عمر دين " تعرض السلطنة لعدوان الاحباش ؛ وتعرضوا لام الأمير " أبو بكر فطين " بالسب والاهانة فإستثارت الامام احمد جُرى نخوته وكان عمره حينئذ واحدا وعشرون عاما ، فنأدى بتوحيد الصف وامتناع "عدل" وبقية الامارات عن دفع الجزية الى الحبشة ؛ وانضم الى جيشه الاعفار والصوماليون وهم بدو اشداء كان اسلامهم فى بداية القرن 16 نصرا كبيرا لمد الاسلام .

وتوجه الامام بقواته الى إفات ودخل بلدة انطوكية وهى اصلا من بلاد المسلمين ، وحرر بلدة جنديلة وعاد الى مدينة هرر ، ومنها كرر دعوته لكافة القبائل المسلمة الى الوحدة فتجمعت حوله القبائل وجاءته المساعدات من اليمن ومصر فتهيأ له جيشا كبيرا ، فخرج مجاهدا فأوقع الهزيمة بالاحباش لأول مرة عام 1527 ؛ وبعدها بعامين تقريبا جاءتته مساعدات حربية ومواد تموينية من اهالى حضرموت واليمن واسلحة من مصر فأوقع بالحبشة هزيمة حاسمة فى " شنبر كورى " Shimbra Kure عام 1528 لما بلغه أن ملك الحبشة Lebna Dengel توجه بقواته الى إفات فتصدى له بجيش عرمرم شنت به الاحباش فى الغابات والاحراش ؛ واستتبع انتصاره سلسلة من الانتصارات الساحقة فى معارك كثيرة اجتاحتها فيها منطقة شوا بالهضبة وتقدم فى الحبشة غازيا عام 1531 .

وفى الفترة 1531-1534 ؛ تقدمت قواته فى كل حذب وصوب فى الساحل والسهل والشمال الغربى فإستعاد الامارات العربية القديمة واستولى على وسط وجنوب الحبشة ، وغزى تجراى ، واستقرت له الامور فى اكثر من نصف بلاد الحبشة وتوابعها فى ارض " البجا " ، واسلم الاحباش بالالاف ، وكاد جهاد هؤلاء البدو الاشداء بقيادته أن يأتوا على الحبشة لولا تدخل البرتغال ، فمع تواصل انتصارات المجاهد العظيم إستشعر الاحباش خطورة الموقف ؛ فاستنجد النجاشى ليبيبا دينجيل(1508 - 1540) بالبرتغال ؛ فأرسلت اسطول من الهند بقيادة Estêvão da Gama ابن فاسكو دا جاما البحار الشهير ؛ رسى فى فبراير 1541 فى Massawa بالساحل الافريقى للقاء سفير النجاشى للتعرف على احتياجاتهم ، وكان الامبراطور الجديد غالديوس (1540- 1559) قد تولى السلطة .

وفى يوليو من نفس العام وصلت قوة من 400 عسكرى من حملة البنادق بقيادة Cristóvão da Gama الابن الرابع لـ فاسكو دى جاما وشقيق Estêvão وعدد من المدافع ، وتم تدريب الاحباش ونجحوا فى البداية فى وقف المد الاسلامى ، بعد ان أوقعوا الهزيمة بالامام وهو زاحف الى العاصمة فى معركة قرب بحيرة " الشانجى " عام 1542 ، فما كان منه هو الاخر إلا ان استنجد بالأتراك الذين سارعوا الى نجدة لارتياحهم من النشاط البرتغالى فامدوه بقوة قوامها 900 رجل من حملة البنادق وعشرة مدافع تمكن بها من هزيمة البرتغاليين فى معركة Wofla فى 28 اغسطس 1542 قُتل فيها دا جاما .

ولكن الإمام ارتكب خطأ تكتيكيا جسيما فدفع ثمنا غاليا عندما إستغنى عن النجدة التركية قبل أن يستتب له الامر فأصبح غنيمة سهله للاحباش والبرتغاليين ، فأوقعوا به هزيمة ساحقه فى 21 فبراير 1543 فى معركة وينا ديجا Wayna Daga قرب بحيرة " تانا" حيث قُتل المناضل الامام ، واستشهد الامام العظيم والمجاهد الكبير ومعه كثير من المجاهدين ، وانتهى الجهاد العظيم الذى استغرق ثلاثة عشر عاما (من 937- 950 هجرية / 1540- 1543 م) ، ففرقت جموعة وأفلتت الحبشة من الانهيار وعانى الجهاد نكسة .

وظلت ذكرى هذا الرجل العظيم محفورة لدى الغربيين ولم يتذكروا منها غير الصراع الدينى فيقول المؤرخ الفرنسى " رينيه باسه " أن اشهر فترات التاريخ الأثيوبى التى بقيت اخبارها محفوظة فى اذهان الغربيين هو أحمد جُرى الصومالى الذى كاد أن يسحق النصرانية الحبشية ويعيدها كبلاد النوبة الى الاسلام .

توابع جهاد احمد جُرى (الجهاد الاصغر)

وبعد رحيل العظيم جُرى ، تتابعت حركات الجهاد ولكنها كانت حركات صغيرة أخفقت جميعا فانهت حركة الوزير عباس بهزيمته عام 1545 ، ولقيت نفس المصير انتفاضة هرر التى قادتها أرملة الإمام جُرى أخذاً بثأره ، ولكن الامير نور الدين بن الوزير مجاهد ابن أخت الامام جُرى الذى تولى حكم هرر والمعروف بصاحب الفتح الثانى نجح فى أن يقتل ملك الحبشة فى حملته الثانية عام 1559 أخذاً بثأر خاله الامام المجاهد ، الا انه انهزم واسفرت هزيمته عن قيام الاحباش بتخريب " هرر " فى نفس العام ، وبهزيمة محمد الرابع عام 1577 ، انتهت هرر كقوة سياسية نتيجة سلسلة الهزائم التى تعرضت لها .

العلاقات السياسية بين الحبشة ودول الاسلام

وعندما قامت دولة الاسلام فى " المدينة المنورة " انصرف اهتمامها الى مدافعة الفرس والروم ولم تلتفت الى الحبشة بعد وفاة النجاشي أصحابها ، الا بمجئ النجاشي الجديد الذى لم يحافظ على العلاقات الطيبة مع المسلمين التى ارساها سلفه مع الرسول (ص) ؛ فأرسل سفنا للإغارة على جدة ، فلما علم النبي (ص) أرسل علقمة بن مجزز المدلجى على رأس سرية من ثلاثمائة مقاتل للتصدي لهذه السفن فخاضت فى البحر حتى جزيرة فيه فهرب الاحباش دون قتال .

وفى عهد عمر بن الخطاب أغارت الحبشة على ساحل البحر الأحمر الشرقي فرد ابن الخطاب بحملة بحرية عام 20هـ/640م على رأسها علقمة بن مجزز المدلجى وهو نفس القائد الذى تصدى لهم من قبل فى عهد الرسول(ص) ؛ وكان عدم توفيقها سببا فى تردد امير المؤمنين فى ارسال بعوث بحرية اخرى ليس فقط للمنطقة وانما الى اى وجهة اخرى .

وبعد ذلك بستين عاما فى عهد بني أمية هاجم قراصنة أحباش جدة عام 83هـ ونهبوا السفن التى تمر فى البحر الأحمر ، فرد خلفاء بني أمية باحتلال القاعدة التى يغير منها القراصنة واستولت قواتهم البحرية على مصوع وجزر ذلك وخربت ميناء عدو ، وانسحبت القوة الاسلامية بعد ان تركت بعض المسلمين المحليين.

واذا ما استعرضنا التطور التاريخى لعلاقات الطرفين نرى انها مرت بمرحلتين تبعا لتغير الدول وتوجهاتها ما بين المودعة والمواجهة ، الاولى تبنتها الحبشة النجاشية والثانية اعتنقتها الحبشة السليمانية بدعم عدوانى برتغالى ؛ فمع تولى الاسرة السليمانية المتعصبة دينيا الى الحكم عام 1270 ، سعت لاختضاع تلك الامارات وتنازعتهما حرب طوال فترة القرون 13 الى 16 دعمت فيها البرتغال بخلفيتها المعادية للاسلام الحبشة بينما توحدت الامارات فى جبهة واحدة بقيادة " إفات " ، ومرت العلاقات الحبشية والامارات المسلمة بمرحلتين :

المودعة (الفترة النجشية)

استغرقت هذه المرحلة ما بين القرنين 7 - 13م ، سارت فيها العلاقة على نحو معتدل تأسيسا على ما ابتدأه النجاشي الكبير بخُسن معاملة المسلمين الاوائل ، الامر الذى عصم معه النبي عليه الصلاة والسلام الحبشة من الجهاد عرفانا بهذه المكرمة (نص الحديث .. دعوا الحبشة ما ودعوكم) ، واستمرت المودعة فترة لم يكن فيها فراغ للاضطراب فقد انشغلت الحبشة فيها بصراعاتها الداخلية والامارات المسلمة بصراعاتها البينية.

المواجهة

التقاء الصليبية السليمانية و البرتغالية

اختلف الوضع فى القرن 13 بعودة الاسرة السليمانية للحكم بخلفيتها الدينية المتعصبة ، فبعد نجاح الاسرة فى القضاء على مشاكلها الداخلية واستعادة السلطة ؛ انتهجت سياسة متشددة دينيا فأطلقت حملة تنصير واسعة النطاق فى الداخل وعملت على استعادة وضعها كقوة محلية فى الخارج ، وكان استخلاص تجارة اكسوم الدولية من ايدى السلطنات المسلمة من الاولويات لضعاف صمود هذه السلطنات وكسر تحديها ؛ فإتقلب الموقف الى التطرف والمواجهة .

وتواكب مع هذا التطور ، سعى اوروبى للزج بالحبشة او مملكة القديس يوحنا الرابع فى المواجهة مع العالم الاسلامى وتجاوبت الحبشة مع التحريض الصليبي دعما لمجهودهم الحربى فى فلسطين بالضغط على المصالح المصرية فى المنطقة لاستنفار

مجهودها بعيدا عن الارض المقدسة ، فأرسل البابا نقولا الثانى سفارة لم تصل ابدا وتابع المحاولة يوحنا الرابع والثانى والعشرون بارسال سفارة من الدومينيكان عام 1316 لم توفق هى أيضا فى ادراك مقصدها بسبب إحتجاز السلطات المصرية اعضاء البعثة قبل مغادرتهم الاراضى المصرية .

وكانت معادلة العلاقات المصرية الحبشية انذاك محكومة بإطار المسافرات القاصية لا تخرج فى توترها المعتاد عن مجرد ملاسنة شفوية بإنزال العقاب بطرف ثالث يهم امره هذا او ذاك من الطرفين ؛ هما مسلمى الحبشة وسلطنات المنطقة بالنسبة للإدارة المصرية وإقباط مصرالذين يجمعهم بالاحباش المذهب اليعقوبى ، فأقامت الحبشة من نفسها راعيا لهم ففى عام 1325 هدد ملك الحبشة بإنزال المجاعة بارض الكنانة (مصر) بتحويل نهر النيل عنها ، إذا لم تطلق مصر سراح احد زعماء القبط وتحسن اليهم مثلما يحسن هو معاملة المسلمين فى بلاده ملمحا الى إمكانية الإنقلاب عليهم وانزال غضبه بهم.

وخرج التجاوب عن حدود القول الى الفعل ، فطال وعيد الحبشة التهديد كل حين بحرمان مصرمن انسياب مواردها المائية القادمة من الهضبة الحبشية والمشاركة فى مخططات العدوان الأوروبية عليها ؛ فأعدت الحبشة نفسها للمشاركة فى عدوان لوسينان الثانى lusignan ملك قبرص على مصر عام 1365 (لا نعلم كيف الجنوب) ؛ لكن فشل الحملة فى اتمام مهمتها لم يعط الفرصة للحبشة للعمل المباشر ضد مصر ، وتبنى امبراطور الحبشة اسحق الاول (1418- 1429م) Yeshak هذا النهج .

وتحسبا لاي مهمة من هذا النوع فنظم جيشه ودربه مستعينا بجركسى مسلم من مصر واستعان بتجار مسلمين لتسليحه بأسلحة حديثة ، وبادر بالاتصال بأوروبا عام 1427م لتحريرها على القيام بهجوم مشترك على مصر أنتقاما لمقتل " جانوس " ملك قبرص على ايدى المماليك المصرية فى غزوهم قبرص عام 1426 ؛ وارسل نورالدين التبريزى التاجر الفارسى مبعوثا الى اوروبا للحصول على دعمها فوافق ملك أرغونة (البرتغال) على تقديم اسطول بحرى ، ووافقت فرنسا على ارسال بعثة لبناء السفن الى الحبشة لم يصل منها سوى فرد واحد فقط عام 1431م ، ولكن الحروب الأوروبية الداخلية لم تساعد على تلبية هذه الرغبة ، ويتردد أن احد ملوك الحبشة المعتقد انه الملك Naod (1532 – 1500) فكر فى تنفيذ اقتراح ملك اراجون (البرتغال) (294 مانويل الاول 1495- 1521) Manuel I Aragon بتحويل مجرى النيل للضغط على مصر ، فأرسل مع " البوكرك " Afonso de Albuquerque قائد الاسطول البرتغالى عام 1507 طلبا للفنيين والادوات اللازمة لهذا الغرض (295) ؛ وبدأت الاستعدادات لولا تدخل الكهنة الاحباش الذين أثنوا الملك عن ذلك بدعوى أن تحويل النهر الى المحيط سيخلق الى جوارهم المباشر فى الصومال دولة اسلامية قوية لن تلبث أن تقوض أركان مملكته (296) .

وكانت البرتغال بعدائها للإسلام وهو أنذاك خطأ إستراتيجيا متجذرا فى فكرها السياسى لرغبتها العارمة فى الانتقام من الاسلام بعد زوال حكمه عنها ؛ قد جعلت نصب عينيها من دوافع كشوفها الجغرافية توجيه ضربة اقتصادية لعالمه بالتخلص من سيطرته على دروب التجارة الدولية وإنتراعها من يديه وسلبه مواردها بإستكشاف طرق جديدة بعيدا عن ارضه . ولذا كانت البرتغال سباقة فى بناء تحالف قوى مع الحبشة التى لا يغيب عدائها للإسلام عن مثلها ؛ يستوجب نُصرتها فأرسلت عام 1460 بيريس كوفلهام Peres Covlham الى الحبشة حيث قضى 33 عاما لرعاية التحالف ، وتبعه عام 1494" بدرو " مبعوث الملك "جون الثانى " .

وكان وصول البرتغال الى السواحل الشرقية لأفريقيا عبر الرجاء الصالح عام 1487 دعما إستراتيجيا للحبشة فقد صب الاسطول البرتغالى على سلطنات ساحل شرق افريقيا والبحر الاحمر عنفا وحرقا وتدميرا وحشيا ، ومد لها الدعم العسكرى ونصرها فى نضالها مع الامام المجاهد احمد الجرى الذى كاد ان يقضى عليها ، وتمثل تطرف عداء البرتغال فى حشيتها على شعوب الاسلام فى شرق افريقيا وعمان ، وفرض التنصير الاجبارى على اهله على نحو ما حدث مع ابن حاكم مالنده وغيره وتنصير شعب المالديف المسلم بأكمله قسرا بعد احتلال جزيرتهم فى القرن 16(297) .

²⁹⁴ ارجون كما هى فى خريطة الاسترداد تمتد من شرق الى غرب الجزيرة الابيبيرية ، لذا فهى تضم البرتغال وكان يطلق عليها جميعا اراجون .
²⁹⁵ Afonso de Albuquerque ؛ كان نانبا للملك فى حكم الهند والممتلكات البرتغالية فى الخليج الفارسى والساحل الافريقى وقائدا للاسطول بها 1503 - 1515 .

²⁹⁶ العالم الاسلامى المعاصر - ص 111 جمال حمدان.

²⁹⁷ استردت المالديف اسلامها بعد خمسة عشر عاما عندما تمكن الثائر محمد ذاكر فان من هزيمتهم وتحرير البلاد.

وتماضى التحالف فى ظل الوجود البحرى للبرتغال فى المحيط الهندى والبحر الاحمر فى مخططاته بالتجرو على استهداف الاماكن المقدسة فى مكة ، فقد قامت "إلبنى" ملكة الحبشة(298) وعمانويل ملك البرتغال عام 1510م بتدبير السفن اللازمة لتلك المهمة وحضرا لغلاق البحر الاحمر فى وجه البحرية المملوكية ، ولما استشعر البابا خطورة ما ينويانه طالب بوقف نشاط الاسطول البرتغالى فى المنطقة وتحسين العلاقات مع الممالك للتهدنة مع العالم الاسلامى لكن عمانويل رفض طلبه مؤكدا العزم على أن يجعل " مكة " هدفا لمدافعه ؛ وكان سواريز قائد اسطول البرتغال فى بحر الهند قد تقدم خطوة نحو هذا الهدف بمهاجمة جده عام 1520، وفيما يلى نص رسالة ملكة الحبشة هلينا "إلبنى" الى ملك البرتغال مانويل "عمانويل" 1495 - 1521، تعرض فيها المساعدة بمهاجمة مكة وطور سيناء وباب المنذب والتعاون الاستراتيجى بينهما فى هذا الخصوص :

نص الرسالة

" السلام على عمانويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة، تحياتي إليكم ودعواتي لكم ، لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهز جيشا ضخما ليضرب قواتكم ويثأر من الهزائم التي ألحقها به قوادكم في الهند (تقصد معركة ديو البحرية التي انهزم فيها اسطول المماليك) ، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا إلى البحر الأحمر وإلى مكة أو جزيرة باب المنذب، وإذا أردتم نسيروا إلى جدة أو الطور؛ وذلك لنقضي قضاء تاما على جرثومة الكفر ، ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك نصراني يستطيع في وقت قصير أن يبيد الأمم الإسلامية المتبريرة، ولما كانت ممتلكاتنا متوغلة في الداخل، وبعيدة عن البحر الذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان، فإن الاتفاق معكم ضروري؛ إذ إنكم أهل بأس شديد في الحروب البحرية".

الوحشية البرتغالية

ضد المدن الاسلامية

كان نجاح البرتغال فى الوصول الى الساحل الشرقى لافريقيا عام 1487 عبر " رأس الرجاء الصالح " نذير وبال على المدن الاسلامية فى سواحل المنطقة (299) ؛ بعدما إتخذتها اساطيلها هدفا متجددا للكراهية البرتغالية منذ ذلك الحين ، فأحرقوا " ممبسه " (فى كينيا حاليا) أكثر من خمسة مرات وقتلوا جميع المسلمين فيها ؛ ودمروا " باتا " و" لامو " و" مقدشو " عام 1499.

وتلاحقت حملاتهم البشعة على " سوقطرة " و" زيلع (عام1517) وذبحوا أهل " برافا " ، ويقول باسيل دافيدسون أن دى جاما هدد في رحلته الاولى بحرق كلوة اذا لم يعترف حاكمها بسيادة البرتغال ودفع جزية سنوية لها ؛ وقام " دافازيو " بالعمل نفسه في زنجبار وبرافا ؛ وعصف " الميدا " قائد الاسطول البرتغالى بكلوة وممباسا واحرقهما وحطمهما تماما عندما قاومه الاهالى ، ونهب " سالدانها " بربرة ؛ وحطم " سواريز" زيلع وهاجم " داكونها " مدينة برافا ؛ وينقل عن " باربوزا " الذى كان شاهد عيان بالاسطول قوله " ان البرتغاليون حطموا برافا وذبحوا اهلها واسروا منهم الكثير ونهبوا الكثير من الذهب والفضة والبضائع ؛ ويصم دافيدسون البرتغاليين بالتخريب والوحشية فيقول " ... وكانوا ينشدون تدمير المدن الساحلية ونهبها ، ويميلون للوحشية واتسمت اعمالهم بالهمجية والحقد خصوصا عندما يقاومهم الاهالى ، ودائما ما خلفوا ورائهم الفوضى والخراب .

وضرب مثلا بما فعله البوكيرك من قطع انوف السيدات وايدى الرجال في ساحل جزيرة العرب ، واستشهد بمقتبس من رسالة حاكم ممبسة الى حاكم " مالندة " يصف له فيها ما أحدثه الميدا قائد الاسطول البرتغالى فى " ممبسه " ، يقول فيها " أن شعب السواحل والعرب عندما عادوا الى المدينة بعد هجوم الميدا ، لم يجدوا فيها أثرا للحياة فقد أحرق البرتغاليون كل من لم يتمكن من الهرب من الرجال والنساء والاطفال وهم أحياء " .

وتعرض دافيدسون لحادثة اخرى لنفس المدينة يقول فيها " لم يرحم البرتغاليون أهل " ممبسة " الذين فروا من أكلى لحوم

²⁹⁸ (هي ابنة محمد سلطان هدية السابق الاشارة اليها .

²⁹⁹ (أنزل البرتغاليون 247 سفينة خلال 25 سنة فى اساطيل صغيرة كانت تبحر الى الهند كل عام حطمت التجارة الشرقية وخلفت ورائها الفوضى والحطام دافيدسون ، ص 80.

البشر من قبائل " الوازمباة " الذين استغلوا الفرع الذى احدثه الهجوم البرتغالى فهاجموا المدينة والتهموا الناس فى الطرقات
وحيثما لقي سكان المدينة بأنفسهم فى البحر هربا من هذا الهلاك حصدتهم مدافع الاسطول البرتغالى دون رحمة " (300) .
ويقارن دافيدسون بين عقيدتنا الحرب البرتغالية والافريقية ، فيقول " البرتغالية جاءت على نقيض اساليب الحرب الافريقية
، فبينما رغب البرتغاليون فى التدمير والقتل ؛ كان الافريقيون ميالون الى تقليل الخسائر البشرية فى الجانبين قدر الامكان (301) ،
فكل طرف منهما يحرص على الا يسد منافذ الهروب على عدوه ؛ حتى لا يضعه فى مأزق لا مخرج منه فيُحفره على القتال
بشراسة حتى النهاية مما يُطيل امد المعركة وتكثر خسائر الجانبين ، فلا يرغب من كانت له الغلبة فى ايقار صدر عدوه بتكبيده كلفة
عالية فى الارواح لا يتقبل معها الصلح ويسعى للانتقام فى جولة اخرى.

وهى فى هذا قريبة فى بعض الجوانب من عقيدة الحرب الاسلامية ، فرسول الله اوصى اسامة بن زيد فى حملته ضد الروم
" ألا يطارذ موليا...و... (نص الحديث .. لا تقتل طفلا لا تقتل امرأة لا تقتل شيخا لا تجهز على جريح لا تطارد موليا (دعه يهرب)
لا تقطع شجرة مثمرة ، ستجدون اناسا جلسوا فى الصوامع يعبدون ربهم فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له " ، وبمقارنة عقائد
الحرب الثلاث نجد عقيدة الحرب البرتغالية وحشية حتى النهاية (إبادة) والاسلامية رُقى حتى النهاية والافريقية عقلانية من البداية
حتى النهاية .

العودة الى المودعة والعزلة

كانت اوضاع الحبشة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر تنذر بالخطر فقد خرجت منهكة من حربها مع الامام
الغازى ، ورأت استئراء الكاثوليكية بدعم من الوجود البرتغالى خطرا يهدد عقيدتها اليعقوبية فانشغلت بمحاربته بعد انتفاء الحاجة
اليه بعد انهيار سلطنة عدل واختفاء عدد من السلطنات الاسلامية الذين ابتلعتهم فى الهضبة من قائمة الاعداء ، فسعت للاستعانة
بدول الاسلام الكبيرة فى المنطقة فى اعانتها للتخلص من البرتغال فاثرت العودة لمهادنة الاسلام .

وصل الامر بـ فاسيليدس امبراطور الحبشة فى تصديه للمد الكاثوليكي الذى ادى الى عزل والده سوسينيوس **susenyos**
بسبب اعتناقه ، ان خطب (فاسيليدس) ود أئمة اليمن ليعينوه على البرتغال فاتصل " بالمؤيد " عام 1640 وكرر نفس المحاولة مع
خليفة " المتوكل على الله " عام 1647 ، فعاد الى سياسة المودعة مع الإسلام والعزلة التى امتدت قرنين من الزمن ؛ تهيأت فيها
فرصة سانحة لمد الاسلام بتدفق قبائل الجالا على الهضبة التى لم تستطع الحبشة وقف مدهم لضعفها وانشغالها بصراع امراء
الاقاليم المتصرفون خلال تلك الفترة وحتى عهد الامبراطور **Tekla Haymonot 1706 - 1708** ، وهذه القبائل اسلمت فيما
بعد .

300 (باسيل دافيدسون - افريقيا القديمة تُكتشف من جديد ص 80 .
301 (باسيل دافيدسون - افريقيا القديمة تُكتشف من جديد ص 79 - 81 .

الفصل الثالث نضال ممبسة وجهاد الامبراطورية العُمانية فى ساحل شرق افريقيا

انتفاضة ممبسة والاستنجاد بالترك والعُمانيين

فى اواخر القرن السادس عشر ؛ انتفض مسلمو ساحل شرق افريقيا متشجعين بوجود العثمانيين بالقرب منهم فى البحر الاحمر ؛ وكانت اماره " ممبسة " سباقة فى هذا الشأن فقادت فى عهد امارتها الجديدة التى قامت عام 1583 الجهاد ضد البرتغاليين ولحقت بها الامارات المسلمة الواحدة تلو الاخرى ، لكن الإعتماد على الاتراك لم يحقق نتائج ملموسة فى المواجهة مع البرتغاليين بعد انهزام النجدة التركية فى معركة " ممبسة " .

على اثر ذلك إستنهضت " ممبسة " دولة عُمان الفتية لدعم جهاد الامارات المسلمة ، خاصة وان هناك روابط ممتدة بينهما وهى الاقرب ولديها خبرة فى قتال البرتغاليين برا فى اراضيها وبحرا فى الهند وثارا لم ينتهى بخصوص اماراتها فى الساحل وعداء مستحكم ؛ فقد إستعدت البرتغال عُمان بإستهدافها امارات ساحل شرق افريقيا منذ عام 1498 ، وإستشرى العداء بعد احتلال الاسطول البرتغالى بقيادة " البوكيرك " ساحل عُمان فى جنوب الجزيرة عام 1507 (عام ميلاد المجاهد الاعظم جُرى) ، وإرتكابه الفظائع بأهله ومدنه بقطع انوف السيدات وايدى الرجال .

وبعد نجاح المقاومة العُمانية فى صد البرتغاليين وحصر وجودهم فى الساحل العُمانى ، بدأوا فى توحيد الصف لطرد البرتغاليين ، فبايوا ناصر بن مرشد بالامامة عام 1624 ، وهو مؤسس دولة اليعاربة (1624 – 1743) ، وتمكن من هزيمة البرتغاليين فى عدة معارك قلصت وجودهم بشدة على الارض العمانية عام 1649 عند وفاته ، ومن بعده استكمل الامام سلطان بن سيف (1649 – 1680) تحرير عُمان بعد أن هزم البرتغاليين قرب ديو غرب الهند فى اسيا .

نجدة العُمانيون ممبسة

بعد نصر الامام سلطان بن سيف على البرتغاليين فى ديو انقلب يلاحقهم فى شرق افريقيا عندما دعتهم ممبسة لنجدتها بعد اندحار النجدة التركية ؛ وتوالت إنتصارات العُمانيين على القوات البرتغالية فى " زنجبار " عام 1652 ، وفى موقعة أخرى حاسمة قرب " ممبسة " عام 1660 ، وتابع تقدمه فدخلت قواته " موزمبيق " عام 1669 ، و كان وضع البرتغاليين فى نهايات القرن 16 يسوء فوجودهم فى المنطقة المحيطة بالمحيط الهنـدى والبحرالاحمر تداعى تحت وطأة الانجليز والهولنديين فى الاولى وضغط العثمانيين فى الثانية ، وبدأت قواعدهم فى الساحل الافريقى تتداعى على يد سيف بن سلطان الاول (1692 – 1711) الذى استكمل تحرير ساحل شرق افريقيا بعد أن الحق هزيمة حاسمة بهم فى " ممبسة " عام 1698 بعد حصار دام 33 شهرا .

جهاد الامبراطورية العُمانية فى شرق افريقيا

ومطاردة البرتغاليين - وقيام دولة الوحدة العربية الافريقية الاولى

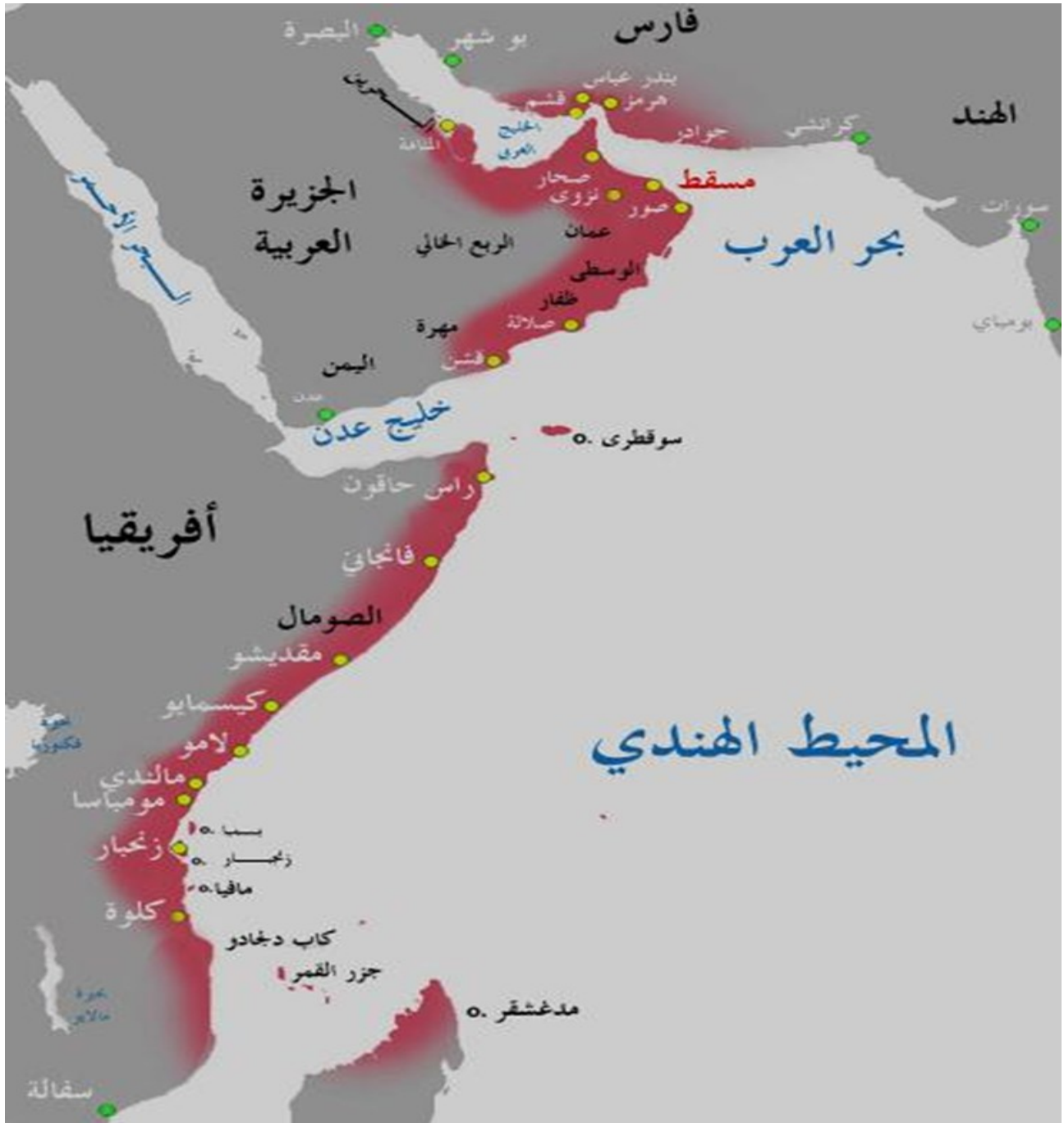
اصبحت عُمان قوة اقليمية يُعمل لها حساب ، هابتها قوى المنطقة ، واستقر لها الامر بعد ان فرض الامام سيف بن سلطان الثانى حمايته على " ممبسة " بناء على طلبها عام 1728 ، وعين ابنه محمد بن سعيد العمرى حاكما عليها نيابة عنه ، فتابع الفتوح على الارض الافريقية فاخضع زنجبار ومعظم الساحل مابين مقدشو شمالا وحتى رأس " دلجاو " جنوبا وبذلك قامت دولة الوحدة العربية الافريقية الاولى .

دولة الوحدة العربية الافريقية الثانية

تأكلت سيادة عُمان في المنطقة بسبب تراخ الانمة ؛ وبعد قرن تقريبا استعاد سلطان مسقط " سعيد بن سلطان " السيادة العمانية على المنطقة بعد أن حقق سيطرته على عُمان في عام 1824 ؛ فاستعاد " ممبسة " عام 1830 ، وبعدها " كلوة " و " بمبا " و " مافيا " و زنجبار ، ونقل حاضرتة من " مسقط " الى " زنجبار " عام 1840، ثم ضم موزمبيق وبعدها مدغشقر بزواجه ملكتها مؤسساً بذلك دولة الوحدة العربية الافريقية الثانية على امتداد جنوب الجزيرة العربية في مسقط وعمان وساحل شرقي افريقيا ، وبعد موت السلطان سعيد عام 1856 إقتسم اولاده المُلْك فحصل " تويني " على حكم عُمان واتخذ مسقط عاصمته ؛ وحصل " ماجد " على حكم شرق افريقيا وعاصمته " زنجبار " .

نبذة عن سعيد بن سلطان

هو حفيد مؤسس الدولة البوسعيدية ، ولد في سمائل عام ١٧٩١ م، قام والده سلطان بن احمد قتل مقتله في عام ١٨٠٤ م بتعيين محمد بن ناصر الجبري وصيا على ابيه ، سالم وكان يبلغ من العمر (١٥) عاما، وسعيد كان له من العمر (٣) عاما، وفي هذه الأثناء قام عمهما قيس بن احمد حاكم صحار بمحاولة للاستيلاء على السلطة في عمان ،فاجتمعت الأسرة البوسعيدية وارسل الوصي محمد بن ناصر الى بدر بن سيف بن الامام احمد بالدرعية منفاه الاختياري بعد هربه من عمان اثر فشل الانقلاب الذي قام به ضد سلطان بن احمد عام ١٨٠٣ م ، فسارع بالتوجه الى مسقط ليمسك بزمام الأمور ، واستمر يحكم عمان لمدة عامين حتى مصرعه على يد الشاب سعيد بن سلطان بعد مبارزة رسمية بالسيف ، وبمقتله وطد سعيد بن سلطان حكمه في عمان والمناطق التابعة لها.



الامبراطورية العمانية وامتدادها الافريقي

الفصل الرابع

المد الاسلامي في ساحل شرق افريقيا

بين القرنين 17 — 19

كانت مدافعة المسلمون البرتغاليين على مدى قرنين سببا في تباطؤ مد الاسلام ؛ وإن كانت الحسنة الوحيدة لتلك الهجمة تغيير الاسلام مساره متجاوزا مناطق النكبة في مدن الساحل الى داخل القارة محمولا على اعناق القبائل التي فرت من عنف ووحشية الهجمة البرتغالية ، ومع تجار عُمان وزنجبار الى جبال كليمنياروا التي خبروا اسرار دروبها ؛ وساهمت سلطنات ساحل البحر الاحمر واهضبة في مد الاسلام الى الهضبتين الحبشية والصومالية ، وهيات عودة الحبشة الى اعتناق سياسة المودعة مع الإسلام لتتفرغ لاحتواء المد الكاثوليكي الذي بات يهدد عقيدتها الارثوذكسية الفرصة واسعة من جديد امام الحركة المدية للإسلام ؛ عندما خطب " فاسيليدس " ملك الحبشة ود أنمة اليمن ليعينوه على البرتغال فاتصل " بالمؤيد " عام 1640 ؛ وكرر نفس المحاولة مع خليفة " المتوكل على الله " عام 1647 ، وليست هذه السابقة الاولى فقد سبقه الى ذلك الملك سيفاً أرعد الذي كان يرسل ملوك اليمن ويبحث عن علاقة ودية معهم (رغم سياسته العدوانية ضد المسلمين) ؛ فأرسل عام 770هـ / 1368م وفدأ يحمل الهدايا والتحف للسلطان الأفضل ابن المجاهد الرسولي.

حركة القبائل (الاعفار- الجالا- الصوماليون)

وساهمت حركة القبائل المسلمة كالعادة في مد الاسلام ، فحركة الاعفار (الذناقل) والصوماليون دائما ما كانت تعنى حركة مدية للإسلام ؛ وساهمت قبائل " الجالا " او الجالا التي قطنت وادي العربي ومنطقة جوبا حتى بحيرة " أبايا " ؛ بنصيبها هي الاخرى ؛ فهذه القبيلة تقدمت الى الهضبة وهي ما زالت على وثئيتها ؛ ولم تقوى الحبشة على صدها وهي منهكة في حروبها مع المجاهدين ؛ وزادت الجالا قوة بإقتحام موجة ثانية منهم الهضبة في القرن 17 وانتشروا في ثلث البلاد ؛ واسلام هذه القبيلة كان حصادا لتعالى العنصر الامهرى عن مخالطة الجالا (الاورومو) ؛ فقاموا بعزلهم ولم يهتموا بتنصيرهم ، وكان هذا الموقف العدائى حافزا لتقارب الجالا (الاورومو) مع المسلمين المضطهدين مثلهم ؛ فجمعتهم هذه التفرقة بعلاقة مودة قوية مع التجار المسلمين فكانوا سببا في اسلامهم وإخترق الاسلام الجالا (الاورومو) على نطاق واسع عندما اعتنقه بعض زعمانهم من ذوى النفوذ (302). وتعاضمت مكانة الجالا بالعمل مرتزقة في جيش الحبشة وزواج ملك الحبشة منهم ، الامر الذى سهل انتشار الاسلام في المناطق التي حكموها فـ" الرأس على " حاكم اقليم اورومو كان له فضل اسلام ثلث سكان البلاد التي حكمها في منتصف القرن 19 (303) ، و لعب القواسمة العرب دورا هاما في اسلام البقليين في القرن 10 وبعض قبائل الحبشة في القرن 13 ، ولهم فضل مد الاسلام بأرض البجا غرب النوبة وبين حدود مصر الجنوبية والحبشة (304) ، بفضل دولهم فقد كانت لهم دولة في " وادي بركة " كانت خاضعة لمملكة " علوة " المسيحية ، وكانت لهم إمارة عربية خالصة في القرن 13 في منطقة " سواكن " تسمى " الحدراب كانت خاضعة لدولة الممالك في عهدى " الظاهر بيبرس " و " الناصر قلاوون " ساهمت في نشر الاسلام بالمنطقة ، وحقق مد الاسلام بالسلم مالم تحققه المعارك في قرون ، فقد تمكن الاسلام بهدوء في الفترة السابع عشر حتى التاسع عشر من ثلث سكان الحبشة.

مد الاسلام تحت الراية العمانية في افريقيا

هيات عودة النفوذ العمانى الى شرق افريقيا في النصف الاول من القرن 19 ظروفا أفضل لمد الاسلام فهي أكبر دول المنطقة واقواها واكثرها حداثة وثراء وازدهارا و بتفوقها البحرى إستتب امن المنطقة ، وفي ظل المناخ الجيد الذى اسبغته

302 (يرجع الفضل في وجود التجار المسلمين بالحبشة الى سياسة " المودعة " التي بفضلها إنفتحت امامهم ابوابها الحبشة للتجارة والتي كانت سببا في اسلام الجالا ايضا .

303 (وهو نفس الوقت الذى اعتنقت فيه القبائل المسيحية الاريتيرية الاسلام.

304 (والقواسمة من القبائل الوافدة التي سبق ان لجأت الى ارض البجا في أواخر العهد الاموى واندمجت فيها وكان لها فضل في اسلام بعض القبائل في الحبشة .

الامبراطورية العُمانية على المنطقة جابت قوافل تجار عُمان و "زنجبار " ، قلب افريقيا حتى بحيرات نياسا بتنجانيقا وفيكتوريا والجزء العليا من نهري الكونغو والنيل فتدفقت الدعوة معهم حتى حدود الكونغو عبر اوغندا وكينيا وتنجانيقا (عام 1825) ، كما قامت مراكز الايواء الدائمة لاقامة لتجار العرب على الطرق طوال الفصل المطير بدور عظيم في نشر الاسلام .

دور الطرق الصوفية في دعم الاسلام

قامت الصوفية بجهود عظيمة في نشر الاسلام والمحافظة عليه سواء بجهاد الأئمة لدرء عدوان الحبشة السابق التعرض اليه او بالتصدي لعمليات تنصير أهالي الصومال بعد الاحتلال الانجليزى لها ، وبدأ انتشار هذه الطرق في الفترة من القرن 16 حتى القرن 19م ، فاقامت القادرية المدارس واجتهدت في نشر الاسلام منذ عام 1503 في الصومال والحبشة وكذلك بين بدو المناطق المجاورة بما فيها " الجلا " .

وأسهمت " الاحمدية " في حركة الاحياء الدينى في الصومال (1870) ؛ وقامت " الخاتمية " بدور مماثل بعد وصول فروعها من السودان عام 1817 ، ومن اكثر الصوفية سمعة الامام المجاهد السيد محمد عبدالله حسن الذى قاد الصوفية في الصومال ونستعرض دوره في النبذة التالية :

جهاد الامام محمد عبدالله حسن

في نشر الاسلام

ومواجهة التبشير (القرن 19)

ولد الامام عام 1273 هجرية الموافق 1856 م ؛ في بلدة فوب فردوت باقليم الوجوديين شمال غرب الصومال (حاليا ضمن الحبشة) ، وهو من رجال البادية الاشداء ، حفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره ، ودرس اللغة العربية وعلوم الشريعة ؛ وبعد موت ابيه انتقل مع امه الى الاقليم الشمالى للعيش فى كنف اخواله ، واشتغل بالتدريس ولقب بالفقيه البار ، وفى حوالى الرابعة والثلاثين من عمره قصد الى مكة لاداء فريضة الحج ، وهناك تأثر بثورية الشيخ صالح السودانى مؤسس الطريقة الصالحية ومتابعته للثورتين العربيه فى مصر والمهدية فى السودان.

وقرر الامام تشبها بزعيما الثورتين محاربة الانجليز فى بلاده ، وكانوا قبيل ذهابه الى الحجاز قد إحتلوا ساحل بربرة عنوة بعد إجبار السلطات المصرية على الانسحاب منها .

وبعد عودة الامام محمد حسن عام 1896 إستقر فى بربرة وكون مجموعة "الدرأيش" على الطريقة الصالحية إستعدادا للثورة على الانجليز .

وجاءت الفرصة لما نزلت بعثات التبشير أرض الصومال الشمالى عام 1897 فطلب الامام من السلطات البريطانية إبعاد المبشرين ، ولما ماطللت أعلن الجهاد وهزمهم هزيمة ساحقة فى " تالغ " ، مما اضطر الحاكم العام البريطانى الى طلب التفاوض ، واجتمع الطرفان على مقربة من بلدة " لاس عانو " وعرض الوفد البريطانى على الشيخ وقف ثورته مقابل إعتراف الحكومة البريطانية به ملكا للصومال كله ؛ فرفض وواصل كفاحه على مدى عشرين عاما واجه فيها تكتلا من أربع دول هى انجلترا وفرنسا وايطاليا ومعهم الحبشة ولم يستسلم الامام أبدا الى ان لقي ربه فى عام 1921 .

الفصل الخامس

حضارة الاسلام فى

سلطنات ساحل البحر والهضبة وساحل شرق افريقيا

كانت مدن الساحل التى كانت عبارة عن مراكز تجارية فى نشأتها ومراكز تجارية محصنة وتحميها قوة بحرية، قد أخذت تنمو وتتسع فى داخل أسوارها حتى تحولت تدريجياً إلى مدن زاهرة محصنة تحصيناً قوياً وتحميها قوة بحرية ، وقد تبلورت سماتها الإسلامية الصرفة فى مقديشو، براوة، قسمايو، بات، لامو، زنجبار، موكيه، مكوة، موزمبيق، سفالة، ومدن مثل ميسه وكلوه وغيرها على مقربة من الساحل، وتجلت مظاهر الحضارة الإسلامية بها فى فن العمارة وتخطيط المدن وزخارف الأبواب والشبابيك ، وتطبيقاتها فى قصور (مكوة) ومساجدها.

ولفت رُقى إمارات الساحل المسلمة نظر العديد من الرحالة فى السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر ، فقد إندھش " فاسكو دى جاما " وبحارته لما رأى مدناً مزدهرة عامرة بالسكان مؤسسة على احسن الطرز تماثلها فى الروعة القليل من مدن أوروبا على حد تعبير دافيدسون ، وبات واضحاً لهم ان مدن الساحل الشرقى لافريقيا كانت على قدر كبير من التمدن وعلى معرفة كبيرة بالعالم ، وأن مدنيّتهم الأوروبية لا تتفوق على مدنية تلك المدن فى كثير ، فبحارة هذه المدن يعرفون جيداً طرق الملاحة الى الهند وما وراءها ، واجهزتهم وخرائطهم تماثل ما كان فى حوزة البرتغاليين وربما أكثر دقة ، فالبحارة العرب كانوا على معرفة أكثر بالعالم الخارجى فى وقت كانت فيه الاكتشافات الأوروبية ما زالت فى بدايتها ، ويقول " ساو جابرييل " مسجل سفينة فاسكو دى جاما ان اثنان من سادة البلاد زارا السفينة ، وكانا على جانب كبير من التعالى ونظرا بترفع لما قدمناه لهم من اشياء لاقيمة لها فى نظرهما (305) ، وادهش ابن بطوطة عند زيارته للمنطقة فى القرن 15 نفس ما أدهش البرتغاليين .

ومن الناحية الاقتصادية كانت المستعمرات العربية مركزاً تجارياً دولياً هاماً ، ومقصداً لسلع الصين والهند والجزيرة العربية وبقية العالم الاسلامى ، ويصف باربوزا البرتغالى المنطقة بأنها اعظم منطقة تجارية فى العالم ، ويشير المؤرخ " عربى فقيه " فى كتابه " فتوح الحبشة " الى الثراء العريض والترف الذى تعيشه هذه المدن الارقى فى محيطها بما فيها مدن الحبشة فيقول " إن كثرة العملات الذهبية والفضية (كثرة النقود) فى يد الجنود والمسلمين عامة أدت الى ارتفاع مستوى المعيشة فأصبحت الكماليات ضروريات فارتفعت الاسعار فأصبح البغل الواحد يساوى أربعين أوقية من الذهب بعد أن كان ثمنه منذ عامين لا يصل الى ربع أوقية وان السلع المصرية والاسلامية ملأت الاسواق " .

ومن ملامح النهضة الثقافية فى هذه المدن كثرة مراكز العلم من مدارس ومساجد والوافدين من العلماء والادباء والشيوخ وطلاب العلم ، فهناك معلمون من الحجاز ومصر واليمن لنشر اللغة وتعليم الفقه والسيرة والتشريع مما جعل " هرر " بحق كعبة تعليم ومركزاً للمخطوطات والمدونات التى ليس لها مثيل فى شرق افريقيا كله ، وأصبحت (براوة) على ساحل إفريقيا الشرقى جزيرة عربية تجذب الطلاب من مختلف انحاء المنطقة الساحلية

ويلاحظ اثر التهديدات التى تعرض لها الاقليم لقرون من كلا من البرتغال والحبشة المتعصبتين ؛ فى مغالاة هذه المدن فى التركيز على الجانب الدينى فى الحياة الثقافية ، التى تفردت فى شرق افريقيا باندماج الشخصية العربية والافريقية بسوابق بعيدة فى الزمن وضعت اساساً لوحدة ثقافية انبثقت عنها الثقافة " السواحيلية غلبت عليها العربية على حد قول باربوزا البرتغالى " ، ثقافة عربية القلب افريقية القلب .

ومن الجلى تحضر مسلمى المنطقة وتفردهم من هذه الناحية على بقية عناصر الاقليم العرقية بما فيهم الحبشة ام حضارة الاقليم الغائرة فى التاريخ ويؤكد ترمنجهام هذه الحقيقة فى كتابه اثيوبيا المسيحية بقول " لاحظ الاوروبيون ان المسلمين فى الحبشة المسيحية عادة ماكانوا يشغلون الوظائف التى تتطلب خبرة ومستوى ثقافى خاص " ويضيف جوستاف لوبون فشاعت العربية بينهم (306) ، ومن اهل العلم المؤرخ المشهور عبد الرحمن الجبرتي (1168هـ - 1754م) ، والفقيه الأصولي فخر الدين أبو عمر عثمان بن على بن محجن البارعي الزيلعي من أهالي زيلع والإمام العلامة جمال الدين محمد بن عبد الله بن يوسف الحنفي الزيلعي (762هـ) ومن أشهر مؤلفاته نصب الراية لأحاديث الهداية فى أربع مجلدات.

305 (إفريقيا القديمة تكتشف من جديد ص 79.

306 (حضارة العرب - د جوستاف لوبون ص 217.

وما يؤخذ على مدن ساحل افريقيا الشرقى ممارستها تجارة الرقيق ، وهى فى ذلك تختلف عن مسلمى غرب افريقيا الذين تصدوا بقوة لهذه التجارة ، وقد نجد مبررا فى اختلاف المنظور فى شرق افريقيا ؛ فالدويلات المدن فى الشرق كانت تفتقر للقوى العاملة لادارة نشاطها الاقتصادى الكبير فما كان منها الا اللجوء الي هذه التجارة لتدبير العمالة ، وان كانت النخاسة فيها ليست على نطاق واسع وبنفس وحشية مثيلتها فى الغرب .

الفصل السادس

الفتوح المصرية فى شرق افريقيا

1805 - 1896 م

تعود العلاقة بين مصر والصومال الى ما قبل بُعوث حتشبسوت، فينسبهما علماء الاجناس الى جد واحد من العنصر الحامى ، وتحقق اول وجود مصرى فى الصومال فى العصر الحديث فى عهد محمد على عندما منح الباب العالى ابنه ابراهيم باشا (1805 - 1848 م) باشوية الحجاز عام 1820 م مكافأة له على نجاح حملته ضد الثورة الوهابية ، وضمت الباشوية سواكن ومصوع ؛ فقام ابراهيم باشا بإرسال جيشا واسطولا من 8 سفن تأكيدا للسيادة المصرية على المنطقة ، وبعد وصول القوات المصرية عملت على التحالف مع الرأس على زعيم الجلا المسلم ، وواصلت تقدمها فى المنطقة فإضطدمت بالحبشة ؛ لكن السلطان العثمانى اوقف تقدمها واضطرها الى الانسحاب من مصوع ، فبادرت الحبشة بملئ الفراغ الذى خلفه الانسحاب وتمادت بمهاجمة املاك العثمانيين فى " أركيكو" خرقا لهدنتها معهم مما إضطر الباب العالى الى تأجير المنطقة الى محمد على مدى الحياة للدفاع عنها ، ثم بالتنازل عن " سواكن ومصوع" الى الخديوى اسماعيل عام 1865 م وعن توابيعها عام 1866 م بناء على طلب الخديوى بدعوى انه لا يمكن السيطرة على تجارة الرقيق بدون احكام سيطرته على هذه الموانئ وعين الخديوى مختار باشا حاكما للساحل الافريقى من السويس الى جودفوى.

وفى إطار مسلسل المنح السلطانية حصلت مصر على زيلع عام 1873 م ، ومنها تقدمت قواتها بقيادة رعوف باشا لتحرير هرر من حاكمها المتعسف محمد بن عبد الشكور الذى حرم على اهل البلاد أكل الارز والبلح والزبد بحجة انها أكل الملوك واحتكر تجارة العاج والبن لنفسه ، ودخلت القوات هرر فى 11 اكتوبر 1875 م وسط ترحيب اهلها ، وفى سبتمبر عام 1875 م دخل الاسطول المصرى بربرة واقام فيها خزانة للمياة العذبة وشيد مسجدا وميناء ومنارة لارشاد السفن ، وتقدم بعد ذلك الى رأس جفوبه وبراوو من توابع سلطان زنجبار وسط ترحيب اهلها وتركت عليها مصر حاكما ؛ ثم تقدم الاسطول الى " كسمايو" حيث طلب اهلها ومعهم اهل براوة من القائد المصرى التدخل لتحقيق المصالحة بين القبائل.

تقدمت بعض سفن الاسطول فى نهر جوبا لمسافة 150 ميلا محاولة الوصول الى البحيرات الاستوائية كطلب غوردون كما سبقت الاشارة ؛ إلا ان تعذر الملاحة اضطرتها للعودة الى كسمايو التى أسموها بور اسماعيل ، واقبل سلاطين جزر القمر على كسمايو طالبين من القائد المصرى قبولهم رعايا لمصر .

المد المصرى فى الحبشة (التصادم)

كان اول صدام حقيقى مع الحبشة عندما هزمت القوات المصرية قوات هايلو كاسا حاكم قوارا (الامبراطور ثيودور الثانى فيما بعد 1850م سنة) فى معركة دباركى عام 1848 عند مهاجمتها الحدود السودانية رغم ضخامة اعداد القوات الحبشية الامر الذى تعلم منه هايلو كاسا اهمية التنظيم والانضباط الذى تتحلى به القوة المصرية وكان سبب انتصارها .

اثناء ذلك كان الحكام المحليين الاثيوبيين يقومون بغارات متكررة على الحدود مثل غارات دجاج هايلو حاكم إقليم هماسين وولد مراج حاكم عدى؛ عبر الحدود الممتدة من التاكة حتى القلابات وفازوغلي ، ورغم الانتهاكات المتكررة الا ان الخديوى إسماعيل حافظ من جانبه فى بداية عهده على السلام مع امبراطور أثيوبيا تيودور الثانى الذى كان يواجه تمرد العديد من امراء الاقاليم .

مشروع بيسون

وفى ضوء الحرص على منع اسباب التوتر مع الحبشة رحبت مصر فى سبتمبر سنة 1863م باقتراح الكونت الفرنسى بيسون Bisson لإنشاء منطقة عازلة بين البلدين قرب الحدود الاثيوبية فى شرق السودان على هيئة مشروع زراعى صناعى عسكرى ، وامر إسماعيل حكمدار السودان بتقديم العون الكامل لبيسون فى حالة صدامه مع أثيوبيا إعتقادا منه بأن فرنسا تدعمه ، ولما انكرت فرنسا صلتها به تراجع الخديوى عن مساعدته وأمر حكمداره ألا يسمح له بإقامة تحصينات قريبا من الحدود ، وقصر المساعدة فى حال اغارته على أثيوبيا على تقديم الذخيرة دون الجنود ، وطلب منه احتجاز بيسون فى الخرطوم أطول فترة ممكنة

لحين معرفة رد فعل بريطانيا حتى لا يُتهم بالتحرش بأثيوبيا.

ادعى بيسون عند وصوله وجماعته إلى السودان أن الحكومة المصرية وعدته بإرسال حملة لغزو اثيوبيا يتولى قيادتها على أن يبدأ بتدريب القوات المصرية طبقا للأسلوب الفرنسي ، وأشار على موسى حمدي حاكم السودان أن يقترح على مصر غزو أثيوبيا في العام التالي سنة 1864م ، وأوضح له أن فرنسا سوف تقوم بالغزو إذا أحجمت مصر عن ذلك فظروف غزو أثيوبيا أصبحت مهيئة فقد اعدت البعثة التبشيرية الكاثوليكية بالاتفاق مع الأب ستيللا رئيس الارسالية لثورة سكان تجري في بوجوس ضد الامبراطور تيودور (307) ، وسببت تصريحات بيسون إرباكا للحكماء الذي ارسل إلى القاهرة يستوضح الامر.

اهتمت بريطانيا بأنباء حملة بيسون وأجرت اتصالات مع فرنسا بشأنها فأنكرت الاخيرة علاقتها بالامر ، وفي نفس الوقت ابغيت بريطانيا مصر بأنها لا تسمح بالاعتداء على أثيوبيا أو تأييد الكونت بيسون لنفس الغرض ؛ وبالفعل أرسلت الحكومة المصرية تعليماتها إلى حكامها في السودان تؤكد له فيها عدم النية في غزو أثيوبيا وعليه ألا يقدم لبيسون أي مساعدة ويعامله كأى سانح عادي ولا يقيم وزنا لما يدعيه لنفسه ؛ ونهت الحكماء الى انه في حالة مطاردة الأثيوبيون لبيسون داخل الحدود المصرية على الحكماء أن تطردهم بالقوة ، كما ان عليه ان يعمل على اضعاف قوة الاب ستيللا وفض أنصاره .

في تلك الاثناء التقى بيسون الأب ستيللا في كسلا ؛ الذي حثه على غزو القوات المصرية لأثيوبيا للقضاء على تيودور عند قيام ثورة التيجراي ، ونصحه بعدم الذهاب إلى مستعمرته المقترحة والبقاء في نقطة كوفيت شرقي كسلا من الأملاك المصرية لقربها من الحدود للقيام بحملاته الحربية على أثيوبيا منها ، وكان بيسون قد تمكن من الاستيلاء على سهل ستث على الحدود مع تجري بتنازلات من الأهالي واستمر في ضم باقي إقليم بوجوس وإرسال حملات إلى المناطق المجاورة يستولي فيها على الماشية والعمال ، ومن ناحية اخرى هول الخطر الاثيوبي على الحدود إلى حكام السودان ليورط السلطات المصرية مع أثيوبيا ، ولم تنجح خطط بيسون لعدم تعاون الإدارة المصرية معه فتخلي عن مشروعه وعاد في صيف سنة 1864م إلى فرنسا ، ولم يكن لهذه الحملة من نتائج سوى توتر علاقات مصر وأثيوبيا ، ورفضت مصر بعد ذلك طلب مغامر فرنسي آخر لغزو أثيوبيا .

استغل اسماعيل الوضع في المنطقة وطلب من الباب العالي ضم مصوع وسواكن للسيادة المصرية لاحكام السيطرة على قبائلهما و قبائل إقليم التاكة منعا لاستغلال أثيوبيا للقلق الناتج عن التدخلات الاجنبية ممثلة في محاولات الارسالية الكاثوليكية وقتل فرنسا في بوجوس فرض الحماية الفرنسية على المنطقة ، واكد ان خضوعهما لمصر يسهل توطيد الأمن والقضاء على تجارة الرقيق ، وكان هدف الخديوى من ضم المدينتين احكام السيطرة على منافذ الحبشة للعالم الخارجى ومراقبة تجارتها الدولية والاهم فيها حركة جلب السلاح من الخارج ، وسهلت بريطانيا الامر اسماعيل خشية تقدم النفوذ الفرنسى الى بالمنطقة بعدما احتلت أبوك قرب مضيق باب المندب .

تسلمت مصر سواكن في مايو سنة 1865 م وتأخر تسليم مصوع للعام التالي الى أبريل سنة 1866م لثورة الجند في التاكة واحتلت مصر أركيكو في نفس الوقت ، وتمركزت الحاميات المصرية في المواقع التركية على طول الساحل الأفريقي للبحر الأحمر ودفعت بقواتها على الحدود الأثيوبية السودانية عبر ميناء سواكن الذى سهل حشد القوات .

اصبحت اثيوبيا فى وضع حرج بعدما سيطرت مصر على مصوع منفذها الخارجى الطبيعى ونافذتها على العالم واتاحت لمصر السيطرة على إقليم بوجوس والطريق المباشر بين مصوع وكسلا وطريق الجمال إلى إقليم هماسين ، ويهدد إقليم الزنادقلي الخاضع لأثيوبيا والذي تصل حدوده إلى شمال غربي مصوع بنحو ستة أميال .

وتواكب مع الوضع الجديد تهديد آخر فقد عرض جوباز حاكم لاسنا المناوى للامبراطور تيودور أنضمام إقليمه الى مصر إلا أن الخديوى رفض لانشغال مصر بحرب كريت ولا يتوفر لمصر الإمكانيات لدعم المناوين للامبراطور وتحمل ما قد ينتج عن ذلك ، بالاضافة الى مصر كانت تأخذ في الاعتبار رد فعل اثيوبيا لاي تحرك مصرى معادي على حياة رعايا بريطانيا القتل والمبشرين ،

³⁰⁷ يعيننا موقف الارسالية الكاثوليكية للتدليل على الارتباط العضوى بين التبشير والاستعمار والتحريض عليه فهذه الارسالية تركت سنة 1852 عدوة في الحبشة وانتقلت إلى أكالاكال جوزاى Akakal Gusay فى بوجوس هربا من الضغوط المعادية للكاثوليكية بعد مقتل حاميتها الامبراطور نيجوسى حليف فرنسا بيد تيودور الثانى الامبراطور المعادى للكاثوليكية ، وفى ظل الرغبة فى معاودة التبشير فى الحبشة فى ظل حماية مؤكدة فقد شجعت ودبرت ومهدت القنصلية الطريق امام بيسون لغزو المنطقة ، فقد عرض الأب ستيللا عليه قيام القوات المصرية بغزو أثيوبيا للقضاء على تيودور (يوليو 1864- اغسطس 1865) ، وهو ما استغله اسماعيل لدى الاستانة لتبرير طلبه ضم مصوع وسواكن اليه معتبرا تدخل قنصل فرنسا في بوجوس وفرضه الحماية على قبائلها امرا خطيرا .

البروتوستانت الذين اعتقلهم تيودور لاعتقاده أن بريطانيا تتواطأ مع مصر على غزو بلاده .
وفي ذاك الوقت تحالف الامبراطور تيودور مع أحمد شنا أحد زعماء دارفور على أن يزحف شنا وحاكم جبل الداير على كردفان ويزحف تيودور على الخرطوم في نفس الوقت لغزو السودان ، ولكن هذه الخطة لم تنجح لأن تيودور انصرف الى متابعة تحركات الإنجليز المعادية لانقاذ اسراهم بعد فشل محاولات كل من الخديوي ووليام جيفورد بلجراف المبعوث الانجليزي لإطلاق سراح الأسرى (308) .

وعندما فشلت الوسائل الدبلوماسية في الافراج عن الأسرى ، قررت بريطانيا استخدام القوة فأرسلت الكولونيل ميروزيير حاكم عدن ليتقصى أحوال أثيوبيا الداخلية ودراسة الطرق التي تربط ساحل البحر الأحمر الأفريقي بالهضبة الأثيوبية ، وبالفعل قام في يناير سنة 1867 م بجولة في مصوع وطاف بساحل سمهر وخليج انسلي لمعرفة الأماكن المناسبة لنزول قوات الحملة البريطانية إلى أثيوبيا ووقع اختيار ميروزيير على طريق أمفيلا - عدوه.

أثار نشاط الإنجليز شكوك مصر فكلفت حكمدارها في السودان جعفر مظهر باشا بالقيام بجولة تفتيشية على طول ساحل البحر الأحمر حتى باب المندب ؛ دعا فيها شيوخ القبائل للاعتراف بالسيادة المصرية وفي تقريره الى مصر دعاها الى ضم أثيوبيا في ظل الفوضى الناشئة في أنحائها ، مبررا دعوته للغزو بتضامن سكان المناطق الحدودية مع مصر .

حلت الفوضى باثيوبيا بسبب صراع الرؤوس (الامراء) للوصول إلى العرش وكان المتنافسون هم الرأس كساي هيله درگه في تيگراي ، وواجشوم في جوباز في أمهرة ، ومنليك في شوا ، وكان إسماعيل يتابع هذا الصراع ولكنه لم يتدخل فيه، اما بشأن الغزو الانجليزي فقد احتاط الخديوي لما قد تتطور إليه الأمور في هذه المنطقة وجلب قواته من كريت وارسلها إلى الحدود الاثيوبية حتى تكون مستعدة ، ولم يدخر وسعا في معاونة الحملة البريطانية على الحبشة سواء في مرورها بمصر او السودان سنة 1867 م ، وانتهت الحملة بانتصار الانجليز وإنتحار تيودور الذي فضل ذلك عن الوقوع في اسر الانجليز .

وقبل رحيل الحملة من أثيوبيا إختارت الرأس كساي هيله درگه امبراطورا (تُوج امبراطورا باسم يوحنا الرابع) خلفا لتيودور لما قدمه من خدمات للحملة ، وترك له الانجليز كمية ضخمة من السلاح والذخيرة يقدرها ماركوس بنحو نصف مليون جنيه استرليني هي ست مدافع مورتار، و900 بندقية، وكميات من الذخيرة تضم 585480 مقذوف صوت، وإمدادات وسلع أخرى ومعها أحد كبارالعسكريين بالحملة الجنرال كيركهام Kirkham لتدريب جيشه وهي تعلم ان كساي يرغب في طرد المصريين من كل السودان وساحل البحر الأحمر خاصة وان مخاوفه قد تزايدت مع تقدم الحملة المصرية بقيادة صمويل بيكر إلى أعالي النيل ؛ ومع هذا وافق الخديوي على إرسال مطران لتتويج كساي ولكنه رفض مساعدته عندما طلب منه ذلك عن طريق النائب محمد عبد الرحيم أمير مصوع وناظر سمهر ، فقد كان اسماعيل يرغب في ضم منطقة بوجوس الواقعة بين إقليم التاكة ومصوع إلى مصر.

في تلك الاثناء تصاعدت الأزمة بين الارشالية الكاثوليكية وكساي لثبوت تواطؤهم في اثارة الثورة في المنطقة بعد العثور على رسالة من الأسقف توفير في متعلقات الثائر جوباز بعد هزيمته تذكر أنه إذا وافق على إعطاء المبشرين حرية العمل في أثيوبيا فانه سيمنحهم بالمدافع والبنادق وكل ما يحتاجه من السلاح والذخيرة ، وحاول Munzinger قنصل فرنسا (وهو نمساوي) في مصوع أن يهدئ الأمور مع كساي إلا أنه فشل ومن ثم فقد شجع الزعماء المناوئين له (لكساي) في طلب الحماية الفرنسية وكان من بينهم ولدريكا بيل حاكم هماسين الذي اتصل بنابليون الثالث امبراطور فرنسا .

ولما تفاقم الموقف بين كساي والكاثوليك ؛ أرسل كساي قواته إلى قرى بوجوس واحرقوا الكنائس وبيوت المبشرين ونهبوا القرى ، فهرب المبشرون الكاثوليك ، وكان لتصاعد العداء بين كساي والمبشرين أن طلب قنصل فرنسا في مصر من الخديوي إسماعيل الوساطة في الامر ، ووعده الخديوي بأنه سوف يقطع البطريرك القبطي بأن يرسل تعليماته إلى مطرانه في أثيوبيا ومعها قس مصري إلى كساي لاقناعه بالكف عن أعمال الاضطهاد وترك المبشرين الفرنسيين يواصلون أعمالهم .

(308) حذر الخديوي في رسالته تيودور من ان تمسكه باحتجاز الأسرى سوف يدفعه - أي الخديوي إسماعيل - إلى أن يسمح للقوات البريطانية بالمرور في أملاكه وصولا للحبشة ، ودعا إن يستمع الى صوت العقل ويعمل بنصيحته ، وحمل اسماعيل أحد رجال الدين الأقباط رسالته هذه ومعها رسالتين أخريتين من بطريك الأقباط ومن بطريك الأرمن الأرثوذكس، وطلب من عبد القادر باشا الذي عين مندوبا فوق العادة في مصوع بسبب ظروف الحملة الإنجليزية ، بأنه في حالة الافراج عن الأسرى عليه ان يرحب بهم ويسلمهم إلى القنصل الإنجليزي في الحال ، أما في حالة عدم الافراج عنهم، فيعمل على توصيل القس القبطي حامل هذه الرسائل إلى الحدود ، ولم يهتم تيودور بهذه الرسائل واستمر في سجنه لهؤلاء الأسرى.

وأرسل الخديوي برسالته إلى كساي مع أحد رجال الدين الأقباط ، حثه فيها على التسامح المذهبي ، وقد عكس كتاب Munzinger الى مصر الصدى الطيب لموقفها تجاه الكاثوليك فى المنطقة بتطلعهم لاكتساب رعية مصر وحمايتها ومساعدتها ، لم يرحب كساي برسالة الخديوى التى تسلمها بعد احتفالات تتويجه امبراطورا على اثيوبيا في يناير سنة 1872 واعتبرها متعالية وكأنها اوامر صادرة من حاكم إلى أحد أتباعه بما تضمنته من تهديد إذ كان يطلب فيها الخديوى منه إعادة بناء الكنائس وعودة الكاثوليك ورد أملاكهم ومعاملة المبشرين معاملة حسنة ، وتأزم الموقف بين البلدين وزاده تعقيدا موافقة إسماعيل على طلب مشايخ هذه المنطقة الحماية المصرية بعد غارات ولد مراج الاثيوبي زعيم العفر المسلمين على بوجوس ، التى ضمنها مصر ومعها ايليت في أواخر يونيو سنة 1872م على يد Munzinger على رأس قوة مصرية ، وكان Munzinger قد استقال من وظيفته كقنصل لفرنسا في مصوع والتحق بخدمة مصر في أبريل سنة 1871 وعينه الخديوي محافظا لمصوع.

ولما كان يوحنس الرابع مشغولا بالقضاء على ثورة الجالا في الجنوب وتمرد بعض الرؤوس مثل هايلى ولد جورجيس وولد ميكائيل ، فلجأ الى الدبلوماسية فأرسل مبعوثا إلى الخديوي إسماعيل يدعي محمد ناصب الجبرتي في 31 يوليو سنة 1872 حاملا رسالة يوضح فيها أن بوجوس أرض اثيوبية منذ زمن بعيد ، وأشار الى ملكية الامبراطورية الاثيوبية المنطقة الساحلية وشكا من أعمال Munzinger وطلب من الخديوى أن يسحب القوات المصرية من بوجوس كمقدمة لتحسين العلاقات .

احتجز إسماعيل المبعوث الاثيوبي لمدة عام حتى اغسطس سنة 1873 ، فأرسل الامبراطور يوحنس الرابع مستشاره العسكري الانجليزي كيركهام إلى بعض الدول الأوروبية (النمسا - روسيا - ألمانيا - فرنسا - بريطانيا) في نهاية شهر اغسطس سنة 1873 لتبذل جهودها لاقتناع إسماعيل بالانسحاب من بوجوس ومساعدة اثيوبيا في الحصول على ميناء أمفيلا وسهول الملح . وعندما استجلت انجلترا الامر من الخديوى هدد بأنه سينتقم للاعتداءات التي تقع على أقاليمه واذا لم يُعيد يوحنس خلال ثلاثة أشهر الأراضي التي استولى عليها ، ودفع تعويضات عن الاضرار الى مستحقيها فإنه سوف يحتل بوجوس ، فتدخلت بريطانيا لدى الباب العالي لوقف العمل الحربى والبحث عن حل منصف لهذه المشكلة ، ولما استفسر الباب العالي عن الموقف برر الخديوى فتحه منطقة بوجوس فى رده بأنها لحماية أتباع السلطان في هذه المنطقة ، وأوضح أن قواته لن تتخطى الحدود الاثيوبية فليس لمصر أطماع فيها وأنه يبغى تنشيط التجارة والزراعة بين البلدين .

استدعى إسماعيل Munzinger من مصوع وطلبه بمفاوضة يوحنس لتحديد الحدود بين البلدين بما يضمن ادخال بوجوس ضمن حدود مصر ، ورفض يوحنس الرابع التفاوض مع Munzinger ودفع بمجموعة كبيرة من الخيالة والمشاة المسلحة لمهاجمة ايماسا السودانية الواقعة على بعد يوم من المركز العسكري فى كوفيت ، فقتلوا عددا من الأهالي والضباط وأسروا عددا من النساء والأطفال وسرقوا الماشية ، وتكررت الغارات الاثيوبية على القرى السودانية، مما أدى إلى وقوع صدام بين القوات المصرية والاثيوبية فى اواخر سنة 1872 واول 1873 تقريبا ؛ وبعد ثمانية اشهر بعث يوحنس برده على رسالة الخديوى رافضا فيها طلبه وتمسك باسترداد بوجوس وايليت ، وإدعى ملكية اثيوبيا لموانئ ساحل البحر الأفريقي .

هدد إسماعيل باحتلال إقليم هماسين الخصيب وكان سكان قد طلبوا من Munzinger أثناء فتحه بوجوس الخضوع للحكم المصري ، وكانت بوجوس تسهل عبور القوات ليس فقط الى إقليم هماسين وإنما الى شمال اثيوبيا ؛ وبرر إسماعيل تحركه باحتلال هماسين بأنه يستهدف إطلاق سراح الأسرى والحصول على التعويض اللازم للأهالي نتيجة للخسائر التي تكبدوها من جراء الغارات الاثيوبية .

مقدمات الحرب

بين مصر واثيوبيا

كان هدف يوحنس الرابع من وراء حصوله على ميناء على البحر الأحمر تسهيل استيراد الأسلحة والذخيرة التي تساعد ضد الرؤوس الثائرين ، واعتقد أن توريث بريطانيا بطريق غير مباشر قد يساعده في الحصول على هذا الميناء ، فأنشأ ولاية جديدة منحها الحكم الذاتي سميت ولاية جيندا ملاصقة للحدود المصرية ضم لها بعض الأجزاء الخاضعة لمصر ، وكانت تشمل الحافة الشمالية الشرقية من الهضبة الاثيوبية والساحل الممتد من شمال خليج انسلي في الشمال إلى خليج أمفيلا وسوهو في الجنوب وتضم ميناء زيلع المصري والقبائل النازلة حوله ، ومنحها الحكم الذاتي وولى عليها كيركهام الذى رفع عليها العلم البريطاني في ديسمبر 1874 واعلنها منطقة محايدة لا تدخل في الصراع الدائر بين مصر واثيوبيا.

واعتقد يوحنا أن تولي كيركهام حكم المنطقة المحايدة سيجعل بريطانيا تسارع بفرض حمايتها عليها وتحقيق مطلبه في ميناء لها ، وبدأت الولاية في تحصين الضرائب التي كانت تحصلها مصر من أهالي زولا وجيندا وأمفيا وملاحة أسالة، غير أن بريطانيا رفضت وضع هذه الولاية تحت حمايتها ، وكانت مصر تترك هدف يوحنا الحقيقي من سعيه للحصول على ميناء على البحر الأحمر لجلب الأسلحة بعيدا عن تحكم مصر التي احكمت رقابتها على سواحل البحر الأحمر لمنع من تحقيق هدفه بل حاول إسماعيل منع اتصال يوحنا بالدول الأجنبية خوفا من تدخلها فيما يحدث من صراع بين الدولتين .

مصر ومنايا

في ذلك الوقت كان منليك يبحث عن يستقوى به في صراعه مع يوحنس للمحافظة على استقلاليته المحدودة ، وقد نصحه احد كبار الاثيوبيين بالتعاون مع مصر التي باتت في جواره في بوجوس ، فأوفد منليك احد أبناء الشيخ أبو بكر باشا حاكم زيلع إلى مصر لاقتراح التحالف معها ضد يوحنس فرحب الخديوى بذلك فاستغل منليك ترحيب الخديوى للحصول على بعض الحرفيين والفنيين كمساعدة مصرية لتحديث شوا ، ولم يمنع هذا التقارب إستثناء منليك من حظر السلاح الذي فرضه إسماعيل على اثيوبيا ولكنه غير موقفه مستقبلا .

محاولات الصلح

ومقدمات الحرب بين مصر والحبشة

تخوف يوحنس من محاربة مصر فالتزم سياسة الترقب دون تصادم معها ؛ املا في ان ينهك الانتظار القوات المصرية وتلعب الازمة المالية الحادة في مصر دورها في اقتناعها بالتراجع عن التصدي لمخططاته ، واخذ في نفس الوقت يستعد للصدام بحشد الجيوش وتحصين عدوة عاصمته وشجع الوساطة الرامية للتصالح فأرسل الرأس قبرو حاكم هماسين إلى **Munzinger** طلبا للصلح ، ولكن الأخير رفض تلك المحاولة لعدم صدورها من يوحنس إلى الخديوي .

ولما علم الخديوي بالامر طلب من **Munzinger** مخاطبة يوحنس مباشرة برسالة من طرفه لا من طرف الخديوي يستفسر فيها عن الهدف من تحركات جيوشه ودعوته إلى سحب الجنود إلى داخل حدوده منوها بأن مصر ستدافع عن حدودها مع التأكيد على عدم نيتها في الهجوم على اثيوبيا ، وأن ما تقوم به إنما هو صد المغيرين الاثيوبيين عن حدودها ، ووجه **Munzinger** بأن يشجع منليك على حرب يوحنس لإستنزاف الاخير عسكريا ، ولكن الرسالة لم تصل إلى يوحنس نتيجة خطأ من أراكيل بك حاكم مصوع ، واستمرت مناوشات الطرفين وقام يوحنس بغارات على رعايا الحكومة المصرية القريبين من أراضي اثيوبيا لبث الفرع واخللة ثقتهم في حماية مصر لهم .

الحرب بين مصر واثيوبيا

اصبحت الحرب على الابواب وإستعدت مصر فأرسلت حملة بقيادة **Munzinger** زحفت الى إقليم عيسى الواقع بين اثيوبيا والممتلكات المصرية عند تاجورة على ساحل الصومال في الجنوب واحتلال اوسا التي يحكمها شيخ مستقل وتوقيع معاهدة مع منليك ملك شوا (اصبح امبراطورا فيما بعد ، وكان منليك قد أعاد اتصاله مع مصر)، والحملة الأخرى بقيادة الكولونل أندروب وهو امريكي من القادة الكونغراليين المدحورين فى الحرب الأهلية الأمريكية التي وضعت أوزارها قبل تسع سنوات .

ومع تصاعد الغارات الأثيوبية على الحدود المصرية صدرت الأوامر إلى **Munzinger** للقيام فوراً بفتح الطريق المباشر بين الساحل وشوا لمد منليك بشحنة من الأسلحة لينأى يوحنا لمساعدة حملة **Munzinger** ، وعين الامبراطور يوحنا الرابع الكولونل جون كيركهام المستشار البريطاني قائدا للقوات الاثيوبية لمقاتلة الجيش المصري ، وفي ديسمبر 1874 تقدمت قوة مصرية من 1200 جندي بقيادة **Munzinger** باشا من كسلا عبر إقليم الدناقل (باريتريا المعاصرة) إلى كيرين داخل إثيوبيا ، وامام اعتراض إثيوبيا انسحبت الفرقة المصرية تاركة خلفها حامية صغيرة لحماية الكنيسة الكاثوليكية بالبلدة .

وفي 7 نوفمبر 1875، تقدمت من كسلا الحملة الثانية لـ Munzinger ومعه 2000 جندي عبر أغوردات وميريب بإقليم الدناقل وقعت في كمين بالقرب من "عدوة" بقيادة السلطان محمد بن حنفصة سلطان الاعفار الدنقلاويين المسلمين المتعاونين

مع يوحنس وأبادوا القوة المصرية بما فيها **Munzinger** ، وفي 14 نوفمبر 1875 تقدمت حملة آرنودوب المؤلفة من 3000 من المشاة المسلحين ببنادق رمنجتون و 12 مدفع جبلي تحت قيادة العديد من الضباط الأوروبيين والأمريكيين (الكونفدراليين) إلى جوندت في الطريق إلى عدوة ؛ فهاجمها الجيش الإثيوبي بقيادة الامبراطور يوحنس الرابع من المقدمة بينما قامت من قلعة أدى فرقة إثيوبية بقيادة الراس شلاقة علولة التفت تحت جناح الليل من فوق الجبل حول مؤخرة القوة المصرية المتمركز بالوادي السحيق فوقعت القوة بين طرفي كماشة صباح 15 نوفمبر فوقعت مذبة للقوة المصرية لم ينج منها سوى 300 جندي انسحبوا إلى مصوع تحت قيادة العميد الأمريكي دورنهولتز و رؤوف بك ، وكان من بين القتلى آرنودوب وأراكل نوبار ابن أخي رئيس الوزراء المصري نوبار باشا والكونت زيشي ورستم بك بينما قُتل لإثيوبيا 500 جندي وغنموا 2200 بندقية و 16 مدفع اثنان من تلك المدافع يزينان الساحة الكبرى لمدينة أكسوم العاصمة التاريخية للحبشة .

معركة جورا

(باريتريا المعاصرة)

في 6 نوفمبر 1876 رضخ راتب باشا لرأي وليام لورنج باشا (أمريكي كونفدرالي) بمهاجمة الحبشة ، وقام في 10 مارس 1876 بإرسال قوة خاصة من 5000 جندي على رأسها راشد باشا وعثمان بك نجيب بالهجوم على القوات الإثيوبية إلا أنها اندحرت وقُتل قائداها ، و 600 أسير مصري بدم بارد من ضمنهم د/ محمد علي باشا ونجيب بك محمد.

تراجع النفوذ المصري

في شرق افريقيا

وتقسيم المنطقة بين القوى الاستعمارية

إنزعج الانجليز من التحرك المصري في شرق افريقيا وترحيب أهل المنطقة وسلاطينها به ورغبتهم في الحماية المصرية (309) ؛ بالامر الذي يهدد اطماعهم بالمنطقة فاعزوا الى سلطان زنجبار بالاحتجاج على وجود القوات المصرية في براوة وكسمايو التابعتين له ، وايدته بريطانيا علنا فاضطر الخديوى اسماعيل الى سحب قواته منهما ، وتوالى انسحاب المصريون من تاجورة، زيلع، بربرة عام 1884 بضغوط الانجليز (310) ، وعندما جاء امر اخلاء القوات المصرية تمسك الاهالى بالوجود المصرى الى حد المطالبة بالتجنس بالجنسية المصرى والارتباط برعويتها والانضواء فى عبادة حمايتها ، وهى سابقة ليس لها مثيل بين شعوب افريقيا التى رزحت تحت الاستعمار وكان جل املاها ازاحتة .

فأرسل أعيان بربرة وهرر عرائض الى مصر يعبرون فيها عن الاسى للانسحاب ويقولون فيها "من خمسين سنة خلت كانت هذه المملكة ميدانا للبربرية يحكمها ملوك صغار وكان اوراق الدماء واعمال السلب والنهب قائمة على قدم وساق ؛ وقد هيمنت الحكومة المصرية على هذه البلاد قبل 9 سنوات فوطدت النظام والامن وجعلت مدينة هرر من اهم مراكز التجارة ؛ فاذا كان قرار الحكومة لا مرد له ، لم يكن لنا بد سوى الهجرة مع الجنود وترك املنا للنهب " ز

وتعبر احدى عرائض الاهالى عن تمسكهم بمصر للتمائل الدينى فتقول " بأننا مسلمون ولا ندين بالطاعة الا لمسلمين مثلنا " (311) ، هنا حدث ما يُعبر عن عمق الارتباط بين القوات والاهالى ، فقد رفضت الحماية المصرية فى هرر تنفيذ امر الاخلاء تعاطفا مع مطلب الاهالى فى البقاء ؛ واعلنت التمرد واستعدت للمقاومة ؛ لكن فصل الخديوى المتمردين من الخدمة ادى الى انصياع الحماية وجلائها فى يونيو 1885.

انشغلت مصر بالتصدي للثورة المهدية عن خططها فى الاقليم وتخلت الى بريطانيا عن السيادة فى السودان بوابتها الى قلب افريقيا ومعها مخططاتها الباهظة فى افريقيا ؛ ومهد الخروج المصرى الى وقوع المنطقة غنيمة للاستعمار فإقتسمت القوى

309 (محمد صبرى - الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص 30 .

310 (المصدر محمد صبرى - الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص 146-147.

311 (المصدر محمد صبرى - الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص 146-147.

الاوروبية المنطقة فى مؤتمر برلين فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، فحصلت فرنسا على تاجورة وانجلترا على زيلع وبربرة وبلهار وحصلت ايطاليا على راس جود فرى و مصوع واريترى بالتفاهم مع بريطانيا واستولى الاحباش على هرر عام 1887 .

دور مصر الاسلامى

و الحضارى

قدمت مصر الى تلك المناطق الكثير من حضارة العصر بالاسهامات التى طبقها الجيش المصرى فى مجالات الزراعة والصناعة والثقافة على نحو ما تعرضنا للبعض منه ؛ فمصر كعهدها لم تتوان عن القيام بدورها فى المد الحضارى فى المناطق التى تواجدت على ارضها فى وسط القارة حتى اوغندة ؛ فعلى سبيل المثال اقامت القوات المصرية فى هرر حوضا للمياه العذبة واعتنت بالزراعة وادخلت أنواع جديدة من المزروعات جلبتها من مصر ؛ واقامت صناعة المنسوجات وانشأت المدارس واستقدمت الفقهاء من مصر لتعليم اصول الدين وإستتبع هذا النشاط تضخم الجالية المصرية فبلغ عددها 14500 مصريا اندمج الكثير منهم عرقيا مع اهل البلاد.

وفى المجال الثقافى سواء قبل الوجود المصرى او بعده لم تنقطع البحوث فى أى وقت عن الازهر حتى أصبح لابناء هذه المناطق أروقة خاصة بهم كرواق " زيلع " و "جبرت" وغيرها ، كما لم ينقطع ايضا وفود العلماء المصريين الى شرق افريقيا ويشير ابن بطوطة الى وجود فقيه مصرى فى " مقدشو " فى القرن 14م .
ومن افضال الازهر على الثقافة فى افريقيا الشرقية ان أفرز علماء افذاذ أمثال الامام فخر الدين عثمان شارح " الكنز " والمتوفى عام 742هجرية (1342م) وجمال بن عبدالله بن يوسف المتوفى عام 762هجرية وكلاهما من زيلع ، وهناك أيضا علماء افذاذ من " جبرت " أمثال العارف بالله الشيخ على الجبرتى المتوفى 899هجرية (1493م) وهو جد المؤرخ العظيم عبد الرحمن الجبرتى .

الفصل السابع تحديات المد الاسلامى فى شرق افريقيا

موقف الحبشة من الاسلام

لم يكن موقف الحبشة على اطلاقه معاديا للاسلام خاصة تلك الفترة من القرن السادس وحتى القرن الثانى عشر التى إنعزلت فيها بسبب اوضاعها الداخلية ؛ فالحبشة التى إعتادت التعايش مع تنوع المعتقدات لم يكن لديها مشكلة وهى تؤمن بعقيدة سماوية ان تتعايش مع الاسلام أقرب الديانات الى المسيحية ؛ وتجلى هذا فى موقف النجاشى الكريم نحو مهاجرى الاسلام الاوائل والذى دعا الرسول من اجله إستثناء الحبشة من الجهاد اكراما لموقفه إذ قال صلى الله عليه وسلم "دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم" .

فالاصل فى موقف الحبشة نحو الاسلام الاعتدال فقد عاش وتعايش داخلها منذ عهد النجاشى الاكبر (312) ؛ ولم يكن التبشير سبب التصادم بين العقائد من أولويات الحبشة ؛ فالتبشير الذى تتعدهه العقيدتان إذا ما كان اهله ضيقوا الافق هو ما يستتفر الصدام ولم يسبب المد السلمى للاسلام فيها او بجوارها توترا ، ولم يتغير هذا الموقف الا باعتلاء الاسرة " السليمانية " سبط يهوذا العرش بصبغتها المسيحية المتشددة وتبنيها دعاوى الصليبية الاوروبية المعادية للاسلام ، ومع ذلك لم تمارس هذه الاسرة طوال تاريخها التنصير قسرا على نطاق واسع ضد المسلمين كالذى مارسته الامة الايبيرية مع المورسكين او نحو ما فعله البرتغاليون فى افريقيا واسيا (313) .

ومن الناحية السياسية لم تتصادم الحبشة مع جيرانها المسلمين الا فى وقت متأخر مع تبنيها التوجهات الصليبية ، وما كان من صراع بينها وبين الامارات المسلمة تم فى معظم الاحيان فى اطاره الطبيعى بحكم الجيرة صراعا طبيعيا على النفوذ والمصالح وصادم ارادات لاثبات الذات بين طرفين افريقيين يختلفان فى العقيدة ولايتقاربان على اساسها وانما تحت ظلالها ومظلتها لشحذ الهمم وجلب عون اخوة العقيدة الحلفاء الخارجيين ، فالامارات العربية فى ظل تطورها الطبيعى تطلعت للتخلص من سلطان الحبشة والاخيرة لم تكن لتتنازل عن وضعها كقوى اقليمية ، ولجأ الطرفان فى صدامهما الى كل الاسلحة بما فيها عناصر الاختلاف والتمايز على اساس التنافر مع الآخر والدين إحداها ، ولم يُخف ذلك حقيقة جوهر الصراع ؛ كونه صراعا بين البدو الصوماليين والجبليين الاحباش فى اطار الصراع التاريخى بينهما حول خيرات الهضبة ؛ ذلك الصراع الممتد بينهما منذ ما قبل زمن الديانات السماوية ؛ فالهضبة بخيراتها كانت مطمعا دائما لاهل البادية منذ ازمة سحيقة.

فالصراع فى حقيقته لم يكن دينيا أبدا ففى بدايته كان صراعا بين وثنيين فى الجانبين ، ومع اعتناق الهضبة المسيحية أصبح صراعا بين مسيحيى الهضبة ووثنيى البادية ، ولما اعتنق البدو الاسلام وبقيت الهضبة على مسيحيتها تغيرت هوية الصراع ليصبح بين مسلمى البادية ومسيحيى الهضبة ، وبقي الصراع اقتصادى فى أصله ولا دين له وإن إتشح بظلاله ؛ ونستدل على ذلك بالانتشار العريض للاسلام بين الاحباش بعد القرن 11 خاصة فى الجنوب والشمال الشرقى ، وهو الامر الذى حير القس ترمنجهام الذى اجتهد فى تبريره ففسبه الى جهود بعض الابطاء الاقباط المصريين فيقول " أن الابطاء الاقباط كانوا فى الحقيقة دعاة للاسلام " وضرب المثل بما فعله عبدون الذى وصفه بالمغامر الذى إرتقى بالتزوير على حد قوله مطرانية الحبشة عام 1047 م .

ولم يفصل ترمنجهام ما فعله عبدون على نحو ما فصل به اتهامه للاب " ساويرس " مطران الحبشة المصرى الذى اتهمه بالتواطؤ مع بدر الدين الجمالى وزير المستنصر الفاطمى (427 - 487 هـ / 1035 - 1094م) عندما عينه مطرانا لها (عام

³¹² (سنن النسائي [ج 1 - ص 355] الجهاد (3176) ، سنن أبى داود الملاحم (4302).

³¹³ (هناك حالات استثنائية عندما فرض كاسا الامبراطور تيودورس على وولو التنصير ، وممن فرض عليهم التنصير الامام حميدا حميدة Imam Amede (وهو ومينين ام الرأس من اسرة واحدة) وعمده وبعض النبلاء ، لما لقاه منهم وفرق المحمدية الذين استعصوا عليه بعد دخوله Magdalla فى 12 سبتمبر 1855 من مقاومة شديدة (بعض المراجع تسميه السلطان محمد وقد تزوج شواركا ابنة الامبراطور منليك الثانى وهى التى انجبت منه الامبراطور Lij Lyasu الذى اوصى له جده منليك بالعرش بعد وفاته ، واعتلاه عام 1913 وتم عزله 1916 لميوله الاسلامية او لانه اعلن فعلا اسلامه . وفرض الامبراطور يوحنا الرابع التنصير الاجبارى على مسلمى وُلُو خلال ستة أشهر أو تنصير أملاكهم ، ومثال جزية إمارة هدية الى " زرع يعقوب " ملك الحبشة (1434 - 1468) ، فيقول علي المسلمين فى إمارة هدية تقديم عذراء مسلمة الى امبراطور الحبشة سنويا لتنصيرها .

473هـ - 1080م) لنشر الاسلام في الحبشة (314) ، والاقترب الى المنطق هو ما اورده القلقشندي بأن بدر الجمالي طالب الاب برعاية المسلمين والاهتمام بأمورهم الدينية من بناء المساجد وغير ذلك ، وهو تكليف دبلوماسي يُمثل الاب ساويرس فيه مصر كلها كمبعوثا لها اعلى فيه كليهما الوطنية ؛ والكنيسة دائما وفي كافة الاحوال بابها مفتوح لكل التكاليف الوطنية .

وعندما تخلت الحبشة عن سياسة المودعة وتبنت سياسة المواجهة ، كان ما إستتفر عدائها للاسلام الصليبية الدخيلة ؛ فاصطبغ الصراع بين البدو والجبليين بصبغة دينية ضيق من شططها غلبة الروح الافريقية التي ليس من طبيعتها التطرف بنفس منحى التطرف الاوروبي ؛ فلم تتعرض الحبشة بسوء لابنائها من المسلمين في معظم الاحوال وإقتصر الامر على عزلهم في احياء وقرى منفصلة حتى لا ينشرون الاسلام في محيطهم ، ولم يخرج الصدام عن حدوده الضيقة المعتادة من مضايقات متبادلة في شئون الحياة اليومية بين جهلاء المسلمين والمسيحيين ، وحوادث متفرقة نتيجة تطرف حاكم أو جاهل هنا وهناك ، او حملات تأديب تنسحب بعدها الحبشة تاركة الامارات " لحكمها الذاتي " مكتفية بالحصول على الجزية وفرض بعض الاحكام الجائرة احيانا .

ولم تخرج الحبشة عن هذا المنحى الا في مرحلة التوسع الامبراطوري في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عندما ضمت الامارات المسلمة في عهد منليك الثاني وكذا في عهد الاميراطور هيلاسلاسي ، ولا ترقى ممارساتهما الى عنف ووحشية الممارسات الايبيرية (البرتغالية والاسبانية) للمورسيكيين كما انها لم تمس حرية العقيدة بشكل متطرف على نحو ما حدث في تلك الجزيرة .

فالحبشة الاقوى بالنسبة لجيرانها المسلمين لم تسع لفرض تنصير اجباري على نطاق واسع واكتفت باخضاع الامارات المسلمة ، وأقصى تصف مارسته هو فرضها التنصير الاجباري على اهل بعض الامارات التي ضمتها الى اراضيها كما حدث مع اهل ولوا عندما ارغم كاسا (الامبراطور تيودورس) الامام حميدا والنبلاء على اعتناق المسيحية ؛ بالاضافة لما فرضه " زرع يعقوب " ملك الحبشة (1434- 1468م) علي المسلمين في إمارة هدية من جزية من نوع غريب بأن عليها كل عام ان تُقدم بخلاف الاموال ؛ عذراء لتنصيرها وفرض عليهم ايضا الا يلبس المسلمون لباس الحرب ولايستخدمون السيوف فيما يعتبر نزعا للسلاح ؛ ولايركبون الخيل بسروج كنوع من الامتهان والتمييز ضدهم ، ويصف لنا " عربي فقيه " مشهد تسليم هذه العذراء فيقول نقلا عن اهل البلد " اذا أرسل الينا من يتقبل البنات والمال اخرجنا له البنات على سرير ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلي عليها ونحتسبها ميتة ونعطيهما له فانا وجدنا أباعنا يفعلون ذلك " (315).

اختلف الامر في تعامل الحبشة مع السودان الطرف المسلم في الغرب ؛ فلم يتسم في عمومه بالتطرف فمعاملة إمبراطور الحبشة لفاطمة ملكة التاكة التابعة للعنج بالسودان إتسمت بحُسن المعاملة ، ورسالة يوحنا الرابع الى ابو عنجة قائد المهدية المغوار في غزوته الحبشة نوه الإمبراطور رغم تجاوزاته العديدة الى ما يربط الشعبين من انتماء عرقي واخاء ومصالح واخوة افريقية .

وهذه النغمة مختلفة عن نغمة ملوك الحبشة تجاه ممالك الاسلام في الشرق التي تُبرز تجذر العداء نحو الشرق محل اطماعها الدائم عما كان عليه بالنسبة للسودان في الغرب رغم انهم جميعا مسلمون ، فمن الواضح ان الحبشة تطلعت شرقا طوال تاريخها باعتباره مجالها الحيوي الطبيعي فهم الاقرب وشركاؤها في الهضبة ن وهو ما يختلف عليه الحال بالنسبة للسودان الاقوى والابعد والاكثر كثافة سكانية ، وقد اظهر هذا الاختلاف ضم الحبشة الامارات المسلمة في هضبتى الحبشة والصومال والاوليادين واريتريا ولم تُفكر او تتطلع لضم اى اقاليم اخرى خارج هذا الاطار ، اما ضمها لاقليم بنى شنقول السوداني فتم لما وجد الامبراطور منليك الثاني تساهلا او تحريضا بريطانيا لضمه فأغتتم الفرصة لابتلاع الاقليم من الحكم المصري .

اما موقف الحبشة الاستثنائي الودى من الاسلام المماثل لموقف النجاشي الاكبر ، كان من الامبراطور Lij Lyasu (حكم من عام 1913 الى 1916) (316) ، ابن السلطان محمد على (317) وحفيد منليك الثاني وتذكر بعض الروايات انه كان مسلما

³¹⁴ (المصدر ترمنجهام ص 63 - نقلا عن النشاط العربى فى افريقيا - د/ حسن احمد ص 394) لقلقشندي : سبج الأعشى 333/5 ؛ وانظر إبراهيم طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة، ص 34 .

³¹⁵ (النشاط العربى فى افريقيا - د/ حسن احمد ص 394 - ص 417 .

³¹⁶ (The New Columbia Encyclopedia 1975 , p. 2816 .

³¹⁷ (تسمى بميخائيل بعد تنصيره ، ولا تعرف ما اذا كان هذا الرجل اللغز الذى اختلفت المراجع بشأنه ، أهو نفسه الرأس على لتشابه تاريخهما انظر ما تقدم عنه فى الاشارة المرجعية رقم حول هذا الرجل اللغز .

اراد اعلان اسلامه بينما تتهمه المراجع الغربية بميوله الاسلامية ومحابة المسلمين ومساندة العثمانيين اعضاء المحور فى الحرب العالمية الاولى مما اغضب انجلترا واطاليا وفرنسا عليه وتعاونوا مع الاحباش لخلعه ليس من منطلق سياسى فقط وانما من وشائج الارتباط الدينى وهو ما جعل بريطانيا تتساهل كما اسلفنا؛ فى التفريط فى ممتلكات مصر والسودان ممثلة فى اقليم بنى شنقول والتاكة الى الحبشة .

وقبل ان ننهى هذا الفصل هناك شخصية تستوجب الاستفاضة حولها وهى الرأس على التى تحيطها الغموض ، فهناك من يتحدث عن فضله فى نشر الاسلام وتعاونه مع القوات المصرية وإقناعه منليك ؛ وكان وقتها حاكما لشوا بالتعاون مع مصر ضد الامبراطور وهو ما لم يرد فى المصادر الحبشية ، وما اوردته هذه المصادر بشأنه هو ما يتعلق بصراعه على السلطة فى اطار صراع ثلاثى بين اطراف يرتبطون بعلاقات قرابة ونسب ؛ دار فى عهد دولة الامراء او الاقطاعيات ، فالحبشة عادة ما كان يحكمها امراء الاقطاعيات او ما يُسمى بملوك الاقطاعيات او الرؤوس تحت السلطة المركزية فيما سُمى ملك الملوك او الامبراطور .

والرأس على ووالدته مينين **Menen Liben Amed** من اسرة **Yejju** الاورومية حكام الاقليم وهم مسلمون فى الاصل ، وبلغت قوة الرأس على ان نفوذه كان كبيرا على مستوى الحبشة كلها حتى اصبح حاكمها الفعلى وصانع الملوك ، ورغم قوته وقدرته على الاستيلاء على الحكم الا انه كان يدرك اهمية رمزية وجود سليل الاسرة السليمانية على رأس الحكم بالنسبة للشعب ، ولذلك تزوجت والدته الامبراطور يوحنا الثالث **Yohannis III** سليل الاسرة السليمانية لدعم نفوذ اسرتها وكان الامبراطور العوبة فى يدها لا حول له ولا قوة .

والطرف الثانى ووب **Wube** حاكم امارة سمين ويدعى لنفسه مُلك الحبشة ، وهو فى نفس الوقت والد زوجة الرأس على التى انجبت منه ابنته **Tewabech Ali** التى اصبحت فيما بعد زوجة كاسا هايلا جيورجس **Kassa Haile Giorgis** حاكم شوا (الامبراطور **Tewodros II** فيما بعد) وهو طرف الصراع الثالث.

حاول ووب **Wube** إستبعاد الرأس على من معادلة الحكم ؛ فوشى به الى ابونا سلامة موفد كنيسة الاسكندرية المرقسية واخبره ان اسرة يوجو رغم مسيحيتها فهى مسلمة الاصل واسمها يدل على ذلك ، وانه ينوى عزله وتنصيب نفسه امبراطورا وكان ابونا ميالا لذلك لانه من سلالة سليمان ، وكان معاصروا ذلك الزمان يشككون فى مسيحية الرأس على ومنهم القس المؤرخ ترمنجهام الذى اتهم الرأس على بأنه دعى لاحياء الحج لمقبرة الامام الجرى الزعيم الصومالى العدو للدود للحبشة وقاها .

هرب الامبراطور يوحنا الثالث (زوج الامبراطورة مينين **Menen** والدة الرأس على) فى اوائل 1841 وانضم الى ووب ، لما علم بنية الاخير عزل الرأس على ؛ فرد الرأس على على هروب الامبراطور بإعادة تنصيب الامبراطور السابق **Sahle Dingel** من فى الحكم ، ثم اتجه لحرب ووب وإخضاعه ، فى تلك الاثناء تصاعدت قوة كاسا هايلاو (**Kassa Hailu**) وتجمع الناس حوله فاستولى على قوارا **Qwara** وهاجم القوات المصرية فى السودان ورغم هزيمته فى معركة دباركى عام 1848 امام القوات المصرية رغم كثرة قواته ، الا ان الرأس على والامبراطور اعترفا به حاكما على كوارا بلقب **Dejazmatch** لتجنب خطره كما زوجته الامبراطورة **Menen** من حفيدتها **Tewabech** ابنة الرأس على فى نفس العام (عام 1848) ، وتصاعد نجمه ليصبح نجاشيا وامبراطورا عام 1854 ، وكانت زوجته ابنة الرأس على ذات حظوة كبيرة لديه لخالصها وجمالها فقد وقفت معه ضد جدتها وابيها فى حربه معها عندما خرجت الامبراطورة منين لقتاله انتقاما لقتله مبعوثها فهزمها وأسرها هى وزوجها الامبراطور ؛ كما هزم جيشا ارسله الرأس على لتحريرهما عام 1852 فى معركة **Gur Amba** ، وهزم جيشا مشتركا للرأس على و **Wube** ودخل **Gondar** عاصمة الحبشة واعلن خلع الامبراطور يوحنا الثالث وتنصيب نفسه امبراطورا .

و لما هاجمه الرأس على عام 1853؛ هزمه فى معركة **Ayshald** ، وهى الهزيمة التى فر على اثرها الى ييجى **Yejju** ولم يتتبعه كاسا إكراما لزوجته ابنة الرأس على ، وفقدت الاورومو منذ ذاك قوتهم التى مارسوها منذ عهد **Tekle Giorgis II** فى دعم الملوك ، وهنا يضطرب تاريخ الرأس على لدى المصادر الاثيوبية فمراجع تذكر انه اختفى بعد فراره ومنهم المؤرخ القس ترمنجهام بينما بعض القصص تشير الى انه تعمد بضغط وبرعاية الامبراطور يوحنا الرابع الذى جاء بعد انتحار الامبراطور تيودورس واتخذ اسما مسيحيا هو ولد ميخائيل وزوجه من ابنة منليك الذى اصبح امبراطورا فيما بعد .

واستمر كاسا فى ملاحقة ووب وهزمه فى **Dirasge** فى فبراير 1855 ، وضغط على ابونا ليتوقف عن معارضته لامبراطور من خارج الاسرة السليمانية فوافق وأعلنه امبراطورا بإسم تيودورس الثانى فى فبراير 1855 ، وبعد وفاة زوجته ابنه

الرأس على فقد الامبراطور توازنه لوجده عليها واصطدم بالانجليز فقاموا بغزو الحبشة وانتهى به الامر بالانتحار حتى لا يقع فى الاسر.

عمل كاسا الامبراطور تيودورس على توحيد السلطة وهاجم وولو مارس 1855 ولقى مقاومة شديدة من فرق المحمدية الذين استعصوا عليه رغم تشتتهم بين قتاله وقتال الامام حميدة (وهو ومينين ام الرأس على من اسرة واحدة) ، ولكنه نجح فى دخول Magdalla فى 12 سبتمبر 1855 وبعد فترة قبض على الامام حميدا وعمده والنبلاء على المسيحية (بعض المراجع تسميه السلطان محمد) تخلط بعض المراجع بينه والرأس على) ، وقد تزوج شواركا ابنة الامبراطور منليك الثانى وهى التى انجبت منه الامبراطور Lij Lyasu الذى اوصى له جده منليك بالعرش بعد وفاته ، واعتلاه عام 1913 وتم عزله 1916 لميوله الاسلامية او لانه اعلن فعلا اسلامه ، وهنا يضطرب تاريخ الرأس على لدى المصادر الاثيوبية فمراجع تذكر انه اختفى بعد فراره ومنهم المؤرخ القس ترنجهام بينما بعض القصص تُشير الى انه تعمد برعاية الامبراطور يوحنس الرابع الذى جاء بعد انتحار الامبراطور تيودورس واتخذ اسما مسيحيا هو ولد ميخائيل .

الباب السابع
مصر وأفريقيا
فى العصر الحديث
الفصل الاول
روح مصر الافريقية

العصور القديمة

يمتد الحضور المصرى جنوب الصحراء بعمق التاريخ وعمق الارض وعمق الثقافات والاديان ؛ فقد بنى مصر حضورها سيلا لا ينقطع عبر الازمنة الفرعونية والقبطية والاسلامية ، فالعلاقات المصرية الافريقية معلومة منذ عام 1950 ق م عندما أقامت الاسرة 22 علاقاتها مع بلاد " بونت " عبر البحر الاحمر ، وقبلها أقامت الاسرة الحاكمة قنوات الاتصال بأفريقيا عبر النوبة حتى الشلالات وما بعدها ؛ وعبر الكوشيين الذين ساهموا في نقل المؤثرات المصرية الى عمق افريقيا ويشير باسيل دافيدسون الى ادلة قوية على تأثير مصرى أصيل ومباشر فى اجزاء متفرقة من افريقيا على امتداد وادى النيل الاوسط والاعلى وابعد من ذلك عبر الكوشيين (318) .

وفى عهد تحتمس الاول وصل بسلطانه (1525 ق م) حتى الحديقة العظمى لاعلى النيل فيما بعد الشلال الرابع ، ولم تكن العلاقة المدنية من جانب مصر علاقة استقرار دائم وانما غلب عليها التقدم والانحسار غزوا واستكشافا أو للتجارة باستثناء حالات تسرب عرقى اندفعت تحت ضغط الغزو الاجنبى الى الهجرة فى مختلف الاتجاهات تركت بصماتها فى شعوب افريقيا مصطبغة بأصول نيلية مثل اليوروبا وشعوب جنوب نيجيريا ويورخ بيوباكو وصولها الى المنطقة فى سنة 600 ق م مثل اسلاف اليوروبا الذين وصلوا بنين فى الفترة 600-1000 م ووصل بعضها الى أوغندا وامتدت فروع اخرى الى الماساي فى كينيا والتوتس فى بورندى.

وجود الكباش المقدسة (المصرية) كقاسم مشترك فى معظم الديانات الافريقية تعكس التأثير المصرى لدى الماندينجو ، وفى اله العواصف لدى اليوروبا (شانجو) وعند شعب نيانى ؛ واله السماء عند شعب الباوولى ؛ واله البرق لشعب فون بدهومى ويستمر ظهور الكباش المقدسة فى الكامبيرون والكونغو و لدى الاسرة المالكة لشعب الاكان فى غانا ؛ كما وجدت تماثيل لاوزيريس فى الكونغو ترجع للقرن 7 م واخر لاوزيريس فى جنوب الزمبيزى يحمل اسم تحتمس الثالث 1450 ق م وعملات مصرية للاسرة 13 (1780 - 1580 ق م) فى مدغشقر

العهد القبطى

ان الكنيسة المصرية هى ام الكنائس العالمية وهى ايضا ام الكنيسة الافريقية الاولى فى النوبة والحبشة اخوة العقيدة الارثوذكسية اليعقوبية ، فالكنيسة المصرية ظلت لقرون طويلة ترعى الكنيسة الحبشية وتمدها ب ابونا بطيركا لكنيستها وتمدها بروح القدس ، ويذكر للاباء المصريين وللكنيسة قيامهم بخدمة المتطلبات الوطنية لمصر فى اى وقت ، والقيام بتلبية احتياجات الدائرة الاسلامية للدبلوماسية المصرية فى اثيوبيا ومحيطها الاسلامى فى العهود المختلفة ، بالاضافة للتكليفات الاخرى التى تخدم الدبلوماسية المصرية واخرها ما تناولناه عندما كلفها الخديوى اسماعيل بحمل رسائل وتوصيات الى امبراطور الحبشة لحماية الارسالية الكاثوليكية فى الحبشة والتخفيف عنها .

العصر الاسلامى

وعلاقة مصر بافريقيا بعد الاسلام استعرضناها انفا وغلب عليها البث الثقافى والتجارى ، وعندما ركب محمد على واسرته من بعده موجة التوسع الامبراطورى فى القارة تركز مد مصر فى محيطها الاسلامى المباشر السودان والصومال حتى حدود الحبشة ، وكان هذا التوسع المتجه جنوبا فى محيطه الاسلامى تحركا صحيحا فإذا ما قدر له أن يتم لكان للمنطقة حتى القرن الافريقى ووسط

(318) افريقيا القديمة تُكتشف من جديد ص22 -- 25 ؛ باسيل دافيدسون .

افريقيا شأن آخر ؛ فالحكم المصرى ظلل هذه المناطق بروح الاخوة الاسلامية بعيدا عن اثقال الاستغلال الاستعمارى ، الذى جاء الى القارة بتعال عنصري يستنزف ثروات قارة لا ينتمى اليها .
ولا يمكن ان نأخذ سلبيات الحكم المصرى فى اطار معزول عن سياقها فقد جاءت فى سعيه لبناء دولة عملاقة الاتساع تحتاج لنظام وحكم مركزى قوى لكيان لم يعرف نظاما مماثلا من قبل ، تتفشى فيه الفوضى والقبائلية وما كان يمكن ان تنهض به الا بالتنظيم والقوة كما تحملت مصر فى سبيل نهضته اعباء وتكاليف بدون تضرر او ضرر رغم ما اوقعه الفتح من اعباء مادية على كاهلها وهى تعاني من مديونية جسيمة افقدتها استقلالها .

الفصل الثانى البعدين الاسلامى والافريقى فى سياسة مصر فى العصر الحديث

مصر وحركة القومية الافريقية

فى مطلع القرن 20

لم يكن المصريين بعيدين عن الحركة الوطنية الافريقية جنوب الصحراء منذ فترات النضال المبكر ضد الاستعمار فى بدايات القرن العشرين ، وكان اقصى تعارف تم انذاك بين نشاط الحركة المصرية والحركة الافريقية ؛ ما قام به محمد فريد وحافظ رمضان فى بروكسل عام 1929 ، ولكنه كان تعارف عابر تم فى اطار الحركة المعادية للاستعمار ولم يكن الهدف منه ارتباط الحركتين او اقامة وشائج ارتباط قوى بينهما ضد الاستعمار لُبعد الشقة وصعوبة الاتصال فى عوالم معزولة عن بعضها ولا ارتباط بين قضاياها فى ظل فروق فادحة فى التعليم والوعى بين مصر والعالم الافريقى ،

فقد كان وعى العالم الافريقى محدودا يُعانى الفقر والتخلف الى حد غاب ومشاكله عن ضمير عالم ذلك الزمان الذى كان لاوروبا المستعمرة اليد الطولى فى عوالمه ، فإتقطع تواصل الوعى السياسى بن مصر وافريقيا جنوب الصحراء وغاب عن الطرفان ان قضية النضال واحدة وان تعددت قوى الاستعمار ، ثم إنشغل كل طرف بقضاياها وانفصلا الا من نشاط محدود لبعض الرواد المصريين الذين تربطهم وشائج شخصية وعرقية بالقارة السمراء وهو المصرى السودانى محمد على دسوقى

رواد مصر فى الحركة الافريقية

محمد على دسوقى

كان أقوى إسهام تلاقت فيه مصر بالحركة الافريقية ، تم بمبادرة فردية من المصرى محمد على دسوقى (319) ، قادتها اسباب عرقية بسبب لونه الافريقى الذى اكتسبه من ام سودانية ، ولونه بالذات هو ما امله لان يصبح فى اوائل القرن الماضى ولاكثر من نصف قرن واحدا من قادة حركة الجامعة الافريقية مارس فيها نشاطه فى كل من اوروبا واميركا ونيجيريا ، وهذا الاسهام من جانبه يعبر عن احساس بعناصر الانتماء المشترك واخوة الارتباط بين مصر والجنوب حتى ولو بقى فى اطار فردى . فالسودان الكبير فى الحقيقة شد قلب كل مصرى الى قلب افريقيا ، وان ظل قلبها مجهولا لمعظم المصريين ، ولكن لون بشرة معظم اهلها السمراء يذكرهم بهذا الارتباط الذى جعلته الثورة المصرية مد حقيقيا كبيرا وملموسا .

نبذه عن محمد دسوقى

ونضاله السياسى الافريقى

ولد فى الاسكندرية فى 1866/11/11 ، لضابط مصرى فى جيش عربى وام سودانية ، امتدت حياته حتى عام 1944 ، تلقى تعليمه فى لندن منذ كان فى التاسعة من العمر ، واتم دراسة التاريخ فى جامعة لندن ، وبعد استشهاد والده فى موقعة التل الكبير عادت والدته واخوته الى السودان وفقد الاتصال بهم .

اتسمت شخصيته بشمولية أبعادها فعكست انتماءاتها الافريقية الاسيوية الاسلامية ؛ فأصبح داعية صادقا لقضايا الشعوب الملونة عامة والافريقية خاصة ، وراندا للحوار الافرواسيوى ومبشرا بجامعة اسلامية عالمية تعمل حلقة وصل بين المسيحيين والمسلمين فى افريقيا على حد وصف وسائل الاعلام النيجيرية ، وكرس حياته لقضايا التحرر وقضية الرجل الاسود ، وشغلته الحركة القومية الافريقية على وجه الخصوص واستهلكت وقته فأصبح قطبا من اقطابها (320) .

بدأ نضاله فى مطلع القرن 20 فى لندن (الفترة 1911 - 1926) ثم فى الولايات المتحدة (1926 - 1931) ؛ ونيجيريا (1931 - 1944) ، وانشغل بالدفاع عن القضية المصرية ، وارتبط بحركة الجامعة الافريقية فى لندن ودافع عن قضايا الافريقيين .

³¹⁹ (المعروف فى الغرب باسم محمد على دوس .

³²⁰ (مقال السيدة إيزيس إسحاق مرقس باحثة بالهيئة العامة للاستعلامات -

شارك في الاعداد للمؤتمر العالمى الاول للجناس بلندن عام 1911 حيث أعداد برنامجه الفنى ، بعد ان ذاعت شهرته بكتابه الرائع فى تاريخ الفراغة فى الصحافة الانجليزية ؛ وهو المؤتمر الذى وضع اساس العلاقة بين الافريقيين والافرواميريكان من ناحية وبين الاسيويين ، وفى مؤتمر بلندن عن اوضاع الطلبة الافريقيين فى عام 1913 دعى لاقامة جامعة افريقية .
اصدر صحيفة التايمز الافريقية فى لندن (يوليو 1912) ، تناول فيها قضايا التحرر المصرى ، وفضح ممارسات الاستعمار فى شرق وغرب افريقيا ، ودافع عن قضايا الشعوب الملونة بما فيها اسيا وأقفلت الصحيفة عام 1920 .
ودعى لاقامة جامعة افريقية فى مؤتمر بلندن عن اوضاع الطلبة الافريقيين عام 1913 ، وشارك فى تأسيس جمعية التقدم الاثيوبية عام 1926 ، وحصل على عضوية الجمعية الزنجية للابحاث التاريخية والاكاديمية الامريكية ، أعد الدليل السنوى لغرب افريقيا حول التجارة بالتعاون مع شخص من ساحل العاج ، وضمنه معلومات عن رموز الحركة الوطنية المصرية مثل على فهمى ومحمد فريد كما ضمنه جزء باللغة العربية .

وكان قريبا من " ماركوس جارفى " الزعيم الامريكى المعروف (321) ، منذ ان التقاه فى لندن 1912 ، وكان جارفى يستقى منه الكثير من المعلومات التاريخية حتى قيل أن جارفى تلقى تعليمه على يد مسلم قومى .
وانتقل الى الولايات المتحدة ليعمل بالتعاون مع زوجه فى اطار الحركة العملى والفعلى ، وعمل دوس سكرتيرا للجمع الاسيوى الامريكى عام 1926 ، وفى عام 1928 أولكت اليه مهمة اصدار مجلة مصورة باسم افريقيا ، وعمل كاتبا صحفيا لعمود ثابت فى صحيفة Negro World ، ودعا لاقامة كرسي لتدريس تاريخ الزوج ، ونظم جمعية اسلامية عالمية حتى نال لقب المسلم القومى فى افريقيا ، واعتبره الافريقيون بعد زيارته افريقيا عام 1920 حلقة وصل بين المسلمين والمسيحيين فى افريقيا ، وعندما استقر فى لاجوس عام 1931 اصدر صحيفة Comet وكان لها دور هام فى التاريخ القومى لنيجيريا خاصة وغرب افريقيا عامة .

وانغمس فى العمل الوطنى الافريقى واشترك فى اول مؤتمر قومى جماهيرى لافريقيا جنوب الصحراء ، وفى المجلس الوطنى لنيجيريا والكاميرون National Council of Nigeria and Camerons ، الذى كان اول حزب وطنى فى جنوب الصحراء وكان له عمود متخصص فى Nigeria Daily Times ، وعمل محررا فى Nigeria Daily Telegraph عام 1933.

وساهم فى اقامة مدرسة صناعية زراعية فى لاجوس ، ودافع عن قضايا سيراليون وجامبيا وساحل الذهب بخلاف قضايا نيجيريا فى المؤتمر القومى لافريقيا الغربية البريطانية ، ومن اراؤه المنشورة تأكيده على حتمية وحدة غرب افريقيا ، ونجح فى اقامة كلية " ياي " فى ليجوس إنطلاقا من فكرته التى روج لها فى مؤتمر بلندن عن اوضاع الطلبة الافريقيين عام 1913 ، لاقامة جامعة افريقية ؛ وكانت جهود محمد دسوقى فى نيجيريا خلال فترة إقامته من 1931 الى 1944 ، محل تقدير الزعيم النيجيرى انتون انياهورو الذى قال أن بذور القومية بذرت ونمت فى نيجيريا مع مقدم دوس الى البلاد .

هاجم محمد دسوقى الرئيس الامريكى روزفلت دفاعا عن مصر وافريقيا ، فعند زيارة روزفلت القاهرة فى 20 مارس سنة 1910 دُعى لالقاء محاضرة فى الجامعة المصرية ، وكان مبناها فى موقع الجامعة الأمريكية حاليا بميدان التحرير حمل فيها القاهرة مسئولية اغتيال رئيس الوزراء بطرس غالى الذى أُغتيل قبل وصول روزفلت بشهر ، وكانت البلاد آنذاك حالة من القلق والاستقطاب بين المدافعين عن وطنية مرتكب الجريمة إبراهيم ناصف الوردانى من ناحية وبين الذين يتهمونه بالإجرام والتطرف والتعصب الدينى من ناحية أخرى.

وهاجم روزفلت الشعب المصرى والحزب الوطنى الذى وصف فيها انتفاضة الحزب بانتفاضة الصبية والغوغاء ؛ وجاء خطابه تأييدا واضحا للاستعمار البريطانى وطعنا مكشوبا فى استحقاق الأمة للحكم الدستورى إذ اتهم المصريين بالهمجية والتطرف وأكد

³²¹ (جارفى امريكى اسود ، عُرف بموسى الاسود لتبنيه الدعوة لعودة الزوج الى افريقيا ، ارض الميعاد لزوج العالم بعد شتاتهم فى الارض ، وغرقت دعوته بالصهيونية السوداء ، وكان جارفى قد اسس شركة نقل بحرى للعودة الى افريقيا ، ونجح فى حشد ثلاثة مليون امريكى من اصل افريقى وراء الفكرة ، وهو الذى ابتدع فكرة مواجهة العنصرية البيضاء بعنصرية سوداء وداعية اقامة امبراطورية للزوج وحاول فى عام 1924 اقناع رئيس ليبيريا بالفكرة لكنه فشل وأدع السجن ، ولم تتحقق احلامه بسبب الفضائح المالية .

أنهم غير مؤهلين لنيل الاستقلال أو الدستور وأنهم في حاجة إلي عدة عقود بل عدة أجيال قبل أن يستحقوا حكماً دستورياً. وقبل مغادرة روزفلت القاهرة رد محمد فريد زعيم الحزب الوطني ببرقية الي روزفلت اعترض فيها علي ما جاء في خطابه وطالبه بتقديم الاعتذار للشعب المصري ، وعقد الحزب الوطني مؤتمراً شعبياً ألقى فيه علي فهمي كامل شفيق مصطفى كامل خطبة رد فيها علي مزاعم روزفلت ، واحتجت اللجنة التنفيذية للحزب الوطني علي إدارة الجامعة المصرية لسماعها بإلقاء هذا الخطاب في دارها ومنحها الخطيب درجة الدكتوراه ، ونظم طلاب الجامعة والمدارس الثانوية وأعضاء الحزب الوطني مظاهرة أمام فندق شبرد وكان موقعه آنذاك في شارع الجمهورية حيث كان يُقيم روزفلت وهتفوا ضده واتهموه بالجهل بأحوال مصر وشنونها. وزاد الطين بلة تصريحات روزفلت عند وصوله لندن قادماً بالباخرة من الاسكندرية فقد هنا بريطانيا بحسن إدارتها لمستعمراتها في مصر ومنحها أفضل حكومة في تاريخها، ودعا الانجليز الي معاملة المصريين بحسم وشدة ، كطريقة فضلى لمعاملة الشعوب المتخلفة .

وكان رد فعل محمد دسوقي على خطب الرئيس الأمريكى مماثلاً لردود فعل المصريين لكنه اضاف اليها بُعداً افريقيا ، فهاجم النظام الأمريكى وممارساته ضد الزنوج واتهم الولايات المتحدة وبريطانيا بالتغاضى عن الحق ، وخواء ادعاءاتهما بالسعى لرفاهية الشعوب المتخلفة ذلك الادعاء الذى اصبح " مسرحية هزلية فارغة " ، ودعا روزفلت لتوخي الجديه فى معالجة الموضوعات طبقاً لمفهوم " بيرل " فيلسوف الغرب الذى يرى في عدم التزام الجدية فى معالجة المشكلات الهامة مسلك لااخلاقى لايجدى معه الاعذار ولو بحسن نية "؛ وختم نداؤه الى الرئيس روزفلت بقوله " يامن تنادى بفعل الخير للعالم فلتبدأه فى وطنك وبين قومك " (322).

³²² (افريقيا كتاب غير دورى يعنى بالقضايا الافريقية - العدد الاول اكتوبر 1986 مقالة ايزيس اسحاق مرقس باحثة بالهيئة العامة للاستعلامات بعنوان محمد على دوس ص 64 - 74 .

الفصل الثالث
الروح الافريقية
لثورة يوليو 1952
والبعدين الاسلامى والافريقى
فى سياستها الخارجية (فلسفة الثورة - الميثاق)

دوائر الحركة السياسية فى فكر الثورة

حددت ثورة يوليو ثلاث دوائر لنطاق حركتها الخارجية مبنية على انتماءات مصر ؛ وهذه الدوائر هى على التوالى الدائرة العربية فالافريقية فالاسلامية ، وترتيبها على هذا النحو جاء وفقا لاولويات الامن القومى فى فكر منظر الثورة وطموحات تحركه الخارجى ، ؛ فدائرة العربية هى الدائرة الاساسية وقلب اهتماماته واثقها ارتباطا بنا .

وتعدد فلسفة الثورة نواحى الارتباط العضوى الوثيق بين هذه الدائرة وبين البعد الوطنى المصرى " فهى دائرة مصير وتحقيق الذات جمعا بها الدين والجوار ، نحن منها وهى منا امتزج تاريخها بتاريخنا ومصيرنا بمصيرها ؛ ارتباطنا بها واجب يحتمه علينا الدفاع عن النفس ، ويقضى نطاق سلامتنا ان ندافع عن حدود اخواننا فيها " .

وبهذا التوصيف ربطت فلسفة الثورة امن مصر بأمن المنطقة فى إطار من وحدة المكان (الامتداد الجغرافى وتواصله) ووحدة الكفاح ورباط الاخوة والتاريخ والمصير فتقول فى حديثها فى الفقرة التالية " ففوة الرابطة جعلت من ارضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن الكل ولا يمكن حماية مكان فيها كجزيرة منعزلة عن غيرها ، ولا مفر من الحركة عليها بكل طاقتنا وان وحدة الكفاح تحقق كل اماننا " ، وتواصل فلسفة الثورة الحديث بمرارة عن التأثير السلبى للاستعمار على وحدة هذه الدائرة وعدم ادراك العرب لعناصر قوتهم (323).

والدائرة العربية بارتباطها الوثيق بالبعد الوطنى المصرى ، تُعتبر الاكثر اندماجا فى الوضع الداخلى ، وهو ما يعكس متانة العلاقة بينهما ، وتشير فلسفة الثورة الى هذه الحقيقة فتقول " يمكن ان نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ؛ وان هذه الدائرة منا ونحن منها ، وفي موضع لاحق تؤكد فلسفة الثورة على الارتباط بين البعدين الوطنى المصرى والعربى القومى ؛ عندما اشارت لاشتباك حياة مصر بحياة الدول العربية الشقيقة للصيقة بحكم الموقع .

والدائرة الثانية الدائرة الافريقية وهى حسب فلسفة الثورة " دائرة الجوار يربطنا بها النيل شريان الحياة والسودان الشقيق الحبيب الذى تمتد حدوده فى عمق القارة ، ولا نستطيع بحال ان نفق بمعزل عن الفوران الذى يجرى فيها ضد الاستعمار ، من صراع مروع حول مستقبلها ومواردها سوف تكون اثاره لنا أو علينا ، أردنا أو لم نرد ، ولا يمكن ان نتصور انه لا يمسننا ولا يعيننا " .

ويستطرد صانع السياسة الخارجية فى فلسفة الثورة فيقول " اننا لانستطيع ان نتخلى عن مسئوليتنا فى المساعدة بكل ما نستطيع فى نشر الوعي والحضارة بالقارة الافريقية التى تتطلع الينا شعوبها " ، ويحلم المنظر " باليوم الذى يصبح فيه فى القاهرة معهد افريقى ضخم يخلق فى عقولنا وعيا افريقيا يشارك مع كل العاملين فى انحاء الارض على تقدم القارة ورفاهيتها " (324) .
وهذه الدائرة طبقا لفكر الثورة تقع فى موقع الاهمية الحياتية كمصدر للمياة والحياة ، وهو ما استلزم وضعها فى المرتبة الثانية رغم عدم وجود وعى افريقى لدى المصريين عامة فعبارة يخلق وعيا افريقيا فى عقولنا دليل على ذلك ويتطلب الأمر خلق وعى بشأنها ليصبح هناك مبررا للارتباط .

والدائرة الاخيرة الدائرة الاسلامية دائرة اخوة العقيدة التى يقول عنها " التى تمتد عبر قارات ومحيطات ؛ تجمعنا وايهاهم روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب وانما تشدها حقائق التاريخ " ؛ والتى جاء اهتمامه بها انطلاقا من خواطر والهجمات واتته امام الكعبة لمنهجة الحج سياسيا باستغلاله على حد قوله " كبرلمان اسلامى عالمى دورى لفئات الامة ؛ يضع خطوطا عريضة لسياسة بلاد الاسلام وتعاونهم حتى يحين موعد اجتماعهم فى العام التالى " .

³²³ فلسفة الثورة ص 58 : 64 .

³²⁴ (المرجع السابق ص 76 ؛ .

وخلص منظر الثورة الى " الامكانيات الهائلة التي يحققها تعاون ملايين المسلمين في ارجاء المعمورة ؛ تعاوننا لايخرج عن حدود الولاء لوطانهم الاصلية ؛ لكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة " .
وبذلك مزجت فلسفة الثورة الدائرة الاسلامية بالدائرة الوطنية على اساس الدين ، وقد اشار عبد الناصر في تعرضه لهذه الدائرة في فلسفة الثورة " لحقيقة الارتباط القوي لمصر بعالمها الاسلامي ، الذي انطلقا منه تحملت المسئولية التاريخية بأعبائها المرهقة ومخاطرها في التصدى للهجمات التي استهدفت الامة الاسلامية على مر العصور ، وأهلتها لان تكون حصنا لتراث هذه الامة بعد ان تداعت مناراته في كل من الاندلس وبغداد عندما أصبح الازهر الشريف قلعة ومنارة هذا التراث بما اضافه وبثه في ارجاء العالم الاسلامي " .

الدائرة الاسلامية

(التعاون الاسلامي - وضع الاقليات)

خلص التصور المصري طبقا لفلسفة الثورة الى اهمية وجود صرح متين من التعاون يشد العالم الاسلامي ، الممتد على مساحات شاسعة من الارض ويضم شعوبا عديدة متنوعة لها جذور تاريخية وثقافات عميقة ؛ تعاون يشد عالم الاسلام الى بعضه ، تعاون يمكنه من استخدام امكانياته الهائلة لجعل هذه الامة قوة سياسية ، تدرأ عن نفسها ما يهددها من مخاطر .
و لم يغفل التصور المصري في دعوته للتعاون على هذه الساحة ، التباين والاختلاف الطبيعي لتركيبية هذه الامة فأخذ في الاعتبار خصوصية وحساسية وضع الاقليات المسلمة ليجنبها تناقضات ازدواج الانتماء على نحو ما افرزته الصهيونية من سلبيات على يهود الشتات ، فأكد فكر الثورة على أهمية الايخرج هذا التعاون عن حدود ومقتضيات الولاء الطبيعي لوطانهم الاصلية تلافيا لإثارة مخاوف الدول التي ينتمون اليه ، وحتى لا تُجهض دعوته قبل ان تبدأ .
فأى منهج يخرج بهذه الاقليات عن حدود ولانها لوطانها الاصلية سيؤدي الى نتائج سلبية مزدوجة تهدد سلام تلك الاقليات من ناحية وتستعدى الدول الحاضنة من ناحية اخرى لها ولعالم الاسلام الذي استقطبها بعيدا عن جذورها ، والدول الحاضنة للاقليات المسلمة في حالة آسيا دول كبيرة في مجملها تطلع اليها صانع السياسة المصرية لدعم طموحاته الداخلية والخارجية في مواجهة الغرب .

وموضوع الاقليات موضوع شائك ومن اشدها خطورة ، ويقتضى الالتزام بنظرة موضوعية نابعة في التعامل معه ؛ فهذه الاقليات بانتشارها على اتساع قارات ودول عديدة منها دول عملاقة ستؤدي في حال التعامل معها بدون تلك النظرة الى استعداء العديد من الدول وبالتالي اتساع نطاق المواجهة وتبديد الطاقات وهو ما لايقدر عليه أحد .
وفكر منظر الثورة بشأن الاقليات ؛ يحترم التعددية والخصوصية ويناسب حقائق العصر ومتغيراته في وقت هيمنت فيه فكرة القومية على الحياه السياسية في السواد الاعظم من دول العالم بما في ذلك الدول الاسلامية ذاتها ؛ والتي جعلت الافكار التي تتحدث عن عالمية الخلافة ووحد الكيان الاسلامي غير مقبولة نظريا وغير صحيحة عمليا ولم تعد واردة على حد قول حمدان وأصبح الدور الاصيل للحركة على هذه الدائرة هو وحدة العمل لا وحدة الكيان .

وقد اثبت التاريخ ان وجود نواة اسلامية ممثلة في الاقلية في المجتمعات غير الاسلامية ، اكثر جدوى للدعوة ويؤدي اليها خدمة جليلة ؛ فالدعوة لاتخدمها العزلة بقدر ما يخدمها الانتشار والانفتاح ؛ وإن الأفضل للاسلام ودوله توظيف تلك الاقليات في تعاون بناء وبدون استعداء احد للتأثير على دولهم لخدمة قضايا الامة ، فهذه الاقليات عندما يقوى انتمائها لمجتمعاتها تصبح قوة فعالة سياسيا وتفرض تأثير الايجابي في مواقف دولها التي تصبح بدورها اكثر تفهما لانتماء الاقلية الاسلامي مع امتداداتها الثقافية والدينية بالخارج والتزاماتها نحوها ، وهذه الاقليات في النهاية قوة مضافة للامة الاسلامية .

ويؤخذ على فلسفة الثورة في تصورها لحركتها على الدائرة الاسلامية ؛ انه جاء خواطر والهوامات ولم يكن فكر اصيل في حساباتها الاستراتيجية على نحو ما جاء في الدائرتين الاخريتين ، فاستغلال الحج سياسيا فكرة غير سديدة ومستحيلة عمليا وغير مستساغة دينيا فلا الوقت ولا المناسبه ملائمتان لتحقيقها (325) ، فالمناسبة بجلالها لا مجال فيها لضجيج الجدل السياسي وصخب

³²⁵ (وفكرة استغلال الحج كمؤتمر سياسي عالمي لمناقشة مشاكل العالم الاسلامي اقترحها ايضا الكواكبي في كتابه "ام القرى" - المرجع كتاب الشيخ القرضاوى الوطن والمواطنة - ص 51 .

المناقشة فمن غير المعقول ان ينشغل الحجاج بأمور الدنيا والسياسة عن أمور الدين والعبادة في مثل هذا الوقت القصير المشحون بالروحانيات ؛ ناهيك عن صعوبة التوفيق بين اتجاهات شتى ومتضاربة دينيا وقوميا وسياسيا يضيع معها جلال المناسبه وسط كل هذا الفوران والتناقضات.

ويلاحظ ان فلسفة الثورة تجاهلت عمدا أو بدون وعي الشعوب المسلمة في افريقيا عندما تحدثت عن التعاون الاسلامي وأقليته ، فقد ركز حديثه على آسيا فقط ، وعدد دولها حصرا بالصين والملايو وسيام وبورما والباكستان والشرق الاوسط والاتحاد السوفيتي ثم تعرض في اشارة عامة لملايين اخري من المسلمين في ارجاء المعمورة ؛ وقد يعنى هذا التجاهل اما عدم الاقتناع بفعالية التعاون مع مسلمي إفريقيا وهم ما زالوا في ربة الاستعمار ، ولم يكن منتظرا ان يتحرروا قريبا لينطلقوا في التعاون الاسلامي ، وإما جهلا بهذا الامتداد الاسلامي في القارة أصلا .

والبعد الاسلامي في حقيقته عامل جامع للدوائر الثلاث لانتشار طوائف الاسلام في مكوناتها ، فمضمون (الدائرة الاسلامية) يضم مسلمي المنطقة العربية (الدائرة العربية) ، ومسلمي افريقيا دولا واقلية (الدائرة الافريقية) ومسلمي اسيا دولا واقلية ، وتضم الفئة الاولى اندونيسيا وماليزيا وباكستان وايران وافغانستان وتركيا وبروناي ، والاقلية في الصين والهند والاتحاد السوفيتي وهم جميعا مضمون الدائرة الاسلامية حسبما يُشير منظر السياسة الخارجية للثورة .

ومن الملاحظ ان فلسفة الثورة لم تُشر الى مسلمي اوربا والولايات المتحدة ، فهم انذاك لم يكن لهم وزن او حجم يُعتمد ليتناولها في تضمينه به فحول الاسلام في اوربا البانيا والبوسنة كانتا تحت نظم شيوعية تنكر الدين ودولها دول تقع بعيدا عن نطاق المواجهة مع الاستعمار بل يتطلع الى دعمها .

الارتباط بين الدوائر الثلاث

والدائرة الوطنية

وفي معرض الحديث عن ارتباط هذه الدوائر بالدائرة الوطنية خصت فلسفة الثورة ، الدائرتين العربية (الاولى) والاسلامية (الثالثة) بارتباط مُميز بالدائرة الوطنية ، فالدائرة العربية دائرة مصير امتزج مصيرنا بمصيرها والدفاع عنها هو دفاعا عن النفس ، و اشارت بصراحة للرابط القوى بين البعدين الوطنى والقومى العربى ، والدائرة الاسلامية في فلسفة الثورة تراها " ان هناك عالما اسلاميا تجمعا وايه روابط لا تقر بها العقيدة فحسب ؛ وانما تشدها حقائق التاريخ (326) .

اما بالنسبة للدائرة الافريقية التي لم تكن الامور في قارتها قد تبلورت بعد على نحو واضح في ظل الاستعمار ، فإنصبت رؤية منظر الثورة لها من الجانب المعني بالصراع مع الاستعمار فقط فعلق عليها قائلا " ان ما يدور فيها من صراع مروع ؛ ستكون اثارة لنا او علينا سواء اردنا او لم نرد " ؛ وهو بهذا الربط البعيد الاحتمال يزج بالدائرة الافريقية في عمق الدائرة الوطنية دون ان يكون هناك ارتباط يضاهي ذلك القائم بين الدائرة الوطنية والدائرتين العربية والاسلامية (327) ؛

ولم يُوف مسألة مياة النيل كرابط حقيقى بين الدائرة الافريقية والدائرة الوطنية حقه مكتفيا بالاشارة الى النيل كرابط مع دول القارة ، وقد نجد له عذرا في ان تدفق امدادات مياة النيل من وسط القارة الى مصر لم تكن تُنبئ بالمشاكل ؛ ولكنه تجاهل كلية مسلمي القارة كرابط يشد الدائرتين الافريقية والوطنية .

ونستخلص من قراءتنا لفلسفة الثورة ان الحركة على الدائرة الاسلامية في عمومها لم تكن بذلك الوضوح الذى اتسم به تناوله لحركته على الدائرتين العربية والافريقية ؛ فلم يتعامل على هذه الساحة بنفس الاصرار الذى تعامل به مع قضايا الدائرتين الاخرتين ، ولعله ارتكز في ذلك على ان هناك اطراف عاملة اصيلة معنية اكثر منه وبشكل مباشر بمسئولية العمل على هذه الدوائر واكثر قبولا لدول هذه الدائرة ، فالسعودية لديها مقومات القبول لدول العالم الاسلامي والعمل بدونها في هذا المجال لا معنى له ، ومكثنة السعودية هي التي دفعت منسق السياسة الخارجية الى عدم اغفال التعاون معها في بزوغ منظمة المؤتمر الاسلامي ، في اجتماع مع ضم قادة الدول الثلاث جمال عبد الناصر والملك سعود والرئيس الباكستاني غلام محمد وكان اول امين عام لها انور

³²⁶ (فلسفة الثورة ص 58 : 64 .

³²⁷ (لم يقدم منظر الثورة الدائرة الاسلامية باتساعها وتناقضاتها العرقية والطائفية وتعددتها اللغوية على الدائرة العربية بانسجامها وقلة تناقضاتها ، وإلا كان يعنى هذا إستبدال السهل بالصعب وتبديد اهداف واقعية واكثر عملية بما هو بعيد .

السادات .

الاسبقيات بين الدوائر

وإذا ما اتفقنا مع أسبقية التوجه العربي للسياسة المصرية للأسباب التي أوردتها فلسفة الثورة بإيمانها بفكرة العروبة في المقام الأول ، فجاءت طبقا لذلك في موقعها الصحيح في المركز الأول ، ويحتاج الأمر منا بعض التأمل للتوصل للأسباب التي أدت به لسبق التوجه الأفريقي ؛ التوجه الإسلامي بالرغم من أصالة التوجه الأخير الذي يشكل مظلة أكثر شمولية ويغطي الدائرتين العربية والأفريقية في معظمهما .

وقد نجد تبريرا لأسبقية

التوجه الأفريقي على التوجه الإسلامي

في فكر الثورة في الاعتبار التالية :

* تبني الثورة الاتجاه العلماني منذ البداية ورفضها أي وصاية دينية على توجهاتها ، فرأت في ضوء ذلك ان ينحصر دور الدين في نطاقه الفردي دون ان تنسحب هيمنته على دور الدولة ؛ فرفضت الثورة وصاية الاخوان عليها ؛ او ان يكون لهم دور في العمل السياسي يسلبها الانفراد بالسلطة وحرية الحركة داخليا وخارجيا لتحقيق اهدافها الضخمة التي تتعارض مع توجهات الاخوان ، وفي هذا الاطار رفض عبد الناصر طلب الهضبي تطبيق الشريعة مؤكدا ان الثورة جاءت لمواجهة الظلم الاجتماعي والطغيان والفساد السياسي والاستعمار الانجليزي ، ولكنه ادرك لاحقا في عام 1960 ، اهمية ارتكاز السياسة الداخلية الاشتراكية على خلفية اسلامية ، مشيرا لاهمية الاسلام في بناء المجتمع مستلهما في ذلك الجانب الاشتراكي للاسلام باعتباره أول عقيدة اقامت أول دولة اشتراكية في العالم (328) ، فقال عبد الناصر " نحن في حاجة لمجتمع يقوم على تعاليم الاسلام الذي يدعوا للحب والصداقة والتعايش ؛ اسلام اصلاحي اسلام يعبر عن حقيقة القومية العربية والاشتراكية العربية ، وسلم يارتباط السياسة الخارجية بالدائرة الاسلامية في سياق الاخوة الاسلامية بمضمونها العاطفي على نحو ما اشار عبد الناصر عام 1960 .

ولما كانت السياسة الخارجية لاي نظام تتبع من فكره العام ، فلم يكن من المعقول ان تتبنى السياسة المصرية في اولويات حركتها الخارجية مالم تؤمن اصلا بالتعامل السياسي معه داخليا ، فإكتفت بالارتباط بالاسلام على نحو هامشي اسمته الارتباط العاطفي .

* عدم وفاق الثورة مع لاعبي الدائرة الاسلامية الرئيسيين على الساحتين العربية والدولية ، فقد كانت باكستان وتركيا والعراق اعضاء حلف بغداد متحالفون مع قوى الاستعمار وبالتالي لم يكن هناك مجال للتعاون مع تلك الدول الاسلامية الكبيرة بعدما اضررت بالنظام الاقليمي العربي وأدت لإنقسامه.

* حتمية الصدام بين مصر والاستعمار في النطاقيين العربي والأفريقي عند إنطلاق معركة التحرير التي تبنتها الثورة ، بينما لم يكن الصدام حتميا في الدائرة الاسلامية ، بعدما تخلصت دولها الواقعة خارج الدائرتين العربية والأفريقية من الاستعمار او ما زالت ترتبط به استراتيجيا.

* إيمان الثورة بأن التوجه الأفريقي له جاذبية خاصة عند العنصر الأفريقي غير المسلم من شعب السودان والتي يجد في التوجه الأفريقي مظلة تجمعها والعنصر العربي من شعب السودان ، بما يخدم فكرة الوحدة بين مصر والسودان ، وان إمتداد حدود دولة الوحدة الى العمق الأفريقي الذي مازال في قبضة الاستعمار سيخلق نقطة تماس واشتباك مباشر معه ، يزيدا عمقا ان امن مياة النيل وارتباط مصر الابدئ به على إمتداد مسيرته حتى منابعه لتأمين تدفقه ، لا يمكن تحقيقه الا بالتعامل مع دول مستقلة وصديقة في حوض النهر ، وهو ما يبشر بصدام مؤكد مع الاستعمار لدعم حركة التحرير بهذه الدول في الدائرة الأفريقية ويزيد من حرارته ما يدور من صدام معه في الدائرة العربية .

اصبحت المعركة مع الاستعمار في فكر الثورة كل لا تتجزأ ؛ فنتائج الصدام معه من مكسب او خسارة تحسب لمصر أو

³²⁸ خطاب عبد الناصر في صنعاء في إبريل عام 1964.

عليها في معركتها العامة ضده ، ومساندة مصر للنضال الأفريقي هو في الحقيقة امتداد لنضالها ضد محاولات الاستعمار اهدار اهداف ثورتها في الداخل او اهدافها على الدائرة العربية ، وعبر عبد الناصر عن هذا المفهوم عندما برر موافقته على مساعدة نيجيريا ضد انفصال بيافرا عام 1967 ، بعد النكسة التي منى بها نظامه في مصر بشهور قليلة بقوله: " اننا لا نريد ان تنتكس افريقيا بنكستنا فتحرير سيناء يبدأ بصمود نيجيريا " ، وكان هذا الموقف تصدى غير مباشر لاسرائيل التي وقفت مع الغرب وراء انفصال بيافرا طوال الفترة 1966 وحتى 1970.

* اقتناع الثورة بأنها مدعوة الى قيادة العمل الثوري على الدائرتين العربية والافريقية وثقتها في إقتدارها على ذلك ؛ فهي رأت في نفسها حسب فلسفة الثورة ذلك البطل القادر فتقول " إن الدور التائه الذي الذي يبحث عنه (هذا البطل) ، أرهقه التجول في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان من حولنا ، استقر به المطاف على حدود بلادنا يستنهضنا فلا احد يستطيع القيام به غيرنا ؛ فحن وحدنا بحكم المكان نستطيع القيام به " ، وهذا الدور الذي اصبح مطلباً للسياسة المصرية يقتضى الانفتاح على العالم فقد " مضى عهد العزلة " " على حد قول فلسفة الثورة التي ترى " أن العالم بمشاكله وازماته يقتحم علينا ابواب بلادنا ؛ ولم يعد مفرا امام كل بلد من ان يدير بصره ليتطلع الى مجاله الحيوى ودوره الايجابى فى هذا العالم المضطرب " ؛ وهو ما يمكن ان تلبية الدائرتان العربية والافريقية فاصبحتا تمثلا أولوية للسياسة الخارجية .

" والدور التائه الذي يبحث عن بطل الذي نحن وحدنا بحكم المكان قادرين على القيام به " (329) ؛ أوقع واطهر في الدائرتين العربية والافريقية لإنتطابق بُعد المكان فى العبارة السابقة عليهما عما هو عليه بالنسبة للدائرة الاسلامية التي تنتشر عبر محيطات وقارات ، كما ان رغبته فى التفرغ للتصدي للاستعمار كان ظله اوضح على الدائرتين العربية والافريقية مما هو عليه فى الدائرة الاسلامية التي تحررت معظم دولها ، كما ان الاقليات فى اسيا والاتحاد السوفييتى لم تكن لتنتهى له هذا الدور الزعامى فهي ليست بالمكان المناسب لحركة سياسية فعالة .

فالمسلمون الذين اشارت اليهم فلسفة الثورة ينتمون لدول كبرى أو كبيرة ويمثلون اقليات فاقدة الحول والقوة فى الصين والاتحاد السوفييتى ؛ وكان التعامل مع طموحاتهم السياسية لابد وان ينتهى بصدام فادح تخسرة مصر بالتأكد ؛ فى وقت كانت تركز فيه الى صداقة دولهم كسند قوى فى معركتها ضد الاستعمار .

ورأت مصر ان العلاقة القوية مع دول الاقلية اجدى وانفع للطرفين ، ويمكنها من خلال علاقات طيبة خدمة تلك الاقلية على نحو افضل ، وقد حسم عبد الناصر ذلك المنحى فى رده على عتاب وفد اسلامى لع لعلاقته الوثيقة مع الهند عما هى عليه مع الباكستان الشقيق على خلاف مقتضى الاخوة الاسلامية ؛ فاجاب ان الباكستان دولة قوية وذات سيادة ولها كيان دولى وأمنها مكفول بقوتها الذاتية ومنزلتها الدولية ؛ وهو ما لا يتوفر لمسلمى الهند التي مصادقتها انفع لهم (330) .

نستخلص مما تقدم ان الدائرة الاسلامية بمفهوم ومنظور المخطط المصرى فى ظل اوضاع عصره ، لم تكن قادرة على ان تلبى طموحاته الرئيسية وهو ما حدا به لوضعها فى آخر أولوياته فى فلسفة الثورة ومن بعدها ميثاق العمل الوطنى الصادر عام 1962 ؛ فالدائرة الاسلامية فى الميثاق الوطنى احتفظت بالترتيب الاخير ايضا فى اولويات صانع السياسة ، لكنها تفهقرت الى المرتبة الرابعة بدلا من المرتبة الثالثة التي احتلتها فى فلسفة الثورة ، وجاء تزحزح الدائرة الاسلامية الى المرتبة الرابعة والاخيرة لتخليها عن المرتبة الثالثة لحركة عدم الانحياز الدائرة الجديدة فى السياسة المصرية .

ومن الملفت أن الميثاق تجاهل الإشارة الصريحة الى مسمى " الدائرة الاسلامية " التي عرفت بها فلسفة الثورة ؛ وجاء ذكرها فى اشارة يتيمة فى جملة عابرة نصها " الايمان برباط روحى وثيق يشده الى العالم الاسلامى " دون استفادة فى معالجة دوره على نحو ما سبق فى فلسفة الثورة ، بينما احتفظت الدائرتان العربية والافريقية فى الميثاق بنفس الاولوية والوضوح اللذين كانتا عليه فى فلسفة الثورة .

وبمقارنة التصور المصرى لحركته على الدوائر المختلفة ، نخلص الى ان تعامله مع الدائرة الاسلامية يختلف تماما عن تعامله مع الدائرتين الاولى والثانية (العربية والافريقية) ؛ فبينما جاء تعامله مع هاتين الدائرتين واضح الملامح ومشتتلا على

329 (المرجع السابق ص 78 .

330 (تقديم الشيخ احمد حسن الباقورى لكتاب " ويسألونك عن ذى القرنين " ص 38 - تأليف مولانا أبو الكلام آزاد .

تفصيلات واضحة لطبيعة توجهاته فإنه على العكس تعامل مع الدائرة الإسلامية بعمومية ودون تفصيلات بما يعنى عدم تبلور موقفه منها وحركته عليها بطريقة واضحة .

كما ان مجئ الدائرة الإسلامية فى اخر هذه الدوائر من ناحية الترتيب عكس اولويات حركته السياسية ؛ ولعل هذا ما دعاه ليذكر صراحة فى كل دائرة على حده فى فلسفة الثورة حتمية حركته على الدائرتين العربية الافريقية لتأثيرهما المباشر عليه ؛ بينما تجاهل تماما التذكير به فى الدائرة الإسلامية التى اقتصر طموحه فى حركته عليها فى استقاء العون منها .

حركة الدوائر الثلاث

بين التوافق والتعارض

يرتكز الامن الوطنى المصرى الى الولاء المطلق للدائرة الوطنية ومصالحها هى المعيار الحاكم لاي تحرك على دوائر السياسة الخارجية ؛ وبرغم الالتقاء الطبيعى والتداخل بين الانتماءات المصرية الثلاثة الوطنى والقومى العربى والاسلامى ، فإن التقاء الدائرة الوطنية بالدائرة الافريقية لا يرقى لنفس درجة التقائها بالدائرتين الاخرتين ؛ ورغم ان هذه الانتماءات القومى العربى الاسلامى تصب فى الدائرة الوطنية ، الا ان هذا لم يمنع وجود تضارب بينها ، اذا ما تطرف الولاء لاحدى الدوائر على نحو يتناقض ومصلحة دائرة اخرى او على حسابها ، ومن الطبيعى ان يكون هناك توافق وتعارض فى الحركة ازاء أطر مختلفة المضمون تبعا لتوافق او تعارض مبادئها وتباين اهدافها وطبيعتها .

ويجئ التناقض مع خصوصية رؤى كل طرف من اطراف الدائرة لقضاياها التى فى ظلها يُعيد ترتيب اولوياته من منطلق خصوصية منظوره واهدافه ، فكل دائرة تسعى لفرض ارادتها المنفردة فى الحركة داخل نطاقها بما يتفق مع خصوصية اهدافها دون ان تعبأ بأى منظور غريب عنها يتطفل عليها من محيط دائرة أخرى، فالعروبة بعالمها العلمانى بأطيافه وطوائفه المختلفة تتعارض مع يمين تيار الاسلام السياسى الذى يتجاوز ولانه حدود الوطن ليستبدله بولاء فوق وطنى يتجاوز دائرة العروبة فى حدودها الجغرافية الى حدود جغرافية اوسع ومختلفة عرقيا ولغويا وان كانت تتحد معه فى العقيدة .

والتركيز على العروبة كعنصر غالب فى الدائرة العربية يجعلها تتجاوز البعد الدينى لتعارضه مع الاعتبار القومى فى ظل تعددية العقائد ؛ ومسألة الوحدة العربية الغالبة فى دائرتها اثارت حساسية قادة افريقيا (من غير المسلمين) المنادين بوحدة الكيان الافريقى (باعتبارها متطفلة على الدائرة الافريقية) ، فنكروا المنادى بوحدة افريقية الشاملة فى صورة حكومة واحدة وجيش واحد على المستوى القارى تخوف من اهدار دعوته على يد فكرة الوحدة العربية عندما قامت تبشير المد العربى بالوحدة بين مصر وسوريا لتناقض الفكرتين وعدم امكانية الدمج بينهما الا بتخلى الطرف المعنى عن احداها لصالح الاخرى .

وإدارة هذه التناقضات هو محك النجاح فى العمل على هذه الدوائر وهذا يقتضى اما تحييدها او تفعيل نقاط التوافق ، أو وضع ضوابط على الحركة فى دائرة معينة لصالح اهداف الحركة على دائرة اخرى بما لا يمسح فى الوقت نفسه اهداف حركته فى الدائرة الاصلية وان كان يحد منها او يجمدها مؤقتا حتى لا يستثير الامر التوتر ، وادراكا لكوانم التناقض عملت السياسة الخارجية على ضبط حركتها طبقا للمتغيرات السياسية ؛ فتجاوزت بعض الابعاد فى حركتها على دائرة لصالح دائرة اخرى ، فالانتماء العربى لم ينسخ فى اى وقت التوجه الافريقى ولم يستثمر تناقضا معه وإنما جمعها معا وحدة النضال ضد الاستعمار والعنصرية .

فالانتصار على الاستعمار فى دائرة يعنى اضعافه فى الدائرة الاخرى ؛ ولذا لم تجد الثورة صعوبة فى التوفيق بين الانتمائين فى تلك المرحلة التى استدعت المصالح المشتركة تعاوننا عربيا افريقيا لدعم قضايا كل لآخر فى تضامن اقتضته ضرورات الامن واستراتيجيات العالمين العربى والافريقى بينما كان التعاون الافريقى الاسرائيلى فى الستينيات من القرن الماضى يستثير التوتر على الدائرة الافريقية وينعكس على الدائرة العربية ؛ كما ان التركيز على العامل الافريقى فى دائرته يجعلها تتجاوز البعد الدينى لتعارضه مع الاعتبار القومى فى ظل تعددية العقائد حتى لا تستثير عداوات .

وهو ما ينطبق فى الحركة على الدائرة الافريقية فى نطاقها غير الاسلامى ؛ فاذا كانت مصر لاعتبارات القومية تجاوزت البعد الدينى فى دائرتها العربية الاصلية رغم عدم استنارته تناقضا لاغلبيته المسلمة الكاسحة ؛ فكان من المنطقى عليها ان تتجاوزها ايضا فى القارة الافريقية وهى ما زالت تعيش بعد الاستقلال مباشرة آثار التغريب المعادى للاسلام والعرب وكان هذا جليا عند تحديد مصر موقفها من الطموحات القومية لعرب كينيا وزنجبار فى الاستقلال فقدمت الاعتبار الافريقى على العربى والاسلامى حتى لا يحدث شرخ فى التماسك الافريقى فى المعركة مع الاستعمار .

وليس من الضروري ان يعنى ترتيب الدوائر فى شكل متعاقب ان تكون هناك مسافات فاصلة بين الواحدة والاخرى ؛ فقد تضيق المسافات لتتداخل بدرجات متفاوتة حتى ينتهى بالتطابق الكامل والاندماج فتصبح الدائرتان او الثلاث وكأنها دائرة واحدة بطبقات متعددة .

ومع تزايد درجة التطابق تقل فرص التناقض ؛ فالدائرة الاسلامية على سبيل المثال تحتضن الدائرة العربية تماما بدون تناقض يُذكر ، وتضم معها الدول الاسلامية فى افريقيا جنوب الصحراء وفى آسيا ، فتتداخل بذلك دوائر الحركة المصرية الثلاث ، فالدول المسلمة جنوب الصحراء لا حساسة لديها من العروبة التى تجمعها الاخوة الاسلامية ؛ بل انها ترى فى نفسها شريك اصيل فى قضايا هذه الدائرة ؛ اما بالنسبة للدول الافريقية الاخرى ذات الكتل الاسلامية فيتوقف التطابق على مدى رد فعل هذه الدول تجاه دائرة أو اخرى من دوائر السياسة المصرية التى لا تنتمى اليها هذه الدولة .

ضوابط الحركة على الدائرة الاسلامية

فى افريقيا

اوجز محمد فايق وزير الدولة للشئون الافريقية فى عهد عبد الناصر سياسة ثورة مصر الافريقية بقوله " ان مصر رغم ادراكها لاهمية انتشار الاسلام وامكانية استغلاله فى دعم العلاقات المصرية / الافريقية والعربية / الافريقية ايضا ؛ إلا أنها حرصت على ان تُبقى علاقتها التى توطدت بسرعة مع الطرق الصوفية ومشايخ الاسلام وجمعياته المختلفة فى افريقيا فى نطاقها الدينى والثقافى فقط ؛ وابتقتها بعيدة تماما عن أى شكل سياسى ، كما نأت بنفسها عن إقامة تكتلات من الدول الاسلامية فى القارة حتى لا تضيف تقسيمات جديدة تركز على اسس دينية الى جانب تقسيمات اخرى كثيرة فُرضت على القارة ، وكان الهدف الا تنشغل الدول حديثة الاستقلال بمثل هذه التقسيمات الجديدة عن عدوها الحقيقى وهو الاستعمار .

ويستطرد سيادته فيقول ؛ كما امتنعت مصر كلية عن مساعدة أى فكرة انفصالية لاقامة دويلات مسلمة مثل محاولة البعض فى شرق افريقيا المطالبة باستقلال ساحل كينيا المسلم الذى حكمه العرب حتى استقلال البلاد عام 1964 ؛ بل إنها أيدت إقامة دولة تنزانيا باتحاد زنجبار المسلمة والعربية الثقافة مع تنجانيقا الافريقية " (331) ؛ وكان البعض يرى فى هذا الاتحاد مقتل دولة اسلامية فى زنجبار التى كان اهلها يتطلعون للوحدة مع مصر الناصرية فى تلك الفترة " (332) .

وبرر سيادته تأييد مصر لقيام الاتحاد التنزانى بأن هذا الاتحاد يزيد من تأثير المسلمين فى شرق افريقيا ويجنبهم كثيرا من الحساسيات التى تتولد عن أنشاء دويلات اسلامية وينفى عنهم إتهامات التعصب الدينى ، وعن رفض مصر رغبة زنجبار فى الانضمام اليها آنذاك ذكر " أن الثورة رأت فى ذلك محاولة تفتقر للمنطق والنظرة الاستراتيجية " ؛ وعن المذابح التى تعرض لها شعب زنجبار التى راح ضحيتها 20 ألفا يقول " ان الامر فى حقيقته كان ثورة اجتماعية ضد أوضاع معينة " .

كانت الثورة مماثلة لثورة مصر فهى اشتراكية ضد الغرب متحالفة مع الشرق ، وزعت الاراضى على الشعب وقدمت خدمات اشتراكية عديدة لكنها ضد العرب . وهذه نقطة تحتاج تحليل اكثر سنعرض لتفصيلاتها فى تعرضنا لزنجبار، وعن إتهام البعض مصر بغض الطرف عن تلك المذابح ذكر " ان مصر قامت بمعالجة المسألة بالتدخل لوقف اراقه الدماء والحفاظ على سلامة الساسة القداماء الذين كانوا يرتبطون بمصر ، و اضاف انه من منطلق هذا الفكر لم تؤيد مصر انفصال اريتريا عن الحبشة ولكنها ساعدت الشعب الاريترى فى مقاومة طغيان هيلاسلاسى الذى تنصل من النظام الفيدرالى الذى اقترته الامم المتحدة كشرط لانضمام اريتريا الى الحبشة .

³³¹ تتكون زنجبار من جزيرتا زنجبار وبمبا وتبعدا عن شاطئ إفريقيا الشرقى 25 ميلا فى مقابلة تنجانيقا وهى ارض عربية إسلامية استوطنها العرب منذ قرون ، ومنها نشروا الإسلام فى كثير من بلاد إفريقيا. ويبلغ عدد سكانها 300 ألف نسمة، معظمهم من المسلمين ، استقلت عن الاستعمار البريطانى عام 1963م ؛ ورفضت حكومتها استقبال وزيرة خارجية اسرائيل جولدا مائير - التى أصبحت رئيسة وزراء إسرائيل فيما بعد - عند زيارتها دول إفريقيا الشرقية لإقامة علاقات دبلوماسية مع تلك البلاد ، قام عبيد كرومي بالتعاون مع نيريري بالاستيلاء على السلطة ثم قام بضم زنجبار إلى تنجانيقا فى دولة جديدة بإسم تنزانيا برئاسة القس نيريري ، وفى عام 1964م دبر كرومي بمساعدة نيريري مذبحة للمسلمين راح ضحيتها أكثر من خمسة عشر ألف مسلم فى يوم واحد لوقوفهم فى وجه المد الماركسى .

³³² (ندوة العرب وإفريقيا ؛ ثورة بوليو وإفريقيا ص 128 و 105 و 110 و 145 و 146 - إصدارات مركز دراسات الوحدة العربية .

وذكر محمد فايق ان عبد الناصر عندما فكر في عرض قضية فلسطين على افريقيا تساعل من اى مُنطلق يعرضها الافريقى أم الاسلامى ، ورفض نصيحة بعض زعماء القارة المسلمين وعلى رأسهم أحمدو بللو زعيم نيجيريا بعرضها كقضية إسلامية حتى لا يقتصر التأييد على مسلمى القارة فقط ؛ واصر على عرضها كقضية افريقية تتعلق بالاستعمار الاستيطانى والتفرقة العنصرية ليشمن تأييد افريقيا كلها باعتبارها ادرى القارات بهذا اللون من الاستعمار.

وطبقا لأحكام السياسة أنفة الذكر وضوابطها أصبح التحرك المصرى فى الدائرة الاسلامية يقتصر بنص صريح على حماية التراث والتعاون بين المسلمين بالدرجة الاولى ؛ ولم تحاول مصر فى اى فترة استغلال الاسلام سياسيا بل وصل بها الامر لان تدعو فى تحركها بافريقيا بالتحذير من اتجاهات بعض الدول الاسلامية لتسييس الدعوة لكسب تأييد مسلمى افريقيا لوجهة نظر او طرف اسلامى ضد الآخر ، وهى نظره تستهدف حماية المسلمين انفسهم من مخاطر التحزب .

ولم تحُد تلك الضوابط من تعاطف مصر الاخوى مع الدول المسلمة جنوب الصحراء ، فأخذت جانب الصومال فى صراعا مع اثيوبيا الامبراطورية رغم الاهمية التى تشكلها الاخيرة بالنسبة لمياة النيل ، فلم تمنعها من خدمة الدعوة ولا اقامة علاقات متميزة مع القيادات الاسلامية بافريقيا ، ومما سهل الامر أن قيادات القارة جميعا الا اقل القليل (بصرف النظر عن إنتماءاتهم العقيدية) لم يكن لديها فى اى وقت حساسية ضد الاسلام ، بينما كانوا يتعاونون حول قضايا الدائرة الاسلامية فى المحافل الدولية.

وإجمالا للقول فرغم الموقع المتأخر للدائرة الإسلامية فى وثائق الثورة على اساس عملى باعتبارها موروث عاطفى ، إلا أن الممارسة الفعلية أثبتت قوة هذا الجانب الاسلامى فى معظم الاحيان ، فالجانب العاطفى اقوى جوانب العلاقات الانسانية ، يطغى فى كل الاحوال على الجانب العقلى والعملى فى معظم الاحيان ؛ فالعاطفة عمليا لها تأثير قوى على التكوين النفسى والفكرى للعلاقات بشكل عام ، فعلى سبيل المثال لم تتراجع الدول الاسلامية فى افريقيا و آسيا عن موقفها الرافض لإسرائيل لحقب طويلة جدا رغم إغراءات وضغوط الغرب الهائلة ، وتأسس هذا الرفض الجماعى بتأثير هذا الدافع العاطفى الذى يحتشد خلفه القوى الهائلة للرأى العام ، وهو نفس ما حدث فى الحروب الصليبية عندما حشدت الكنيسة خلفها جموع الاوروبيين ضد الاسلام سواء بوعى ام بدونه .

وبرغم المكانة الكبيرة التى يحتلها الدين لدى العامة والمؤمنين لتأثيره العميق على سلوكهم الفردى ؛ الا انه فى الحقيقة ليس بالعنصر الغالب فى تحريك العلاقات بين الدول ؛ فالإيمان بُعد عاطفى وليس بُعد مصالح ؛ لا يمكنه ان يكون البعد المسيطر فى ادارة العلاقات انما يقوم بدور داعم تكميليا بالدرجة الاولى ، يفرض نوع من التميز والتمايز فى العلاقة إذا ما تعاملنا مع دولة إسلامية ، فمصر افريقية فى علاقتها مع افريقيا اولا وبعدها يبرز الدين حسب مقتضى الموقف وطبيعة القضية أو طرف العلاقة الآخر .

والدين كظاهرة عامة لم يكن بالعنصر الغالب فى حركة مصر الخارجية فى اى من مراحل تاريخها ؛ فاولوية الامن القومى بقيت هى الغالبة ؛ فحروب صلاح الدين لاستتصال شأفة الوجود الصليبي بالمنطقة ومن بعده صرخة قُطز " وا اسلاما " فى مواجهة المغول ما كانتا الا دفاعا عن الامن القومى لدولهما ، قبل ان تكونا دفاعا عن الدين الذى أُستخدم نداءا للتعينة والمقاومة .

ولو كان الدين اسبق على الامن القومى ، لهما وبادرا وما تأخرا فى نجدة الدول الاسلامية الافلة فى الاطراف البعيدة، وهى تحتضر تحت ضربات جحافل الاعداء ، فدولة المماليك تركت الخطر المغولى يعصف بدول الاسلام وهو فى طريقه اليها حتى اصبح الخطر قاب قوسين او ادنى من امنها القومى وفى جوارها المباشر ، فقطز لم يتحرك لنجدة ممالك الاسلام فى التخوم البعيدة لصد هجمات المغول الكاسحة قبل ان يدقوا باب مصر نفسها ويصبح الخطر داهما لا محالة قاب قوسين أو أدنى من امنها القومى ، فتحرك فى اللحظات الاخيرة وهو فى خطر اكيد .

ونتائج معارك اللحظات الاخيرة كارثية ففيها مصير الدول يكون على المحك الاخير لا فرصة بعدها وفى مهبط العاصفة ، وماذا يتصور التاريخ لو انهزم المماليك فى عين جالوت ، وماذا لو سارعت مصر والدولة العثمانية بالانتفاض للفظائع الاسبانية التى إنهالت على مُسلمى الاندلس .

وصلاح الدين الذى خرج ليستأصل شأفة الصليبيين من الشام ، نفث فيهم الحياة بعد ان كانوا قد اختنقوا عندما تصالح معهم وأعاد لهم يافا ، وخليفته الملك الكامل ملك مصر إستخدم ورقة الصليبيين فى صراعه مع اخيه المعظم عيسى سلطان سوريا ، فهادن فريدرك الثانى امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، قبل وصوله الى الشام ؛ وفاجأ الجميع مسلمين وصليبيين بالتخلى

طواعية عن القدس اليه ؛ رغم موت اخيه وانتفاء الغرض من تهادنه مع فريدرك الذى دخلها في مارس 1229 دون مقابل (333) .

وفى التاريخ الحديث غلب محمد على المصالح الذاتية على الدين ؛ فعندما ساءت علاقة فرنسا بالجزائر عام 1819 وحاصر اسطولها الجزائر 3 سنوات ، اثر مشاحنة صفع فيها حاكم الجزائر القنصل الفرنسى لرفض فرنسا سداد قيمة القمح الجزائرى الذى اشترته بالاجل ايام الحصار القارى عليها .

توجهت فرنسا الى محمد على ليقوم بحملة لتأديب الجزائر مقابل 20 مليون فرنك وأربع قطع بحرية ، ووافق الرجل وأرسل ليستأذن الباب العالى مقابل جزية للسلطان عن الجزائر ، ولكن انجلترا التى كانت تخشى من تعاظم القوة البحرية لمحمد على فى المتوسط وإتساع نفوذه ، نصحت السلطان بالرفض ولما علم محمد على بموقف انجلترا التى كان يعول على رضائها لدعم مشروعاته التوسعية فى الشام ، اعتذر لفرنسا مبررا موقفة بخشيته من غضبة العالم الاسلامى !! أى عالم اسلامى هذا الذى يخشاه الرجل وهو الذى حارب الخليفة العثمانى خليفة المسلمين ذاته .

وفى عهد الثورة قدمت مصر الاعتبار الافريقى على الاعتبارين العربى والاسلامى عند تحديد موقفها من الطموحات القومية لعرب كينيا وزنجبار فى الاستقلال حتى لا يحدث شرخ فى التماسك الافريقى فى المعركة مع الاستعمار كما اسلفنا .

³³³ المرجع :

Chronicles of the Crusades ;P 258 – 261 ; by Elizabeth Hallam .

الفصل الرابع اجهزة خدمة البعد الاسلامى فى السياسة الخارجية المصرية

تقوم عدة مؤسسات اصيلة على خدمة البعد الاسلامى على رأسها الازهر الشريف ومعه وزاره الاوقاف والمجلس الاعلى للشئون الاسلامية وتساهم بعض الاجهزة الفنية بطريق مباشر أو غير مباشر فى خدمة هذا البعد لوقوعه بين أهدافها العامة مثل الاذاعه الموجهه الى افريقيا و المؤسسات الاقليمية والمنظمات الاسلامية التي تساهم فيها مصر .

وهذه المؤسسات هي :
أولا مؤسسات مصرية

(1) الازهر الشريف

وهو اعرق مؤسسات خدمة الدعوة والثقافة الاسلامية ؛ ولسنا فى حاجة للتذكير بتاريخ الجامع العتيق فى حمايه التراث ونشره فى ارجاء العالم ، ودور الازهر فى افريقيا موغل فى القدم فدعائه ومعلميه لم ينقطعوا عن القيام بدورهم فى القارة فى احلك الظروف ، ولم يعدم مسلموها بدورهم الوسيلة للحضور للدراسة بالازهر فى كل الاوقات متجاوزين محاولات الاستعمار عزلهم عن منارات العلم فى الشمال.

وفى بداية الخمسينات بادر الازهر على نحو غير مسبوق بالاتصال بالشعوب الاسلامية فى القارة فقام د . الفحام شيخ الازهر بزياره عدة دول افريقية للتعرف على احتياجاتها لاعداد خطة مساعدتها ، وفى زيارته نيجيريا عاملته السلطات الاستعمارية بعنت ووقاحة وقيدت من تحركه وأرغمته على مغادره البلاد .

وادراكا من الثورة لاهمية الازهر الشريف ، قامت بتطويره فأعادت تنظيمه بالقانون 103 لسنة 1961 " ليكون جامعة المسلمين فى كل بلد " حسبما نص القانون ؛ فتم تحديث كلياته وأضافت الى مناهجه أفرع العلم الحديث ، فأنشأت كليات العلوم التطبيقية كالهندسه والطب الخ ؛ كما جرى تطوير مجمع البحوث الاسلامية فانضم اليه اعضاء متخصصون فى سائر الدراسات ومن سائر الاقطار .

ويقدم الازهر للدول الافريقية ، المبعوثين والمنح بالاضافة لتدريب الدعاة المحليين ، نتناولها على النحو التالى :

* المبعوثون

يتمتع مبعوث الازهر بمكانة عظيمة لدى المسلمين فى كل مكان بحكم مكانتهم الدينية وعلمهم وانتانهم الى الازهر ؛ وهؤلاء الاجلاء لا يؤخذ عليهم سوى ضعف مستوى لغاتهم الاجنبية وانعدام الالمام باللغات المحلية ؛ واللغة اداة التواصل وعنصر إنجاح الدعوة ، ولم يعدم المسلمون فى افريقيا الوسيلة للتغلب على مشكلة التواصل مع مبعوثى الازهر فدائما هناك من يعرف العربية من المحليين الذين تعلموا فى الازهر او الدارسين بالمدارس الاسلامية الذين يقومون باعمال الترجمة والتواصل فى المراحل الاولى حتى يلم المبعوث بإحتياجاته من اللغة المحلية .

وهناك نماذج عظيمة من المبعوثين تركوا الخدمة فى الازهر بعد انقضاء مهمتهم الرسمية واستقروا فى القارة بدافع الايمان لخدمة الدعوة ، واقاموا برامج لتطوير المجتمع على نحو ما يقوم به التبشير و ما يعوزهم بالحاح هو الموارد المالية التي تعينهم على ذلك فما يتحصلون عليه من بعض الدول الاسلامية لا يكاد يكفى كما ان الدولة الحاضنة لا تهتم بدعمهم رغم ان ما يقومون به جزء من مسئوليتها وواجبها .

ويؤخذ على قلة من المبعوثين ، إنتقادهم مثابرة وصبر المبشرين فى تحمل شظف العيش بمناطق المسلمين الفقيرة او النائية التي تفتقد لوسائل الحياة المناسبة ، ولمعالجة ذلك يجب اعادة تقويم مناهج اعداد الدعاة ليكونوا مؤهلين نفسيا ولغويا وعمليا للعمل فى مناطق صعبة البيئة وتعريفهم بطبيعة المجتمعات التي سيعملون بينها ، وتوعيتهم بالمهمة الجليلة الموكلة اليهم فى خدمة الاقليات المسلمة التي دائما ما تكون مناطقهم اشد تخلفا وصعوبة معيشيا .

وهذا يقتضى اعداد فئات خاصة من الدعاة لهذا الغرض وتعزيز وضعهم المالى لتمكينهم من توفير اسباب معيشة مناسبة لداعية له قرناء من دول اخرى يقتلون عنه علما ويبدونه ماديا.

* تدريب الدعاة والائمة المحليين

تحملت شعوب القارة فى معظم الاوقات عبء الدعوة ؛ فهى اقدر من غيرها للقيام بهذه المهمة ، يسهل لها الامر ونجاحه الانتماء الاصيل الى المنطقة وحديثهم لغتها و علمهم بطبيعة شعوبهم وسبل التعامل معها ويعرفون مداخل التأثير والاقتناع ، ولاقتناع الازهر بهذا المنطق فقد أعد دورات لتدريب الدعاة المحليين مدتها ثلاث اشهر على مدى 4 دورات فى العام يتخرج منها فى المتوسط اربعمئة داعية سنويا لكل مناطق المسلمين ، بلغ نصيب افريقيا منها حوالى 40% فى المتوسط قياسا على احصائيات الثمانينيات ، ومن المفيد أن يتوسع الازهر فى هذه الدورات على ان تكون على الارض الافريقية بما يسمح بتدريب اعداد اكبر بتكاليف اقل لتجاوز الاعباء على ميزانيته من احضارهم هنا وتكاليف اسكانهم .

* المنح الدراسية

يُخصص الازهر سنويا عدد من المنح لمسلمى العالم ؛ لافريقيا نصيب منها ، ومشكلة افريقيا الرئيسية هى محدودية استفادة الاقليات المسلمة بها فقد وصلت نسبة اشغالها فى الثمانينات بالنسبة لافريقيا 40% ، بينما وصلت هذه النسبة فى أسيا الى 100% تقريبا ؛ ويرجع السبب فى ضعف استفادة افريقيا بها الى بعض المسائل الاجرائية تقع مسئوليتها على الازهر من ناحية وسلطات الدولة الافريقية من ناحية اخرى ، مثل تأخر وصول المنشور الخاص بالمنح المقرره للبعثات والذي يصل فى بعض الاحيان بعد بدء الدراسة فى الازهر ، الامر الذى يجعل من الصعب اخطار الجمعيات والمدارس الاسلامية بها فى وقت يتناسب وبدء الدراسة فى بلاد تعاني من سوء وصعوبة الاتصال البريدى والبرقى ان كانت هناك أصلا فرصة لاتمامها .

يُضاف الى ذلك الصعوبات الادارية والمالية التى يواجهها المرشح لاشغال المنحة ، فى توفير المستندات المطلوبه فى وقت مناسب لموافاه الازهر بها فى الوقت المقرر ، فمعظم المرشحون هم من فقراء المسلمون ولا تتوفر لديهم موارد مالية لاعداد الاوراق او استخراج جوازات السفر كما ان تخوفهم من عدم توفر السكن فى مدينة البعوث بالقاهرة وعدم كفاية البديل النقدي لتوفير سكن خارج المدينة ، يجعلهم يعزفون عن المنح لعدم كفاية مواردهم المالية ، والمطلوب تقديم الدولة المانحة مخصص كاف لتغطية نفقات مستندات السفر وتبدير الإقامة خارج مدينة البعوث .

وتساهم تعقيدات الادارية فى دول الاقليات المسلمة الافريقية بتبديد الفرص لعدم الاهتمام بشئون المسلمين ، اذا ما فُوضت السفارة الادارة المحلية للدولة ترشيح الدارسين ، فهى اما لا تولى الامر عناية كافية وهو ما يحدث فى معظم الاحوال لعدم اهتمامها بهذا النوع من المنح ، او لعدم حرصها على استفادة المسلمين بها ، كما ان بعض المرشحين لا يُقبل على المنح لرغبته فى الحصول على دراسات عملية بالكليات التطبيقية التى تفتح امامهم فرص الترقى والازدهار الاجتماعى والاقتصادى .

(2) المجلس الاعلى للشئون الاسلامية

أنشأت الثورة عام 1958 " ادارة الاتصال بالشعوب الاسلامية " لتحقيق هذا الغرض بعيدا عن القيود الرسمية وانعكاساتها السياسية ؛ وتغير اسم الادارة الى " المجلس الاعلى للشئون الاسلامي " بالقرار رقم 20 لسنة 1960 ، مجملا أهداف المجلس فى التعريف بالاسلام فى الداخل والخارج وتنمية العلاقات بين الشعوب الاسلامية واحياء التراث والدعوة وبث الوعى الدينى .

وقد قام المجلس بدوره خير قيام حتى عام 1967 ، وكان يُعد الجهاز الاول المعنى بخدمة البُعد الاسلامى لسياسة مصر ، لكن للأسف تقلص نشاطه بدون سبب مفهوم ، وينحصر نشاط المجلس فى تقديم المنح الدراسيه بالجامعات ، وترجمة وتوزيع كتب التراث بعدة لغات عالمية ومحلية ؛ وإقامه المعسكرات الدولية لشباب المسلمين واعداد والمؤتمرات الاسلامية ، ويتبع المجلس وزاره الاوقاف التى تساهم هى ايضا بذاتها فى العمل الاسلامى بتقديم اعانات لبناء المدارس والمساجد وتقديم بعض معلى اللغة العربية فى بعض بلدان القارة على نطاق ضيق.

(3) الاذاعة الموجهة

وهى من اقوى الاجهزة التى استخدمتها مصر فى الخمسينات لافتحام القارة ؛ حيث كانت تصل برامجها كل مكان دون قيود

، وتُعد أولى وسائل العمل المصرى فى توجيه رأى العام الأفريقى فقد بدأت نشاطها عام 1954 لخدمة حركة التحرير الأفريقية ، اتساقا مع فلسفة الثورة للعمل ضد الاستعمار فى القارة ، وكان للإذاعة الموجهة إسهاماتها الجليلة ليس فقط فى مكافحة الاستعمار وإنما أيضا فى خدمة الدعوة الإسلامية ، وكانت البداية باللغة السواحلية ثم اتسع عدد اللغات ليصل الى 14 لغة ولهجة بخلاف اللغات الثلاث العالمية العربية - الإنجليزية - الفرنسية .

وفى عام 1987 ، بدأ الاهتمام يتزايد بالبرامج الدينية ، فأصبحت تمثل 13 % من جملة المواد المذاعة ؛ وفى العصر الحاضر تفوقت الفضائيات على الاذاعات وهو ما يتطلب تطوير الاذاعة باستخدام القنوات الفضائية المذاعة والمرئية .
وحاليا تبث الإذاعة المصرية الموجهة برامجهما الى افريقيا بسبع عشرة اذاعة تبث 24 ساعة و 15 دقيقة يوميا منها خمس لغات وطنية الى غرب أفريقيا هي (الهاوسا - الفولانية - اليوريا - اليمبرة - الاولوف) اضافة الى الإنجليزية والفرنسية والعربية، وأربع لغات وطنية الى شرق أفريقيا هي (السواحلي - الأمهري - الصومالي - العفرى) إضافة إلى اللغة الإنجليزية ، وبأربع لغات وطنية الى سط وجنوب أفريقيا هي (اللينجالا - الشونا - الاندبيلي - الزولو) .

(4) الصندوق المصرى للتعاون الفنى مع افريقيا

أنشئ الصندوق عام 1980 ، فى قلب وزارة الخارجية ، لخدمة البعد الأفريقى بما يقدمه من خبراء ومنح ومعونات فنية لمشروعات التنمية الاقتصادية - الاجتماعية - الثقافية ؛ ويقدم الصندوق أعداد من مدرسى اللغة العربية خريجي الجامعات يتحدثون الإنجليزية للعمل ببعض المدارس الإسلامية ومعاهد اللغات بخلاف بعض المنح ، ودور الصندوق فى خدمة البعد الإسلامى محدود باعتباره نشاطا غير اصيل يتم فى اطار افريقى مرن قد يقدم بعض الاطباء لمناطق المسلمين او خبراء الزراعة .

ثانيا - مؤسسات العمل المشترك (المنظمات الاقليمية النوعية)

تسهم مصر فى خدمة الدائرة الإسلامية عبر المنظمات الاقليمية والنوعية ، فهى كعضو فى منظمة المؤتمر الإسلامى تخدم الثقافة الإسلامية من خلال منظماتها للثقافة الإيسيسكو (المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ISESCO) ، وهذه المنظمة نظمت العديد من الندوات فى أفريقيا لخدمة هذا الغرض ؛ و تبنت خطة بدأت 1985 لاعادة كتابة اللغات الأفريقية لاصلها بالخط العربى لتمكين هذه الشعوب من الاطلاع على تراثها المكتوب بهذا الخط لتعزيز وعيها الدينى ؛ وقد نجحت المنظمة فى إعادة كتابة 17 لغة افريقية بالخط العربى منها لغات الهوسا واليوربا والفولانى والولوف التى كانت تكتب فى الاصل بالحرف العربى حتى القرن 15 .

ويُعتبر هذا خطوة ايجابية على طريق احياء التراث الإسلامى الأفريقى فهذه اللغات واسعة الانتشار ومتأثرة باللغة العربية ، فالهوسا اكبر اللغات انتشارا جنوب الصحراء وأولى اللغات التواصلية فى غرب إفريقيا يتحدث بها أكثر من ثمانين مليون نسمة ، كثير منهم ينتمون عرقياً إلى قبائل أخرى من غير الهوسا ، وهى لغة اذاعية وتصدر بها صحف فى نيجيريا .
ولغة " الولوف " تنتشر فى موريتانيا والسنغال وجامبيا وتذاع بها برامج افريقية تمثل 88% من المساحة الزمنية الموجهة لهذه الدول ؛ والسوننكى لغة متداولة فى النيجر والكونغو ومالى والسنغال وجامبيا ، ولغتا " الصنغاي " و " ذرما " من اكثر اللغات الأفريقية تأثراً بالعربية ؛ ومن الجهود المحمودة وضع ابدية للغات القمرية التى يتحدث بها سكان جزر القمر (334) .
قامت الإيسيسكو بتوقيع عدة اتفاقيات مع عدد من الدول الأفريقية منذ عام 1984 ، لادخال اللغة العربية فى العديد من المراحل التعليمية هى مالى والسنغال والنيجر ونيجيريا (335) ، وساهمت برصيد كبير فى اقامة المركز الدولى لحضارة البانتو " سيسيبيا " فى الجابون ، وقدمت له " أخصائيين لتدريس اللغة العربية فى اطار اتفاق اسلام آباد عام 1975 ؛ وأهمية تأسيس

334 (المرجع : ندوة افريقيا والثقافة العربية - إصدارات منظمة الإيسيسكو؛ والعلاقات الثقافية بين افريقيا والعرب ص 502 - محيي الدين صابر- و التعاون الثقافى العربى الأفريقى ص 81 - ثيوفيل اوبنغا ؛ إصدارات مركز المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة " ايسيسكو" مجموعة بحوث عن افريقيا والثقافة العربية الإسلامية .

المركز تعكس التوجه لاستخدام المراكز العلمية المتخصصة والتحليل العلمى للتقريب بين ثقافات وشعوب القارة لدحض المفاهيم الخاطئة ضد الاسلام ، التى روج لها المستعمر خلال تواجده بالقارة ، ويجرى المركز تحليلات للصلات القديمة بين البانتو والعالم الاسلامى ؛ تحليلًا علميًا قيمًا .

وفى اطار التعاون العربى الافريقى تم اعداد مشروع لانشاء المعهد العربى - الافريقى لاجراء بحوث تاريخية واجتماعية حول جذور التراث المشترك ، غنى بتصحيح صورة العرب المغلوطة التى بثتها الدراسات الاستشراقية لتخريب جذور الالتقاء ؛ كما ان هناك أيضا خططًا لانشاء معاهد للمعلمين وتقديم منح ، لاهياء التراث الاسلامى (336) .

وساهمت مصر فى نشاط " الايسيسكو " باتفاق مع الصندوق المصرى للتعاون مع افريقيا بتاريخ 1985/9/9 ، تقوم بمقتضاه بأبتعاث خبراء فى مجال التربية والثقافة للعمل فى الدول الافريقية الاعضاء على ان يتحمل الصندوق مرتباتهم ، هذا بخلاف التنسيق فى مجال الاداعه الموجهة طبقا لما تم الاتفاق عليه فى مايو 1970 بمؤتمر بالقاهرة لخدمه الثقافه الاسلاميه الذى حضرته مصر ، ليبيا ، السودان ، وساهمت فيه كل من الجزائر ، المغرب ، فلسطين ، اليمن كمراقبين ، وللاسف لم ينعقد مره اخرى ، وهناك ايضا منظمه المدن العربيه والاسلاميه ، التى تضم عددا من دول افريقيا .

³³⁶ (المرجع السابق ص 387 نظرة افريقيا للصراع العربى الاسرائيلى - مدثر عبد الرحيم .

الباب الثامن البعد الدينى فى صراعات القارة الفصل الاول

النزعة الدينية فى الصراع

ان اصطراع اتباع العقائد لا علاقة له بإصولها ، إنما هو فى حقيقته صدام " سلوكيات " تابعيها المترعة بالمصالح الذاتية الضيقة فى معظم الأحوال ، فالمذاهب ليست هى مصدر عدم التسامح والاصطراع بل الأشخاص هم مصدر كل هذا الابتلاء ، وصدام اهل العقائد لم تخلوا منه العقيدة الواحدة المسيحية أو الإسلام والتاريخ حافل بصراعات من هذا النوع ، ولما كان الاصطراع بين مذاهب العقيدة الواحدة امرا طبيعيا لاختلاف التفاسير ووجهات النظر والسعى لكسب النفوذ بين البشر ؛ فمن الطبيعى من هذا المنظور ان تكون هناك صدامات بين اهل العقائد الرئيسية .

وينقلب الامر فى مرحلة ما الى الصدام بدافع من المصالح الذاتية والمستفيدين من ورائها ولن يُعجزهم سياقة العديد من المبررات الكهنوتية لتبرير الصدام تنطلى على الجهلاء لا غيرهم ، ومتى تصاعدت المصالح وتضخمت اولوياتها يتراجع الايمان وتنشط السياسة واساليبها حتى تجد اقتتال اخوة العقيدة فيما بينهم او تحالفهم مع أتباع عقائد كانوا اعداء الامس ضد اعداء اليوم إخوانهم فى العقيدة ؛ ومن هنا فتوافق المصالح يغلب اخوة الايمان ويعطوا ، مثال محاولات " فاسيليدس " ملك الحبشة بتحالفه مع اليمى عام 1840م ، لدفع خطر التبشير الكاثوليكي الذى إستشرى فى بلاده بضغط النفوذ البرتغالى ، ناهيك عما يتضمنه تاريخ الأندلس والحروب الصليبية من أمثلة عديدة من هذا النوع ؛ وعند الصدام يحاول طرفا أى صراع حشد عناصر القوة وشحذ أسباب التمايز وإعلاء الخصوصية لاستثارة ولاء جماهيرها وإستنفار انحيازها فى مواجهة الخصم ، واذا لم يُحسم الصراع بما يرضى يحاول كل طرف إيجاد مبرر لإستمرار الصراع وتعزيز موقفه فى مواجهة المتخاذلين بما يقطع الطريق عليهم .

والجانب الروحى من اهم عناصر القوة فى أى خصومة يستنفر الدانى والقاصى ويطيل امد الصراع وكلما طال قد تتفجر الخصومة بشحنة من التعصب والكراهية تقطر عدا و عنفا ، تزيدها اشتعالا الممارسات المنفلته الجاهلة والمتعصبة ، فتخلق بمرور الوقت حاجزا نفسيا يصير جزءا من التركيبة العامة للصراع يغيب فيها المنطق وينفتح الباب لكل ما هو منفلت ولا حدود له .

البعد الدينى فى خلفية الصراعات بالقارة

لم يشهد جنوب الصحراء قبل مجئ الإستعمار الأوروبى صراعا بين العقائد السماوية إلا ما كان فى شرق القارة منذ القرن 13 عندما إستقطب الأوروبيون الحبشة ضد الاسلام ؛ أما بقية المنطق فلم تعرف صداما من هذا النوع الا بعد وصول الاستعمار وبدء المد التبشيري .

واذا ماتقصينا أثر الدين فى خلفية الصراعات نجد للإسلام ظللاً على الفتوحات الكبرى فى غرب القارة وعلى جهاد الصوفية فى كل مكان ، كما تمثلت فى صمود المجتمعات الاسلامية فى مواجهة الاستعمار الغربى فى شرق وغرب القارة ، والمسيحية أيضا لها ظلالها فباسمها أطلق الاستعمار العنان لحملة لم يكن هدفها خالصا لوجه الله بقدر ما كانت شعارا يستر انتهازيته ؛ فالكشوف البرتغالية الاقتصادية المرمى فى الاصل اسبغت عليها مسحة دينية بالادعاء بأن هدفها استخلاص التجارة الدولية من يد المسلمين والالتحام بمملكة القس يوحنس الرابع فى الحبشة ونشر المسيحية بين وثنى ومسلمى القارة (337) ، ويسقوط قتاع الدين تكشف عن كم هائل من الكراهية واللااخلاقية والتخريب فى آن واحد ؛ فيقول دافيدسون " ليس لقدوم البرتغاليين الى القارة من نتيجة سوى أنهم حطموا فى أيام قليلة مانسجته عشرات القرون ، وكان تحطيمهم مدن الساحل الافريقى المزدهرة بوحشية وبربرية يعنى أنهم فقدوا أول مصدر من مصادر الثروة التى إندفعوا الى القارة من أجلها ؛ فإنصرفوا للبحث عن الذهب لتعويض الخسارة ولما فشلوا لم يجدوا فى النهاية إلا أن يبدأوا بقذارة متناهية عهدا من تجارة الرقيق وصممهم بالخزى والعار " .

وعلى هدى النموذج البرتغالى سارت بقية القوى الاستعمارية فاحتلت المصالح الاعتبار الاول وبقى الدين داعما فى الخلفية

³³⁷ (باسيل دافيدسون).

، ويتبين بجلاء أن تحالف الأوروبيون مع الحبشة جاء من منطلق انتهازي إستنفروا فى إطاره عوامل الاتفاق والتماثل (الدين) ، وكبحوا عناصر التنافر (العداء المذهبي) بين الكنيستين الشرقية والأوروبية ؛ وكان الدافع وراء هذا الكبح هو الرغبة المشتركة لتحقيق هدف كل منهما حسب مبتغاه) ، والحروب الصليبية طالت بالضرر الشديد مسيحيين شتى مثل ما لاقاه مسيحيو القسطنطينية على ايدى الصليبيين فى مستهل حملتهم الاولى من وحشية لدليل على الكراهية (338) ، ويشير كلود كاهن فى كتابه " الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية " الى " أن مسيحي الشرق كانوا اكثر تضررا من المسلمين من جراء الحروب الصليبية ، فهم كانوا كجيرانهم (المسلمين) أصحاب عقيدة هرطقية لايمكن التسامح معها " .

البعد الدينى والحركات الانفصالية

فى مناطق الاسلام التاريخية

عادة ماتستحوذ الاغلبية على النفوذ والتميز فى الدول ثنائية العقيدة ، وهذا حق طبيعى لايستثير حساسية أصحاب العقيدة الثانية إلا إذا اضر بحقها فى المواطنة ، وحرمان طرف من حقه الطبيعى فى المواطنة يلحق الضرر بالتوازن الداخلى ويخلق أوضاعا غير مريحة تنتهى الى تمرد الطرف المغبون وتصادمه مع بقية القطاعات الوطنية ، فيتحول الامر الى صراع بين طرفين احدهما لا يقبل بإهدار حقوقه الوطنية وهو الاقلية فى مواجهة طرف مسيطر لن يتنازل بسهولة عن اوضاع مريحة يعيشها . والاسلام سواء فى عهد الاستعمار أو الاستقلال كان الجانب الاضعف فى التوازن الوطنى فى افريقيا ، ليس فقط فى الدول ثنائية العقيدة وانما ايضا فى دول الاغلبية المسلمة ؛ وهذا الخلل جاء من جراء الاستعمار بتأثير تداعياته على قادة هذه الدول بعد الاستقلال ، وهى فى معظمها زعامات مسيحية اقامها الاستعمار فى موقع القيادة عند الاستقلال ، فقيادات هذه الدول لم تحبذ منذ البداية أن يكون الدين قوة سياسية فاعلة ، حتى لا تخسر وهى من الاقلية مكانتها المكتسبة بفضل الاستعمار فى دول الاغلبية المسلمة فأبقت على الغبن القائم على الاسلام فى التوازن الوطنى بالضغط على الهوية الاسلامية وتشويهها كما فعل العديد من هذه القيادات على نحو نذكره فيما بعد .

وكان كوامى نكروما اكثر قادة افريقيا قلقا من دفع الدين فى السياسة رغم ان غانا انذاك لم تكن مغنية فالمسلمون لم يكونوا الاغلبية فيها ، فقاوم فكرة قيام حزب إسلامى فى بلاده واعترض على فكرة الوحدة العربية التى تختزل دول افريقيا العربية من دولة الوحدة الافريقية حلمة القارى مشروع الولايات المتحدة الافريقية الذى دعى اليه فى مؤتمر منشستر عام 1945 بالبدء بتكوين اتحاد فيدرالى لغرب افريقيا كنواة للمشروع ثم نظم مؤتمرا فى اكرا عام 1958 للدول الافريقية المستقلة بما فيها دول القارة العربية للنظر فيه.

ومن مؤيدى مشروعه سكيورى (غينيا) وموديبوكيتا (مالى) بينما عارضه (السنغال) وهوافيه بوانيه (ساحل العاج) وميلتون اوبوتى ، ومجموعة برازافيل الفرنسية ومجموعة منروfia وهيلاسيلاسى وعبد الناصر ، لاقتناعهم بضرورة ان تسبق الوحدة تعاون اقتصادى ، وكان البديل امام هذه المعارضة انشاء منظمة الوحدة الافريقية التى ولدت عام 1963 بدلا من الاتحاد . ونيجيريا ذات الاغلبية البسيطة (المسلمة) اعتنقت "العلمانية" فى دستورها ، ولم تغلب هويتها الاسلامية ؛ وأكدت ذلك فى توجهها السياسى فاختزلت نشاطها فى منظمة المؤتمر الاسلامى ومجموعة الثماني الاقتصادية الاسلامية D8 الى الحد الأدنى .

338 (يقول د لوبون ارتكب الصليبيون فى بداية مسيرة الحملة الصليبية الاولى بقيادة القديس الناسك والفارس الفقير جوتيه مذابح ونهب فى بلغاريا بحجة ان البلغار ضعاف الايمان لرفضهم استضافة الصليبيين وهو ما قابله البلغار بالانتقام فقتلوا فريقا كبيرا من الصليبيين الامر الذى دفع الحملة بالجد فى المسير هربا من هجماتهم ، فلما وصلت الحملة القسطنطينية انضموا الى من سبقوهم من الصليبيين وقاموا باعمال وحشية تفوق الوصف ؛ فدفعهم البيزنطيون الى ما وراء البسفور ، وتقدر اعدادهم بمئة الفا اقتربوا من الجرائم ضد النصارى والمسلمين ما لا يصدر الا عن مجانين فكان من احب اللهو يقتل الاطفال ويقطعهم وشبههم على حد ما روته أن كومننين بنت قيصر الروم ، ويستطرد د. لوبون بأن الترك ترصدوهم كما يتصيدون الحيوانات المفترسة واقاموا من جماعهم هرما عظيما ، ويقول " نرى فى كل صفحة من مؤلفات نصارى ذلك العصر امثلة كثيرة من الوحشية يشهد عليها الراهب روبرت فى من ذبح الالاف وبقر بطون الموتى بحثا عن الذهب فى مدينتى مارات والقدس وكانت الدماء تسيل انهارا فى طرق القدس المغطاةبالجثث على مدى يومى 12 و13 ديسمبر راح فيها سنون الفا من اليهود والمسيحيون الشرقيون والمسلمين- حضارة العرب ص 323- 325 .

الفصل الثانى اهم الحركات الانفصالية بمناطق الاسلام التاريخية

الغرب الافريقى

نيجيريا

لم تكن نيجيريا بعيدة عن تأثير الدين عند الاستقلال وقيام الدولة ، فقد حاول الشمال المسلم تكوين دولة مسلمة مستقلة تضمه والنيجر على أساس الارتباط التاريخى والعرقى والجغرافى والدينى بدلا من الارتباط بالجنوب الوثنى المسيحى ؛ وفكر البعض فى الانضمام جميعا بما فيهم النيجر فى دولة واحدة يصبح المسلمون فيها اغلبيّة فى اطار الاتحاد النيجيرى وهو خيار تراجع عنه النيجيريون .

وبعد فرض النظام الفيدرالى استمر الشماليون ينظرون للوضع على أنه إستعمار جنوبى ويقوا مُصرين على الانفصال وإدعوا أن نيجيريا ليست دولة واحدة بل عدة دول تتناقض عرقيا وثقافيا وحضاريا ، وبلغ التصور الانفصالى قمته بإتقلاب وإنقلاب مضاد تعاقبا فى غضون أشهر فى عام 1966 ، كانت فيه ظلال الدين واضحة عند كلا الطرفين ؛ فالانقلاب الاول قام به الاقليم الشرقى الوثنى فى معظمه بعدما دبر مذبة لزعماء المسلمين وفرض الوحدة بالقوة كبديل للاتحاد ، والشمال (المسلم) بدوره قام بإتقلاب مضاد لينسخ نتائج الانقلاب الاول ويستعيد النظام الفيدرالى .

مالى (حركة الطوارق الانفصالية)

ينتشر الطوارق فى الصحراء وجنوبها ، ويتواجدون على ثلثا مساحة مالى ويتركزون فى شمالها ، وفى النيجر وبوركينا فاسو ؛ وعند استقلال مالى والنيجر عام 1961 دعى زعماء الطوارق فى البلدين بدعم من فرنسا الى قيام جمهورية الصحراء المستقلة لطوارق الدولتين تضم معهم العرب هناك ، وتبنى هذه الدعوة كل من الامير محمد على بن الطاهر والشيخ محمد محمود ولد الشيخ الازوانى ، ولكن موديبوكتا بمساعدة بعض شيوخ الطوارق منهم محمد المهدي بن الطاهر شقيق الامير محمد على والطاهر أق ؛ تمكن من اقناع الطوارق برفض تقسيم الصحراء على ان تمنحهم حكومتا مالى والنيجر حقوق مواطنة متساوية ، لكنه (موديبوكتا) لم يف بوعده وتركهم نهبا للاضطهاد والتهميش فتمردوا فى منطقة كيدال عام 1963 قمعتها مالى بدموية.

وازداد الامر سوءا فى عهد تراورى (1969-1991) خليفة موديبوكتا لإهماله الطوارق فى كارثة جفاف التسعينيات وقيامه بتهجيرهم والتكثيف بالالاف منهم فى جاوا وتمبكتو فى ثورتهم الثانية عام 1991، وتفاوض الطرفان فى تامنغت بجنوب الجزائر برعاية جزائرية وبضغط دولى عام 1991 ؛ مثل الطوارق فى هذه المفاوضات الجيش الثورى لتحرير ازواد والجهية الشعبية لتحرير ازواد والجهية العربية الاسلامية للازواد وانتهت المفاوضات الى اتفاقية تامنغت الاولى بوقف الاعمال الحربية وانسحاب قوات مالى من مناطق الطوارق ومنحهم حكما ذاتيا وتطوير مناطقهم واطلاق سراح المعتقلين وتعويض المتضررين وتمكين الفارين من العودة وتشكيل لجنة دولية للتحقيق فيما تعرض له الطوارق من احداث دامية ، لكن الاتفاق لقى معارضة الجيش المالى ، فقام انقلاب بقيادة توماني تورى اسقط موسى تراورى ، واتخذ تورى موقفا متشددا من الطوارق وفشلت وساطة كل من ليبيا والجزائر فاستأنف الطوارق العمل المسلح من جديد وواكب ذلك تدفق اللاجئين الى الخارج .

وفى عام 1992 عقد الطرفان اتفاقية تامنغت الثانية ، واتفقا على احياء الاتفاقية الاولى بالاضافة الى تخصيص عدد من مناصب الدولة الهامة بما فيها الجيش للطوارق ، ولكن عدم تحقيق تنمية مناطق الطوارق ادى لتمرد اتحاد جبهات ازواد فيما اسموه الثورة الثالثة فى مايو 2006 استولوا فيها على ثكنات عسكرية للجيش فى شمال البلاد للمطالبة بتنفيذ الاتفاقيات مؤكدين على عدم الرغبة فى الانفصال وطالبوا بـ 28 منصبا وزاريا وادماج 35% من الطوارق فى الجيش واتاحة فرص التعليم العالى بالخارج لهم ، ولم تنجح مصالحة يوليو 2006 فى بناء الثقة بين الطرفين ، ولم تتوقف المواجهة المسلحة بل اتسع نطاقها عندما إستنفرت مالى القوى الخارجية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية ضد المتمردين بدعوى الارهاب لتعاونهم مع القاعدة والجماعات المسلحة القادمة من الجزائر ، وفى مارس 2008 عاود الطوارق التمرد وتدخلت ليبيا والجزائر للتوصل لهدنة ، وبعد سقوط نظام القذافى وتدفق كميات هائلة من الاسلحة على الجماعات المسلحة وبالذات القاعدة تمكنت الجماعات المتشددة من السيطرة على المنطقة بشمال البلاد .

وإذا ما تتبعنا تأثير البعد الديني والقومي على هذا الصراع يبدو البعد القومي مهيمنًا ومتفوقًا على البعد الديني ، فالبعد الديني الذي جمعهما في دولة واحدة عند الاستقلال غاب وإنحسر دوره ليتقدم عليه بصورة غالبية البعد القومي ، فعدم تحقيق التوازن الوطني للقوميات مع وحدة الدين جعل القوميات المغبونة تتمرد لتحصل على حقها الكامل في المواطنة فالقومية أصبحت علامة فارقة .

شرق ووسط القارة

وقف الدين وراء دعاوى انفصال الاقليات المسلمة عن الدول التي تضمها في وسط وشرق القارة ، بينما وقف البعد القومي لحركات الانفصال الإسلامية عند تقرير مصير الانفصال بين خيارين دولة مستقلة إسلامية تضم عرقين ام الالتحام بدول قومياتها الخالصة ، فكان خيار القومية لا الدين هو العنصر الحاسم الأصيل ؛ فلم يوحد بينها الدين رغم ظلاله في الانفصال عندما اندمج ضمن مركبات القومية الشاذة في المعركة الانفصالية مع الدولة غير المسلمة ، ففي حالة تشاد كان الشمال المسلم يهدف الى المحافظة على نفوذه في التوازن الوطني باعتباره الاغلبية الاكثر تفوقا ويرغب في المحافظة على هويته " الإسلامية والعربية " ويرغب في الارتباط بعالميهما فتصدت له بقوة القيادة المسيحية الحاكمة التي تمثل اقلية في الجنوب الوثني .

وبالنسبة لحركات القومية الصومالية فقد ادمت مشكلة الشتات الصومالي قلب الصومال واهله في كينيا واثيوبيا ، ومشكلة هذا الشعب العريق المناضل الذي خضعت ارضه لسلطان زنجبار ، ان سلاطينه لم يكونوا على مستوى الزعامات الغمانية التي قهرت البرتغاليين وطردتهم من المنطقة واسست لدولة الوحدة الافريقية العربية الاولى وحكمت من يومها المنطقة ولا هي حتى على مستوى الزعماء المحليين العظماء كالمجاهد الاكبر الامام احمد الجري ، فقد كان السلاطين المنعزلون في جزيرتهم لا يدرون ما يدور حولهم وتركوا الامر لبريطانيا توجههم لما تشاء وترغب فتارة طالبتهم بضرورة رحيل الادارة المصرية عن قسمايو والمنطقة ففعلوا ورحلت مصر ، وكان امهم ان توفر لهم طاعتهم لانجلترا الحماية لانفسهم من اطماع القوى الاستعمارية الاوروبية الاخرى التي تتربص بأرضهم خاصة ايطاليا ، وبالتفاهم بين بريطانيا وايطاليا تم تقسيم ارض الصومال في غيبة السلطان او تحت نظره لا بصيرته ، ففي عام 1888 طلبت الحكومة الإيطالية من سلطان زنجبار التنازل عن نهر جوبا أو منطقة كسمايو أو ما يمكن التنازل عنه من الستين ميلاً الباقية من ساحل صوماليا التي تقع إلى الجنوب من خط الاستواء مباشرة بالشروط المعروفة التي حصلت عليها شركة ماكينون البريطانية ، لكن السلطان برغش رفض مطالب الحكومة الإيطالية بتحريض من بريطانيا ، وأمام التهديدات الصريحة من جانب الإيطاليين لجأ السلطان إلى البريطانيين يطلب الحماية، فأعلنت بريطانيا تصريحاً مناسباً جاء فيه "أننا لا نقبل استخدام العنف مع السلطان، فالسلطان تحت حماية الدولتين الألمانية والإنجليزية " ، ولكن بريطانيا غيرت موقفها بتفاهمها مع ايطاليا وتراخت في حماية السلطان الذي تراخى موقفه امام ايطاليا بالتبعية .

ثار الشعب الصومالي على الامتيازات التي يقدمها السلطان الى الاوروبيين ، وهددوا السلطان بأنهم لن يعترفوا بأمامته و لا بالامتيازات التي يمنحها للأوروبيين ، ولمردود ثورة الصوماليين على المستعمرات الإنجليزية والألمانية ، أعلنت ألمانيا تطبيق حصار بحري لساحل أفريقيا الشرقي لمنع إمتداد الثورة الصومالية أو تسرب الأسلحة الى شعب تنجانيقا ، ودعت بريطانيا الى الانضمام الى الحصار البحري لضمان وضع مستعمراتها بكينيا وإستعادة نفوذ السلطان في صوماليا من ناحية أخرى وأدركت بريطانيا أن نجاح الثورة الصومالية معناه القضاء على نفوذ السلطان وقيام اضطرابات و ثورات في المستعمرات القريبة منها وسقوط الامتيازات والاتفاقيات التي أبرمها السلطان باسم الصوماليين لصالح البريطانيين، وإقتنعت بأهمية سياسة الحصار في الحد من إمتداد الثورة الصومالية، ومنع تسرب الأسلحة الى المستعمرات، وقامت الدولتان بريطانيا و ألمانيا بدعوة إيطاليا للأشتراك في حصار السواحل الصومالية.

وتحت ضغط الحصار الاقتصادي وبريق الهدايا والوعود المعسولة بعقد معاهدات واتفاقيات مع السلاطين والشيخو المحليين باسم الحماية والمحافظة على الاستقلال ، كانت كل دولة تعمل في نطاق حصارها على أن تعقد معاهدات واتفاقيات مع سكانها من شأنها تصفية نفوذ السلطان على السواحل الصومالية وتقوية نفوذها ، وبذلك وضعت الحكومة الإيطالية يدها على النصف الشمالي من صوماليا تقريبا أثناء فترة الحصار الأوروبي للسواحل الصومالية.

تساهلت السلطات البريطانية والألمانية بالنسبة لتحركات الإيطاليين في المناطق الممتدة الى الشمال من أملاك سلطان زنجبار حتي الصومال البريطاني ، رغم أن بريطانيا وألمانيا كانتا قد سبقتا إيطاليا في عقد معاهدات وإتفاقيات مع نفس الحكام الذين حصلت منهم إيطاليا علي معاهدات جديدة ، رغم ان القانون الذي وضعته الدول الأوروبية في مؤتمر برلين عام 1885 ينص على أن الاستعمار في أي منطقة تنبته معاهدات أو إتفاقيات تعلن على الدول في منشور دوري حتي لا تقوم دولة أخرى بعمل مشابهة في نفس المنطقة.

ومن أهم هذه المعاهدات و الإتفاقيات:

معاهدة مع سلطان هوبيا - 8 فبراير 1889.

معاهدة مع مشايخ قبيلة سباخرون - 19 مارس 1889.

إتفاقية مع سلطان مجرتينيا و سلطان هوبيا - 7 أبريل 1889.

إتفاقية مع السلطان أبيكر بن سلطان علي - 7 يونية 1889.

تصريح بأعلان الحماية الإيطالية وقع عليه مشايخ مقدشوة - 24 مارس 1891.

إعلان الحماية الإيطالية على النصف الشمالي لصوماليا

ومن بنود تلك المعاهدات النص على أن الشيخ أو السلطان أو رئيس العشيرة قبل الحماية على نفسه وأملاكه وعشيرته مقابل مبلغ من المال (نحو 600 ريال سنوياً) للشيخ أو لرئيس القبيلة أو للسلطان و 600 ريال أخرى في العام لحاشيته و أفراد أسرته و شيوخ و علماء و عقلاء البلاد.

وبناء على المعاهدات و الإتفاقيات السابق ذكرها قامت إيطاليا بأعلان الحماية المباشرة على المنطقة التي تمتد من شمال وأرشيخ عند خط عرض 30 5 درجة شمالاً حتي خط عرض 3 8 درجة شمالاً حيث تبدأ سلطنة مجرتينيا التي تمتد حتي خط الطول 49 درجة شرقاً.

الاتفاق الإيطالي الإنجليزي

بشأن إدارة ساحل بنادر (1889)

ضعف نفوذ السلطان على السواحل الجنوبية لصوماليا بسبب الثورة العارمة التي قام بها الشعب الصومالي في مقدشوه و براوة ومركة وكسمايو ضد السلطان وإعلانهم العصيان لطاعته ومناهضة كل مستعمر أجنبي يدخل الى بلادهم ، مما أضطر السلطان تحت ضغط بريطانيا أن يكتب رسالة في 15 يناير 1889 الى ملك إيطاليا يعلن فيها عن رغبته في الصداقة مع الدولة الإيطالية، و أنه يبارك أي إتفاق إيطالي يمكن الحصول عليه مع شركة شرق أفريقيا البريطانية (وكانت خاضعة للسياسة البريطانية في أعمالها وأهدافها) بخصوص الاستغلال الأقتصادي والأحتلال المشترك لإيطاليا و بريطانيا لمنطقة كسمايو ، ودارت المفاوضات بين السنيور كاتاليني نائباً عن جلالة ملك إيطاليا و شركة شرق أفريقيا الأمبراطورية (سميت بعد ذلك باسم الشركة البريطانية) و كانت هذه المفاوضات تدور حول أسس ثلاثة هي:

- بناء على طلب سيد خليفة سلطان زنجبار في خطابه المؤرخ في 15 يناير سنة 1889 الى ملك إيطاليا بشأن التفاهم مع الشركة البريطانية للأحتلال المشترك لمنطقة كسمايو.

- تقوم الشركة البريطانية بأجراء مفاوضات مع السلطان سيد خليفة بشأن التنازل عن بعض الأراضي التي تقع الى الشمال من نهر جوبا بما في ذلك كسمايو متضمنة مواني براوه ومركة ومقدشو في نصف دائرة قطرها عشرة أميال و ميناء وأرشيخ في نصف دائرة قطرها خمسة أميال.

– تقوم الشركة البريطانية بالتنازل عن الأراضي السابقة التي ترغبها إيطاليا بمجرد أن يقوم السلطان بمنحها للشركة البريطانية.

و على هذه الأسس تم الاتفاق الإيطالي الإنجليزي في أغسطس سنة 1889 على النص التالي:

مادة أولى: أتفق الجانبان في حالة إعلان سمو سيد خليفة سلطان زنجبار بوعده منه لتسليم البلاد المذكورة للشركة البريطانية وهي الأراضي التي تمتد من نهر جوبا بما في ذلك كسمايو و تتضمن مواني براوة و مركة و مقدشوة و ملحقاتها في نصف دائرة قطرها خمسة أميال من البحر الى الداخل ؛ فإن الشركة البريطانية ستعمل على نقل ملكية هذه الجهات يرضاء من السلطان و على نفقة الحكومة الإيطالية الى الوكلاء المعتمدين للحكومة الإيطالية بنفس الشروط المتضمنة في الامتياز الممنوح للشركة البريطانية أو بأحسن الشروط التي يمكن الحصول عليها من السلطان على أن يكون الاحتلال المشترك لمنطقة كسمايو من الجانبين بالطريقة التي يريانها.

مادة ثانية: تتعهد الحكومة الإيطالية بدفع التعويضات الملزمة للشركة البريطانية التي ظهرت نتيجة لعقد هذه الاتفاقية أو تنفيذها على حد سواء.

مادة ثالثة: احتلال كسمايو و ملحقاتها بالأشتراك بين الشركة والحكومة الإيطالية بأن يتولي إدارتها المتعاقدان بطريقة متكافئة و امتيازات متساوية، و دفع النفقات بالتساوي، و كذلك تقسم صافي فوائد كسمايو و ملحقاتها بالتساوي ، ويكون تنفيذ هذا البند بالطريقة الودية بواسطة مندوبي الحكومة الإيطالية و مندوبي الشركة البريطانية و منها الحكومة الإيطالية.

مادة رابعة: تتعهد الحكومة الإيطالية بتحديد نفوذها في شرق أفريقيا و ألا تحدث أي تأثير سياسي أو تقبل فرض حماية أو احتلال أو تتدخل في منطقة النفوذ البريطاني على الأراضي أو القبائل الى الغرب أو الجنوب من الخط الممتد من شمال ضفة مصب نهر جوبا حتي يتلاشي الخط المذكور مع تقاطع خط عرض 8 درجة شمالاً و خط طول 40 درجة شرقاً بخط يرسم من هذه النقطة المذكورة و يمتد فوق خط متواز لخط طول 35 شرقاً لدوائر جرينتش. كما تتعهد الشركة البريطانية بتحديد منطقة نفوذها في شرق أفريقيا بالأ تمارس أي تأثير سياسي أو تقبل فرض حماية أو احتلال أرض ما أو تدخل في منطقة النفوذ الإيطالي على الأراضي أو القبائل التي تقع الى الشرق أو الشمال الشرقي من الخطوط المذكورة ، وفي حالة ما يثبت بالمقياس أن مجري نهر جوبا يفيض في نقطة ما الى الشمال أو الى الشرق من الخطوط المذكورة أعلاه فإن هذه النقطة ستقبل على أنها الحد لنفوذ الطرفين المذكورين ، وعلى أية حال بالنسبة للشرط الإضافي بأن الخط يمتد مع أنحراف النهر المذكور الى النقطة التي يتقاطع فيها عرض 8 درجة شمالاً وخط 40 درجة شرقاً كما يثبت ذلك على الخريطة الملحقة بالاتفاقية.

مادة خامسة: حرية الملاحة في نهر جوبا و روافده للجانبين الى أبعد نقطة ملاحية.

مادة سادسة: اتفق الفريقان على حل المنازعات التي تنشأ عن تفسير أو تنفيذ الاتفاقية بالطرق الودية و نهاية الأمر الى هيئة تحكيم يكون الطرفان ملزمين بنتيجة الحكم. و أعضاء لجنة التحكيم يختارون باتفاق الطرفين المتعاقدين، ومن حق الطرفين تعيين عدد من أعضاء اللجنة بالتساوي على أن ينتخب من الحكام واحد ليكون حكماً فاصلاً.

مادة سابعة: للحكومة الإيطالية حق التخلي عن امتيازاتها التي اكتسبتها بمقتضى الاتفاق الحالي الى الشركة الإيطالية المزمع أنشاؤها باسم شركة شرق أفريقيا الإيطالية الملكية أو ما شبه ذلك على أن تقوم الشركة المذكورة بتنفيذ الالتزامات والتعهدات التي تعهدت بها الحكومة الإيطالية كما جاء في هذه الاتفاقية ؛ ونسخت الاتفاقية من صورتين باللغتين الإنجليزية والإيطالية على أن يكون النص الإنجليزي ملزماً أمضاء. و. ماكينون ت. كاتاليني بحضور جورج س. ماكينيزي 3 أغسطس 1889.

ملاحظة: - احتفظت الشركة بحقها في تعديل الحدود بأن ترسم خطأ في اتجاه شمالي شرقي يبدأ تقريباً من خط طول 37 شرقاً الخط عرض 8 درجة شمالاً الى نقطة على النيل الأزرق أو نهر أبي غرب خط طول 37 درجة شرقاً ومن ثم تكون الحدود الى الغرب و الشمال.

حركة التمرد الصومالي

ما أن طار خبر الاتفاقية الإيطالية الأنجليزية بشأن ترك السواحل الصومالية (بنادر) للإدارة الإيطالية وكسمايو للأحتلال الأنجليزي الإيطالي حتي تمرد الصوماليون وأعلنوا العصيان بسبب ما آلت اليه البلاد من تحكم الأجانب في وطنهم ، وأدركوا الخطر الداهم الذي تتعرض له الصومال من السياسة البريطانية التي أطاحت بالإدارة المصرية المسلمة من ساحل الصومال لكي تستبدلها بالإيطاليين .

وجه ماكينز المدير المسئول للشركة البريطانية نصائح للإيطاليين بأخذ سياسة الحذر والتيقظ في أعمالهم حتي لا يكون إندفاعهم للسيطرة على المراكز الصومالية سبباً في قيام ثورة حادة قد تطح بهم وبالاتفاقية، ونصح ماكينز الإيطاليون بأحتلال ميناء كسمايو ومقدشو بتعيين الشيوخ الصوماليين في المناصب الإدارية ولوصوريا، كي يتمكنوا بعد ذلك من مواجهة أي حركة تمرد يقوم الشعب بها، و من ثم يمكن تثبيت أقدامهم في البلاد دون خوف أو خسائر تذكر.

غير أن الإيطاليين سلكوا طريق القوة ، فأرسل القنصل الإيطالي سفينة حربية الى وارشيخ (في أقصى حدود المنطقة التي تحت حكم السلطان ناحية الشمال) لمعرفة موقف الأهالي ، وأطلق الضابط عدة طلقات نارية يريد أن يرهب بها المدينة الهادئة غير أنه لقي حتفه على أيدي الصوماليين، فكان رد الفعل قوياً من جانب الإيطاليين الذين أطلقوا مدافعهم الثقيلة فترة طويلة من بارحة حربية استقدموها فدمروا المدينة بأكملها و اشتعلت فيها النيران.

و بطبيعة الحال وصلت أخبار وار شيخ الى كافة المدن الصومالية على طول ساحل بنادر، و أعلن سكانها الجهاد المقدس ضد الغزاة الأفرنج، و أعلنت بريطانيا متضامنة مع ألمانيا حمايتها لأراضي سلطنة زنجبار مع مراعاة حقوق إيطاليا على ساحل صوماليا، حتي لا تكون ثورة الصوماليين و تمردهم سبباً في إيجاد مشاكل أخرى متعددة متشابهة أو مختلفة في مستعمراتها في شرق أفريقيا، ولم تستمر ألمانيا في سياستها الدفاعية مع بريطانيا إذ تخلت (لصالح بريطانيا) عن حمايتها و دفاعها عن المنطقة المجاورة لكسمايو وهي التي تقع الى الشمال من نهر تانا على جزر باتا و ماندا.

بروتوكول 1891 بين إيطاليا و بريطانيا:

خلال فترة الاضطرابات على ساحل الصومال توصلت إيطاليا و بريطانيا الى توقيع بروتوكول 24 مارس 1891 بشأن تحديد مناطق النفوذ لكلا الدولتين على ساحل أفريقيا الشرقي ، و قد أعتبر الخط الفاصل بين منطقة النفوذ الإيطالي شمالاً ومنطقة النفوذ البريطاني جنوباً هو البحر عند منتصف مجري نهر جوبا الى خط 6 درجة شمالاً، لتبقي كسمايو وملحقاتها على الضفة اليميني في منطقة النفوذ البريطاني و من 35 درجة شرق جرينتش يمتد الخط حتي النيل الأزرق ، و قد نص الاتفاق على امكانية تعديل خط الحدود بالاتفاق المتبادل كما نص على المساواة في المعاملة بين الرعايا الإيطاليين والبريطانيين، ومن يخضع لحماية كل من الدولتين في كسمايو، كما تم تحديد مناطق النفوذ لكل منها حسب بروتوكول 15 أبريل 1891؛ وعليه اعترفت الحكومة البريطانية بنفوذ إيطاليا على المناطق التي تقع الى الشرق من ذلك التحديد في مقابل اعتراف إيطاليا بنفوذ بريطانيا على المناطق التي تقع جنوب و غرب و شمال هذا التحديد و هي كينيا و أوغنده و أعالي النيل و السودان.

الاتفاقية الإيطالية البريطانية 1892:

قامت الحكومة الإيطالية بمفاوضة السلطان للتنازل عن المواني الشمالية ؛ ولكن السلطان وإن كان قد وافق بصفة مبدئية إلا أنه وسط الشركة البريطانية ووافق على الذي تحكم به بريطانيا في هذه المسألة ؛ وهذا دليل على نفوذ بريطانيا على سلطان زنجبار. وما أن أعلنت الحماية البريطانية على زنجبار حتي قامت إيطاليا بمفاوضات مع البريطانيين بشأن تحديد مناطق النفوذ لكليهما على ساحل صوماليا و أسفرت المفاوضات عن النتائج التالية في 12 أغسطس 1892.

مادة 1: تنص على حق السلطة الكاملة لإيطاليا على مواني براوه ومركه ومقدشو مع نصف دائرة قطرها عشرة ميل لكل منها عدا مدينة وأرشيخ فأنها تكون مع نصف دائرة قطرها خمسة ميل ، ومن حق إيطاليا إدارة الجزر الساحلية باسم سلطان زنجبار وتحت علمه على أن تتحمل إيطاليا كافة النفقات، و خول للحكومة الإيطالية حق شراء الأراضي وامتلاكها وغير ذلك، و لكن ليس لها حقوق على رعايا السلطان أو الأجانب.

مادة 2: تتعهد الحكومة الإيطالية بإدارة المواني والمدن عن طريق الشركة الإيطالية مع مسئولية حكومة إيطاليا أمام حكومة زنجبار.

مادة 3: منح إيطاليا حق تنظيم الضرائب وجمعها والصرف على الإدارة المحلية والمحافظة على النظام وإدارة القضاء وبناء الطرق والمواني وغيرها من الأشغال العامة مع حق الحكومة الإيطالية في تعيين الحكام والموظفين والقضاة وما إلى ذلك.

مادة 4 : تختص بتنظيم المرافق العامة للبلاد و فرض الضرائب. مادة 5: تختص باستلام الرسوم على التجارة و منع التهريب و الجمارك. مادة 6: بشأن إنشاء مصرف و إصدار العملة.

وهذه الامتيازات التي وردت في الاتفاقية تكون سارية المفعول خمسة وعشرين عاماً اعتباراً من التصديق عليها في روما و لندن، و يمكن تجديدها مرة أخرى بنفس الشروط و بعد هذا تصير كافة المنشآت من حق حكومة السلطان بعد تقدير قيمتها ؛ وكان على الحكومة الإيطالية أن تدفع أربعين ألف روبية عند استلام الجمارك في المواني، ثم تدفع مثلها بعد مرور ثلاثة أشهر من احتلال الجمارك، وأن تقوم الحكومة الإيطالية بعملها تحت علمه، ولا تغير من نظام الدفع المتفق عليه إلا بعد موافقة السلطان أو بريطانيا.

تعديل اتفاق 12 أغسطس سنة 1892:

وبعد أن توصلت حكومة إيطاليا إلى الاتفاقية السابقة بدأت تراودها فكرة التخلي عنها خشية أن تتورط في صوماليا، بالإضافة إلى ما تلاقيه من مشاق وخسائر حول عصب ، لذلك قامت إيطاليا بتقصير فترة عقد اتفاق 12 أغسطس سنة 1892 من خمسة وعشرين عام إلى ثلاث سنوات، و ذلك في 15 مايو عام 1893، وعهد إلى شركة فيلوناردي الإيطالية بإدارة أعمال الحكومة في صوماليا لمدة ثلاث سنوات مع منحها إعانة سنوية قدرها 300 ألف ليرة إيطالية، على أن تكون إيطاليا مسئولة عن تنفيذ الاتفاقية، و ما أشتملت عليه لوائح برلين 1885 و لوائح بروكسيل 1890 بشأن منع تجارة الرقيق.

قيام شركة ف. فيلوناردي و شركاه

في 13 أكتوبر وصل فيلوناردي على ظهر السفينة ستافيتا إلى بنادر ومعه الشيوخ والرؤساء أصحاب المواني والمدن الصومالية الذين تعاقبوا مع فيلوناردي ونائب سلطان زنجبار الذي أعلن تنازل السلطان عن إدارة هذه المواني الشمالية للإيطاليين، وطلبوا من الأهالي طاعة ممثل حكومة إيطاليا في بلادهم ، وأعلن فيلوناردي أن المحمية الإيطالية ستديرها شركة فيلوناردي و شركاه ، وستقوم بإداعة اللوائح والتنظيمات وممارسة السلطة في المواني بدأ من 16 يوليو 1893 ؛ وقام فيلوناردي بعقد عدة إتفاقيات و معاهدت:

معاهدة مع سلطان قلدي و وعطاف – 3 فبراير 1894.

معاهدة مع رؤساء التن – 3 فبراير 1894.

معاهدة مع سلطان الأقبال – 3 سبتمبر 1894.

معاهدة مع شيوخ لقوله – 23 سبتمبر 1894.

معاهدة مع قبيلة قلوين بر – 29 رجب 1312هـ.

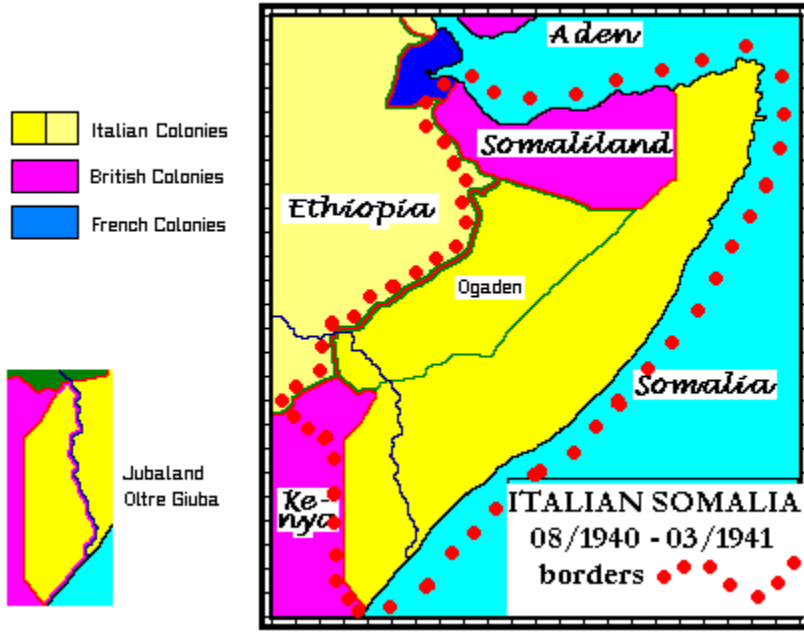
معاهدة مع شيوخ طيظلة و مبارك و مرير و جوهر – 9 جماد الثاني 1312هـ.

معاهدة مع الشيخ حاج على بن عيسى – 11 ديسمبر 1894.

معاهدة مع شيوخ ورؤساء قبائل لمدن مختلفة – 28 جماد الثاني 1312 هـ.

إعلان الحماية الإيطالية على صوماليا

بعد أن أستطاع فيلوناردي تدعيم السلطة الإيطالية في البلاد عن طريق الحصول على معاهدات واتفاقيات من مجرتنيا شمالاً إلى جنوب صوماليا قامت الحكومة الإيطالية بإنهاء إدارة شركته ، وقد قام فيلوناردي قبل رحيله عن البلاد بإعلان الحماية الإيطالية في 16 يولية عام 1896، وهذا نص إعلان إلى كافة من يراه إنه في تاريخ 16 شهر يوليو 1896 الموافق 4 صفر 1314هـ قد صارت حكومة البنادر (مقدشوة وما حولها) تحت حماية دولة جلالة ملك إيطاليا بعد انقطاع مكاتبه الكمبانية فيلوناردي في الثلاث سنين الماضية وبيانها إلى تاريخ 15 يوليو 1896 3 صفر 1314....." ؛ بذلك أصبح الصومال الإيطالي Italian Somaliland مستعمرة لإيطاليا من 1880 حتى 1936 ، وأثناء الحرب العالمية الأولى إزدادت مساحته ، بتنازل بريطانيا إلى إيطاليا عن 94,050 كيلومتر مربع من محمية جوبالاند الصومالية (جنوب غرب الصومال) كجائزة على تحالفها معها في الحرب ضد ألمانيا ، وفي 1924 تنازلت بريطانيا لإيطاليا عما تبقى من جوبالاند ، وأطلقت عليها إيطاليا جوبا العليا وضمت إليها عام 1936 منطقة الأوجادين بعد غزوها إثيوبيا ، وفي مطلع الحرب العالمية الثانية في ربيع 1941، غزت إيطاليا الصومال البريطاني.



وبعد ان استعاد البريطانيون السيطرة على شرق أفريقيا من تخوم الصومال الشمالية (خاضعة لـ كينيا حاليا) ، وياحتلال الصومال الإيطالي بما فيه الأوجادين، ظل الصومال تحت الإدارة البريطانية حتى 1949 ثم إنتقل الى وصاية الأمم المتحدة لعشر سنوات من 1950 حتى 1960؛ وبذلك جاءت مأساة الصومال الكبير بإقتسامه بين الدول الأوروبية بمقتضى مؤتمر برلين فتحصلت بريطانيا على اقليم " انفى " (الحقته عند استقلال الصومال عام 1963م بمستعمرتها فى كينيا)، وحصلت الحبشة على الأوجادين (وآل الى بريطانيا بعد هزيمة المحور فى الحرب العالمية الثانية لادارته تحت رعاية الامم المتحدة ، وعند انسحابها منه عام 1954 م سلمت الحبشة اجزاء منه على غرار مافلته فى فلسطين قبلا ؛ وحصلت فرنسا على الصومال الفرنسى ؛ وايطاليا على الجنوب المعروف بالصومال

الحديث ، وتفرق الصوماليون بين الدول فبات حلم الوحدة سرايا ابدية ومسالة شائكة وشديدة الخطورة ، وبعد زوال الاستعمار اشعلت المسالة حربا طويلة على درب الصومال الكبير حاول فيها الصومال تحرير الأوجادين من اثيوبيا ، وسنتاولها فى الاتى :

اولا الصومال الغربى - اقليم الأوجادين

تضم الهضبة الصومالية أرض الأوغادين وأروميا فى القطاع الاثيوبى ، وبها المنابع العليا للأنهار الرئيسية فى الصومال مثل نهر جوبا وروافده ونهر شيللي الذي يلتقى قرب المحيط الهندي بنهر جوبا ، والغالبية العظمى من سكان الاقليم من العناصر الصومالية واحداها قبيلة الأوجادين إحدى قبائل الدارود ويسكنهم جماعات الدناكل وجالية عربية استقرت بالمنطقة واختلطت بالسكان منذ عهد قديم ومعظمهم من اليمن .

والإسلام دين الأغلبية لهذه العناصر وصل المنطقة عن طريق التجار العرب ، وكان الأوجادين او "الصومال الغربى" ، جزءا من أرض الصومال احتله الانجليز خلال الحرب العالمية الثانية واقاموا فيه قاعدة عسكرية عام 1941 ، وعند استقلال الصومال عن بريطانيا عام 1960 قرر البريطانيون عدم تسليم منطقة أوغادين الى الصومال واهدوه الى "هيلاسيلاسي" ليصبح جزء من أراضي إثيوبيا بالرغم من انه لم يكن هناك ما يُغرى على هذا الاجراء لفقر الاقليم لكن الرغبة الدفينة فى عداء الاسلام هى التى دفعت بريطانيا لتسليم الاقليم الى الحبشة ، وسبق لبريطانيا ايضا التساهل مع الحبشة بتسليمها إقليم بنى شنقول السودانى (هنا يظهر البعد الدينى فى العلاقة بين البلدين) ، ونظرا لتهميش واهمال الحكومات الاثيوبية المتعاقبة للاقليم لفقره إنتابته روح التحرير وكادت بمساعدة الصومال فى عهد سياد برى ان يتحرر فى سبعينيات القرن الماضى بعد تحرير معظم أراضيها خلال فترة 1977-1978 وتوسعنا فى هذا الموضوع فى الجزء الخاص بعرقيات اثيوبيا.

ثانيا الصوماليون والعرب فى كينيا

بعد استقلال كينيا راودت صوماليوا كينيا الامال القومية فى الانضمام للصومال وهو توجه طبيعى فى مواجهة غلبة التوجهات القومية على ثورة " ماوماو " فى الخمسينيات ، ففكروا فى الانفصال بالصومال الكينى بشمال البلاد لينضموا الى جذورهم القومية فى الصومال الكبير ، ولكن الحركة لم يكتب لها النجاح.

عرب كينيا

تخوف عرب كينيا من التوجهات القومية الغالبة على ثورة " ماوماو " فى الخمسينيات لاثارتها ماضى تجار الرقيق العرب ، ففكروا فى الانفصال بدولة مستقلة فى " مافاتباو " حول ممبسه أو الاندماج مع أصولهم العربية فى زنجبار باعتبار ممبسة فى الاصل محمية تتبع سلطان زنجبار بنص معاهدة 1895م التى اعترفت فيها بريطانيا بسيادة السلطان على المنطقة الساحلية من كينيا ، ولم تنجح الحركة وانتهى بهم الامر بالذوبان فى كينيا المستقلة بعد أن ربطوا مستقبلهم بمستقبلها ؛ والحركتان غلبتا القومية على الدين ؛ فلم تربط العناصر العربية نفسها بنضال مسلمى كينيا من العرق الصومالى المتمركزين فى الصومال الكينى بشمال البلاد وكلاهما فضلنا الانضمام الى جذورهم القومية ؛ فالقومية كانت الفاصل بين الحركتين لسهولة اندماج كل منطقة بسكانها فى محيطها المجاور الاصيل وهو اتجاه منطقى يدعمه البُعد الجغرافى لاماكن تركز الاقليتين .

زنجبار

يقع أرخبيل زنجبار فى المحيط الهندي فى مواجهة ساحل تنزانيا ، وتتكون زنجبار من مجموعة من الجزر تضم أنغوجا(جزيرة زنجبار)، وجزيرة أصغر بالشمال هي بمبا، وعدد من الجزر الصغيرة المحيطة تبعد عن شاطئ إفريقيا الشرقى 25 ميلا شرق تنجانيقا وهى ارض عربية إسلامية استوطنها العرب منذ قرون حكموها حتى عام 1964 ، وكانت تابعة لسلطنة عمان فى الفترة 1698حتى سنة 1858 ، وأضحت محمية بريطانية سنة 1890فى عهد علي بن سعيد حتى استقلالها عام 1963 ، وهي نموذج للتنوع العرقى بين اقلية كبيرة من العرب الاثرياء ملاك الاراضى وحكام البلاد و اغلبية افريقية فقيرة منهم قطاع مهجن بالشيرازيين (الخريطة بالملحق) ، وكانت زنجبار مركزا للمد الاسلامى فى كثير من بلاد إفريقيا ، ويُذكر ان اهلها طلبوا الى عبد الناصر الاتحاد مع مصر بعد الاستقلال لكنه رفض مطلبهم وبرر السيد محمد فايق وزير الدولة للشئون الافريقية انذاك ذلك الرفض بأنها طلب الاتحاد رغبة تفنقر للمنطق والنظرة الاستراتيجية ، وقصة زنجبار تحتاج التفصيل .

قام النظام السياسى على الملكية الدستورية وتشكلت الأحزاب السياسية على أسس عرقية إلى حد كبير ، فالعرب يسيطرون على حزب زنجبار الوطنى (ZNP) والأفارقة على حزب أفروشيرازي ؛ وساهم النظام الانتخابى الذى وضعته بريطانيا على توتر الحياة السياسية لعدم تمثيلة قوة الكتل التصويتية فى البرلمان على نحو صحيح لصالح الاغلبية الافريقية .

وبدأت المشاكل فى يناير 1961 عند إجراء الانتخابات العامة استعدادا للاستقلال بحصول الحزب الوطنى والأفروشيرازي على عدد متساو من المقاعد 11 لكل منهما أى نصف مجموع مقاعد البرلمان البالغة من 22 مقعدا ، رغم فوز الحزب الوطنى الأفروشيرازي بأغلبية الاصوات ، فأعيدت الانتخابات فى يونيو مع زيادة مقاعد البرلمان إلى 23 ؛ فحصل تحالف الحزب الوطنى مع حزب شعب زنجبار وبمبا (ZPPP) على 13 مقعد مقابل 10 مقاعد للحزب الأفروشيرازي رغم ما ناله الاخير من أغلبية الأصوات ايضا .

اندلعت الاضطرابات بدعوى تزوير الانتخابات قُتل فيها 68 شخصا ، فأتخذت الحكومة عدد من الاجراءات التعسفية وحظرت حزب الأمة الذى شكله نفس العام أنصار الاشتراكية الراديكالية العربية ، وتم طرد جميع أفراد الشرطة من ذوي الأصول الافريقية وهم عصب القوة الأمنية الوحيدة فى الجزيرة .

وفى الانتخابات النيابية فى يوليو 1963 أصاب الإحباط تحالف حزبا أفرو شيرازي (ASP) مع حزب الأمة اليساري لعدم حصولهما على تمثيل برلماني يعكس نسبة 54% من الأصوات التى حصلوا عليها فى الانتخابات ، وفى 10 ديسمبر 1963نالت زنجبار استقلالها عن بريطانيا ، وتوقعت المخابرات البريطانية ان يقوم الشيوعيون باضطرابات فى البلاد .

وفى صبيحة يوم 12 يناير 1964 بدأت الثورة فى الجزيرة الكبرى أنغوجا (339) بقيادة جون أوكيلو عضو حزب أفروشيرازي الذى هاجم ومعه 800 من الأفارقة الأعضاء باتحاد شبيبة الحزب الأفروشيرازي والعاطلين عن العمل ومعهم المسرحيين من الشرطة ؛ وهاجموا مراكز الشرطة واستولوا على أسلحتها ، ثم هاجموا العاصمة ستون تاون وسيطروا فى نفس الوقت على المباني الحساسة فى العاصمة زنجبار القديمة بما فيها مهبط الطائرات الوحيد فى الجزيرة ؛ وفر السلطان جمشيد ومعه

339 (لم تتعرض بمببا للعنف الطائفي الذي حدث بعد الثورة .

رئيس الوزراء محمد شامتي حمادي والوزراء ومعظمهم من العرب على اليخت السلطاني ، وقد قتل خلال 12 ساعة حوالي 80 شخصا وجرح 200 أغلبهم من العرب ؛ وتم اعتقال 61 أمريكي بمن فيهم الموظفين الـ 16 التابعين لمحطة ناسا لرصد الأقمار الصناعية الذين لجأوا إلى النادي الإنجليزي في زنجبار تاون ، واستقدم جون أوكيلو ؛ عبيد كرومي زعيم حزب أفروشيروازي الذي كان في أفريقيا أثناء الثورة لضمان سلامته ، ونُصب رئيسا للدولة وتولى مجلسا ثوريا من حزبي الأفروشيروازي والأمة الحكم للفترة الانتقالية وكان أول أعمال الحكومة الجديدة إلغاء النظام الملكي وطرده السلطان وحظر حزبا الوطني وشعب زنجبار وبمبا ، وتم تغيير اسم البلد إلى جمهورية زنجبار وبمبا الشعبية.

تخلص كرومي بهدوء من أوكيلو (340) صاحب المزاج المتقلب ، وكان رد الأخير القيام بأعمال انتقامية ضد سكان أنغوجا من العرب والآسيويين ، ودعا تابعيه في خطبه إذاعية إلى قتل وسجن عشرات الآلاف من الأعداء والعملاء ، ونفذ اتباعه عمليات اعتداء وقتل واغتصاب وهاجموا الممتلكات ؛ وقدرت إذاعة أوكيلو عدد القتلى بعشرين ألفا بينما قدرتهم الصحف الغربية ما بين ألفين إلى أربعة آلاف ، وقد وثق طاقم تصوير إيطالي طائر قتل الأسرى العرب ودفنهم في مقابر جماعية في فيلم اسمه "Africa Addio" ، وهو الوثيقة المرئية الوحيدة عن عمليات القتل تلك وقد فر الكثير من العرب إلى عمان ، ولم يُمس أحدا من الأوروبيين بأمر من أوكيلو.

عادت الأمور لطبيعتها بحلول 3 فبراير ولاقى كرومي قبولا واسعا من الشعب كرئيسا للبلاد ، وشكل أوكيلو ميليشيا عسكرية سماها قوة الحرية العسكرية قامت بدوريات في الشوارع ونهبت ممتلكات العرب ، وسببت تصرفات أوكيلو وأنصاره وديانته المسيحية نفور لدى كلا من أهالي زنجبار المسلمين والحزب الأفروشيروازي ، وبحلول شهر مارس قامت ميليشيا مؤيدة لكرومي وحزب الأمة بنزع سلاح أتباع أوكيلو ، ومنع من دخول زنجبار عند محاولته العودة من رحلة إلى البر الرئيسي ، وقد رحل إلى تنجانيقا ثم إلى كينيا ثم عاد بعد ذلك معدما إلى وطنه الأم أوغندا ، بدأت الحكومة في أبريل بتشكيل جيش التحرير الشعبي وانتهت من نزع سلاح ماتبقى من ميليشيا أوكيلو .

وفي 26 أبريل أعلن كرومي وهو اشتراكي معتدل عن مفاوضات للإتحاد مع تنجانيقا في دولة جديدة باسم تنزانيا لمنع التغلغل الشيوعي في زنجبار وللحد من تأثير راديكالية حزب الأمة الاشتراكي اليساري ومع ذلك فقد اعتمدت الحكومة الكثير من سياسات حزب الأمة الاشتراكي وطبقته على الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية وافترقت الخدمات المدنية بالكامل، وسحبت الأراضي الزراعية من العرب ووزعتها على الأفارقة ، وقامت بإصلاحات اجتماعية مثل الرعاية الصحية المجانية وفتح التعليم للأفارقة ، وكان بينا منذ البداية التوجه اليساري للدولة بفكرها الاممي الاشتراكي العابر للقوميات الذي سمح بجمع قوميات مختلفة في الثورة من الاوغندي أوكيلو وحملة البنادق التنجانيقي والشيروازيين والأفريقيين الزنجباريين معا والدعم الكوبي ، وبتعيينها يساريين في المناصب العالية مثل بابو وزير الشؤون الخارجية وعبد الله قاسم هاتجا رئيسا الوزراء ؛ و كليهما له صلات بالشيوعية ومن المقربين لـ أوسكار كامبانا وزير الشؤون الخارجية في تنجانيقا ، وكان الدعم الشيوعي واضحا من خلال الدعم الكوبي ومساهمة فيلق بنادق تنجانيقا (The Tanganyika Rifles) في الثورة وما تلاه من اعتراف زنجبار بجمهورية ألمانيا الديمقراطية وهي أول حكومة أفريقية قامت بذلك) وبكوريا الشمالية ، وعقبت صحيفة نيويورك تايمز بعد الثورة بأن زنجبار على وشك أن تصبح كوبا الأفريقية ، وإنهال الدعم الشيوعي على زنجبار من مستشارين سوفيت وألمان شرقيين وصينيين خلال شهر فبراير .

أدى تقييد الحريات العامة (القيود على السفر) والمحسوبية في التعيينات بالمناصب السياسية والصناعية الى السخط الشعبي ، وبدأت الحكومة التنزانية الجديدة عاجزة عن فعل شيء حيال ذلك فأُغتيل كرومي يوم 7 أبريل 1972 وانفجر القتال بين المناوئين والموالين للحكومة لأسابيع ، وفي سنة 1992 أخذت زنجبار بنظام التعددية الحزبية.

يتضح من الاحداث انها ثورة اجتماعية حقيقية حسبما قاله الوزير محمد فايق ، جاءت في اطار المد الثوري الاشتراكي الذي ساد افريقيا والشرق الاوسط انذاك بين المقهورين والحكام فئة جامدة غير قابلة للتغيير لمصلحة الشعوب وكانت الاشتراكية

³⁴⁰ دخل أوكيلو زنجبار سنة 1959 قادما من كينيا مدعيا بأنه كان برتبة مشير مع المتمردين الكينيين خلال ثورة الماو ماو وكان يدعى ان نداءا يسمعه يأمره كمسيحي أن يحرر شعب زنجبار من العرب.

هى مطلب الحركات للثورية كمدخل للعدالة الاجتماعية وعادة ما قاد الشيوعيون هذه الحركات لقدرتهم على الحشد والتنظيم والحصول على دعم دول الكتلة الشيوعية التى ما كانت تتوانى فى دعم ثورات الاشتراكيين فى العالم باعتبارهم حلفائها الطبيعيين . والنهج المصرى كان محققا فى رفضه مطلب زنجبار لارتفاع كلفة الوحدة معها فعلاوة على انها بعيدة جدا واندماج نظامها الملكى المتخلف فى دولة الوحدة سيصطدم عند تطبيق الاشتراكية بملك الارض العرب ، ويسئ للنظام المصرى واشتراكيته على نحو ما حدث مع سوريا وسيجعل الوحدة امرا شكليا على نحو ما كان مع اليمن اذا ماترك على ما هو عليه وكان الاوقع استقلالها ، اما اتحادها مع تنجانيقا فكان مُعد سلفا بين اشتراكى البلدين الذين دبروا الثورة مع تنجانيقا . وحالة زنجبار حالة فريدة للتعدد العرقى لمجتمع صغير منعزل ، لا تغليب فيه لقومية على اخرى فالامور مستقرة على العروبة والاسلام وفى حالة انضمام مناطق العرب فى كينيا ممبسة اليها لكانت زنجبار دولة قائمة بذاتها حتى اليوم ؛ لكن تم تغيب الدين والقومية لصالح فكر اممى لا دينى ولا قومى عابر للقوميات والاديان والقارات ساد فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين لحشد قوميات مختلفة لدعم فكرة محددة . وفى زنجبار كان الهدف القضاء على الهوية العربية للبلاد وخدع اوكيلو الاوغندى الكثير من المسلمين الذين جردهم الفكر الشيوعى من انتماءاتهم الدينية والقومية ليستغلهم اوكيلو لتنفيذ اغراضه الذاتية من منطلقه المسيحي الذى لم يتأثر بلا دينية الشيوعية الذى يأمره كمسيحي حسب قوله أن يحرر شعب زنجبار من العرب تجار الرقيق .

اثيوبيا والحركات الانفصالية

اغتصاب الاراضى - تعدد العرقيات الاثيوبية

جاء تعدد العرقيات فى اثيوبيا حصادا لتوسعها على حساب اراضى الامارات المسلمة فى الهضبة وساحل البحر الاحمر على مر العصور ، وكان التوسع الكبير فى عهد منليك الثانى ضم هرر فى الشرق وسيدامو فى الجنوب وكافا فى الجنوب الغربى وشنقلا من السودان (بتواطؤ انجليزى) وتوفى عام 1913 ؛ ولما جاء "هياسلاسي" عام 1928 عمل على توسيع حدود منليك ، فضم اريتريا وضم الاوجادين عام 1954 بالتواطؤ مع حلفاؤه الانجليز .

العرقيات الاثيوبية - تشكيلتها العرقية والدينية

تاريخ إثيوبيا (341) منذ أواخر عام 1950 حافل بحركات التمرد ، وهو امر طبيعى فى بلد اغتصب اراض شعوب اخرى ؛ ينقصها الانسجام العرقى والدينى والثقافى واللغوى ؛ وتضم اثيوبيا نحو 85 مجموعة عرقية تنتمى الى كتلتين رئيسيتين هما المجموعة السامية التى وفدت من الجزيرة العربية وينتسب اليها الأرتيريين والتيجراي والامهرا ؛ والكتلة الاخرى هى المجموعة الحامية العنصر الاصيل فى المنطقة وتضم الأوروميين والعفر والصوماليين البنى شنقول وهؤلاء الاربعة مسلمون ولهذه الكتلة الغلبة العرقية والدينية ، وهناك قوميات اخرى صغيرة ك القمز ، الانواك ، النوير .

والاوروميون (الجالا) اكبر شعوب اثيوبيا عددا على الاطلاق وتشير بعض التقديرات الى ان عددهم 34 مليون نسمة يشكلون 40 % من سكان اثيوبيا البالغ عددهم 77 مليون نسمة (تعداد عام 2007) ، بينما تقدرهم جبهة تحرير أورومو بنصف سكان البلاد وهو اقرب الى الصحة فعادة ما تحاول النظم اضعاف الكثرة العددية للطوائف المناوئة ، وهم كانوا مسلمون لكنهم الان يشكلون 80% حيث تم تنصير بعضهم جبرا ؛ ويتمركزون فى الشرق والجنوب والوسط ويشكلون اغلبية سكان هرر بنسبة 60% ، ويحجى فى المرتبة الثانية من الناحية العددية الامهرا بنسبة 23% ثم سادامو بنسبة 9% ثم الصوماليون (مسلمون بنسبة 100%) وهم ما بين ثالث ورابع اكبر المجموعات العرقية ويتمركزون فى الاوجادين المعروف بالصومال الغربى ، ويقدر عددهم طبقا لتعداد عام 2007 بما لا يقل عن 4,6 مليون نسمة اى بنسبة 6,2 % من سكان اثيوبيا ثم يحجى بعدهم شنقلا (بنى شنقول المسلمون - مغتصبة من السودان) بنسبة 6% ثم العفر (المسلمون) بنسبة 4% .

³⁴¹ الحبشة الامبراطورية بمستعمراتها الاسلامية تُسمى إثيوبيا ، اما الحبشة فهى الهضبة بسكانها الامهرا والتيجر .

ومن ناحية الديانات تبلغ نسبة المسلمون 50% ، ولكنها فى الحقيقة طبقا للنسب المتقدمة يبلغون 76,2 % وهى تتفق مع احصاء عام 1993 الذى قدرهم بنسبة 70% ، والمسيحيون 38% والبقية ديانات طبيعية يتركزون فى المنطقة الجنوبية الغربية البعيدة والمناطق الحدودية الغربية ، ويُقدر احصاء عام 2007 اعداد المسلمين بنسبة اقل من احصاء عام 1993 ، حيث يشير إلى أن عددهم بلغ 27 مليوناً من مجموع السكان البالغ عددهم 45 مليوناً أى بنسبة 70 % تقريباً ، وهذه النسبة لا يمكن ان تنخفض ان لم تكن قد زادت خلال الاربعة عشر سنة التالية .

وبناء على التقديرات السابقة فإن إثيوبيا دولة ذات أغلبية مسلمة وبها أقاليم ذات أغلبية مسلمة مطلقه مثل الإقليم العفري وإقليم بني شنقول وإقليم بنى امير والإقليم الصومالي وإقليم أرومو الذى يشكل مسلموه مايقارب 80% وهم من ناحية العدد يعتبرون ثاني أكبر قبيله فى القاره الأفريقيه بعد قبيلة الهوسا ، إذ يصل عددهم لما يقارب 34 مليون نسمة وتعتبر لغتهم ثالث أكثر اللغات إنتشاراً فى أفريقيا بعد العربية والهوسا .

ومن حيث المساحة تُعتبر إثيوبيا ارض مسلمين فالإقليم الصومالي أكبر الأقاليم مساحة إذ يبلغ 259700 كم2 وهى مساحة أكبر من مساحتى إقليمى الأمهرا والتجراي وهما ارض الحبشة التقليدية ؛ وإذا ضمنا اليه بقية اقاليم العرقيات المسلمة السابق الاشارة اليها فتتأكد هذه الفرضية ، وأكثر الأقاليم إعماراً هي على التوالي هرر - شوا - ولو (الذى تم تنصير اهله قسراً على يد الامبراطور يوحنس الرابع) وهى ارض الامارات الاسلامية ، وثانى اكثر الاقاليم كثافة إقليم شوا الاسلامى الذى يضم العاصمة أديس أبابا ، ويميل المسلمون واتباع الاديان الأفريقية إلى سُكنى المناطق السهلية فى الشرق وجنوب البلاد بينما يعيشُ المسيحيون عموماً فى المرتفعات.

الاورومو (الجالا) وحركتهم الانفصالية

هم اكبر العرقيات فى اثيوبيا ويُطلق عليهم فى الاصل الجالا ، وهم يستنكرون هذا الاسم ويعتبرونه مسيئاً لهم ، وهم لهم تاريخ عريق منذ تدفقهم على هضبة الحبشة فى القرنين 16 و17 ، ويتركزون فى هرر بأغلبية بنسبة 60% ؛ وكانت هرر اكبر الامارات المسلمة وتعهدت الجهاد ضد الحبشة طوال تاريخها وافرزت كبار المجاهدين ، وهذه الامارة بقيت على استقلالها قرابة 300 سنة تعاقب عليها 50 أميراً آخرهم الأمير عبد الله عبد الشكور الذى أطاح به التحالف الحبشي البرتغالي عام 1887 . وبعض اباطرة الحبشة له جذور اورومية مثل اسرة ييجو Yejju (القرن 17م) ، وهى التى تعاضمت بمكانة الاورومو عندما استخدمتهم مرتزقة فى الجيش ، والامبراطور يواس الاول (1730- 1755) I lyoas ينحدر من ام اورومية وهو من فرض الاورومية لغة رسمية فى دوواوين الحكومة طوال عهده من 1730 الى 1755 ، ولعل ما اشار اليه القس ترمنجهام عن كثرة المسلمين فى الدواوين وانتشار اللغة العربية فى اثيوبيا يقصد هذه الفترة وهذا الشعب ، كما ان الامبراطور ليج ياسو حفيد مينلك الثانى من اب اورومى هو السلطان "محمد علي" كما سبق وان اشرنا .

إريتريا

وقعت اريتريا فى قبضة الاستعمار البرتغالي عام 1520 ، وإستولى عليها العثمانيون عام 1557 وتنازلوا عنها الى اسرة محمد على واصبحت جزءاً من مديرية " التكا" بالسودان فى عهد اسماعيل ، وفى عام 1882م انسحبت مصر منها ، فتسلل اليها النفوذ الايطالى عام 1886 مع طلائع التجار والمبشرين الايطاليين ؛ عندما اسس القس " سابيتو" شركة " روباتينو" الايطالية لتموين السفن العاملة على خط الهند .

وتنازلت هذه الشركة الى الحكومة الايطالية عن ممتلكاتها فى اريتريا فتهيأ للاستعمار الايطالى موطئ قدم على الساحل الشرقى لافريقيا ، فاستصدر " امبرتو" الاول امبراطور ايطاليا مرسوماً بتأسيس مستعمرة اريتريا بالمسمى القديم المأخوذ عن تسمية البحر الاحمر " سينوس ارتريوس " ، واثار التواجد الايطالى حفيظة القوى الاستعمارية فقامت فرنسا بدفع قواتها الى المنطقة واستولت على " جيبوتى " وخليج " تاجوراء" .

اتخذت ايطاليا من اريتريا نقطة ارتكاز لتوسيعها الاستعماري فى افريقيا ، فاصطدمت بالحبشة فى معركة " عدوة" بقيادة الامبراطور يوحنس الرابع فى مارس 1896 ، وقُتل لاطاليا فى يوم واحد عمر هذه المعركة 6 الاف جندي ، وفى عهد خليفة المهدي استولى الايطاليون على " كسلا" بالنتفاهم مع الانجليز على ان يُعيدوها الى السودان بعد عودة الحكم المصرى بعد سقوط

المهدية ؛ وخلال الحرب العالمية الثانية فى الفترة 1936- 1941 غزا الايطاليون الحبشة ففر الامبراطور " هيلاسلاسى " ؛ وتقدموا لغزو السودان ولكن الانجليز تمكنوا بقوه سودانية هندية من استعادة ما خسروه وطردهوا الايطاليين عام 1941 من اثيوبيا واريتريا .

وبعد هزيمة ايطاليا فى الحرب انتقلت اريتريا الى الادارة البريطانية لمدة 10 سنوات طبقا لاتفاق باريس الى ان تقوم الامم المتحدة بتقرير مصيرها ، وتنازعتها الدول خلال تلك الفترة 1941- 1950 فطالبت بها الحبشة باعتبارها جزءا من اراضيها ، واثارت مصر حقوقها التاريخية فيها ، اما الاريتريون فانقسموا بين مؤيد للاستعمار وفريق يحبذ الاتحاد مع اثيوبيا وهم المسيحيون بينما حبذ المسلمون الوحدة مع السودان ، وانقسم اعضاء الامم المتحدة فعرض السوفيت وضع اريتريا تحت حمايتهم ؛ وطالبت مصر بضم مصوع بحكم سبق تبعيتها التاريخية الى المملكة المصرية ، وطالبت ايطاليا بحكمها بذريعة الوجود الايطالى حيث تشكل الاقلية الايطالية 20 % من السكان وتسود اللغة الايطالية .

وتمسكت الحبشة باريتريا باعتبارها حقا تاريخيا مبررة ذلك بأنه ليس من الممكن قيام دولة على كيان اقتصادى هش مثل اريتريا ، ، وايدت فرنسا رغبة اثيوبيا فى ان يكون لها منفذ بحرى فى اريتريا وتبنت بريطانيا فكرة تقسيم اريتريا بين الحبشة والسودان لاعتبارات دينية وعرقية ، ورأت الولايات المتحدة الامريكية وضع اريتريا تحت وصايه دوليه جماعية قبل تطبيق التقسيم .

وتشكلت لجنة فى الامم المتحدة لدراسة الموضوع استطلعت اراء كل من مصر واثيوبيا وايطاليا واقرحت وضع اريتريا تحت وصاية دولية تمهيدا لاستقلالها او ضمها الى اثيوبيا ، وفى عام 1950 قررت الجمعية العامة للامم المتحدة بأغلبية 46 صوتا ومعارضة 10 وامتناع 4 دول ، الاخذ بالصيغة الفيدرالية بين اثيوبيا واريتريا ، ولم يحترم هيلاسلاسى قرار الفيدرالية وانتهج سياسة الدمج بهدم معالم الكيان الاريتري تمهيدا لابتلاعه ومحو هويته فحرم اللغة العربية وحارب الاسلام (342) ، وفى عام 1962م أعلن ضم اريتريا للحبشة وهو ما أدى لدخوله في صراع طويل معها اعتمد فيه على الغرب واسرائيل فى مواجهة الدعم العربى للثورة الاريترية .

واستنزف هذا الصراع الممتد اثيوبيا وانتهى الامر بالإطاحة بهيلا سيلاسي عام 1974م على يد "منجستو" الذى لم يغير فى اسلوب التعامل مع المسلمين لا فى اثيوبيا ولا فى اريتريا بل استخدم أموال التبرعات الإغاثية المُقدَّمة لهم في تنفيذ مخططاته ضدّهم بتهجيرهم وبتوطين عناصر من القوميات الأخرى في أراضيهم لاضعاف كثافتهم العرقية وتركيزهم الجغرافى ، وكان من جراء عمليات التهجير والاضطهاد والقتال ان إنخفضت نسبة المسلمين من 80% إلى 60% فى اريتريا ؛ وقد بلغت حصيلة هذه السياسات ما يقرب من 100 ألف قتيل وحوالي 750 ألف مشرد وحوالي 90 ألف طفل يتيم.

العرقيات الصومالية

الصومال الغربى - اقليم الأوجادين

تقع أرض الأوغادين وأوروميا فى الهضبة الصومالية ، التى تأخذ انحدارها الطبيعى نحو الصومال جنوباً وشرقاً ، ومنها تنبع الأنهار الرئيسية جوبا وروافده ونهر شيللي الذى يلتقيان فى نهر جوبا قرب المحيط الهندي بالصومال ، والغالبية العظمى من سكان أوجادين من العناصر الصومالية وقبيلة الأوجادين إحدى قبائل الدارود ، ويساكنهم جماعات من الدناكل ، وهناك جالية عربية استقرت بالمنطقة واختلطت بالسكان منذ عهد قديم ومعظمها من اليمن ، والإسلام دين الأغلبية لهذه العناصر وصل إلى المنطقة عن طريق التجار العرب .

كان الأوجادين او "الصومال الغربى" ، جزءا من ارض الصومال احتله الانجليز خلال الحرب العالمية الثانية واقاموا فيه قاعدة عسكرية عام 1941 ، وعند استقلال الصومال عام 1960 قرر البريطانيون تسليم منطقة أوغادين الى "هيلاسلاسى" ليصبح جزء من أراضي إثيوبيا رغم عدم وجود ما يُغرى على هذا الاجراء لفقر الاقليم ؛ لكنه مفهوم فى اطار الممارسات الانجليزية ضد عالم الاسلام لاضعافه وخلق المشكلات المستعصية امامه لاجيال .

³⁴² (فانفجرت المعارضة الى ثورة اقامت لها جبهة تحرير اريتريا بالقاهرة عام 1961 ، وارتكزت الحركة على جذورها العربية الاسلامية وارتكزت الحركة على جذورها العربية الاسلامية وحظيت بدعم عربى عصبه الرئيسى مصر والسودان والسعودية .

ولم يلق الاقليم لفقره الا التهميش والاهمال من جانب الحكومات الاثيوبية المتعاقبة ، ولم يستسلم الاقليم لهذا المصير وإنتابته روح التحرير وكادت بمساعدة الصومال فى عهد سياد برى ان يتحرر فى سبعينيات القرن الماضى بعد تحرير معظم أراضيه خلال معارك الفترة 1977-1978.

توازن الاسلام الوطنى فى اثيوبيا

ورغم النسبة العددية الكبيرة للمسلمين فى إثيوبيا التى كان من المفترض فى ظلها ان يحصل الاسلام على توازنه الوطنى ، والتى كان من المفروض ان تعكس تلك الحقيقة نظم ما بعد هيلاسلاسى ، التى شاركت حركات التحرير الاورومية والاريترية فى اسقاطه ، الا انه لم يحدث رغم ان قيام الفيدرالية الاثيوبية كان محاولة لايجاد حل لمعضلة التعدد العرقى ليشعر كل اقليم انه دولة مستقلة لها علمها وخصوصيتها ، لكنها لم تمنع احتكار اقليم التجبر للسلطة المركزية ، لانتماء زيناوى اليه ؛ فالرئيس "زيناوى" جعل نصيب المسلمين من مقاعد البرلمان 22% فقط ونصيبهم من الوزارات ثلاث وزارات غير سيادية من أصل ثماني عشرة وزارة ، ولم يتوقف الامر عند هذا الحد بل شتت الحملات العسكرية على اراضى القوميات الإسلامية من حين لآخر دون انقطاع وعمل على اضعاف كثافتهم العددية فى اقاليمهم بعمليات تهجير وتوطين واسعة النطاق جلبت الملايين من القوميات الاخرى الى اراضيهم .

اهم الحركات الانفصالية

اولا حركات حققت استقلالها وتوازنها الوطنى :

- حركات تحرير اريتريا

بدأت حركة تحرير إريتريا عام 1958 ، وقامت جبهة التحرير الاريترية كجماعة اسلامية عام 1961 وتحولت الى العمل المسلح بحلول عام 1965 وبدأت نشاطها فى المناطق الريفية بغرب البلاد ، ولخلافات بين كوادرها ، انشق القائد عثمان صالح سبي عن الجبهة الاسلامية لينضم الى مجموعة أفورقي الماركسية التى انشأت جبهة التحرير الإرترية - قوات التحرير الشعبية كمسؤول عن العلاقات الخارجية ، التى رغبت المجموعة فى استغلال علاقاته الواسعة بالدول العربية فى جلب السلاح والتمويل لهذا التنظيم .

وقد استعانت مجموعة أفورقي " بالمسلمين فى هذه المرحلة لاجتذاب الدعم العربى والعناصر المسلمة للانضمام الى الجبهة نظرا لعزوف المسيحيون عن الانضمام الى العمل ضد اثيوبيا التى يتعاطفون معها دينيا ، وعينت البهة رمضان محمد نور كواجهة للجبهة التى انفرد أفورقي بقيادتها ميدانيا ، وبعد إغتيال الجنرال أمان عندوم قائد المجلس العسكري ذى الأصل الإرتري المسيحي الذى أطاح بهيلا سلاسى فى 1975 على يد منجستو هايلي ماريام ، انضم آلاف المسيحيين الإرتريين الى تنظيم أفورقي بعد ان تحولوا عن ارتباطهم المتين بإثيوبيا بعد هذا الحادث .

وبعد أن وقف تنظيم أفورقي على قدميه غير توجهاته بعيدا عن العرب واعوانهم ، وتطلع الى الغرب واسرائيل لاستمداد العون وتحول أفورقي الى الدوائر الغربية التى اصبحت ومنظماتها للإغاثة الممول الرئيسى للتنظيم ، وعمل أفورقي على التخلص من زملاؤه المسلمين داخل الحركة فتخلص من عثمان صالح سبي ، ودخل فى نهاية السبعينيات فى حرب أهلية مع جبهة التحرير الإرترية (الاسلامية) استمرت لعدة أعوام وتمكن بالتحالف مع الجبهة الشعبية لتحرير شعب تجراي العاملة فى المنطقة من طرد قوات جبهة التحرير الإرترية "12 ألف مقاتل" الى شرق السودان فى عام 1981 ، قام النميري بتجريدتها من أسلحتها والاحتفاظ بهم كلاجئين لا يسمح لهم بالعمل أو النشاط انطلاقا من الأراضي السودانية حرصا على علاقته مع اثيوبيا.

شكل هذا القرار ضربة قوية لجبهة التحرير الإرترية الاسلامية ،التى ما لبث أن تفتت لعدة فصائل خرجت جميعا من دائرة التأثير فى الساحة الإرترية ، وانفردت الجبهة الشعبية بالعمل وأصبحت هى الحركة الرئيسية على الساحة وتحولت الى منظمة قومية فى اطار دعوتها بأن الساحة لا تحتل أكثر من تنظيم واحد ، ورفض أفورقي بإصرار جهود الجامعة العربية (تونس) والسودان والعربية السعودية لتوحيد الجبهات والتنظيمات العاملة فى اريتريا ، بل دبر عدة محاولات لاغتيال قيادات المنظمات الاخرى ، ونجح فى تصفية بعضهم بالخرطوم وكسلا ، واخذ فى تعزيز ارتباطه بالغرب ومنظماته الكنسية والإغاثية والابتعاد عن الدول العربية فلم تعد علاقاته بها جيدة بما فيها السودان (رئيس الوزراء زعيم حزب الأمة السيد الصادق المهدي بعد انتفاضة) 1985 .

اخذ أفورقي يعزز قبضته داخل الجبهة الشعبية فتولى منصب الأمين العام (المؤتمر الثانى عام 1987) ، ومكن للمسيحيين

من أبناء المرتفعات خصوصا أبناء إقليم "سراي" الذي ينحدر منه فسلمهم المواقع الحساسة مثل الأمن والمال ، وبدأت توجهاته الطائفية في الظهور فأصبحت التفرقة هي اللغة الرئيسية لتنظيم الجبهة الشعبية ، وابدأ تخوفه من أي دور للدين مستقبلا لتهديده الوضع الطائفي ، واتخذ موقفا عدائيا من اللغة العربية واعتبرها خاصة بقبيلة الرشايدة وساواها باللغات غير المكتوبة لقبائل البني عامر والعفر والساهو والحباب والبلين ، وانتهك التقاليد الإسلامية في حملات التجنيد الإجباري للفتيات التي قامت فيها الجبهة الشعبية بالاغارة على أكثر من 58 قرية جمعت خلالها خمسمائة مجندة ، وكانت هذه الانتهاكات وأسباب أخرى سببا للتصادم أدت لأن يتجه عدد كبير من المسلمون لتكوين حركة الجهاد الإسلامي الإرترى في منتصف العام 1988 بمعسكرات اللاجئي ، وتوحدت جهود التحرير الإريتريّة مع كفاح شعب تيجراي لوجودهما في نفس النطاق الجغرافي فتم التنسيق بين "الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا" مجموعة أفورقي وجبهة تحرير شعوب تيجراي في العمل المسلح الا انهما لم يتمكنوا من تحقيق استقلال إريتريا .

وعقب قيام الثورة الشعبية في إثيوبيا تشكلت "الجبهة الديمقراطية الثورية لشعوب إريتريا (الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا) التي تضم جبهة تحرير شعوب التيجراي وجبهة تحرير الصومال الغربي وجبهة الأورومو التي قامت بدعم الجبهة الإثيوبية الموحدة في القتال ضد نظام الرئيس "منجستو هيلما ماريام ؛ وتمكنت الجبهة الإثيوبية الموحدة من تحقيق انتصارات سريعة ضد النظام ، خلال هذه الفترة نجحت الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا في السيطرة على نسبة كبيرة من ارض الاقليم الاريتري وتمكنت من الاستيلاء على أسمرّة عاصمة الإقليم يوم 25 مايو 1991م.

عقدت الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمراً في لندن في 27 مايو 1991م برعاية "هيرمان كوهين" مساعد وزير الخارجية الأمريكي للشؤون الأفريقية وحضره من إثيوبيا الجبهة الموحدة والجبهة الشعبية لتحرير إريتريا اعقبه مؤتمرين أحدهما سياسي في لندن والآخر عسكري في الخرطوم ، واتفق على تقسيم السلطة بعد إسقاط النظام ، بأن تسيطر الجبهة الشعبية لتحرير تيجراي على مقدرات الأمور في أديس أبابا وتسيطر الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا على إريتريا ، على ان يجري التفاوض بعد النصر بينهما على استقلال إريتريا والحفاظ على مصالح إثيوبيا الإستراتيجية في حق الوصول إلى الموانئ الإريتريّة من دون تحمل أي التزامات ، وقرأ الوضع في معاهدات.

وعقب استيلاء جبهة تحرير شعوب التيجراي على أديس أبابا وهروب الرئيس الإثيوبي "منجستو هيلما ماريام" إلى زيمبابوي، وسيطرة الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا على أسمرّة ، أعلنت الجبهة الإريتريّة تشكيل حكومة مؤقتة لإدارة البلاد وتحولت اللجنة المركزية للجبهة إلى هيئة تشريعية للحكومة المؤقتة وتولى رئاسة الحكومة "أسياسي أفورقي" رئيس الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا ، وأعلنت الحكومة الإثيوبية الجديدة اعترافها بحق تقرير المصير لإريتريا وحققها في الاستقلال إذا رغبت ذلك وطلبت الحكومة الإريتريّة المؤقتة ، تأجيل الاستفتاء حول مصير إريتريا، لمدة عامين، لتهيئة المناخ العام لإجراء استفتاء شعبي، جرى بين 23 - 25 أبريل 1993م ، وجاءت النتيجة، لصالح الاستقلال بنسبة 99.8%، وأصبحت إريتريا دولة مستقلة ذات سيادة والعضو رقم 183 في الأمم المتحدة.

البعد الديني كان مهيمناً في المثال الإريتري فعند مناقشة الأمم المتحدة فكرة ضم إريتريا إلى إثيوبيا من عدمه رفضت الحركة الإسلامية الإريتريّة بقوة الانضمام إلى إثيوبيا التي لم يكن وضع المسلمين فيها مريحاً بينما مال المسيحيون إلى الانضمام إليها لوحدة العقيدة ، ولكن الأمر اختلف في معركة التحرير فقد تغلب البعد القومي على البعد الديني بتحالف المسلمين والمسيحيين معاً لانجاح الهدف القومي في الاستقلال ، مع ظلال للدين بميل أفورقي رغم ماركسيته إلى الغرب ومنظماته المسيحية الاغاثية ثم موافقه التي شابها العصبية بمحabbاته المسيحيين في مناصب الجبهة .

- جبهة تحرير شعب تيجراي

(الجبهة الديمقراطية الثورية (مايو)

تشكلت الجبهة عام 1975 وسعت لتقرير المصير في إطار دولة الوحدة الاثيوبية وتمكنت بالتعاون مع جبهة تحرير أورومو والجبهة الوطنية لتحرير اوغادين والجبهة الشعبية لشعوب إريتريا من الاطاحة بنظام منجستو هايلي ماريام عام 1991 ، وبالتالي سيطر عنصر التجراي على السلطة بزعامة ميليس زيناوي زعيم الجبهة الديمقراطية الثورية (مايو) ، وكرئيس للوزراء في

حكومة الجبهة الشعبية الثورية الديمقراطية انشقت عليه الحركات الحليفة وتحولت الى النضال المسلح ، وأهم المنظمات المسلحة التي تعارضها هي جبهة تحرير أورومو، والجبهة الوطنية لتحرير أوغادين وجبهة تحرير الصومال الغربي (UWSLF) ، وهذه المنظمة لديها طموح في إقامة تيجري الكبرى على النحو المبين في الخريطة.

ثانيا - حركات لم تحقق أهدافها وما زال حلم الاستقلال يراودها
وهي حركات تحرير الشعوب المسلمة ممثلة في جبهة تحرير أورومو- جبهة تحرير أوروم حركة اجدانيا الوطنية - الجبهة الوطنية لتحرير وغاندين - الجبهة المتحدة لتحرير الصومال الغرب (UWSLF) .

- جبهة تحرير أورومو

كانت اوروميا موطنًا للإمارات المسلمة واهمها هرر صاحبة الجهاد ضد الحبشة ، وقام الامبراطور منليك الثاني (الامهرى) بضمها الى اثيوبيا عام 1843 ؛ وتحول الاوروميون طبقا للنظام الاقطاعي الاثيوبي الى مؤجرين لارضيتهم بعد ان كانوا ملاكًا لها ، وعانوا من عسف الضرائب الباهظة ، وكانت معاناتهم من حكم الامهرى والتيجري سببا دائما للعصيان ، وفشلت محاولات هيلاسلاسى استقطابهم ودمج قياداتهم في النظام الامبراطوري فثار Azebo-Raya عام 1928-1930 وقامت حركة الاستقلال عام 1936 ، وتأسست منظمة the Mecha-Tulema عام 1965 ، ومن اخطر ثوراتهم ثورة بال Bale الفترة من 1964 الى 1970 حيث لجأ الثوار للعمل المسلح بمساعدة الحكومة الصومالية وكانت هناك محاولات لتنسيق عمليات الاوروميين مع جبهة تحرير الصومال الغربى ولكن الامور توقفت بما فيها الدعم الصومالى بعد وصول سياد بارى السلطة عام 1969 ، فاضطروا للهدنة مع هيلاسلاسى عام 1970 .

قامت الجبهة الاسلامية لتحرير اوروما عام 1969 لنبذ السيطرة الاثيوبية واقامة الدولة الاسلامية ، واستطاعت جبهة تحرير اوروما اكتساب تأييد معظم قطاعات الشعب الاورومى وقامت بالكثير من العمليات المسلحة وتمكنت من السيطرة على 24 الف كيلو متر مربع من اراضى الاقليم ، وترأس الجبهة الشيخ عبد الكريم بن ابراهيم الملقب جارا ابا ثمدا وتقاوم الحركة محاولات منظمة الاغاثة الدولية التابعة للامم المتحدة لاعادة اللاجئين الاوروميين من البلدان المجاورة (السودان الصومال وجيبوتي) ولكن الجبهة تصر على الا يتم ذلك الا بعد زوال الممارسات الاثيوبية كمحاولة لتوليد ضغط دولي لتغيير هذه الظروف .

كون الاوروميون في عام 1973 جبهة تحرير اورومو (Oromo Liberation Front (OLF لإقامة دولة مستقلة في كل وسط وغرب اثيوبيا باستثناء الاوجادين ، واقليم نهر اومو Omo ، وقامت بعمليات مسلحة هاجمت فيها Harerg عام 1974 وويلجا Welega وارسى في عام 1976 واسوس على الحدود السودانية ، اصبح للجبهة في 1989 قواعد دائمة في بعض المناطق منها هاريرج ، وفي المجال السياسى شكلت الجبهة في 1988 المؤتمر الوطنى الذى انعقد في Begi في اقليم Asosa Region وندد الاجتماع بسياسة منجستو في التهجير والتوطين التى تتهدد هوية الاقليم ، وفي خضم مرحلة الثورة الاثيوبية ساهمت الجبهة في اسقاط نظام منجستو في اطار تعاون جبهات التحرير ضد نظامه ، ولكنها انشقت على النظام الجديد في اديس ابابا بقيادة زيناوى عام 1992 ؛ ولجأت الى المنفى في اريتريا لمواصلة النضال.

ويتهم الاثيوبيون اريتريا بدعم الجبهة وتدريب عناصرها ، والجناح العسكري للجبهة لا يشكل تهديدا قويا لقوات الحكومة الاثيوبية لافتقارها للتمويل الذى ضغط عملياتها منذ عام 2006 رغم انضمام بعض الاوروميون المنشقين عن الجيش الاثيوبي الى الجبهة مثل عميد كمال Gelchu قائد الفرقة الثامنة عشر ومعه عدد كبير من الجنود كانوا متمركزين على الحدود مع اريتريا . وبسبب انقسام قيادلت الجبهة تعرقلت العمليات المسلحة فقبلت عام 2008 الدخول في محادثات مع الحزب الحاكم في أمستردام أواخر عام استمرت حتى عام 2009 لكنها فشلت لاصرار الجبهة الديمقراطية الثورية الشعبية الحاكمة على تخلي جبهة تحرير أورومو عن استخدام القوة المسلحة أولا وقبلها الدستور الاثيوبي .

الاوجادين

فى الاوجادين نادوا بإقامة دولة اسلامية على مساحة شاسعة من جنوب اثيوبيا ، وقاد " مختل طاهر " ثورة مسلحة عام 1963 من اجل ذلك.

- جبهات تحرير الوجوديين

(الجبهة المتحدة لتحرير الصومال الغربي (UWSLF)

حركة ايجادنيا الوطنية - الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين) .

أ- الجبهة المتحدة لتحرير الصومال الغربي (UWSLF).

تكونت الجبهة من ثلاث جبهات هي:

& جبهة تحرير الصومال الغربي WSLF .

& جبهة الشعب لتحرير الصومال الغرب .

& الاتحاد الإسلامي في أوغادين .

الاولى .. جبهة تحرير الصومال الغربي WSLF تشكلت عام 1963 للنضال من اجل حق تقرير المصير الوطني والوحدة مع الصومال ، وتمكنت خلال الفترة 1977-1978 من تحرير 95 % من اراضي الاقليم ، الا ان المساعدات السوفيتية والكوبية مكنت النظام من القضاء على انتصارات الجبهة وهزيمة ثوار الوجوديين عام 1977 وانسحابهم من معظم مناطق الاقليم الذي كادوا ان يحرروه .

الثانية.. "الجبهة الإسلامية لتحرير الصومال الغربي" تأسست عام 1991 و تعد الذراع العسكري لحركة الاتحاد الإسلامي (الاعتصام بالكتاب والسنة حاليا) ، ويرأسها الإسلامي الشهير إبراهيم حسين ، وفي 29 يوليو 2009 دخلت في مفاوضات مع النظام الإثيوبي بعد عشرين عاما من الحرب ، مقابل ممارستها الدعوة والخدمات الاجتماعية في الجنوب وهي الخطوة التي عارضها عدد كبير من علماء حركة الاعتصام الذين اعتبروها استسلاما للنظام الإثيوبي وتخلياً عن قضية أوغادين.

وهناك الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين ONLF وقد تأسست عام 1984 وتنشط في إقليم أوغادين ، أو ما تسميه "الصومال الغربي المحتل" ، بدأت العمل المسلح عام 1994 بعد رفض النظام الحاكم منح الاقليم حق تقرير المصير ، وترأسها الأدميرال الصومالي محمد عمر عثمان الذي تلقى تعليمه في الكلية الحربية بالقاهرة والاتحاد السوفيتي وعمل في البحرية الصومالية ، وتعد الجبهة من أبرز الحركات المسلحة في إثيوبيا وهي جبهة وطنية هدفها تحرير إقليم أوغادين الصومالي الذي يذخر بثروات نفطية كما يراه البعض.

وبعد انهيار حكومة منجستو عام 1991 دخلت الجبهة المعترك السياسي فسجلت نفسها كحزب سياسي ، وشاركت في الانتخابات البرلمانية المحلية في الإقليم الصومالي وحصلت على 84 في المائة من المقاعد ، وتولت الحكومة الإقليمية في الفترة من 1991 حتى 1994 بالتحالف مع "جبهة تحرير غرب الصومال"، وصادق البرلمان الإقليمي في أوغادين في عام 1994 على إجراء استفتاء على استقلال الإقليم غير أن الحكومة الفيدرالية أجبرت الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين على الخروج من الحكومة وهو ما فجر صراعا مسلحا في الإقليم.

وهذه الجبهة تعتبر نفسها حركة وطنية لا تمت بصلة للإسلاميين في الصومال ، وسبق أن طردت عناصر من حركة الشباب من الإقليم وهو ما أكسبها تعاطف بعض الدول الغربية التي لا تعلن صراحة تأييدها للجبهة ، وسجلت منظمات حقوقية غربية انتهاكات لحقوق الإنسان في الإقليم الصومالي.

محاربة القوميات المسلمة

إضعاف الكثافة السكانية والهوية الثقافية

لم تألأ إثيوبيا جهدا في محاربة الاسلام سواء في اوروميا او الوجوديين او العفر، فقد حاربت اللغات القومية واعتبرت تعليم اللغة العربية جريمة يعاقب عليها القانون وأغلقت مكاتب تعليم القرآن واللغة العربية وحكمت اقاليمهم بالحديد والنار ، فثارت الاقاليم ضد سيطرة الامهريين ونادى الثوار بحق تقرير المصير .

وبعد زوال الحكم الامبراطوري وقيام النظام الماركسي العسكري حاول اضعاف النزعة القومية ؛ فقرر النظام الاثيوبي في مواجهة هذه التمردات خلخلة الكثافة الاسلامية الصومالية بالاقليم فاطلقت الحكومة عام 1978 برنامجا لتهجير وتوطين 3 مليون امهري الى الجنوب الاورومي والوجوديين .

وعجلت الحكومة بعد مجاعة 1983 - 1984 ببرامج التهجير لتصل بها الى 1,5 مليون مستوطن شمالي الى وسط

وجنوب البلاد قبل عام 1985 ، والاسراع بعملية المزارع الجماعية فى اقليم Hargarie حيث تنشط جبهة تحرير الوجوديين . وقبل نهاية 1986 تم نقل 3 مليون لتأمين الاقليم وتقدر Africa Confidential فى عدد ديسمبر 1988 ، انه سيكون قد تم نقل 15 مليون قبل نهاية 1989 ، ومن غير المعروف على وجه الدقة ما تم من تهجير منذ الانقلاب على منجستو مايو 1989 .

الثالثة الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين

نشأت الجبهة عام 1984 بعد هزيمة الجيش الصومالي وجبهة تحرير غرب الصومال (WSLF) في حرب أوغادين 1977-1978، وبعد انهيار الحكومة في الصومال عام 1991 عاد كثير من اللاجئين الأوغاديين من الصومال ودعموا الجبهة ، وسجلت الجبهة نفسها كحزب سياسي وشاركت في الانتخابات البرلمانية المحلية في الإقليم الصومالي وحصلت على 84 في المئة من المقاعد ، وشكلت الجبهة الحكومة الصومالية الإقليمية في الفترة من 1991 حتى 1994 كما سبق القول ، في تحالف مع WSLF وصادق البرلمان الإقليمي قرارا في عام 1994 لاجراء استفتاء على استقلال اوغادين وردت الجبهة الشعبية اجبار الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين الخروج من الحكومة، وإستبدلتها بمجموعات أكثر مرونة ونقلت العاصمة الإقليمية الي المدينة الشمالية Jigjiga ، ذات الأغلبية غير الأوغادينية .

حملت الجبهة السلاح ضد الحزب الحاكم في أعقاب اندلاع الصراع عام 1998 بين إريتريا وإثيوبيا ، وقامت الحكومة الإريتيرية بتمويل وتدريب والجبهة ، وفي أواخر عام 2006 علق محمد عمر عثمان أن هدف الجبهة اجراء استفتاء في المنطقة الصومالية ليقرر السكان ما اذا كانوا يريدون البقاء كجزءا من إثيوبيا او قيام دولة مستقلة أو الانضمام إلى الصومال ، وقاطعت الجبهة الانتخابات الإقليمية عامي 2000 و 2004 التي فاز بها حزب SPDP الذى إضطر الى تأجيل الانتخابات البرلمانية في عام 2005 لانعدام الأمن في المنطقة الصومالية بسبب تكثيف الجبهة هجماتها المسلحة ، ولدى الجبهة كوادر ذات خبرة قتالية ممن تلقى تدريباً عسكرياً اثناء خدمتها في جيش سياد بري كما دربت إريتريا ما بين 2000 و 3000 من مقاتلى الجبهة عام 2004 ، وتتلقى الجبهة دعماً مالياً من إريتريا وبعض الدول العربية والسودان والأوغاديين في المهجر) أمريكا الشمالية وأوروبا والشرق الأوسط) ، ومن غير المعروف تفصيلات وافية عن الموقف حالياً ، الجبهة متحالفة مع جبهة تحرير أورومو منذ عام 1996 وانضم إليها خمس مجموعات منشقة إثيوبية أخرى عام 2006 كجزء من التحالف من أجل الحرية والديمقراطية.

البعد الدينى

لم يكن الدين عاملاً مشتركاً بين الحركات الإسلامية الانفصالية فالجميع غلب عليه الطابع القومى ، فلم تسع هذه الحركات لوحدة اسلامية فيما بينها او يدعم بعضها بعضاً الا فى حالات محدودة ، وقد يكون السبب البعد الجغرافى بين مواقع الاقليات التى كانت تسعى فى الاصل للانضمام لامتداداتها العرقية الملاصقة ، فاعناها الامر عن التفكير فى وحدة مع غيرها.

حركة تحرير العفر

والعفر مسلمون عرب ينتسبون لاحدى اسر اليمن الحاكمة اسرة "انكلي" ومنها اكتسبوا تسمية الدناكل ، ويتوزعون بين دول القرن الإفريقي الثلاث اثيوبيا وإريتريا وجيبوتي ، وأهم قبائلهم فى اثيوبيا داموهيتا ، موداليتو كراو، المعدينا، ورايتو ، اومنتو ، نوتو ، تهدتو ، وهورنبا وهي قبيلة عربية اندمجت مع قبيلة بلعسوة ؛ ولهم تاريخ عريق في الإسلام فهم اهل مملكة "إفات وتوابعها" ولهم ممالك اخرى اقيمت بعد ذلك ، ويسمون العدليون نسبة لامارة عدل ويطلق عليهم الدناكل ، وكانوا من المجاهدين فى جيش الامام الجرى ، وعادة ما كان للعفر سلطنات مستقلة يحكم كل منها سلطان بعد انهيار عدل ؛ ففي عام 1577 انقسمت عدل الى دولتين هرر الدولة المدينة والاخرى The Aussa Sultanate فى Aussa التى انتقل اليها محمد جاسا Muhammed Jasa من هرر واتخذها عاصمته ، وفى عام 1672 تقريبا تلاشت السلطنة فى عهد عمر دين بن ادم . وفى عام 1734 استولى على السلطة القائد العفرى كيدافو Kedafu زعيم المودياتو Mudaito ، واسس فى المنطقة الشرقية لاثيوبيا قرب حدود كل من إريتريا وجيبوتي ، سلطنة على انقراض إمارة Imamate of Aussa عام 1734 ؛ يُطلق

عليها **Aussa Sultanate** وكانت تتزعم بقية السلطنات وبعد خمسة عشر عاما تولى محمد ابن كيدافو السلطة لمدة 30 عاما كسلطان ، ثم ابنه **Ijdahis** 20 سنة و السلطان محمد بن حنفضة **Mahammad ibn Hanfadhe** وهومن دهر القوة المصرية التي هاجمت الحبشة وقتل قائدها **Wernerr Munzinger** عام 1875 . ولما اشترى الايطاليون ميناء عصب (اريتريا 1890) من السلطان المحلي ، اضطر السلطان محمد لتوقيع الاتفاقيات مع الايطاليين ، الامر الذى اغضب منليك الثانى وارسل جيشا يعسكر قرب السلطنة كنوع من الضغط لمنع تعاونه مع الايطاليين فى الحرب ضد اثيوبيا .

وفى الحرب الحبشية الايطالية الثانية تعاون السلطان محمد يايو **Mahammad Yayyo** مع الايطاليين عند إحتلالهم الحبشة ، فلما عاد الاحباش للسلطة عام 1943 أرسلوا قوة اعتقلته واقامت ابنه سلطانا ، وفى عام 1975 تفجر الصراع بين السلطة الاثيوبية وبين السلطان على مرح سلطان العفر فى دلتا نهر اواش فى اقصى شرق اثيوبيا على الحدود مع جيبوتى بسبب التضرر من سياسة اصلاح الزراعى ؛ ونفى **Alimirah Hanfere** الى السعودية عام 1975 وعاد عام 1991 بعد سقوط النظام العسكرى وهو من مؤيدى الوحدة الاثيوبية ومات عام 2011 ، وتقلد ابنه حنفضة السلطنة باقرار السلطنات العفرية السبع ذات الحكم الذاتى فى كل من اثيوبيا وجيبوتى واريتريا ولكن سلطته عليهم غير معلوم وجودها حاليا .

حصل الاقليم على الحكم ذاتي فى اطار الدولة الفيدرالية الاثيوبية نتيجة لمؤتمر لندن للمصالحة الذى وافقت فيه الجبهة الاثيوبية الحاكمة عام 1991 على حق القوميات المختلفة فى إنشاء حكومات فيدرالية لها داخل اثيوبيا فى أعقاب وصول الجبهة الديمقراطية الثورية لشعوب اثيوبيا (اهاق) الى حكم البلاد بعد إسقاط نظام هايلي ماريام الذى ساهمت جبهة التحرير العفرية فى اسقاطه ، ويشكل اقليم العفر خمس مساحة اثيوبيا و4% من سكانها وكلهم مسلمون متأثرون بالثقافة العربية ولديهم عدة أحزاب سياسية اندمجت فى الوقت الحالى تحت حزب واحد هو الجبهة الديمقراطية المتحدة العفرية أما البرلمان الإقليمي للعفر فهو يتشكل من 48 عضوا ينتخب هذا البرلمان من بين أعضائه 15 عضوا من المكتب السياسي 16 عضوا للحكومة المحلية لمجلس الوزراء الإقليمي ويتم اختيارهم بنسب متفاوتة من جميع الأحزاب التي تشكلها الجبهة القومية الفيدرالية الموحدة ؛ ويمثل الإقليم بعضوين فى البرلمان الفيدرالي.

وضع العفر فى جيبوتى

يشكلون إحدى أهم قوميتين فى جيبوتى (العفر والعيسا) وهم القومية الأكثر عددا يقطنون جنوب البلاد على ساحل البحر الأحمر فى إقليم دانكاليا الاريتري ، وهناك منهم يعيشون فى إقليم - تجراي - وولو - شو- فى شمال جيبوتى وغربها ويحتل عفر جيبوتى مساحة قدرها 20 ألف كم2 من مجمل مساحة جيبوتى البالغة 23 ألف كم مربع ومن أهم السلطنات العفرية فى جيبوتى سلطنة رحيثا وسلطنة تاجورا وسلطنة اوبك وسلطنة غوبعد ؛ ووفقا للاتفاق المبرم بين الحكومة وحركة التمرد العفرية بقيادة جبهة الوحدة والديمقراطية يتقاسم السلطة العفر والعيسا ؛ وبموجب ذلك جاء تعيين محمد ديلتا من العفر رئيسا للحكومة الجيبوتية ، وفى اريتريا انخرط العفر فى الثورة الاريترية منذ انفجارها عام 1960 م ، انب سلطات اريتريا .

حركة تحرير بني شنقول (اقليم سد النهضة)

ترجع اصولهم الي المجموعات العربية التي هاجرت الي اقصى جنوب النيل الازرق وذابوا فى القبائل المحلية وعرف جزء منهم باسم الوطاويط وهم المجموعات التي هاجرت الي اثيوبيا والمنطقة الحدودية فى فترة متاخرة ، وفر البعض منهم من السودان هربا من ملاحقة قوات محمد علي باشا الى الاراضي الاثيوبية ولم يرضخوا لملوك الاحباش ؛ وقد استخدمهم الانجليز ايام ما كان جزءا من السودان فى دعم الجيش الانجليزي (باندا فونج) فى حرب الايطاليين على الحدود السودانية وكانت مهامهم تتركز فى حماية الحدود ؛ وتنازل الانجليز عن اقليمهم لاثيوبيا بعد سقوط المهديّة مقابل انسحاب الاخيرة من منطقة القلابات المصرية الى جنوب فازو غلي والروصيرص عند منطقة(باردا - بمبدي) التي احتلها منليك عقب سقوط ام درمان .

بعد ضم الاقليم الي الحبشة عانوا من تهيش السلطات واستشعروا انتقاص دينهم ولغتهم العربية فتمردوا فى بداية عام 1931م علي اساس انهم جزء لايتجزأ من السودان وطالبوا بعودة الاقليم الي الاراضي السودانية وقوبل طلبهم بالرفض والعنف ، وخلال حكم هيلاسيلاس طالبوا بحكم ذاتي فقبول طلبهم بالرفض فاستمر النشاط المسلح للحركة؛ ولم يُحقق لهم النظام العسكرى بقيادة منجستوا الاشتراكي الذى اطاح به هيلاسيلاس طموحاتهم فخرجوا على السلطة المركزية فى اديس ابابا وكونوا حركة تحرير شعب بني شنقول(BpLM) ، وإنفجر القتال بين الحركة والنظام من عام 75- 1991م ، ونزح الكثير منهم الي السودان ،

واستمر القتال وتحالفوا مع الجبهة الثورية لتحرير شعوب اثيوبيا بزعماءة مليس زناوي الى ان انتهت الحرب الاهلية في 21مارس 1991م ووصول الجبهة الثورية الي السلطة وتم اعتماد النظام الفدرالي القائم علي اساس الديمقراطية القومية ، وتم تعيين بني شنقول اقليما بالشراكة مع قومية القمز ، وسمي اقليم (قمز بني شنقول الوطني) ولكن الطموحات لم تتحقق فأنقسمت الحركة فشارك بعضها في الحكم وعادت مجموعة من بني شنقول الى التمرد على نظام مليس زناوي .

الوضع الاقليمي واثره على جهاد بني شنقول

في يونيو 1989م تولت حكومة الانتقاذ الوطني السلطة في الخرطوم وبتوجهاتها الاسلامية عملت علي مناصرة القضايا الاسلامية ومنها قضية بني شنقول باعتبارها ذات جذور سودانية ، وفي عام 1991م وصل التجري الي السلطة في اثيوبيا وفي اريتريا ايضا ممثلا في اسياسي افورقي وهو من قومية التجري ، وتضادت الانظمة لتباين الروي السياسية بين الانظمة في الدول الثلاث ، فأنضمت اسمرا واديس ابابا الى مشروع شد الاطراف الامريكي لاسقاط حكومة السودان ودعموا الحركات المسلحة المناوئة لها (الجيش الشعبي لتحرير السودان - التحالف السوداني - التجمع الوطني الديمقراطي - الاسود الحرة الخ) وبالمقابل دعمت السودان الحركات المناوئة لكلا البلدين حركة تحرير شعب بني شنقول - حركة تحرير الارومو - جبهة التحرير الارترية - الجبهة الاسلامية الارترية (الخ) ، فاستخدمت حركة تحرير بني شنقول الارضي السودانية في تحركاتها ضد القوات الاثيوبية وساندتها ايضا مجموعات بني شنقول في الدمازين - الكرمك - قيسان - الروصيرص كسند خلفي للحركة .

لكن انفجار الوضع بين اثيوبيا وارتريا حول مثلث بادمي الحدودي اضطر اثيوبيا الي التحالف مع السودان واليمن (حلف صنعاء) ضد اريتريا بفعل عدائيتها للدول الثلاث (مع اليمن علي جزر في البحر الاحمر - مع جيبوتي علي مناطق الساحل - مع السودان بدعم الحركات المناوئة) ، وتطورت العلاقات الاثيوبية السودانية لتشمل المجالات (السياسية - اقتصادية - امنية) ، وادي هذا التحول لوقف الانشطة المسلحة في الشريط الحدودي ، وتفكيك الحركات المسلحة المدعومة والحد من انشطتها 0

الحركة والاعتراض على سد النهضة

سيقام سد النهضة في منطقة بني شنقول وقامبيلا ، وهي المنطقة الحدودية التي كانت جزءا من السودان ومصر حتى العام 1896 م ، عندما ضمتها اثيوبيا واعتبرتها واحدة من الاقاليم الثلاثة عشرة ، والقبائل السودانية التي تسكن هذه المنطقة تعترض ومعها حركة تحرير بني شنقول الاثيوبية المعارضة علي تنفيذ هذا السد وأصدرت ثلاثة بيانات بتاريخ 1 / 9 / 2012 م في هذا الخصوص نفت من خلالها الاعتراف بتوقيع الحكومة الاثيوبية اتفاقية مع بعض عناصرها بالموافقة على اقامة السد واعلنت في بياناتها فصل الموقعين من الحركة وهم جعفر زروق ، أحمد التوم بروزة ، والبديري هاشم ، وإنذار الشركة الإيطالية (سالييني) القائمة على تنفيذ مشروع سد النهضة بمقاضاتها ، مع تأكيدها على حقها في إيقاف التنفيذ بأي وسيلة لاضراره بسكان الإقليم من تهجير وحرمانهم من ثروات الإقليم مع التأكيد على الاستمرار في اتخاذ ما تراه مناسباً من أجل الحصول على حق تقرير المصير ، وتردد انه تم توقيع اتفاق توقيع اتفاق سلام بينهم وبين الحكومة الاثيوبية اواخر 2012 .

ثالثا انفصال جنوب السودان

غوردون وجذور المشكلة

وضع غوردون الخطوط العامة لمشكلة جنوب السودان في ادارته الاولى على نحو ما اوردنا من تفاصيل ، بإضعاف ارتباطه بباقي السودان عندما حجب العرب والسودانيين عن ادارته بدعوى انهم يعرقلون الحرب على تجارة الرقيق واستبدالهم بحكام اوروبيين ، ودفعه التبشير الى المنطقة بحرصه على توصيل رسالة ارنست في هذا الخصوص الى لندن يظهر نواياه في ضمان عدم انضمامها الى عالم الاسلام ؛ كما ان تفكيره في مرحلة اخلاء السودان ضم الجنوب الى اوغندا او ممتلكات ملك بلجيكا في الكونغو بدون اذن موكله ، استنادا لوجهات نظر شخصية ترعى مصالحه الخاصة وانتماؤه وتخالف المصالح الحقيقية لموكله ، وتبريره هذا المنطق بقربه جغرافيا الى المنطقتين اكثر منه الى السودان ، وكنوع من بناء الجسور مع ملك البلجيكي كمقدمة لالتحاقه بخدمته لاحقا لما ادرك انتهاء مهمته في السودان ، ما هو الا خيانة للامانة .

الادارة الانجليزية وتكريس المشكلة

ومنذ الاحتلال الانجليزي عام 1899 ، اتخذت الادارة عددا من الاجراءات قوضت اندماج الجنوب فى السودان ، وحرمته تجانس هويته عندما كثفت الادارة الضغط على الجنوب أضعف اماكن الهوية الاسلامية فى جسد السودان ، وإجتهدت فى إجتثاث مظاهر الهوية العربية والاسلامية فيه وإستبدلوا بالثقافة الإنجليزية والعقيدة المسيحية لاهدار عناصر التماسك والوحدة بين الجنوب والشمال .

التبشير والجنوب

دفع الانجليز بمختلف اطراف التبشير من بروتستانت وكاثوليك للعمل فى الجنوب للحيلولة دون مد الاسلام ، وانطلق عنان التبشير فى " تنفيذ إستراتيجية مجلس الكنائس العالمى التى تبناها عام 1926 بتعجيل تنصير جنوب السودان وكل من اوغندا ونيجيريا قبل تحولهم الى المحمدية خوفا من مد الاسلام (343) ، فقامت الادارة بالقضاء على بدايات التعليم التى كان النظام المصرى قد بدأ فى تطبيقها ، ولم يسمح الانجليز الا بالحد الأدنى من التعليم بما يلزم لاعداد كتبة لاعمال الادارة ، واستمر حرمان الجنوب من التعليم حتى عام 1924 ؛ ومنعت الدعوة الى الاسلام وألغت المحاكم الشرعية وحرمت الزى والاسماء العربية وأرغموا أصحابها على إستبدالها بأسماء إنجليزية ؛ وفى عام 1924 اغلقوا الجنوب فى وجه المسلمين فى اطار قانون الاراضى المغلقة ، بعدما اخلوه منهم بما فيهم التجار ومنعوا إتصال جزءا الوطن الا بأذن خاص ، وعاقبوا كل من حاول من الجنوبيين الخروج إلى الشمال ، وأبعدوا الحامية الشمالية واستبدلوا بالفرقة الاستوائية .

وتردت اوضاع الجنوب فى جميع المجالات من جراء اعادة العمل بنظام الضرائب ؛ وزاد الطين بلة نظرة الادارة الانجليزية المتدنية الى الجنوبيين التى على اساسها فرقّت بينهم واخوانهم الشماليين فى المرتبات فكان الجنوبي يحصل على مرتب اقل من مرتب قرينه فى الشمال ، وفى موجة فوران حركة التحرر بعد الحرب العالمية الثانية فى اسيا والشرق الاوسط ، تبلورت حركة سياسية جنوبية وفتت مع الاحزاب السياسية فى شمال السودان ضد الاستعمار ، وتعاونوا فى العمل السياسى وأفلحت الحركة الوطنية السودانية فى عقد مؤتمر جوبا عام 1947 لمناقشة الاوضاع فى الجنوب ، وندد المؤتمر بسياسات المستعمر فى عزل الجنوب وحرمانه من التعليم وايد اشترك الجنوبيين فى الجمعية التشريعية بالخرطوم وتحقيق المساواة فى الاجور بين الجنوبيين الشماليين والتوسع فى التعليم .

واسفر المؤتمر ايضا عن تجمع الجنوبيون فى حركة سياسة باسم " الرفاهية ، واضطر الانجليز مرغمين على الموافقة على نتائج المؤتمر محاولين التوصل من سياسة الاماكن المغلقة بالقاء تبعاتها على الجنوبيين بالادعاء بأنها جاءت استجابة لرغبتهم ، ولما تقاعس الانجليز فى الوفاء بتعهداتهم نظم الجنوبيون اضرابا شاملا عام 1948 ، فاستجاب الانجليز بإدخال 13 جنوى فى عضوية الجمعية التشريعية وتحقيق المساواة فى الاجور ؛ ولكنهم عقدوا العزم فى الوقت نفسه على احتواء الحركة الجنوبية بتبديد قوتها وتشيت قياداتها واستقطاب البعض منها لشق صفهم لعرقلة التطور السياسى للجنوب ضمانا لاستمرار وصايتهم عليه .

وفى محاولة لبذر الشقاق بين الجنوب والشمال لاضعاف تضامنهما حجب الانجليز الحكم الذاتى عن الجنوب فى الفترة 1950- 1953 بينما منحوه للشمال متعللين باختلاف مستوى التطور بين الاقليمين ؛ ولكن هذا المنطق لم يرض الشماليين الذين رأوا فى التفرقة اضرار بالنظام الدستورى قد تؤدى الى انهياره ؛ وبعدها استشعرت بريطانيا فى مرحلة ما اتفاق الجنوبيين الشماليين ضدها واحتمالات الاستمرار فى التماسك ، وتيقنت هى والتبشير من استقلال السودان شجعوا على بث الانفصالية فى وعى الجنوبيين وروجوا الى ضم الجنوب الى اوغندا او كينيا ، وخطر ما افرز ذلك المخطط وضع نواة لإنقسام السودان ليستمر نزيه طاقاته تشيتا لجهد واختزالا له من احتياطي الاسلام والعرب .

اثر الثورة المصرية على توجهات الجنوبيين

وفى عام 1953 اقامت الثورة المصرية علاقات وطيدة بالجنوبيين ، فرفعوا بتأثير الثورة ، شعار التحالف مع حركة

³⁴³ (" حشد المجلس فى اواخر القرن العشرين لخدمة اغراضه فى افريقيا وحدها 14 الف منصر و16 الف مركز تبشيري و500 مدرسة لاهوتية و600 مشفى و500 مستوصف ، الاهرام نقلا عن جريدة الاتحاد الضبيانية بقلم يوسف خاطر .

التحرير الوطنى فى الشمال بقيادة اسماعيل الازهرى ومعاداة الانجليز ، ولكن امالهم خابت فى الازهرى لعدم وفائه بتعهداته بعد وصوله للحكم عام 1954 ، الامر الذى اضعف التيار الجنوبى الداعى للتحالف مع الحركة الوطنية فى الشمال فى مواجهة التيار الداعى للتحالف مع الاستعمار .

الكنيسة الكاثوليكية ومساعدة التمرد

اصطدمت ارادات الشمال والجنوب ، فاتخذ الازهرى اسلوب القمع فى مواجهة تمرد الجنوب وتفجر الموقف عام 1955 ، واستمر التناقض بين الطرفين مواكبا لحدوث كل حكومة عسكرية ، وفى عهد عبود وقعت احداث تمرد عام 1962 طردت فيه الحكومة عددا كبيرا من المبشرين لتجاوزهم حدود العمل الدينى بتهمة التحريض وتهديد وحدة البلاد ، وأصدرت قانون الهينات التبشيرية للحد من نفوذ المبشرين الاوروبيين وتجريد التبشير من مسئولية التعليم ، وأحالت ادارة كنائس التبشير الى الكنيسة الوطنية فنارت بعثات التبشير ؛ وهذا دليل على أن موقف الحكومة لا يستهدف العقيدة ذاتها بقدر ما كان موجها للنفوذ الاجنبى وبقياء الاستعمار (344) ؛ وقد واكب هذه الاحداث فرار العديد من المتمردين الى الدول المجاورة حيث اقاموا رابطة السودان المسيحى لتحرير الجنوب للترويج لقضيتهم لدى الراى العام العالمى بدعم من الكنيسة الغربية ، وقاموا بالاغارة على الجنوب بمساعدة بعض المرتزقة الاوروبيين ؛ وتفاقم الوضع عام 1971 بتبنى الكنيسة الكاثوليكية مساعدة المتمردين على نطاق واسع ، وبوصول سر الختم خليفة الى الحكم تهيأت فرصة لعقد مؤتمر مائدة مستديرة فى مارس 1965 ، طالب فيه الجنوبيون بتقرير المصير وتفاوت مواقفهم مابين مطالب بالانفصال ومطالب بالحكم الذاتى ؛ بينما تمسك الشماليون بوحدة البلاد ومنح الجنوب حقوقه السياسية بالمشاركة فى الحكم وخصصوا لهم منصب نائب الرئيس ، وأن تكون للجنوب حكومة اقليمية فى اطار السودان المتحد وتحقيق نهضة الجنوب وتكافؤه الاقتصادى مع الشمال .

جاءت هذه التفاهات بلا مضمون حقيقى لثبات كل طرف على اهدافه وتمسكه فى قرارة نفسه بالا يسمح للطرف الاخر بان يحقق هدفه ، وكانت النية مبيتة لدى الجنوبيين فى الاستقلال كهدف نهائى مع تبنى استراتيجية استهلاك الوقت ترقبا بما تسمح به الظروف لانتزاع هذا الهدف .

وكانت هذه الاستراتيجية واضحة امام الشمال الذى اخطأ بعدم المبادرة بتحقيق مطالب الجنوب لدعم التيار المعتدل فى مواجهة التيار الانفصالى الذى اتخذ من تلك المطالب ذريعة لذلك ، وبجمود الموقف اصبح المناخ العام مدفوعا باطراف خارجية مهيا للحلول العسكرية ؛ فقامت جماعة " انيانا " باغارات على الحكومة وتمكنت من فرض هيمنتها على ريف الجنوب ، وتبنت الجبهة السياسية للمتمردين فى الخارج الدعوة لقيام دولة مستقلة باسم " أزانيا " (345) .

حدثت إنفراجة فى الموقف بوصول النميرى الى الحكم فى مايو 1969 ؛ فبعد 15 يوم قرر بتأثير حلفائه الشيوعيين منح الجنوب الحكم الذاتى ؛ لكنه غير موقفه بعد الانقلاب الشيوعى ضده فى يوليو 1971 بتأثير تحالفه مع الاخوان المسلمين معارضوا سياسة التساهل مع الجنوب ولم يفى بتعهداته ، ولما استشعر النميرى معارضة الجنوبيين لسياساته ، ومطالبتهم بنصيب الاسد من عائدات البترول المكتشف فى اراضيهم نقض بنود الاتفاقيات المعقودة معهم واستبعد الجنوب كمقر للمنشآت البترولية ، وتمادى فأصدر فى يوليو عام 1980 قانون تقسيم الجنوب الى أقاليم ثلاثة وحل الحكومة والمجلس التشريعى للاقليم بالمخالفة لاتفاق اديس ابابا .

وفى سبتمبر 1983 قدم النميرى ذريعة اخرى للانفصاليين الجنوبيين بتطبيق الشريعة الاسلامية على الجنوب ، وقدم لهم دعما بشريا وعسكريا سهلا من مقاتلى الجنوب الذين فاضوا عن احتياجات الجيش السودانى وفشل فى استيعابهم فى المشروعات الاقتصادية لعدم تنفيذ مشروعات التنمية فتحولوا بسبب الاحباط الى قوى الانفصال ، وزاد الامر سوءاً خطة الحكومة لنقل جنود الجنوب الى الشمال مما ادى الى تمردهم فى اكتوبر 1975 وفرارهم الى اثيوبيا حيث اقاموا حركة " التحرير الشعبى لجنوب السودان " وجناتها العسكرية "انيانا" ، وهى استقطبت المقاتلون السابقون الذين القوا السلاح عقب اتفاقية اديس ابابا ولحقت

³⁴⁴ لم تفلح عمليات التبشير سوى فى تنصير 10% من مجموع السكان حتى الاستقلال عام 1956 الذين بقى معظمهم على وثنياتهم .

³⁴⁵ تشكلت الجبهة باتحاد حزب " سانو " مع جبهة تحرير السودان الافريقى

بهم ايضا عناصر الجنوبيين المُرحلين من الخرطوم فى عام 1982 فيما يعرف بـ " الكشة" .
وفى الفترة من اكتوبر 1982 وحتى فبراير 1983 تتابع عصيان الوحدات الجنوبية بسبب التحقيقات التى يجريها الشمال فى الاتهامات المالية ضد قادتها ؛ وفى اخر تمرد إنحاز العقيد جون جارنج الى المتمردين الذى تمكن بقدرته على التأثير فيهم ، من تشكيل الحركة الشعبية لتحرير السودان وجيشها .. وبقي الانفصال على رأس الاولويات المعلنة بين الحركات الجنوبية وكان يختفى ويعود للظهور حسب تحالفات المنظمة بما يضمن لها الدعم المستمر والدائم دون توترات.
تبنّت الحركة اليسار وعادت الغرب وتجاهلت مسألة الانفصال ، وتحالفت مع قوى اليسار فى اثيوبيا وليبيا وهيا لها هؤلاء الحلفاء السلاح والتدريب والمال لتوسعة نشاطها ضد مصالح الغرب ، فتمكنت من تعطيل نشاط شركات البترول الامريكية والفرنسية بالمنطقة ولم تستثنى الحركة الشركة الفرنسية العاملة فى تنفيذ قناة " جونجلي" ، واستغلت ما توفر لديها من اموال فى إقامة اذاعة موجهة ومكاتب فى لندن وروما ونيروبي ، وتزايدت قوتها بعدما استطاعت فى 1983-1984 استيعاب مقاتلى المنظمات الاخرى .
فى هذه المرحلة تبنى برنامج الحركة مطالب عامة بدعا بتصفية الحكومة العسكرية ومرورا بتقسيم ثروة الجنوب مناصفة مع الشمال والغاء الشريعة الاسلامية ، وتجاهلت الاشارة الى الانفصال وهو الهدف الاصيل لحركات الجنوب بلا استثناء وكان هذا التجاهل مراعاة لتحالفها مع ليبيا.

تطور المنظور الانفصالي للحركة

تعامل الجنوب مع هدف الانفصال بمرونة تأخذ فى الاعتبار التطورات فى الوضع الاقليمى والدولى وتطوعها لمصلحتها ؛ فاتبعت اسلوب التدرج فى تحقيقه ، فحتى عام 1956 عند الاستقلال لم يُثير الجنوبيون موضوع الانفصال وتمسكوا بالحركة فى اطار السودان العربى الموحد ؛ تحذوهم الرغبة فى سرعة نيل الحرية تحت ضغط موجة حركة التحرير العربية البازغة بقيادة مصر التى لها قول فصل فى الشأن السودانى آنذاك ، وكان الهدف من وراء ذلك تفويت الفرصة على محاولات الاستعمار تأجيل منح الجنوب الحقوق السياسية بدعوى عدم تأهلهم لهذا ؛ وكانت مناداتهم بالانفصال آنذاك ستؤدى الى عرقلة تحريرهم لتخلى الخرطوم ومعها التيار العربى الضاغظ عنهم .
وبعد الاستقلال ظهر تيار الانفصال بوضوح فاتجه الجنوب للتحالف مع النظم الغربية و الإفريقية المعادية للعرب ، مثل اثيوبيا الامبراطورية وتشومبى علاوة على إسرائيل ، وهى نظم أيدت فكرة انفصال الجنوب إنطلاقا من عدائها للعرب ، وعندما سقطت هذه النظم ضعف تأثير قوى الغرب فى الساحة الافريقية فتوجه الجنوب للتحالف مع ليبيا واثيوبيا المتمردتين على الغرب ، وكان لابد مع هذا التطور إعادة ترتيب اولوياتهم لتكون فى اطار السودان الموحد وبدون الاشارة لموضوع الانفصال حرصا على تحالفها مع ليبيا فتجاهل برنامجها مسألة الانفصال .
ومع الحقائق الدولية الجديدة فى النظام الدولى عاد الجنوبيون للتحالف مع الغرب بمباركة امريكية لقضية الجنوب ، وقد عكس اتفاق مشاكوس الهدف الاستراتيجى الاصيل بوضوح عندما نص على حق تقرير المصير وهو ما يعنى الانفصال فى نهاية المطاف.

دور اسرائيل

لم تكن اسرائيل بعيدة عن هذه المشكلة ، فى اطار سعيها لتعزيز الانفصالية بين اقلية العالم العربى وبالذات جنوب السودان الذى كانت المخططات الغربية تعمل بأصرار وبلا كلل على فصله منذ ستينيات القرن الماضى ، تلك المخططات التى كان لاسرائيل دور فيها ومهد السبيل امامها اصدقائها فى زانير واوغندا وعلى رأسهم الرئيس الزانيرى موبوتو الذى كان اول من مد المتمردين الجنوبيين بالاسلحة ثم تولت اسرائيل المسؤولية بعد ذلك ، وقد اعترف جوزيف لاقو (79 سنة) القائد العسكري لحركة أنيانيا أول حركة تمرد فى جنوب السودان (يشغل حاليا منصب مستشار سلفاكير رئيس حكومة جنوب السودان)) نائب الرئيس البشير " بأن استقلال جنوب السودان كان حلمه الأكبر الذى عمل على تحقيقه منذ أن هرب من الجيش فى 1963 ليقود حركة تمرد "أنيانيا" ، وقال أنه تلقى أولى شحنات الأسلحة من الكونغو قبل الحصول على دعم إسرائيل التى زودته بالسلاح بعد رسالته إلى رئيس وزرائها بعد حرب الخامس من يونيو 1967 امتدح فيها نصر اسرائيل على العرب العدو المشترك لإسرائيل والجنوب ، وقال

فيها " أنا أيضاً أحارب العرب وتزويدكم لنا بالأسلحة سيمكننا من التغلب على القوات السودانية ويمنعها من دعم مصر ضدكم ، وحصلت الحركة من إسرائيل على المال والسلاح ، لدعم قوة من 18 ألف مسلح " (346) .

تمركزت العناصر الإسرائيلية من أجل هذا الغرض في زائير وإثيوبيا وأوغندا لترعى مخطط الانفصال ، وتزامن نشاطها مع الانقلاب العسكري للجنرال عبود في السودان في ستينات القرن الماضي الذي شهد عهده نشاط الحركات الجنوبية بدافع من الخارج ، وفي بدايات السبعينيات تدفقت من إسرائيل الأسلحة والخبراء العسكريين ، وبدأت تتعاظم قوى التمرد في ظل هذنتها عام 1973 مع النميري ، وازداد تمرد الجنوبيون في الجيش السوداني وفرارهم ، ففرت وحدة الضابط الفريد أجوان بجنوده وأسلحتهم وانضموا الى حركات التمرد في إثيوبيا حيث التقاه العسكريين الاسرائيليين .

ومن ابرز القادة الجنوبيين الذين ركزت عليهم الجهات الغربية والاسرائيلية جون جارنج الذي درس في الولايات المتحدة على منحة امريكية وحصل على درجة الماجستير من جامعة ايفا وتلقى بها تدريباً عسكرياً وحصل على دورة عسكرية في كلية الامن القومي في إسرائيل ثم انضم الى حركة هينانيا وتصارعت حركته مع اينانيا حتى تمكن من ان ينفرد بالساحة وفي مرحلة ما سيطر على اغلب الجنوب (347).

وقد بلغ حجم الدعم الاسرائيلي للجيش الشعبي لتحرير السودان بقيادة جون جارنج في الفترة من 1990 الى 1999 حوالي خمسمائة مليون دولار حسبما ذكرته مجلة معرخوت ، غطت الولايات المتحدة الجانب الاكبر منه ، وكان هذا الدعم الذي زاد من قوة جارنج ، سببا في رفض الجنوبيون محاولات التهينة من جانب الخرطوم والميل الى الانفصال عكس حركة اينانيا التي لم تُفصح عن اتجاهها بشكل واضح.

ظلال الدين في الصراع

يتضح مما سبق ان الدين ليس هو العامل الغالب في الانفصال ، فنسبة المسيحيين في الجنوب لا تتجاوز 10% من إجمالي الخمسة ملايين الذين هم كل سكان الجنوب (احصاء عام 1988) الذين تغلب عليهم الوثنية ، ويرجع الانفصال في الاساس الى عوامل قبائلية وتحريض المنظمات الغربية والمسيحية واسرائيل التي كان لها دور كبير في إطالة أمد هذه القضية للفوز بالانفصال في نهاية المطاف (348) .

اثار الانفصال

والانفصال وان كان ليس في صالح السودان الا انه ايضا ليس في صالح الجنوب ، ففك الارتباط بعد قرنين ليس بالامر السهل لاضاع ترتبت واستقرت لمئات السنين ، فانفصال الجنوب سيسفر عن دولة هزيلة حبيسة جغرافيا ضعيفة سياسيا تفتقر للهوية الوطنية وعوامل الخلاف كثيرة ولا يجمعها جامع ، تتنازعها ستون قبيلة تتحدث العدد نفسه من اللغات ، قد تنفجر قبائلها في حرب اهلية بدت بوادرها مبكرة إثر محاولة قادة من قبائل الشلك والنوير الاطاحة بجون غارانغ في 1991 ، واحتكمت الفصائل فيه وفي غيره للسلاح واستقطبت بامتدادتها العرقية دول اخرى ، وهناك من يخوف من قيام نظاماً تطغى فيه قبيلة الدينكا " دينكاقرطية " حسبما يسميه المعارضون ، فهناك نحو ثلاثون قبيلة جنوبية تتوجس من هيمنة الدينكا من بينهم جيش جوزيف كوني المنتشر في جنوب السودان (349) ، كما ان فك الارتباط في حالة الانفصال قد يتحول لمأساة اجتماعية واقتصادية تخلف وراءها كم هائل من اللاجئين ، يتعرضون للترحيل بين الجانبين ويقدر عدد الجنوبيين المقيمين في الشمال بحوالي اربعة ملايين جنوبي في مناطق وادي حلفا والخرطوم ، بخلاف تكاليف اعادة تأهيلهم وتسكينهم في ظل اقتصاد هش يهشقه الفساد وينهش عائداته النفطية،

³⁴⁶ (المصدر- وكالة الانباء الفرنسية - أ.ف.ب - ويشير الحديث الى الهدف الاستراتيجي وهو الاستقلال الذي اخفته الحركة الى ان اصبحت الظروف مواتية ، وبعد ذلك وقع لاقو مع حكومة الرئيس الأسبق جعفر نميري اتفاقية سلام أديس أبابا عام 1972 وتولى منصب نائب رئيس الجمهورية ورئيس الإقليم الجنوبي. ³⁴⁷ إسرائيل وحركة تحرير جنوب السودان - نقطة البداية ومرحلة الانطلاق ، العميد المتقاعد موشى فرجى - نقلًا من مقالة الدكتور رفعت سيد احمد ، الدستور العدد 1144 في 13 نوفمبر 2010 .

³⁴⁸ (تصدت السلطة لممارسات التبشير الاجنبي الهدامة على وحدة البلاد بتجريده من مسئولية التعليم وأحالت ادارة كنائس التبشير الى الكنيسة الوطنية ؛ وهذا دليل على أن موقف الحكومة لا يستهدف العقيدة ذاتها بقدر ما كان موجها للنفوذ الاجنبي وبقي الاستعمار.

³⁴⁹ (مارك لافيرني مدير مركز البحوث والتوثيق الاقتصادي والقضائي والاجتماعي في السودان ومصر، عن «ليبراسيون» الفرنسية، 2011/1/13 .

كما ان دولة حبيسة لا موانئ لها ، تعتمد كلياً على الاستيراد من كينيا وجنوب أفريقيا تتحمل عبئاً كبيراً كرسوم مرور في اراضي الغير لوارداتها وصادراتها بخلاف المبالغ الباهظة لوارداتها من تلك الدول ، ومشاكل التداخل العرقى مع الدول المحيطة ، وما ينتظرها من مشاكل مع الشمال بالنسبة لترسيم الحدود بتحدياته الكبيرة خاصة في المناطق التي تتداخل فيها العرقيات الشمالية والجنوبية ، بخلاف العبئ الاقتصادي الهائل لاقامة دولة واستمرارها ، وقد ينتهي جنوب السودان بامتصاصها في احدى الدول المجاورة دون ان تهناً ومعها من صنعها بحلم الاستقلال .

الخلاصة

نخلص مما تقدم الى:

أن الدين وحده لا يكفي كأساس لشحن الافكار الانفصالية ولكنه يساهم بقدر في الاطار القومي ؛ وقد يكون من المفيد للاقليات المسلمة وللإسلام والمسلمين الا يطالبوا بكيانات اسلامية منفصلة تجنباً للحساسيات واستعداد الآخر في وقت يكون وجودهم داخل المجتمع نواة قوية لمد الإسلام .

ويؤكد دكتور " جمال حمدان " هذه الحقيقة في كتابه " الإسلام المعاصر " فيقول " انه رغم تحفظ الدول الافريقية سياسياً على الإسلام إلا أنها لاتحارب امتداده وإن استمرار وجود أقلية مسلمة داخل كيان الدولة نقطة في صالح الإسلام تلعب فيه دور المبرر ، وأجلاً أو عاجلاً لابد وأن يحقق الإسلام توازنه الوطني وتشير الدلائل إلى أنه يسير في هذا الاتجاه المدى وأياً كانت الظروف فأوضاع الديانات لم تستقر بعد في القارة وهذه نقطة أخرى في صالح الإسلام ومازالت إفريقيا باتساعها مفتوحة بقوة أمامه .

الباب التاسع تحديات العمل الاسلامى والتعاون الاسلامى الافريقى جنوب الصحراء

1) الانقسامية بين شمال وجنوب الصحراء

بث الاستعمار لدى مثقفى القارة انها منقسمة الى جزئين مختلفين جغرافيا وعرقيا وثقافيا ، تفصل بينهما الصحراء فهناك شمال عربى مسلم و جنوب زنجى تغلب عليه الوثنية والمسيحية ، وتأسيسا على هذا التقسيم بالعرق الزنجى واللون الداكن الذى يميز الافريقى ، قامت دعاوى زواج المهجر بتأكيد الاعتزاز بالانتماء للعنصر الزنجى فى مواجهة تعالى العنصرية البيضاء ، فاطلق زواج المارتينيك فكرة الزنجية واطلق زواج اميركا فكرة الافريقانية ، والفكرتين دارتا حول قضايا الانسان الزنجى واعتزازه بقارته الام افريقيا التى اتخذها وطنها مطلقا لا يعرف له فيها وطنها محددا ؛ ومن منظور هذه الفكرة جاء ارتباطه بافريقيا الزنجية جنوب الصحراء.

ورغم القاسم المشترك لقضايا شمال الصحراء وجنوبها على ارض القارة فى مصيبة الاستعمار والنضال من اجل الاستقلال ، كانت قضايا افريقيو المهجر مختلفة فهى قضايا مكافحة العنصرية البيضاء ومثالب قضية الرق ، وهى هم اخر تحملها ايضا شعوب جنوب الصحراء مع اخوتهم فى المنفى ، فأتسع نطاق قضايا الجنوب عن قضايا الشمال العربى ، وحالت ضغوط الاستعمار القوية دون تلاقى الطرفين لافشال تضامنها ضده ، وظل نضالهما من اجل الاستقلال منفصلا لا رابط بينه الا فى اطار ما قدمته دولة عُمان ومصر والدولة العثمانية فى شرق افريقيا ودول الاسلام والطرق الصوفية لجهاد مسلمى جنوب الصحراء ، وظل الحال على هذا النحو الى بدايات القرن العشرين ، فلم يستطع التواصل الهش بين الشمال والجنوب فى اطار الحركة المعادية للاستعمار ببروكسل عام 1929 ، برعاية محمد فريد وحافظ رمضان ان يجمع قضايا الطرفين ، وكان أقوى إسهام فى جمع قضايا الطرفين ما تم على المستوى الفردى على يد المصرى محمد على دسوقي السابق التعرض لدوره ، وهذا الاسهام من جانبه يعبر عن احساس بعناصر الانتماء المشترك ، واخوة الارتباط بين الشمال والجنوب ومغزاه كبير وان ظل فى اطاره الضيق حتى قيام الثورة المصرية التى جعلت هذا الانتماء مد حقيقيا كبيرا.

ولما كانت الهوية الافريقية والزنجية لا تعنى مسلمو جنوب الصحراء لان لا عنصرية فى الاسلام ، فقد شجع الاستعمار غيرهم على فكرة الافريقانية والزنجية كأساس للهوية القومية ، ليضمن انقسام شعوب جنوب الصحراء بين مسلم يتخذ الاسلام هوية ويرفض العرقية ، وغير مسلم يبنى هويته على اساسها وربطها بالغرب ، فيؤكد انقسام جنوب الصحراء بتوزيع ولاعات شعوبه ، ، فان وحدتهم الزنجية قسمتهم الهوية الاسلامية بامتداتها الاخوية خارج العرقية ، وفى نفس الوقت انفصال زنوجة غير المسلمون عن بيض شمال العرب المسلمين.

وحالة ليوبولد سنجور الفيلسوف السنغالى ومنظر الزنجية واول رئيس مسيحى فى دولة اغلبيه مسلمة بعد الاستقلال ، تعبر حالته عن تأثير الانقسامية التى بثها الاستعمار والانفصالية التى بنتها الافريقانية فى فكر الافريقيين ، فأخذ يعادى تراث الماضى الاسلامى لبلاده وهو يروج للزنجية فى غرب افريقيا المسلم فى عمومها ، فهاجم سنجور الاسلام موروث شعبه الثقافى امام احدى الجامعات الفرنسية عندما وصف ثقافة الاسلام فى بلاده " بأنها استعمار ثقافى ، هو اسوأ اشكال الاستعمار ، وان الاستقلال الثقافى شرط لايمكن اغفاله لتحقيق الاستقلال " ؛ وفى كلمته فى جامعة السربون بمناسبة منحه الدكتوراة الفخرية اعرب عن تقديره للحضارة الاوروبية وانتقد التراث الاسلامى دون مراعاة لمشاعر الاغلبية المسلمة التى يحكمها فيقول " اهتدينا بتوجيهاتها (الحضارة الاوروبية) القيمة لكيفية التميز والرقى بحضارتنا الزنجية عن اولئك الذين احتونا (يقصد المسلمين) ؛ وهذا النقد يعنى ايمانه بالافكار التغريبية المناوئة للاسلام والانفصال عن عرب القارة ومسلميها من السود الذين ينتمى اليهم شعبه .

وهذه التقسيمات العرقية لا سند لها فى تاريخ القارة ولا ضمير الاسلام الذى جب ظاهرة اللون والعرق ؛ ولا يمكن ان تقيم فاصلا بين شعوب شهدت حركة كبيرة من الانصهار والتمازج البشري والثقافى فى معظم الاحوال ، فاللغة العربية وابدعيتها كانت لغة الادارة والتجارة والثقافة فى معظم افريقيا جنوب الصحراء .

وفى شرق القارة استمرت هى اللغة السائدة فى العديد من مدن الساحل وتركت اثارا واسعة على اكثر اللغات المحلية شرقا وغربا بما فيها لغات الشعوب الهوسا والفولانى غربا والسواحلى فى الوسط والشرق ، فهذه اللغات غنية بالمفردات العربية بنسبه

تتراوح ما بين 40 – 60 % وكانت تُكتب بالابجدية العربية.

فعوامل التواصل تجب عوامل التواصل ، تفرغ التقسيم المصطنع من مضمونه ، فلا يمكن للصحراء التي جعل منها الاسلام همزة اتصال بين الشمال والجنوب ان تكون حاجزا يحجب حقائق التاريخ والجغرافيا ومصالح الحاضر والمستقبل.

تأثير الانقسامية على العمل العربي والافريقي

بعد نُصح العمل العربي الافريقي تخلص العديد من الافريقيون هذا العداء ، فسنجور نفسه إنضم فيما بعد لحركة الافريقانية القارية القائمة على الانتماء الى الشخصية الافريقية وليس للزنجية القائمة على العنصرية ، وهو المنحى الذى تبناه معظم زعماء القارة أمثال موديبيوكينا ونكروما وسيكوتورى الذين رأوا أن الزنجية التي كانت وسيلة تجمعهم للاتحاد لمكافحة الاستعمار لم يعد لها محل فى اطار الوحدة الافريقية الشاملة بعد الاستقلال ، وإلا أصبحت دعوة تقسيم تبعث الفرقة وتضعف الجبهة المناهضة للاستعمار وتخدم مصالحه .

ولم يمنع هذا التطور الايجابى بعض زعماء جنوب الصحراء من التشكك فى مدى اخلاص الشمال العربى بتوجهاته نحو القومية العربية ؛ لقضايا القارة وإيمانها بالوحدة الافريقية ؛ فنكروما عبر صراحة عام 1958 عن تشككة فى دور مصر الافريقى بسبب تبنيها فكرة القومية العربية ، رغم علمه بدور الثورة المصرية العظيم فى دعم حركة التحرر الافريقية ؛ هى التى الهبت روح النضال وحدثت فى القارة تأثيرا لا يقل بحال عما أحدثته الثورة الفرنسية فى اوربا .

وعند إنشاء منظمة الوحدة الافريقية عام 1963 ، انقسم الاعضاء الافريقيين حول انضمام دول الشمال العربية ؛ فقطاع من القادة الافريقيين طالب العرب بالانسحاب من جامعة الدول العربية لتعارض تيار القومية العربية مع تيار الافريقانية ، منعا لانقسام ولاء الاعضاء ومنعا لانغماس المنظمة فى قضايا عروبية وغير افريقية على حساب قضايا القارة ، وانتصر فى النهاية التيار المطالب بانضمام تسع دول عربية افريقية الى منظمة الوحدة الافريقية تشكل فى مجموعها ما يزيد على ثلثى الامة العربية وثلاث سكان افريقيا .

والعالم العربى افريقى الهوية فحوالى 78 % من مساحته و73% من سكانه يقعوا فى افريقيا ، ويربط دوله الاسيوية فى جنوب الجزيرة روابط وعلاقات تاريخية وثيقة مع شرق افريقيا وحتى وسط القارة ممتدة الجذور ، وهو ما يجعل الدائرة العربية فى معظمها افريقية الملامح ، ومن المؤسف ان تأثير الجذور التغريبية ظلت تفرض ظلالها على توجهات البعض داخل المنظمة فكانوا حساسين من مناقشة موضوعات عربية صرفة داخل المنظمة ، بحجة تشتيت جهودها فى قضايا غير افريقية تزج بهم فى علاقات لا شأن لهم بها ، ويتحمل العرب جزءا من المسؤولية فى تلك الحساسية ، بإصرارهم على الزج بالخلافات العربية الصرفة التى تخصهم فى المنظمة ، كمحاولة بعض الدول العربية الافريقية طرد مصر من عضوية المنظمة بعد كامب ديفيد ، وخلاف المغرب مع الجزائر حول مشكلة الجمهورية الصحراوية ذلك الخلاف الذى هدد كيان المنظمة ، والخلاف حول انعقاد القمة الافريقى فى طرابلس بسبب رفض رؤساء بعض الدول الذهاب الى ليبيا لخلافات معها ، وكانت المرة الاولى التى تفشل فيها المنظمة فى عقد قمته السنوية .

وحاولت بعض الدول الغربية تأجيج الحساسية القديمة مستغلة تركيز صناديق التنمية لبعض الدول العربية تعاملها مع دول القارة الاسلامية دون غيرها ، موحية الى الدول الافريقية غير المسلمة بأن العرب يميزون فى تعاملهم مع دول القارة على اساس دينى لصالح الدول الاسلامية.

موبوتو والجامعة الافريقية السوداء

كان موبوتو بعدائه الصريح للعرب من اشد دعاة التفرقة بين شمال القارة وجنوبها ، فانتهاز الخلاف المغربى الجزائرى عام 1984 حول انضمام الجمهورية الصحراوية ، ليعلق عضوية بلاده داعيا لاقامة منظمة بديلة تقتصر عضويتها على دول جنوب الصحراء ، واستند فى تبرير دعوته لاختلاف مشكلات دول جنوب الصحراء عن مشكلات الدول العربية شمال الصحراء ، التى فى رأيه افسدت جو منظمة الوحدة بخلافاتها حول موضوعات كان من الممكن التعامل معها فى اطار الجامعة العربية وترك افريقيا للتركيز على مشكلاتها الخاصة ، وعلى رأسها مشكلة التفرقة العنصرية ونامبيا ؛ وموبوتو بدعواه تجاهل الاضرار التى يلحقها استبعاد دول شمال القارة بقضايا افريقية الرئيسية وعلى رأسها قضية العنصرية ، فالدول العربية كانت اكثر دول افريقيا تشددا فى

معارضة النظام جنوب افريقيا العنصرى بينما تراخت كثير من دول جنوب الصحراء فى تطبيق المقاطعة الجماعية الافريقية للنظام العنصرى وتعاملت معه بشكل او بأخر .

وباءت دعوة موبوتو بالفشل لتمسك الاعضاء بمنظمتهم التى اعتبروها افضل صيغ الوحدة التى امكن التوصل اليها ، واصبحت هذه المنظمة رمزا لنضال القارة ضد الاستعمار ؛ ورفضت دول القارة الثورية الاشتراكية دعوة موبوتو باعتبارها فكرة غريبة استعمارية لا يخفى الغرض من ورائها ، وشاركتها فى معارضتها دول جنوب الصحراء الاسلامية .

(2) حساسية بعض القيادات الافريقية تجاه العمل الاسلامى

وامتدادا لجذور الانقسامية كانت هناك حساسية من العمل الاسلامى رغم ان اكثر من ثلثى افريقيا من المسلمين ، فيرى بعض القادة من غير المسلمين ذوى النوايا الحسنة او غيرهم من القادة الذين ما زالوا لم ينفصلوا عن الاستعمار ويعملون فى خدمته ، يرون ان اقامة تكتلات اسلامية يؤدى لانقسام الهوية الافريقية للقارة بين مسلمين وغير مسلمين ، ويؤدى حتى الى إنقسام المجتمع الواحد فى دول الاقليات المسلمة ؛ وهو ما يهدد السلامة الاقليمية والوطنية ، فانقسام المجتمع الواحد على اساس دينى يؤدى الى انصراف الولاء الوطنى للقطاع المسلم خارج حدود انتماءه الطبيعى للوطن وقضاياها ، ويصبح الامر خطيرا اذا ما انساق وراء قضايا هذه التكتلات التى تتعارض وقضايا الوطن وامنه .

وانا لنتفق معهم فى الشق الخاص بالاقليات ولا نتفق فى الشق الخاص بتكتل الدول ، فانفصال الاقلية بتوجهاتها عن توجهات بقية المجتمع أو الدولة الام يحمل الكثير من المخاطر للوضع الداخلى فى وحدته وسلامته الوطنية ، خصوصا اذا ما تفرق هذا القطاع المسلم شيئا واحدا تتوزع ولاءاتها على دول اسلامية عدة تتنافر توجهاتها فيما بينها أو بينها وبين الدولة الام ؛ وبلغ الخطر منتهاه اذا ما فكر القطاع المسلم فى الانفصال ، اما الشق الخاص بتكتل الدول فلا خطر من طالما يتعلق بقضاياها المشتركة وليس حشده ضد الآخر ، ففى العالم العربى تكتل دول الخليج لخدمة امنها الوطنى لظروفه الخاصة ، كما ان المغرب العربى لديه خطط شابهة ، وهناك اكثر من تكتل مشابه فى الشرق والغرب ، كما ان منظمة المؤتمر الاسلامى التى قامت بعد ذلك ضمت الدول الاسلامية من كل القارات بما فيها بعض دول الاقليات الاسلامية (كمراقبين) ، يعملون فى تعاون كامل لخدمة الاهداف المشتركة للجميع دون ان تهدد امن احد القومى .

ولكننا ايضا نتحفظ على استغلال بعض الدول الاسلامية الدين فى خدمة اهدافها السياسيه الضيقة من خلال عمل فردى ؛ وهذه السياسات النفعية تبدد جُهد وطاقت الشعوب الاسلامية فى عمل غير مُجد بعيدا عن مجال الحركة الحقيقية لخدمة الامة الاسلامية ، فالמידان السياسى المحدود بمصلحة دولة عادة ما يكون متقلب المزاج طبقا لتقلبات السياسة ومزاجها ، ونتيجة النهائية خسارة محققة للامة الاسلامية الدعوة .

ومنذ السبعينيات هناك ؛ العديد من أوجه التعاون الناجح بين افريقيا ومنظمات اسلامية أصيلة كالمؤتمر الاسلامى بددت مخاوف المتخوفين ، فهى تضم فى عضويتها احدى وعشرون دولة من دول جنوب الصحراء البالغة خمسون كيانا ودولة . ودول جنوب الصحراء الاعضاء هى من الدول الكبيرة التى تشكل معظم جنوب الصحراء اذا ما استثنينا الكيانات القزمية ، وهذه الدول هى اوغندا - بنين - بوركينافاسو - تشاد - توجو - السنغال - سيراليون - الصومال - الجابون - جامبيا - جويانا - غينيا - غينيا بيساو - القمر الاتحادية - الكاميرون - كوت دى فوار - مالى - موزمبيق - النيجر - نيجيريا الاتحادية - بالإضافة الى افريقيا الوسطى المراقب الوحيد علاوة على الاتحاد الافريقى (ملحق 2) ، كما تتعاون افريقيا مع كيان مسلم اخر هى جامعة الدول العربية ومع العديد من الدول المسلمة للدفاع فى أطر دولية مختلفة عن قضايا العالم الاسلامى كالامم المتحدة وحركة عدم الانحياز كقضية القدس وفلسطين ، ولم يلحظ احد ان هذا التعاون تهدد الامن الوطنى الافريقى بل على العكس استفاد منه وتعززت بفضلها قضاياها التى تحصلت فيها عن دعم المنظمات الاسلامية غير الافريقية ، ولا ننسى الدلالات العظيمة التى يمثلها الموقف الافريقى الجماعى فى اطار تعاونه مع العالم العربى بالمبادرة بقطع العلاقات بين هذه الدول واسرائيل لعدوانها على مصر الدولة الافريقية الشقيقة .

(3) دعم المنظمات الغربية

للطائفية الإسلامية والفرق المنحرفة

تنشط العديد من منظمات الإغاثة الإنسانية الغربية بما فيها التبشيرية في إفريقيا بصفة مستمرة ، لظروف الكوارث التي لا تنقطع عن القارة كالحروب والجفاف والقحط والتصحر والفقر والمرض والأوبئة والفيضانات الخ من ظروف صعبة ، وقد أتاحت هذه الظروف الفرصة أمام تلك المنظمات للتواجد بمناطق إسلامية ، ولكن الخطير هو ما تقوم به العديد من هذه المنظمات بأمور تخدم مخططات غامضة تتجاوز أعمال الإغاثة البحثية ، تستثير بمحتواها المعادي للإسلام حساسية وتوتر المجتمع المسلم ، وهذه المخططات للعارفين والخبراء تمتد جذورها في عمق مخططات قديمة للاستعمار ، وهي مخططات حية لا تموت تسعى وراء كل الفرص للاضرار بالإسلام بوجوه مختلفة حتى وإن استخدمت احتياجات الإنسان المسلم الفقير ، والامه في الحروب ، والمنحرفين من دعاته.

فالنزاعات الداخلية في الدول المسلمة تترصدها منظمات وجماعات اجنبية غربية من كل الانتماءات ، تستعدى طرف على آخر تأجيجا للعرقية والطائفية والانفصالية ، وهي إفات تنخر في كيان هذه المجتمعات وتدمر قيم اخوة الاسلام عانى منها المسلمون دائما ، وينساقون ورائها بوعى او بدون وعى ، ويتحمل مسلمى هذه الدول قيادة وقبائل قبل غيرهم مسئولية ذلك وابرز مثل ما يحدث في دارفور الذى تفجرت فيه النزعات العرقية بين المسلمين بفعل التدخلات الاجنبية التى اطالت امد النزاع ومعاناة اهله لصالح فئة قليلة من الناس من ابنائه ومن الخارج ، دفع ثمنها اهل الاقليم قبل غيرهم .

والمذاهب المنحرفة عن الاسلام لها تاريخ في تقويض العقيدة بين البسطاء من المسلمين ، يدمغها تاريخ طويل من التعاون ان لم يكن من التبعية مع الاستعمار ، فالاحمدية إستغلت سطحية فهم الشعوب الافريقية المسلمة لاصول الدين للتغلغل بينهم بكل الاغراءات لاحداث الانقسام والفتنة حول موضوعات تافهة لا قيمة لها ولا طائل من ورائها سوى تبديد طاقات الامة ، واموال هذه الطوائف الضخمة تفضح انتماءاتها ومن ورائها واهدافها .

(4) الوضع المتردى للمجتمعات الإسلامية

من اصعب الامور التى تواجه المسلمين دولا واقليات في افريقيا هي تردى اوضاعهم فقرا وتخلفا ، وانتزاعهم من واقعهم المرير عبء كبير على من يتصدى له ، فمجتمعات الاسلام في افريقيا جنوب الصحراء تضم أكثر من 120 مليون مسلم من دول واقليات طحنها التخلف والفقر ، يتطلعون من منطلق الاخوة الاسلامية لدول الاسلام المركزية لمساعدتهم ، وقد يكون مناسبا ان تخصص دول الاسلام الكبرى نسبة سنوية من دخلها القومى للعمل الاسلامى ، للنهوض بهذه الدول والاقليات ، هم الافقر بين دول الصحراء وجنوبها.

فالاقليات تتدنى اوضاعها داخل اوطانها بمرور الوقت لسوء تأهيلها الثقافى والاقتصادى والاجتماعى الناتجة عن افرازات عهد الاستعمار، وينعكس هذا الوضع الضعيف على التوازن الوطنى للإسلام فى وطنه فيُحرم اهله من الفرص وانقطاع الامل فيصبحون عرضة لمخاطر التطرف والاستقطاب وينقسم ولاء قطاعات منهم بعيدا عن الاعتدال الدينى وحدود الولاء الطبيعى لوطانها ؛ او تستغلها زعامات جامدة تنقص لباس الدين تستغلها لمصالح خاصة وتعرقل بجهلها تطورها ، ويزيد الامر صعوبة قلة عدد المنظمات الاسلامية وميزانياتها الضعيفة المخصصة لخدمة العمل الاسلامى ، التى تغطى عدد من المنح الدراسية وبناء القليل من المدارس والمساجد وبعض عمليات الإغاثة .

(5) المشاعر السلبية للشعوب الافريقية

ضد الاقليات العربية المتوطنة

يستثير ثراء الاقليات العربية ومركزهم الاجتماعى المتميز وتميزهم الثقافى الذى قربهم من الحكام ، يستثير حسد المجتمع الافريقى من هؤلاء الغرباء البيض الذين جاءوا فقراء وكونوا ثرواتهم فى بلادهم ويتسبدونهم ، ففى غرب افريقيا جاليات لبنانية كبيرة وثرية ، ترى قطاعات المجتمع الافريقى فى ثرائها استغلالا اقتصاديا تستثير لدية ذكريات الماضى الاستعمارى واستغلاله للبلاد و ثرواتها دون ان يعود ذلك بالمنفعة على شعبها ، برغم ما تقوم به هذه الاقليات النافذة فى الاقتصاد من دور هام فى خدمة النشاط الاقتصادى للدولة ، وعادة ما تكون هذه الجاليات محل تنكيل فى حالات الفوضى السياسية التى تتعرض لها الدول

الحاضنة مثال ما حدث في غانا أثناء الانقلاب الاول لـ رولنجز عام 1979 ، وفي سيراليون عدة مرات في النصف الاول من القرن الماضي ، وفي ليبيريا وساحل العاج والتوجو ، وتعنى هذه الجاليات تلك المخاطر وتتحوط لها بنقل ثرواتها اول بأول خارج البلاد وهو ما يؤثر بالسلب على التطور الاقتصادي للدولة الافريقية نتيجة حرمان اقتصادها من اعادة تدوير هذه الاستثمارات داخلها . ويجب على هذه الجاليات بمساعدة من الدول العربية التعاون مع الدولة الام لاحتواء هذه السلبيات باعداد خطة للمساهمة في مساعدة الدول الافريقية الحاضنة في اطار صناديق التنمية أو صندوق ابناء المهجر العربي الافريقي تتولى المساهمة في المشروعات التنموية بالدول التي استقروا بها وهو اجراء يعزز وضعية هذه الجاليات و يخفف من استهدافها .

دور الدول الافريقية في العمل الاسلامي

دول الاغلبية المسلمة

هي شريك أصيل في العمل الاسلامي من منطلق انتمائها للاسلام وعضويتها في منظمات العمل الاسلامي ، ويمكن التعاون والتنسيق معها في الاطارين الثنائي والجماعي لخدمة القضايا الاسلامية اقليميا ودوليا ؛ ومن هذه الدول السنغال وغينيا ومالي والنيجر وسيراليون وتشاد ؛ فهذه الدول قادرة على تفهم أهداف الدائرة الاسلامية والعمل في خدمتها .

دول اسلامية خاضعة لسلطة غير اسلامية

وهذه الحالة الخاصة لم تعد سائدة حاليا في كثير من دول الاغلبية المسلمة الا في نيجيريا السنغال وسيراليون وكينيا وتنزانيا ، وإنما ممكن حدوثها في ظل الديمقراطية والانقلابات التي تأتي برؤساء من اى عرق ودين الى السلطة في دول الكثافة الاسلامية ؛ ومثل هذه الدول يجب التعامل معها من المنطلق الافريقي فوجود سلطة غير اسلامية يحد من قدرة هذه الدول على المساهمة الفعالة في العمل الاسلامي لانعدام الحماس العاطفي لقضايا الاسلام لدى قياداتها ؛ فيسهل التأثير عليها واستقطابها من قبل القوى الخارجية المعادية للعمل الاسلامي ، فعند الاستقلال سلم الاستعمار قياد البلاد لقيادات غير اسلامية في بلاد اغليبتها من المسلمين مثل ، فجاء بـ " سنجور" في السنغال ، و "سيكا ستيفنز" في سيراليون و " فرانسوا تيبني " في تشاد ، وانعكست غربتهم عن الاغلبية والاسلام على سياسة البلاد خاصة في قضية محورية اجتمع عليها كل المسلمون وهي عدم اقامة علاقات مع اسرائيل .

فـ " سنجور" كانت له علاقات قوية بإسرائيل التي كان لها في عهده نفوذ كبير في السنغال ، فاقامت عام 1963 (في عهده) منظمة الشبيبة السنغالية على غرار منظمة النحال (350) ، و" سيكا ستيفنز" ابتعد بسيراليون عن العمل الاسلامي لصداقته القوية بإسرائيل والغرب و " فرانسوا تيبني " في تشاد الذي اعترف بإسرائيل عام 1963 ، متجاهلا انتماءات وهوية الاغلبية من شعبه ، وقام اثر مقابلة جافة من وزير الخارجية المسلم للسفير الاسرائيلي المعين لاول مرة عام 1963 ، بطرد جميع الوزراء المسلمين من الحكومة (8 وزراء من بينهم وزير العدل ووزير الدولة) ، وطرد رئيس الجمعية الوطنية ، وامر باعتقال قاضى القضاة ونفيه ومصادرة امواله بحجة انه من غير سكان البلاد الاصليين ، وكانت التهمة المدان بها الجميع هو تهيج الوزراء المسلمين ضد السفير الاسرائيلي (351) .

ويجب التعامل مع مثل هذه القيادات عند التعامل مع قضايا الدائرة الاسلامية من منطلق افريقي ، وفي الوقت نفسه توثيق التعاون مع القواعد الشعبية لاستخدام رأيها العام للضغط لتحديد العداءات المحتملة للعمل الاسلامي وقضاياها ، ويعن لنا الاشارة الى ان بعض القيادات المسيحية ذات الجذور المسلمة مثل مومو رئيس سيراليون الاسبق (في الثمانينيات) ، كان يسهل تجاوبها مع القضايا الاسلامية لموروثه العاطفي تجاهها ، بينما لا يمكن استقطاب قيادات لا انتماء لها مع لاسلام الى قضاياها ، على نحو ما اوردناه في حالات " سنجور" و " سيكا ستيفنز" و " فرانسوا تيبني " ، فتأثير الارتباط العاطفي بالاسلام للقيادات ذات الاصل المسلم جرد الرئيس مومو من عداء العمل الاسلامي او قضايا عالمه عند معالجة القضايا الاسلامية ، ومثله الرئيس عبده ضيوف في

350 -) نعيم قداح - افريقيا الغربية في ظل الاسلام .

351 (نعيم قداح - افريقيا الغربية في ظل الاسلام .

السنغال وهو كاثوليكي من اصل مسلم متزوج بمسلمة لبنانية.

دول غير اسلامية خاضعة لقيادة مسلمة
ويتم التعاون معها فى اطار الدائرة الافريقية وبُعدها الاسلامى فلا حساسية لقيادتها فى التعامل من هذا المنحى ، مثال
الجابون فى ظل حكم عمر بونجو واوغندا فى عهد عيسى أمين .
دول غير اسلامية او بها اقلية مسلمة كبيرة
ويتم التعامل معها من خلال الاطار الافريقى ، اما الدول غير الاسلامية ذات اقلية مسلمة كبيرة مثل تنزانيا وكينيا واوغندا
فالتعاون مع هذه الدول لخدمة قضايا الدائرة الاسلامية يتم فى الاطار الافريقى الثنائى والاسلامى الجماعى ومن خلال التعاون
العربى / الافريقى وبمساعدة زعماء الاقلية الاسلامية .

خلاصات عامة

لو قدر لمد الاسلام أن يتأخر فى الوصول الى شمال افريقيا لتأخر بالتبعية مده قرونا أخرى الى جنوب الصحراء ، ولتأخر ايضا دخول المنطقة دائرة الحضارة ، وكانت نواة مده الفعالة مجتمعات الاسلام الصغيرة التى أسسها تجار الاسلام وركيزته الاساسية فى نشر مكونات حضارته وإتساع دائرته بدخول ممالك الاقليم الاسلام وإجتنبهم المهاجرين والمعلمين والموظفين والعلماء.

أثبتت مجتمعات الاسلام صلابتها وتحديها لمخططات إمتصاصها وتخريب هويتها التى قام بها الاستعمار ؛ وهذه طبيعة الاقليات الدينية الاسلامية التى عادة ما تستमित من منطلق ايمانى فى المحافظة على هويتها ، فاحساس الاقلية بخطر الاجتياح فى وقت تعزز فيه بهويتها يعزز تماسكها.

اتسعت دائرة الجهاد فى عصر كانت سُنته الفتح والتوسع من قبل كل القوى الدولية المعاصرة ، ولم يكن توسع ممالك الاسلام استثناء من ذلك لكنها اسبغت عليه ظلالا من الدين ، فامتطى صهوة الفتح فى زمن كانت فيه الارض واحة فضفاضة ومفتوحة تتحرك فيها القبائل بحرية بلا حدود توقفها ولاسلطان يملكها.

ان الاسلام فى مده السلمى على متن التجارة وفى ركب القبائل حقق مدا بعد مد ؛ فاجتازوا الصحارى وعبروا الغابات التى عجز المجاهدون عن اجتيازها ، و يُثبت هذا أن الاسلام بذاته وجوهره هو وحده المجاهد الاعظم ويبطل الفرية القائلة بأنتشاره بحد السيف ؛ فالسيف لا يخيف المؤمنين حقا فلم يُحارب الاسلام ديناً سماوياً ولا وثناً وإنما دعى الناس الى الله فمن قبل قبل ومن رفض فهو امن على نفسه وفكره ، وما حدث ويحدث بين اتباع الاسلام والمسيحية ليس صراعا بين اعقيدتين ، وإنما صدام سلوكيات التابعين ، عبوها باهوائهم ومصالحهم الضيقة مستغلين الدين والتعصب له لخدمتها .

ان الهوية الدينية لبعض دول القارة تتغير فى اتجاه الهوية الاسلامية امع استمرار مد الاسلام الهادئ ، وأبرز مثال على ذلك " اثيوبيا " التى تشير الاحصائيات الى تزايد اعداد مسلميها الى نسبة 70% وكنيا مثلها .

أن العمل الاسلامى فى افريقيا يتجاوز مقدره أى دولة اسلامية منفردة ويقتضى الامر تعاون وثيق بين دول عالمه ، بتخصيص نسبة من الدخل القومى للدول الاسلامية الرئيسية ، وبتخصيص عدد مناسب من المنح للاقليات لدراسة العلوم التطبيقية لفتح الطريق امامها للترقى وتحقيق التوازن الوطنى ، بتمكينهم من الحصول على الوظائف العالية والنمو الاجتماعى والاقتصادى .

الخلاصة

ان مد الاسلام لم يتوقف ولن يتوقف فى افريقيا سيصمد امام محاولات النيل منه ، ككين ان يسترشدوا بنتائج الدراسات والبيانات اللاحقة رغم انها تُعبر فقط عن جزء من الحقيقة الساطعة .

بيانات المد الجغرافى للاسلام

اوردنا مضمون بحث البروفيسور فرنسوا جورج دريفوس عن الديانات فى افريقيا وعدد من تعليقاته ، وكذلك مجموعة خرائط متعلقة بنسبة المسلمين فى الدول الافريقية وتبين انتشار الاسلام الجغرافى فى العالم ، واود التوضيح بوجود تضارب بين بيانات الباحثين وخرائطهم ، لكنها لا تُخفى حقائق ساطعة لا يمكن اخفائها يحاول الغربيون إخفائها او لا يعرفونها على وجه الحقيقة وهو ما لاحظناه فى الاتى :

1- اغفل البروفيسور فرنسوا جورج دريفوس تضمين جدول البيانات المتعلقة بتنزانيا رغم اغلبيتها المسلمة الساطعة ونفس الشئ بالنسبة لكينيا التى تضم اغلبيه كبيره من المسلمين العرب والصوماليين ؛ وهى بيانات ترجع الى تسعينيات القرن الماضى ، وبالتأكيد بعد مرور اكثر من عشر سنوات تقريبا فلا بد وان تكون قد تجاوزت ارقامه الاعداد الفعلية الا انه فى ظل عدم افصاح الدول عن حقيقة اعداد المسلمين خوفا او هروبا من اعطائهم حقوقهم فى التوازن الوطنى ، فهذه الارقام تبقى مؤشرا يُعتد به لظهار الاتجاه العام لمد الاسلام .

2- وجود هوة فى بيانات الخريطة رقم (1) عن انتشار الاسلام فى افريقيا ، فتذكر على سبيل المثال ان المسلمون يتراوحون ما بين 41الى 80 % وهى هوة واسعة ، ولا تقدم مؤشرا دالا عن الوضع .

3- الخريطة رقم (2) عن الاسلام فى العالم ، اغفلت الوجود الاسلامى فى الهند واثيوبيا ، رغم ان السلمون كتلة كبيرة تصل 20% من السكان فى الاولى ، واغلبيه فى الاخيرة .. على نحو ما افادت الاحصاءات .

4- الخريطة رقم (3) عن العالم الاسلامى اخطأت فيما يتعلق بباكستان وهى الدولة المسلمة فجعلتها ذات اقلية مسلمة تصل فيها نسبتهم الى 25% .

بيانات تقريبية لتوزيع الديانات فى جنوب الصحراء

الدولة	السكان (مليون نسمة)	إحيانيون %	مسلمون %	كاثوليك %	بروتستانت تاريخيون %	إنجيليون %
كوت ديفوار	8	35	35	15	9	6
بوركينافاسو	13	20	50	10	10	10
توجو	5	35	15	25	15	10

3	2	5	85	5	10	غينيا
30	20	20	10	20	25	غانا
5	5	20	40	30	150	نيجيريا
15	10	30	25	20	7	بنين
10	5	40 أرثونكس	45	-	75	إثيوبيا
15	15	15	20	35	35	كينيا
10	15	20	25	30	16	الكاميرون
15	10	40	5	30	1.5	الجابون
15	10	40	-	35	72	الكونغو الديمقراطية
15	20	35	15	15	27	أوغندا
20	15	40	-	25	13	أنجولا
20	10	45	5	20	5	زامبيا

20	20	10	10	40	2	بتسوانا
15	25	35	5	20	11	مالاوي
15	10	15	10	50	20	موزمبيق
15	25	30	-	30	18	مدغشقر
15	35	25	1	24	8	جنوب إفريقيا
15	10	25	-	50	9	الكونغو

ولاستكمال فهم فكر المؤلف فيما يلي مقتطفات من بحث البروفيسور فرنسوا جورج دريفوس الأستاذ بجامعة السوربون ومدير مركز الدراسات الألمانية ومعهد الدراسات الأوروبية العليا ورئيس معهد الدراسات السياسية في ستراسبورج سابقا ، وتعليقاته على بيانات جدولته عن الديانات الطبيعية ويصفها هو بالاحيائية :

الاحيائية: ينظر الأنثروبولوجيون إلى الاحيائية (أو الأرواحية) على أنها الدين التقليدي في إفريقيا ، والاحيائية هي ديانة تضمينية شاملة تقوم على الاعتقاد بوجود نفس أو روح (anima باللاتينية) في كل ما له مظهر مادي مفرد سواء كان بشرا أو حيوانا، نباتا أو جمادا ، فالإحيائيون ينسبون روحا لكل الظواهر الطبيعية ومن عادة الشعوب الإحيائية قبول المعتقد الديني الجديد بعد توفيقه مع معتقداتهم القديمة التي تنصهر فيها الديانات في إطار من وحدة الوجود ؛ وإذا كانت هناك اختلافات في الشعائر والتطبيقات بين الإثنيات والقبائل فإن جوهر الروحانية ، يبقى هو نفسه عند الجميع .

تعليقاته عن المد الإسلامي

" و يغفل البعض هذا الثقل الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء ؛ فعلى الرغم من وجود مستعمر مسيحي بالدرجة الأولى فإن الإسلام لم يكف عن التطور منذ قرن في إفريقيا فأصبح هو الغالب في السنغال وغينيا ونيجيريا وحتى في إثيوبيا، بفضل حملات الطرق الصوفية (هي ممارسات متسامحة وتقوية للإسلام) التي عملت على ترسيخ الإسلام بقوة في غرب إفريقيا " ، ويستطرد قائلا " .. وزادت فرق الصوفية في الفترة بين 1906 و 1996 في إفريقيا إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ، رغم تعرضهم لضربات قوية ، وبما أنهم يمثلون الأغلبية في دول مثل السنغال وبوركينا فاسو ومالي وغينيا فقد كانوا عنصر استقرار هناك ، ونجحوا في التأقلم مع الهجوم الذي تشنه النخبة ذات الميول الغربية، وساهمت هذه الفرق في تطوير إسلام معتدل أصبح اليوم موضع اتهامات حادة في الأوساط المسلمة التقليدية "

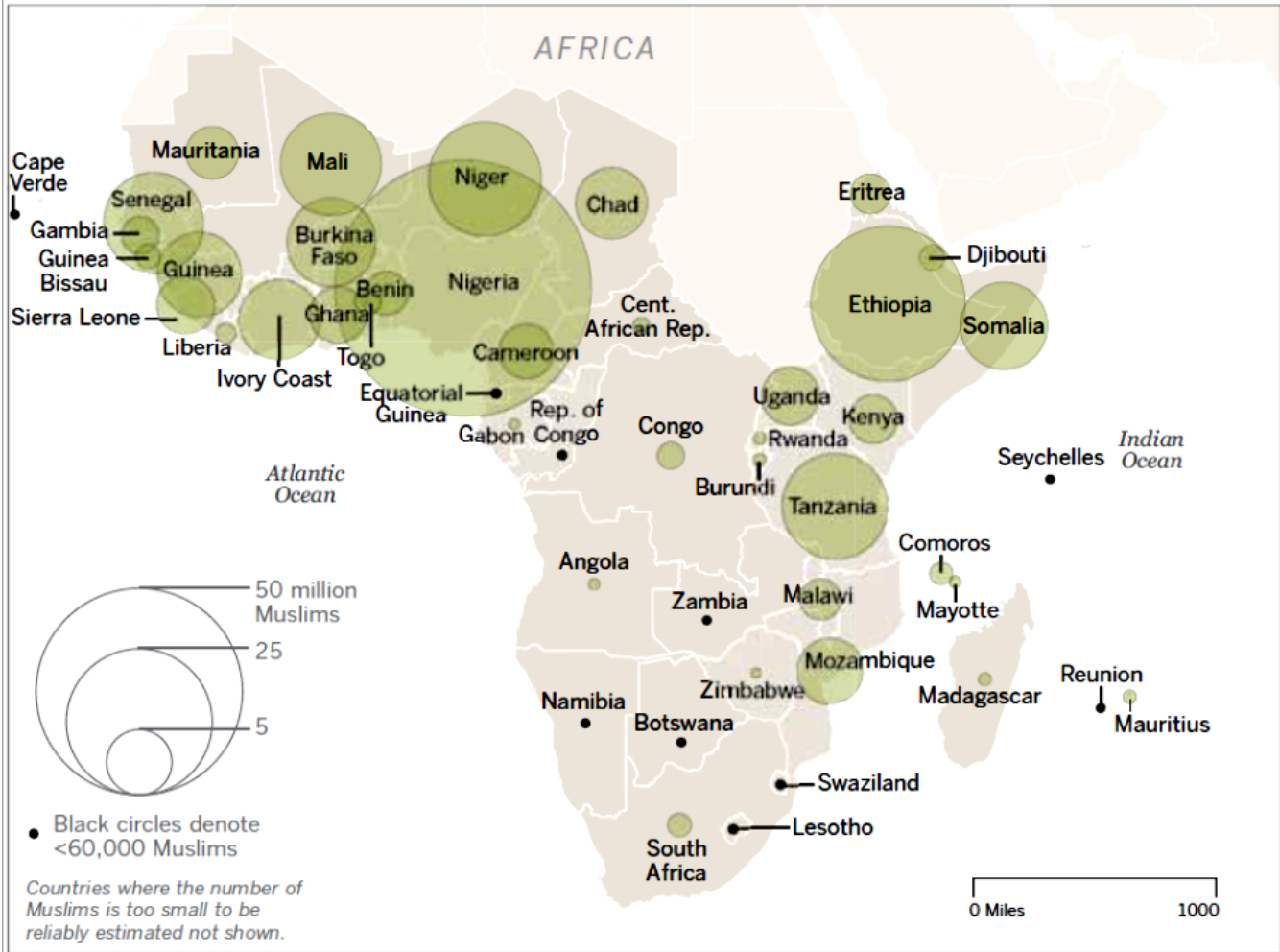
يذكر ان إثيوبيا وإريتريا صاحبتا أغلبية مسلمة ، ويؤكد على ان نسبة المسيحيين في إريتريا حوالي 20 الى 25% من إجمالي السكان والبقية من المسلمين ، وعن نيجيريا يناقض نفسه ففي الفقرة السابقة يقول ان الاسلام هو الغالب فيها ، وفي موضع آخر يقول انهم لا يمثلون سوى 40% ثم يعود في نفس الفقرة ليقول انهم الاغلبية فتقول الفقرة " وفي الدول التي يسود فيها الإسلام يكون الوضع أكثر حرجا مثلما هو الحال في نيجيريا؛ فالمسلمون هناك لا يمثلون أكثر من 40% من الشعب ولكن الظاهر أنهم يشكلون الأغلبية (لم يستطع ان يخفى الحقيقة كونهم الاغلبية اى يتجاوزون 50% .

مجموعة خرائط
بالتوزيع النسبي والجغرافى والعددى للمسلمين فى افريقيا
مد الاسلام فى افريقيا :



Sub-Saharan Africa is also home to a number of countries that have very large Muslim majorities. Countries with the highest percentages of Muslim populations are: Mauritania (99%), Niger (99%), Somalia (99%), Mayotte (98%), Comoros (98%), Djibouti (97%), Senegal (96%), Gambia (95%), Mali (93%), Guinea (84%) and Sierra Leone (71%). The combined Muslim population of all these countries is about 67 million, or about 4% of the global Muslim population.

Distribution of Muslim Population in Sub-Saharan Africa



Pew Research Center's Forum on Religion & Public Life • Mapping the Global Muslim Population, October 2009

نسبة المسلمون في موريتانيا 99%- نيجر 99%- الصومال 99% - مايوت 98% - جزر القمر 98%- جيبوتي 97% - السنغال 96%- جامبيا 95% - مالي 93%- غينيا 84%

World Muslim Population

بيان بتوزيع مسلمى جنوب الصحراء

	Estimated 2009 Muslim Population	Percentage of Population that is Muslim	Percentage of World Muslim Population	Source and Year
Sub-Saharan Africa	240,632,000	30.1%	15.3%	
Angola*	190,000	~1	<1	Pew Global 2002
Benin	2,182,000	24.4	0.1	Census 2002
Botswana	8,000	0.4	<0.1	Census 2001
Burkina Faso	9,292,000	59.0	0.6	DHS 2003
Burundi*	180,000	~2	<1	InterMedia 2007
Cameroon	3,498,000	17.9	0.2	DHS 2004
Cape Verde*	1,000	<1	<1	AfroB 2005
Central African Republic	395,000	8.9	<0.1	DHS 1995
Chad	6,257,000	55.8	0.4	DHS 2004
Comoros	664,000	98.3	<0.1	WRD 2005
Congo	943,000	1.4	0.1	DHS 2007
Djibouti	838,000	96.9	0.1	WRD 2005
Equatorial Guinea	27,000	4.0	<0.1	WRD 2005
Eritrea	1,854,000	36.5	0.1	DHS 2002
Ethiopia	28,063,000	33.9	1.8	Census 2007
Gabon	140,000	9.5	0.1	DHS 2000
Gambia*	1,625,000	~95	<1	InterMedia 2004
Ghana	3,787,000	15.9	0.2	Census 2000
Guinea	8,502,000	84.4	0.5	DHS 2005
Guinea Bissau	680,000	42.2	<0.1	WRD 2005
Ivory Coast	7,745,000	36.7	0.5	DHS 2005
Kenya	2,793,000	7.0	0.2	DHS 2003
Lesotho	1,000	<0.1	<0.1	WRD 2005
Liberia	483,000	12.2	<0.1	Census 2008
Madagascar	215,000	1.1	<0.1	DHS 2004
Malawi	1,955,000	12.8	0.1	Census 1998
Mali	12,040,000	92.5	0.8	DHS 2006
Mauritania	3,261,000	99.1	0.2	WRD 2005
Mauritius	214,000	16.6	<0.1	Census 2000
Mayotte	191,000	98.4	<0.1	WRD 2005
Mozambique	5,224,000	22.8	0.3	DHS 2003
Namibia	8,000	0.4	<0.1	WRD 2005
Niger	15,075,000	98.6	1.0	DHS 2006
Nigeria	78,056,000	50.4	5.0	DHS 2003
Republic of Congo	59,000	1.6	<0.1	DHS 2005
Reunion	34,000	4.2	<0.1	WRD 2005
Rwanda	182,000	1.8	<0.1	Census 2002
Sao Tome and Principe	--	<0.1	--	WRD 2005
Senegal	12,028,000	96.0	0.8	DHS 2006
Seychelles	1,000	1.1	<0.1	Census 2002

World Muslim Population (cont.)

	Estimated 2009 Muslim Population	Percentage of Population that is Muslim	Percentage of World Muslim Population	Source and Year
Sierra Leone	4,059,000	71.3	0.3	Census 2004
Somalia	8,995,000	98.5	0.6	WRD 2005
South Africa	731,000	1.5	<0.1	Census 2001
St. Helena	--	<0.1	--	Census 1987
Swaziland	2,000	0.2	<0.1	DHS 2006
Tanzania	13,218,000	30.2	0.8	DHS 2004
Togo	809,000	12.2	0.1	DHS 1998
Uganda	3,958,000	12.1	0.3	Census 2002
Zambia	58,000	0.4	<0.1	Census 2000
Zimbabwe	109,000	0.9	<0.1	DHS 2006

يلاحظ عدم توحيد سنة القياس (فالتوجو عام 1998 ونيجيريا عام 2003 الخ .. وحتى 2007 في بقية الدول وإذا اخذنا في الحسبان ارتفاع نسبة المواليد بين الافارقة فالعدد اكبر مما ورد في البيانات عاليه ، كما تكشف الحقائق ارتفاع نسبة المسلمون في موزمبيق واوغندا وفي ساحل العاج والاخيرة بوجه خاص تُظهر انتخابات عام 2010 ان نسبة 54% التي حصل عليها الحسن واترا مرشح الرئاسة حصل على معظمها من المسلمين وبالتالي فنسبتهم اعلى مما هو مُشار اليه في الجدول السابق .

أكبر دول جنوب الصحراء إسلاماً وعددها خمسون

Sub-Saharan Africa (50 countries and territories)

Sub-Saharan Africa has about 241 million Muslims, which is about 15% of the world Muslim population. Nigeria has the largest Muslim population in Sub-Saharan Africa, with about 78 million Muslims (about 50% of Nigeria's total population). Almost one-in-three Muslims (about 32%) in Sub-Saharan Africa live in Nigeria. Western Africa is the only area in Sub-Saharan Africa with a Muslim majority. In contrast, the southern part of Africa has the smallest Muslim population.

Countries in Sub-Saharan Africa with the Largest Number of Muslims

	Estimated 2009 Muslim Population	Percentage of Population that is Muslim	Percentage of World Muslim Population
Nigeria	78,056,000	50.4%	5.0%
Ethiopia	28,063,000	33.9	1.8
Niger	15,075,000	98.6	1.0
Tanzania	13,218,000	30.2	0.8
Mali	12,040,000	92.5	0.8
Senegal	12,028,000	96.0	0.8
Burkina Faso	9,292,000	59.0	0.6
Somalia	8,995,000	98.5	0.6
Guinea	8,502,000	84.4	0.5
Ivory Coast	7,745,000	36.7	0.5
Rest of region	47,618,000	11.3	3.0
Regional Total	240,632,000	30.1	15.3
World Total	1,571,198,000	22.9	100.0

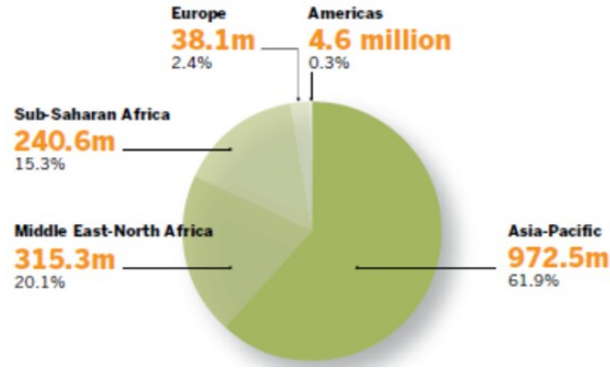
Note: Figures may not sum to totals due to rounding.

Pew Research Center's Forum on Religion & Public Life • Mapping the Global Muslim Population, October 2009

نسبة المسلمون بجنوب الصحراء مقارنة باقاليم العالم

Muslim Population by Region

	Estimated 2009 Muslim Population	Percentage of Population that is Muslim	Percentage of World Muslim Population
Asia-Pacific	972,537,000	24.1%	61.9%
Middle East-North Africa	315,322,000	91.2	20.1
Sub-Saharan Africa	240,632,000	30.1	15.3
Europe	38,112,000	5.2	2.4
Americas	4,596,000	0.5	0.3
World Total	1,571,198,000	22.9	100.0



MAPPING THE GLOBAL MUSLIM POPULATION

A Report on the Size and
Distribution of the World's
Muslim Population

المصدر

October 2009

ملحق الكتاب

ملحق الحواشي

(1) المشروع الصهيوني لتفتيت الأقطار العربية

بعضاً من ندوات المركز الأخيرة:

- 1 - ندوة حول التركيبة السكانية لدول المغرب العربي ، وهي تسعى للتوصل لإمكانية اختراقها وبث الانفصالية فيها على غرار ما حدث في شمال العراق وجنوب السودان ، وقد دُعي إلى الندوة 18 شخصية أمازيغية مغربية ، كما تم عقد ندوة حول مشكلة الأمازيغ في دول المغرب في الجزائر والمغرب .
- 2 - ندوة بعنوان " تقويض الدولة والمجتمع في العالم العربي " غطت الدراسة معظم دول المشرق العربي ومنطقة المغرب ومصر والسودان والعراق وسوريا والمملكة السعودية واليمن، الجزائر والمغرب والجمهورية الليبية
- 3 - ندوة حول حركات التمرد في الدول العربية الحاضنة للجماعات الأثنية والطائفية الحاليتين (العراقية والسودانية) وغيرها من حالات يمكن أن تنتج وتولد توجهات مماثلة.
- 4 - ليبيا - المواجهة بين تيارين الأصولية والوطنية وتطورات المستقبل ، تحديات التقسيم والتشطير على غرار الحالة السودانية .

5 - الدول العربية الصراعات الداخلية والانزلاق إلى التفتيت (السودان - العراق - اليمن الصومال ولبنان).

أنجز المركز منات الأبحاث منذ ستينات القرن الماضي تمحورت حول الجماعات الأثنية والطائفية في العالم العربي التي يمكن تفكيكها في نطاق نظرية إضعاف العدو وتفتيته مجتمعيًا وبشريًا ، بما يؤدي محصلته النهائية إلى تعظيم عناصر القوة في الجانب " الإسرائيلي حسب المنطق الذي ظلّ يردده دافيد بن جوريون أول رئيس لحكومة إسرائيلية عندما عرض عليه مستشاره للشؤون العربية أوري لوبراني مهندس مشروع تقسيم الأقطار العربية مشروعه في هذا الشأن.

ويستند النشاط الإسرائيلي في تفتيت المجتمعات والدول من الداخل إلى دعامتين:

- 1- الأولى إثارة الفتن وتأجيج حالات التمرد والصراع داخل المجتمعات العربية.
 - 2 - التحالف مع الجماعات الأثنية والطائفية ودعمها لتكثيف نشاطها الانفصالي.
- تأسس المركز عام 1959 بتعليمات من رؤوفين شيلواح مؤسس الموساد ورئيسه لإنشاء مركز لدراسة العالم العربي ، وقد تسمى المركز بإسم شيلواح ، وتم ربطه ظاهرياً بجمعية الاستشراق " الإسرائيلية " ثم ربط في عام 1965 بجامعة تل أبيب .
- وفي البداية تكون المركز من أقسام مصر والعراق وسوريا وتركزت أبحاثه على إعداد المشاريع البحثية الأساسية وغلب عليها الطابع المعلوماتي ثم التحليلي لصالح الموساد ، وكان هو مركز الأبحاث الوحيد في " إسرائيل " حتى حرب يونيو عام 1967 ، فكان التعويل عليه كبيراً في صناعة القرار الأمني ، وفي عام 1983 تم تغيير اسمه ليصبح معهد ديان لأبحاث الشرق الأوسط وإفريقيا ، وعلى إثر ذلك وبشكل تلقائي تمّ توسيع نشاطه وأقسامه البحثية وتطوير بنيته الأرشيفية المعلوماتية.
- كان أول مسؤول في إدارة المركز هو البروفيسور (شمعون شامير) المسؤول عن قسم مصر في المركز والذي أسندت إليه مهمة تغطية مجمل الأوضاع المصرية العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية قبيل شنّ حرب يونيو 1967 ، وبعد كامب ديفيد عُيّن شامير مديراً للمركز الأكاديمي في القاهرة ثم سفيراً لإسرائيل فيها .
- وهو يُعتبر واضع سياسة "تحييد دور مصر من ساحة المواجهة" في عهد أنور السادات .
- كرّس المركز منذ البداية الجهد والوقت لدراسة أوضاع عدد من الدول العربية التي تعيش فيها جماعات أثنية وطائفية ومذهبية لتقدّم إلى الموساد توصيات واستخلاصات تفيد في جهود عمليات اختراق تلك الجماعات ، وقد أسهمت دراسات المركز في تمهيد التحرك الإسرائيلي في كردستان العراق وجنوب السودان بنسج علاقات بحركة التمرد الكردية بقيادة البرزاني الأب ثم الابن وحركة التمرد في جنوب السودان برئاسة جون جرانتج منذ سبعينات القرن الماضي.
- ورغم وجود بؤر أخرى محط اهتمام المركز مثل لبنان وسوريا ومصر لكنّ التأكيد جرى آنذاك على البورتين العراقية

والسودانية بوصفهما "بورتين مختمرتتين لإنجاز عملية التفيت" بعد فشل الجهود في البؤرة اللبنانية على إثر اندلاع الحرب الأهلية في عام 1975.

ومنطقة المغرب العربي من أولويات نشاط المركز بإيعاز من عدة هيئات أمنية إسرائيلية ، وعلى ضوء هذا التكليف بدأ مركز ديان منذ عام 2005 بأنشطة وسلسلة من الدراسات والأبحاث والندوات عن أوضاع المنطقة تصب كلها في خدمة المشروع التفيتي "الإسرائيلي" يلخصها الباحث العربي من الداخل الدكتور علي سلمان.

- 1- إعداد سلسلة من الأبحاث والدراسات والندوات وورش البحث عن المغرب.
 - 2 - الاستقطاب داخل ليبيا بين نظام القذافي القومي والبرجماتي وبين الأصولية.
 - 3 - الشرق الليبي وحركة تحرير التبو هل هي بداية التمرد على غرار حركات التمرد في جنوب السودان ودارفور؟.
 - 4- ماذا ومن بعد القذافي ؟
 - 5- هل تواجه ليبيا تحديات داخلية من دول الجوار؟
 - 6- تعثر النظام السياسي في الجزائر.
 - 7 - المشكلة الأمازيغية في المغرب والجزائر أبعادها وتطوراتها المحتملة.
 - 8 - العلاقة التاريخية بين اليهود والأمازيغ في منطقة شمال إفريقيا.
- وحول المشكلة الأمازيغية يعمل المركز :
- 1 - إقامة لجان صداقة أمازيغية "إسرائيلية" في كل من "إسرائيل" والمغرب.
 - 2 - تنظيم ندوات وفعاليات حول ما سمي بالمشكلة الأمازيغية يدعى إليها مشاركون أمازيغ من المغرب ومن الجزائر ممن يعيشون في فرنسا وبلجيكا وليبيا.
 - 3 - تنسيق جهود المركز مع منظمات يهودية ومحلية في فرنسا وإسبانيا وبلجيكا والولايات المتحدة وكندا لرعاية مناسبات ثقافية وحتى سياسية في الخارج.
 - 4 - تسويق مواد دعائية كتيبات وكراسات ومنشورات تحرض على التمرد والعنف وتحدث بكثير من المبالغة عن وجود استياء عام في الجزائر والمغرب وليبيا، ووجود ثغرات يمكن أن توظف ومشاكل سياسية واجتماعية واقتصادية يمكن أن تستغل لتبرير التمرد والعصيان.
- و يستمد لمركز العون من :

- 1 - الهيئات الأمنية والسياسية "الإسرائيلية" و من منظمات المجتمع المدني "الإسرائيلي" والجامعات والأحزاب.
 - 2 - الدعم الأمريكي الهائل لنشاط المركز من كافة الجهات على مستوى الإدارة و مراكز البحوث والأحزاب والحركات الإيديولوجية والدينية المهمة بإضعاف العالم العربي وتفتيته .
- ويبين ضخامة اعداد مراكز البحوث الاستراتيجية الاسرائيلية في السنوات الأخيرة التي تجاوزت الثلاثون مدى الاهتمام بدراسة العالم العربي لاستخلاص السياسات ومن بين تلك المراكز التي ظهرت بعد حرب أكتوبر 1973 مركز يافيه للدراسات الإستراتيجية بجامعة "تل أبيب" برئاسة الجنرال (أهارون ياريف) رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية وهو مركز منافس لكنه لم يبغي على دور مركز ديان لان مركز يافيه يخصص نشاطه البحثي لخدمة المؤسسة العسكرية .
- وأهم مراكز الابحاث والدراسات الاستراتيجية التي ظهرت خلال العقدين الأخيرين وتتعامل مع العالمين العربي والاسلامى :
- مركز بيجن / السادات للدراسات الإستراتيجية جامعة بارإيلان
 - معهد أبحاث الأمن القومي وهو يحتل المكانة الأولى من حيث أهميته وأهمية دوره..
 - معهد ملام لأبحاث الاستخبارات مركز القدس للشؤون العامة والدولة.
 - معهد الدراسات العربية بجامعة حيفا.

(2) المسلمون

في الأمريكتين قبل كريستوفر كولومبس

المبحث الاول

محاضرة للأستاذ الدكتور علي بن المنتصر الكتاني (المغربي) مؤسس علم الأقليات الإسلامية، ورائد الدعوة الإسلامية في أوروبا

وأمریکا، القاها في جمعية الشرفاء الكتائبين للتعاون والثقافة، أكتوبر من عام 2000 ؛ والمقال منقول من ملتقى اهل الحديث

hIntroduction

Numerous evidence suggests that Muslims from Spain and West Africa arrived in the Americas at least five centuries before Columbus¹. It is recorded, for example that in the mid-tenth century during the rule of the Umayyad Caliph Abdul-Rahman III (929-961), Muslims of African origin sailed westward from the Spanish port of Delba (Palos) into the “Ocean of darkness an fog.” They returned after a long absence with much booty from a “strange and curious land.” It is evident that people of Muslim origin are known to have accompanied Columbus and subsequent Spanish explorers to the New World .

The last Muslim stronghold in Spain, Granada, fell to the Christians in 1492 CE, just before the Spanish inquisition was launched. To escape persecution, many non-Christians fled or embraced Catholicism. At least two documents imply the presence of Muslims in Spanish America before 1550 CE. Despite the fact that a decree issued in 1539 CE, by Charles V, King of Spain, forbade the grandsons of Muslims who had been burned at the stake to migrate to the West Indies. This decree was ratified in 1543 CE, and an order for the expulsion of all Muslims from overseas Spanish territories was subsequently published. Many references on the Muslim arrival in the Americas are available. They are summarized in the following notes :

Historic Documents

1. A Muslim historian and geographer Abul-Hassan Ali Ibn Al-Hussain Al-Masudi (871 - 957 CE) wrote in his book ‘Muruj Adh-dhahab wa Maadin al-Jawhar’ (The Meadows of Gold and Quarries of Jewels) that during the rule of the Muslim Caliph of Spain Abdullah Ibn Muhammad (888 - 912 CE), a Muslim navigator Khashkhash Ibn Saeed Ibn Aswad of Cordoba, Spain sailed from Delba (Palos) in 889 CE, crossed the Atlantic, reached an unknown territory (Ard Majhoola) and returned with fabulous treasures. In Al-Masudi’s map of the world there is a large area in the ocean of darkness and fog (the Atlantic ocean) which he referred to as the unknown territory (the Americas).(

2. A Muslim historian Abu Bakr Ibn Umar Al-Gutiyya narrated that during the reign of the Muslim Caliph of Spain, Hisham II (976 -1009 CE), another Muslim navigator Ibn Farrukh of Granada sailed from Kadesh (February 999 CE) into the Atlantic, landed in Gando (Great Canary Islands) visiting King Guanariga, and continued westward where he saw and named two islands, Capraria and Pluitana. He arrived back in Spain in May 999 CE .

3 . Columbus sailed from Palos (Delba), Spain. He was bound for Gomera (Canary Islands) - Gomera is an Arabic word meaning ‘small firebrand’ - there he fell in love with Beatriz Bobadilla, daughter of the first captain General of the island (the family name Bobadilla is derived from the Arab Islamic name Abouabdilla). Nevertheless, the Bobadilla clan was not easy to ignore. Another Bobadilla (Francisco), later as the royal commissioner, put Columbus in chains and transferred him from Santo Domingo back to Spain (November 1500 CE). The Bobadilla family was related to Abbadid dynasty of Seville (1031 -1091 CE).(

On October 12, 1492 CE, Columbus landed on a little island in the Bahamas that was called Guanahani by the natives. Renamed San Salvador by Columbus, Guanahani is derived from Mandinka and modified Arabic words. Guana (Ikhwana) means ‘brothers’ and Hani is an Arabic name. Therefore the original name of the island was ‘Hani Brothers.’ [Click here for corrupted names of Arabic origin, such as those starting with Quad-, al-, Medina and others].

Ferdinand Columbus, the son of Christopher, wrote about the blacks seen by his father in Honduras: “The people who live farther east of Pointe Cavinass, as far as Cape Gracios a Dios, are almost black in color.” At the same time in this very same region, lived a tribe of Muslim natives known as Almamy. In

Mandinka and Arabic languages Almammy was the designation of "Al-Imam" or "Al-Imamu," the person who leads the Prayer, or in some cases, the chief of the community, and/or a member of the Imami Muslim community .

4 . A renowned American historian and linguist Leo Weiner of Harvard University, in his book Africa and The Discovery of America (1920) wrote that Columbus was well aware of the Mandinka presence in the New World and that the West African Muslims had spread throughout the Caribbean, Central, South and North American territories, including Canada, where they were trading and intermarrying with the Iroquois and Algonquin Indians

(ترجمة جزء من المحاضرة عاليه)

الموضوع حقيقة في غاية الأهمية، وشيق جدا، وأنا ابتدأت في التعرف عليه منذ كنت مقيما في أمريكا ؛ وبصفة عامة فالتاريخ - كما يقول الأميركيان أنفسهم - هو قصة المنتصرين: "History is a story of the rankers"، أي أنهم يفرضون ما يريدونه ولولا أن الأوروبيون بصفة عامة هم المهيمنين على العالم بعد اكتشاف أمريكا لما صدق أحدا أن كريستوف كولومب هو من اكتشف أمريكا وكانت قصة اكتشاف الأوروبيين لها خرافة بديهة: فكريستوف كولومب، لم يكتشف أمريكا لأنها كانت معروفة من لدن كثير من الشعوب خاصة الشعوب الإسلامية ، وعرضي هذا سوف أبنيه على ثلاثة كتيبات:

الكتاب الأول: كتاب مهم جدا سيصدر قريبا ، وما عندي منه هو نسخة من الإنترنت، مكتوبة بالإسبانية: "Africa versus America"، وكتبته لويزا إيزابيل آل فيريس دو توليدو، "Luisa Isabel Alvarez de Toledo"، وهي دوقة مدينة سيدونسا "Cedonia"، وهي سليله إحدى أكبر العائلات الإسبانية، ولا زالت تعيش في قصرها قريبا من مدينة سان لوقا دو باراميدا "San Luca De Paramida"، قرب نهر الوادي الكبير في الأندلس، وعندها مكتبة ووثائق فريدة من نوعها عن تاريخ الأندلس، وبصفة خاصة عن الوجود الإسلامي في أمريكا قبل كريستوف كولومب، فقد كان أجدادها جنرالات في الجيش الإسباني وأميرالات في البحرية الإسبانية وحكاما في مقاطعات إسبانية والأندلس ، وما لديها من وثائق هامة جدا.

والكتاب الثاني: هو مجموعة مقالات استكتبتها أنا والدكتور مختار ابو بتمويل من رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، ضمن موسوعة الوجود الإسلامي في عالم اليوم ومنها مجلدان عن الإسلام في أمريكا ، أول مقال فيها كتبه عبد الله الحكيم كويك، وهو أمريكي مسلم أستاذ في جامعة تورنتو، وله تاريخ نضالي في أمريكا ، كان من مجموعة بلاك تايجرز "Black Tigers"، ومن المشهورين ، وله مقالات هامة موثقة ومهمة جدا عن الإسلام في أمريكا قبل كريستوف كولومب.

الكتاب الثالث: بالإنجليزية هو المالينجر "The Malingers"، يسمونهم أحيانا "The white of the Appalachians"، بيض جبال الأبلاش وتقع في شرق الولايات المتحدة، ويسمونهم "ميلونجونز"، أحدهم اسمه: "براند كينيدي" "Brand Kennedy"، كتب كتابا عن أصول الميلونجونس بتمويل من جامعة فرجينيا الغربية، وتبين أن أصولهم إسلامية من أندلسي البرتغال، وبقيت فيهم عادات إسلامية إلى الآن، ومن أهم الشخصيات التي تنتمي إلى هذه الطبقة من الناس: "أبراهام لينكولن"، "Abraham Lincoln"، وتحرير أبراهام لينكولن للعبيد كان انتقاما للأندلس من النصارى بطريقة غير مباشرة، إذ إن التاريخ لا يسمح بهذه السهولة. ، وبهذه المقدمة الشيقة أريد أن ألخص لكم أهم نقاط محاضرتي، وهي:

أولا: ما هي البراهين التي تثبت الوجود الإسلامي في أمريكا قبل كريستوف كولومب؟

ثانيا: هل هذا الوجود قبل كريستوف كولومب مازالت له آثار إلى الآن، أم مسحت؟. وهذا السؤال ناتج عن اهتمامي بمستقبل الإسلام حول العالم، وهو ما أسميه: "Residual Islam around the world"، توجد شعوب بأكملها وهي من بقايا الإسلام في مختلف بقاع القارات الخمس، ومعنى ذلك: أن رجوع الإسلام إليهم يعتبر من أسهل ما يكون، ونأتي بأمثلة عن أمريكا. بعد هذه المقدمة أريد أن أرجع إلى القول بأن اكتشاف أميركا من قبل كريستوف كولومب إنما هو كذبة صريحة، لأن الآن هناك براهين مستفيضة بأن الإسكندنافيين وصلوا إلى أمريكا ألف عام قبل كريستوف كولومب، مثال ذلك تول هايبر داليدا "Toll Hoyer Da lida"، الذي كما تعرفون خرج من مدينة أسفي بالمغرب بباخرة صفها بورق البردي "Papyrus"، وقطع المحيط إلى أميركا بسهولة، وبرهن بذلك أن قدماء المصريين ذهبوا كذلك إلى أميركا.

إذا؛ فالعلاقات مع أميركا كانت متواصلة قبل الإسلام وبعده، وبصفة خاصة بعد الإسلام من طرف الشعوب الإسلامية. إذن فإن لفظة "اكتشاف"، كلمة تعتبر خرافة مرت علينا ونعلمها لأطفالها، وهذا الذي سأذكره لا يعلم لأحد في المدارس الإسلامية ولا في غيرها، إذ إن معظم الوثائق الباقية هي الآن في الغرب، ومع الأسف الشديد فوثائقنا العربية ليس عندنا منها شيء، لأن باحثينا لم يبحثوا، ولو بحثوا لوجدوا.

طبعاً؛ سيجد الباحث صعوبة في البحث، لأنه في الوثائق القديمة لن يقولوا "القارة الأمريكية"، إذ أنه لم يكن تقسيم القارات سابقاً إلى قارات كما نقسمها الآن، ففي الماضي كانوا يقسمون العالم إلى مناخ، مناخ كذا وكذا. فعندما يتكلمون عن إفريقيا يتكلمون عن مناخها، ويعدون أميركا من إفريقيا.

سأقسم حديثي عن الوجود الإسلامي في أميركا قبل كريستوف كولومب إلى منطقتين اثنتين، فالأولى من المغرب والأندلس، والثانية من إفريقيا العربية الإسلامية، وكلها إسلامية طبعاً.

المنطقة الأولى: المغرب والأندلس

أولاً؛ القرائن والآثار الموجودة الآن في هذا الوقت، الكلمات، والآثار اللغوية: ففي لغة الهنود الحمر هناك كلمات عربية وأمازيغية بكثرة، ولا يمكن أن تكون موجودة إلا بسبب وجود عربي أو أمازيغي قديم هناك، القرائن التاريخية التي جاءت في الكتب القديمة - العربية وغير العربية - والآثار الموجودة إلى الآن رغم المجهود الكبير الذي عمل عليه الإسبان، بعد كريستوف كولومب لمسح أي أثر للإسلام أو الوجود الإسلامي في القارة الأميركية، وذلك طبعاً لتحريف التاريخ.

العرب قديماً كانوا يسمون المحيط الأطلسي بحر الظلمات. إذا نظرنا إلى القرائن الأركيولوجية (الأثرية)، نجد أنه اكتشفت كتابات كوفية في أميركا الجنوبية بالعربية، فمن أوصلها إلى هناك؟ واكتشفوا في عدة أماكن كنوزاً تحوي عملات ذهبية رومانية وأخرى إسلامية. وفي العادة إذا اكتشف كنز في محل ما فإن تاريخ ضرب العملة الذي فيه يعتبر تاريخ وصول الكنز إلى المحل المذكور، وذلك طبيعي في البحث العلمي. وآخر عملة اكتشفوها كانت للقرن الثامن الميلادي، أي أن ثمة باخرة إسلامية وصلت في القرن الثامن الميلادي إلى ذلك المحل وتركت ذهبها هناك.

دعنا نقارن ما ذكرناه - وما وهو إلا غيض من فيض أمثلة أخرى كثيرة - بما جاء في بعض أمهات الكتب العربية. مثلاً: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي؛ ذكر في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" المكتوب عام 956 ميلادية، أن أحد المغامرين من قرطبة اسمه الخشخاش بن سعيد بن الأسود، عبر بحر الظلمات مع جماعة من أصحابه إلى أن وصل إلى الأرض وراء بحر الظلمات، ورجع سنة 889م، ربما من قرأ هذا الكلام في زمنه اعتبر المؤلف مخرفاً، وهنا عندي قطعة من كلام المسعودي ربما أترجمها لكم لاحقاً، وهو كلام متعلق بمغامرة الخشخاش؛ وقال الخشخاش لما عاد من رحلته بأنه وجد أناساً في الأرض التي وصلها، ووصفهم، بل لما رسم المسعودي خريطة العالم، رسم بعد بحر الظلمات أرضاً سماها: الأرض المجهولة.

فيكون رسم أرضاً هناك ولم يدع أنه ليس بعد بحر الظلمات أي أرض، كما كان يدعيه الأوروبيون في خرائطهم وكتبهم، أي إنه في القرن التاسع الميلادي كان المسلمون يعرفون أن ثمة أرضاً وراء بحر الظلمات، وليست هي الهند كما ادعاه كريستوف كولومب، والذي ذهب إلى تلك الأرض وعاد وعاش ومات، وهو يظن أنه إنما ذهب إلى الهند، لم يظن قط أنه اكتشف أرضاً جديدة. ولذلك فإلى يومنا هذا بكل جهل يسمى الأوروبيون أميركا بالهند الغربية "L'Inde Occidental. West India".

وثمة وثيقة تاريخية أخرى عندنا في التاريخ العربي؛ وهي قصة ذكرها عمر بن القوطية، وهي حديثه عن رحلة ابن فروخ الأندلسي عام 999م، ومما يظهر من كلامه: أن ابن فروخ لم يصل إلى أميركا، غير أنه زار جزر كناريا "Canaries"، في المحيط الأطلسي، وقطع منها إلى جزر أخرى في المحيط الأطلسي، ووصف أهالي كناريا ثم عاد إلى الأندلس.

وثمة قصة مفصلة أكثر من جميع ما ذكرت، وربما يعرفها جميعنا، وهي قصة الشريف الإدريسي الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي بين 1099-1180م، وهو من سبته، ففي كتابه "الممالك والمسالك" جاء بقصة الشباب المغرورين؛ وهم جماعة خرجوا ببواخر من لشبونة "Lisbon"، وكانت في يد المسلمين وقتها، وقطع هؤلاء المغامرون بحر الظلمات، ورجع بعضهم، وذكروا قصتهم وأنهم وصلوا إلى أرض وصفوها ووصفوا ملوكها. والغريب في الأمر أنهم ذكروا أنهم وجدوا أناساً يتكلمون بالعربية هناك.

وإذا كان أناس يتكلمون بالعربية هناك فهذا دليل على أن أناساً كثيرين وصلوا قبلهم إلى هناك، حتى تعلم أهلها العربية ليكونوا ترجماناً بينهم وبين الملوك المحليين، وعلى أنه كان هناك وجود إسلامي في ذلك التاريخ على تلك الأرض. الوصف الذي أعطاه

هؤلاء المغامرون يظهر أنه وصف للجزر الكارابية، كوبا أو إسبانيولا، أو غيرهما من جزر البحر. وهناك أمثلة أخرى في اللغة وغيرها. فأعطي في اللغة أمثلة كذلك: فالأوروبيون رسموا خريطة لأمريكا، ومنها خريطة لفلوريدا، وذلك عام 1564م، ذكروا فيها مدنا ذات أسماء توجد في الأندلس والمغرب. ولكي تكون أسماء عربية هناك، فبالضرورة كانت هجرة عربية قبل المانة أو المانتى عام على الأقل. مثلا: في الخارطة هناك مدينة ميارقة، وواضح أنها تحريف لميورقة، وهي جزيرة من الجزر الشرقية المسماة الآن بالبلليار، ومدينة اسمها كاديا، وهي تحريف لقادس الواقعة جنوب الأندلس. وأخرى اسمها "ماراكو" تساوي: مراکش... الخ.

دوقة مدينة سيدونيا، بناء على وثائقها كتبت كتابا في غاية الأهمية على إثر تشجيع مني، حيث إنني في دراساتي عن المورسكيين اكتشفت شيئا غريبا جدا، ما هو؟.

اكتشفت بأنه عام 1644م، قامت مؤامرة في الأندلس لتحريرها من إسبانيا، وإعادة الدولة الإسلامية فيها، دخلت في هذه المؤامرة فئات أربع:

أولا: ملك البرتغال، وذلك أول استقلالها الذي كانت أضاعته من قبل بعد هزيمتها في معركة واد المخازن، وانضمت إلى إسبانيا، وفي عام 1644م، أعادت استقلالها.

ثانيا: شخصية من ولاية المرية اسمه "ظاهر الحر"، لم تعط الوثائق اسمه النصراني، وهو ينسب نفسه إلى بيت بني الأحمر. ثار هو وجماعة معه.

ثالثا: موريسكيو الرباط، في الوثائق المغربية يظنون بأنهم أرادوا التعاون مع النصارى، غير أنهم في الحقيقة أرادوا تحرير الأندلس، حيث كان المقرر أن يدخلوا مصب الوادي الكبير ببواخر ويحتلوا إشبيلية.

رابعا: وهذا هو الشاهد عندنا دوق مدينة سيدونيا، والذي كان الحاكم باسم ملك إسبانيا على منطقة الأندلس. فكيف دوق مدينة سيدونيا الذي يمثل السلطة النصرانية (المسيحية) على الأندلس يقوم بمؤامرة من أجل تحرير الأندلس؟. لم أفهم ذلك!!!.

فلما التقيت الدوقة الحالية لمدينة سيدونيا استدعيتني في شاطئها (قصرها) قرب مدينة سان لوقا دو باراميدا، قرب مصب الوادي الكبير، فقلت لها: "ما سبب ذلك؟!". وإذا بجوابها كان أغرب مما كنت أتوقع، حيث أجابتني: "بديهي؛ لأن أصلنا - عائلة دوق مدينة سيدونيا - مسلمون، بل أكثر من ذلك أننا كنا مسلمين سرا". وقالت لي: "تعال أريك في قصرنا؛ كنت أدق حائطاً وعندما أسقطته وجدت أسفله مسجداً داخل القصر"، وفلا صليت - أنا المحاضر - في ذلك المسجد داخل القصر. فإذن؛ هذا الدوق - رحمه الله - قام بمجهود كبير لتحرير الأندلس.

والأهمية في دوقة مدينة سيدونيا؛ أن عندها مكتبة فاخرة مليئة بالوثائق منذ ثلاثمائة وأربعمئة وخمسمائة عام، من ضمنها وثائق مسلمي أميركا الجنوبية، والبرهان على الوجود الإسلامي في أميركا قبل أربعمئة عام من كريستوف كولومب. وأخبرتني أنها خائفة من أنها إذا ماتت - وهي تبلغ حوالي سبعين عاما - من أن تسرق وثائقها وتعدم، لأنها تقول بأنه: "لا ثقة في نصارى إسبانيا إلى يومنا هذا"، وهي تقول بأنه: "إلى يومنا هذا يعدمون الوثائق التاريخية المضادة لخرافاتهم التاريخية التي يحبون إقناع الناس بها".

قلت لها: "اكتبي كتابا وضعي هذه الوثائق فيه"، فكان ذلك السبب الأساس لكتابتها هذا الكتاب، فهذا الكتاب الذي سمته: "من إفريقيا إلى أميركا"، كتاب وثائقي رائع، موثق بالوثائق التي عندهم في مكتبة دوق مدينة سيدونيا، هذا الكتاب صدر في هذا الشهر (نهاية سنة 2000)، ومن الضروري أن يترجم للعربية، وإلى لغات أخرى، حيث هو مكتوب باللغة الإسبانية.

ومن المسائل المهمة التي لا نعرفها معاشر المغاربة، أن ياسين والد عبد الله بن ياسين - مؤسس دولة المرابطين - قطع المحيط الأطلسي وذهب إلى المناطق شمال البرازيل، وغينيا، ونشر فيها الإسلام. ذهب إلى هناك مع جماعات من أتباعه، وأسس منطقة كبيرة كانت تابعة للدولة المرابطية. أي: إن الدولة المرابطية لم تكن في شمال إفريقيا والأندلس والبرتغال فحسب، وإنما كانت أيضا فيما يسمى الآن شمال البرازيل وغينيا، وهذا موثق بالوثائق التي تملكها الدوقة المذكورة.

وفلا، وإلى يومنا هذا؛ هناك مدن وقرى في تلك المناطق اسمها: فاس، مراکش، تلمسان، سلا... وقد كنت أظن أن تلك الأسماء جاءت مع الرحالة الإسبان، غير أنها قالت لي: "لا؛ بل كانت قبل مجيء الإسبان، إنما كانت مع وجود المسلمين قبل أربعمئة عام من كريستوف كولومب".

إذا؛ بصفة عامة وبتلخيص شديد: العلاقات بين المغرب والأندلس، وما يسمى اليوم بأميركا كانت متواصلة، وحسب معظم

العلماء؛ فالآن - سواء من الطرف الإسباني أو من الطرف الأمريكي - فإنهم يعتقدون أن قبل كريستوف كولومب كان الإسلام منتشرًا في شمال أمريكا وفي جنوبها، وأن أول عمل قام به كونكيسادور "Conquistador" - الإسبان النصارى - هو متابعة هجومهم على الإسلام الذي كان في الأندلس، بالقضاء على الإسلام والقضاء على الوثائق التي تبرهن أي وجود إسلامي في تلك القارة.

ورغم هذا المجهود الكبير لم يستطيعوا القضاء على كل شيء.

المنطقة الثانية: علاقة الدولة العثمانية وإفريقيا مع أمريكا

الآن نرى علاقة الدولة العثمانية مع أمريكا قبل كريستوف كولومب، وسأكمل بذكر علاقات الممالك الإسلامية في إفريقيا الغربية مع أمريكا قبل كريستوف كولومب.

عام 1929م، اكتشفت خريطة للمحيط الأطلسي رسمها بيرى محيي الدين رايس، الذي كان رئيس البحرية العثمانية في وقته، وذلك سنة 919 هـ/ أي: حوالي: 1510-1515م، الخريطة الموجودة الآن: الغريب فيها أنها تعطي خريطة شواطئ أمريكا بتفصيل متناه غير معروف في ذلك الوقت بالتأكد، بل ليس الشواطئ فقط، بل أتى بأنهار وأماكن لم يكتشفها الأوروبيون إلا أعوام: 1540-1560م، فهذا يعني - وكما ذكر بيرى رايس - بأن هذه الخريطة مبنية على حوالي تسعين خريطة له وللبحارين الأندلسيين والمغاربة الذين قدموا قبله، فسواء هو أو المسلمون قبله سيكونون عرفوا قطعاً تلك المناطق، وعرفوا اسمها قبل الأوروبيين.

ومن ضمن المسائل في هذه الخريطة التي تدل على تقدمهم على الأوروبيين بكثير في معرفتهم بالقارة الأمريكية: أنهم أظهروا جزراً في المحيط الأطلسي لم يكن يعرفها الأوروبيون، بما فيها: جزر الرأس الأخضر "Cap Verde"، وماديرا، وجزر الأزور، وبما فيهم جزر كناريا بالتفصيل، التي كنا نسميها "جزر الخالدات". والغريب في الأمر أنه أظهر بالتفصيل جبال الأنتس التي هي جبال تشيلي غرب قارة جنوب أمريكا، التي لم يصلها الأوروبيون إلا عام 1527م، وأظهر أنهاراً في كولومبيا، ونهر الأمازون بالتفصيل، ومصبه الذي لم يكونا معروفين عند الأوروبيين ولا موجودين في خرائطهم. وأظهر نهر الأمازون بالتفصيل، بحيث رسم في مصب النهر المذكور بوضوح جزيرة يسمونها الآن "ماراجو"، وهي الآن موجودة في الخريطة الحالية التي ما وصلها الأوروبيون إلا آخر القرن السادس عشر.

من بعد ذلك هناك خريطة للحاج أحمد العثماني عام 1559م، وهي تدل كذلك على معرفة واضحة بالقارة الأمريكية متفوقة على معرفة الأوروبيين. والحقيقة أن الرعب الكبير الذي كان للأوروبيين في القرن السادس عشر أن تحتل الدولة العثمانية أمريكا وتطردهم منها كان هاجسهم، ونذكر أنه في القرن السادس عشر كان الوجود الإسلامي ما يزال في إسبانيا، كان المورسكون مضطهدين محاربين، بيد أنهم كانوا ما يزالون مقاومين.

أما الأفارقة؛ فكما قلت لكم: أظهر تول هابير داليدا عام 1969م، بالرحلة التي قام بها من مدينة آسفي المغربية إلى البحر الكاريبي أنه بالإمكان أن يكون قدماء المصريين قد أبحروا إلى أمريكا. لماذا؟ لأنهم وجدوا تشابهاً كبيراً بين حضارة الأزتق والحضارة المصرية.

وفعلاً؛ يظهر أن أول من قطع البحر من مسلمي إفريقيا الغربية كانوا من مملكة مالي، لأن شهاب الدين العمري قال في كتاب "مسالك الأبصار وممالك الأمصار" بأن سلطان مالي من سموسة (كلمة غير واضحة) لما ذهب للحج عام 1327م، ذهب يوزع الذهب في طريقه لحد أن ثمن الذهب رخص في مصر بسبب ما وزعه من الذهب، وأخبر بأن سلفه أنشأ مائتي سفينة وقطع المحيط الأطلسي نحو الضفة الأخرى وأتابه عليه في حكم مالي ولم يعد قط. وبذلك بقي هو في الملك.

ووجدت كتابات في البيرو والبرازيل وجنوب الولايات المتحدة تدل على الوجود الإفريقي من كتابات إما بالحروف الإفريقية بلغة المانديك؛ وهي لغة لشعب كله مسلم الآن، يسمونهم: "الفلان"، أو بحروف كوفية عربية. وكذلك تركت اللغة المانديكية أثراً لها في الهنود الحمر إلى يومنا هذا.

والحقيقة؛ انتشر المانديك من البحر الكاريبي إلى شمال وجنوب الأمريكتين، وهناك قبائل هندية إلى يومنا هذا مازالت تكتب بحروف لغة المانديك.

هل طمس الإسبان جميع الوجود الإسلامي والوجود المانديكي وآثارهم ولم يبق من ذلك شيء؟!، هذا كثير، ولا يمكن. فإذا رجعنا إلى كتابات المكتشفين الأوروبيين الأوائل بمن فيهم كريستوف كولومب؛ نجد بأنهم ذكروا الوجود الإسلامي في أمريكا.

فمثلاً؛ في كتاب كتبه ليون فيرنيل عام 1920م، وكان أستاذاً في جامعة هارفرد، اسم الكتاب "إفريقيا واكتشاف أمريكا"، **"Africa and the discovery of America"**، يقول فيه: "إن كريستوف كولومب كان واعياً الوعي الكامل بالوجود الإسلامي في أمريكا"، وركز في براهينه على براهين زراعية ولغوية وثقافية، وقال بأن المانديك بصفة خاصة انتشروا في وسط وشمال أمريكا، وتزاوجوا مع قبيلتين من قبائل الهنود الحمر، وهما: "إيروكوا" و"الكونكير" في شمال أمريكا، وانتشروا - كما ذكر - في البحر الكاريبي جنوب أمريكا، وشمالاً حتى وصلوا إلى جهات كندا. بل وذكر كريستوف كولومب نفسه بأنه وجد أفارقة في أمريكا. وكان يظن بأنهم من السكان الأصليين، ولكن لا يوجد سكان أصليون جنوز في أمريكا. فمن أين أتوا؟!.

"جيم كوفين" كاتب فرنسي ذكر في كتابه "بربر أمريكا"، **"Les Berberes d'Amerique"**، بأنه كانت تسكن في أمريكا قبيلة اسمها "المامي"، **"Almami"**، وهي كلمة معروفة في إفريقيا الغربية معناها: "الإمام"، وهي تقال عن زعماء المسلمين، وذكر بأن أكثريتهم كانت في الهندوراس في أمريكا الوسطى، وذلك قبل كريستوف كولومب.

كذلك في كتاب "التاريخ القديم لاحتلال المكسيك"، **"Historia Antigua de la conquista de Mexico"**، لمانويل إيروسكو إيبيرا، قال: "كانت أمريكا الوسطى والبرازيل بصفة خاصة، مستعمرات لشعوب سود جاؤوا من إفريقيا وانتشروا في أمريكا الوسطى والجنوبية والشمالية".

كما اكتشف الراهب فرانسيسكو كارسييس، عام 1775م قبيلة من السود مختلطة مع الهنود الحمر في نيوميكسيكو في الولايات المتحدة الأمريكية "المكسيك الجديدة"، واكتشف تماثيل تظهر في الخريطة المرفقة تدل دلالة كاملة بأنها للسود. وبما أنه لا يوجد في أمريكا سود، إذا كانوا قادمين من إفريقيا.

وزيادة على كل ما ذكر، هناك آثار للوجود الإفريقي الإسلامي في أمريكا، في شينين هامين: تجارة الذهب الإفريقي، وتجارة القطن، قبل كولومبوس. ومعروف أن التجارة مع المغرب وإفريقيا كانت كلها على الذهب عبر الصحراء. وسيدي مولاي أحمد الذهبي السعدي - والذي لا يعجبني كثيراً - قطع الصحراء إلى تومبوكتو لضرب دولة إسلامية مسكنة كي ينهب ذهبها ويسكت طلبات المغاربة الذين كانوا يطالبونه بتحرير المورسكيين في الأندلس.

من السهل معرفة الذهب الإفريقي في أي مكان كان، لأنه يركز على التحليل التالي: لكل 32قسمة من الذهب يوجد 18 من الذهب، و6 من الفضة، و8 أقسام نحاس، وهذه التركيبة من الذهب تدل على أن أصله إفريقي، وخاصة منذ القرن الثالث عشر. وجد هذا الذهب عند الهنود الحمر بأمريكا.

ولكن هناك قرائن أكثر من القرائن المبنية على الذهب؛ هناك قرائن لغوية، وقرائن شهود عيان، فالقرائن اللغوية ممثلة في أن الكلمات التي تطلق باللغة العربية، أو اللغات الإفريقية على النقود، هي شبيهة بالكلمات التي تستعمل من طرف قبائل الهنود الحمر، وهذه الكلمات لا يمكن أن تكون جاءت عن طريق الغزوين الإسباني أو الأوروبي؛ فمثلاً: بالعربية: غنى، وغنية، وغنيمة. أصبحت بلغة الهنود الحمر: "غواني" **"Guani"**، معناها: الذهب. كلمة كنفود، ونقية، ونحاس، أصبحت بلغتهم: "نيكاي"، بمعنى: حلي من ذهب. كلمة "التبر"، صارت: "توب"، أي: الذهب. وكذلك لقبا للملك من ملوكهم. أي: أن هذه الكلمات العربية لا يمكن أن تصل إليهم لولا وجود عربي هناك؛ فتجارة القطن مهمة كذلك؛ لأنه لم يكن قطن في أمريكا، بل جاء من إفريقيا الغربية، وتعجب كولومب نفسه في كتاباته حيث قال: "إن الهنود الحمر يلبسون لباساً قطنياً شبيهاً باللباس الذي تلبسه النساء الغرناطيات المسلمات". وابنه أكد ذلك الكلام كذلك.

والغريب في الأمر - وهو ما سأفصله من بعد إن شاء الله - أن قبيلة موجودة الآن في أمريكا الوسطى اسمها: "كاليفونا" **"Galifona"** في غواتيمالا، يسمونهم: "الهنود الحمر السود"، لأنهم هنود حمر غير أنهم سود الألوان، وهم من بقايا المسلمين المانديكا الذين كانوا هناك، وكثير من عاداتهم لا زالت عادات إسلامية إلى الآن. سأتكلم عن هذا عند حديثي عن بقايا هذه الشعوب، ماذا فعل بها، وكيف كان مصيرها؟.

وقال "مبيرا موس" في مقال في جريدة اسمها: "ديلي كلاريون"، **"Daily Clarion"**، في "بيليز"، وهي إحدى الجمهوريات الصغيرة الموجودة في أمريكا الوسطى، بتاريخ عام 1946م: "عندما اكتشف كريستوف كولومب الهند الغربية، أي: البحر الكاريبي، عام 1493م، وجد جنسا من البشر أبيض اللون، خشن الشعر، اسمهم: "الكاريب"، كانوا مزارعين، وصيادين في البحر، وكانوا شعباً موحداً ومسالماً، يكرهون التعدي والعنف، وكان دينهم: الإسلام، ولغتهم: العربية!". هكذا قال.

نحن في المدرسة لا يعلموننا هذا الشيء، يقولون: "كان الكاريب وانقرضوا". لم ينقرضوا؛ بل أفنوهم!! أفنوهم!. وإلى هذا اليوم تسمى تلك الجزر بالكاريبي، في البحر الكاريبي، سميت عليهم ، الذين بقوا - وذلك لمخالطتهم للهنود الحمر - هم "الكاليفونا"، وقد بقوا إلى يومنا هذا في أمريكا الوسطى ، ولا شك أن أصولهم إسلامية لأن الكثير من العادات الإسلامية لا زالت فيهم.

أين هي هذه الشعوب الآن؟ ، كثير من الشباب المسلم أنشأ علاقات مع الكاليفونا، وكثير منهم رجع إلى الإسلام، وأصبحت مساجد كثيرة تظهر في تلك الشواطئ بين هؤلاء الكاليفونا ، أما هؤلاء الميلونجونس، والذين هم مهاجرون من البرتغال في أوائل القرن السادس عشر؛ فقد هربوا من محاكم التفتيش إلى البرازيل، فلما جاء البرتغاليون واحتلوا البرازيل؛ تابعتهم محاكم التفتيش، فركبوا البواخر وهربوا إلى أمريكا الشمالية، قبل أن يصلها الإنجليز، واختلطوا مع قبائل الهنود الحمر. غير أن الإنجليز لما عادوا عاملوهم معاملة الهنود الحمر، قتلوا وإبادة، فهربوا إلى جبال الأبلاش. واحد منهم اسمه: "بروند كينيدي"، "Brand Kennedy"، أخذ تمويلا من جامعة فرجينيا الغربية "West Virginia"، لدراسة أصول هؤلاء القبائل، ومن أين أتوا، لأنه واحد منهم. وبدءا من دراسة عاداتهم؛ اكتشف بأن أصولهم - كما ذكرت - من المسلمين الأندلسيين. والغريب في الأمر أن التاريخ مخيف، فأى شعب يُضطهد إلا وينتقم لنفسه بطريقة من الطرق:

أحد زعماء الولايات المتحدة، الذي هو سليل هذا الشعب، هو "أبراهام لينكولن"، انظر إلى صورته وصورة أفراد الميلونجونز كيف يشبههم، وبذلك يظهر بأن الجذور في تحرير السود هي كأنه يحرر نفسه، فانتقم بتلك الطريقة من النصارى البيض. وهذا الذي أهداني هذا الكتاب نفسه، والذي هو أستاذ في جامعة تورنتو "Toronto"، أصله كذلك: من جهة ينتمي للميلونجونس، ومن الجهة الأخرى للزنج.

وخلاصة الأمر التي أردت أن أقولها بعد هذا التقديم الذي إنما أردت منه أن أفتح شهيتكم الفكرية: أن هذا المجال - ومع الأسف الشديد - نحن المغاربة نعاني من خصائص تجاهه، بالرغم من أننا نحن المعنيين بالأمر، وبهذه الحركة، تجاه أميركا الجنوبية، نعاني من نقص كبير في جامعاتنا، كيف نبحث في تراثنا عن هذا الشيء؟. ضروري أنه عندنا وثائق في هذا الشأن، وبالطبع لن يسموها بأمريكا، لأنه لم يكن ذلك الوقت شيء اسمه "أمريكا"، كان لها اسم آخر بلا شك، ما هو بالضبط؟. لا ندري. لكن كان من الممكن أن نبحث في وثائقنا لنعرف هذه العلاقة التي كانت تربطنا بأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية قبل كريستوف كولومب.

والموضوع الثاني: أنه بصفة عامة، وخاصة ما يخص التاريخ، يجب أن نعتمد على أنفسنا لمعرفة جذورنا. أنا أذكر أنه عندما كنت صغيرا كانوا يعلمونني في المدرسة الفرنسية بأن العرب ليس لهم تاريخ، وذلك ليحطمونا، لأن الشعب الذي لا تاريخ له لا هوية له، شعب فاقد لذكراه التاريخية. ولولا أن الوالد رحمه الله كان ينبهني بأن تاريخنا كذا وكذا، وكان لأمتنا من المفاخر كذا وكذا، لكبرت وعندي مركبات نقص فظيعة.

وإحدى الأسلحة القوية للشعوب المتغترسة التي تريد أن تمحو وجود الشعوب المستضعفة الأخرى: هي تحريف التاريخ. ولذلك فإنه من العار علينا أن نعتمد في اكتشاف تاريخنا، أو تاريخ الإسلام، أو تاريخ المغاربة، أو غيره... على الوثائق الغربية، وإن كنا نحمد الله على بقاء آثار إسلامية في الغرب مثل ما عند دوق مدينة سيدونيا، والتي أخرجت وثائقها وبرهنت على الوجود الإسلامي أربعمئة وخمسمئة عام في أمريكا الجنوبية قبل كريستوف كولومب. أو يأتي واحد مثل "براند كينيدي"، ليثبت بأن شعبا كاملا من أمريكا الشمالية ذو أصول إسلامية.

وبهذا أريد أن أوصي توصية واحدة؛ وهي: أنه واجب علينا أن نربط علاقات مع هؤلاء الناس، ونحيي الأبحاث في هذا المجال.

المغاربة (البرتغاليون) في جنوب الولايات المتحدة

مصطفى الأزموري (ستيبانيكو)

أحد أعظم رواد جنوب الولايات المتحدة

احتلت البرتغال مدينة أزموور بالمغرب سنة 1513 وهي موطن مصطفى الأزموري الذي وُلد عام 1500 واختطفه الجنود البرتغاليون وهو في سن المراهقة ضمن العديد من أبناء وبنات أزموور (352) وبيعوا في سوق الرقيق باشبيلية ؛ وكان الأزموري من نصيب أندريس دورانتيس أحد النبلاء الأسبان الذي عمده وأسماه استيبانيكو (مصطفى) دورانتيس (353).

وفي 17 يونيو 1527 إبتعث الإمبراطور شارل الخامس رحلة بقيادة «بانفيلو دو نارفايز» إلى العالم الجديد لإستكشاف أدغال شبه جزيرة فلوريدا تمهيدا لاستيطانها، وكان قوام البعثة 600 مغامر من بينهم استيفانكو الأزموري وسيدته أندريس دورانتيس وموثق الرحلة كابيزا دي فاكا وضمت اربعة مراكب وبسبب العواصف اضطرت البعثة إلى قضاء الشتاء في كوبا حيث مكثوا عاما لسوء الاحوال الجوية .

وفي فبراير عام 1528 انطلقت سفن الحملة الأربعة الأصلية بالإضافة إلى أخرى خامسة اشتراها بانفيلو دي نارفايز لكن الحملة واجهت الأعاصير قبل الرسو يوم 12 ابريل من نفس السنة في فلوريدا في شمال خليج بامبا حيث قابلت هنود حمر من إحدى قبائل الصيادين الذين عثروا بشباكهم على قطع ذهبية مما كان دليلا على وجود الذهب بوفرة في هذه المناطق.

امضى الاسطول عام 1528 في محن وكوارث وإنتهت بمقتل السواد الاعظم من افراد البعثة وتحطم مراكبه ؛ وانتهت مركب الأزموري حطاما على سواحل لويزيانا عندما طوحت بها الأعاصير على ساحل مالهادو/ كافيستون ولم ينجو من ركابها الا أربعة هم مصطفى الأزموري ودورانتيس و كابيزا دي فاكا وألونسو مالدونادو ، حيث اعتقلتهم إحدى القبائل الهندية لمدة أربع سنوات فروا بعدها في اتجاه المكسيك في أبريل 1534 في رحلة إستغرقتهم سنتين إكتسب فيها الأزموري شهرة بمداواته السكان الأصليين جعلته يشتهر كقديس من السماء فلقبوه باسم أبن الشمس ، وأصبح يجيد بالإضافة إلى الدارجة المغربية الإسبانية والبرتغالية وخمس لهجات محلية ، فبدأت قوافل الهنود ترافقهم من قرية إلى أخرى وتهديهم الأكل

والشراب وجلود الغزلان وأغطية القطن ولالى المرجان وقطع الفيروز والزمرد والمنحوتات نحاسية ؛ وتصف رسالة من تلك الحقبة الأزموري خلال رحلته الأولى هذه إلى فلوريدا بأن " أعضاؤه ضخمة مزينة بنياشين الزهر والأجراس ، ولديه صندوق كبير مملوء بالتمايم ترافقه العديد من نساء الهنود اللواتي أهدتهن القبائل له .

وفي يوليو 1536 وصل الأزموري المكسيك التي كانت تحت حكم وكيل الملك الإسباني أنطونيو مندوزا ؛ وأخبره أن هناك مدنا ذهبية أهمها مدينة سييولا الأسطورية ؛ أكد استيفانيكو الأزموري رؤيتها بعينه وهو ما أدى بنائب الملك الأسباني في المنطقة إلى تعيينه مرشدا لحملة إنطلقت في فبراير عام 1539 بقيادة المبشر الراهب الفرنسيكاني فراي ماركوس دي نيزا لاكتشاف مدن الذهب وبرفقتهما عدد من الجنود للذهاب إلى سييولا بحثا عن مدن الذهب السبع ؛ حاول خلالها الأزموري التخلص من الاسبان

³⁵² أورد الباحث شُعب حليفي في عرضة حكاية سعيد بن حدو الأزموري ابن الشمس الخالد استيبانيكو ان المغرب تعرض لسنوات من المجاعة القاتلة اعوام 1500 و 1510 و 1520 و 1521، وان اسرة الأزموري قد باعته ايام مجاعة الفترة 1520- 1521 التي كانت الاسوأ في تاريخ البلاد ودفعت بالأهالي إلى بيع أبنائهم؛ وبيع سعيد بن حدو إلى برتغالي رحل به على متن أحد المراكب الخمسين التي كانت تغادر ميناء أزموور يوميا محملة بالعبيد إلى البرتغال ؛ وفي كاديس إنتقلت ملكية الأزموري الى أندريس دورانتيس الذي نسبته إليه فيما بعد ليحمل اسم إستيبان دي دورانتيس.

³⁵³ في نفس الفترة أختطف الأديب المؤرخ والرحالة المغربي الحسن الوزان (ليون الإفريقي) بيد قراصنة أسبان وهو على سفينة قرب جزيرة جربة التونسية عائدا من سفارة من اسطمبول 18 يونيو 1518؛ ومن الملاحظ بروز المغاربة في أدب وفن الرحلات ووضعوا فيه مؤلفات بديعة ؛ وأشهر رحلة في العالم هم ابن بطوطة الطنجي والشريف الإدريسي السبتي اكبر جغرافي عرفته الحضارة الإسلامية واكبر جغرافي على الإطلاق حتى عصر الكشف الجغرافية الأوروبية أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين. وأن أعظم رحلة ألفت في العربية ألفها مغربي وهو الإمام ابن رشيد السبتي في 7 مجلدات



مستغلا شعبيته بين الهنود الحمر المؤمنين به " كديس " ابن الشمس ؛ فسبق الحملة الى مدينة سيبولا حيث قبيلة زوني مخلفا وراءه دي نيزا بعيدا بحوالي 400 كلم ، وكان برفقته (الآزموري) حوالي 300 من المريدين الهنود ولكنه اختفى بعد ان أشيع أن قبيلة زوني قتلوه ، ويشكك د. شُعيب في هذه الشائعة ويرى ان الاحتمال الأكثر قربا إلى الحقيقة هو لجوء الآزموري إلى الهنود هربا من الإسبان وممارساتهم الاجرامية من قتل وتخريب ضد الهنود من أجل أطماع مادية ؛ ويدلل على هذا التحليل بأن قبيلة زوني حتى الآن ما تزال تتحدث عن مصطفى الآزموري بأنه " ستيبانيكو القديس الملاك وتجعل من شخصيته رمزا دينيا في عباداتهم " .

ولكن للنهائية رواية اخرى تقول ان الحملة في شهر فبراير من سنة 1539 وانقسم أفرادها إلى قسمين إلا أن هذه المرة تقدم فريق يقوده الآزموري استيفانيكو، وبقي القسم الثاني الذي يتزعمه الراهب الذي كان يخبره استيفانيكو ابن آزمور باكتشافاته عن طريق رسل يحملون صليباً يدل حجمه على اقترابه من مدن الذهب السبع الأسطورية مستخدماً في ذلك المنات من مريديه الهنود ليرشدوه إلى أكبر وأشهر مدن الذهب السبع الأسطورية وهي مدينة سيبولا .

وتقول وثيقة اسبانية تعود إلى سنة 1540 " بعد أن انفصل استيفانيكو عن الراهب ظن ان باستطاعته الاستحواذ على شرف اكتشاف مدن الذهب بمفرده ولذا فقد ترك مسافة كبيرة بينه وبين باقي أفراد البعثة وحل في سيبولا برفقة الهنود محملاً بكمية من أحجار الفيروز الكريمة التي أهداها له البوييلوس بالإضافة إلى عدد هائل من النساء الجميلات التي وهبه إياها الهنود المرافقون له وقد كان هؤلاء يلتحقون بركبه كلما عبر قبيلة معتقدين انه سيحميهم من كل الأخطار ، لكن سكان سيبولا كانوا متشككين في الآزموري ولهذا فرضوا عليه الإقامة الجبرية في كهف خارج المدينة ، واستنطقه حکماؤهم لمدة ثلاثة أيام لمعرفة أسباب وفوده عليهم ، ولكن اعترافات استيفانيكو لمستنطقيه لم تكن مقنعة ولم يصدقوا بأنه موفد من طرف نبيل يعرف ما في السماوات وأضاف بأن الراهبين مكلفان بتلقين الهنود أصول الدين، ولم يصدق زعماء سيبولا المغربي وظنوه جاسوساً لقبيلة تريد غزو أراضيهم كما لم يتقبلوا أن يكون رسول البيض ذو بشرة سوداء كما تسبب اصطحابه للنساء الهنديات غضبهم وكذا طلباته المتكررة للفيروز فقرروا قتله.

ولقبيلة زوني رواية اخرى تقول أن الأهالي قرروا قتله لانه كان يحمل نذير شؤم لان جرابه الطبي كان مصنوعاً من ريش البوم طائر الموت ونذيره ، وهناك رواية مشابهة تقول بأن الآزموري أرسل إلى صاحب مدينة سيبولا رسولين يحاملان آنية تحتوي على بعض الخيوط وريشتين ، واحدة بيضاء والأخرى أرجوانية اللون ولما مثلاً أمام صاحب المدينة وقدماً له الآنية رماها أرضاً حينما شاهد محتواها وأمر الرسولين بالرجوع من حيث أتيا وانذرهما بأنه سيقتل جميع أصحابهما إن هم دخلوا المدينة ، ولما لم ينصاع الآزموري للأمر ألقي القبض عليه هو وأصحابه ، ولما حاول الفرار مع رفاقه في اليوم التالي عام 1540 طاردوهم وقتلوا عدداً منهم الآزموري ؛ وتُضيف رواية أخرى أن زعيم قبيلة سيبولا أمر بقطع أطراف استيفانيكو وأرسل قطعاً منها إلى زعماء القبائل حتى يتأكدوا بان المغربي مجرد إنسان وليس ابناً للشمس.

يُعتبر الآزموري أحد أول مستكشفي فلوريدا وتكساس والمكسيك وأريزونا والمكسيك الجديدة وكانت السنوات الإثنتي عشرة التي قضاها كافية لتجعل منه أحد أكبر مستكشفي تلك الانحاء ؛ وقد نجح بتركيبته الثقافية المتعددة وإجادته لغات الهنود الحمر واختلافه العرقي عن الأوربيين في أن يرتقى بوضعه الضعيف كعبد إلى وضع قوي كوسيط ومترجم ورجل سلام بين الغزاة الأوربيين وهنود أمريكا ؛ فقد نجح في إستغلال هويته الأجنبية عن الأوربيين ليكون وسيطاً مفاوضاً وداعية سلام وهو ما يجعله "دبلوماسياً حقيقياً" فاتخذ موقفاً محايداً بين الغزاة الأوربيين وهنود أمريكا ويخبرنا كابيسا دي باكا بأنه لم يكن أمامهم من خيار آخر إلا أن يعينوه «ناطقاً باسمهم» و«دليلهم» في تنقلاتهم لصفاته المميزة . وشهد له الذين عايشوه مثل كاييزا دي باكا وكورونادو إلى بيدرو دي كاستينيدا والراهب فراي ماركوس بقدرته على التكيف مع مختلف الأوضاع بفضل نزاهته وميله الكبير إلى الاطلاع والمعرفة، وفي هذا السياق يصفه كابيسا دي باكا سنة 1542 "كان إستيفانيكو رجلاً طويلاً القامة، قوي البنیان، يتمتع بذهن متقد وذكاء ثاقب فضلاً عن مواهبه العلاجية "، ونوه كاييثا دي باكا بقدرات الآزموري اللغوية فيقول "كان الرجل الأسود يتحدث دائماً إلى

الهنود ويتحرى عن الطرق والقرى وكل شيء كنا نريد معرفته “مؤرخون آخرون من نفس الحقبة قالوا إن الأزموري كان يتكلم أكثر من 6 لغات أمريكية هندية أخرى تعلم البعض منها في ظرف سنتين فقط ، وبفضل كفاءاته اللغوية أنقذ حياة عدد من الأبرياء في بيئة كانت مطبوعة بالخوف والحذر والعنف ، وعندما أدرك سادته قيمة الأعمال التي قام بها وما أسداه من خدمات إلى إسبانيا حققوا له مبتغاه فمنحوه حريته سنة 1536.

المبحث الثاني
الصلور في نهاية البحث

Islam and Muslims in America before Columbus

Date: Tuesday, November 09 @ 05:45:09 CST

Topic: Islam in History

Historical facts concerning many established information on diverse fields continue to be unraveled to the astonishment of us all. One of these facts, previously little-known by many, is that Muslims had actually set foot on American soil centuries before Columbus' illustrious expedition. We hope as you read ahead in this essay that some information and documents, excerpts from various sources, and the results of archeological excavations will demonstrate the truth of the aforementioned proposition. Did the Companions of the Prophet go to America?

Research conducted in the West during the twentieth century has proven the existence of Muslims on the American mainland approximately seven centuries before Christopher Columbus. Similarly, archeological excavations, linguistic, and philological analyses of languages and settlement names in the region, the fact that coins, household tools and other utensils were discovered there that were similar to those of the Abbasids in the eighth and ninth centuries are all justifications of the theory that Muslims, beginning from 650 CE, made their way to the continent for settlement, during which time they erected mosques and schools, leaving a prolonged impact on the natives, i.e. American Indians.

The Islamic sources carry no information as regards Muslim settlement in America, although research undertaken by Professor Barry Fell of Harvard University confirms that Muslims reached the continent at the time of Uthman, the third Caliph, concomitantly indicating the significant possibility that some of the Companions could have arrived there as well.

Many Western researchers acknowledge the famous map of Piri Reis as proof of Muslim presence in America long before the endeavors of Columbus, as it minutely comprises the map of America, as well as extremely accurate measurements of the distance between America and Africa.

According to Salvatore Michael Trento, former director of the Center for Archeological Research in Middletown, New York, before embarking on his first voyage to America, Columbus had read the book of Roger Bacon of Oxford University, which comprised information, compiled from a variety of Arabic resources, about geographical regions on the other side of the Atlantic; hence Columbus' previous knowledge of the islands in the Atlantic Ocean and other places.¹

Proofs in Western sources

1. Professor Barry Fell, retired lecturer from Harvard University and also a member of the American Academy of Science and Arts, the Royal Society, the Epigraphy Society and the Society of Scientific and Archeological Discoveries, is adamant about the arrival of Islam in America in the 650s,² predicating this argument upon the Cufic calligraphy belonging to that era found in various diggings across America. If the words of Professor Fell have truth-value, then the Muslims had arrived in America during the era of Uthman, or at least that of Ali, the fourth caliph. Such information, however, is not found in Muslim sources.

Professor Fell again uses the results of various archeological diggings undertaken across many regions in the states of Colorado, New Mexico, and Indiana to assert the construction of Muslim schools during 800-700 CE. Writings, drawings, and charts inscribed on rocks discovered in the most remote and untainted terrains of Western America are relics bestowed by the elementary and intermediate systems of Muslim education at the time. These documents were written in the old Cufic letters of North African Arabic, covering subjects such as reading, writing, arithmetic, religion, history, geography, mathematics, astronomy, and navigation. The descendants of these settlers are thought to be the current native tribes of Iroquois, Algonquin, Anasazi, Hohokam, and Olmec.

2. The second evidence offered by Professor Fell is that the inscription of "In the Name of God" (picture 1), found on a rock during archeological work in Nevada, belongs to the seventh century, when the haraka sign system had not yet been developed. Likewise, the stone bearing the inscription "Muhammad is the Prophet of God" (picture 2) is pertinent to the same era. As seen by comparison of the two pictures, the inscriptions are not in the style of Modern Arabic; conversely they are in a Cufic style relevant to the seventh century.³

The Arabs, according to the findings of Professor Fell, settled in Nevada during the seventh and eighth centuries. The earlier existence of a school, which taught Islam and science, particularly navigation, has come to light following

the archeological investigation undertaken by Professors Heizer and Baumhoff of California University around site WA 25 in Nevada. The excavations in Nevada have uncovered writings in Naskhi Arabic and Cufic style that are inscribed on rocks which carry information about this school (picture 3). The application of the mathematical formula "five diamonds equal an alif" (alif is the first letter of Arabic alphabet) may be seen in this picture (pictures 3b and 3c). The Arabic letters in pictures 3b and 3c, found amid excavations in Nevada, are in exactly the same style as North African Arabic. Again similarly, another rock was found in Nevada bearing the name "God", the style of which is yet again reminiscent of the prevalent technique of seventh and eighth-century North Africa. The calligraphical similarities between various writing styles of the Prophet's name over diverse periods, particularly those relating to Africa and America, found during archeological investigations are striking indeed. Figure A of picture 4 was found in al-Ain Lahag, Morocco and figure B in East Walker River; both are currently at the University of California. Figure C was discovered in Nevada and figures C and D were located in Churchill County and are also currently preserved at the University of California; likewise figure F was discovered in al-Haji Minoun, Morocco, while figure G, inscribed on ceramic, was revealed in al-Suk, Tripoli, Libya and figure H, at the University of California, was discovered at Cottonwood Canyon, while finally figure I was located on the border of Morocco and Libya. All these inscriptions belong to the eighth and ninth centuries, clearly illustrating the resemblance in style between North America and North Africa, as well as overtly suggesting a migration that occurred from Africa to America.

3. In the twelfth century the Athapcan Tribe, comprised of native Apaches and Navajos, raided the area inhabited by the Arabs, who either ended up fleeing or were exiled toward the South. These illiterate natives were spellbound by the schools founded by the Arabs, and, perhaps with the assistance of captives, attempted to imitate the same subjects, transforming the geometrical shapes into mythical beasts, which carried on for centuries.

4. Picture 5 is the Cufic writing found in 1951 in the White Mountains, close to the town of Benton on the border of Nevada. The words Shaytan maha mayan, i.e. the Devil is the source of all lies, have been written in a Cufic style peculiar to the seventh century.

5. Once more, a rock inscription belonging to post-650 CE, bearing the Cufic letters H-M-I-D of the word Hamid (picture 6), is another Arabic script discovered on the Atlata rocks in the Valley of Fire in Nevada.

6. While traveling from Malden to Cambridge in the state of Massachusetts in 1787 (on what is now RT. 16), the Reverend Thaddeus Mason Harris noticed some coins discovered by workers during road construction. The workers, not putting much value on these coins, presented him with a handful. Consequently, Harris decided to send these coins to the library of Harvard College for examination (picture 7). The study yielded that these were in fact Samarqand dirhams from the eighth and ninth centuries. As can be seen in the picture, the coins manifestly display the inscriptions La ilaha ill-Allah Muhammadun Rasulullah (There is no deity but God, and Muhammad is His Messenger) and Bismillah (in the name of God).

7. Picture 8 shows a piece of rock discovered in a cave in the region of Corinto in El Salvador, bearing the inscription Malaka Haji mi Malaya; this has been identified as belonging to the thirteenth century, suggesting a possible arrival of Muslims in South America, perhaps coming from somewhere near Indonesia.

8. During his second voyage, Columbus was told by the natives of Espanola (Haiti) of black men who had appeared on the island before him and they showed him the lances that had been left there by these Africans to support their assertions. The tips of the lances were of a metal, an alloy of gold, which they called guanin, a word which is semantically remarkably similar to the Arabic word ghina, meaning richness. Columbus had in fact brought some of this guanin back to Spain, recording that it was composed of %56.25 gold, %18.75 silver and %25 copper, ratios that were prevalent in African Guinea as standards for the processing of metals.

8. On his third voyage to the New World, Columbus visited Trinidad, where the sailors noticed the symmetrically patterned cotton and colorful handkerchiefs of the natives. Afterward, Columbus realized that the handkerchiefs, which the natives called almayzar, were all much the same in color, style, and use as the headscarves and waist bands used in Guinea. The word almayzar is Arabic, and denotes a cover, tie, apron, or skirt, and is a component of the regional costumes of the Moors, Arabs and, Berbers of North Africa, who had conquered Spain in the eighth century. Columbus observed that the local women wore cotton garments and wrote in astonishment that they had learned of the concept namus, i.e. chastity. In much the same vein, Hernan Cortes, another Spanish explorer, later recorded that the clothing of local women consisted of long veils and skirts decorated with ornaments that were similar to those of the Moors. Ferdinand, Columbus' son, was also quick to notice the resemblance between the cotton dresses of the natives and the ornamented shawls fashioned by Moorish women in Granada. The cradles used by the natives, furthermore, very closely resembled those of North Africa.

9. Columbus recorded on 21 October 1492 that he had noticed a mosque on top of a mountain while sailing around Cibara on the northeast coast of Cuba. Relics of mosques carrying Qur'anic inscriptions on their minarets have been found in Cuba, Mexico, Texas, and Nevada since these times.

10. Leo Weiner, a well-known Harvard historian and linguist, stated in his book *The Discovery of Africa and America*, written in 1920, that Columbus was aware of the existence of Mandinka, an ethnic group of West Africa, in the New World. The same book also affirms that Columbus was aware that West African Muslims were living across North America, including the south, middle regions and Canada, as well as in the Caribbean, and that they had marital and commercial ties with the native tribes of Iroque and Algonquin.

11. A preponderance of the voyages embarked upon by Columbus and other Spanish and Portuguese explorers toward the other side of the Atlantic were undertaken only in the light of the geographical and navigational knowledge prepared by Muslims. Al-Masudi's (957-871 CE) work *Muruj'uz-Zahab*, for instance, was written with this sort of data compiled by Muslim traders from across Africa and Asia. Two of Columbus' captains on the first voyage, in actual fact, were Muslims: Martin Alonso Pinzon was in charge of the *Pinta*, while his brother Vicente Yanez Pinzon was the designated captain of *Nina*; both were from the Moroccan Marinid dynasty, descendants of Sultan Abu Zayan Muhammad III (r. 1366-1362). Formerly well-to-do ship riggers, they assisted Columbus in organizing his voyage of exploration, preparing the *Santa Maria*, the flagship, and covering all its expenses.

12. Christopher Columbus has recorded the custom of nose piercing, which used to be and still popular in the Middle Eastern and Arab countries, as being prevalent in some islands across the Atlantic also mentions the writing of letters in Arabic.

13. In the account of sixteenth century missionaries in America, the local copper mines, found particularly in Virginia, Tennessee, and Wisconsin were not operated by the natives, but instead by people from the Middle East, towards whom the natives nurtured a profound sympathy.

14. A sum of 565 names, 484 in America and 81 in Canada, of villages, towns, cities, mountains, lakes, rivers and etcetera, are etymologically Arabic, designated by locals long before the arrival of Columbus. Many of these names are in fact the same as names of Islamic places; Mecca in Indiana, Medina in Idaho, Medina in New York, Medina and Hazen in North Dakota, Medina in Ohio, Medina in Tennessee, Medina in Texas, Medina and Arva in Ontario, Mahomet in Illinois and Mona in Utah, are just a few noticeable names at the outset. A closer analysis of the names of native tribes will immediately reveal their Arabic etymological ancestry; Anasazi, Apache, Arawak, Arikana, Chavin, Cherokee, Cree, Hohokam, Hupa, Hopi, Makkah, Mohician, Mohawk, Nazca, Zulu, and Zuni are only a few.

House and building Structures

Archeological excavations conducted throughout North America and North Africa reveal a corresponding architectural resemblance between ninth century buildings. The structure of a Berber house of the Atlas Mountains, Morocco (picture 9), for instance, is exactly the same as that of a house in New Mexico (picture 10). The same similarity can be traced between the Castle of Montezuma discovered in Arizona and the remnants found in Mesa Verde in Colorado and the general structure of Berber buildings (picture 12-11).

The research undertaken by Professor Cyrus Thomas of the Smithsonian Institute shows that a small cabin built from piles of rock found in Ellenville, New York is virtually the same as the cabin, again of rock, found around Aqabah, Southern Arabia, both of which are thought to have been built around the start of the eighth century (picture 13).

Arabic words prevalent among natives prior to the arrival of Europeans

The pervasiveness of many Islamic words across the continent prior to European influx is verified by the following terms discovered in the regions currently known as New England and Nova Scotia, in America and Canada respectively. Fell pointed to some words as example of Arabic influence on Native Americans. All of the words listed below are derived from the Arabic language. However, time had eroded their original meanings and most are not used in Arabic today.

The last Muslim stronghold in Spain, Granada, fell just before the Spanish Inquisition was established in 1492. Non-Christians were forced to either convert to Catholicism to save themselves from the tyranny of the Inquisition or were exiled from the country. Documents exist which prove the existence of immigrant Muslims in Spanish America before 1550. In 1539 an edict from Spanish King Charles V was put into practice which forbade the immigration of Muslims to settlements in the West. This edict was later expanded to expel all Muslims from overseas Spanish colonies in 1543. The existence of Muslims in overseas islands and regions was known along with the fact that the Spanish king issued such an edict. Again, in many Islamic sources, it is noted that Muslims living in Spain and North

Africa made overseas voyages during the Andalusia period. Scientific research on this subject will bring out many documents into the daylight, documents which have escaped the notice of both Muslims in America and those throughout the world, which will perhaps serve, in the future if not immediately, as a starting point for a re-evaluation of the history of America.

Notes

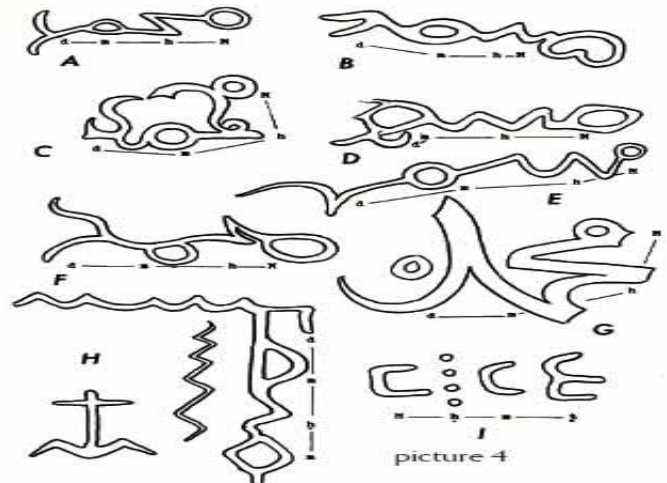
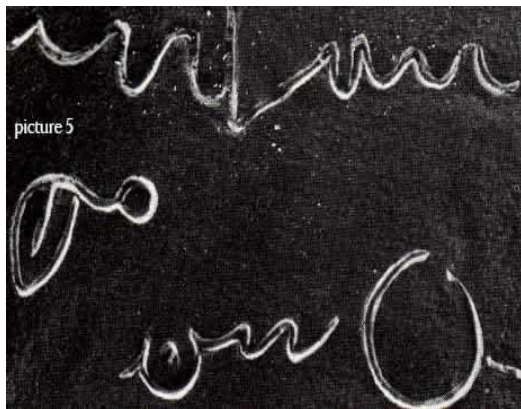
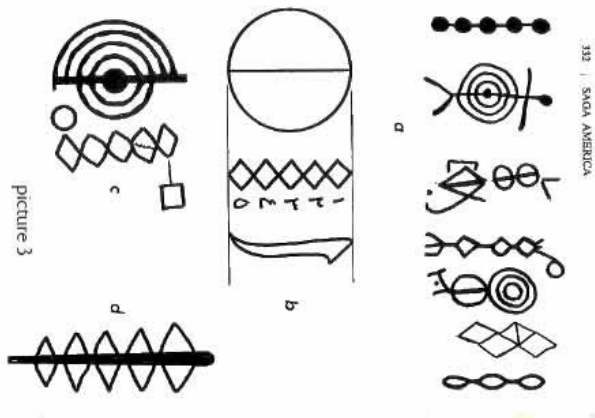
1. Trento, Salvatore Michael. The Search for Lost America, p.15 Penguin Books, New York: 1978.
2. Fell, Dr. Barry. Saga America, p. 190, Time Books, New York: 1980.
3. *ibid.* p. xiv.
4. *ibid.* pp. 333-332.
5. *ibid.* pp. 334-333.
- 6 *ibid.* p. 182.
7. *ibid.* p. 243.
8. *ibid.* p. 26.
6. *ibid.* p. 276.
7. Teacher, John Boyd. Christopher Columbus, p. 380, New York: 1950.
8. Columbus, Ferdinand. The Life of Admiral Christopher Columbus, p. 232 Rutgers Uni. Press, 1959.
9. Obregon, Mauricio. The Columbus Papers, The Barcelona Letter of 1493.
10. The Landfall Controversy, and the Indian Guides, McMillan Co., New York: 1991.
11. Weiner, Dr. Leo. Africa and the Discovery of America, Vol.2 p. 366-365 Philadelphia: 1920.
12. Obregon, 1493.
13. Trento, 1978, p. 23.
14. *ibid.* p. 29.
15. *ibid.* p. 65.
16. Fell, 1980. 252-250.
17. Trento, 1978, p. 15.
18. Fell, 1980. p. 403-400.

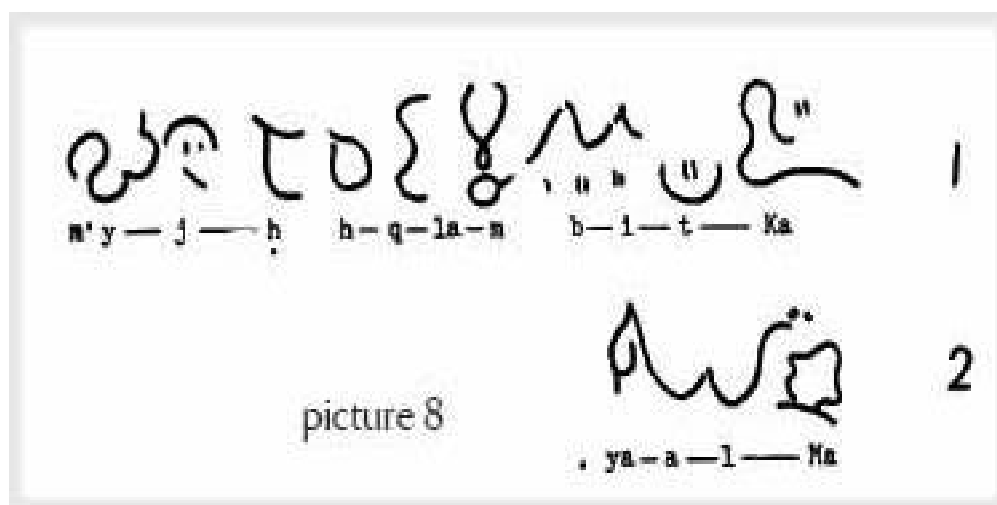
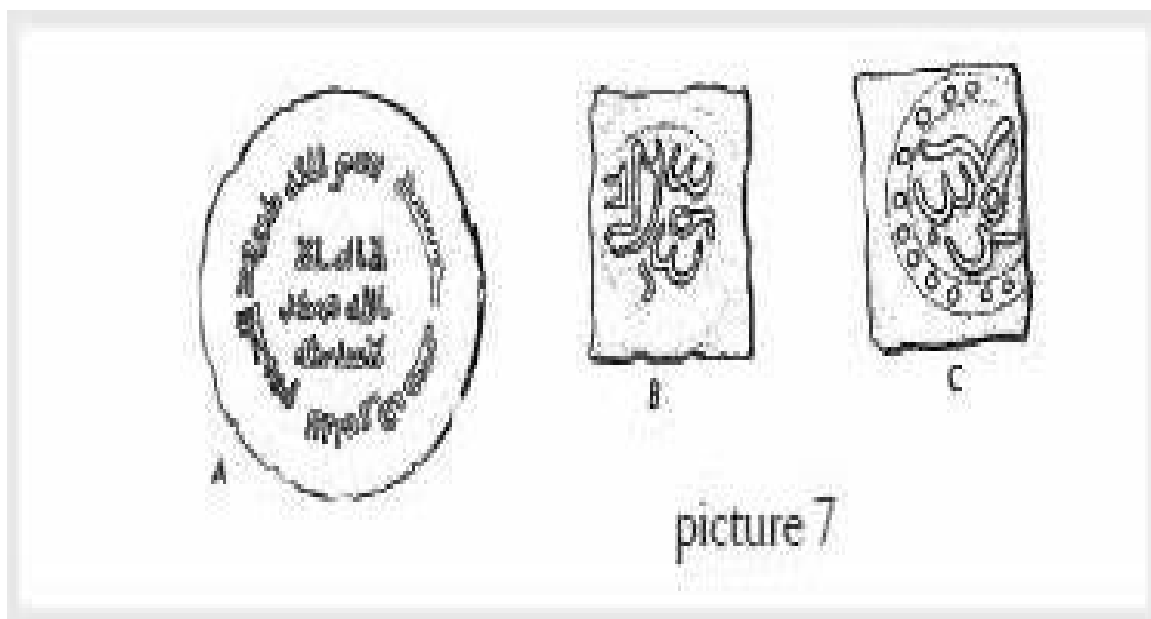
صور البحث الثاني

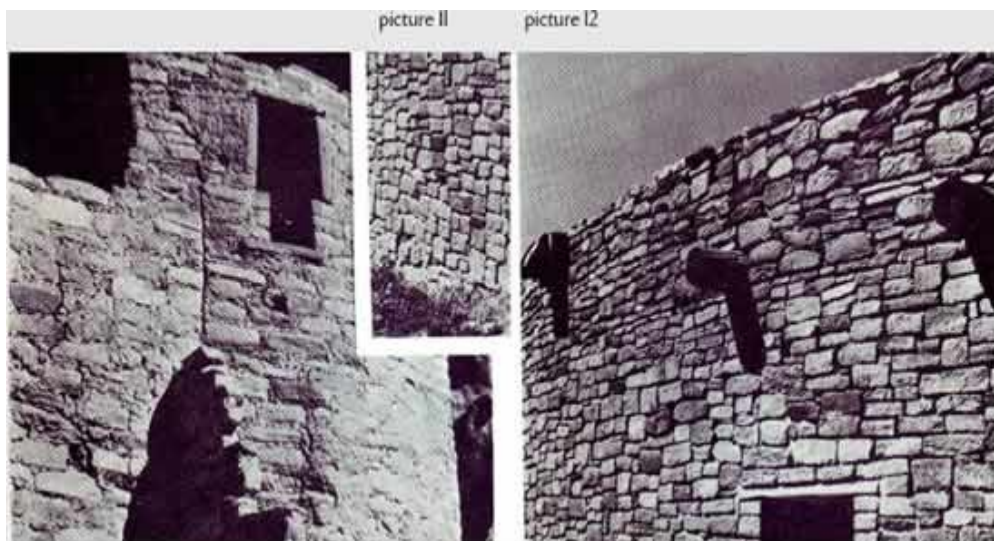
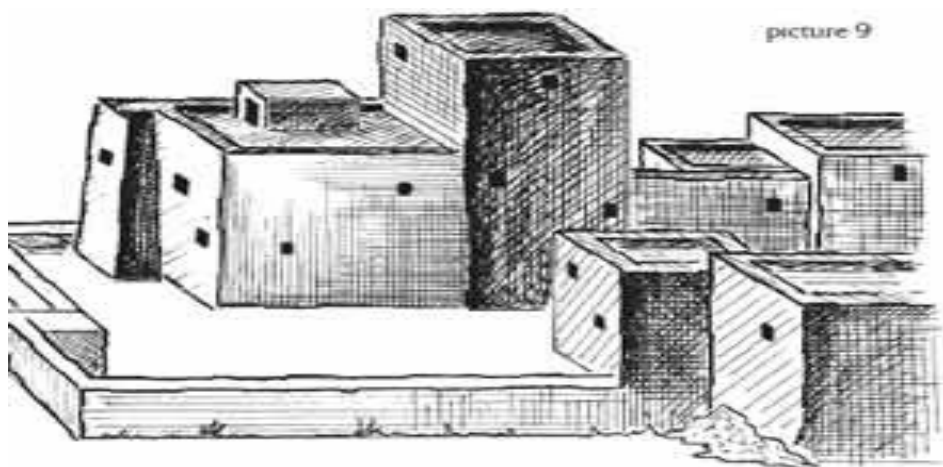
English	Arabic
a. Astronomy and Meteorology	
Dew	Naba saqt
Sunrise	Asbah
Immediate	Nitajj
Star	Allaq
Constellation	al-Kaukab
Falling rain	Saqlaba
Rainbow	Mantaqa
Tomorrow	Ghad
b. Justice and Administration	
False statement	Kabwa
Punishment	Kalal
Insolent, malicious	Majin
Authority, king	Melik
c. Medicine and Anatomy	
Affliction	Kalal
Coitus	L'am
Ill	Marad
Orgasm	Lau'a
Adolescent	Kabr
Libido	Qassa
Sneeze cough	Nakam
d. House and Household Utensils	
Belt	Tikak
Waist-cloth	Nazala-anisq
Drink-water	Naba
To enter	Nafadh



picture 1









المبحث الثالث

I stumbled across all this information by accident when researching facts to prove that there were Muslims in American when the Declaration of Independence was signed . Imagine my amazement to find all these riches describing HOW far back there were Muslims in America before Columbus even !! am posting snippets that will link you to the story/ articul itself for you to read .

"Native American Muslims

The Message, July 1996

My name is Mahir Abdal-Razzaaq El and I am a Cherokee Blackfoot American Indian who is Muslim. I am known as Eagle Sun Walker. I serve as a Pipe Carrier Warrior for the Northeastern Band of Cherokee Indians in New York City .

There are other Muslims in our group. For the most part, not many people are aware of the Native American contact with Islam that began over one thousand years ago by some of the early Muslim travelers who visited us. Some of these Muslim travelers ended up living among our people ".

Islam in America before Columbus

Before the West declared themselves the great scientists of the earth, before their own Renaissance, Muslims already were making discoveries in science that took the West hundreds of years to even begin to imagine. What a shame that people in Europe were being persecuted by the Church for their suppositions that the earth was round; they should have come to the Islamic world--- an Afghan Muslim had proved that in 793 C.E !.

However, the studying of the universe brought forth more questions, and more curiosity. The Muslims in West Africa were so intrigued by what was on the other side of the Great Sea, that they began their expeditions into the great unknown. Early reports of these travels are sketchy, but we can be sure that they crossed the Atlantic by 889 C.E .

That was 603 years before Columbus. And that is not counting the actual physical evidence in the United States today that dates back even further; however, we do know, as De Lacy O'Leary pointed out, that Muslims definitely had the scientific knowledge and skill to make journeys across the Atlantic ocean .

We were in the Americas, hundreds of years before Columbus, and of that we can be sure .

Here are some snippets for you read from the below articul . The secrets of the Nevada rocks

Posted on July 26, 2009 by Moin Ansari

Here are some more snippets for you read from the below articul .

A mosque is as American as apple pie. The first mosques in America were not built in the 60s but in the earliest times when African and a Cherokee Muslims prayed in small buildings. History is but a jig saw puzzle. The facts about Cherokee Muslims were initially brought out by Cherokees themselves. Ms. Sheila Musaji also has a website and has done research on the subject of Cherokee being Muslims. A preponderance of the voyages embarked upon by Columbus and other Spanish and Portuguese explorers toward the other side of the Atlantic were undertaken only in the light of the geographical and navigational knowledge prepared by Muslims. Al-Masudi's (871-957 CE) work Muruj'uz-Zahab, for instance, was written with this sort of data compiled by Muslim traders from across Africa and Asia. Two of Columbus' captains on the first voyage, in actual fact, were Muslims: Martin Alonso Pinzon was in charge of the Pinta, while his brother Vicente Yanez Pinzon was the designated captain of Nina; both were from the Moroccan Marinid dynasty, descendants of Sultan Abu Zayan Muhammad III (r. 1362-1366). Formerly well-to-do ship riggers, they assisted Columbus in organizing his voyage of exploration, preparing the Santa Maria, the flagship, and covering all its expenses .

Islam in USA

Islam in USA1, By Tariq Mahmud Ashraf

Mr. Ashruf talks about how Islam is the fastest growing religion in America and the fears Americans have because of this in a post 9-11 world . He also discusses the history of a Islamic presense in America before Colimbus and much more . A interesting read .

Muslims had reached North America even before Christopher Columbus is credited with having discovered it. refers to Christopher Columbus having recorded in his diary regarding the sighting of a mosque in Cuba during his voyage to America. Columbus logged on October 21st, 1492, that he was sailing past Gibara on the coast of Cuba he saw a mosque. He also logged that remnants of other masjids (mosques) have been found in Cuba, Mexico, Texas and Nevada.



ملحق الصور

جامع قرطبة

Mezquita وتنطق مثكيتا باللغة الأسبانية)

وهي تحريف لكلمة مسجد ، وهو احد أروع ما أنشأ المسلمون من معمار ، ويقع بالقرب من نهر الوادي الكبير في قرطبة بالأندلس (أسبانيا) ، وهو باعتراف مؤرخي العمارة الأوروبية قمة من قمم الفن المعماري العالمي على مر العصور ، و دليل قاطع على براعة الاموين والعرب في فن الهندسة والمعمارية .

بُنى الجامع خلال قرنين ونصف قرن تقريبا ، و يرجع تأسيس المسجد إلى سنة (92 هـ) عندما اتخذ بنو أمية قرطبة حاضرة لملكهم في الاندلس ، شاطر المسلمون المسيحيون كنيستهم العظمى في قرطبة ، فبنوا في شطرهم مسجداً وبقي الشطر الآخر للروم ، وحينما ازدحمت المدينة بالمسلمين وجيوشهم اشترى عبدالرحمن الداخل شطر الكنيسة من الروم مقابل أن يُعيد بناء ما تهدم من كنائسهم وقت الغزو ، وأمر عبدالرحمن الداخل

سنة 785 ميلادي بإنشائه وكانت مساحته آنذاك (4875 متراً مربعاً) ، وسُمى بجامع الحضرة أي جامع الخليفة ، واليوم يُسمى بـ (مسجد الكاتدرائية) بعد أن حوله الأسبان الى كاتدرائية.

كان الشكل الأصلي لمسجد عبدالرحمن في عام 170 هـ يتألف من حرم عرضه 73.5 متر ، وعمقه 36.8 متر ، مقسم إلى 11 رواقاً ، بواسطة 10 صفوف من الأقواس ، يضم كل منها 12 قوس ترتكز على أعمدة رخامية وتمتد عمودياً على الجدار الخلفي ، وهذه الصفوف تتألف من من طبقتين من الأقواس السفلية منها على شكل حدوة الفرس ، والعلوية تنقص قليلاً عن نصف دائرة ، وهي تحمل سقفاً منبسطاً ، يرتفع مقدار 9.8 متر عن الأرضية وفوقهم 11 سقفاً جمالونياً متوازيًا ، بينها أقتية عميقة مبطنة بالرخام .

والحرم يفتح على الصحن بواسطة 11 قوس حدوي ، ترتكز على عضائد على شكل T. والصحن عرضه 73.21 متر و عمقه 60.7 متر. و يوجد له باب غربي و باب شمالي على المحور الشمالي الجنوبي ، كما له على الأرجح باب شرقي متوافق مع الأول. و كان للحرم باب واحد يعرف اليوم باسم (بوير تادي سان استيبان) ، وللحرم أيضاً 3 دعائم للشرق والغرب ، تبرز 1.5 متر ، ودعامتان ركنتيان و على الأرجح 10 في الجانب الجنوبي ، لتتحمل ضغط صفوف الأقواس ، وسمك الجدران قدره 1.14 متر ؛ والصحن لم يكن محاطاً بأروقة ، و تزين واجهة المحراب آيات منها الآية السادسة من سورة السجدة (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) وكتب أيضاً موقف الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم كما كتبت الآية 23 من سورة الحشر : (هو الله لا اله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) .

ومن أعمال الحكم في جامع قرطبة مد قنوات المياه إلى السقايات والميضات التي أستحدثها ، و قد أوصل الماء إلى المسجد عبر قناة مدها من سفح جبل العروس قرب قرطبة كما أنشأ الحكم عدداً من المقاصير ، منها مقصورة "دار الصدفة" غربي الجامع ، وقد جعلها مركزاً لتوزيع الصدقات ، ومقصورة أخرى أمام الباب الغربي كان الفقراء يتخذونها مسكناً. كانت مقاييس الجامع الأول (75 م × 65 م) بالإضافة إلى صحن الجامع ، و في عهد الامير الأموي الأندلسي (عبد الرحمن الأوسط) توسع فيه أكثر ، ثم المحراب والقنطرة الموجودة فوق الشارع الرئيسي الذي يمر غرب الجامع ، والهدف منها انتقال الأمير

عليها من قصره دون أن يمر في الشارع.

في سنة (951 ميلادي) أنشأ ((عبد الرحمن الناصر)) ، منذنة جديدة في أقصى صحن الجامع جهة الشمال ، وهي على هيئة برج ضخم له شرفتان للأذان يصعد إليها بسلم داخلي ، وهذه المنذنة لا تزال موجودة ، وقد حولت إلى برج أجراس ؛ و في عهد ((محمد بن أبي عامر المنصور)) في عصر الأمير هاشم المؤيد عام 987 ميلادي زيد في الجامع فأصبحت مقاييسه (125 متر × 180 متر) لتكون مساحته 22500 م² أي خمسة أفدنة. تعرض المسجد في سنة 400 هجرية للنهب ، بعد أن ترك الناس قرطبة ، نتيجة القتال الذي نشب بين المهدي وبين سليمان بن الحكم ، وفي سنة 633 هـ / 1236 ميلادي اجتاحت القساوسة ما في قرطبة من مساجد وقصور، وخرّبوه. يعد صحن المسجد قطعة فنية فهو محاط بسور تتخلله سبعة أبواب ، و في جهته الشمالية توجد المنذنة ، وقد زرع الناس أشجار النارنج والليمون فيه ولهذا يُسمى صحن النارنج .

بعض مرثي الشعراء في تحويل المساجد الي كنائس قال أحدهم :

وأها على تلك المساجد سورت ** مزابيل للكفار بعد الطهارة

وأها على تلك الصوامع غلقت ** ونواقيسهم فيها نظير الشهادة

و قال أبو البقاء الرندي في نونيته الشهيرة

حيث المساجد صارت كنائس ما *** فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة *** حتى المنابر ترثي وهي عيدان





جامع قرطبة من الداخل





قنطرة قرطبة - جددها المنصور



قصر الزهراء



جنة العريف - قصور الحمراء



قصور الحمراء



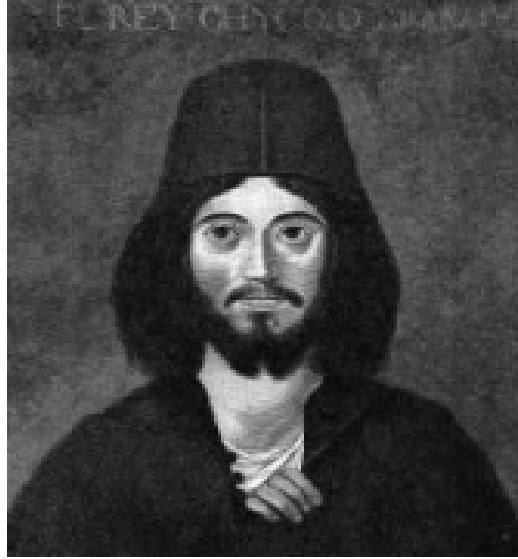
قصر الجعفرية



قصر المبارك مقر حكم المعتمد بن عباد ، بإشبيلية



بطلا الاسترداد الملكة ايزابلا وزوجها
فرديناند



ابو عبدالله الثانى عشر
ملك غرناطة- بطل السقوط



استسلام قرطبة



لوحة ياديا - تسليم الحمراء



ابراهيم باشا - ابن محمد على والقائد
العسكرى الفذ



محمد على باشا - مؤسس مصر الحديثة
وامبراطوريتها فى افريقيا



محمد سعيد باشا - مُحِب السودانين



اسماعيل باشا 1863-1867 م

الحدائة فى مصر والسودان



غوردون
حكم دار السودان ومخطط
انفصاله عن مصر



المهدى
قائد الثورة المهدية بالسودان



البوكيرك
قائد الاسطول البرتغالى ومرتكب الفظائع
فى افريقيا و عُمان



السلطان
العثمانى سعيد بن سلطان



كاسا تَوج امبراطورا للحبشة بإسم
جورجيس الثانى - زوج ابنة الرأس على
وحفيدة WUBB انتحر بعد هزيمته امام
الحملة البريطانية

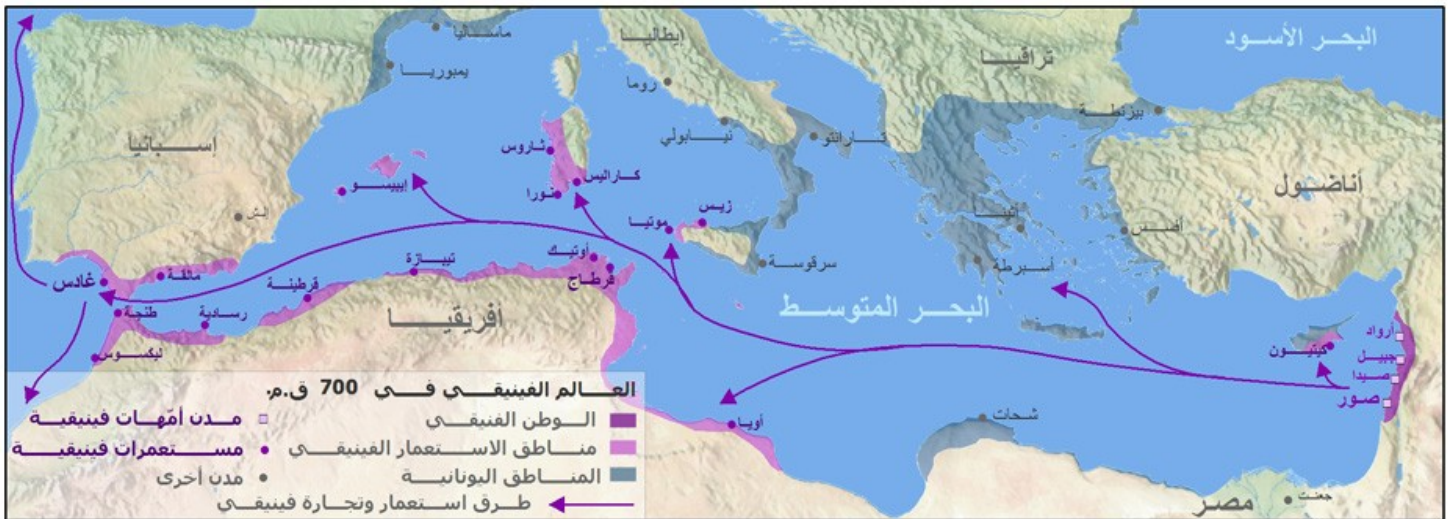


يوحنس الرابع - امبراطور الحبشة- أجبر مسلمى ولوا على
التنصر خلال ستة اشهر أو مصادرة أملاكهم ، وبسبب ذلك
قاتله المهدية وهزموه وقتلوه وأخذوا جثته إلى أم درمان.

ملحق الحضارات العربية في الشام والعراق

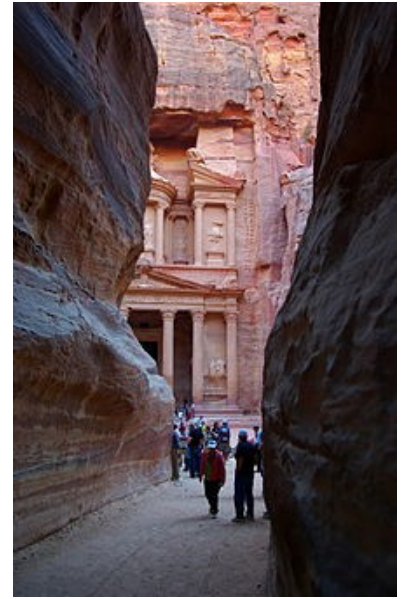
الفينيقيون – الكنعانيون

ومستعمراتهم في حوض البحر المتوسط

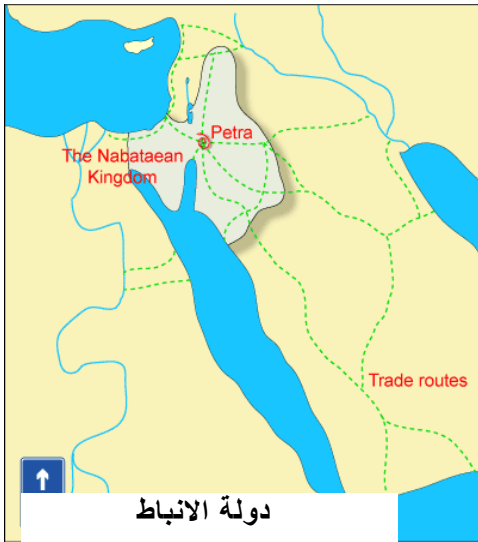
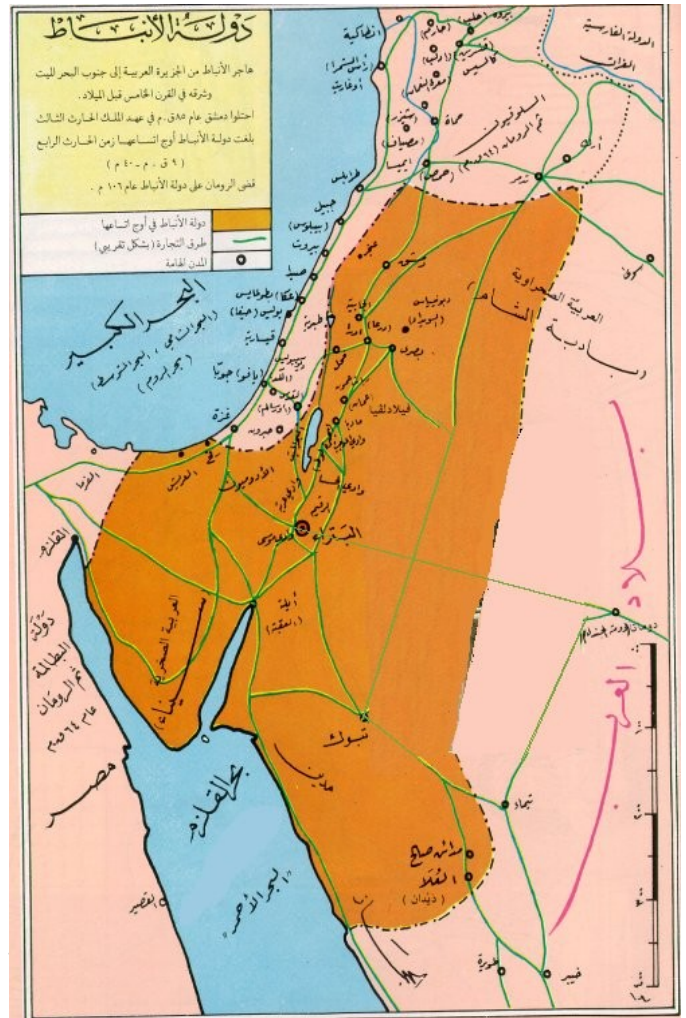




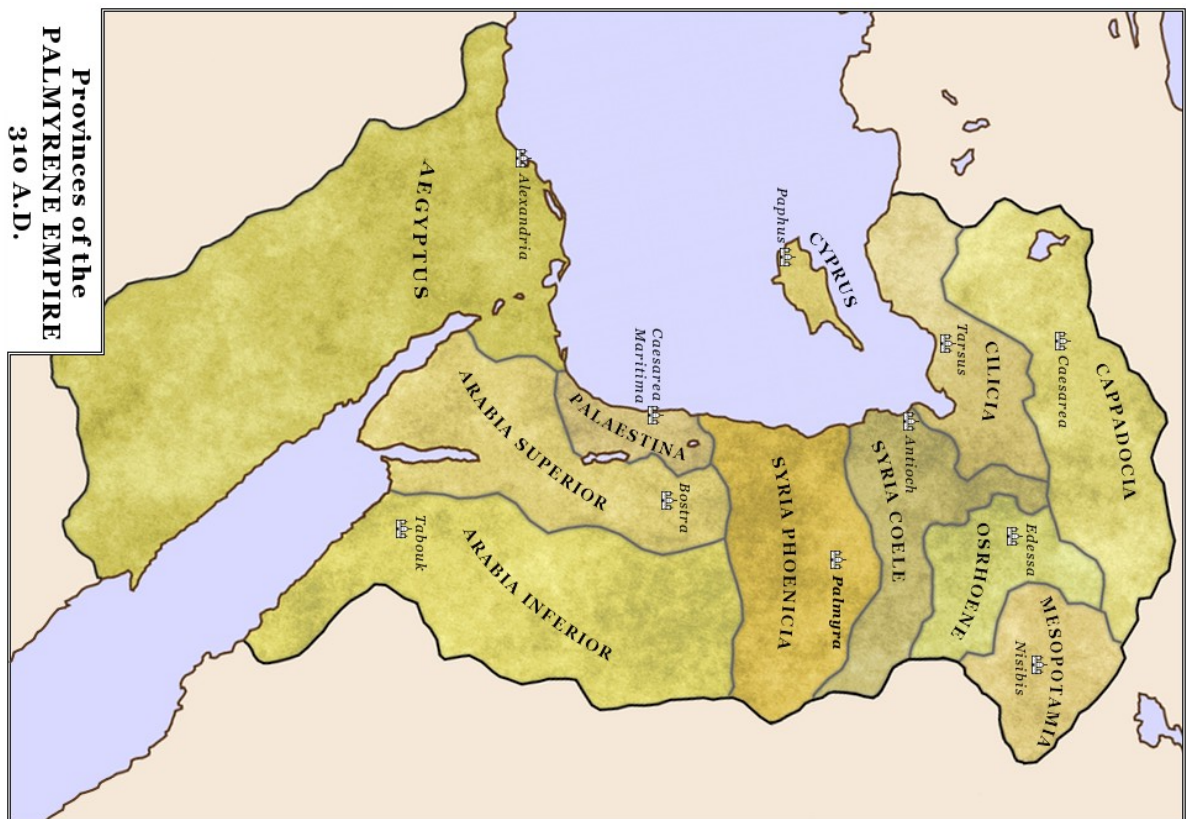
الانباط واثارهم



الخزنة - الاردن



دولة الانباط
وطرق التجارة (النقط الخضراء)





زنوبيا
ملكة تدمر



امبراطورية تدمر والامبراطوريات
المعاصرة



اثنين ملك تدمر وزوج
زنوبيا





قوس النصر



اثار تدمر

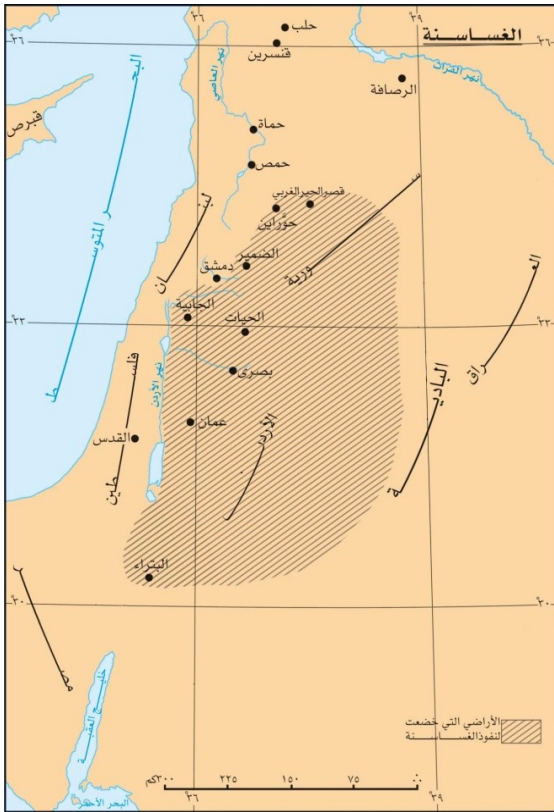


المسرح

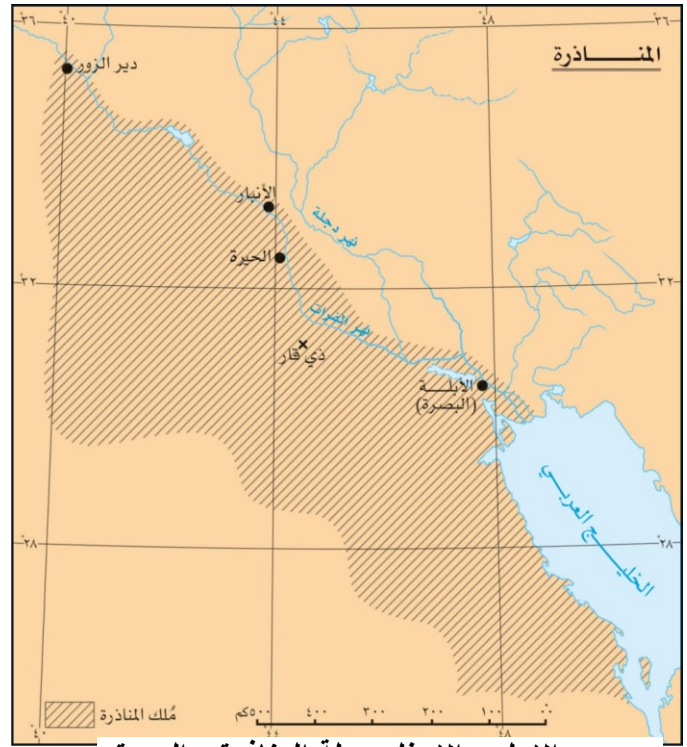


معبد بعل



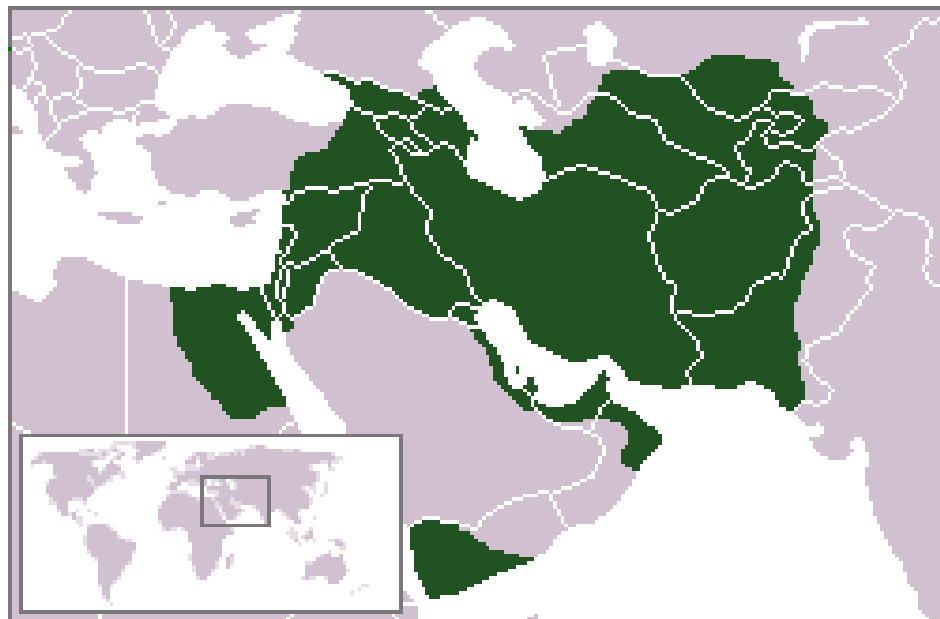


دولة الغساسنة بالشام
حليف الروم

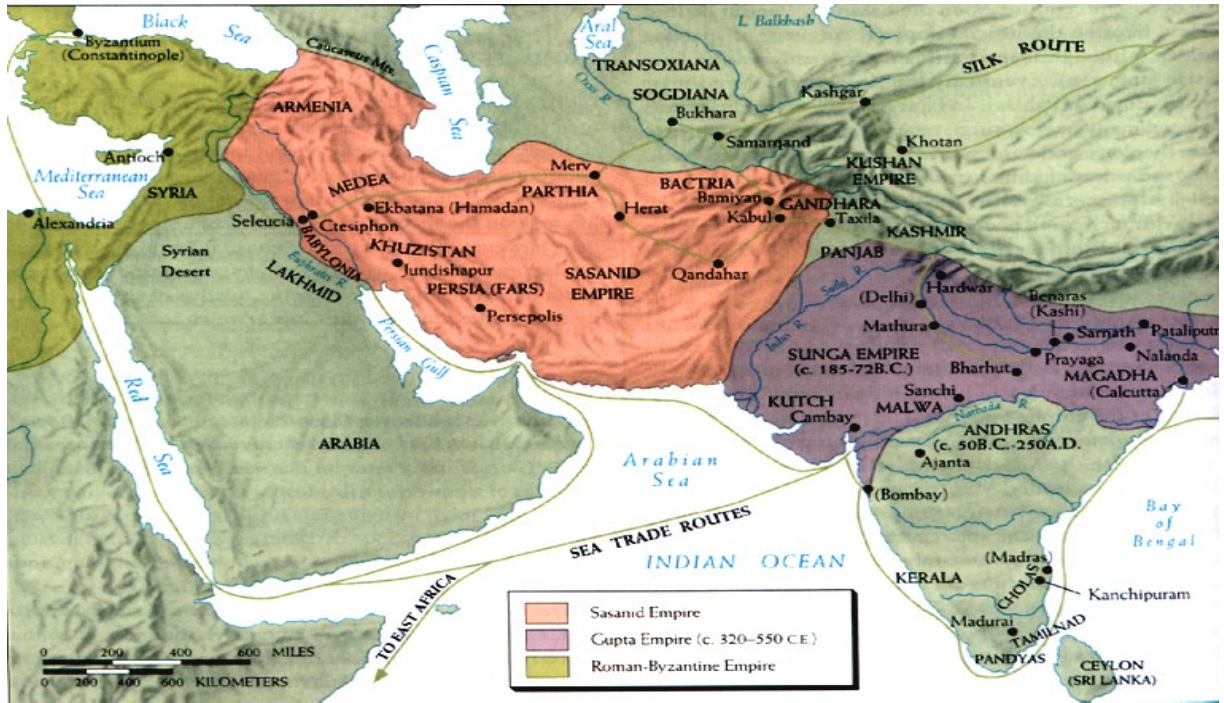


الاعلى والاسفل دولة المندائية - الحيرة
بالعراق حليف الفرس



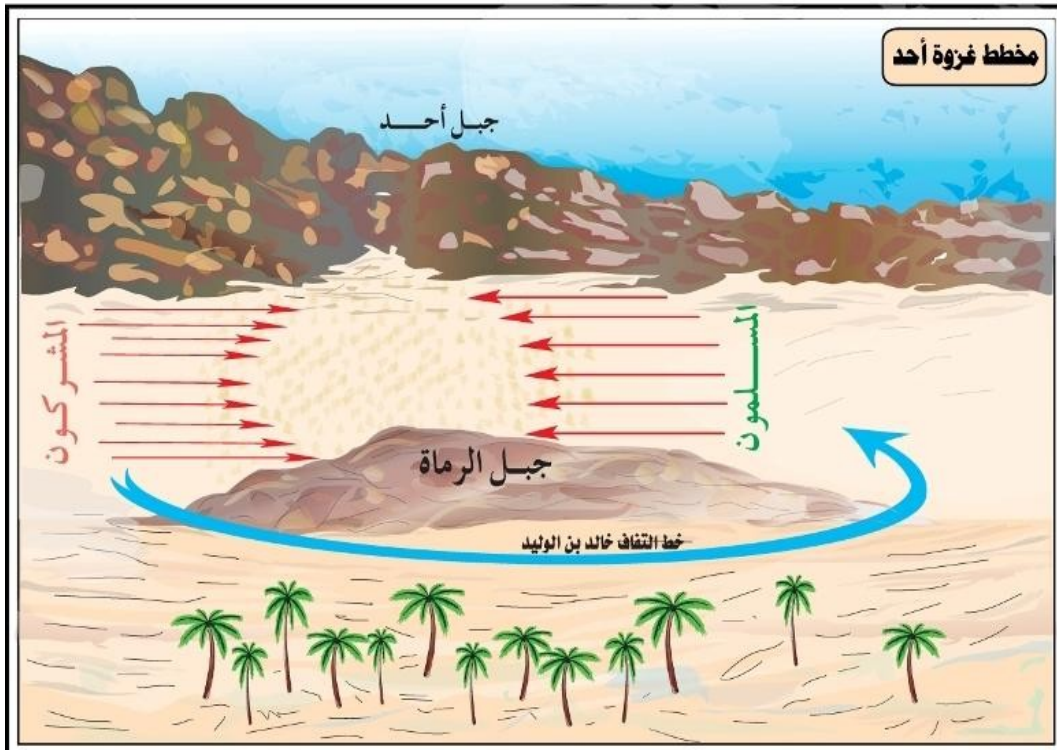


الامبراطورية الفارسية قبل ظهور الاسلام

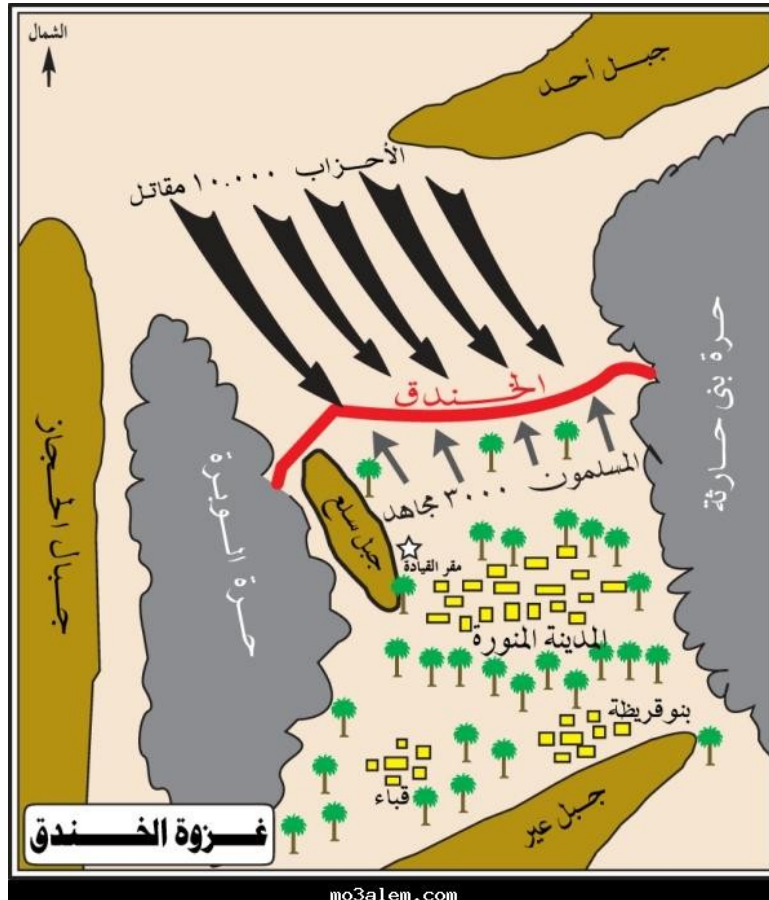


امبراطوريات شرق العالم القديم عام 565 ميلادية

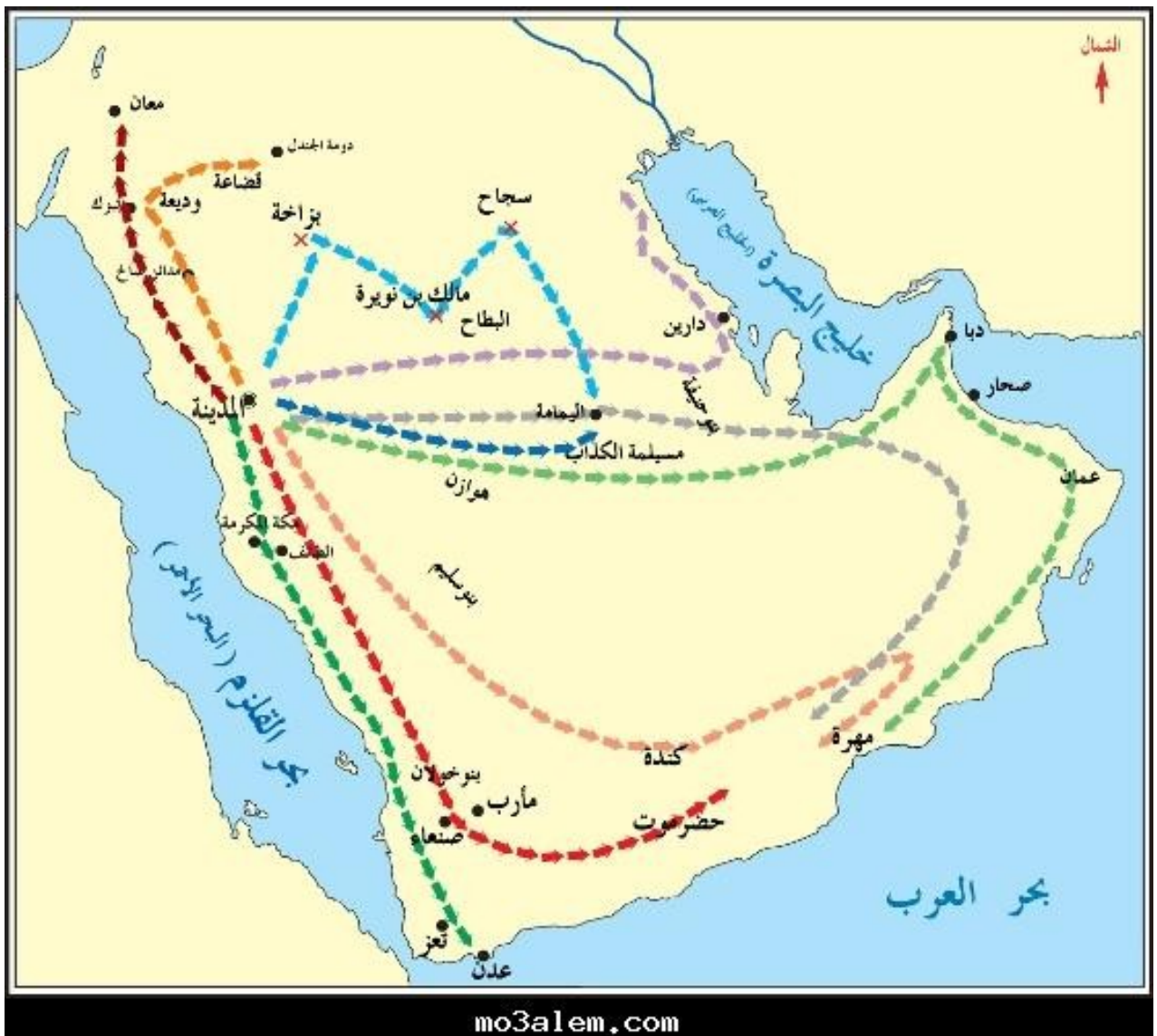




mo3alem.com



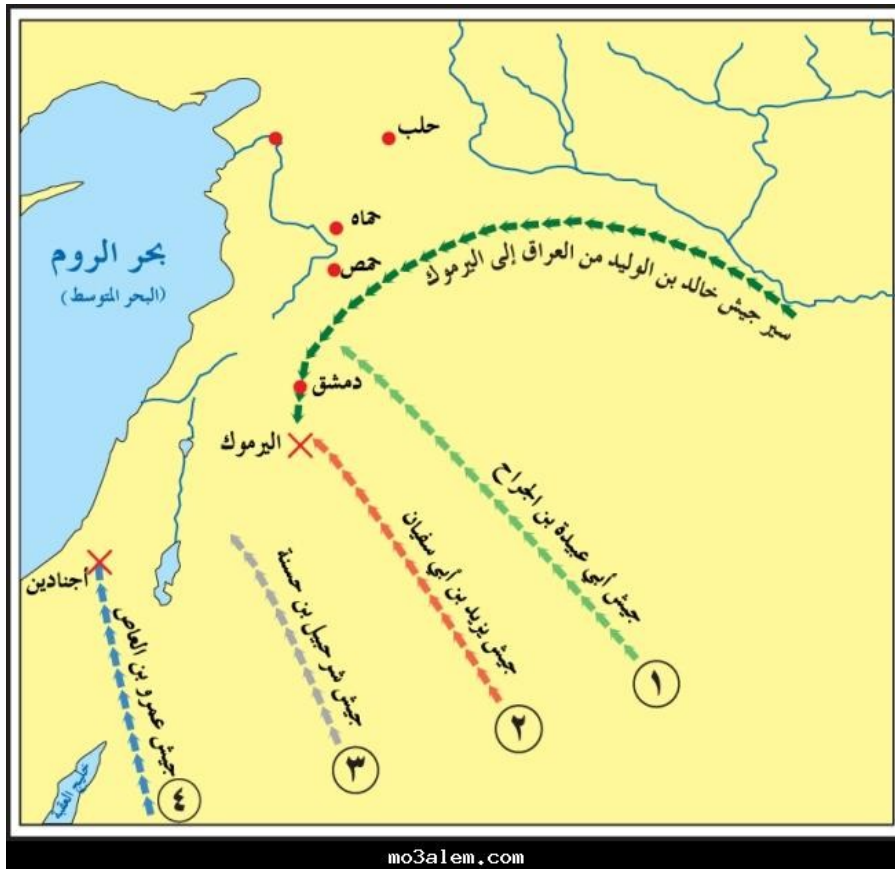
mo3alem.com

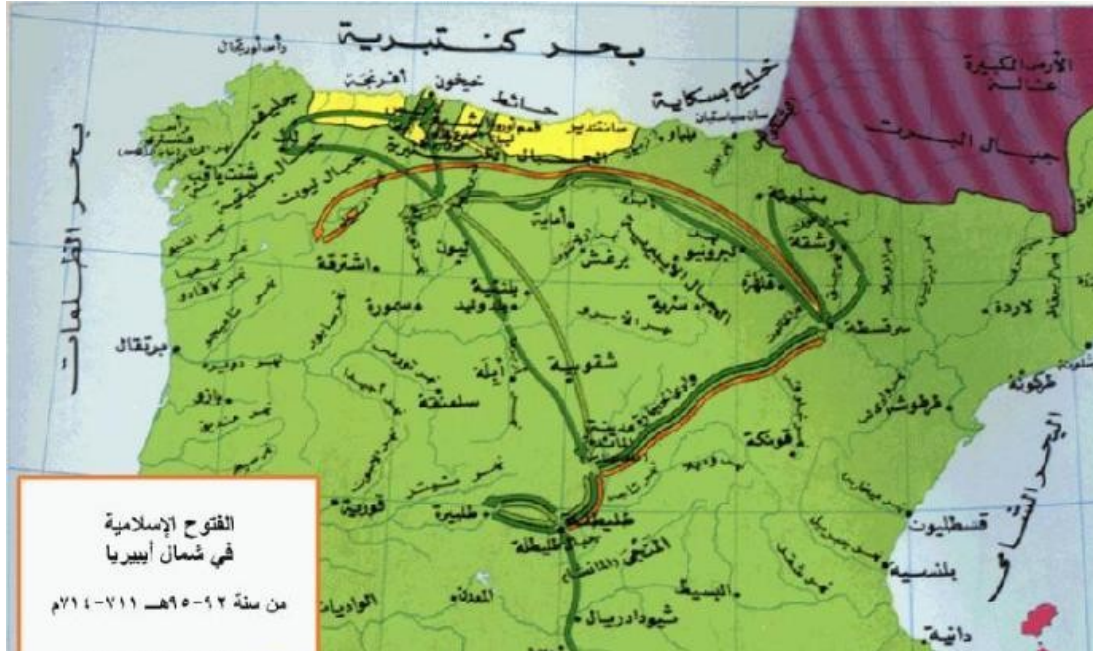


غزوة حنين

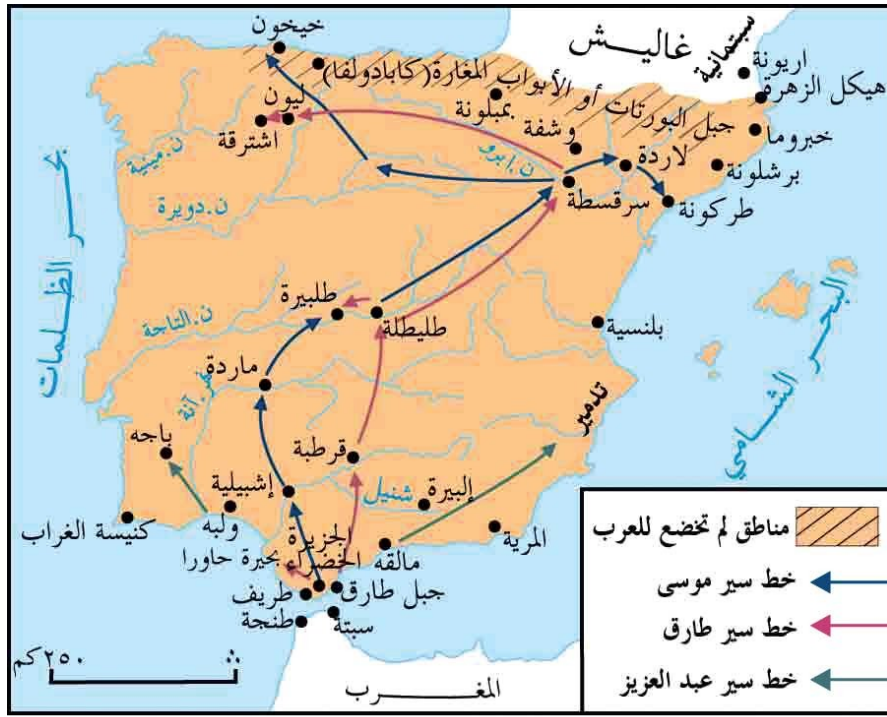


مسلمة الكذاب

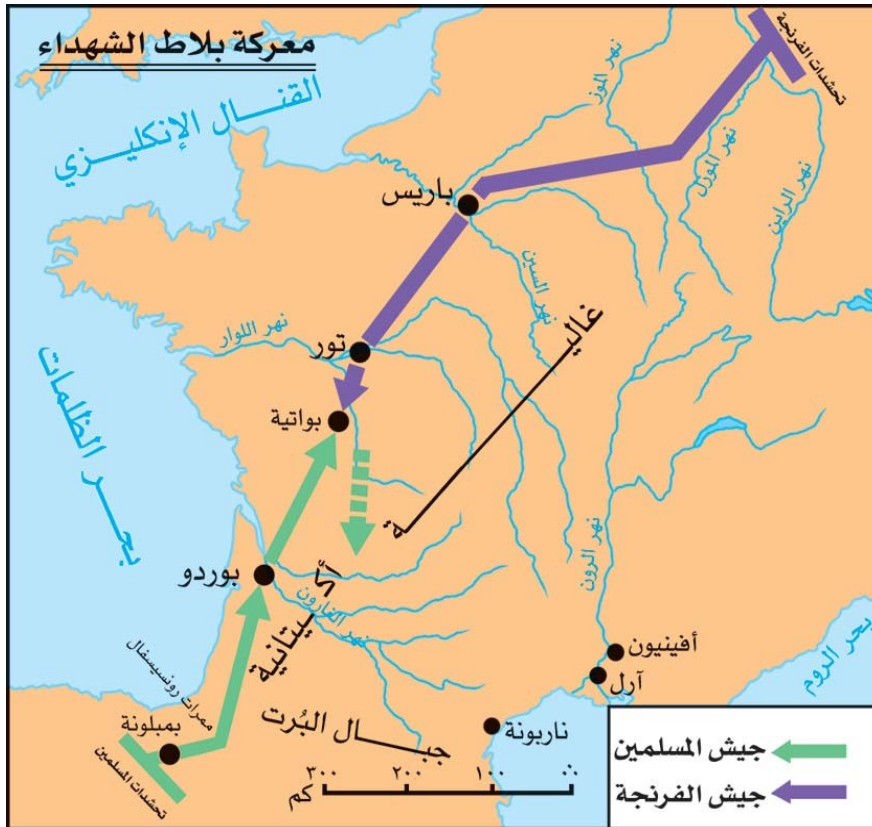




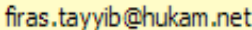
يلاحظ وجود أقاليم داخل الدولة الإسلامية غير خاضعة للمسلمين لدفعها الجزية (اللون الأخضر)



فتح الأندلس



التغلغل الاسلامي - اوروبا فيما وراء الاندلس
معركة بلاط الشهداء (بواتيه)

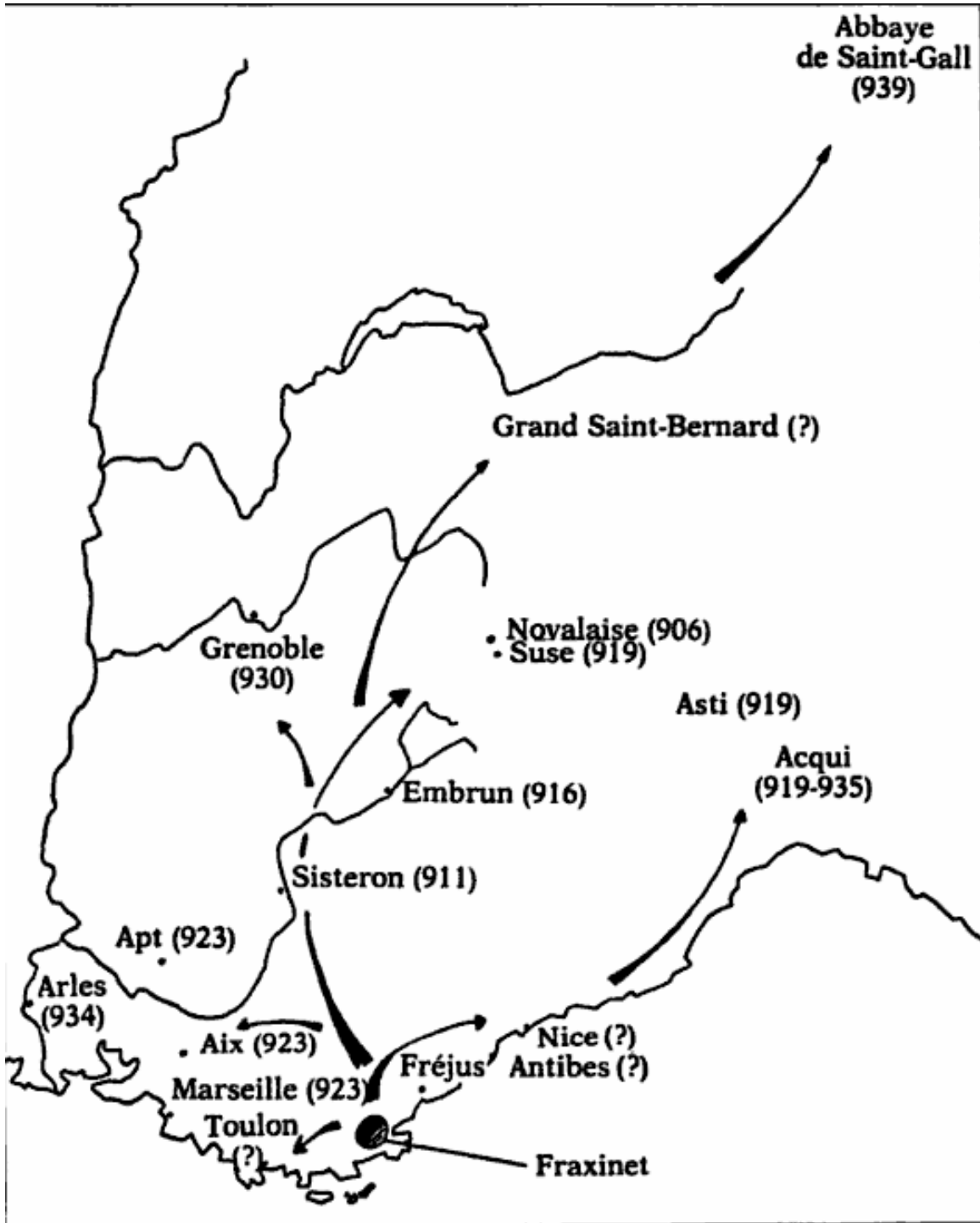


وشمال إفريقيا في القرن العاشر للميلاد

بر غواطة حتى 1078 م

بنو أبي العافية من قبل الأمويين

تقدم الاندلسيون (عهد الامارة الاموية والعمرية) في فرنسا وسويسرا



منطقة توطن العرب في جنوب فرنسا وموقع مستعمرة فراكنست وخطوط تقدمهم في سويسرا
وشمال ايطاليا



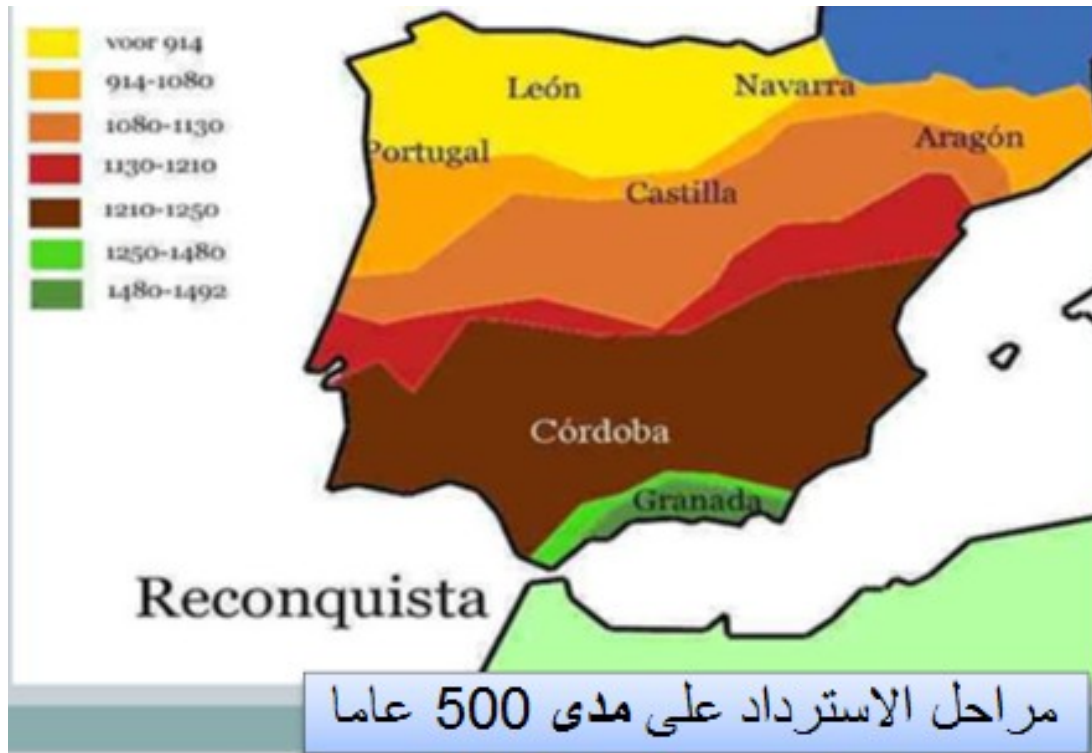
تقدم الاندلسيون في فرنسا وسويسرا عبر العصور



تقدم الاغالبة (تونس) في ايطاليا وسردينيا

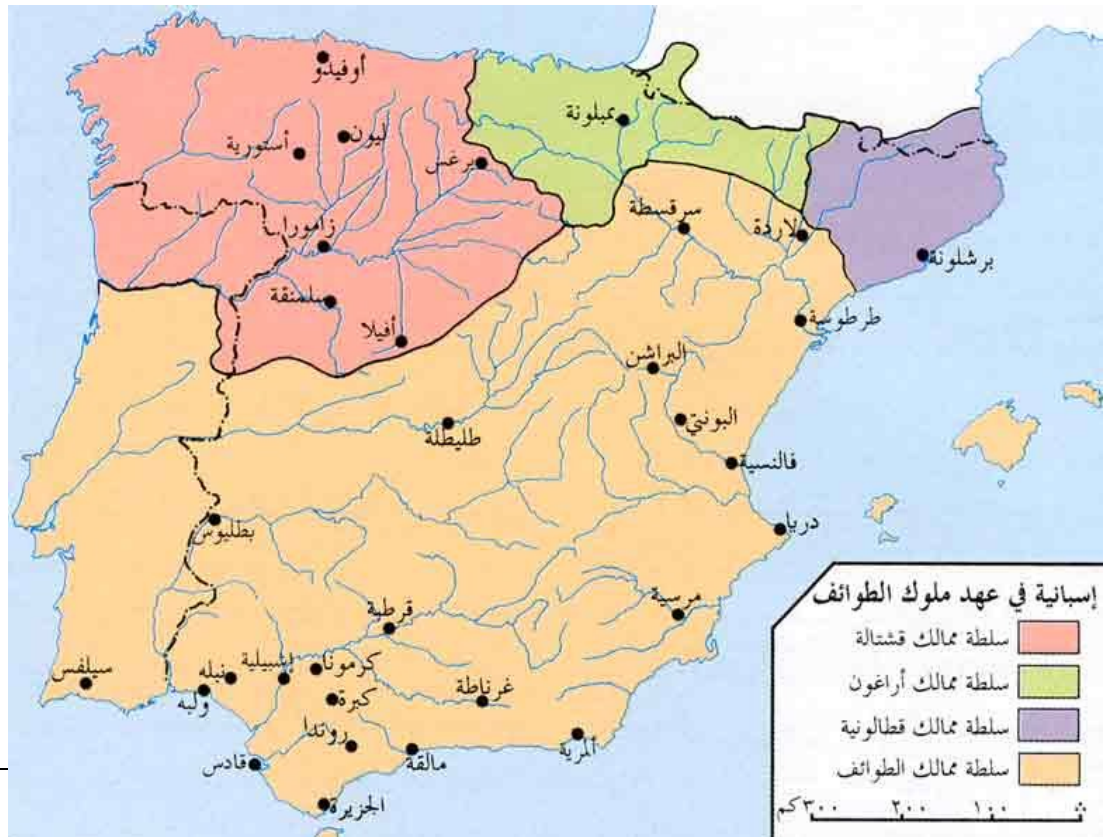
جدول رقم 1 : العصور التي توالى على حكم الأندلس

مسلسل	العصر	فترة العصر	كلمة موجزة عن العصر
1	عصر الولاة	95 - 138 هـ 714 - 756 م	بداية الدولة الأندلسية على يد طارق بن زياد بالتعاون مع موسى بن نصير . كان الوالي على الأندلس يعين من قبل الخليفة الأموي للمسلمين
2	الدولة الأموية بالأندلس	138 - 422 هـ 756 - 1031 م	اعتبارا من هذا العصر لم يعد لخليفة المسلمين سلطان على تعيين الولاة.. وإن كانوا يتبعون دولة الخلافة الإسلامية بالاسم فقط.
3	عصر ملوك الطوائف	422 - 484 هـ 1031 - 1092 م	ملوك الطوائف يحكمون الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . انقسمت الأندلس إلى 22 دويلة
4	المرابطون بالأندلس	484 - 540 هـ 1092 - 1146 م	أزال يوسف بن تاشفين حكم ملوك الطوائف . قام بتوحيد الدولة الأندلسية من جديد . انتصر على الصليبيين في معركة الزلاقة .
5	الموحدون بالأندلس	541 - 633 هـ 1147 - 1236 م	تنسب إلى محمد بن تومرت ، أسقط تلاميذه دولة المرابطين . انتصروا على الصليبيين في معركة الأراك . هزمهم الصليبيون في معركة العقاب التي مهدت للسقوط الأخير .
6	دولة بني الأحمر — تكوين مملكة غرناطة	636 - 897 هـ 1239 - 1492 م	انحصر الوجود الإسلامي في جنوب أسبانيا فقط وعاصمتها غرناطة



مساحة التفقه الإسلامي في الأندلس عبر العصور (354)

العصر	المساحة بالكيلومترات المربعة
عهد الولاة	700.000
عهد الأمويين أيام الناصر	440.000
عهد المنصور بن أبي عامر	580.000
عهد المرابطين	250.000
عهد الدولة النصرية	30.00





معركة
- نصر

الزلاقة



دولة المرابطون في افريقيا والاندلس



معارك المرابطون والموحدون في الاندلس

Map of North Africa and the Middle East showing the migration routes of the Beni Hani tribe. The map is color-coded: yellow for the Maghreb (Libya, Tunisia, Algeria), green for the Sahel and Nile valley, and grey for the Arabian Peninsula. Key locations marked include Tripoli, Tunis, Algiers, and Cairo. Arrows indicate the movement of the tribe from the Maghreb towards the Nile valley and the Arabian Peninsula. The Beni Hani tribe is labeled in the center of the map.

الصراع بين الموحدين وبني غانية في شمال إفريقيا
في القرن الثالث عشر للميلاد

مملكة قشتالة	
مملكة الأراغون	
النورمن	
مملكة البرتغال	
مملكة ليونة	
الإسبانيون	

دولة بنو غانية في الباليار  دولة الموحدون حتى 1200 م 
 و شمال إفريقيا (حتى 1200 م)  حدود الدولة الموحدية بعد 1200 م 
 حدود دولة بنو غانية  







Sub-Saharan Africa



افريقيا جنوب الصحراء

تختلف المنظمات فى تعريف جنوب الصحراء- احيانا يستبعدون السودان بما فيه الجنوب ، ثم اعادوا اضافته الى جنوب الصحراء بعد انفصاله ، والامم المتحدة تعتبر السودان من جنوب الصحراء ، اما الخريطة السفلى فتعتمد التعريف الطبيعى الجغرافى وليس السياسى

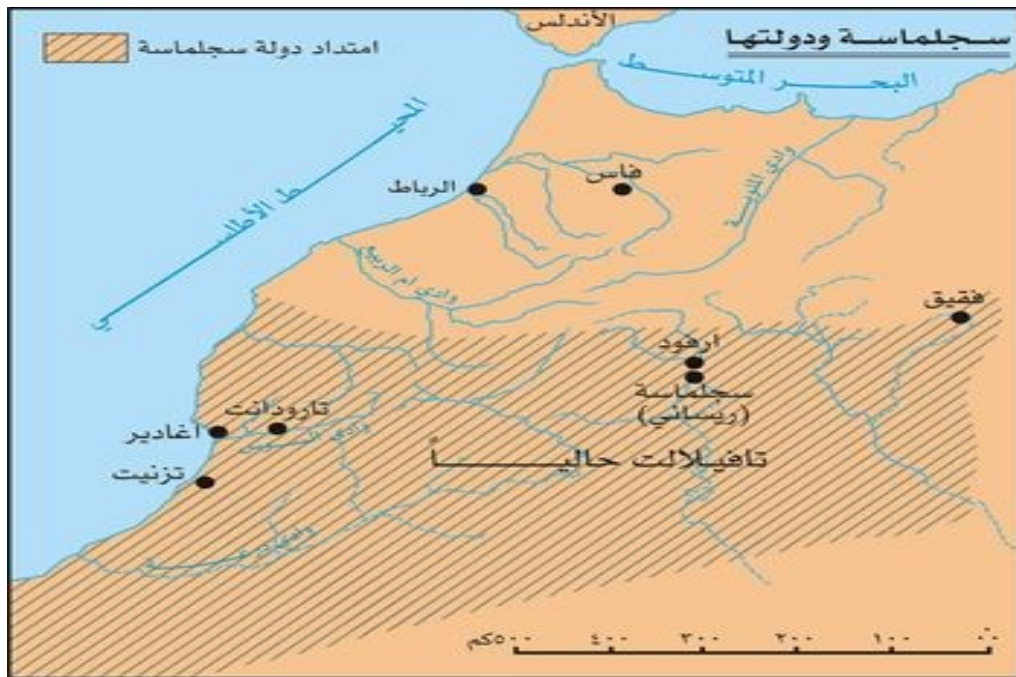


طرق التجارة العالمية المارة بارض الاسلام



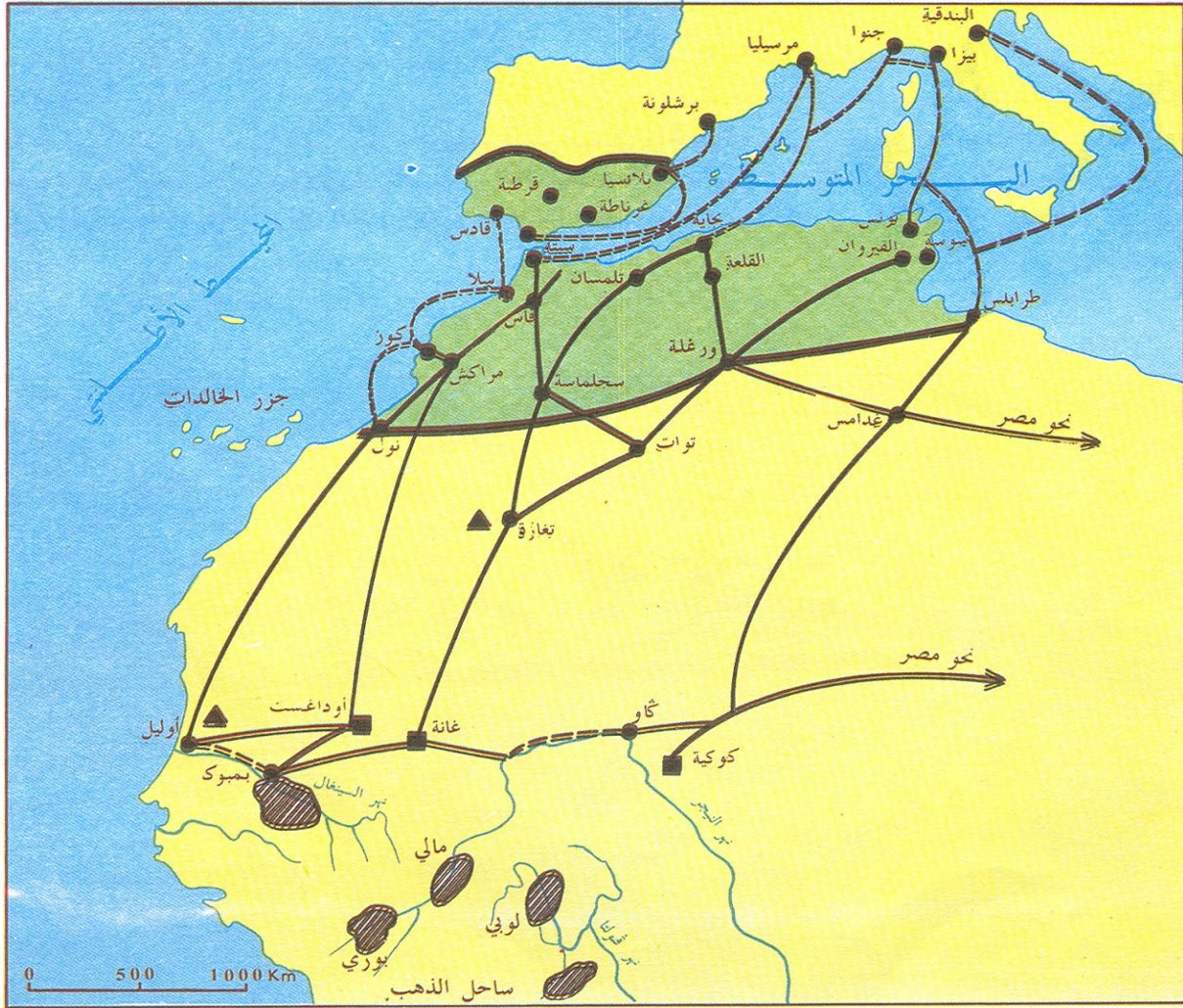


طرق التجارة فى غرب افريقيا

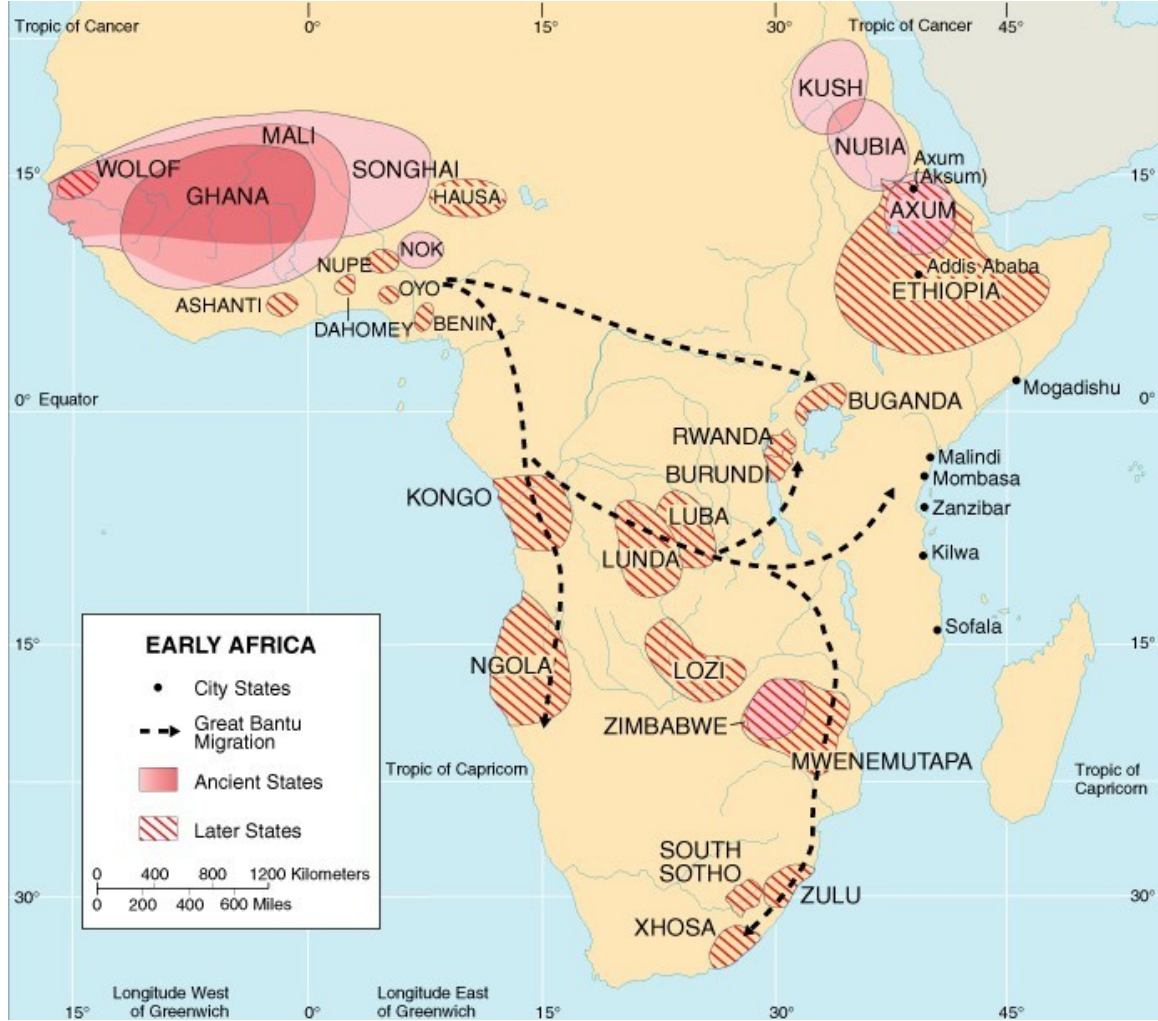


سجلماسة - طرق التجارة غرب افريقيا

طرق التجارة العابرة للإمبراطورية الموحدية عند منتصف القرن
السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي



مناطق استخراج التبر	●
أهم أسواق التبر	■
حدود تقريبية للدولة الموحدية	□
مناجم استخراج الملح	▲
طرق تجارية برية	→
طرق تجارية بحرية	→



ممالك افريقيا القديمة فى الشرق :كوش - نوبيا - اكسوم .

فى الغرب ممالك العصر الوسيط : غانة - مالى - صنغى ، ممالك امبراطورية فى القرن السادس عشر تقريبا : هاوسا ؛ الولوف



غانة الوثنية والاسلامية



ممالك ما بعد زوال غانة



امبراطورية مالي

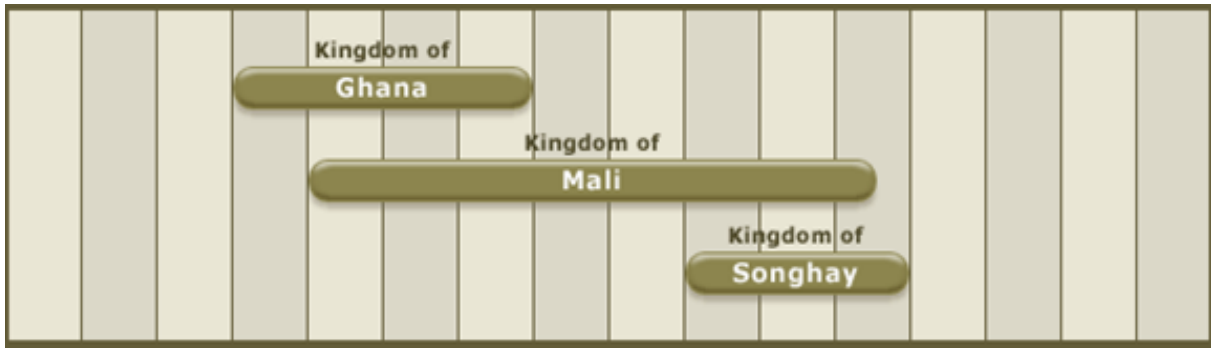




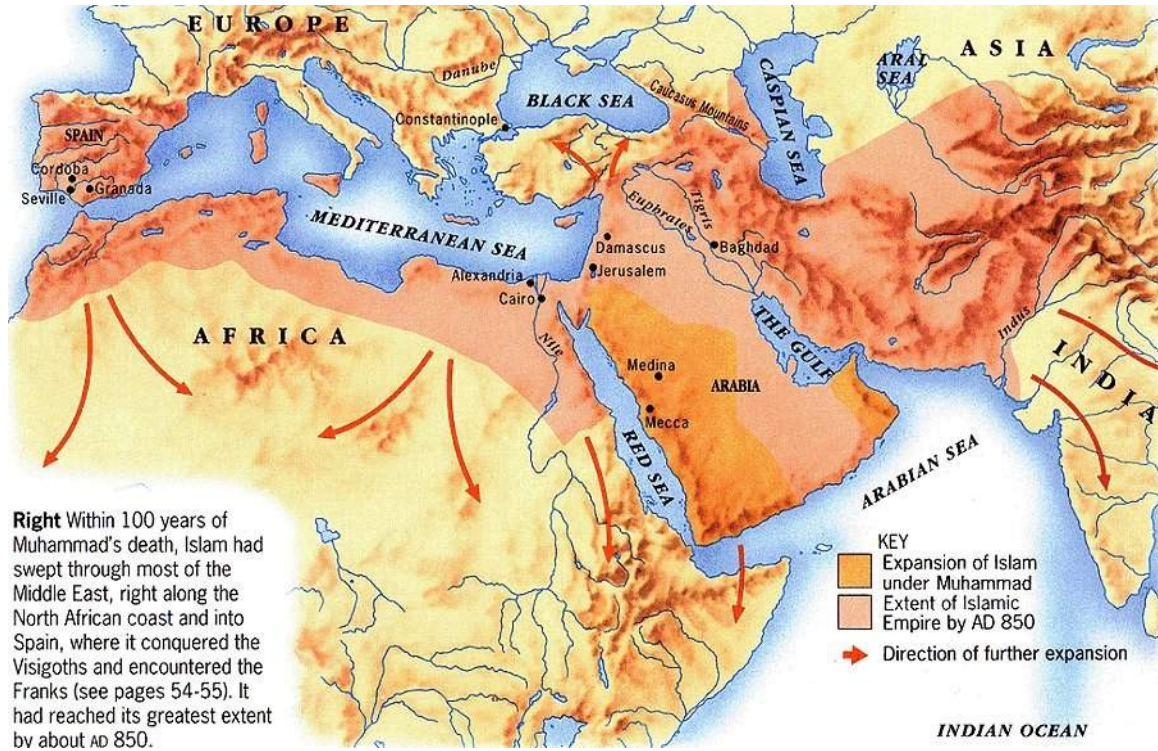
امبراطورية صنغى المسلمة



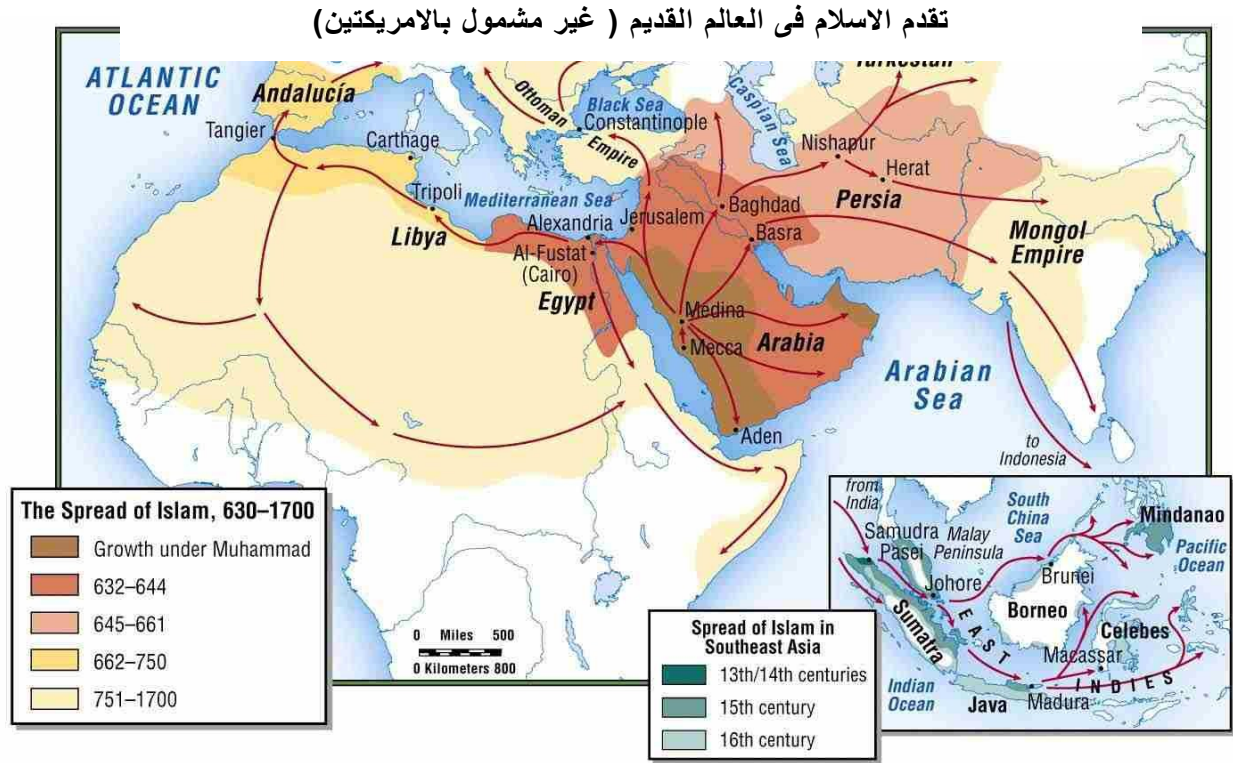
التداخل الجغرافى بين ممالك الاسلام غانة ومالى وصنغى فى غرب افريقيا



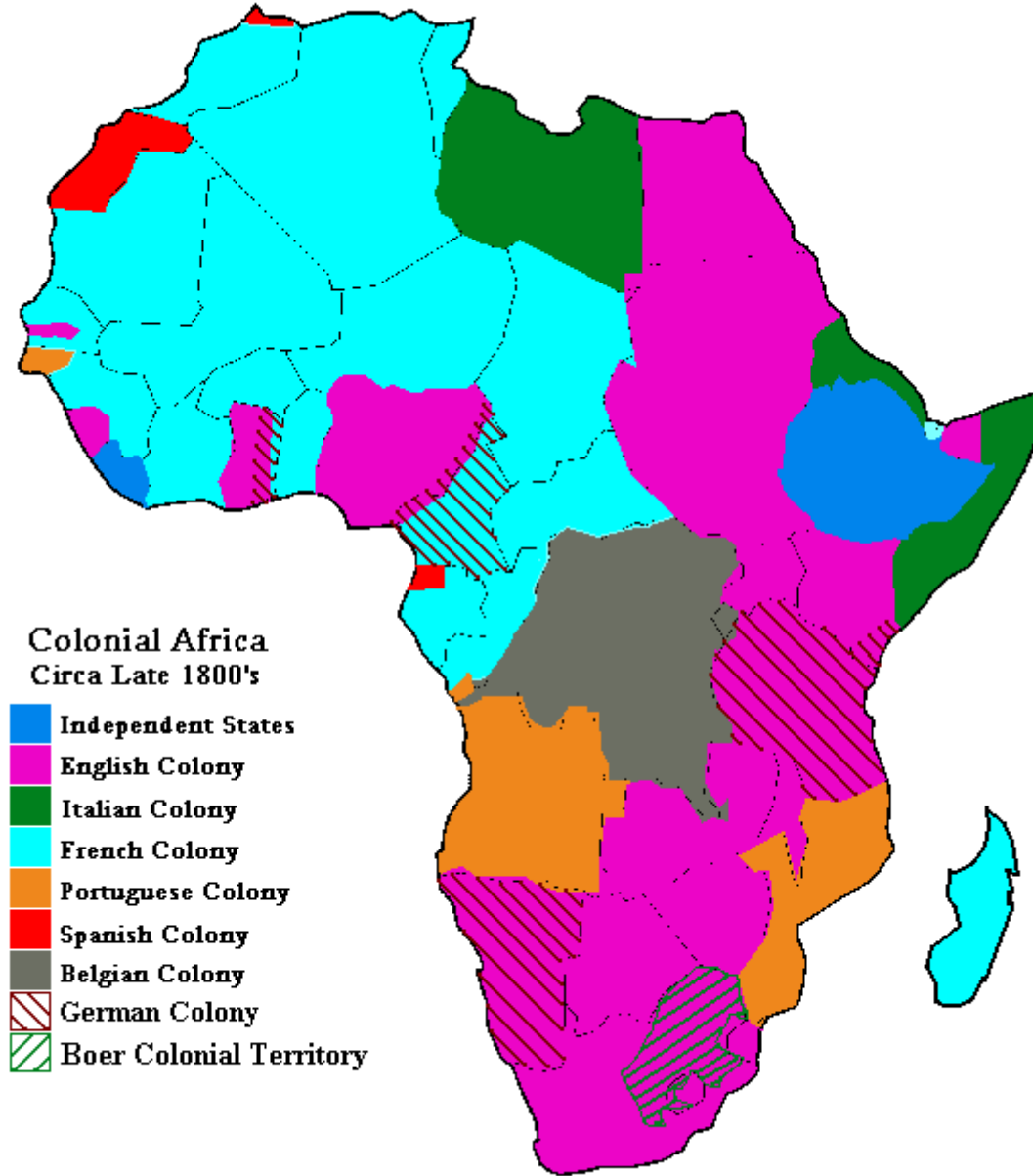
التداخل الزمني بين ممالك الاسلام



مد الاسلام فى افريقيا

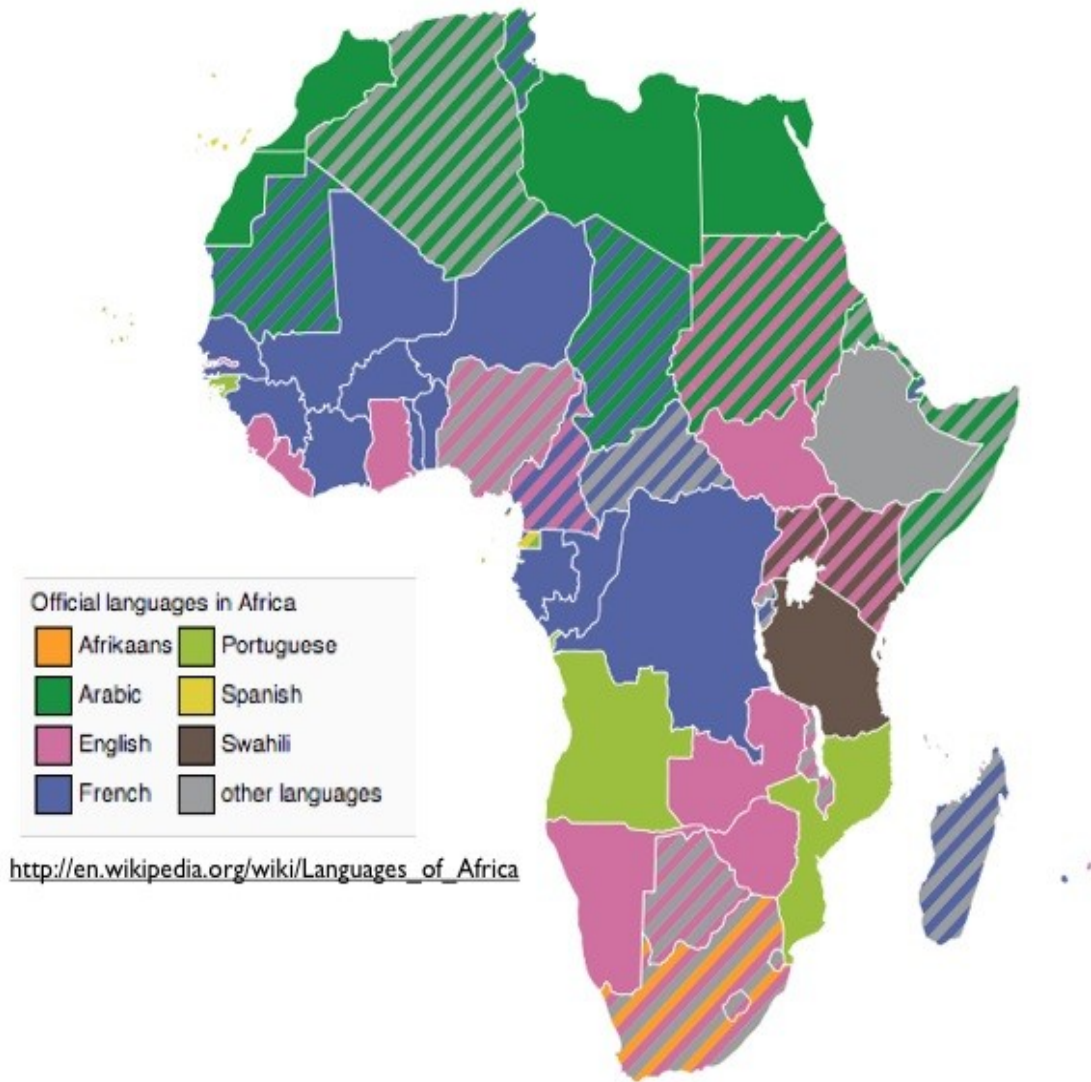


اثر السيطرة الاستعمارية على افريقيا دينيا وثقافيا ولغويا

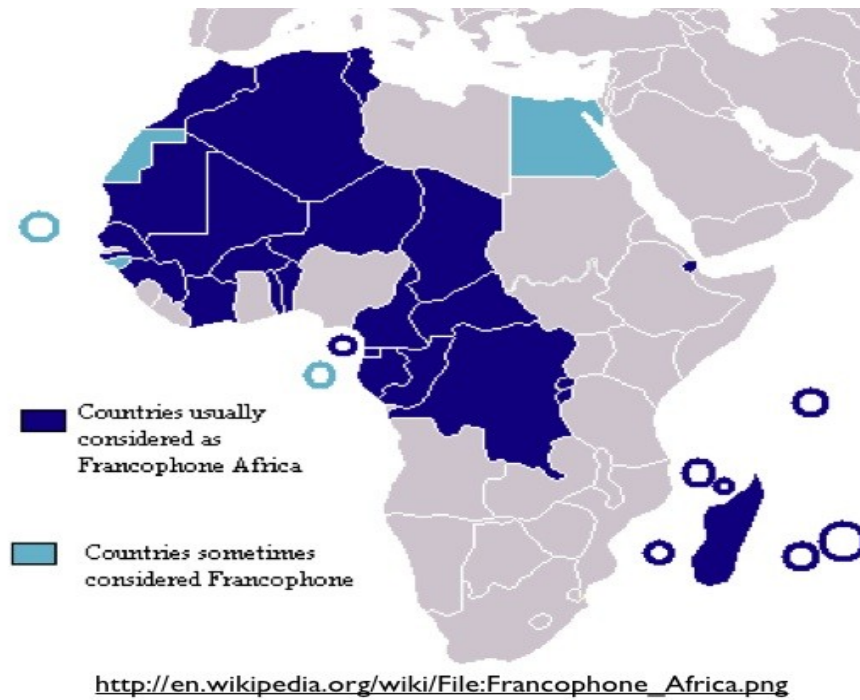


الاستعمار الاوروبى يغطى معظم القارة - توزيع المستعمرات بين المستعمرين





التأثير الثقافي للاستعمار – إنتشار لغاته



التوزيع الجغرافي للغات افريقيا الرئيسية والاكثر انتشارا -
العربية - الانجليزية - الفرنسية - البرتغالية - الاسبانية -
السواحيلي - الهوسا - لغات محلية اخرى

الانتشار الجغرافى للاستعمار الفرنسى فى العالم

(كتلته الرئيسية فى افريقيا)

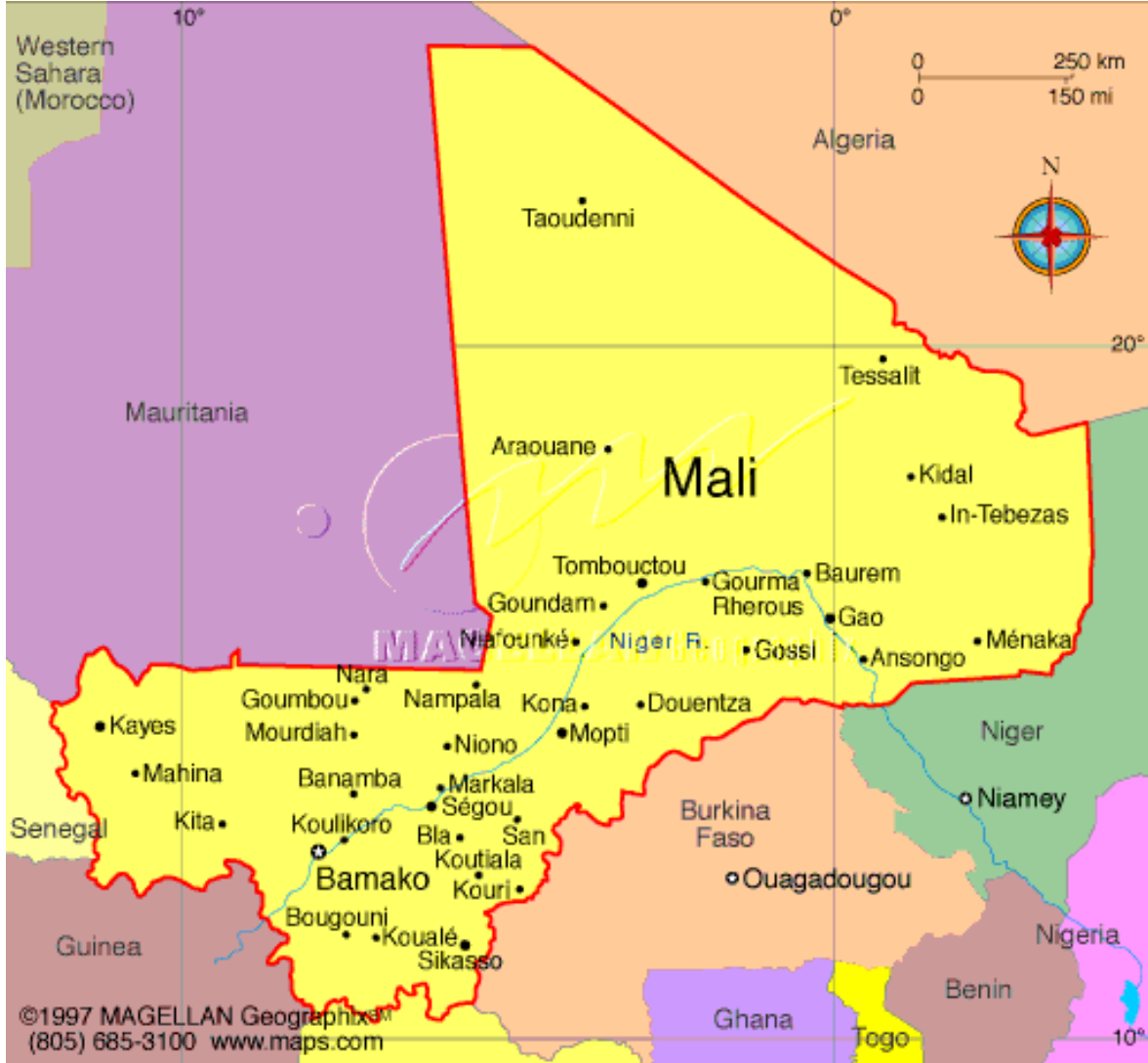
التأثير السياسي للمستعمر قيام جماعي بعد الاستقلال - جمعتهم مع فرنسا
منظمة الفرنكوفونية وكتلتها الثقافية





الكومنولث جمع بريطانيا مع مستعمراتها السابقة ودوله:

Belize	Malaysia	Solomon Islands
Botswana	Maldives	South Africa
Brunei Darussalam	Malta	Sri Lanka
Cameroon	Mauritius	Swaziland
Canada	Mozambique	United Republic of Tanzania
Cameroon	Namibia	Tonga
Cyprus	Nauru	Trinidad and Tobago
Dominica	New Zealand	Tuvalu
Fiji Islands	Nigeria	Uganda
The Gambia	Pakistan	United Kingdom
Ghana	Papua New Guinea	Vanuatu
Grenada	Saint Kitts and Nevis	Western Samoa
Guyana	Saint Lucia	Zambia



موقع مملكة سيكاسو - باع الفرنسيون اهلها المسلمون عبيدا
تنكيلا بسلطانها وعناده في المقاومة

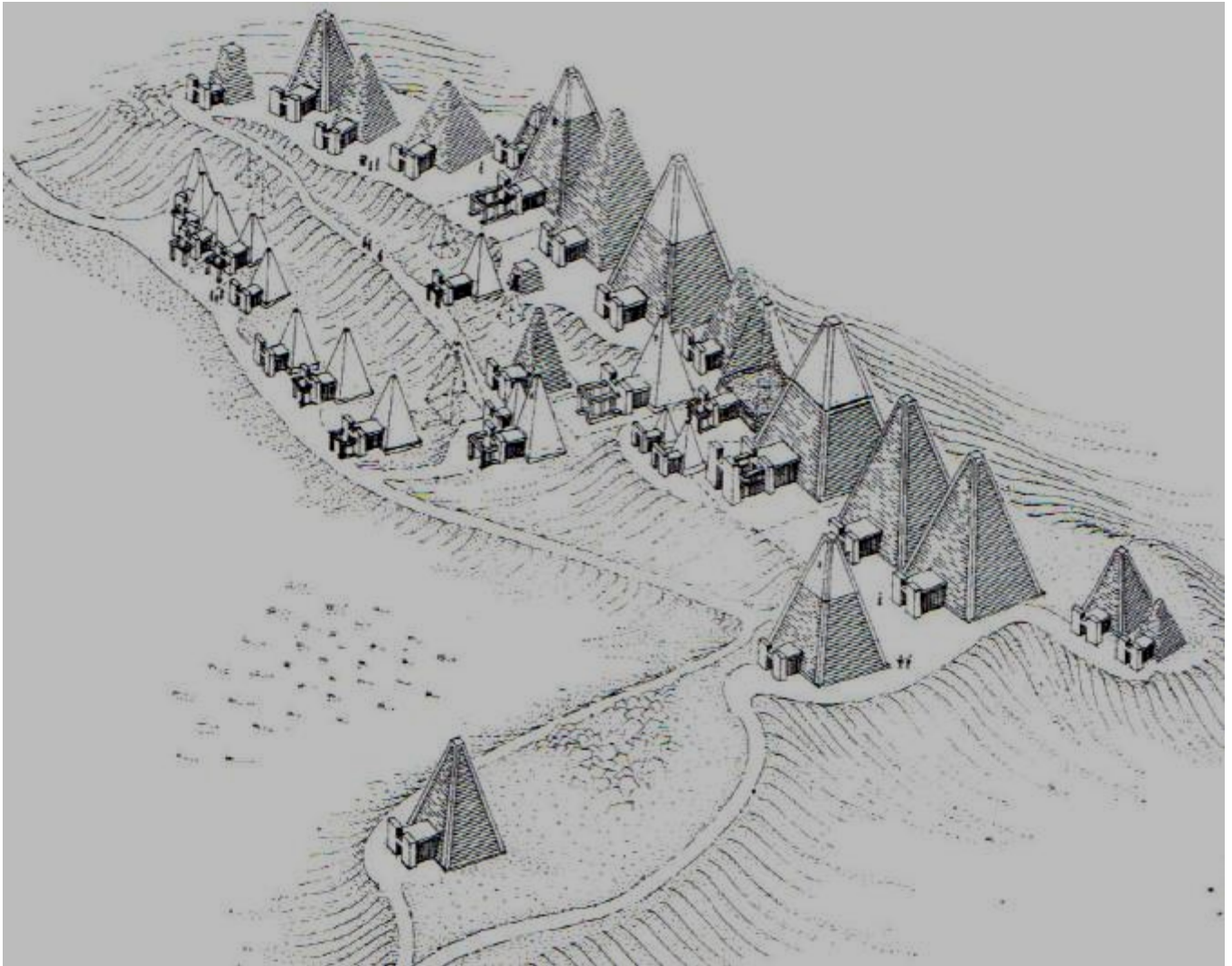
ملحق
العلاقة الابدية بين فراعنة مصر وكوش
اثار الفراعنة النوبيون (فراعنة كوش) معابد جبل مروى

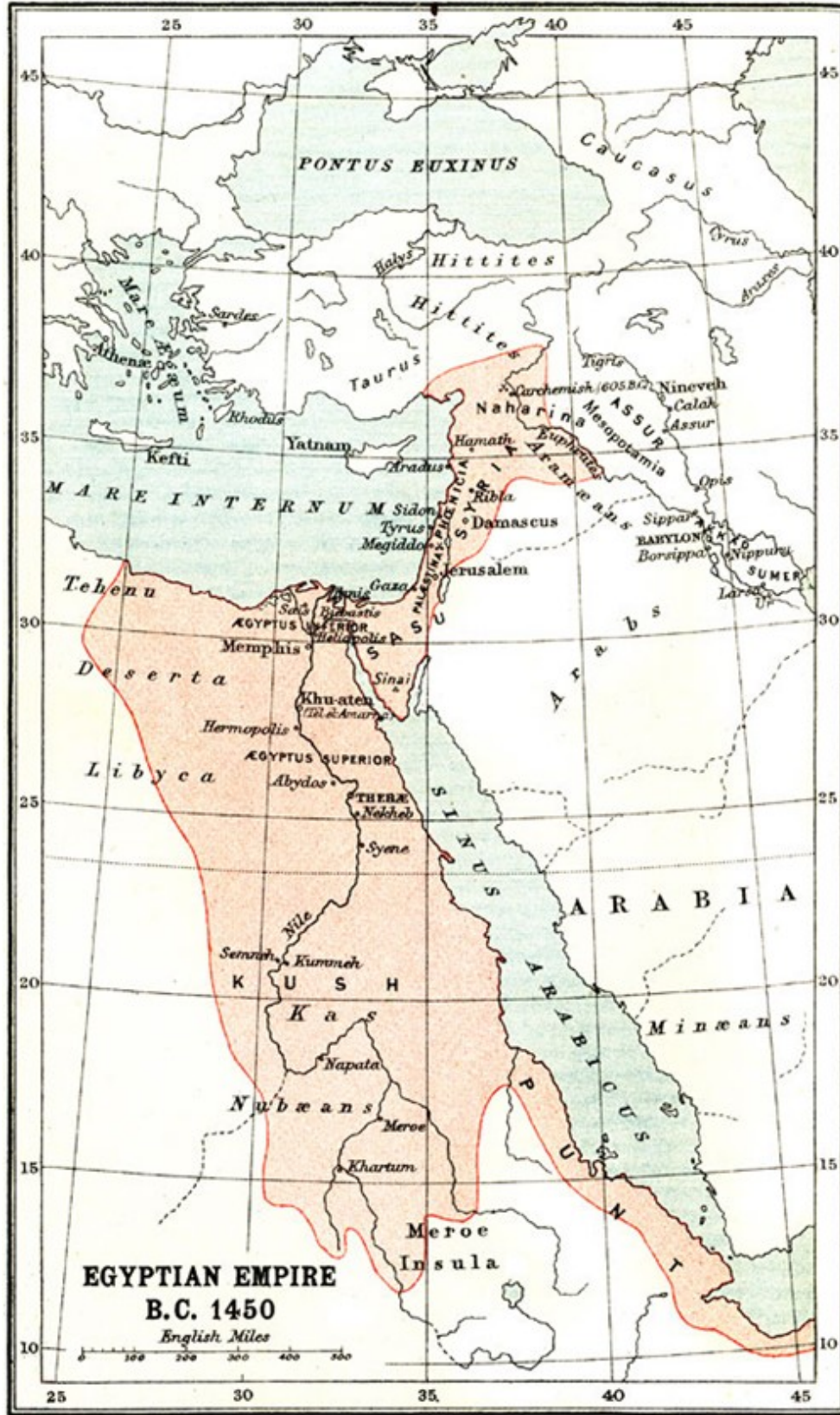




The Temple of Mut (Temple B300), carved partly into the rock base of Gebel Barkal, was built by the pharaoh Taharqa in the 680s BCE.



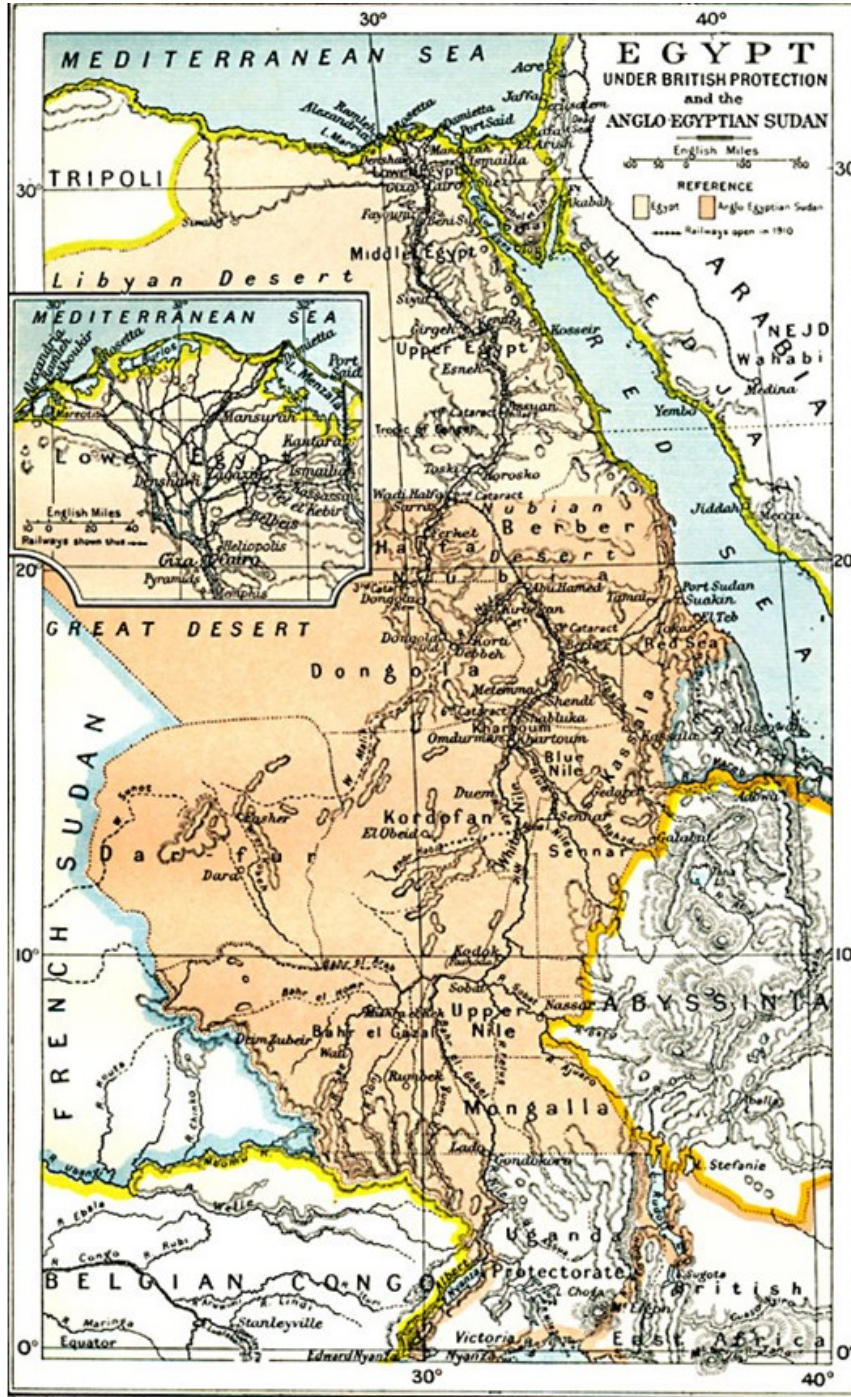




امبراطورية احمس الافريقية



امبراطورية الاسرة العلوية الافريقية عام 1880

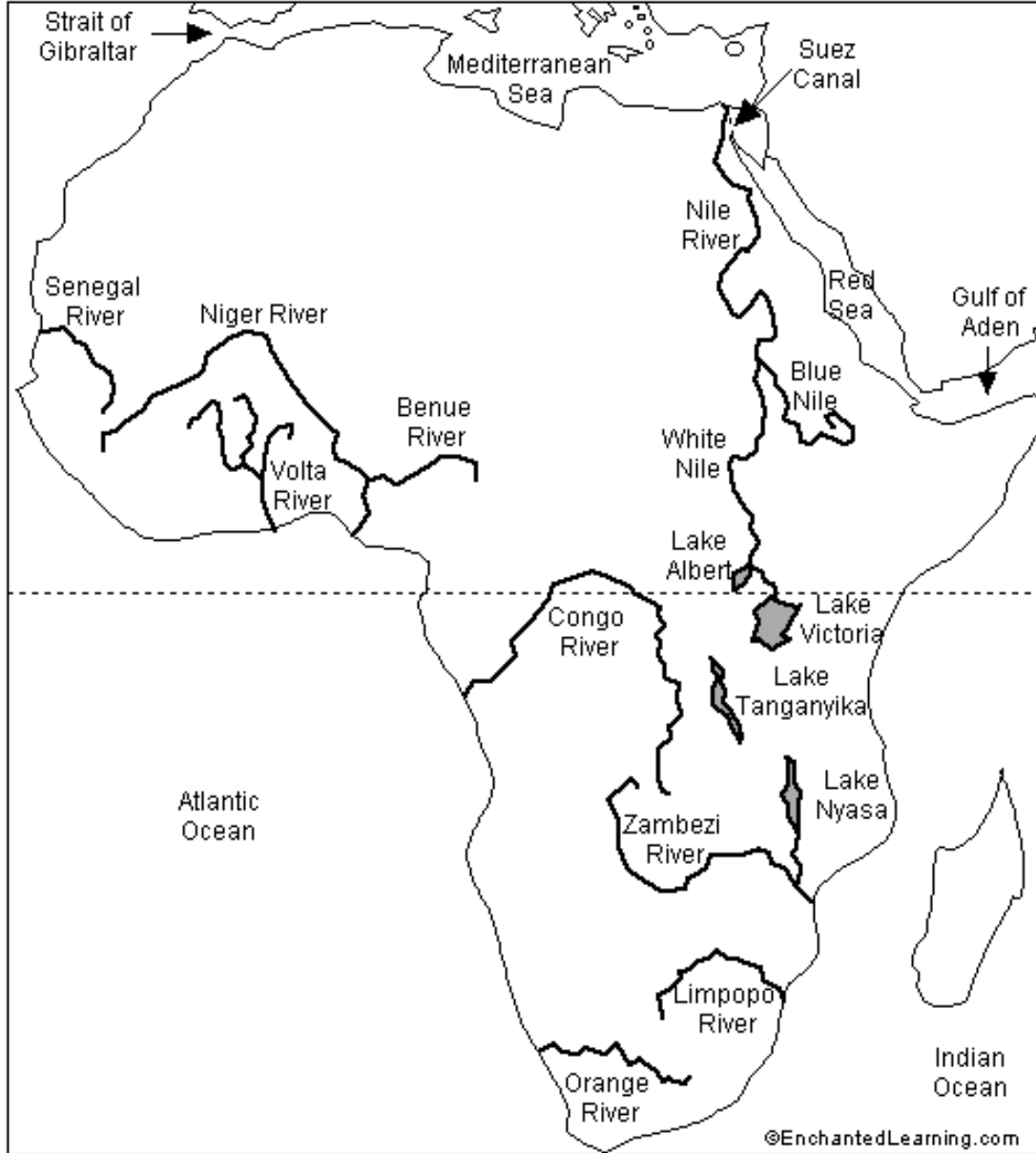


ممتلكات مصر الأفريقية تحت الانتداب البريطاني

النيل الخالد

انهار افريقيا وبحيراتها

1



النيل عصب الحياة في مصر وهدف التوسع المصري - كادت مصر ان تستقر
على منابعه لولا المخططات الاجنبية التي جردت مصر من ممتلكاتها ووضعتها
تحت الحماية

ملحق
حضارة غرب افريقيا



مقبرة أسكيا محمد

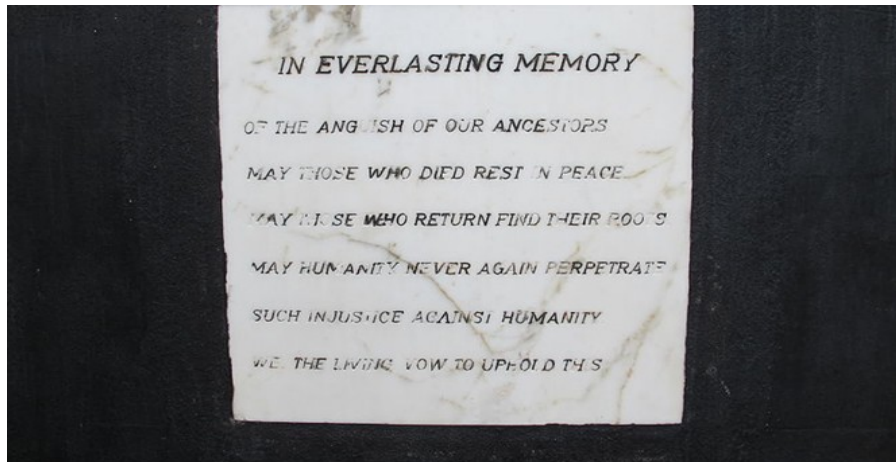




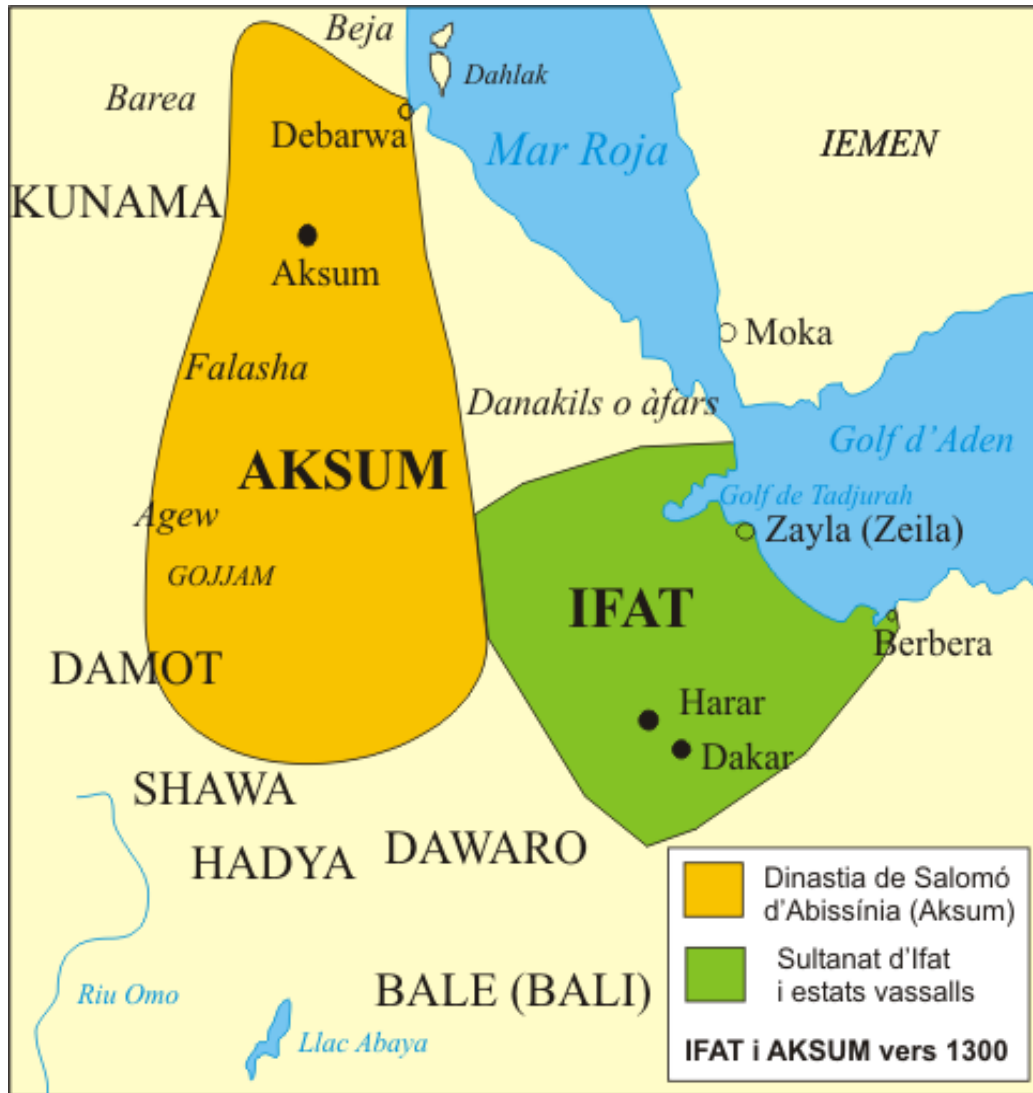
مسجد سنجور بتمبكتو



قلعة مينا البرتغالية لحبس العبيد قبل ترحيلهم من غانا -
كنيسة قلعة مينا للعبيد - مدافع القلعة ثم كنيسة تعميد
العبيد ثم المحابس ثم لوحة تذكارية



سلطنات الاسلام فى شرق افريقيا عام 1300 تقريبا
الهضبة الحبشية والصومالية وساحل البحر الاحمر

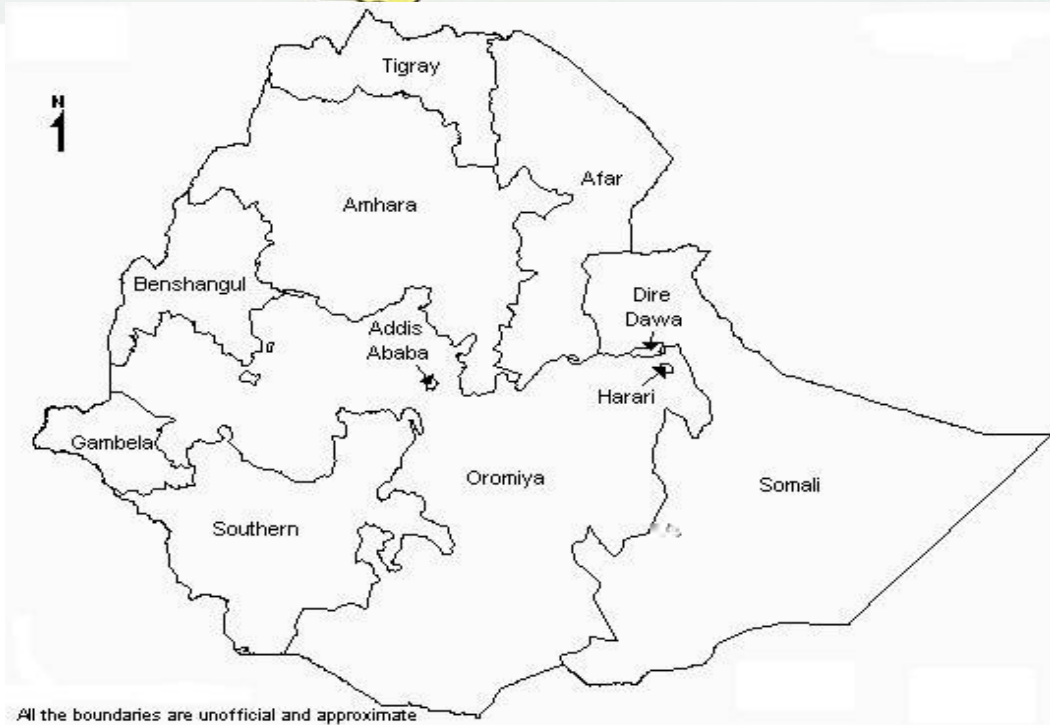
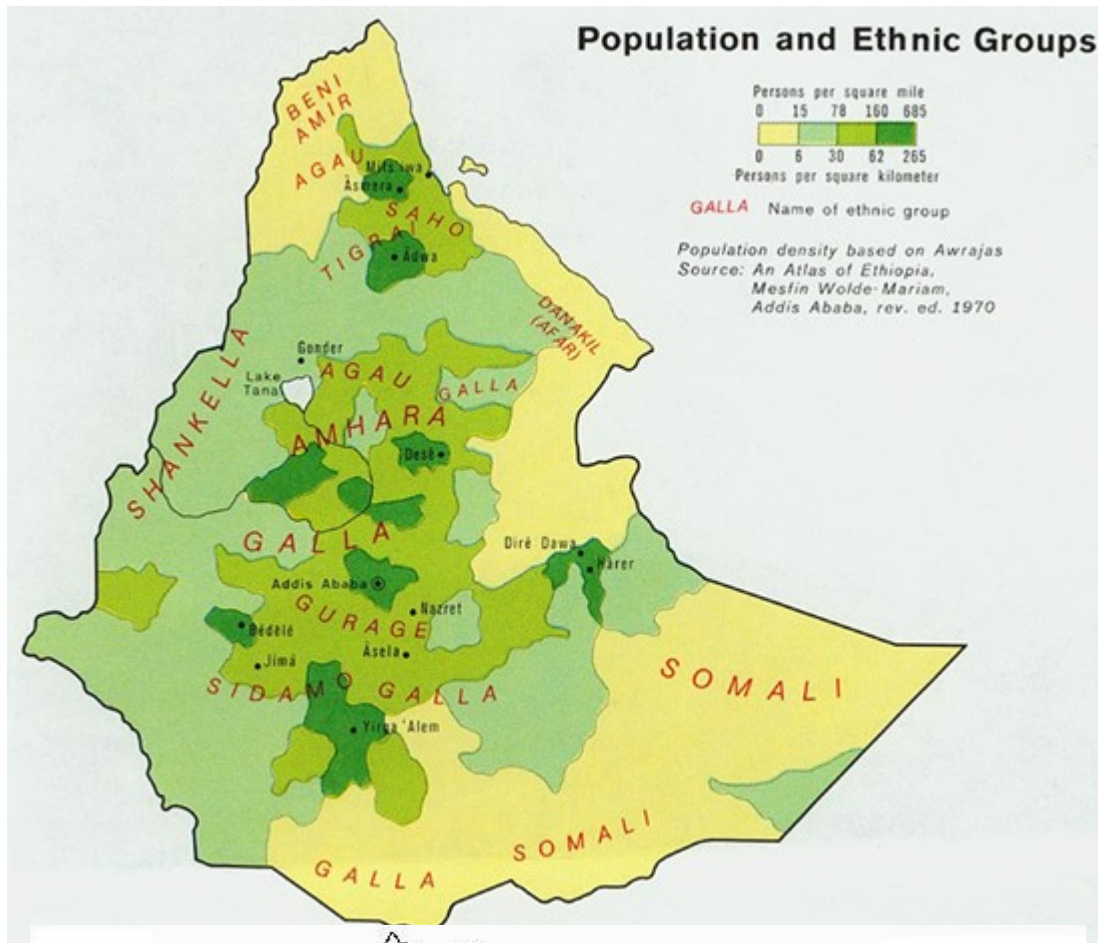


وهى إفات (تشمل هرر وزيلع) - داموت - شوا - هدية - داوارو - بالى - منطقة
الدناكل او العفر المسلمة - وهى التى استولت عليها الحبشة لتصبح اثيوبيا
الامبراطورية.



الامبراطورية العُمانية وامتدادها الافريقي - دولة الوحدة العربية 3
الافريقية الاولى







الثلاث خرائط عاليه تشمل التوزيع العرقى فى اثيوبيا

ومن مسمياتها يتضح الاقاليم المسلمة التى ضمتها من امارات الاسلام بالمنطقة ومن الصومال والسودان- كذلك تقسيم الصومال وفى الاسفل التقسيم الادارى



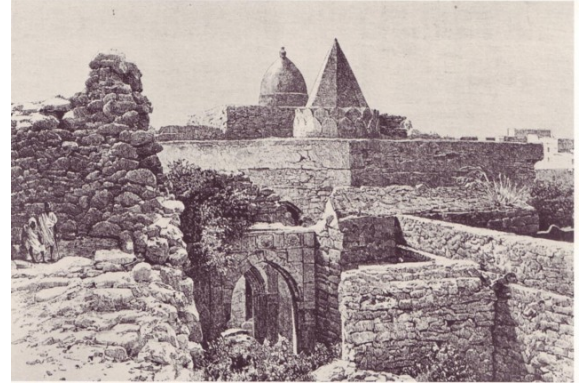


سلطنة مجارتين الصومالية 1890

ملحق صور شرق افريقيا



زيلة

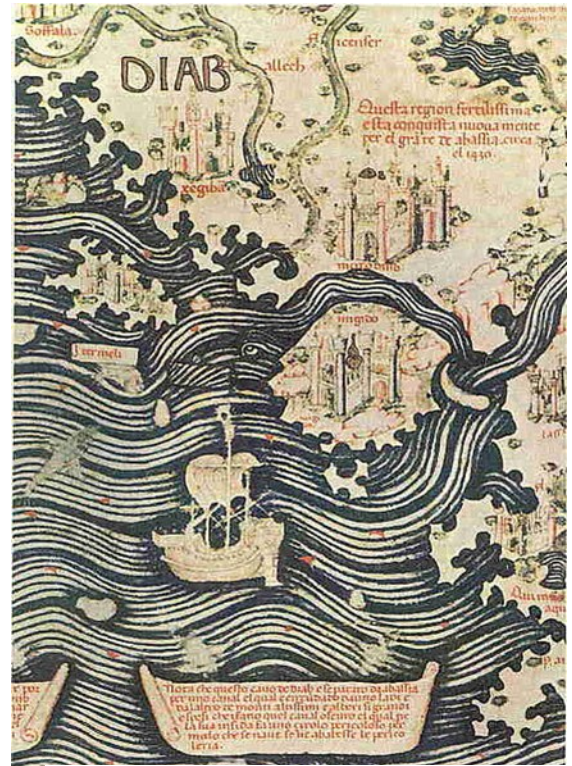


مسجد فخر الدين - بناء الشيرازيون



ممبسة

رسم لآحد البحارة الاوروبيون



معركة بين امبراطور الحبشة

جيبا صيون وسلطان عدل

ملحق 2

منظمة المؤتمر الاسلامي

الدول الاعضاء بمنظمة التعاون الاسلامي



الإسلامية
1969
8/19

أفغانستان
العضوية
الوطني



الهاشمية جمهورية
1969 سنة
5/25 اليوم

الأردنية
العضوية
الوطني



أذربيجان المملكة
1992 سنة
5/28 اليوم

العضوية
الوطني

جمهورية
سنة
اليوم



إندونيسيا
1969
8/17

العضوية
الوطني



المتحدة جمهورية
1972 سنة
12/2 اليوم

الإمارات العربية
العضوية
الوطني



ألبانيا دولة
1992 سنة
11/28 اليوم

العضوية
الوطني

جمهورية
سنة
اليوم



الإيرانية
1969
2/11

الإسلامية
العضوية
الوطني



أوغندا جمهورية
1974 سنة
10/9 اليوم

العضوية
الوطني



أوزبكستان جمهورية
1996 سنة
9/1 اليوم

العضوية
الوطني

جمهورية
سنة
اليوم



السلام
1984
2/23

دار
العضوية
الوطني



البحرين بروناي
1972 سنة
12/16 اليوم

العضوية
الوطني



الإسلامية مملكة
1969 سنة
3/23 اليوم

باكستان
العضوية
الوطني

جمهورية
سنة
اليوم



بنين بوركينا فاسو (فولتا العليا سابقا)
1983 سنة
8/1 اليوم



بنغلاديش جمهورية
1974 سنة
3/26 اليوم



التركية تركمنستان
1969 سنة
10/29 اليوم الوطني



تاجكستان الجمهورية
1992 سنة
9/9 اليوم



توغو الجمهورية
1997 سنة
اليوم



تشاد جمهورية
1969 سنة
4/27 اليوم الوطني



السعودية
1969 سنة
9/23 اليوم



الجزائرية الجمهورية الديمقراطية
1969 سنة
6/27 اليوم الوطني



السودان الجمهورية العربية
1969 سنة
1/1 اليوم الوطني



السنغال جمهورية
1969 سنة
4/4 اليوم



الصومال
1969



سيراليون جمهورية
1972 سنة
4/27 اليوم الوطني
العضوية



سورينام جمهورية
1996 سنة
اليوم
العضوية

جمهورية
11/25 اليوم الوطني
العضوية سنة



الغابون
1974



عمان جمهورية
1972 سنة
11/18 اليوم الوطني
العضوية



العراق سلطنة
1975 سنة
/--/-- اليوم
العضوية

جمهورية
اليوم
العضوية سنة



غينيا
1969



غويانا جمهورية
1998 سنة
2/23 اليوم الوطني
العضوية



غامبيا جمهورية
1974 سنة
اليوم
العضوية

جمهورية
اليوم الوطني
العضوية سنة



فلسطين جمهورية القمر الاتحادية الإسلامية
1969 سنة
1/1 اليوم الوطني
العضوية



بيساو دولة
1974 سنة
اليوم
العضوية

جمهورية غينيا
اليوم الوطني
العضوية سنة



كازاخستان
1995
12/16



قطر جمهورية
1972 سنة
9/3 اليوم
العضوية



كيريباتي دولة
1992 سنة
8/31 اليوم
العضوية

جمهورية
اليوم
العضوية سنة



الكويت

1969

2/25

العضوية
الوطني



فؤاردولة

2001سنة

اليوم

دي

العضوية

اليوم الوطني 8/7



الكاميرون كوت

1974سنة

جمهورية

سنة

العضوية
اليوم الوطني 5/20



المالديف

1976

7/26

العضوية
الوطني



البنانيةالجمهورية العربية الليبية الشعبيةجمهورية

سنة

1969اليوم

9/1

العضوية
الوطني

1969الإشتراكية

11/22سنة

اليوم

العضوية

اليوم الوطني



العربية

1969

7/23

مصر

العضوية

الوطني



جمهورية

1969سنة

8/31اليوم

العضوية

الوطني



مالي مالىزيا

1969سنة

9/22اليوم

جمهورية

سنة

العضوية
اليوم الوطني



موزمبيق

1994

العضوية

اليوم الوطني 6/25



الموريتانيةجمهورية

1969سنة

اليوم الوطني 6/25

المغربيةالجمهورية الإسلامية

العضوية

اليوم الوطني 11/28



1969سنة

7/30اليوم الوطني

المملكة

سنة

العضوية
اليوم الوطني



اليمنية

1969

5/22

العضوية

الوطني



الاتحاديةالجمهورية

1986سنة

10/1اليوم

نيجيريا

العضوية

الوطني



النيجرجمهورية

1969سنة

اليوم

جمهورية

سنة

العضوية
اليوم الوطني 12/18

المراقبون بمنظمة المؤتمر الاسلامي

تاريخ الحصول على مراقب	المراقب	العضو
1994	جمهورية البوسنة والهرسك	1
1996	جمهورية إفريقيا الوسطى	2
1998	مملكة تايلاند	3
2005	روسيا الاتحادية	4
1979	دولة قبرص التركية	5
	الجماعات الإسلامية	
1977	الجبهة الوطنية لتحرير مورو	1
	المؤسسات الإسلامية	
2000	إتحاد مجالس الدول الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي	1
	المنظمات الإقليمية والدولية	
1976	منظمة الأمم المتحدة	1
1977	حركة عدم الانحياز	2
1975	جامعة الدول العربية	3
1977	الإتحاد الإفريقي	4
1995	منظمة التعاون الاقتصادي ECO	5

مراجع العربية

- (1) الاسلام الفاتح - د . حسين مؤنس
 - (2) الافريقيون والعرب - د . احمد سويلم العمرى .
 - (3) مصر وافريقيا - د . زهران رياض .
 - (4) سيراليون وليبيريا - محمد اسماعيل محمد .
 - (5) زنجبار - د . صلاح العقاد وجمال زكريا .
 - (6) الاسلام والمسلمون فى غرب افريقيا _ - د . عبدالرحمن زكى
 - (7) موسوعة تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية (جزء 6) - د . أحمد شلبى .
 - (8) دولارات عربية لافريقيا (مترجم هيئة الاستعلامات) - إفرايم تشيامبى .
 - (9) افريقيا القديمة تُكتشف من جديد (ترجمة نبيل بدر و سعد زغل - باسيل دافيدسون
 - (10) نيجيريا عملاق افريقيا
 - (11) المد الاسلامى فى افريقيا - محمد جلال عباس .
 - (12) الاسلام والحيشة عبر التاريخ - فتحى غيث
 - (13) اضواء على الحيشة (تقديم جمال عبدالناصر) - أمين شاكر ومصطفى امين وسعد الديان .
 - (14) العالم الاسلامى المعاصر - جمال حمدان .
 - (15) السودان عبر القرون دار الجيل - بيروت 1991 - د على شبيكة - جامعة الخرطوم .
 - (16) بحوث ندوة افريقيا - اصدارات مركز دراسات الوحدة العربية
 - (17) الامام ادريس مؤسس الدولة المغربية مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الاسلامى
- عدد 31 المصادر فى الرباط لعام 1988
- (18) بحوث ندوة افريقيا والثقافة العربية الاسلامية - اصدارات منظمة " الاسيسكو "
 - (19) الاسلام والثقافة العربية فى إفريقيا - د . حسن أحمد محمود
 - (20) تاريخ الاسلام السياسى - د . حسن ابراهيم حسن
 - (21) الحضارة - يوسف كمال
 - (22) مستقبل أوروبا - كسيرك .
 - (23) عندما تغير العالم - جيمس بيرك .
 - (24) مأساتنا فى افريقيا - عماد الدين خليل .
 - (25) ألحواضر الاسلامية الكبرى - د . عصام الدين عبد الرؤوف .
 - (26) الاسلام فى الصومال - الشيخ عبد الرحمن النجار .
 - (27) فتح العرب لمصر تعريب محمد فريد ابو حديد الطبعة الثانية - د الفرد بتلر
 - (28) حضارة العرب صدر عام 1884 (طبعة 1956 ترجمة عادل زعيتر) د جوستاف لوبون .
 - (29) مقال السيدة إيزيس إسحاق مرقس باحثة بالهيئة العامة للاستعلامات .
 - (30) (فلسفة الثورة والميثاق الوطنى .
 - (31) (ويسألونك عن ذى القرنين - تأليف مولانا أبو الكلام آزاد .
 - (32) ندوة العرب وإفريقيا ؛ ثورة يوليو وإفريقيا - اصدارات مركز دراسات الوحدة العربية .
- (هناك العديد من المصادر تعرضنا لها فى المتن كما ان بعضها تضمنته الحرائط والصور)

المراجع الانجليزية

1. Abir, Mordechai (1968). Ethiopia: The Era of the Princes; The Challenge of Islam and the Re-unification of the Christian Empire (1769-1855). London: Longmans.
2. Rubenson, Sven (1966). King of Kings: Tewodros of Ethiopia. Addis Ababa: Haile Selassie I University.
3. J. Spencer Trimingham, Islam in Ethiopia (Oxford: Geoffrey Cumberlege for the University Press, 1952), p. 111
4. Abir, Era of the Princes, p. 111f
5. Weld Blundell, H. (1922). The Royal chronicle of Abyssinia, 1769-1840. Cambridge: University Press.
6. Shiferaw Bekele, "Reflections on the Power Elite of the Wārä Seh Mäsfenat (1786-1853)" Annales d'Ethiopie 15 (1990), p. 161
7. Rubenson, King of Kings, p. 37
8. Rubenson, King of Kings, p. 52.
9. Chris Proutky, Empress Taytu and Menelik II: Ethiopia 1883-1910 (Trenton: The Red Sea Press, 1986), p. 27n
10. Trimingham, Islam, p. 110
- 11) Islam and its holy prophet as judged by the none muslim world , P. 185 ; Nur Ahmed ; and K. M. A. Rab .
- 12) Report of The Commission of the missionary council of the church assembly in london " call from Africa "rational , rationality, and techniques of Christian missionary conversion of Africans, by Themba Sono, p. 17--25 Christian missionarism and the alienation of the African mind - workshop by African society in libya 1986.
- 13) Survey of international affairs, 1928.
- 14) The New Columbia Encyclopedia 1975 .
- 15) Chronicles of the Crusades ; by Elizabeth Hallam ص 358
(هناك حالات استثنائية كفرض الامبراطور يوحنا الرابع التنصير الاجبارى على مسلمى وُلُو خلال ستة أشهر أو تتصادر أملاكهم ، ومثال جزية إمارة هدية الى " زرع يعقوب " ملك الحبشة (1434 - 1468) ، فيقول علي المسلمين فى إمارة هدية تقديم عذراء مسلمة الى امبراطور الحبشة سنويا لتنصيرها .

المصدر ترمنجهام ص 63 - نقلًا عن النشاط العربى فى افريقيا - د/ حسن احمد ص 394

الفهرس

تقديم الكاتب

ص 9 الكتاب الاول الحضارة الاسلامية

الفصل الاول موقع حضارة الاسلام من الحضارة الانسانية

مفهوم الحضارة وأنماطها .

الجنود العربية للحضارة الإسلامية -

حضارة الصحراء

عالمية الحضارة الإسلامية -

التراث العلمي وإنجازات الحضارة العربية

- أولا مجال العلوم.

- ثانيا مجال الصناعة

صد 32 الفصل الثاني منارة الاندلس وفضلها على أوروبا.

- النهضة في عهد دول الطوائف

- النهضة في عهد المرابطين

- النهضة في عهد الموحدين

- غرناطة والحضارة (دولة بنى نصر)

- حواضر الاندلس ومراكز حضارتها

من قيامها الى سقوطها

أولا قرطبة

ثانيا إشبيلية

ثالثا غرناطة

رابعا طليطلة

- تفوق الاندلس الحضارى على أوروبا

- أخلاقيات الأمة الاندلسية

وانجذاب الأوروبيين للتعلم والاقامة الامنة

إقتباس أوروبا التراث العلمى للحضارة الإسلامية

حركة الترجمة الأوروبية للعلوم العربية

المرحلة الأولى

القرن الثامن وحتى منتصف القرن 11م

المرحلة الثانية

عصر الترجمة الذهبى

المرحلة الثالثة

طليطلة كمركز للترجمة

امتصاص أوروبا للعلوم العربية

حصيلة الترجمة

صد 44 - مكانة اللغة العربية كلغة للعلوم.

- تأثير الحضارة الإسلامية على عالم اليوم

(كيف غير المسلمون العالم)

- افضال الحضارة الإسلامية على أوروبا

(ما بين النكران والعرفان)

صد 48 الفصل الثالث الأمة والجهاد فى منظومة الحضارة الإسلامية

اولا - امة الاسلام

- اوضاع غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى - اهل الذمة

والتوصية المشددة بالقبض.

- تأمين اهل الذمة فى معاهدات صلح المسلمين الاوائل.

- معاملة اهل الذمة فى الدولة الفاطمية (مصر).

- مصر واليهود فى العصر الحديث.

- الحركة الصهيونية

واوضاع اليهود فى مصر

- جدلية الجزية

قضية بلا قضية

صد 60 ثانيا- الجهاد

- نية السلام قبل نية الحرب

- قواعد الحرب الاسلاميه

في معاملة اهل البلاد المفتوحة

- انتفاء العدوانية في فتوح الاسلام

إسلام الشام ومصر إختياريا

- معطيات الحضارة الحديثة والدعوة

- تأثير المضمون الروحي للإسلام على الاوروبيين

- إخبار السماء بفتوح الاسلام

- الاسباب الاستراتيجية للفتوح

ودور عرب الشام والعراق

في دعم الروم والفرس

80 ص الباب الثاني البعد الاسلامي (الجهاد)

في تاريخ الاندلس جهاد ممالك الاندلس

- أسلحة قوات الاسلام

الايمان بما فيه من نيات تُغنى عن كثرة العدد

وقلوب تُغنى عن حصانة الدروع

- الفتح والدعوة

- الجهاد - الحقيقة وافتراءات الدراسات الغربية

- الداعية وفنون الدعوة

ومعطيات الحضارة الحديثة

- المضمون الروحي للإسلام و تأثيره على الاوروبيين

صد 76 الباب الثاني البعد الاسلامي في تاريخ الاندلس

جهاد ممالك الاندلس

الفصل الاول الاندلس وفتوحها

- الفتح العربي للاندلس

اولا العصر الأموي (الدمشقي - الاندلسي)

معركة شذونة (رمضان 92هـ / يوليو 711م)

- التطور التاريخي لعهود الاندلس

صد 81 اولاً ولاية الدولة الاموية (التبعية لدمشق)

فتوح الاندلس ومستوطناتها في غرب ووسط أوروبا

تراجع المد الاندلسي في أوروبا

والتخلص من مستوطناته

- معركة بلاط الشهداء - بواتييه وما بعدها

- مستوطنة فراكسينيت الإسلامية

وامتدادها في جنوب فرنسا

- خروج المسلمون من جنوب فرنسا وغربي إيطاليا

- سقوط فراكسينيت

- تأثير المسلمون على جنوب أوروبا

(فرنسا - سويسرا)

صد 89 يوسف بن عبد الرحمن الفهري

آخر ولاية الخلافة الاموية بدمشق

و قيام الامارة الاموية في غرناطة

إمارة عبد الرحمن الاموي (الداخل) واسرته

- التصدي لموالي العباسيين

- العهد الثاني إمارة وخلافة بنى أمية القرطبية
- إمارة عبد الرحمن (الداخل) صقر قريش
- الحركات العباسية
- حركات اليحصبي والصقلبي
- الدولة العامرية

ثالثا دويلات الطوائف

- الانقسام الطائفي وضعف ملوك الطوائف
- المستعربون المولدون واضعاف الاندلس
- صراع ملوك الطوائف
- صراع طليطلة وقرطبة وتوسع اشبيلية
- استيلاء اشبيلية على قرطبة
- توسع طليطلة وحربها على اشبيلية
- وتحالفها مع قشتالة
- توسع اشبيلية (المعتمد) وتحالفه مع ملك برشلونة
- في محاولة غزو مرسية الفاشلة
- مسيرة الاسترداد
- قشتالة والاستيلاء على طليطلة الهدف الثمين الاول
- قصة تحالف قشتالة والمعتمد
- المرابطون ونجدة دول الطوائف
- (يوسف بن تاشفين ونصر الزلاقة)
- عام 479 هـ - اكتوبر 1086م

صد 106

- عودة ابن تاشفين إلى المغرب
- وفكرة الاستيلاء على الاندلس
- ألفونسو وإعادة الحشد
- وعودة ابن تاشفين الى الاندلس
- معاودة الممالك الايبيرية عملية الاسترداد
- مملكة اراجون والاسترداد
- الموحدون ونجدة الاندلس انتصار الارك
- 9 شعبان سنة 591 هـ / يوليو عام 1195م
- الموحدون والجهاد في الاندلس
- جهاد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
- جهاد أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور
- ونصر الارك
- هجمات الممالك الاسبانية

- موقعة العقاب وهزيمة الموحدون
- الوضع في الاندلس بعد موقعة العقاب

اولا - نهاية دولة الموحيدين وثورة الاندلس بزعامة ابن هود ودعوته للخليفة العباسي

صد 117 ثانيا - ظهور ابن الاحمر وتأسيس الدولة النصرية في غرناطة ومناجزة ابن الاحمر قشتالة

- ضغوط الاسترداد ما بين قشتالة وارجون
- مهادنة ابن الاحمر قشتالة- التحالف المهيمن والخسران المبين
- تمرد ابن الاحمر على قشتالة والاستنجاد بمغرب بنى مرين
- شخصية الاحمر او ابن الاحمر
- جهاد بنى مرين في الاندلس- (الجهاد العظيم) (ولاية ابن الاحمر الفقيه)
- أبو عبد الله محمد الملقب المخلوع والتمرد على بنى مري
- ثورة ابو الجيوش نصر بن محمد الفقيه وعزل المخلوع

واسترداد المغرب سبتة

- وسقوط ثغرا المرية وجبل طارق في يد الاسبان
- ابا الوليد اسماعيل والجهاد ضد قشتالة
- ابو عبد الله محمد واستعادة جبل طارق
- ابو الحجاج يوسف بن ابي الوليد وانتكاسة جهاد بنى مرين
- السلام مع اراجون وحصار قشتالة جبل طارق
- مراسلات المغرب ومصر بخصوص الوضع في الاندلس
- انقطاع جهاد المغرب وترك غرناطة لمصيرها
- محمد بن يوسف بن اسماعيل الملقب بالغنى بالله (العلاقات مع مصر
- الجهاد ضد قشتالة - يوسف ابو الحجاج (يوسف الثانى)
- محمد بن يوسف (جهاده قشتالة وتهادنه مع اراجون)
- يوسف الثالث (ثورة اهل جبل طارق وخلافه مع المغرب والوفاق مع قشتالة
- الايسر (الانقلابات ودعم قشتالة وفتنها)
- الحجاج يوسف بن المول (اغتصاب الحكم بمساعدة قشتالة وخضوعه لها)
- عودة الايسر للحكم (مهادنة قشتالة ثم جهاده ضدها وطلبه معونة مصر)
- خلع الايسر والتنازع على الملك
- تبديل ملوك غرناطة وسقوط جبل طارق وسقوط دولة بنى مرين
- انحلال غرناطة السقوط ما بين 868 - 897هـ / 1463-1492م)
- انقسام غرناطة
- اسرة المستعين بالله والتنازع على العرش
- النزاع حول العرش الغرناطى وانقسام غرناطة
- وحدة قشتالة وارجون ومحاولات ابو الحسن التفاهم مع قشتالة
- صد 141 - إستغاثة الاندلس بدول الاسلام - هوان امة على امتها
- * موقف سلاطين الحفصيين
- * موقف ملوك الدولة الزيانية
- * موقف مصر
- * موقف الدولة العثمانية
- فى عهدى السلطان محمد الفاتح
- وابنه السلطان بايزيد الثانى
- تطويق غرناطة وسقوط اخر الثغور
- مفاوضات الاستسلام
- صد 147 - نهاية غرناطة وسقوط الاندلس وزوال حكم الاسلام
- سقوط الحمراء واستسلام ابو عبد الله
- رد فرديناند وايزابيلا على رسالة سلطان مصر.
- صد 151 الفصل الثانى المأساة الاسلامية (الهوان المورسكى)
- المأساة والنضال (897 - 1018هـ /// 1492-1609م)
- (التنصير الاجبارى - محاكم التفتيش - الخروج)
- معاملة الاسبان للمدجنين المورسكيين "الموروس"
- الخروج
- التنصير الاجبارى وديوان التحقيق " محاكم التفتيش
- فظائع ديوان التحقيق "La Inquisition""
- الثورة ضد التنصير العام
- تحريم حمل السلاح
- الثورة المورسكية الكبرى واعلان الاستقلال
- مفاوضة الاسبان الثانى محمد بن امية واغتياله
- قتال الثوار الدون خوان اخو الملك فيليب

- تشتت الاسبان للمورسكيين
- مفاوضة الاسبان الثامن محمد بن امية واغتياله
- القتال والتفاوض
- تشتت المورسكيين في الداخل
- الثوار المورسكيون يستنهضون روح الجهاد في المغرب
- ورد فعل الاسبان (نفي المورسكيين و مآسي الرحيل والطريق)
- تمرد المورسكيين وترحيلهم
- الخروج الثاني الهروب عبر الاطلنطي
- وطرد المورسكيين من المستعمرات الاسبانية في امريكا .
- مآسي الطريق نهب المتفبين والاعتداء عليهم
- المورسكيون - خصالهم ومقوماتهم
- هجرات الاندلسيين والمورسكيين الى المغرب
- ص 166 على مر التاريخ الاسلامي³⁵⁵
- استقرار المورسكيين في تطوان
- مساهمة العائلات الأندلسية في الحياة المغربية
- جهاد القراصنة (استنقاذ المورسكيين من اسبانيا القرن 16 م)
- قضية المورسكيين اليوم (المطالبة بالحقوق)
- تعقيب ص 172.

- ص 173 الكتاب الثاني
- البعد الاسلامي في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء
- الفصل الاول الحضارة والجهاد في السودان الغربي (إفريقيا الغربية)
- إفريقيا الغربية قبل الاسلام
- عزلة الاقليم
- إحتجاب الاقليم عن الديانات السماوية الكتابية
- أزمة الحضارة بالاقليم
- دورة مد الاسلام ومكوناتها
- (المداخل - أدوات المد الإسلامي)
- اسلام البربر ومد الاسلام عبر الصحراء
- مناجزة البربر غانا
- تجارة عبر الصحراء
- هجرات القبائل العربية والافريقية
- (اهم الشعوب إسهاما في الدعوة)
- مسيرة مد الاسلام .
- ص 168 الفصل الثاني إفريقيا الغربية قبل الاسلام
- الكيانات السياسية للاسلام

- المرحلة الأولى
- ممالك الإسلام (من القرن 13 وحتى بداية القرن 16م)
- (1) مملكة غانة
- (2) أمبراطورية مالي .
- (3) مملكة صنغاي .
- (4) مملكة كانم .

183 ص المرحلة الثانية

جهاد الصوفية من أجل الدعوة ومناجزة الاستعمار في غرب إفريقيا

- التعريف بالطرق الصوفية
- جهاد الصوفية
- المرابطون (دولتهم في الأندلس والمغرب وأجزاء من غرب إفريقيا)
- حركة الأمام " عثمان فودي ده " - جهاد أحمدو لمبو بن حمد بوبو
- كفاح عمر تال (عمر الفوتي التكروري)
- في مالي وغينيا (حركة تيجانية)
- حركة موديبو أداما " الفولانية "
- طرق أخرى
- تقويم عام
- أثر حضارة الاسلام - الوجود العربي
- الثقافة العربية في الاقليم
- تأثير الإسلام على المجتمعات الوثنية
- الفرق الحضارية بين المجتمعين الاسلامي والوثني
- موقع حضارة الإقليم في حضارة الإسلام .

195 ص (تقويم عام) المد الإسلامي وتأثيره الحضاري على غرب إفريقيا
203 ص المرحلة الثالثة

- مد الاسلام في كنف الاستعمار
- تحدي المسلمون السلطة الاستعمارية
- سياسة الفرنسيين في مواجهة الاسلام
- سياسة الانجليز
- وسائل الاستعمار في محاربة الإسلام وتطويع الافريقيين
- 1- اعادة صياغة الهوية (مكوناتها اللغة والتعليم والعقيدة)
- وإجتذاب المسلمين مدارس التبشير وسلبياته عليهم
- 2- الأفكار التغريبية للدراسات العلمية للمجتمعات الافريقية
- 3- التبشير الأوروبي (محاربة الاسلام -- الهيمنة على الافريقيين)
- تطور المد التبشيري حتى الحرب العالمية الاولى
- التبشير في القرن العشرين
- علاقة التبشير بالاستعمار
- موقف التبشير من الاسلام
- مقارنة بين مد التبشير ومد الاسلام في القرن العشرين
- الكنائس الافريقية الوطنية

222 ص تقويم عام مد الاسلام في ظل الاستعمار

225 ص الفصل الثالث تجارة النخاسة الأوروبية وتجارة الرق العربية في إفريقيا
النخاسة قضية عقيدة أم قضية سلوك ؟

- الاسلام والرق
- الاسلام وعتق الرقيق
- الرق بين جوهر العقيدة والسلوك الانساني
- مقارنة بين تجار الرقيق الاوروبية والعربية .
- 236 ص الباب الرابع مد الاسلام في السودان الشرقي النوبة القديمة والتخوم الشرقية
اولا النوبة الشمالية (نوباديا ومقرة)
- العلاقات المتجذرة بين مصر والنوبة
- الاسرة الكوشية واهتمامها بمصر
- ممالك النوبة (نوباديا - مقرة - علوة)
- العهدين البطلمي والروماني

- النوبة الشمالية

- الفترة المسيحية (تقدم العرب الى النوبة
- الصلح بين العرب والنوبة (معاهدة البقط)
- محاولات النوبة التنصل من البقط
- النوبة والسيدة المصرية (الدولة الطولونية - الدولة الاخشيدية - الدولة الفاطمية (تغلل القبائل العربية) - دولة المماليك.
- اسلام ملوك مقرة
- امارات القبائل وزوال السلطة المركزية
- ثانياً التخوم بين الصحراء الغربية حتى مصوع وزيلع
- هجرات القبائل
- مصر وعرب البجة في الصحراء الغربية
- (حملة ابن الحبحاب ؛ وحملة المأمون العباسي بقيادة عبد الله بن الجهم
- هجرات القبائل العربية
- حملة المتوكل
- حكم المماليك سواكن وعيذاب
- ولاية الكشاف قوصوة (كوسوفو) في النوبة
- الوضع الثقافى
- الوضع الاقتصادى
- مد الاسلامى .
- ص 251 تقويم _____ام المد الاسلامى فى النوبة الشمالية والتخوم
- ثالثاً مملكة علوة
- هجرة القبائل العربية الى علوة .
- المملكة قبل اسلامها
- رابعا ممالك الاسلام فى علوة
- ظهور دولة الفونج المسلمة (مملكة عمارة دونقس)
- إمبراطورية الفونج (مملكة سنار)
- تفتت السلطة المركزية
- تمرد الشيخ عجيب عبد الملاب (عهد عدلان ود آى 1611م)
- بادي سيد القوم بن عدلان ود آى
- (الحرب الحبشية الاولى 1618 -1619م)
- بادي ابو دقن 1645م (غزواته واستقلال الشيقية)
- بادي الاحمر 1692م (البعثات الفرنسية) ووصف حال المملكة
- بادي ابو شلوخ 1724م
- (الحرب الحبشية الثانية 1744م) و(الحملة على كردفان
- (خلعه وتولى ابنه)
- سيطرة الهمج على السلطة - الوضع الثقافى فى مملكة سنار
- النظام الادارى و التجارى
- سلطنة دارفور - الفور وسليمان سولون .
- ص 266الباب الخامس محمد على وفتح السودان
- الفصل الاول فتح السودان وتوحيده
- تقدم الجيوش بقيادة اسماعيل
- اولويات محمد على
- الادارة بين القسوة والاعتدال
- محمد على وتطوير السودان
- ادارة عباس الاول
- ادارة سعيد المحب للسودانيين
- ادارة اسماعيل

- تجنيد السودانيين ومحاربة تجارة الرقيق
- ثورة الجند السود فى كسلا .

ص 247 الفصل الثانی

الفتوح المصرية فى المنطقة الاستوائية وعالى النيل
و محاربة تجارة الرقيق

- فتوحات اسماعيل في المنطقة الاستوائية

اولا - بيكر وأعلى النيل

ثانيا - غوردون الولاية الاولى

(مديرية خط الاستواء)

- محاربة تجارة الرقيق وانفصال اوغندة

ثالثا - غوردون الولاية الثانية

(حكمدارا للسودان الفترة من فبراير 1877 الى اخر 1879 م)

- مشروع غوردون لالغاء الرق ومواجهة ثورة دارفور

- وقف الفتوح

٢٠٠ - تعقب سليمان بن الزبير

- استبدال المصريين والعرب فى الادارة بالاوروبيين

- توفیق واستقاله غوردون

ص 285 تقويم الدور المصرى في السودان

- مد الاسلام - التعليم

- العمران والتنمية العامة

- الوضع السياسي .

ص 290 الفصل الثالث الثـورة المهـدية

- غوردون والادارة المصرية وبدء حكم الانجليز

- قوى الثورة في كردفان ودارفور

- عودة غوردون الى السودان (الولاية الثالثة- اخلاء السودان)

- غوردون والاخلاء - ثورة السودان الشرقي (هزيمة بيكر وجراهام)

- حملة جراهام وقوات الصحراء بقيادة ولسلي

١٠٠ - سقوط الخرطوم ومصرع غوردون

الخليفة عبد الله بن السيد

٢٠٠٠ - التقدم نحو مصر

١٠ - الحرب مع الحبشة

- تقدم القوات الانجليزية بقيادة كتشنر لاستعادة السودان

- تكالب الاوربيون على الاملاك المصرية في السودان الكبير

امبراطورية مصر الافريقية

- دعوة الخليفة الدول الى المهدية والاسلام

- ثورات ما بعد المهدي.

ص 305 تعق

ص 306 الباب السادس مد الاسلام في شرق افريقيا بين الساحل والهضبة

(اريتريا - الصومال - زنجبار - ساحل كينيا - الحبشة)

الفصل الاول جذور العرب فى شرق افريقيا

- التداخل الجغرافي والعرقى والثقافى

بين شرق افريقيا وعرب الجزيرة

ص 310 الفصل الثاني الامارات الاسلامية في الهضبة والسواحل

(ساحل البحر الاحمر وساحل شرق افريقيا).

اولا سلطنتات شرق افريقيا.

- جهاد إفاة - عدل.

- العلاقات السياسية بين الحبشة ودول الاسلام
- المودعة (الفترة النجشية)
- المواجهة (التقاء الصليبية السلمانية و البرتغالية)
- الوحشية البرتغالية ضد المدن الاسلامية
- العودة الى المودعة والعزلة
- ص 336 الفصل الثالث نضال ممبسة وجهاد الامبراطورية العثمانية فى ساحل شرق افريقيا
- انتفاضة ممبسة والاستنجاد بالترك والعثمانيين
- ص 338 نجدة العثمانيون ممبسة
- جهاد الامبراطورية العثمانية فى ساحل شرق افريقيا
- * مطاردة البرتغاليين وقيام دولة الوحدة العربية الافريقية الاولى
- * دولة الوحدة العربية الافريقية الثانية
- نبذة عن سعيد بن سلطان

الفصل الرابع المد الاسلامى فى ساحل شرق افريقيا بين القرنين 17 — 19

- حركة القبائل (الاعفار- الجالا- الصوماليون)
- مد الاسلام تحت الراية العثمانية فى افريقيا
- دور الطرق الصوفية فى دعم الاسلام
- جهاد الامام محمد عبدالله حسن فى نشر الاسلام ومواجهة التبشير (القرن 19)
- ص 344 الفصل الخامس حضارة الاسلام فى سلطنات ساحل البحر والهضبة وساحل شرق افريقيا
- ص 347 الفصل السادس الفتوح المصرية فى شرق افريقيا 1805 - 1896
- المد المصرى فى الحبشة (التصادم)
- مشروع بيسون
- مقدمات الحرب
- مصر ومنليك
- محاولات الصلح مقدمات الحرب
- الحرب بين مصر واثيوبيا
- معركة جورا (باريتريا المعاصرة)
- تراجع النفوذ المصرى فى شرق افريقيا وتقسيم المنطقة بين القوى الاستعمارية
- دور مصر الاسلامى والحضارى - تقويم عام .
- تقويم عام تحديات المد الاسلامى فى شرق افريقيا وموقف الحبشة من الاسلام
- ص 362 الفصل السابع تحديات المد الاسلامى فى شرق افريقيا
- موقف الحبشة من الاسلام
- التبشير الاوروبى جنوب الصحراء
- (نطاقى الوسط و الشرق)
- ص 410 الباب السابع روح مصر الافريقية
- الفصل الاول روح مصر الافريقية فى العصور القديمة
- الفصل الثانى البعدين الاسلامى والافريقى فى سياسة مصر فى العصر الحديث
- مصر وحركة القومية الافريقية فى مطلع القرن العشرون
- عن محمد دسوقى ونضاله السياسى

(محمد على دسوقى نبذه

- ص 416 الفصل الثالث - الروح الافريقية لثورة يوليو (الروح الافريقية فى فكر ثورة يوليو 1952)
- ص 412 - ص 433 والبعدين الاسلامى والافريقى فى سياستها الخارجية - من وثائق الثورة فلسفة الثورة لميثاق
- دوائر الحركة السياسية فى فكر الثورة
- الدائرة الاسلامية و التعاون الاسلامى ووضع الاقليات
- الاسيقيات بين الدوائر
- التوافق والتعارض فى حركة الدوائر الثلاث

- ضوابط الحركة على الدائرة الإسلامية فى إفريقيا
- صد 433 الفصل الرابع أجهزة خدمة البعد الإسلامى
- صد 369 الباب الثامن الفصل الاول البعد الدينى فى صراعات القارة النزعة الدينية فى الصراع
- النزعة الدينية فى خلفية صراعات القارة
- البعد الدينى لحركات الانفصال فى مناطق الإسلام
- امثلة تطبيقية لاهم الحركات الانفصالية بمناطق الإسلام التاريخية :
- الغرب الإفريقى نيجيريا
- طوارق مالى
- التعدد العرقى والحركات الانفصالية فى اثيوبيا - بناء اثيوبيا المتحدة
- العرقيات الاثيوبية وتشكيلتها العددية و الدينية
- إريتريا - العرقيات الصومالية و إقليم الأوجادين "الصومال الغربى- زنجبار
- الفصل الثانى اهم الحركات الانفصالية
- اولا :حركات حققت استقلالها اوتوازنها الوطنى
- جبهة تحرير شعب تيجري الجبهة الديمقراطية الثورية (مايو)
- ثانيا - حركات لم تحقق اهدافها و ما زال حلم الاستقلال يراودها
- جبهة تحرير أورو مو
- الجبهة الوطنية لتحرير أوغادين.
- حركة تحرير بنى شنقول
- حركة تحرير العفر
- ثالثا - انفصال جنوب السودان
- غوردون و جذور المشكلة
- الادارة الانجليزية وتكريس المشكلة
- التبشير والجنوب
- اثر الثورة المصرية على توجهات الجنوبيين
- الكنيسة الكاثوليكية و مساعدة التمرد
- تطور المنظور الانفصالى للحركة
- دور اسرائيل
- ظلال الدين فى الصراع
- اثار الانفصال على طرفى السودان
- صد 409 الخلاصة
- صد 439 الباب التاسع تحديات العمل الإسلامى والتعاون الإسلامى الإفريقى جنوب الصحراء
- الانقسامية بين شمال وجنوب الصحراء
- صد 447 دور الدول الإفريقية فى العمل الإسلامى دول الاغلبية المسلمة
- صد 449 خلاصات عامة
- صد 451 الخلاصة (تقويم عام)
- الملاحق الصور والخرائط

^١ (المقريزي: الإمام، صد 14، و فتحي غيث ، الإسلام والحبة عبر التاريخ ، ص 9-14.